د. عائض القرني



ملهم العالم

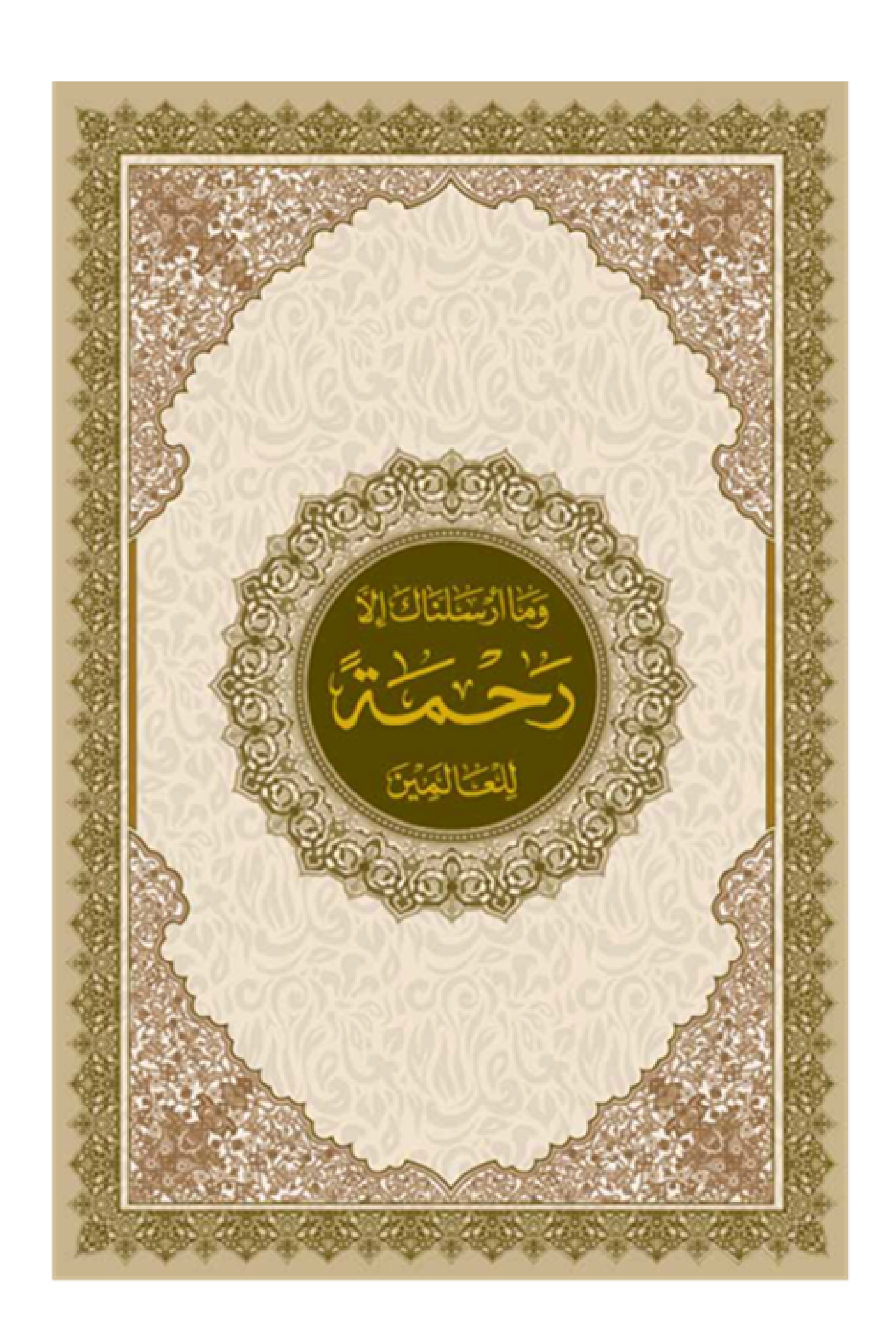
د. عائض القرني



مُلهِمُ العالمْ

[مكتبة الحبر الإلكتروني](#)
[مكتبة العرب الحصرية](#)


بسم الله الرحمن الرحيم


وما أرسلناك إلا
رحمة
للعالمين

مكتبة الرشد ، ١٤٤٣هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
القرني ، عائض عبدالله
ملهم العالم ، عائض عبدالله القرني/ الرياض- ١٤٤٢هـ
٧١٣ص ، ١٧×٢٤سم
ردمك : ٤ - ٣٦ - ٨٣٤٢ - ٦٠٣ - ٩٧٨

ردمك: ٤ - ٣٦ - ٨٣٤٢ - ٦٠٣ - ٩٧٨ رقم الإيداع ١٧٦ /١٤٤٣

مكتبة الرشد
RUSHD BOOKSTORE
1979 1399

المملكة العربية السعودية – الرياض
الإدارة: العليا فيو – طريق الملك فهد
: ١٧٥٢٢ الرياض ١١٤٩٤ :٠١١٤٦٠٤٨١٨ – :٠١١٤٦٠٢٤٩٧

@ALRUSHDBOOKSTORE
info@rushd.com.sa
www.rushd.com.sa

فروعنا داخل المملكة

المركز الرئيسي بالرياض: الدائري الغربي	: ٠٠٩٦٦٥٥٥٠٧٠٤٥٩
فرع التعاون بالرياض :	: ٠٠٩٦٦٥٠٠١٢٨١٩٢
فرع مكة المكرمة :	: ٠٠٩٦٦٥٠٠٢٨٦٤٣٩
فرع المدينة المنورة :	: ٠٠٩٦٦٥٠٠٣٢٧٠١٥
فرع جدة	: ٠٠٩٦٦٥٠٠٥٣٩٥٠٢
فرع القصيم :	: ٠٠٩٦٦٥٠٠٢٣٦٧٣٢
فرع خميس مشيط :	: ٠٠٩٦٦٥٠٠٢٥٢٤٩٣
فرع الدمام :	: ٠٠٩٦٦٥٠٠١٥٩٣٩٠
فرع حائل :	: ٠٠٩٦٦٥٠٠٣١٥٣٢٨
فرع الأحساء :	: ٠٠٩٦٦٥٥٩٤٦٧١٦٩
فرع تبوك:	: ٠٠٩٦٦٥٠٠٤٢٠٢٨٩
المستودع الرئيسي: الرياض	: ٠٠٩٦٦٥٠٠٢٤٢٠٧٥

فروعنا في الخارج

القاهرة	: ٠٠٢٠٢٣٣٧٢٨٩١١/٠٠٢٠٢٣٧٤٤٦٠٥

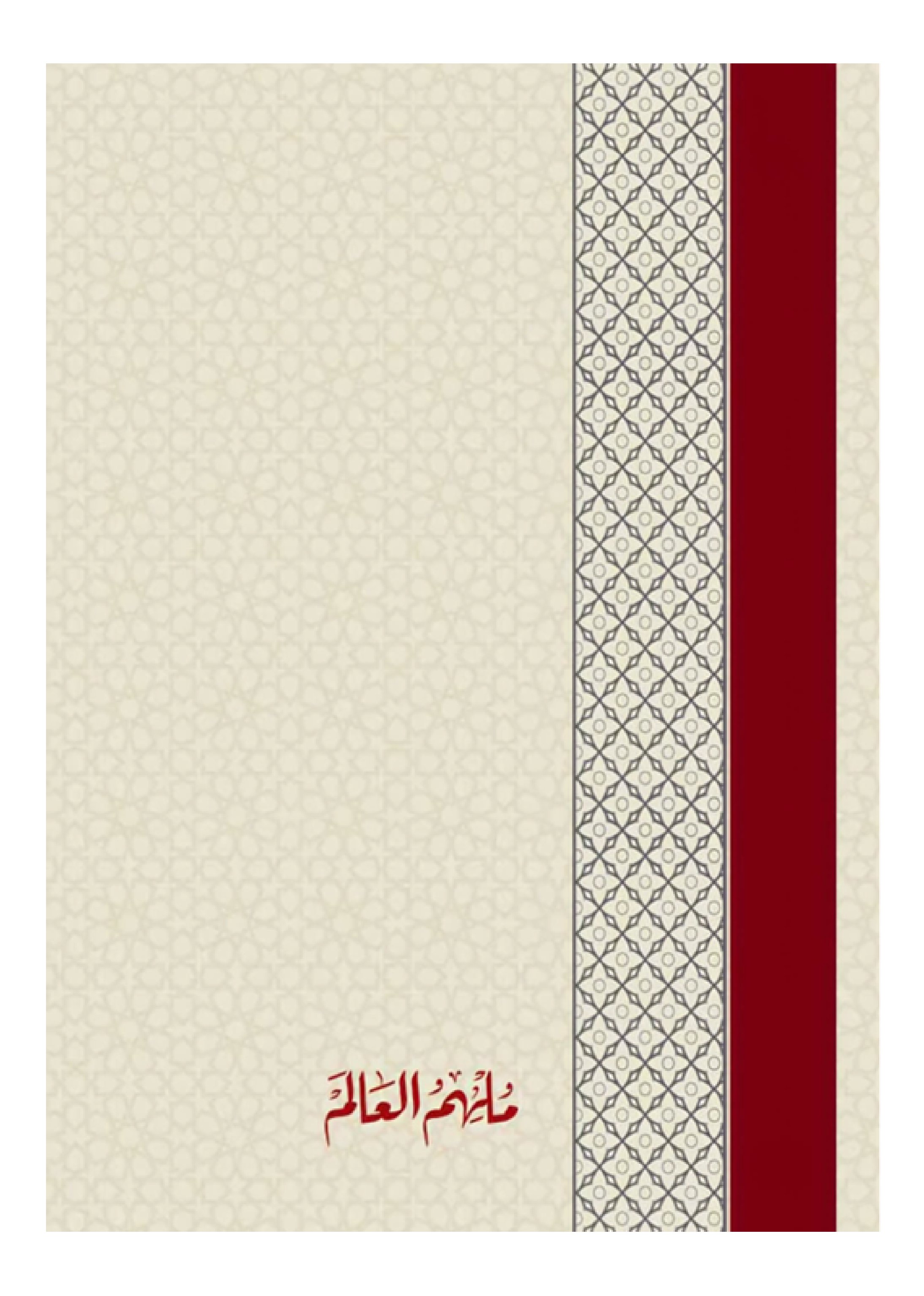


الفهرس

م	الموضوع	رقم الصفحة
1	الفهرس	5
2	المقدمة	7
3	مُحمدٌ ﷺ مُلّهِمًا	13
4	مُحمدٌ ﷺ يتيمًا	28
5	مُحمدٌ ﷺ نبيًا	38
6	مُحمدٌ ﷺ مُوحدًا	80
7	مُحمدٌ ﷺ مُهاجرًا	95
8	مُحمدٌ ﷺ عظيمًا	106
9	مُحمدٌ ﷺ رحيمًا	122
10	مُحمدٌ ﷺ حليمًا	135
11	مُحمدٌ ﷺ كريمًا	149
12	مُحمدٌ ﷺ مُتفائلًا	158
13	مُحمدٌ ﷺ راضيًا	175
14	مُحمدٌ ﷺ صابرًا	188
29	مُحمدٌ ﷺ داعيًا	404
30	مُحمدٌ ﷺ زاهدًا	415
31	مُحمدٌ ﷺ وفيًّا	423
32	مُحمدٌ ﷺ صادقًا	432
33	مُحمدٌ ﷺ أمينًا	440
34	مُحمدٌ ﷺ شجاعًا	449
35	مُحمدٌ ﷺ مُتواضعًا	456
36	مُحمدٌ ﷺ ضاحكًا	467
37	مُحمدٌ ﷺ باكيًا	473
38	مُحمدٌ ﷺ فصيحًا	479
39	مُحمدٌ ﷺ زوجًا	495
40	مُحمد ﷺ أبًا	504
41	مُحمد ﷺ عابدًا	513
42	مُحمدٌ ﷺ مُصلّيًا	521

م	العنوان	الصفحة
15	مُحمدٌ ﷺ شاكرًا	207
16	مُحمدٌ ﷺ ميسرًا	222
17	مُحمد ﷺ مُبشرًا	234
18	مُحمدٌ ﷺ محبوبًا	245
19	مُحمد ﷺ مُباركًا	261
20	مُحمدٌ ﷺ مُعلمًا	274
21	مُحمد ﷺ مصلحًا	300
22	مُحمدٌ ﷺ جميلًا	315
23	مُحمدٌ ﷺ فاتحًا	329
24	مُحمدٌ ﷺ ناجحًا	338
25	مُحمدٌ ﷺ محسنًا	348
26	مُحمدٌ ﷺ سعيدًا	361
27	مُحمدٌ ﷺ قائدًا	373
28	مُحمدٌ ﷺ عادلًا	388

م	العنوان	الصفحة
43	مُحمدٌ ﷺ مُتهجّدًا	537
44	مُحمدٌ ﷺ مُتصدقًا	546
45	مُحمد ﷺ صائمًا	556
46	مُحمدٌ ﷺ حاجًا	567
47	مُحمدٌ ﷺ تاليًا	580
48	مُحمدٌ ﷺ ذاكرًا	588
49	مُحمدٌ ﷺ مُسافرًا	629
50	مُحمدٌ ﷺ زائرًا	638
51	مُحمدٌ ﷺ مُناجيًا	648
52	مُحمدٌ ﷺ مُستغفرًا	663
53	مُحمدٌ ﷺ مُودِّعًا	675
54	صلوا عليه وسلّموا تسليمًا	690
55	قصيدة ملهم العالم	710
56	الخاتمة	713


مُلهِمُ العالَم





المقدمة

إِنَّ الَحمْد لله، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بالله مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ.

أَمَّا بعدُ: فمِنْ أمامِ الكعبةِ المشرّفةِ فِي المسجدِ الحرامِ، بعدَ صلاةِ الفجرِ أكتبُ هذِهِ الأسطرَ، ومَا توفيقِي إلا بالله عليه توكلتُ وإليهِ أُنيبُ.

آملُ بعونِ الله وتوفيقهِ أنْ يكونَ هذَا الكتابُ (**مُلهِمُ العَالَم**) نقلةً نوعيّةً فِي تقديمِ السّيرةِ النبّويَّةِ بطرحٍ يُميّزهُ الإبداعُ والإمتاعُ، والاتّباعُ لا الابتداعُ، والتَّجديدُ لا التّقليدُ، و أُريدُ فِي هذَا الكتابِ أنْ أُقررَ المقُرّرَ، و أَنْ أكرّرَ المكُرّرَ، لئلَّا يُقالَ: هذِه هديّتناَ عادتْ علينَاَ، وهَذِهِ بضِاعَتُناَ رُدَّتْ إِليْناَ، وقدِ ابتعدتُ عَنِ الرّواياتِ الواهيَاتِ، والأحَاديثِ الموضوعَاتِ، فإنَّ فِي الصّحيحِ مَا يكفِي، وَفِي السُنةِّ مَا يَشفِي.

إن من يكتب عن الرسول ﷺ ليس كمن يكتب عن عالِم أو فيلسوف أو مَلِك أو أمير أو وزير أو شاعر؛ لأن هؤلاء قد يُخطئون ويُصيبون، ويهتدون ويضلّون، وليس من شرط الكاتب أن يُوافقهم أو يُؤمن بأفكارهم، أمّا مَن يكتب عن محمد ابن عبدالله ﷺ فلابد أن يكون مُؤمناً برسالته، مُصدّقاً بنبوته، يكتب بقلم المتيّم بحُبّه، العاشق لسيرته، الهائم الذي يذوب شوقاً لأخباره ورؤيته:

أَرَقٌ علَى أَرَقٍ وَمِثلِي يَأرَقُ — وَجَوىً يَزِيدُ وَعبَرَةٌ تَتَرَقرَقُ

جُهدُ الصَبابَةِ أَن تَكونَ كَما أَرى — عَينٌ مُسهَّدَةٌ وَقَلبٌ يَخفِقُ

والكتاب عن حياة رسول الله ﷺ لابُد فيه من ثلاث قيم عظيمة، وثلاث سمات كريمة، وهي: أن تكون المعلومة صحيحة النقل ثابتة الحُجّة لتُصان من التُهمة والظنون، وتُحمى بسياج الأمانة والصدق، وأن تكون العبارة إذا سُطّرت أدبية، ساحرة، آسرة، يهتف لروعتها القلب، وتهشّ لجمالها النفس، وتطرب لحُسنها الأذن، فلا ركاكة، ولا تبذّل، ولا تقعّر، وأن يُصاحب ذلك حُسن استنباط للنص، وبراعة فقه، ودربة على الغوص في بحر السيرة لجلب أثمن الدُّرر الباهية، وأغلى الجواهر الثمينة، وبدون هذه القيم الثلاث تبقى الرسالة ناقصة، والمعلومة مبخوسة، والكتاب معلولاً.

مُلهمُ العالمِ: كتاب عشته كلمةً كلمة، وحرفاً حرفاً، ولم أجرح فيه أحداً لأُحبّب الخلق في خليل الحق، وجعلته مورداً زلالاً، وعذباً فراتاً، وعسلاً مُصفّى، وبرداً وسلاماً، والفضل لله وحده، له الحمد والثناء الحسن، تقبله الله مني بقبول حسن، وجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأقول لكل خليلٍ من الأحباب، وكل صديقٍ من الأصحاب؛ إذا قرأت هذا الكتاب ف {ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ} [ص: الآية 42].

مُلهمُ العالمِ: ليسَ فيهِ إعادةٌ لمَا كُتبَ فِي السّيرةِ، و تقليدٌ لمنْ سَبقنِي فِي هذِه المسِيرةِ، و جمعُ منقولاتٍ، و حشْدُ رِواياتٍ، بلْ تفقّهٌ واعتبارٌ، وتفكّرٌ فِي تلكَ الأخبارِ، وعَرضٌ لروحِ السّيرةِ، وربطُهَا بحياةِ الإنسانِ، وذلك بالغَوصِ فِي بحارهَا، ومحاولة اكتشَافِ أسرارِهَا، وإظهارِ أنوارِهَا، والاهْتمامِ بمقَاصدِهَا، وإبرازِ فرَائدِهَا، واسْتنباطِ فَوائِدهَا.

مُلهمُ العالمِ: ديوانُ سُنّةٍ، ومذكراتُ أُسوةٍ، ورِحلاتُ قُدوةٍ، ومنْهجُ حياةٍ، ودُستورُ أخلاقٍ، وقانونُ مُثلٍ، وميثاقُ شَرَفٍ، ودَعوةُ إنقاذٍ، ومشْروعُ إصْلاحٍ، ورِسالةُ توحيدٍ، وخِطَابُ تجديدٍ.

مُلهمُ العالمِ: قِصةُ نبيٍّ، وحكايةُ رسُولٍ، وسِيرةُ معْصومٍ، وسِجلٌّ حَافلٌ للرّحمةِ المُهداةِ، والنّعمةِ المُسداةِ، حيثُ الفُتوحَاتُ الرَّبّانيّةُ، والنّفحَاتُ النّبويَّةُ، والمُعجزةُ الكُبرى، والنّبأُ العظيمُ، والرِّسالةُ الخالدةُ الخاتِمةُ.

مُلهِمُ العالمِ: رحلةُ نصفِ قرنٍ، صحبتُ فيهَا المُلهمَ ﷺ ليلًا ونهارًا، حضرًا وسفرًا، سرًّا وجهرًا، شدّةً ورخاءً، عُسرًا ويُسرًا، فعشتُ معَ سُنَّتِهِ الزّكيّةِ، وسيرتِه العطرةِ النّديّة، ورأيتُ أنَّ زكاةَ النّصَابِ، ومَا أخذَه اللهُ عَلى أهلِ الكتابِ، أَنْ أقومَ بِواجبِ نشر سُنّتهِ، وبَثِّ شريعتهِ.

مُلهِمُ العالمِ: قد عشت نصف قرن مع سيرة رسول رب العالمين، أنهل مِنْ ذاكَ المَعينِ، جعلتُ حديثهُ لِي أنيسًا وهجّيرًا، ونهلتُ مِنْ مَوردِهِ {عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا} [الإنسان: الآية 6].

لقدْ أمهرتُ السُّنةَ جُفوني وأهديتُهَا سَهرِي وشُجُوني مَرةً تحضؤني الدّموعُ، ومرةً الهيبةُ والخُشُوعُ، وهذَا جَهْدُ المُقلّ، {فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ} [البقرة: الآية 265]، وَمَا أجملَ العُمرَ معَ النَّبيِّ المعْصُومِ ﷺ! فَسيرتُهُ تجلي الهمُومَ، وحديثُهُ يكشِفُ الغُمومَ، وأنفَاسُهُ الطّاهرةُ تُزْكينِي، وذِكرياتُهُ العامرةُ تُبكِينِي، ومَا كنتُ أظنُّ أنّ القلبَ يَبكِي قبلَ العَينِ حتَّى طَالعتُ سيرةَ سيِّدِ المُرسلِينَ ﷺ.

إنَّ حياةَ رسُولنَا ﷺ هِي الصّفحةُ البيضاءُ فِي هذَا العالمِ، وَهِي الشّجرةُ الخَضرَاءُ فِي الكَونِ، وَهِي النّهرُ العذبُ الزّلالُ فِي صَحرَاءِ الحياةِ، فيَا حسْرتاهُ عَلى كُلِّ دَقيقةٍ فَاتتْ فِي غيرِ دقائقِ أسرارهِ! ويَا أسَفاهُ عَلى كلّ نفَسٍ ذهبَ بِدونِ عِطرِ أخْبارهِ!.

تالله لسيرتُه قد جمّلت الوجودَ، وأنَارتِ الدّنيَا، وبَهَرتِ العالمَ، فهِيَ عصمةُ نبوّة، وجلالةُ رسالةٍ، وتعاليمُ فاتحٍ، وأخلاقُ إنسانٍ، وإنْجازُ قائدٍ، بِعثتهُ رحمةٌ، وحياتُهُ إلهام، ووُجودُه أمَانٌ، وأخْبارُه شَريعةٌ، وكلَامُهُ وحْيٌ.

هوَ للعدَالةِ عنْوانٌ، وللبيانِ ديوانٌ، هُو جامعةُ الإحْسانِ فِي دُنيَا الشُّحِّ، وهُو صرْحُ الحُبِّ فِي عَالمِ الجَفاءِ، طَهّر اللهُ المعمورةَ بالنّبيِّ المُختارِ، كَمَا طهّرَ الأرضَ بِالغيثِ المِدْرارِ، شَرفُ البشريّةِ أنَّ منَها مُحمدًا، وفخرُ الإنسانيّةِ أنَّ مِنْ بنيهَا أَحَمدا:

قدْ شرّفَ اللهُ أرضًا أنتَ سَاكِنُهَا   وشرّفَ النّاسَ إذْ سوّاكَ إنسانَا

إنْ كانَ أبوكَ هُو والدكَ الجُثماني، فَالرّسولُ ﷺ هُو والدُكَ الرّبّاني، وإنْ كانَ والدكَ أطعمكَ خبزًا، فإنَّ الرّسولَ ﷺ قدْ أطعمكَ منْ مائدةِ الوحْيِ عزًّا، وإنْ كانَ والدكَ كساكَ ثوبًا، فإنَّ مُعلّمَ الخير ﷺ كساكَ منْ رحمةِ الله ثوابًا، وإنْ كانْ والدكَ أسكنكَ بيتًا منْ حِجارةٍ وطِينٍ، فإنَّ رسولَ الهُدى ﷺ

بَشّرك بيتًا فِي الفردَوسِ بجوارِ ربِّ العالمينَ، وإنْ كانَ أبوكَ قدْ أرشدَكَ إِلَى كسبِ الدّرهمِ والدّينارِ، فإنَّ نبيّكَ ﷺ قدْ أرشدَكَ إِلَى هدايَةِ الغفّارِ، وفُتوحاتِ الواحدِ القهّارِ.

ولَقد زُرتُ فِي حَياتِي أكثرَ منْ مِئتَيْ مدينةٍ منْ مُدنِ العَالمِ، وشرّقتُ وغرّبتُ، وشَاهدتُ مدنَ الضّبابِ، وناطحَاتِ السّحابِ، ورأيتُ الحدائقَ الغنآءَ، والبساتينَ الفيحاءَ، والأنهارَ الجاريةَ، والبحارَ المائِجةَ؛ لكنَّ قلبِي يعلمُ اللهُ أنَّهُ يطوفُ فِي مَعاهدِ الرّسولِ عليهِ الصّلاةُ والسَّلامُ ودِيَارِهِ، ويَحنّ إلِى آثارِه، ويشتاق إلى أخباره، ويَطُوفُ بالبيتِ الذِي طافَ بِهِ، ويقفُ فِي المَقامِ الذِي وقفَ فيهِ، ويُعرّجُ عَلى الحَطِيمِ وزَمزَمَ، ويُحبّ جبلَ أُحدٍ الذِي أَحبَّه، ويَزُورُ بقيعَ الغَرقَدِ الذِي زارَه، ويُسلّمُ عليهِ فِي قبرِهِ بأبِي هُو وأمِّي، ويشتاقُ لرِوضتهِ وَمِنبرِهِ، فَقلبِي هائِمٌ بينَ مدينتَيْهِ ﷺ، مكةَ والمدينةَ:

كانَ لِي قلبٌ بِجَرْعَاءِ الحِمَى ضَاعَ منّي هلْ لهُ رَدٌّ عَلَيّ

فَاسألُوا سُكانَ وادِي سَلَم فهْو مَا بين كُدَاءٍ وكُدَي

فحقُّه ﷺ عَلى كلِّ تابعٍ مُحبٍّ، نُصرتُه باللّسانِ والسِّنانِ، والبرهان والبيانِ، فإنْ فاتنا أن نبكي خَلْفَهُ مُتهجّدين فلنُسِل دموعنا مُقتدين، وإنْ فاتتنَا صحبتُه ﷺ فلا ينبغي أن يَفوتَنَا نَشرُ سِيرتِهِ والاهتداءُ بسُنّتهِ، وإنْ فاتَنَا الذّبُّ عنْ منهجِهِ بالنّفوسِ، ذَببْنَا عنْهُ بالأقلامِ والطّروسِ، وإنْ لمْ نحضرْ معَهُ فِي بدرٍ وأحدٍ، حَضرنا بأرْواحنَا

مَعَ تراتيلِ: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} [الإخلاص: الآية 1]، وإنْ لمْ نشرف برفقتِهِ ﷺ فِي غَارِ حِراءٍ وثوْرٍ، فإنَّ دماءَنَا بِحُبّهِ تثورُ، وإنْ لمْ نكنْ معَهُ - بِأبِي هَو وأُمِّي – فِي عَريشِ بَدْرٍ، فلْنَبْنِ لهُ عريشَ حبٍّ فِي الصَّدرِ:

فِي كفكَ الشّهمِ منْ حبلِ الهُدى طرفٌ على الصّراطِ وفِي أرْواحِنَا طَرَفُ

فكنْ شَهيدًا على بيْعِ النّفوسِ فَمَا تَحْتوِي الضّمائِرُ منَّا فَوقَ مَا نَصِفُ

وَإنْ فَاتنَا أنّنَا مَا صَلينَا خَلفَهُ إمامًا فِي الصّلاةِ، فَقدْ جَعلنَاهُ لنَا إمامًا فِي الحَياةِ، وَإنْ لمْ نجلسْ معَهُ بالأشْباحِ، فقدْ جلسْنَا مَعَ حديثِهِ بالأرْوَاحِ، وإنْ لمْ نبْذُلْ فِي سبيلِ رسَالتِهِ المُهجَ، فقدْ ذببْنَا عَنْ ملّتِهِ بالحُججِ، وإنْ لمْ نحملْ مَعَ ابنِ مسعودٍ حذاءَهُ، ولمْ نجلسْ مَعَ أَبِي هريرةَ حِذاءَه، فسوفَ نحْملُ حديثَهُ فِي النَّوادِي، ونُبلّغُ دينَهُ للحواضِرِ والبَوَادِي، ونجْلسُ فِي حَضرة سُنَّتِهِ، ونقفُ تحتَ ب قْريِ ملّتِهِ، وإنْ لمْ نظفرْ بالقُعودِ معه فِي رَوضِهِ، فَعَسَى أنْ نشربَ مِنْ حَوضِهِ.

ولْنُحدّثْ أنفسنَا بمشهدِ اللّقيَا، ويومَ السّقيَا، ونسألْ أنفسنَا: أينُ نكونُ يومَ الشّفاعةِ؟، وبِمَاذَا نُلاقيهِ فِي تلكِ السّاعةِ؟، و تنْسَ أنْ تأتِي بالعلامةِ يومَ القيامةِ، وَهِيَ الغرّةُ والتّحْجيلُ، وقَدْ مُدِحنَا بِهَا فِي التّوراةِ والإنجيلِ.

فنسْألُ مَنْ شرّفنَا بنبوّتِه، وأكرَمنَا بِرسَالتِه، أنْ يَجعَلنَا مِنْ طائفتِه المنْصُورةِ، وفِرقَتِه النّاجيةِ المبرؤرَةِ، وعَزَاؤنَا إنْ لمْ نكنْ مِنَ المُهاجِرينَ أو الأنصَارِ، أنْ ننْشرَ بَزَّ نبوّتِهِ

فِي الأمْصَارِ، ونُرتّلَ أنْغَامَ الصلاَّةِ عليهِ عَلى مرِّ الأعصار، عَسَى اللهُ أنْ يُلبِّي أَمَلي

وَأَملَ كُلِّ مُسلمٍ ومُسلمةٍ فِي السّعادَةِ بِصُحبةِ نبيّهِ، والسّلامِ عليهِ، ومُصَافَحتِهِ فِي الفِرْدَوس الأَعْلى فَمَا بَعدَ هَذِه الأُمنيَةِ مِنْ أُمنيَةٍ، و فَوقَ هَذَا المَطْلَبِ مِنْ مَطْلَبٍ:

هِيَ الغَرَضُ الأَقْصَى وَرُؤيتُكَ المُنَى   وَمَنْزلكَ الدُّنيا، وَأنتَ الخَلائِقُ

شَفيعنَا أنّا شَهدنَا بِرسالتهِ ﷺ، وآمنَّا بدينهِ، واجْتهدنَا فِي اتّباعهِ فَصَلى اللهُ وسَلّمَ عليْهِ عدَدَ مَا ذَكَرَهُ الذّاكرونَ، وَصَلى اللهُ وسَلّمَ عليْهِ عددَ مَا غفلَ عنْ ذِكرِهِ الغافِلونَ، وَصَلى اللهُ وسَلّمَ عليْهِ فِي الأولينَ، وَصَلى اللهُ وسَلّمَ عليْهِ في الآخرينَ،

وَصَلى اللهُ وسَلّمَ عليْهِ صلاةً وسلامًا دائمينِ إلَى يومِ الدّينِ، وَصَلى اللهُ وسَلّمَ عليْهِ مَا تفتّحَ أقحوانٌ، ومَا فَاحَ ريْحانٌ، ومَا هَمعَ سَحابٌ، ومَا لمعَ سرابٌ، ومَا افْتُتحَ خطابٌ، ومَا تُلي كتابٌ، اللّهُمَّ أسعدنَا بِرؤيتِهِ، وشرّفنَا بِرفقتِهِ، واحْشرنا فِي زُمرتِه.

إنْ كانَ أحببتُ بعدَ الله مثلكَ في   بَدوٍ وحَضْرٍ وَفِي عُربٍ وفِي عَجَمِ

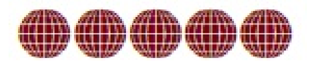
فلا اشْتَفَى نَاظِرِي مِنْ مَنْظرٍ حَسنٍ   و لا تَفَوَّه بِالقَوْلِ السَّديدِ فَمِي

محبكم

عائض بن عبدالله القرني

15/6/1442 هـ

27/1/2021 م





محمد ﷺ مُلهِماً

رسولُنا محمد ﷺ النّبي المعصوم، ألهمه الحيّ القيوم، فصار لأمته مُلهمًا، وللمؤمنين مُعلّمًا، سرت بركته في أتباعه إلى يوم الدّين، وبقدر اهتداء المسلم بهديه يترقّى في سُلّم المُقرّبين.

فكل مَن فُتح عليه في باب من أبواب الدّيانة، فذلك ببركة اتّباعه للنّبي الكريم ﷺ، وكل مُسلم فُتح له في بابٍ من أبواب العبادة، أو العلم الشّرعيِّ النّافع، أو أيّ فضيلة من الفضائل الدّينية، فمُلهمه في ذلك هو رسولنا ﷺ الذي أنزل عليه ربّه الوحيَ، فهو ﷺ مُلهم العلماء، والقرّاء، والفقهاء، والحكّام العدول، والمجاهدين، والمُنْفقين، والمُصلّين، والصائمين، فكلمة تصدر منه لأحدهم تبعث فيه روحًا من الأمل، والاستعداد، والموهبة بإذن الله، وموقف يظفر به صحابيّ من الرّسول ﷺ قد يغيّر حياته حتى يلقى ربّه؛ لأنّه ﷺ مُلهم الجميع ومصدر اليقظة والتّوقّد للكل.

فإن أردتَ أن تختصر حياة أبي بكر الصديق في عبارة ملهمة، موحية، مؤثرة مِن مُلهم العالم ﷺ اخترتَ قوله: «لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِن النّاسِ خَلِيلًا؛ لاتَّخَذْتُ أبا بكرٍ خَلِيل» [متفق عليه].

وهنا لا حديث ولا تعليق بعد هذه الومضة النّبويّة الشّريفة، فهو المُلهم والمحفّز لأبي بكر الصّديق في اصطناع المعروف، والمبادرة إلى أعمال البرّ، من هجرةٍ، وجهادٍ، وصدقةٍ، وصلاةٍ، وبرٍّ، وصلةٍ ...إلى آخر تلك الفضائل.

وفي صحيح مسلم أنّه ﷺ قال: «مَن أصبحَ منكم اليومَ صائمًا؟». قال أبو بكر: أنا، قال: «فمَن تبعَ منكم اليومَ جِنازَةً؟». قال أبو بكر: أنا، قال: «فمَن أطعمَ منكم اليومَ مسكينًا؟». قال أبو بكر: أنا، قال: «فمَن عادَ منكم اليومَ مريضًا؟». قال أبو بكر: أنا، فقال رسولُ الله ﷺ: «ما اجتمعنَ في امرئٍ

إلّا دخلَ الجنةَ». فدخول أبي بكر الصّديق الجنّة إنّما هو بسبب هداية رسول الهدى ﷺ له، وهذا إلهام ربّاني، وتوفيق إلهيّ.

وهذا عُمر بن الخطاب(رضي الله عنه) يبعث فيه رسول الله ﷺ البُشرى والأمل، ويسكب في قلبه -بإذن الله- اليقين، ويُرشده بقبسات مُضيئة، منها ما ورد في الصّحيحين عنه ﷺ، حيث رأى في المنام أنّه شرب لبنًا ثم أعطى فضلته عمر بن الخطاب، ففسره ﷺ بالعلم.

ورأى أيضًا في المنام أُناسًا عليهم قُمُصٍ، وعلى عُمر(رضي الله عنه) ثوب يجرّه، ففسّر ﷺ ذلك بالدّين. [متفق عليه]. ويقول له كلمةً صارت نبراسًا في حياة عمر، كما روي عند أبي داود والتّرمذي لمّا استأذنه عمرُ لأداء العُمرة: «لا تَنْسَنَا يا أخي من دعائك».

وهنا يقف عُمر مشدوهًا مذهولًا أمام هذه العبارة، يُكرّرها بتلذّذ واستمتاع، وحُبٍّ واحتفاء، ويقول عنها: كلمة ما يَسُرُّني أنّ لي بها الدّنيا.

فانظر إلى هذا الإلهام الذي جعل الفاروق ينطلق عادلًا في الحقّ، قويًّا في المنافحة عن الدّين، صارمًا في نصرة الملّة، ولو لم يلهمهُ مُعلّم الهُدَى ﷺ بإذن الله؛ لكان نسيًا منسيًّا في عالم الجاهليّة والوثنيّة.

وها هو ذو النّورين، عثمان بن عفان يأخذ إلهام البذل والعطاء من مُلهم العالَم ﷺ فيُجهّز جيش تبوك جُلّه، ويشتري بئر رُومَة ويُوقفها على المسلمين، ويقول له ﷺ كلمةً لو بحثتَ عن تاج لِتُلبسه عثمان بن عفان لما وجدتَ أشرف من هذه الكلمة تاجًا له، قال ﷺ: «ما ضرَّ عثمانَ ما عَمِلَ بعدَ اليومِ مرَّتينِ» [رواه الترمذي].

ماذا بقي من تشريف؟! وماذا بقي من تعريف بعد هذه الإضاءة النّبوية السّاطعة؟! ففضلُ عثمان إنّما هو قبسٌ من هديه عليه الصّلاة والسّلام.

ولو أتيتَ لسجل أبي الحسن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)، وأردت أن تختار له وسامًا مقدّسًا تضعه على صدره، لما وجدتَ أجمل من وسام النّبي المُلهم عليه الصّلاة والسّلام، حيث يقول عن علي (رضي الله عنه): «رجلٌ يُحِبُّ الله ورَسوله ويُحِبُّهُ الله ورَسولُهُ» [متفق عليه].

وكلّ أصحاب هذا النّبي ﷺ وأحباب وأتباعه رجا ونساءً إلى يوم يُبعثون إنّما يَشْرف الواحد منهم بقدر ما اقتَبس من هذا النّور الباهر، وبقدر ما اغتَرف من هذا النّهر العذب الزّلال.

وانظر إلى هذا التاج الذي يتوّجه الرّسول المُلهم ﷺ لعلي بن أبي طالب فيقول له: «أما تَرْضَى أنْ تَكُونَ مِنِّي بمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِن مُوسَى؟!» [متفق عليه]. فأيّ تحفيز وأيّ تشجيع وأيّ إلهام يبعثه هذا الإمام العظيم ﷺ في قلوب مُحبّيه وأتباعه؟!

وأمانة أبي عبيدة (رضي الله عنه) الذي قال عنه ﷺ: «لِكُلِّ أُمَّةٍ أمِينٌ، وأَمِينُ هذِه الأُمَّةِ أبو عُبَيْدَةَ بنُ الجَرّاحِ». [متفق عليه]؛ إنّما أخذ هذه الأمانة تعليمًا منه عليه الصّلاة والسّلام، فأفاضها الله على قلب هذا الصحابي الجليل، حتى صار مضرب المثل في الأمانة على مرّ الأجيال.

والرّسول ﷺ هو مُلهم عُلماء أُمّته إلى يوم الدين، وقدوتهم على مرّ التاريخ، وأوّلهم وسيّدهم مُعاذ بن جبل الذي قال عنه ﷺ: «أَعلم أمّتي بالحلال والحرام معاذ بن جبل» [رواه الترمذي]، فقد نهل من علم نبيّنا ﷺ، حيث أرشده لفهم النّص والفقه في الدّين.

وعبدالله بن عباس (رضي الله عنهما) حَبر الأمة، وبحرها، وترجمان القرآن، يأخذ إلهامه في التّفسير من الرّسول عليه الصّلاة والسّلام في ليلة مباركة؛ يوم بات عند النبي ﷺ وقرّب له ماء الوضوء، وهي أعظم ليلة في حياة ابن عباس بركةً وفتحًا، فقد دعا له ﷺ قائلًا: «اللّهم فقِّهْهُ في الدّين» [متفق عليه]. فكان أعظم مفسرٍ للقرآن حتى قيام الساعة.

وزيد بن ثابت (رضي الله عنه) إنّما أخذ إلهام علم الفرائض من الرّسول عليه الصلاة والسلام، وقد ورد عنه ﷺ أنّه قال: «أَفْرَضُكُمْ زَيْدٌ». [رواه التّرمذي]، فعِلم المواريث والفهم الدّقيق في تقسيم الفرائض لهذا الإمام الكبير زيد بن ثابت (رضي الله عنه) هو قطرة من بحر عِلمه عليه الصلاة والسلام.

وسيّد القراء أُبَي بن كعب (رضي الله عنه) إنّما أخذ هذا العلم الشّريف والتّخصص الجليل من تعليم النّبي ﷺ له، ففي «الصّحيحين» عن أنس بن مالك (رضي الله عنه) أنّ الرّسول ﷺ قال لأُبيّ (رضي الله عنه): «إنَّ الله أَمَر أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ القُرْآنَ»، قالَ أُبَيٌّ: آللهُ سَمّانِي لَكَ؟ قالَ: «اللهُ سَمّاكَ لي، فَجَعَلَ أُبَيٌّ يَبْكِي».

وسأله ﷺ ليثبت له التّخصص ويُعمّقَ الإلهام في نفسه كما في صحيح مسلم: «يَا أَبَا الْمُنْذِرِ، أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ الله مَعَكَ أَعْظَمُ؟». قال أُبَيّ: الله ورَسولُهُ أعْلَمُ، فقال ﷺ: «يا أبا المُنْذِرِ، أَتَدْرِي أيُّ آيَةٍ مِن كِتَابِ الله مَعَكَ أعْظَمُ؟» قال: {اللَّهُ لاَ إِلَهَ إلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ } [البقرة: الآية 255]، فضرب ﷺ في صدره (رضي الله عنه) وقال: «لِيَهْنِكَ العلمُ أبا المُنْذِرِ»، فكأنّه طابعُ النّبوة وَضعه على صدره؛ ليثير في نفسه الإلهام والاهتمام.

والرّسول ﷺ شحذ همة خالد بن الوليد (رضي الله عنه) وشجّعه على الانتصار للدّين والبطولة، فقال: «نِعمَ عبدُالله خالدُ بنُ الوليدِ، سيفٌ من سيوفِ الله» [رواه الترمذي]. فشجاعة خالد وإقدامه في نصـرة الحق، تلك الشجاعة الإيمانية الإسلامية، إنّما أخذها من بعض شجاعته عليه الصّلاة والسّلام.

وقد كان ﷺ يُحيي في كل فرد من أفراد صحابته ما يصلح له، ويناسب استعداده وموهبته؛ يأتيه حسّان بن ثابت الأنصاري (رضي الله عنه)، الشّاعر الكبير وهو لا يملك صناعة الحرف وتحبير القوافي، ونظم الشعر، فيقرّب له المنبر ويقول له ﷺ: «اهْجُهُمْ وجِبْرِيلُ معكَ» [متفق عليه]، ويقول ﷺ: «إنَّ رُوحَ القُدُسِ لا يَزالُ يُؤَيِّدُكَ، ما نافَحْتَ عَنِ الله ورَسولِهِ» [رواه مسلم]. فينطلق حسّان آخذاً الإلهام والتّشجيع من سيّد ولد آدم ﷺ، ويذبّ عن الملّة بشعره البديع الرّائع.

ولو أردت أن تصْطفي جائزةً لحسان بن ثابت شاعر الرّسالة؛ لما وجدت أغلى وأثمن من قول المُلهم ﷺ له: «اهْجُهُمْ وجِبْرِيلُ معكَ»، إنّه تكريمٌ فخم، وتشريف ضخم.

وهذا خطيب النّبيّ ﷺ ثابت بن قيس بن شمَّاس الأنصاري (رضي الله عنه) كان تميّزه وتخصّصه، وموهبته في الخطابة البليغة المتميّزة، فنصب له النّبيّ ﷺ المنبر وشحذ همّته وأرشده وأعانه على مصاولة الأقران في ميدان البيان، كما في السيرة النبوية لابن هشام.

وأبو موسى الأشعري (رضي الله عنه) كان يتميّز بالصّوت الجميل العذب، فيسكب ﷺ في روحه من إلهامه، ويشجّعه على التفرّد بهذا الصوت، والإبداع بالتّغنّي بكتاب الله ويقول له: «لقد أُوتيتَ مزمارًا من مزامير آل داود» [متفق عليه]، فصارت هذه الكلمة أعظم هدية يتلقّاها أبو موسى الأشعري (رضي الله عنه)، ومضـى إلى تلاوة القرآن وتجويده وتعليمه طيلة حياته.

وبلال بن رباح (رضي الله عنه) له صوتٌ بالأذان شجيٌّ، وكان يُحسن الحُدَاء - وهو النّشيد المُغنّى- فيرشده ﷺ، ويفيض عليه من بركة نبوّته، ويجعله مؤذّن الإسلام، ويبشّرهبقصرٍ في الجنة.

ولو أردت أن تقيم لبلال (رضي الله عنه) احتفاءً خَاصًا يحبّذه ويحبّه، لما وجدت أرفع من بشرى الرّسول المُلهم ﷺ لمّا قال له: «سَمِعْتُ دَفَّ نَعْلَيْكَ بيْنَ يَدَيَّ في الجَنَّةِ» [متفق عليه].

كانت أيُّ كلمةٍ، أو بسمةٍ، أو همسةٍ، أو لمسةٍ، أو موقفٍ إيجابي، أو هديةٍ، أو حديثٍ خاص، أو دعاءٍ، يكفي الصّحابيّ من الرسول ﷺ لينسى حياته، ومذكراته، وقصص عمره أمام هذا المشهد من النّبي عليه الصّلاة والسّلام؛ فهذا معمر بن عبدالله (رضي الله عنه) يُعرف بقصة عظيمة، وهي حلق رأس النّبيّ ﷺ في حجّه بعد رمي الجمرات بمنى [رواه أحمد]. فأخذ (رضي الله عنه) يتحدث بهذا الحديث، ويرحِّب به النّاس ويكرمونه، ويستعيدون منه الحديث، ويطلبون منه تكراره لطرافته وحسنه، ولأنّه مع أكرم خلق الله:

أعدْ ذكرَ نُعمانٍ لنَا إنّ ذِكره	كالمسكِ ما كرّرتَه يتضوّعُ

وهذا أبو ذر الغفاري (رضي الله عنه) يقول: «مَا لَقِيتُهُ ﷺ قَطُّ إلَّا صَافَحَنِي، وَبَعَثَ إلَيَّ يَوْمًا وَلَسْتُ فِي الْبَيْتِ، فَلَمَّا جِئْتُ أُخْبِرْتُ بِرَسُولِهِ فَأَتَيْتُهُ وَهُوَ عَلَى سَرِيرٍ لَهُ، فَالْتَزَمَنِي، فَكَانَتْ أَجْوَدَ وَأَجْوَدَ». [رواه أحمد]، فالتصاقُ جسد أبي ذر بجسد النّبيّ ﷺ أُمنيّة طامحة، وهديّة غالية على قلبه من الإمام الأعظم ﷺ.

وعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ (رضي الله عنه)، أَنَّ رَسُولَ ﷺ أَخَذَ بِيَدِهِ، وَقَالَ: «يا مُعاذُ، والله إنِّي لَأُحِبُّكَ، والله إنِّي لَأُحِبُّكَ»، فَقَالَ: «أُوصِيكَ يَا مُعاذُ لَا تَدَعَنَّ في دُبُرِ كُلِّ صلاةٍ تَقُولُ: اللَّهُم أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ، وحُسنِ عِبَادَتِكَ». [رواه أحمد وأبو داود]

وفي [صحيح البخاري] أن عبدالله بن عمر (رضي الله عنهما) قال: أخذ رَسُولُ الله ﷺ بمَنْكِبي، وقال: «كُنْ في الدّنيا كأنّكَ غريبٌ أو عابرُ سبيلٍ».

لكن عند ابن عمر «أخذ بمنكبي» لها معنى آخر غير ما يسمعه السامع، أو يقرؤه القارئ، إنّ «أخَذ بمنكبي» نهاية الإكرام وغاية اللّطف من الرّسول ﷺ عند ابن عمر (رضي الله عنه)، فظل يكررها مُتلذذًا حتى لقيَ ربّه.

وهذا الصّحابي عمرو بن تغلب (رضي الله عنه)، لا يُحفظ له عند النّاس إلّا حديث في «صحيح البخاري»، وهو أنّ النّبي ﷺ: «أَعْطَى قَوْمًا ومَنَعَ آخَرِينَ، فَكَأَنّهُمْ عَتَبُوا عليه، فَقَالَ: إنّي أُعْطِي قَوْمًا أخَافُ ظَلَعَهُمْ وجَزَعَهُمْ، وأَكِلُ أقْوَامًا إلى ما جَعَلَ اللهُ في قُلُوبِهِمْ مِنَ الخَيْرِ والغِنَى، منهمْ عَمْرُو بنُ تَغْلِبَ»، يقولها ﷺ له أمام النّاس في كلمة عامة في المسجد، فينسى عمرو بن تغلب الدّنيا وما فيها، وينسى البشر، ويقول معلقًا مسرورًا: «ما أُحِبُّ أنَّ لي بكَلِمَةِ رَسولِ الله ﷺ حُمْرَ النَّعَمِ»، ويا لها من كلمة عظيمة ومن موقف لم ينسه عمرو بن تَغْلِب حتى لقي ربّه!

وقوله ﷺ للحسن بن علي (رضي الله عنهما): «إِنَّ ابنِي هذا سَيِّدٌ، وَلَعَلَّ الله أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ» [رواه البخاري]. فتبقى هذه الكلمة نبراسًا للحسن بن علي (رضي الله عنه) حتى يقوم بتنفيذها في حقن الدّماء بين جيشه وجيش معاوية (رضي الله عنه)، فتظهردلائل نبوّته ﷺ في إلهامه لهذا الابن الكريم.

وجرير بن عبدالله سيد بجيلة (رضي الله عنه) يقول: «ما رآني ﷺ إلّا تبسّم في وجهي» [متفق عليه].

فكم قيمة هذه البسمة عند جرير؟! وكم هو في غاية الامتنان، وغاية الحُبور لهذه البسمة الآسرة السّاحرة التي وصلت إلى أعماق قلبه؟! يقولها بانتشاء؛ لأنّ المُلهم ﷺ أرسلها مقصودة لجرير البطل سيّد قومه، فأسره من أوّل لحظة، وطبعه بطابع البسمة الرّائقة الرّائعة التي طُبعت على لوح قلبه.

وربيعة بن كعب الأسلمي (رضي الله عنه) كان أشرفَ حديث له، وأشرف مناسبة عاشها حين قال له الرّسول ﷺ في ليلة مباركة: «ألك حاجة؟» قال: مرافقتك في الجنّة، قال: «أوَ غير ذلك؟» قال: هو ذاك، قال: «فَأَعِنِّي على نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ» [رواه مسلم].

تلك الجملة هي أجمل ما سمعه ربيعة في عمره، وأجلّ ساعة في حياته، يرويها ولا يروي ما قبلها ولا ما بعدها من الأحداث اليومية التي مرّت به في حياته، بل انغمس في هذه المناسبة النّبوية المباركة وهو في غاية الفرح والسّرور.

وفي التّرمذي نجدُ حديث عبدالله بن بُسْر - (رضي الله عنهما)- عن الشّيخ الكبير الذي وفد إلى النّبيّ ﷺ فقال له: «إنّ شرائع الإسلام قد كثرت عليّ فأخبرني بشيء أتشبّث به»، قال: «لا يزال

لسانك رطبًا من ذكر الله».

فهذا الشّيخ المُسن لزم هذه الكلمة المُلهمة من إمام الإلهام، وصارت هي ذكراه الجميلة في حياته، حتى أنسته كلّ الوصايا والنّصائح التي سمعها من القبائل والأسر والعشائر؛ لأنّ هذه النّصيحة نبويةٌ مصدرها الوحي السّماوي، فصار يمتثل هذه الوصيّة في حياته، وصارت له منهجًا فيما بقي من عمره.

وعمرو بن العاص (رضي الله عنه) تأخّر إسلامه، ثم قدم إلى النّبيّ ﷺ فلما جلس بين يديه قال: «ابْسُطْ يَمِينَكَ فَلأُبايِعْكَ، فَبَسَطَ يَمِينَهُ، قالَ: فَقَبَضْتُ يَدِي، قالَ: ما لكَ يا عَمْرُو؟، قالَ: قُلتُ: أرَدْتُ أنْ أشْتَرِطَ، قالَ: تَشْتَرِطُ بماذا؟، قُلتُ: أنْ يُغْفَرَ لي، قالَ: أما عَلِمْتَ أنَّ الإسْلامَ يَهْدِمُ ما كانَ قَبْلَهُ؟، وأنَّ الهِجْرَةَ تَهْدِمُ ما كانَ قَبْلَها؟» [رواه مسلم]. وهذه الكلمة والمناسبة يذكرها عمرو بن العاص طيلة حياته، حتى في سكرات الموت كما في الحديث السابق؛ لأنّها لفتة من خاتم المرسلين، وسيد النّاس أجمعين، ونفحةُ إلهامٍ يرسلها ﷺ بُشرى في وجه عمرو، في أوّل لقاء بعد إسلامه، فأيُّ إلهام وتشجيع وتحفيز أعظم من هذا؟!

إنّ من عظمة إلهام هذا النّبيّ الملهم عليه الصّلاة والسّلام أنّ الصّحابة الذين عاشوا معه يعرفون من دقائق حياته ﷺ وتفاصيل سيرته، وخصائص شمائله، وأوصاف حياته اليومية ما لا يعرفونه عن آبائهم الذين هم من أصلابهم، ولا عن أمهاتهم اللائي ولدنهم، ولا عن أطفالهم الذين ربّوهم، ولا عن أزواجهم اللاتي عاشروهنّ، فكأنّ الحياة عندهم اخْتُصرت فقط في حياتهم مع النّبيّ عليه الصّلاة والسّلام؛ لأن اهتمام الواحد منهم بحياة النّبي، بصلاته، وصيامه، ولباسه، ونومه، وكلامه، ورضاه، وغضبه، وجِدّه، ومزحه؛ طريقه إلى الجنّة، أما اهتمامه بمن حوله من الآباء والأمهات، والأبناء والبنات، والإخوان والزّوجات، فهذا أمر عادي يمر بكل البشر على اختلاف أديانهم ولغاتهم وألوانهم.

إنّ من قوة إلهامه ﷺ لأصحابه أنّهم وردوا الموت بين يديه مستبسلين، فرحين مسرورين؛ لأنّه غرس فيهم حبّ الله وحبّ رسوله، وطلب الفردوس الأعلى، وكانوا يرون في ملابسة النّبيّ ﷺ، ومصاحبته، والتّبرك بكلامه وآثاره، أغلى أمنياتهم في هذه الحياة، وغاية سعادتهم وسرورهم طيلة أعمارهم، فكانوا يحرصون على كل كلمة، وعلى كل التفاتة، وكل لحظة، وكل لفظة؛ لأنّهم جعلوا

هذا النّبي الكريم ﷺ إمامهم وقدوتهم في الحياة، وأسوتهم التي لا يحصل لهم فلاح، ولا نجاح، ولا صلاح، إلّا بالاهتداء بهديه، والاستضاءة بنور نبوته.

وإذا كنا نحن بعد أربعة عشر قرنًا نشتاق غاية الشّوق، ونتمنى غاية الأمنية، ونحِنُّ لرؤيته ﷺ، وصحبته، وسماع حديثه، وحضور مجالسه، حتى يغلبنا البكاء، ويشهد الدّمع على ما نقول، فكيف بمن عاشره، ورآه، وأحبه، وآمن به، وسعد بصحبته، وأنس بمرافقته؟ فنسأل الذي أسعدهم بهذه الرّفقة أن يُسعدنا برفقته ﷺ في الفردوس الأعلى:

أَرواحُنا سَافَرتْ للخلدِ في ألَقٍ	من نور هديكَ يَحدُونا ويَهْدِينَا
(إن كانَ قد عَزّ فِي الدّنيا اللّقاءُ بكمْ	في جنّة الخلد نَلقاكُم ويكفينَا)

إنّ قومًا أحبُّوا النّبيّ ﷺ لمغبطون، وإنّ صحبًا ناصروه لمشكورون، وإن أناسًا عشقوا مبادئه لمأجورون، ولهذا لا تتعجّب أن يضعوا نحورهم دون نحره وقت المصاولة في ميادين الاستبسال، ولا تستغرب أن يعرضوا صدورهم دون صدره وقت النّزال ومصاولة الأبطال، فلم يُوجد عبر صفحات الزّمن قومٌ أحبوا إمامهم ورئيسهم، وزعيمهم وقدوتهم كما أحبَّ أصحاب محمد ﷺ محمدًا.

يقول عروة بن مسعود الثّقفي لقريش في الحديث الصحيح- وقد وفد على النّبي ﷺ يوم الحديبية في المفاوضة وطلب الصلح: «والله لقَدْ وفَدْتُ علَى المُلُوكِ، ووَفَدْتُ علَى قَيْصَرَ، وكِسْرَى، والنَّجَاشِيِّ، والله إنْ رَأَيْتُ مَلِكًا قَطُّ يُعَظِّمُهُ أصْحَابُهُ ما يُعَظِّمُ أصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ مُحَمَّدًا؛ والله إنْ تَنَخَّمَ نُخَامَةً إلَّا وقَعَتْ في كَفِّ رَجُلٍ منهمْ، فَدَلَكَ بهَا وجْهَهُ وجِلْدَهُ، وإذَا أمَرَهُمُ ابْتَدَرُوا أمْرَهُ، وإذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ علَى وَضُوئِهِ، وإذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، وما يُحِدُّونَ إلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا لَهُ». [رواه البخاري]

طوبى للصّحابة الأبرار، وهنيئًا لهم نعمة مُصاحبة النّبي المختار ﷺ، فقد ملأ نفوسهم عِلمًا، وحبًا، وبشرى، وبردًا، وسلامًا، ويقينًا، وإخلاصًا، وإنابة.

وقد كان الصّحابي يعبر عن هذه الذكريات والمواقف الجليلة والأمنيات الجميلة، مرة بدموعه، ومرة بزفراته، ومرة بالبكاء إلى درجة النّشيج كما حصل لكثير منهم، وهم في غاية الحب

له ﷺ، حبًا أسر قلوبهم وجعلهم يقدمونه على نفوسهم، وآبائهم، وأمهاتهم، وأبنائهم، وزوجاتهم، وهذا هو الواجب على كل مُسلم ومُسلمة.

وتستمر بركته وإلهامه ﷺ لأتباعه إلى يوم الدين، وبقدر اقتفائهم لسنّته واتباعهم لهديه تكون هدايتهم واستقامتهم وإلهامهم، فالأئمة الكبار عبر التاريخ الإسلامي إنّما أخذوا هذا الرّشد، والفهم، والمكانة، من بركة اتّباعه عليه الصلاة والسلام والاتّساء به، فسعيد بن المسيب، والحسن البصري، والزهري، وعمر بن عبدالعزيز، وغيرهم من أئمة التابعين إنّما صاروا نجومًا وأعلامًا في سماء الرّبانية؛ بسبب طلبهم لهديه ﷺ والعمل بسنّته، والإمام أبو حنيفة إنّما أخذ مكانةً في الأمة ودقّة في الفهم؛ لأنّه أخذ جانبًا من هذا الميراث النّبوي المبارك، والإمام مالك إنّما صار نجم العلماء وإمام دار الهجرة؛ لأنّه نثل من تركته ﷺ واستضاء بنوره وهُداه، والإمام الشّافعي صار عَلَمًا في الفهم وقوة الاستنباط وحسن التأصيل ببركة ركوبه في سفينة سيد الخلق ﷺ. والإمام أحمد بن حنبل إمام أهل السنة والجماعة إنّما صار مرجعية في هذا الباب وبيرقًا منصوبًا للصالحين المقتفين للأثر النّبوي؛ بفضل حرصه على حديثه ﷺ والتّسنن بسنّته ﷺ. وقس على ذلك كلّ علماء الإسلام وأئمة الدّين، والصالحين، والعابدين، والمجاهدين، والمُنفقين، والمخلصين، إلى أن نلقى رب العالمين.

إنّ جميع المُلهمين في العالم سوى نبيّنا ﷺ من زعماء، وعباقرة، وفاتحين، ومُجددين، ومُبدعين، ومُخترعين، ومُكتشفين.. لهم إلهام خاص في باب خاص، لكنّه إلهام محدود، ومؤقت، ودنيوي، أمّا النّبيّ ﷺ فإلهامه ربّاني من عند إلهه وخالقه، وهو إلهام عامٌّ شامل، وإلهام في كل مناحي الحياة، وكل مجالات الدّنيا بأسرها، وإلهام يناسب كل الناس على اختلاف تخصصاتهم ومواهبهم ووظائفهم؛ لأنّه كما قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ} [الأنبياء: الآية 107].

إنّ أي ملهم في العالم له وعليه، تأخذ منه وتترك، لا يخلو مع نجاحه من إخفاق، ومع تفرّده من ملاحظات، ومع تميزه من سقطات، إلّا سيد ولد آدم محمد بن عبدالله ﷺ، فإنّه الكمال كله، والطُهر أجمعه، والفضيلة أولها وآخرها؛ لأنّه نبي معصوم ألهمه ربّه رشده وكفى.

إن عجبي لا ينتهي من مسلم يغرق في دراسة تفاصيل حياة شخصياتٍ، أو الكتابة عن دقائق أوصاف البلدان، والقبائل، والرحلات، والمذكرات، وهو لا يعرف كيف يؤدي صلاةً شرعية سُنّية مقبولة.

وعجبي ممن يهيم بالأشعار والأخبار، فيتفنن في تفاصيل تفاصيلها، ويبحر في مفرداتها، ويسافر في جزئياتها، ويقضي عمره في التّمعن في ميراث البشر، وهو لا يعرف الأذكار والأدعية في عبادته، ولا صفة وضوء نبيّه ﷺ، ولا يعرف هديه ﷺ في الحج، ولا طريقته في النّوم، ولا سُنّته في اللّباس والطّعام، مع العلم أنّ هذه التخصصات الدّنيوية قصيرة محدودة قد كتب فيها ألوف البشر، وكل أمّة تكتب - مؤمنها وكافرها- في مثل هذه الأحداث والوقائع، لكن أن تأتي إلى سيرة نبي مرسل من عند الله، هو سبب سعادتك وهدايتك بعد توفيق الله، وهو القائد لك إلى جنّات النعيم، وبسبب اتّباعه تنجو من عذاب الجحيم، ثم تهمل هذا الواجب الشّرعي الإيماني، وتهجر هذا المورد المبارك بحجج واهية من زعم التخصص والموهبة؛ فإنّ هذا أمر عجيب غريب.

إنّني لا أَحدُّ ولا أمنع أن يتخصص الناس في مناحي الحياة وأساليب العيش ومختلف طرق الحضارة، فهذا من سُنّة الله التي أوجدها في الأرض لعباده، لكن أن ينهمك ويستغرق في التخصص إلى درجة أن يعمى عن ميراث محمد ﷺ، وعن نوره، وبركة هدايته، والاهتداء بسنّته، وعن معرفة ما يجب عليه في دينه خلال أربع وعشرين ساعة من ليله ونهاره، إنّ هذا هو الأمر المفزع المخيف.

لقد طالعتُ ما كتبه ابن إسحاق، وابن هشام،، والذهبي، وابن القيم، وابن كثير وغيرهم كثير، وقبلَ ذلك كتب السنة: الصحاح، والمسانيد، والمعاجم والأجزاء؛ فخرجت بنتيجةِ أنّ كل نجاح دينيٍّ أو علميٍّ شرعيٍّ حصل لي أو لغيري من المسلمين والمسلمات فإنّما هو ببركة اتّباعه ﷺ، وعلى قدر اتّباعك له والإيمان به والاهتداء بهداه يلهمك الله عن طريق هذا الإمام، ويهدِيك سواء السّبيل، ويفيض عليك من بركات اتّباعه، ومن فتوحات الاهتداء بهديه، ثم إنّه مع هذا الإلهام الذي أقرؤه كل يوم، أَكتشف في كل لحظة معلومةً جديدة، وفهمًا آخر لسيرته وسنته لم يسبق أنْ عرفته من قبل.

وها أنا أكتب هذا الحديث في الستين من عمري، وأنا منذ الابتدائي أرسم اسمه ﷺ على شغاف قلبي، وألفظ كلماته المباركة بلساني، فاكتشفت مع مرور الأيام والليالي كنوزًا غالية ثمينة نفيسة جديدة لم أكن أعلمها من قبل، وأسأل العلماء عن هذا الشعور فيخبرونني أنّهم يعيشونه كذلك، حتى قال لي أحدهم: ولو جاوزتَ التسعين من عمرك فسوف تعلم عنه وتفهم عنه ﷺ ما لم تكن تعلم ولا تفهم من قبل ذلك، بل أقول: لو عشتُ أنا وأنت عمرَ نوح نُكرّر حديثه، ونُطالع سنّته، ونستكشف سيرته، لعثرنا على مناجِمَ من الفهم المبارك، والعلم النافع، والتراث المجيد، والتركة العامرة في كل يوم ما لم نعثر عليه في الأيام السابقة.

فكيف ننسى هذا المُلهِم العظيم ﷺ وهو معنا؟ كيف يغيب عنا وهو أمام أبصارنا؟ كيف نفقد ذكراه وهو حاضر معنا في صلاتنا؟ يقول ﷺ: «صلوا كما رأيتموني أصلي» [رواه البخاري]، نحجّ فكأنّه يقود الجموع في المناسك والمشاعر المقدسة وهو يقول ويلهمنا ويهيب بنا: «لِتَأْخُذُوا مَنَاسِكَكُمْ» [رواه مسلم]، نعيش حياتنا، ونزاول أعمالنا، ونمارس تجارتنا وزراعتنا، فكأنّه يلهمنا بصوته العذب المبارك، ويناديبنا، ويشعل في ضمائرنا الهمم، ويوقد في قلوبنا العزائم، وهو يقول: «مَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي» [متفق عليه].

كيف يغيب حبيبنا الملهم ﷺ عن أرواحنا!؟.. ونحن نتوضَّأ ونتذكّره ونهتدي بهديه، ونتناول السواك فإذا هو معنا بحديثه، وندنو من الطعام فنتذكَّر سنّته في الأكل والشّرب، ونأتي للنّوم فيحضر معنا بتعاليمه ودعائه عند النّوم.

يقول الشاعر:

تُعاودني ذكراكَ كلّ عشيّةٍ ... ويُورق فكري حين فيك أفكّرُ

أحبّكَ لا تفسير عندي لصَبْوتي ... أفسّر ماذا؟ والهوى لا يفسَّرُ

تذوبُ شخوص النّاس في كل لحظة ... وفي كل يوم أنتَ في القلبِ تكبرُ

أتسأل عن أعمارنَا أنتَ عمرنَا ... وأنتَ لنا التّاريخ أنت المحرّرُ

إنّ رسولنا ﷺ هو الأوّل في العالم الذي يقرأ شخصية من يأتيه يستوصيه، فيعلم بإفهام الله، وإلهام الله له موهبةَ هذا السائل، وماذا يصلح له، فأحدهم يقول له قُل في صلاتك: «اللّهم إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني إنّك أنت الغفور الرّحيم». [متفق عليه]، وثانٍ يستوصيه فيقول: «لا يزال لسانك رطبًا بذكر الله». [رواه الترمذي]، وثالث يقول له: «لا تغضب» ثلاثًا. [رواه البخاري]، ورابع يقول له: «عليك بالصّوم فإنّه لا عدل له». [رواه النسائي]، وخامس يقول له: «كفَّ عليك هذا» ويشير إلى لسان نفسه. [رواه الترمذي]، وسادس يقول له: قل: «اللهم اهدني وسدّدني». [رواه مسلم]، وسابع يقول له: قل: «اللهم ألهمني رُشدي، وأعذني من شرّ نفسي». [رواه الترمذي]، وثامن يقول له: قل في دُبر كل صلاة: «اللّهم أعنّي على ذكرك وشكرك وحُسن عبادتك». [رواه أبو داود]، وتاسع يسأل النّبيﷺمرافقته في الجنة

فيقول: «أعني على نفسك بكثر السجود» [رواه مسلم]. وعاشر يقول له: «سلْ الله العفو والعافية» [رواه أحمد]... إلى آخر تلك القائمة.

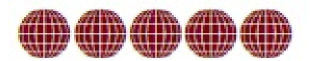
فكان يعطي كل سائل ما يصلح له، كما يعطي الطّبيب الماهر الحاذق كل مريض ما يناسبه من دواء، لكنَّ دواءَه ﷺ أغلى وأثمن وأنفس؛ لأنّه دواء ربّاني إلهي نبويّ، تستشفي به من كل علّة، ويوصلك إلى الرّاحة الأبديّة، والحياة السّرمدية، في الفردوس الأعلى.

لن تسعد بهذا الإلهام حتى تعتقد صدقه ونبوّته ﷺ، وتصدّق خبره، وتهتدي بسنّته، وتأتمر بأمره، وتحكّمه في كل شأن من شؤون حياتك جلّ أو دقَّ، كبر أو صغر، تجعله نصب عينيك في عبادتك، وطعامك، وشرابك، ومشيك، وحديثك، وحلّك، وترحالك، وخوفك، وأمنك، ورضاك، وغضبك؛ لأنّ الله نصّبه دليلًا للهداية، وإمامًا للحق، وقائدًا إلى الجنة.

وعلى أيّ تخصص كان لديك أو أي موهبة عندك؛ فإنّك تجد في سيرته ﷺ ما يلهمك في حياتك، فإن كنت رئيسًا، أو مديرًا، أو أميرًا، أو وزيرًا؛ وجدتَ في سيرته ما يُناسب الإلهام للقيادة، وإدارة الناس، وإصلاح أمورهم، وإن كنتَ عالمًا، أو فقيهًا، أو قاضيًا، أو مفتيًا، أو خطيبًا، أو واعظًا؛ وجدتَ الإلهام في سنّته ﷺ، فأمامك المنبع المَعِينُ، والنَّمير الصافي، والعذب الزلال: {ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ} [ص: الآية 42]، وإن كنت عابدًا مُصلّيًا أو صائمًا أو ذاكرًا أو تاليًا أو مُتصدقًا، فإنّك ستعثر على الإلهام مُباشرة من ميراثه عليه الصلاة والسّلام، من حديثه، من خطبه، من قصصه، من نصائحه، من وصاياه، وأولها الكتاب المبارك الذي أُنزل عليه.

وإن كنتَ زوجًا، أو والدًا، أو صديقًا، أو أخًا، أو صاحبًا؛ فسوف تظفر بمطلوبك الذي تحتاج إليه من إلهامه لك ﷺ عبر تركته المباركة التي تمنحك الإلهام فيما تحتاج إليه في وظيفتك التي تقوم بها، وما يجب عليك أن تؤدّيه في حياتك، أقول:

وأتيتَ يا قلبي المَشوق مُهاجرًا	حُبًّا لطيبة أو رُبى أمّ القرَى
لو تستطيع الرّوح من فرط الهوى	هبطتْ إلى البيدا فقبَّلت الثّرَى
صلّى عليك الله ما نجم بَدَا	أو غرّد القُمريّ أو دمع جرَى
وعليكَ من ربّي السّلام مُرتّلًا	ومُحبّرًا ومُسطّرًا ومُعطّرًا







محمد ﷺ يتيماً

بدأت رحلة المُعاناة والدّموع والآلام واليُتم مع الرّسول ﷺ مُبكرًا وهو حمل في بطن أمّه، ولك أن تتصوّر موت أبيه وهو لا يزال جنينًا، لم يَسمع من أبيه كلمة: (يا بُني) ولم يسعد هو بنطق: (يا أبتي)، ولم يحظ بضمّة أو بسمة أو قُبلة من أبيه، وهذا أعظم اليُتم وأشدّه وأمرّه.

فقدَ ﷺ أباه لما كان أبوه مُسافرًا إلى أخواله بني النّجار في المدينة المنوّرة، فمرض عندهم ومات هناك، ومن لُطف تقدير الله أن يكون أخوال أبيه من بني النّجار، فهم أنصاره ﷺ فيما بعد.

وُلد عليه الصّلاة والسّلام يتيم الأب، فكفلته أمّه، ثم سلّمته لحليمة السّعدية المُرضعة؛ لأنّ العرب وقتها اعتادوا دفعَ أولادهم عند ولادتهم إلى مرضعات يعشنَ في البادية؛ لكي تقوى أجسادهم، ويتعلّموا الفصاحة هناك، ويبتعدوا عن الأمراض المُنتشرة في الحواضر.

فيذهب ﷺ مع حليمة السعدية متوجهًا إلى ديار بني سعد، بلا أبٍ، ولا أمٍ، ولا أُسرة، يذهب هذا الطّفل الرّضيع فريدًا وحيدًا يتيمًا غريبًا، تحمله دابة عجفاء هزيلة، لكن البركة تُصاحبه في أيّ منزل ينزله، وأيّ مَحلٍ يسكنه. بقيَ ﷺ فترة رَضاعه هناك فزادت الخيرات بعد وصوله، وكثرت الأمطار، وصلح حال بني سعدٍ الذين نزل عندهم ﷺ، كما قيل:

تجلى مَولِدُ الهادي وَعَمَّتْ	بَشائِرُهُ البَوادي وَالقِصابا
وَأَسدَتْ لِلبَرِيَّةِ بِنتُ وَهبٍ	يَدًا بَيضاءَ طَوَّقَتِ الرِّقابا
لَقَد وَضَعَتهُ وَهّاجًا مُنيرًا	كما تَلِدُ السَّماواتُ الشِّهابا

فَقامَ علَى سماءِ البَيتِ نورًا يضُيءُ جِبالَ مَكَّةَ وَالنِّقابَا

وَضاعَت يَثرِبُ الفَيحاءُ مِسكًا وَفاحَ القاعُ أَرجاءً وَطابَا

ولمّا بلغ ﷺ السّادسة من عمره أرادت أمّه الوفيّة آمنة بنت وهب زيارة قبر أبيه في المدينة، فأخذت طفلها اليتيم محمدًا ﷺ والحاضنة أمّ أيمن رضي الله عنها، وعبروا الصّحراء في مسافة تُقارب ثلاث مئة ميل، حيث لا مركب وَطِيء، ولا زاد شَهيّ، ولا عيشَ رضيّ، سافروا من مكة إلى المدينة بين الجبال والوهاد في حرّ الصّحراء، ووهج الرّمضاء.

وليت شعري ما هو زاده ﷺ وهو يُسافر مع أُمّه يتيمًا في السّادسة من عُمره؟!

وما هو طعامه؟! وأيّ ثوب كان يرتدي؟! وأيّ حذاء كان يلبس؟! وهو الذي عاش حالة فقر قاسية مع جوع شديد ويُتْم موجع، ولك أن تتخيل من أيّ إناء كان يأكل؟ ومن أيّ قدح كان يشرب؟ وعلى أيّ فراش كان ينام؟

وصلَ ﷺ إلى قبر أبيه الذي لم يره في حياته ولم يسعد بحنانه وعطفه، ولمّا انتهوا وفي طريق عودتهم، وبعدما قطعوا شوطًا إلى مكة؛ أصاب أمّه مرضٌ، فأخذت تلفظ أنفاسها الأخيرة، وطفلها مُحمد صلى الله عليه وسلم واقف أمامها ينظر إليها وهي تودّع الحياة، ويُتابع خروج روحها من جسدها في مشهد تذوب له الرّوح، ويتمزّق له القلب، وتذهب معه النفس أنفاسًا من هول الصّدمة ومرارة الفاجعة، فتقوم أم أيمن ويعاونها هذا الطفل الصّغير بحفر قبر في الصّحراء يدفن فيه أمّه، وكأنّه يدفن روحه معها بأبي هو وأمي ﷺ.

فهل في العالم مشهد يثير الشّجون، ويستدرّ الدّموع، ويَرُضّ الأضلع أشدّ ألمًا وأعظم حزنًا من مشهد أن تحثو التراب على أمّك، و تُهيل الرّمال على والدتك، وأنت في عهد طفولتك، وميعة صباك؟! وهل هناك في الحياة أفظع وأمرّ من أن تترك أمّك في الصّحراء وأنت طفل في مُقتبل العمر، ثم تذهب وحيدًا بلا أب ولا أمٍّ، تسحب خطاك الثّقيلة لا تدري إلى أين؟! وإلى من أنت ذاهب؟!

دفنتُ فؤادِي فِي رُبى البيدِ وَالهًا فللّه من خطبٍ بدَا ودهانِي

فيَا ليتَ قلبِي قبرهَا بين أضلُعي لأحملَها طولَ المدَى بكيانِي

ويُواصل ﷺ رحلة عودته إلى مكة مع الحاضنة أمّ أيمن مُتعبًا مُنهكًا، مهمومًا مغمومًا، فيدخل هذا الطّفل اليتيم مكة، ويمشي في سككها، ويمرّ على بيوتها فيشاهد الآباء يضمون أبناءهم، ويداعبونهم ويمازحونهم، والأمهات يُعانقنَ أطفالهنَّ مع رقة وحنان، وهو لا يجد شيئًا من ذلك كلّه.

ليت شعري من كان يتفقّد غذاءه ﷺ ولباسه وفراشه؟! ومن كان يَحرص على صحته وراحته وهو الذي عاش بلا أبٍ يُمازحه، ولا أمٍّ تُضاحكه، ولا أخ يُداعبه، ولا أخت تُواسيه، ولا أسرة تُسلّيه؟!

ورُغم ذلك كلّه، ومع ألم اليُتم، ومرارة الفراق، وشظف العيش والفقر والحاجة والجوع إلّا أنّ محمدًا ﷺ كان يتحلى بأسمى صفات الرّجال، ويحمل أنبل خصال الأبطال، فيشبّ عفيفًا زاهدًا، ورعًا حَيِيًّا، مُتأدّبًا أجمل ما يكون الأدب، لطيفًا أجلّ ما يكون اللّطف، رحيمًا أعظم ما تكون الرّحمة.

ويَصل ﷺ إلى جدّه عبد المُطلب فيضمّه ويُؤثره على أبنائه، ويحتويه بحنانه وعطفه وشفقته، ولا يلبث إلّا زمنًا يسيرًا ثم يموت عبد المطّلب، ويتولّى أبو طالب عمّ النّبي ﷺ رعايته.

لقد نَحتَ ﷺ عظمته من الصّغر في الصّخر، ونقش مجده في الرّمال، فلا رفاهية، ولا بذخ، ولا إسراف؛ لأنّ مع هذه الأمور فتوراً في الهمّة، وهبوطاً للإرادة؛ ولهذا فالغالب على العظماء أنهم يشقون طريقهم إلى الرّيادة في ظروف حالكة، وأيامٍ مريرة، ودروب صعبة.

ومع مُعترك الحياة واجه هذا الشّاب المُثابر، والفتى المُكافح اليتيم الفقير مواقف تُمتحن فيها الرّجولة، وتظهر فيها المروءة، ويتبين فيها الطّيب من الخبيث؛ فظهر معدنه الأصيل وعنصره النّبيل ﷺ، حتى أطلق عليه قومه لقب: (الصّادق الأمين)، ولم ينل ﷺ هذا اللّقب هبة منهم، ولا مجاملة، ولم يأخذه هديّة، ولا مُحاباة، بل حصل عليه استحقاقًا لسيرته العطرة، وسجلّه الحافل، ومجده المُنيف، وخُلقه الشريف، مع كفاحه ونضاله في سبيل المبادئ العُليا والأخلاق السّامية.

ولمّا سمعت خديجة رضي الله عنها بأخلاقه وأمانته وصدقه ﷺ تقدّمت للزّواج منه، ولم تفعل ذلك من أجل ماله فهي التّاجرة وهو الفقير، ولا لمنصبه فليس بملك ولا وزير ولا أمير، وإنّما من أجل التّاج الأعظم الذي يحمله ﷺ، تاج (**الصّادق الأمين**)، ولأجلِ الوسام الذي يُجمّل صدره، وسام (**الرّجولة في أبهى صورها، والشّهامة في أحسن حُللها**)، فيقترن بخديجة في زواج عامر، فلا ترى منه ﷺ إلّا الوفاء والصّدق، والعفاف والطُهر، حتى زكّته بتلك الشّهادة الخالدة لمّا خاف على

نفسه بعد نزول الوحي عليه، فقالت له رضي الله عنها: «**كلا، والله ما يُخْزِيكَ الله أبَدًا، إنّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، و تحمل الكَلَّ، وتُكْسِبُ المَعْدُومَ، وتَقْرِي الضَّيْفَ، وتُعِين على نَوائِبِ الحَقِّ** » [متفق عليه]

لقد ذاق محمد ﷺ اليُتم مرات، واحتساه كرّات، ذاقه يوم مات أبوه وهو حمل في بطن أمه، وهذا أشد اليُتم وأفظعه، وذاقه يوم ماتت أمّه أمام عينيه وهو في السّادسة من عمره، وذاق الألم والحزن يوم فارق جدّه عبد المطّلب الذي كان يضمّه ويدافع عنه ويحتويه، وذاقه يوم فارق عمّه أبا طالب وهو الذي كان ينصره ويأويه، وذاقه يوم فارق زوجته الحنون الحصيفة الرّاشدة خديجة بنت خويلد التي كانت تُعزّيه وتواسيه، ذاق ﷺ اليُتم كلّه، والألم أوّله وآخره؛ ليُهيّئه الله لقيادة العالم، ويُدرّبه لسياسة البشريّة، ويُرشّحه لهداية البريّة، وليكون خاتم الأنبياء، وقدوة الأولياء، وإمام المُرسلين، وحُجّة الله على النّاس أجمعين.

لقد تولّى الله عزّ وجلّ من أوّل وهلة هذا النّبي الكريم ﷺ ولم يكله إلى النّاس طرفة عين، بل تولّاه وآواه، وهداه وأغناه، ولم يترك إيواءه أو هدايته أو غناه للبشر، فكانَ منعُ الله له عطاءً، وشدّتُه رخاءً، كما قال سبحانه: {أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى} [الضحى: الآية 6]، وليس الإيواء مجرّد السّكن أو الأسرة أو العشيرة فقط، بل أواه الله إيواءً ربّانيًّا خاصّاً بحفظه ورعايته ﷺ، {وَوَجَدَكَ ضَآلاًّ فَهَدَى} [الضحى: الآية 7] فهداه الله إلى نور النّبوة، ونجّاه من الانحراف عن منهج الله، وأرشده إلى الطّريق المستقيم، وعلّمه ما لم يكن يعلم من الإيمان والقرآن، {وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى} [الضحى: الآية 8]، بكل ما تدلّ عليه كلمة «الغنى »؛ أغناه بعد الفقر فلم يَحتجْ لأحد ﷺ، وأغناه بالرّضا والسّكينة والطّمأنينة والقناعة، وأغناه عن الحاجة للبشر كائنًا مَن كان، وأغناه في رزقه وخُلقه حتى فاض غناه ﷺ على الناس برًّا وصلةً، جودًا وكرمًا، رحمةً وعفوًا، فكانت نشأته ﷺ يتيمًا من حُسن تدبير الله له ليكون توكّله ﷺ على ربّه توكلًا كاملًا، وليفوض أمره إلى إلهه وخالقه، فيرضى بولاية الله عن كل ولاية، وكفاية الله عن كل كفاية، فإذا اشتدّ به أمر أو حزبه كرب لا يقول: يا أمي، يا أمي، ولا يا أبي، يا أبي، ولكن يقول: يا ربّي، يا ربّي، وليُقبل على الله غاية الإقبال، ويفوّض أمره إلى الله ذي الجلال.

نشأ ﷺ بدون أبٍ، ولا شيخٍ، ولا مُعلّمٍ، ولا مُربٍّ؛ لأنّ الله تولّى تعليمه وتربيته ورعايته، فلم يتولّ أحد كفالته إلا الله؛ إنّه اصطفاء ربّاني، واختيار إلهيّ منذ اللحظة الأولى، فإن كان الله تعالى قد قال لموسى عليه السلام: {وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي} [طه: الآية 39]، فإنّه سُبحانه قال لنبيّه وخليله سيّد ولد آدم ﷺ: {فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا} [الطور: الآية 48].

لقد نشأ ﷺ يتيمًا ليواجه مصاعب الحياة، ويسعى لكسب لقمة العيش، فلم يكن لديه وقت للّعب واللّهو كما يفعل الأطفال، بل كان وقته كفاحًا، وعطاءً، وبذلاً، وتضحيةً، ليستعدّ لتحمّل أعباء الرّسالة، ويتهيّأ لتكاليف النبوّة.

نشأ ﷺ يتيمًا ليصلُب عُوده، وتقوى همّته، ويعظم صبره، لِيتدرّب على ركوب المصاعب، والصّبر على المصائب، وتحمّل النّوائب، وليكون ثابت الجأش، قويّاً أمام العواصف، صلبًا عند نزول الكوارث؛ لأنّ الرّسالة أمانة عظيمة، ومُهمّة شاقة، سوف تُواجَه بعُتاةٍ، وقُساةٍ، ومُكذّبين، وفجرة، ومردةٍ، ولابدّ لهذا الإنسان العظيم، والنّبي الكريم ﷺ أن يكون أكثر مقاومة، وأعظم نضالاً، وأجلّ كفاحًا، وأكثر بطولةً من أي شخص آخر، فكان هذا التّدريب الإلهي، والتّمرين الرّبّاني.

ومن أسرار يُتمه ﷺ أنّ هذا اليُتم نسف الافتراءات الباطلة، والدّعاوَى الآثمة من أنّه ﷺ أراد بالنّبوة عزّ أسرته، وقوّة عائلته، والانتصار لعشيرته، فأين الأسرة؟

وأين العائلة؟ وأين العشيرة عن هذا اليتيم الذي نشأ وحيدًا بلا أبٍ ولا أمٍّ ؟!

وحتى لا يُقال أيضًا: إنّ هذه النّبوة وهذه الدّعوة انتشرت لقوة أسرته ومكانة عائلته، بل إنّ من العجائب في ذلك أنّ قومه وعشيرته هم أوّل من حاربَه وعَادَاه، بأبي هو وأمّي ﷺ!

نشأ ﷺ يتيمًا فذاق الجوع ليكون أسوة للجائعين، وعاش الحرمان ليكون قدوة للمحرومين، ومرّ به البؤس ليكون مُلهمًا للبؤساء، وصَهَره الفقر ليكون إمامًا للفقراء، وعاش يتيمًا ليذوق اليُتم فيرحم الأيتام والمساكين، والبؤساء والفقراء، والمحرومين والمُضطهدين، لأنّه قد ذاق ما ذاقوا، وشعر بما شعروا به، ومرّ به ما مرّ بهم.

ورغم نشأته ﷺ يتيمًا، إذْ لم ينعم برعاية أبيه، ولا بحنان أُمّه، إلا أنّ الله قد ملأ قلبه بالحنان، وروحه بالرّحمة والإحسان، ففاض ﷺ على أُمّته من بركات رحمته، ومن لطائف حنانه، ومن عظيم إحسانه.

أنتَ لِلأيتام فِي الدّنيا عَزاءُ	وإمامٌ واقتداءٌ واتّساءْ
يَا يتيماً كفل العالمَ فِي	بُردهِ فَهْوَ لهمْ ظلٌّ وماءْ
أنتَ ذُقت اليُتم كَيْ تَرحمَ منْ	عضَّهُ الجُوعُ وأضناه الشّقاءْ

نشأ ﷺ في بيئة انتشرت فيها الخُرافات والجهالات، والأخلاق السّيئة، والفواحش والمنكرات، وعبادة الأوثان والأصنام، وشرب الخمر، وسفك الدماء، ووأد البنات، والتّعصب القبلي

الجاهليّ المَقيت، إلا أنّ الله عصمه منذ ولادته، فلم يسلك مسلك أبناء تلك القبائل في غيّهم وضلالهم، وحفظه من الزّيغ والغواية وعبث الأطفال منذ طفولته.

فعناية الله رافقته وليدًا، وطفلًا رضيعًا، وشابّاً يافعًا حتى أكرمه الله بالنّبوة، فلم تُحفظ عنه غلطة، ولم تُنقل عنه زلّة، ولم تُؤثر عنه ريبة، إنّما كان المجد في بُرديه، والشّرف على عاتقيه، فكان شبابُه ﷺ مليئًا بالكفاح والرّجولة، والشّهامة والمروءة.

فقد جمع الأخلاق الكريمة، والطّباع المُستقيمة، والسّجايا الحميدة، والخلال المجيدة، فكان شابًّا طاهر الإزار، مأمون الدّخيلة، زاكي السر والعلن، محترم الجانب، كريم الأخلاق، عذب السّجايا، صادق المنطق، أفاض ﷺ بأخلاقه الفاضلة على أصحابه وأتباعه إلى يوم الدّين.

وإذا كان الآباء الصّادقون يتفانون في تربية أبنائهم فكيف بمَن يُربِّيه ربّه، ومَن يرعاه إلهه؟! قال بعض العلماء: الطّفل لا يخاف إذا كان له أب، فكيف بطفل تولّى تربيّته الرّب؟!

إنّه الطّفل الذي بطفولته يفخر الأطفال، والرّجل الذي برجولته يتباهى الرّجال، والبطل الذي ببطولته يقتدي الأبطال، فالتّوفيق يرافقه، والبركة تصاحبه، وعين الرّعاية تلاحظه، ويد الحفظ تعاونه، وأغصانُ الولاية تُظلّله، حفظه اللهُ من كل سقطة، وصانه من كل غلطة ؛لأنّه مُرشّح لإصلاح العالم، ومُهيّأ لإسعاد البشريّة، ومُعدٌّ لهداية الإنسانيّة.

إنّه رجل لكنّه نبيّ، وإنسان لكنّه رسول، وبشر لكنّه معصوم، وقد صانه الله من الطّيش والتّهور والعجلة، وكساه لباس الوقار والحلم والسّكينة منذ طفولته، فقد كان شباب مكة يلهون ويلعبون، ويعبثون، وكان ﷺ يعمل، ويُفكّر، ويُكافح، ويجتهد، فيرعى الأغنام سحابة نهاره، ويتأمّل الكون طيلة يومه، ويُفكّر في بديع صُنع الله في كل دقائق عمره، تميّز بالرّجولة، وتحمّل المسؤولية، وقد عصمه الله من كلّ قبيح، وحفظه من كلّ شرٍّ.

ويُروى عن علي رضي الله عنه أنّه قال: «**قيل للنّبي ﷺ: هل عبدتَ وثنًا قطُّ؟، قال: لا، قالوا: فهل شربتَ خمرًا قط؟**، قال: لا، وما زلت أعرف أنّ الذي همْ عليه كفرٌ، وما كنتُ أدري ما الكتابُ ولا الإيمانُ » [رواه أبو نعيم وابن عساكر].

وهكذا كان النّبي ﷺ، فقد صانَ لسَانه، وقَهرَ شيطانه، وملكَ غضبه، فلم يشرب خمرًا، ولم يرتَكبْ منكرًا، ولم يلابس غدرًا، ولم يعبد وثنًا، ولم يظلم أحدًا؛ لأنّه نشأ وشبّ في حفظ الله، وفي

معيّة الله، وفي أمان الله، أحاطه الله برعايته فصرف عنه منكرات الجاهليّة وغيّها، حتى صار أعظم قومه وقارًا، وأكثرهم أمانةً، وأجلّهم صدقًا، وأحسنهم خُلقًا، وأبرّهم قلبًا، وأطهرهم نفسًا، وأزكاهم روحًا، وكانت كلّ هذه الصّفات والسّجايا قبل نبوّته ﷺ، فكيف يكون بعدمَا أكرمه ربّه بالنّبوة؟!

وبعدما عرّفه بالدّين الحنيف؟ لقد شعّ ﷺ نورًا مُضيئًا وسط ظُلمات الجاهلية، وقمرًا منيرًا في ليل الوثنيّة.

وقد شبّ ﷺ طاهرًا مُطهّرًا، ميمونًا مُباركًا، ليكون قدوة عظيمة لكل شاب أحاطت به الشّبهات ونزعته الشّهوات، ليخرج مُنتصرًا منها بأخلاقه الحميدة، وصفاته النّبيلة الرّشيدة، مهما كانت الإغراءات، ومهما تعاظمت الظلمات.

وليس بعجيب أن ينشأ فاضل بين فضلاء، أو نبيل بين نبلاء، أو طالب علم بين علماء، ولكن العجيب أن ينشأ شاب طاهر زكيٌّ في مجتمع وثنيّ جاهليّ شركي خرافي، يعبد أهلُه الأصنام، ويسجدون للأوثان، ويبيحون المحرمات، ويرتكبون الفواحش، ويمارسون المنكرات والرّذائل، فينشأ هذا الشّاب بينهم مخالفاً لِطباعهم، ومجانبًا لِفعالهم ليظهر في سَمتِ أحْكَمِ الحُكماء، وأنبلِ الكرماء، وأتقى الأتقياء؛ لأنّ الله ربّاه، وكما رُوي في الأثر: «**أدّبني ربِّي فأحسنَ تأديبي** »، وإن لم يكن سنده صحيحاً، فمعناه مليح، فلم تُحفظ له هفوة، ولم تُنقل عنه غلطة، ولم يَكذب أبدًا، ولم يخن مطلقًا، بل كلّه طُهر ونقاء، وصفاء ووفاء، على أنبل ما يتخلّق به الحُكماء، وأجمل ما يتّصف به العظماء، وهذا يدلك أنّ الله هيّأه منذ الطفولة ليتحمّل أعباءَ الرّسالة، ويقوم بأمانة النّبوة.

لم يعشْ ﷺ في شبابه حياة الرّفاهية، ولم يكن مُنعمًا خاملًا، أو مُسرفًا مُبذّرًا، بل نشأ ليكدح ويعمل ويجتهد، فقد تحمَّل المصاعب والمتاعب والمشاق، وسافر مع عمّه في تجارة إلى بلاد الشّام وهو دون الثالثة عشرة من عمره، وشهد الجميع بأمانته وصدقه ومهارته في التّجارة.

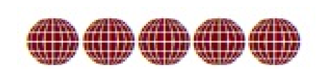
ولقد عمل ﷺ في رعي الغنم لأهل مكة على قراريط حتى الثّانية عشرة من عمره، فعن أَبي هُريرة رضي الله عنهعن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَا بَعَثَ اللهُ نَبِيًّا إلا رَعَى الْغَنَمَ، فَقَال أَصْحابُه: وَأَنْتَ؟، قَالَ: نَعَمْ، كُنْتُ أَرْعَاهَا علىَ قَرارِيطَ لأَهْلِ مَكَّةَ » [رواه البخاري].

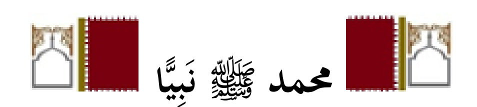
وفي رعيه ﷺ الغنم تربية ربّانية لِيستعدّ برعاية الغنم لسياسة الأمم، فالغنم تحتاج إلى حُسن رعاية، وجميل اختيارٍ لأماكن رعيها، مع الرّفق بها، ولأنّ في رعي الغنم سكينة كما قال ﷺ: «والسَّكِينَةُ والوَقارُ في أهْلِ الغَنَمِ » [متفق عليه].

وفي رعيه ﷺ للغنم بالأجرة درس لكل إنسانٍ أنْ يعمل ويحرص على أن يكون مطعمُه حلالاً من كسب يده، وعرق جبينه، ولا يركن إلى سؤال النّاس، بل يستغني عنهم بكل عمل مباح وكسب شريف، وهذه العصامية والرّجولة هي التي تحفظ ماء الوجه وتصون العرض.

إنّ كلّ إنسان يقرأ سيرته ﷺ منذ ولادته إلى وفاته، ويجعله إمامًا له وقدوة وأسوة يسعد وينجح، وينجو ويفلح؛ لأنّ الله جمع في هذا النّبي الكريم كل معاني الفضل والنّبل، والخير والطُّهر، والشرف والسّؤدد، فهو معلم النّجاحات، وبطل الإنجازات، ولا نجاح للبشرية في بناء حضارة مُقدّسة، طاهرة عامرة إلا بالاقتداء بنبيّنا المعصوم الكريم محمد بن عبدالله ﷺ؛ لتصنع بدينه وأخلاقه مدنية عادلة وحياة مُستقرة، مُطمئنة آمنة، فهو اليتيم الذي حوّل العالم من ليلة مأتم إلى عُرس مجيد، وحفل بهيج، وحياة مُشرقة.

أتى اليتيمُ أبو الأيتام في قدرٍ	أنْهى لأمتهِ مَا كان من يَتَمِ
محررُ العقلِ باني المجدِ منقِذُنا	والشّرك في الأرض ملءُ السّهل والأكمِ
بنورِ هديكَ كحَّلنا محاجِرنَا	لمّا كتبنَا حروفًا صغتَها بدمِ
من نحن قبلكَ إلا نقطةٌ غرقتْ	في اليمِّ بل دمعةٌ خرساءَ في القدمِ





محمد ﷺ نَبِيًّا

كانت الأُمّة قبله في سُبات عميق، وحضيض من الجهل سحيق، فبعثه اللهُ على فترة من المرسلين، وانقطاع من النبيّين، فأقام اللهُ به الميزان، وأنزل عليه القرآن، وفرّق به بين الكُفر والإيمان، وحُطّمت به الأوثان.

إنّ للأُمم رموزًا يخطئون وُيصيبون، ويعلمون ويجهلون، لكن رسولنا ﷺ معصوم من الزّلل، محفوظ من الخلل، سليم من العِلل، عُصم قلبه من الزّيغ والهوى، فما ضلَّ أبدًا وما غوى {إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى} [النجم: الآية 4]، ثبّت الله قلبه فلا يزيغ، وسدّد كلامه فلا يجهل، وحفظ عينه فلا تخون، وحصّن لسانه فلا يَزِل، ورعى دينه فلا يَضِل، وتولّى أمره فلا يضيع، فهو موفّق محفوظ مبارك ميمون. يقول عليه الصلاة والسلام: «**إنّ أتقاكم وأعلمَكم بالله أنا**» [رواه البخاري]، فسُبحان مَن اجتباه واصطفاه، وتولّاه وحماه، ورعاه وكفاه، ومن كلّ بلاء حسن أبلاه.

أرسله الله على الظّلماء كشمس النّهار، وعلى الظّمأ كالغَيث المِدرار، عظُمت بدعوته المنن، فإرساله إلينا أعظم منّة، وأحيا اللهُ برسالته السُّنن، فأعظم طريق للنجاة اتّباع تلك السُّنَة. هو النبأ العظيم، والحدث الهائل، والخبر العجيب، والشأن الفخم، والأمر الضخم، قال تعالى: {عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ*عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ * الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ} . [النبأ: الآية 1- 3]

فمبعثه حقيقةً هو أروع الأنباء، وأعظم الأخبار التي سارت بها الركبان، وتحدّث بها السّمار، ووعاها الرّواة، واندهش منها الدّهر، وذُهِل منها الزّمن، فقد استدار له التّاريخ، ووقفت له الأيام، فقصة إرساله عليه الصلاة والسلام لا يلفها الظّلام، ولا تدفنها الرّيح ولا يحجبها الغمام، وإنّما هي

قصةٌ عبرت البحار واجتازت القفار، ونزلت على العالم نزول الغيث، وأشرقت إشراق الشّمس، فهو باختصار نور، وهل يخفى النور؟! {يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ} [التوبة: الآية 32].

بُعث عليه الصّلاة والسّلام ليُعبد الله وحده لا شريك له، بُعث ليوحد الله، بُعث ليُقال في الأرض: «**لا إله إلّا الله محمد رسول الله**».

بُعث ليُحق الله الحق ويُبطل الباطل، بُعث بالمحجّة البيضاء، والملّة الغرّاء، والشّريعة السّمحاء.

بُعث بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وبالخير والسّلام والبرّ والمحبة والسّعادة والصّلاح والأمن والإيمان.

بُعث بالطّهارة والصّلاة والزّكاة والصّوم والحج والجهاد والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر.

بُعث بمعالي الأمور، ومكارم الأخلاق، ومحاسن الطّبائع، ومجامع الفضيلة.

بُعث لدحض الشّرك، وسحق الأصنام، وكسر الأوثان، وطرد الجهل، ومُحاربة الظّلم، وإزهاق الباطل، وغرس الفضيلة، ونفي الرّذيلة، فما من خير إلّا ودلّنا عليه، وما من شر إلّا وحذّرنا منه.

بُعث ﷺ فِي الأَرْبَعينَ مِن عُمْرِه، وَهُوَ سِنُّ الكَمالِ، فنَزل عَلَيْهِ المَلَكُ بِغار حِرَاءٍ، وَكَانَ إِذَا نَزَلَ عليهِ الوحيُ ﷺ اشْتَدَّ ذَلك عَلَيْهِ، وَتَغَيَّر وَجهُه، وَعرِق جَبينُه، فَلمَّا نَزل عليه المَلَكُ قَالَ لَهُ: **اقْرَأْ**، فَقالَ له النبيُّ ﷺ: **ما أنَا بقَارِئٍ**، فَغَطَّهُ الملك حَتَّى بلغ مِنه الجَهْدُ، ثُمَّ قالَ: **اقْرَأْ**، فقال ﷺ: «**ما أنا بقَارِئٍ**»، فَغَطَّهُ الملك ثانية حَتَّى بلغ مِنه الجَهْدُ، ثُمَّ قالَ: **اقْرَأْ**، فقال ﷺ: «**ما أنا بقَارِئٍ**»، فَغَطَّهُ الملك ثالثة حَتَّى بلغ مِنه الجَهْدُ، ثُمَّ قالَ: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ} [العلق: الآية ١]- حتَّى بَلَغَ - {عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} [العلق: الآية 5]. فَرَجَع رَسُولُ الله ﷺ إلى خَدِيجَةَ (رضي الله عنها) يرْتجِفُ، وَأخْبرَها بِمَا رَأى، فثبَّتَتْه وَقالتْ لَهُ: أبْشِرْ، فَوَالله يُخْزِيكَ اللهُ أَبدًا، إنَّك لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وتصْدقُ الحدِيث، وتَحْمِلُ الكَلَّ، وَتُكْسِبُ المعْدُوْمَ، وَتُقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلى نَوائِب الدَّهْر.

ثُمَّ انطلقتْ بِه خديجةُ (رضي الله عنها) حَتَّى أتتْ وَرقةَ بْنَ نَوفَل، وَهُو ابْنُ عَمِّ خَدِيجةَ، وَكَانَ امْرأً تَنصَّر فِي الجاهِلِيَّةِ، وَكان يَكْتُب الكِتَابَ العِبْرانيَّ، فَكتبَ مِنَ الإنْجِيلِ بِالعربيَّةِ مَا شَاءَ اللهُ أن يكتُبَ، وَكَانَ شَيْخًا كبيرًا قد عَمِيَ، فَقَالَتْ لَه خديجَةُ: **يَا ابْن عَمِّ! اسْمَعْ مِن ابْنِ أَخِيك**. فَقَال لَهُ وَرقةُ: **يَا ابْنَ أَخِي! مَاذَا تَرى؟** فَأخْبَره ﷺ **خَبَرَ مَا رَأى**. فَقالَ لَهُ وَرقةُ: **هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي أنزَلَه اللهُ عَلَى مُوسى، يَا لَيْتَنِي فِيها جَذَعًا، لَيتني أَكُون حيًّا إِذْ يُخْرِجُك قَومُك**. فَقالَ ﷺ: «**أَوَ مُخرِجِيَّ هُمْ؟**» قَالَ: **نعمْ؛ لَم يأتِ رَجلٌ قَطُّ بمثْلِ مَا جِئتَ بِه إلّا عُودِي، وَإن يُدرِكْنِي يَومُك أَنصُركْ نَصرًا مُؤَزَّرًا. ثُمَّ لم يلبثْ وَرقةُ أَن تُوُفي**» [متفق عليه].

قال الشاعر:

بُشرى من الغَيْبِ ألقَتْ في فم الغار	وحْيًا وأفضَتْ إلى الدُّنيا بأسرارِ
بُشرى النُّبوَّة طافَتْ كالشَّذى سَحَرًا	وأعْلنَتْ في الرُّبى مِيلادَ أنْوارِ
وشقَّتِ الصَّمتَ والأنْسَامُ تَحْمِلُها	تَحْتَ السَّكينةِ من دارٍ إلى دار
وَهَدْهَدَتْ (مكَّةُ) الوَسْنَى أناملَها	وهزَّتِ الفجرَ إيذانًا بإسْفَارِ

لقد شرّف اللهُ العالمين بنبوّته، وأنار الأرض برسالته، واتّصلت الأرض بالسّماء، والفناء بالبقاء، والضّعف بالقوة، وبدأ فجر البشريّة من جديد، وأُعلنت في الدّنيا «لا إله إلّا الله»، وانطلق عهد الحريّة، من عبادة الأصنام إلى عبادة الملك العلّام، ومن السّجود للأوثان إلى السّجود للواحد الديّان، ومن جَور الجاهليّة إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدّنيا إلى سعة الآخرة، ومن ظلمات الجهل إلى نور العلم، فأنزل اللهُ عليه: «اقرأ» في غار حِراء، فكان العلم أوّل البداية، ثم أنزل الله: ﴿يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ [المدثر: الآية 1- 2]، فكانت مُهمّته التّبليغ، فقام بعدها بأبي هو وأمي ﷺ، وما قعد ثلاثًا وعشرين سنة كُلّها جهاد وسُهاد، كُلّها تضحية وفداء وعطاء، كُلّها بذل ومشقّة وعناء.

قدّم لربّه روحه ووقته وقلبه ودمه ودموعه، وقدّم لأمّته أفضل ما قدّم إنسانٌ على وجه الأرض، ونزل عليه: ﴿يَاأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [المزمل: الآية 1- 2]، فكانت هذه لِزاده الرّوحي، ولاستعداده النّفسي، ولمدده في حياته، فهو بين: ﴿يَاأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ﴾ للعبادة، و: ﴿يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ للدعوة، فقمِ اللّيل للتّحصيل، وقُمْ فأنذر للتوصيل، وقمِ اللّيل للمدد، وقمْ فأنذر للعطاء.

أمّا دينه ﷺ: فهو الإسلام:

دين الفطرة، دين الوسط، دين الحق، دين الفلاح والنّجاة، قال الله تعالى: {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [آل عمران: الآية 85]، دينٌ جاء لوضع الآصار والأغلال عن الأمّة، سهل ميسَّر عامٌّ شامل، كامل تامٌّ، قال الله تعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً} [المائدة: الآية 3]، دين جاء ليخرج النّاس من عبادة العباد إلى عبادة ربّ العباد، ومن ظلمات الشّرك إلى نور التّوحيد، ومن شقاء الكفر إلى سعادة الإيمان.

دين صالح ومصلح لكل زمان ومكان، شرعه مَن خَلَق الإنسان، الذي يعلم السر وأخفى، العالِم بعلانيّة العبد والنّجوى، فهو الدّين الوسط الذي جاء بالعلم النّافع والعمل الصّالح.

لقد بعثَ اللهُ رسولَه محمدًا ﷺ أميًّا بين الأميين، يتلو عليهم آيات الله ويزكّيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قبله لفي ضلال مُبين، فجاء هذا الدّين بتحريم الكذب في الأقوال، والزّور في الشّهادة، والظّلم في الأحكام، والجَور في الولاية، والتّطفيف في المكيال والميزان، والبغي على النّاس، والاعتداء على الغير، والإضرار بالنّفس والنّاس، فحفظ القلب بالإيمان، والجسم بأسباب الصّحة، والمال من التّلف والاعتداء، والعرض من الانتهاك، والدم من السّفك، والعقل من إذهابه وتغييره.

إنّ مبعثه ﷺ رسالة إنقاذ وإصلاح، وسلام وعدالة للعالم، فكان ﷺ يذكر نعمة الله عليه فيقول: «**أنا سَيِّدُ ولَدِ آدَمَ يَومَ القِيامَةِ**» [رواه مسلم]. ويقول ﷺ: «**مَثَلُ ما بَعَثَنِي اللهُ به من الُهدَى والعِلْمِ، كمَثَلِ الغيثِ**» [متفق عليه].

فهو ﷺ الصّالح المُصلح، معه كتاب وسُنّة، ونور وهدى، وعلم نافع، وعمل صالح، قال تعالى: {وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [الشورى: الآية 52]، فقد بُعث ﷺ لصلاح الدّنيا والآخرة، ولسعادة الرّوح والجسد، يُعلّم العلماء، ويفهّم الفقهاء، ويرشد الخطباء، ويهدي الحكماء، ويدلّ النّاس إلى الصّواب، فهو ﷺ الإمام المعصوم والنّبي المُرسل، والبشير والنَّذِيرلكل مَلِكٍ

ومملوك، وغني وفقير، وأبيض وأسود، وعربيّ وعجميّ؛ {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ} [الأنبياء: الآية 107].

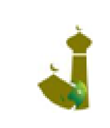
وقد بيّن ﷺ رسالته ودعوته في حديث جبريل عليه السلام، عن عُمر بن الخطاب (رضي الله عنه) أنّه قالَ: «**بيْنَما نَحْنُ عِنْدَ رَسولِ الله ﷺ ذاتَ يومٍ، إذْ طَلَعَ علَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بياضِ الثِّيابِ، شَدِيدُ سَوادِ الشَّعرِ، لا يُرَى عليه أثَرُ السَّفَرِ، ولا يَعْرِفُهُ مِنَّا أحَدٌ، حتَّى جَلَسَ إلى النَّبيِّ ﷺ، فأسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إلى رُكْبَتَيْهِ، ووَضَعَ كَفَّيْهِ علَى فَخِذَيْهِ.** وَقالَ: **يا مُحَمَّدُ، أخْبِرْني عَنِ الإسْلامِ،** فقالَ رَسولُ الله ﷺ: **الإسْلامُ أنْ تَشْهَدَ أنْ لا إلَهَ إلّا الله وأنَّ مُحَمَّدًا رَسولُ الله ﷺ، وتُقِيمَ الصَّلاةَ، وتُؤْتِيَ الزَّكاةَ، وتَصُومَ رَمَضانَ، وتَحُجَّ البَيْتَ إنِ اسْتَطَعْتَ إلَيْهِ سبِيلًا.** قالَ: **صَدَقْتَ،** قالَ: **فَعَجِبْنا له يَسْأَلُهُ، ويُصَدِّقُهُ،** قالَ: **فأخْبِرْنِي عَنِ الإيمانِ،** قالَ: **أنْ تُؤْمِنَ بالله، ومَلائِكَتِهِ، وكُتُبِهِ، ورُسُلِهِ، والْيَومِ الآخِرِ، وتُؤْمِنَ بالقَدَرِ خَيْرِهِ وشَرِّهِ،** قالَ: **صَدَقْتَ،** قالَ: **فأخْبِرْنِي عَنِ الإحْسانِ،** قالَ: **أنْ تَعْبُدَ الله كَأنَّكَ تَراهُ، فإنْ لَمْ تَكُنْ تَراهُ فإنَّه يَراكَ،** قالَ: **فأخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ،** قالَ: **ما المَسْؤُولُ عَنْها بأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ،** قالَ: **فأخْبِرْنِي عن أمارَتِها،** قالَ: **أنْ تَلِدَ الأمَةُ رَبَّتَها، وأَنْ تَرَى الحُفاةَ العُراةَ العالَةَ رِعاءَ الشَّاءِ يَتَطاوَلُونَ في البُنْيانِ،** قالَ: **ثُمَّ انْطَلَقَ، فَلَبِثْتُ مَلِيًّا،** ثُمَّ قالَ لِي: **يا عُمَرُ أتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟** قُلتُ: **الله ورَسولُهُ أعْلَمُ،** قالَ: **فإنَّه جِبْرِيلُ أتاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ**» [رواه مسلم].

إنّ هذا الحديث العظيم يشرح نفسه بنفسه، ويُقدّم رسالة الإسلام السّمحة، الوسطيّة، المُعتدلة، المُيسرة، ويُترجم لنا دعوته ﷺ دعوة الرّحمة، والحكمة، والموعظة الحسنة، وهذا الحديث يستحق أن يُطلق عليه: (**مُلخص رسالة الإسلام**).

ويعترف رسولُنا ﷺ بنعمة الله فيقول: «**أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أحَدٌ منَ الأنبياءِ قَبْلِي: نُصِرْتُ بالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وجُعِلَتْ لي الأرْضُ مَسْجِدًا وطَهُورًا، فأيُّما رَجُلٍ مِن أُمَّتي أدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ، وأُحِلَّتْ لي الغَنائمُ ولَمْ تَحِلَّ لأحَدٍ قَبْلِي، وكان النّبيُّ يُبعَثُ إلى قومِه خاصّةً، وبُعِثتُ إلى النّاسِ كافّةً، وأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ**» [متفق عليه].

فرسولنا ﷺ هو سيّد العالمين، وخاتم النّبيين، والمبعوث للثّقلين، والحاكم بين الحزبين، والفاصل بين الفريقين، والمصلّي للقبلتين، والشّاهد المقبولة شهادته على أمّته، والمبشّر الذي عمّت بشارته، والمُنذر الذي ظهرت نذارته، والسّراج المنير الذي شعّت أنواره، والنّبي الكريم الذي

طارت أخباره، فمَن لم يهتد به فهو من باب التوفيق مطرود، ومَن لم يتأسّ به فهو في يوم الشُّرب مفقود، ومَن لم يجعله إمامًا فهو المنبوذ: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا} [الأحزاب: الآية 21]، وعَنْ أَبِي مُوسَى (رضي الله عنه)، أنّ النّبي ﷺ قَالَ: «**إنَّما مَثَلِي ومَثَلَ ما بَعَثَنِي اللهُ به كَمَثَلِ رَجُلٍ أتَى قَوْمًا، فقالَ: يا قَوْمِ إنِّي رَأَيْتُ الجَيْشَ بعَيْنَيَّ، وإنِّي أنا النَّذِيرُ العُرْيانُ، فالنَّجا النَّجَاءَ، فأطاعَهُ طائِفَةٌ مِن قَوْمِهِ، فأدْلَجُوا فانْطَلَقُوا علَى مَهَلِهِمْ، وكَذَّبَتْ طائِفَةٌ منهمْ فأصْبَحُوا مَكانَهُمْ، فَصَبَّحَهُمُ الجَيْشُ فأهْلَكَهُمْ واجْتاحَهُمْ، فَذلكَ مَثَلُ مَن أطاعَنِي فاتَّبَعَ ما جِئْتُ به، ومَثَلُ مَن عَصانِي وكَذَّبَ بما جِئْتُ به مِنَ الحَقِّ**» [متفق عليه]. فاركب سفينته، والزم سُنّته، واسلك طريقته، واتّبع ملّته، تفز بخير الدّارين، وقرّة العين، وبرد اليقين، ورضا ربّ العالمين.



دلائل نبوّته ﷺ:

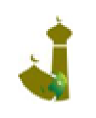
لا بد أن تقول: «أشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله» بعلمٍ ويقين وقبول وانقياد وصدق وإخلاص ومحبّة، ولكن كيف تصل إلى هذا وأنت لم تطلع على دلائل نبّوته ﷺ وبراهين رسالته؟

سأعرض لك هنا بعضًا من تلك الأدلة والبراهين، بعيدًا عن العاطفة والكلام البرّاق والعبارات الإنشائية، وإنّما أخاطب عقلك، ولك تقليب النّظر، وسماع الدّعوى، ودراسة الحجّة، والتفقّه في الدليل، وأنت تعلم أنّه قد مضى على نبوّته ﷺ أكثر من أربعة عشر قرنًا مرّ خلالَها آلاف الملايين، أي: مليارات البشر بلغة العصر، فيهم العلماء والعباقرة، والمبدعون والدهاة، والأذكياء والخلفاء، والملوك والوزراء، والأمراء والشّعراء، والمهندسون والأطباء، وغيرهم؛ كلّهم يشهدون أنّه رسول من عند الله ﷺ، فما الذي حملهم على هذا الإيمان العميق به ﷺ عبر هذه القرون؟

هل انطلت عليهم الحيلة كلّهم، فغاب عنهم الدّليل، ولم يظهر لهم سرّ المسألة؟ أو أنّ الأمر غُبّي عليهم، وحُجبت عنهم الحقيقة؟!

هذا مُستحيل لا يكون أبدًا، ولا يمكن أن تجتمع هذه الألوف المؤلّفة والمليارات على ضلالة عبر التاريخ، ثم إنّ هذه المليارات في كل القارات من العرب والفرس والأمازيغ والأكراد والأتراك

والهنود والأفارقة، يشهدون أنّه رسول الله ﷺ، فما الذي حملهم على هذا الاجتماع للإيمان به ﷺ على اختلاف لغاتهم وأجناسهم وألوانهم وبلدانهم وعصورهم إلّا أدلةٌ وحُججٌ وبراهينُ توصّلوا بها إلى أنّه صادق، وأنّه نبيّ من عند الله عليه الصّلاة والسّلام.



القرآن العظيم:

أفضل الكتب، وأعظم المواثيق، وأحسن القَصص، وأفضل الحديث، وأجلّ المواعظ، فهو الحقّ المهيب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، كتابٌ فصّلت آياته ثم أحكمت، مبارك في تلاوته وتدبّره، والاستشفاء به، والتّحاكم إليه، والعمل به، كل حرف منه بعشر حسنات، شافع مُشفّع، وشاهد مصدَّق، وأنيس ممتع، وسمير مفيد، وصاحب أمين، معجزٌ مؤثّرٌ، له حلاوة وعليه طلاوة، يعلو ولا يُعْلى عليه، ليس بسحر ولا بشعر ولا بكهانة ولا بقول بشر، بل هو كلام الله، منه بدأ وإليه يعود، نزل به الرّوح الأمين على قلب رسول ربّ العالمين ليكون من المرسلين، بلسان عربيّ مبين، فهو الكتاب الذي بزّ الكتب فصاحة، وفاقها بلاغة، وعلا عليها حجة وبيانًا، وهو هدى ورحمة وموعظة وشفاء لما في الصّدور، ونور وبرهان ورشد وسداد ونصيحة وتعليم، محفوظ من التّبديل، محروس من التغيير، معجزة خالدة، عصمة لِمَنْ اتّبعه، ونجاة لِمَنْ عمل به، وسعادة لِمَنْ استرشده، وفوز لِمَنْ اهتدى بهديه، وفلاح لِمَنْ حكّمه في حياته.

يقول عليه الصّلاة والسّلام: «**اقْرَؤُوا القُرْآنَ فإنَّه يَأْتي يَومَ القِيامَةِ شَفِيعًا لأَصْحابِهِ**». [رواه مسلم]، وقال: «**خيرُكُم مَن تعلَّمَ القرآنَ وعلَّمَهُ**». [رواه البخاري]، وقال: «**إنَّ اللهَ يَرْفَعُ بهذا الكِتَابِ أَقْوَامًا، وَيَضَعُ به آخَرِينَ**» [رواه مسلم]. وهو الكتاب الذي أفحم الشّعراء، وأسكت الخطباء، وغلب البلغاء، وقهر العرب العرباء، وأعجز الفصحاء، وأعجب العلماء، وأذهل الحكماء. قال تعالى: {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ} [الإسراء: الآية 9]، كما قيل:

آياتُهُ كُلَّمَا طالَ المَدى جُدَدٌ ... يَزِينَهُنَّ جَلالُ العِتقِ وَالقِدَمِ

يَكادُ في لَفظَةٍ مِنهُ مُشَرَّفَةٍ ... يوصيكَ بِالحَقِّ وَالتَّقوى وَبِالرَّحِمِ

فقد أخبر ﷺ عن عجائب القدرة والإعجاز في الخلق، كما أُوحي إليه في القرآن عن مسير الشّمس، ومنازل القمر، وحركة الكواكب، ومواقع النّجوم، وحركة الرّيح، وعالم النّبات، وذكر عالم

الجنّة، وعالم النّار، وعالم السّحر، وعالم الإنس، وعالم الجن.

ثم إنّه ﷺ تحدّث بما أوحى اللهُ إليه عن خلق الإنسان، وقرأ علينا كتابًا معجزًا يتحدّث عن النّفس البشريّة، وعن عالم الأسرة، والسّلم والحرب، والاقتصاد والمال، والمعاهدات الدّولية، والمواثيق بين الشّعوب، وحقوق الإنسان، ومسائل الحلال والحرام، وأحكام الحيوان... إلى غير ذلك من التّقديرات والحدود والقواعد والقوانين التي بهرتِ العلماء، وأُلِّفت فيها آلاف المؤلّفات في كل التّخصصات، وصار الفُقهاء ينهلون من معينه، والمُفسّرون يستخرجون من كنوزه، والقضاة والمُفتون والحكّام يغترفون من نهره، فهل يحصل هذا إلّا من نبيّ عصمه اللهُ وأوحى إليه، ولم يسبق لهذا النّبيّ أن درس علوم البشر، أو تخصّص في أيّ علم، أو قرأ ولو صفحة واحدة، أو كتب ولو سطرًا واحدًا؟! إنّ القرآن العظيم هو الكتاب المُعجز المفحم، الذي بهر العرب أهل الفصاحة واللّسان بألفاظه ومعانيه وبيانه، وقهرهم وتحداهم، فلم يستطيعوا أن يأتوا بمثله، ولا بعشر سورٍ منه، ولا بسورة واحدة، وقد أعلن القرآن الكريم التّحدي للبشريّة، وها هم منذ نزوله إلى اليوم لم يتجرّأ فيلسوف أو عالم أو شاعر أو خطيب أو بليغ على مجاراته، ومَن فعل منهم كمُسيلمة الكذّاب، فإنّه أتى بكلمات تُضحك الثّكالى من السّخف والحقارة والهُزال والزّور والبهتان، وبقي القرآن شامخًا منتصرًا مُعجزًا –وسيبقى كذلك-إلى قيام السّاعة.



الحديث النّبوي الشّريف:

هو الوحي والحكمة والمعجزة التي نُقلت لنا عبر كتب السُّنة الصّحاح، والسنن والمسانيد والمعاجم، ورواها الألوف من الأئمّة الثّقات الأثبات من الحفّاظ على مرّ التاريخ، وكُتبت فيها آلاف من رسائل الدكتوراه والماجستير عبر جامعات الدّنيا، كلّها تبحث في كلامه ﷺ في المتن أو السّند أو العلل أو الغريب أو الاستنباطات الفقهية أو البلاغة والبيان، حتى إنّ بعضهم ألّف في حديث واحد مجلدًا كاملًا، كما فعل الحافظ ابن ناصرالدين الدمشقي في شرح حديث: «**كلمتان خفيفتان**»، والسفاريني في حديث: «**سيّد الاستغفار**»، ومنهم من ألّف كتابًا في الكلمات الأربع، إلى غير ذلك من المؤلفات في شرح أحاديث مفردة.

فهل يمكن أن يكون هذا الكلام المُعجز البالغ في أرقى درجات البلاغة، المعصوم من الزّلل والخلل والاضطراب والتّناقض إلّا كلام نبيّ معصوم مرسل من عند الله سبحانه؟ ولك أن تقارن

كلامه ﷺ بكلام غيره من العلماء والخطباء والأدباء والشّعراء لِتجدَ البون الشّاسع.

يقول أحد الأدباء المعاصرين: إنّك إذا دخلت مدرسة أو كلية أو جامعة فقرأت كلمات على الجدران للبلغاء والحكماء والزّعماء، ثم قرأت حديثًا نبويًّا وقع في قلبك أنّ هذا الكلام لا يقوله إلّا نَبِيّ، فله طعمٌ آخر، وذوقٌ خاص، وتأثيرٌ مُختلف، وهذه من مُعجزاته ودلائل نبوّته عليه الصّلاة والسّلام.



شمائله النّبيلة، وصفاته الجليلة، وأخلاقه الجميلة ﷺ:

إنّ اللهَ عزّ وجل جبله على مكارم الأخلاق، ومحاسن الصّفات، وأنبل الخلال، وأجمل الخِصال، حتى أعداؤه لم يعثروا على كَذْبة واحدة منه، ولا سَقْطة واحدة، ولا هَفْوة واحدة، في سجل حياته الشّريف ﷺ، وقد حاولوا أن يقتنصوا عليه أيّ عيب، ويظفروا بأيّ ذنب، فلم يستطيعوا أبدًا رغم عداوتهم وحسدهم وحرصهم على ما يَشينه ﷺ.

وانظر إلى إنسان يعيش في مُجتمعة ثلاثًا وستين سنة، وحوله أعداؤه وحسّاده يريدون أن يظفروا منه بأيّ ذنب يخدش كرامته، أو عيب ينقّص مروءته، فلا يجدون ذنبًا ولا عيبًا، وإنّما الجمال في أبهى صوره، والكمال في أجلّ حُلله، والجلال في أنبل مشاهده، فمن مولده إلى وفاته ﷺ ما كذبَ، وما غشَّ، وما خانَ، وما فَجَر، وما غدرَ، وما حسدَ، وما حقدَ، وما أخلفَ، وما تكبّرَ، ولا تجبّرَ، ولا طغَى، ولا بغَى، ولا ظلم، ولا أثم، بل نزّهه اللهُ عن كل خُلق معيب، وصانه عن كلّ وصفٍ مشين، فهو الصّادق المصدوق، والطّاهر المُطهّر، والطيّب المطيّب، والمعصوم عن كل زلّة، والمنزّه عن كل هفوة، والبريء من كلّ وصمة.



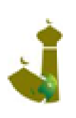
تأييد الله له بنصره العزيز وفتحه المُبين:

لمّا دعا ﷺ إلى ربّه كان وحيدًا، فآمن به أبو بكر من الشّيوخ، وزوجته خديجة من النّساء، وعلي بن أبي طالب من الشّباب، وزيد بن حارثة من الموالي، ثم بدأ دينه يتّسع، وأنصاره يكثرون، وكان أعداؤه مِلء الجزيرة العربية من قريش وقبائل العرب واليهود والمنافقين، وقد حزّبوا عليه

الأحزاب، وجمّعوا عليه الجموع، ودبّروا له المؤامرات، وحبكوا له المكائد، فنصـره الله وأيّده، وهزمهم وخذلهم وبكّتهم، ودخل مكة فاتحًا.

ثم لم يكتف بالجزيرة العربيّة، بل ذهب دينه شرقًا وغربًا وشمالًا وجنوبًا إلى أن طوّق الكرة الأرضية، وأصبح أتباعه عبر التّاريخ بالمليارات من البشـر، فهل ممكن لمدّعٍ للنبوّة دجّال كذّابٍ أن يُستر دجله وكذبه ألفًا وأربعمئة سنة ولا يُكشف أمره؟

لقد كُشِف أمر مسيلمة الكذّاب في سنوات معدودة، وسقطت الأقنعة عمّن ادّعى النبوّة ويقاربون الثّلاثين عبر التّاريخ، وكلّما قام أفّاك دجّال كذّاب كشف الله سرّه، وهتك ستره، وأظهر فضيحته للعالمين، أمّا نبيّنا ﷺ فأعلى الله مقامه، ورفع ذكره، وشرح صدره، وجعله مضرب المثل في الصّدق للعالم أجمع.



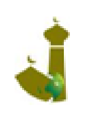
دعوته الخالصة لوجه الله تعالى:

دعا ﷺ إلى توحيد الباري سُبحانه، وأعلن منذ اللّحظة الأولى أنّه لا يُريد ملكًا ولا جاهًا ولا مالًا وإنّما يريد هداية النّاس، وبقي على كلمته وصدقه ثابتًا حتى لقي ربّه، ولم يترك درهمًا ولا دينارًا، ولم يبتنِ قصـرًا، ولم يجمع كنزًا، وإنّما مات ودرعه مرهونة عند يهوديٍّ في ثلاثين صاعًا من شعير، وقال: «**لا نورَثُ ما تركْنَا صدَقَةً**» [مُتفق عليه].

فهل يقول هذا، ويفعل هذا إلّا نبيّ مُوحى إليه لا يُريد إلّا الله والدّار الآخرة؟! بخلاف مَن يسعى لمُلكٍ أو زعامةٍ أو منصبٍ أو شهرةٍ أو جمع مالٍ؛ فإنّ مقصده يظهر للناس أجمعين، وينكشف مراده من أيامه الأولى، فقد تحمّل ﷺ المشاق والمكاره، والآلام والمصاعب، في سبيل إبلاغ دعوته للنّاس دون أيّ مقابل مادي أو مكسب دنيويّ؛ {قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ} [ص: الآية 86]، وصبر على اختلاف صروف الليالي والأيام حتى وافته المنيّة، لا يكسل ولا يفتر ولا يتردّد، بل هو في إقدام وصرامة حتى بلّغ ما أنزل الله إليه، وهذا دليل على صدقه، وأنّه رسول من عند الله؛ لأن صاحب المطالب الماديّة لصبره حدٌّ ينتهي إليه، فإن لم يحصل على مطالبه الدّنيوية فتر وخمد وانتهى.

وقد وردَ في الأحاديث الصّحيحة في محاورة هرقل ملك الرّوم لأبي سفيان أنّه سأله عن النّبي ﷺ فقال له: «**هل كان في آبائه من مَلكٍ؟**، قال أبو سفيان: **لا**، قال هرقل: فعلمتُ أنّه لو كان في آبائه مَلكٍ لقُلت: **رجل يطلب مُلك آبائه**». [متفق عليه].

فاستدل بهذا على أنّه نبيّ من عند الله؛ لأنّه ﷺ لم يسع لإعادة سلطة ذهبت منه، أو مُلكٍ لآبائه فقَده، ولم يأت ليجمع مالًا؛ لأنّ مطالب النّاس في دعواتهم وثوراتهم إمّا لطلب الملك أو لكسب المال، وقد برئ منهما ﷺ جميعًا؛ لأنّه رسول من عند الله وهذا الاستدلال ليس من أتباعه ﷺ بل من أعدائه في تلك الفترة، وهم ملك الرّوم وأبو سفيان قبل إسلامه (رضي الله عنه).



شهادة آلاف الصحابة له ﷺ:

لقد صحبه ﷺ أكثر من مئة وعشرين ألفًا من المسلمين، صحبوه حضرًا وسفرًا، وليلًا ونهارًا، في حالة سلمه وحربه، وحلِّه وترحاله، ورضاه وغضبه، وجوعه وشِبعه، وصحّته ومرضه، فلم يجدوا منه إلّا الجميل من أقواله وأفعاله، والحسن من تصرّفاته وأخلاقه؛ لأنّه الأوّل في كل خُلُق شريف، ومجد مُنيف، فهو الأوّل في الصّدق والأمانة والتّواضع والزّهد والعدل، والكرم والشّجاعة والسّماحة والوفاء، إلى غير ذلك من الصّفات التي أجمعوا عليها، ونقلوها عنه، فهل سبقه أو لحقه في ميدان الأخلاق والشّمائل شخصٌ، أو نازعه في تلك الرّتبة أحدٌ؟! إنّه الأوّل في كل باب من أبواب الفضائل فصلى الله وسلم عليه.

لقد عاصروه عليه السلام وعرفوا مدخله ومخرجه، وهم من أذكياء النّاس ومن دهاة الرّجال؛ كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي والزّبير وطلحة وسعد وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص ... وغيرهم، زيادة على من أسلم من القبائل المجاورة؛ كلّهم أجمعوا على صدقه وهم يشاهدون مُعجزاته، ويسمعون حديثه، فيزدادون إيمانًا إلى درجة أن يسْتشهِدَ أحدهم بين يديه دفاعًا عن دينه، فيقدّم روحه رخيصةً في سبيل الله بعدما آمن بهذا النّبيّ المعصوم ﷺ.

ولم يحصل هذا في التّاريخ لأيّ قائد إلّا لرسولنا ﷺ، حتى إنّ أتباعه الذين لم يروه وأتوا بعده بمئات السّنوات يحملون هذا الحبّ العظيم، وهذا الإيمان الرّاسخ، وهذه التّضحية الغالية، وهذا الفداء

المنقطع نظيره، الذي لم يُسمع بمثله، فهل حمل أولئك الأبرار على هذا الحُبّ العميق إلّا رسالة نبيٍّ صادق سكبها في أرواحهم، وغرسها في قلوبِهم؟!



إقامته ﷺ لأجمل حضارة عرفتها البشريّة:

بُعث ﷺ إلى أمّة عربيّة، صحراويّة أميّة، لا تملك حضارة، ولا تقرأ ولا تكتب، وإنّما هم رعاة إبلٍ وبقرٍ وغنمٍ؛ فأسّس برسالته أعظم حضارة، وأوجد مرجعيات في كل بابٍ من أبواب الحياة، ولم يتوفّه الله حتى أُنزل عليه: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً} [المائدة: الآية 3].

وتعال أنت بنفسك وادخل في باب العبادات، تجدها كاملة شاملة بأصولها وفروعها ليس بها أيّ نقص، ولا تحتاج زيادة، حتى قال ﷺ: «**مَن أَحْدَثَ في أَمْرِنا هذا ما ليسَ منه، فَهو رَدٌّ**» [متفق عليه]، وتعال إلى أبواب الرّبا مثلًا؛ فقد تكلّم ﷺ بالتّفصيل عن أحكام الرّبا؛ وقد استشهد روّاد الاقتصاد العالمي في العصر الحديث بكثير ممّا ذكره ﷺ، وصار الاقتصاد الإسلامي قائمًا على ما جاء به ﷺ كتابًا وسُنّة، وكذلك في أحكام الحدود، والسّلم والحرب، وأحكام المرأة؛ جميعها مُفصّلة ومبيّنة وموضّحة، حيث إنّ العلماء استغنوا بها تمامًا في مشارق الأرض ومغاربها، وحُكمت بشريعته ﷺ أكثر من مئة دولة إسلامية عبر ألف وأربعِ مئة عام، فهل هذا إلّا ميراث نبوّة لا يتأتى لأحد من البشر-غير النبي- أنّ يأتِي به.



دعوته الواضحة، وحياته المكشوفة:

لم يكن في دعوته ﷺ غموض، ولا في شخصيته ألغاز، وإنّما كانت سيرته ودعوته واضحة بيّنة للعيان، حتى إنّ اللهَ أخبرنا عن بعض خلجات نفسه ﷺ، وبعض ما أسرّ من حديث؛ قال تعالى: {وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا} [التحريم: الآية 3]، وقال تعالى: {ولَوْلاَ أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً} [الإسراء: الآية 74]، وعاتبه ربّه علانيةً فقال تعالى: {عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى } [عبس: الآية 1- 2]، وقال تعالى: {عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ} [التوبة: الآية 43]، وقال سبحانه: {يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ} [التحريم: الآية 1]، فأخبر بذلك وأعلنه

للنّاس، فرسولنا ﷺ أتى بأدلةٍ كالشّمس وضوحًا، ولم يفعل ما فعل الأفّاكون، والمزوّرون، والدجّالون، والسّحارون، الذين يأتون بطلاسم وحركات بهلوانية، وألعاب صبيانيّة، وخدع تضلّل الأفكار، وتزيغ الأبصار.



تصديقه ﷺ للأنبياء عليهم السَّلام:

صدّق ﷺ الأنبياء قبْلَه في دعوة التّوحيد، فإنّ دعوتهم واحدة مُتفقة مُتسقة، لا تختلف دعوته ﷺ عن دعوة الأنبياء قبله في توحيد الباري وعبوديته، كما قال تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} [النحل: الآية 36]، فهذا الاتّفاق لم يأتِ صدفة، وإنّما بتقدير من الله، وهو من أعظم البراهين على نبوّته عليه الصّلاة والسّلام، قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ} [الأنبياء: الآية 25]، وقال ﷺ: «**وَالْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى، وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ**». [مُتفق عليه].



دينه الكامل وشريعته المُحكمة:

شريعته التي جاء بها ﷺ فيها من الإحكام ما لا تُحيط به عقول البشر، انظر إلى قسم العبادات: فالصّلاة مثلًا كم فيها من سرٍّ وحكمةٍ وترتيبٍ ونظامٍ عجيب من الأدعية والأذكار والقيام والرّكوع والسّجود والجلوس، والنّوافل، والفرائض! وصلاة الجمعة، وصلاة الخوف، والعيدين، والكسوف، والاستسقاء والجنائز بأذكارها وصفتها وهيئاتها وأدعيتها، ينقلها الثّقات عن الثّقات حتى وصلتنا كاملة مكمّلة، ثم أحكام الصّيام وما فيه من مُفطّرات، ومُفسدات، وكذلك الحج بما فيه من إحرام، وطواف، وسعي، ووقوف، ورمي، ومبيت، ونحر، وحلق وتقصير، كل ذلك بتفصيلٍ يفوق الوصف، وأحكام الزّكاة وأنصبتها ومقاديرها في الإبل والبقر والغنم والحبوب والثمار والمعادن، إلى غير ذلك من أحكام الإسلام وحدوده وشرائعه، فهل يأتي بهذا إلّا نبيّ مُرسل من عند الله ﷺ؟!



القبول العالمي لدعوته ﷺ إلى يوم الدّين:

ومن علامات نبوته ودلائل رسالته، قبول الناس عبر العصور المختلفة والأماكن المتباينة لدعوته ﷺ وما جاء به، ولو قلتُ: إنّ الّذين اتّبعوه منذ أن بُعث ﷺ إلى اليوم أكثر من مئة مليار مسلم لما كان قولي بعيدًا، فهل يحصل هذا الجمع الهائل عبر التاريخ إلّا لنبيّ معصوم؟! ولك أن تسأل نفسك: ما السّبب الذي أقنع برسالته ﷺ العرب والعجم، والفُرس والأتراك، والأكراد والأمازيغ، والأفارقة والهنود، وشعوب الأرض جميعًا، حتى أصبح اسمه يدوّي على المآذن، ويُردَّد على المنابر، ويتكرّر في المحافل!؟



مقاصد شريعته ﷺ:

ومن دلائل نبوته ﷺ أنّه بُعث بشريعة لم يعرفها النّاس من قبل، أتت بكل ما يصلح للإنسان في دينه ودنياه، ويحافظ على عقله وصحته وماله وعرضه، وإليك بعض الأمثلة اللّطيفة الشّريفة من حياته ﷺ.

أتى ﷺ بالوضوء وما فيه من محاسن وفضائل، وأتى بالسّواك الذي أثبت العلم الحديث نفعه العظيم وطرده للبكتريا والأمراض عن الفم، فقال: «**لَوْلا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي - أَوْ عَلَى النَّاسِ- لَأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ مَعَ كُلِّ صَلاةٍ**» [متفق عليه].

وأتى ﷺ بالصّوم وما فيه من وقاية من الأمراض، فقال ﷺ: «**الصِّيَامُ جُنَّةٌ**» [مُتفق عليه]، وقد أثبت العلماء نفع الصّيام للصّحة.

وفرَض ﷺ الزّكاة: وهي تطهير للمال وتطهير للنّفس، ولذلك سُمّيت بالزّكاة، من التّزكية والتّطهير، ولما فيها من نفع للفقير، وكفاف للمسكين.

أتى ﷺ بكفالة ورحمة الأيتام، وبرّ الوالدين وصلة الأرحام، وأتى بحفظ الضّرورات الخمس، وهي: «الدّين، والنّفس، والعقل، والنّسل، والمال»، فحَفظ الدّين بالوحي المُنزّل عليه، وحرّمَ الشّرك والتّحريف والتّبديل والبدعة، قال تعالى: {فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ} [هود: الآية 112]، وأتى ﷺ بحفظ النّفس، فحرّم قتلها بغير حق، وأعطاها حقوقها، وأحلّ لها ما ينفعها، وحرّم عليها ما يضرّها، وأتى بحفظ العقل، فحرّم على الإنسان كلّ ضار مؤذٍ، كالخمر والسّم والسّحر ونحو ذلك، وأمر بحفظ النّسل فحرّم كلّ علاقة غير شرعيّة، واستبدل بها الزّواج الشّرعي المُباح، وأمر بحفظ المال وشرع

فيه وجوه الكسب المُباح، وحرّم كل ما يُفسده كالرّبا والغش والنّجش والرّشوة وغيرها من المعاملات المحرّمة.

كل هذه الشّرائع بأسرارها تدل على أنّه نبيٌّ من عند الله.

والسّؤال الذي يطرح نفسه: هل هناك زعيم دنيويّ أتى بِعُشر معشار هذه التّعاليم أو عرفها من قبل، أو كانت موجودة في أيّ كتاب سابق، أو ذكرها أحدٌ في أيّ مناسبة؟! كلا إنّما أتى بها النّبي الأميّ الذي جاء بشريعة كاملة تُصلح الدّنيا والدّين.



حياته ﷺ المُختلفة عن حياة مُعاصريه:

ومن أدلة نبوّته ﷺ: حياته الشّخصية التي اختلفت تمام الاختلاف عن حياة النّاس، فمنذ بعثته عليه الصّلاة والسّلام كان له هدي خاص وطريقة مختلفة في سلوكه وآدابه ونظام حياته؛ كخصال الفطرة التي جاء بها من تقليم الأظافر وإعفاء اللّحية وقصّ الشّارب والغُسل والسّواك والنّظافة والطّيب والوضُوء وغير ذلك، بل إنّه ﷺ أتى بآداب الجلوس، وآداب الكلام، وآداب الطّعام، وآداب النّوم، وآداب اللّباس، وآداب السّفر، وآداب الزّواج، وآداب البيع والشّراء، وكل آداب الحياة، فلم يسبقه أحد من العرب ولا العجم بهذا النّظام العجيب المتناسق الذي جاء به ﷺ، فهل يعقلُ أن يأتيَ إنسان من صحراء العرب حيث لا تعليم ولا ثقافة ولا جامعات ولا كليات ولا معاهد ولا أكاديميات بهذه الحياة الكاملة الجميلة المنظّمة المرتّبة التي لا تختلف ولا تتعارض؛ إلّا أن يكون نبيًّا معصومًا مُوحىً إليه من عند الله؟!



تهافت الشُّبه التي عرضها الملاحدة لنبوّته ﷺ:

إنّ الشُّبه التي عرضها الملاحدة لرسالته ﷺ مضحكة وهزيلة وسخيفة وجوفاء، فمثلًا يقولون: إنّه ألّف القرآن من نفسه، وإنّه مُصنِّف هذا الكتاب العظيم. وأنا أقول لهم: هل يُعقل أنّ يؤلّف أميٌّ لا يقرأ ولا يكتب مثل هذا القرآن العظيم؟! وهل سمعتم عبر التّاريخ بمؤلّف ألّف كتابًا كبيرًا ضخمًا عظيمًا يحفظه عن ظهر قلب؟ فقد أتى ﷺ بالقرآن كاملًا في ثلاث وعشرين سنة، والقرآن أكثر من ستّ مئة صفحة، وأكثر من ستة آلاف آية، يحفظها ﷺ، ويعرف معانيها، ويعرف النّاسخ

والمنسوخ، وأسرار ما في هذا الكتاب، ومقاصده وأحكامه، ودقائق إشاراته، ولطيف عباراته، وعلّمه ﷺ أصحابَه، وأصحابُه علّموه مَن بعدهم، حتى وصل إلينا الآن بالقراءات المتواترة، سورةً سورة، وآيةً آية، وكلمةً كلمة، وحرفًا حرفًا، لا يمكن أن تُزاد فيه نقطة ولا حركة، ولا سكنة؛ لأنّه محفوظ من عند الله؛ كما قال تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} [الحجر: الآية 9].

أليس من المعجزة الباهرة، والآية الظّاهرة، أن يحفظ النّبي ﷺ كتاب ربّه في صدره، حرفًا حرفًا، وآية آية، مع أتمّ البيان، وأوضح التّفسير، وغاية المعرفة لهذا الكتاب العظيم؟! ويصلي به في الفرائض والنّوافل، فيقرأ في ركعة واحدة في بعض اللّيالي سورة البقرة ثم سورة النّساء ثم سورة آل عمران عن ظهر قلب فيضًا من صدره، وغيثًا من خاطره، حفظًا مُتقنًا لا يتطرّق إليه الوهم، ولا يعتريه الشّك؟!



دقائق وأسرار شريعته ﷺ لا يُلمّ بها بشر:

ومن أدلة نبوّته ﷺ أنّ أيّ عظيم أو عالمٍ أو فقيهٍ أو كاتبٍ أو أديبٍ أو شاعرٍ أو زعيم تستطيع أن تكتشف حياته بتفاصيلها وتدرك شخصيته إذا أمعنت النّظر في سيرته وأخباره إلّا رسولنا ﷺ، فإنّك مهما تعمّقت وتخصّصت في سيرته وسُنّته وأسرار ما بُعث به من الكتاب والسُّنة لن تُلمَّ بذلك، ولن تستطيع أن تُحيط بما بُعث به، وسوف تبقى طيلة عمرك تكتشف كل يوم شيئًا جديدًا وأسرارًا لم يسبق لك أن عرفتها ولو طال عمرك كعمر نوح عليه السلام، وهذا سرٌّ خاص بشخصه عليه الصّلاة والسّلام، وبشريعته التي بُعث بها.



الإعجاز العلمي العالمي يؤيّد ما بُعث به ﷺ:

آخر ما اكتشف العِلمُ حتى اليوم أيّد ما بُعث به ﷺ في تخصصات دقيقة لا يدركها إلّا العباقرة؛ كعلماء الكيمياء، والأحياء، والفيزياء، والجيولوجيا، والطّب، وعلوم الفضاء، وغير ذلك ممّا يثبت أنّ ما جاء به الرّسول ﷺ فوق طاقة البشر، وأنّه لا يمكن لرجل أميّ إذا لم يكن نبيًّا في قرية من قرى الجزيرة العربية، ومن الصّحراء القاحلة أن يأتيَ بهذه العلوم الباهرة التي تتجدد مع الأيام، وتُكتشف تباعًا مع مرور الأعوام، ولا زال هؤلاء المخترعون، والمكتشفون، والأطباء، والعلماء، يكتشفون نظريات قد أخبر بها النّبي ﷺ من ألف وأربعمئة عام.

لقد أخبر ﷺ بمراحل نمو الجنين في بطن أمّه بكل دقّة وتفصيل، بوحي مُقدّسٍ كتابٍ وسُنّة، وقد نَزَل عليه ﷺ قول الله تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ} [المؤمنون: الآية 12 - 14]، وقال ﷺ: «**إذَا مَرَّ بالنُّطْفَةِ ثِنْتَانِ وَأَرْبَعُونَ لَيْلَةً، بَعَثَ الله إلَيْهَا مَلَكًا، فَصَوَّرَهَا وَخَلَقَ سَمْعَهَا وَبَصَرَهَا وَجِلْدَهَا وَلَحْمَهَا وَعِظَامَهَا، ثُمَّ قالَ: يا رَبِّ أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى؟ فَيَقْضِي رَبُّكَ ما شَاءَ، وَيَكْتُبُ المَلَكُ**» [رواه مسلم]، وقال ﷺ: «**إنَّ أحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ في بَطْنِ أُمِّهِ أرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذلكَ، ثُمَّ يَكونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذلكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ الله مَلَكًا فيُؤْمَرُ بأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، ويُقَالُ له: اكْتُبْ عَمَلَهُ، ورِزْقَهُ، وأَجَلَهُ، وشَقِيٌّ أوْ سَعِيدٌ، ثُمَّ يُنْفَخُ فيه الرُّوحُ**» [مُتفق عليه].

فليس هناك عاقل أو عادل منصف يطّلع على هذه الأحاديث ولا يعترف ولا يُقرّ بنبوّته ﷺ، وقد وقف علماء وأطباء علم الأجنة مُندهشين مذهولين مُعجبين بدقّة وصفه ﷺ، وكأنّه يُشاهد الجنين في مراحل تكوينه من خلال مجهرٍ أو من أمام شاشة تلفزيونيّة، ويحدِّد وصفه وحركته، ومراحل نموه بكل دقة ووضوح، ففاجأ ﷺ العالم أجمع بهذه المعلومات التي أثبت العِلم صحتها، والطّب مصداقيتها بعد ألف وأربعمئة عام، فلا نملك إلّا أن نقول؛ سبحان الخالق المصوّر!، نشهد أن لا إله إلّا هو، ونشهد أن محمدًا عبده ورسوله ﷺ.



احتواء رسالته ﷺ على ما يُقنع كلّ صاحب تخصص في تخصّصه:

كلّ إنسان يجد حسب علمه وفنّه وتخصصه في رسالة النّبيّ ﷺ ما يقنعه من الإعجاز والبراهين بصدقه ﷺ، ولا أحصي ولا أعدُّ كم قرأتُ أو لقيتُ أو سمعتُ أو شاهدتُ ممّن يذكر تجربته في إيمانه بالرّسول عليه الصّلاة والسّلام، فبعضهم آمن لمّا قرأ القرآن فبهره إعجازه، وبعضُهم أسرته شخصية النّبيّ ﷺ لما قرأ سيرته، وبعضُهم طالع حديثًا نبويًّا يتحدث فيه ﷺ عن علم الغيب، وآخر اطّلع في آية على سرٍّ من أسرار الكون، وآخر قرأ علم المعجزات في حياته ﷺ، وآخر قرأ فتوحاته وانتصاراته ﷺ، فهو ﷺ صاحب الإعجاز في سيرته وسنّته وكتاب ربه وشريعته.

وكلّ أصحاب تلك الفنون- على اختلاف مشاربهم وتخصصاتهم- وردوا جميعًا فوَجد كلٌّ منهم بغيته، وحصل على ما أقنعه، وما حمله على الإيمان به، واتّباعه ﷺ، وهذه من أعظم الأدلة

على أنّه رسولٌ من عند الله عزّ وجل.



الوحي الْمُقَدَّس الذي أُرْسِل به ﷺ لا يُملّ مهما تكرّر:

مهما كرّرت القرآن قراءةً وتدبرًا، وكذلك السُّنة النّبوية، فإنّك لا تشعر أبدًا بالسّأم ولا الضّجر ولا الملل، بل تحصل على استنباطات جديدة، وأسرارٍ مفيدة لم تكن تعرفها من قبل، ودقائق من المعرفة لم تطلع عليها سابقًا، وأتحدّى أن يوجد هذا في تراث أيّ إنسان آخر عبر التّاريخ مهما كان علمه أو فلسفته أو فقهه أو أدبه، فإنّ أيّ إنسان آخر مهما بلغ تراثه؛ فهو تراث محدود يمكن أن يُعرف ويُفهم في فترة من الزّمن، ثم يصبح مألوفًا لا جديد فيه، إلّا رسولنا ﷺ وما بُعث به من تركة مباركة وميراث مقدّس من عند الله.

وانظر الآن كم تُكَرّر علينا سورة الفاتحة في الفرائض والنّوافل، وفي المحافل والمُناسبات وكأنّها جديدة لأوّل مرّة نسمعها! بل القرآن كلّه، كم كُرّر على أسماع البشريّة! وكم رُدّد على الآذان! وكم خاطبَ القلوب! لا تجدُه إلّا غَضًّا طريًّا جديدًا في كل مرة، وهذا سرّ إعجاز هذا الوحي الذي بُعث به النّبي ﷺ.

اقرأ هذه الآيات بقلبك، وطالعها بروحك، مُتدبّرًا مُتفكرًا؛ لأنّ هذا الكلام المُعجز المُفحم الخالد لا يكون إلّا كلام الله، لتنبعث من قلبك: أشهد أن لا إله إلّا الله، وأشهد أنّ محمدًا رسول الله، صادقة، قوية، مؤثّرة، قال تعالى: {وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى * وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى * فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى * مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى * أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى * وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى * عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى * إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى * مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى * لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى} [النجم: الآية 1- 18].



أميّته ﷺ قبل النّبوة وبعدها:

أسألكم بالله أن تقفوا أمام ضمائركم ونفوسكم وتاريخكم وأن تجيبوا عن هذا السّؤال المحيّر الدائر في الكون بأسره، تصوّروا طفلًا نشأ في قرية من قرى الجزيرة العربية، في بيتٍ من حَجرٍ بلا تعليم ولا دراسة، يتيمٌ فقيرٌ لم يشاهد بعينيه شيخًا ولا أستاذًا ولا دكتورًا، ولم ير سبّورة ولا طبشورة، ولم يحمل قلمًا ولا قرطاسًا، ولم يدخل كليةً ولا مدرسة ولا جامعة ولا أكاديمية، وما خطَّ حرفًا وما قرأ صفحة واحدة، ثم يصل إلى الأربعين من عمره وهو أميّ لا يفك حرفًا ولم يطالع سطرًا؛ وفجأة يدلف على العالم وينادي على الصّفا في العالمين قولوا: لا إله إلّا الله، فإذا به يحفظ الوحي فيكون أعظم معلم، وأكبر مربٍّ، وأجلَّ قائدٍ، وأعدَل حاكم، يتلو القرآن على المنبر وفي المحراب، ويفتي النّاس في كل شأن من شؤون حياتهم، في العقيدة والعبادة، والأخلاق والآداب والسّلوك، والدّنيا والآخرة، وعالم السياسة والمال وحقوق الإنسان، والمرأة والأمومة والطفولة، والحدود والمعاملات، ويتحدث لهم عن عالم الجنّة والنّار، وعالم الأفلاك والأبراج، وعالم الجنّ والإنس، ويتلو عليهم كتابًا معجزًا مفحمًا ويتحدّاهم به ويناديهم جهارًا نهارًا: تعالوا بكتاب مثله، أو بعشر سور مثل سُوَره، أو بسورة واحدة، فيعجزون، وهم أهل البلاغة وروّاد الفصاحة، وشُدَاة الحرف، وأهل سوق عكاظ، وأئمةُ البيان في العالم، فتراهم أمام هذا التّحدي يعلنون الإفلاس والانهزام، ويبقى ﷺ يقود ملحمة الانتصار والفتح.

وقد وصف اللهُ نبيّه محمدًا ﷺ بالأميّة فقال تعالى: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ} [الجمعة: الآية 2]، فكونه ﷺ أميًّا لا يقرأ ولا يكتب أعظم معجزة في صدق نبوّته، وأنّه رسولٌ من عند الله، إذْ لو كان يكتب قبلها ويقرأ لاتُّهِم، مع هذا كابرت قريش المعقول، وخالفت المعروف فاتهمته عليه السلام بأخذ القرآن من غيره، كما قالوا: {وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً} [الفرقان: الآية 5]، فأبعد اللهُ الشّبهة عن نبيّه، وأزال التّهمة عن رسوله، فجعله نبيًّا لا يقرأ كتابًا، ولا يخط حرفًا، كما قال تعالى: {وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لاَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ * بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ} [العنكبوت: الآية 48 - 49]، فهو ﷺ لم يحمل قلمًا، ولم يخط قرطاسًا، حتى إنّه في صلح الحديبية عندما أمر ﷺ عليّ بن أبي طالب (رضي الله عنه) أن يمحوَ لفظ: **(رسول الله)** من الكتاب لمّا طلب ذلك سُهيل بن عمرو ممثّل المشركين في المصالحة، ورفض علي بن أبي طالب أن يمحوَ اسم (رسول الله)، فأخذ ﷺ الكتاب بعدمَا عرف موضع هذه الكلمة منه فمحاها، وهو لا يجيد أن يكتب هذه

الكلمة، وإنّما دُلّ عليها ﷺ، كما قال بعض الشرّاح، ولذلك يقول اللهُ تعالى: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي} {يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ} [الأعراف: الآية 157]، فأميّته ﷺ مصدر قوّة، ودليل نبوّة، وبرهان رسالة، وحجة إعجاز، فسُبحان مَن جعل نبيّه أميًّا يستقي من نهر علمه العلماء، فما من عالم شريعة، ولا مفسّر ولا فقيه، ولا قاضٍ ولا كاتبٍ، ولا داعيةٍ ولا خطيب، إلّا وهو تلميذ من تلاميذه، وناهل من بحر معارفه، وغارفٌ من محيط علمه، كما قيل:

فكُلُّهُمْ مِنْ رَسُولِ الله مُلْتَمِسٌ ... غَرْفًا مِنَ البَحْرِ أَوْ رَشْفًا مِنَ الدِّيَمِ

فهو لم يكتب ولم يقرأ طيلة حياته، وبقيت مُعجزاته الخالدة مع أميّته حتى وفاته ﷺ، وهو يقول كما في «الصّحيحين»: «**إنّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ، لا نَكْتُبُ ولا نَحْسُبُ**»، ولهذا آملُ منك أن تطالع نصوص الوحي كتابًا وسنّة، وما فيها من حسابات وأعداد وتقاسيم وتفاصيل، وأنواع، ونظام دقيق للأسرة والمجتمع والأمة، وما فيها من فنون وآداب، وحكم وأسرار، في كل شأن من شؤون الدّنيا، وفي كل قضية من قضايا العالم، في عالم الغيب والشّهادة، والدّنيا والآخرة، وكل ما يهم الإنسان منذ ولادته إلى موته، ومن موته إلى أن يستقر في رحمة الله ورضوانه، أو في عذابه وسخطه ـ أعاذنا الله ـ كل هذا يُحدّثك عنه النّبيّ المعصوم ﷺ.

آملُ منك أن تقف مع هذه اللّحظة، وتتصوّر هذا المشهد، وهو كون هذا النّبي الكريم ﷺ يأتيه السائل في أيّ مسألة من المسائل الخاصة أو العامة، وفي أيّ باب من أبواب العلم، في الطهارة مثلًا، أو الصّلاة أو الزّكاة، أو الصّيام أو الحج، أو سائر العبادات أو الحدود أو الآداب، أو أيّ شأن من شؤون الحياة، وتأتيه المرأة في شأنها الخاص، في حيضها وطُهرها ونفقتها وعلاقتها بربّها أو بزوجها أو بأهلها، فيفتي الجميع بداهةً، ويجيب النّاس مباشرةً، لا يراجع كتابًا، ولا يبحث في مصنّفٍ، ولا يعود إلى علماء ليستشيرهم، بل جوابه حاضر، وردّه جاهز، مع العصمة من الخطأ، والحفظ من الزّلل، والبيان التّام، والحجّة القاطعة، والبرهان السّاطع، صلوات الله وسلامه عليه دائمًا وأبدًا.

وأقول هنا كلمةً في كون النّبي ﷺ أميًّا لم يسبق أنْ قُلتها من قبل، وهو أنّ هذا النّبيّ الأميّ ﷺ إذا تكلّم، فإن كلامه يصبح مادةً يدرسها نوابغ العالم وعباقرة الدّنيا، كلٌّ في تخصّصه، فأساطين اللّغة يدرسون حديثه من جانب الإعجاز والبيان والبديع اللّغوي، وروّاد أصول الفقه يغوصون في لُجج بحره؛ لاستخراج قواعد الشّريعة، وضوابط الملّة، وشرّاح الحديث وأهل الأثر ينهلون من معين

سنّته ﷺ، ويستخرجون منه الدّرر والجواهر، والقضاة والمفتون والفقهاء يفتحون القناطير المقنطرة من ميراثه الشّريف ﷺ ليجدوا بغيتهم المنشودة من فيض العلم الرّاسخ الثّمين، فيكون مادةً لفتاويهم، وفصلهم بين النّاس، وتعليم الأمّة الأحكام، والآداب والأخلاق والسّلوك.

ولقد سافرتُ إلى كثير من دول العالم، فوجدتُ علماء الأحناف، وعلماء المالكية، وعلماء الشّافعية، وعلماء الحنابلة، والتقيتُ بأهل الحديث وحفّاظ السنّة وجلستُ مع الخطباء والدّعاة والقضاة والأصوليين والمُفسّرين، ثم عدتُ إلى نفسي وقلت: سبحان الله! كل هؤلاء، على اختلاف مشاربهم، وتعدّد مواهبهم، وتباين ديارهم، واختلاف أمصارهم، وتباعد أقطارهم، استفادوا هذا العِلمَ من معلم الخير ونبيّ الرّحمة ﷺ، فأزدادُ عجبًا!، وأعود لنفسي وأردد في خاطري: اللّهم صلّ وسلّم عليه، اللّهم صلّ وسلّم عليه، اللّهم صلّ وسلّم عليه.



حواره ﷺ مع اليهود والنّصارى:

لقد حاور ﷺ بالدّليل والبرهان والْحُجَّة الدّامغة علماء اليهود، فأسلم منهم عبدالله بن سلام وغيره، وحاور رهبان النّصارى ودعاهم إلى المباهلة، فعرفوا أنّه نبيّ فلم يباهلوه، وقد حدّث ﷺ اليهود والنّصارى بقصص وأخبار من دينهم فصدّقوه فيما أخبر، فما هو الطّريق الذي أوصل له ﷺ هذه الأخبار والأدلة والبراهين إلّا إيحاء الله له، وتنزيل الذّكر الحكيم عليه.



ضعفاء النّاس يتبعونه ﷺ قبل أشرافهم:

في «الصحيحين» أنّ هرقلَ ملك الروم سأل أبا سفيان عن أتباعه ﷺ: أشرافُ الناس يتّبعونه أم ضُعفاؤهم؟. فقال: بل ضعفاؤهم. قال: هم أتباع الرّسل، وهذا دليل صحيح، فإنّه ﷺ لم يكن لديه من أمور الدّنيا والمُلك ما يُغري الناس به، وإنّما يقصده النّاس لأجل الحقّ الذي عنده؛ ولهذا أتاه الضّعفاء للبرهان والحجّة التي عنده، والنّور السّاطع الذي يحمله ﷺ، وهذا من أعظم الأدلة على نبوّته ﷺ.



دعوته ﷺ بدأت بفرد وانتهت بمليارات البشر:

في الحديث الصّحيح في محاورة هرقل ملك الروم لأبي سفيان (رضي الله عنه)، أنه سأله عن أتباعه: أيزيدون أم ينقصون؟ قال: بل يزيدون، فاستدل بهذا على نبوّته ﷺ، فإنه بدأ رسالته فقط بأبي بكر الصّديق (رضي الله عنه)، وكانت كل القبائل تحاربه في جزيرة العرب، ثم بدأ تزايد الأتباع واتسع نطاقهم خارج مكة حتّى عمّ الجزيرة، ثم انتشر في أصقاع الدّنيا حتى طبّق القارات جميعًا، وعمّ العالم بأسره، على اختلاف اللّغات واللّهجات والألوان والأجناس، والزّمان والمكان.



رغم الانكسارات فإنّه واصل الانتصارات:

ومما استدل به عقلاء العالم وعلماؤهم على نبوّته ﷺ أنّه رغم انكساراته فإنّه واصل انتصاراته، واستدل بهذا هرقل كما في «الصحيحين» لمّا سأل أبا سفيان: كيف قتالكم إيّاه؟ فقال (رضي الله عنه): الحرب بيننا وبينه سجالٌ ينال منّا ونَنالُ منه. (أي: أحيانًا ينتصر وأحيانًا ننتصرُ عليه)، والدّليل في هذا على نبوّته أنّه لو كان من أهل الدّنيا أو يريد مُلكًا أو جاهًا أو ثروة لانحصرت دعوته وتلاشت، لكن رُغم ما حلّ به من أذى وشدّة، وانكسار أحيانًا وبلاء وقتل في أصحابه، وتشريد له من وطنه، وتعذيب لِمُحِبّيه، بقي صامدًا صادقًا، مواصلًا مُحتسبًا، حتى نصرهُ اللهُ نصرًا مؤزّرًا، وقال كلمته المشهودة يوم فتح مكة، التي هزّت العالم، وحرّكت المشاعر، ووقفت لها الأيام: «**الْحَمْدُ لله اَلَّذِي صَدَقَ وَعْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدُه، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ**» [رواه أبو داود].



الكمال البشريّ برهان على نبوّته ﷺ:

أيّ عظيم أو زعيم أو عبقري أو مبدع تجد في حياته جوانب إيجابيّة وسلبيّة، كمالًا ونقصًا، وهي طبيعة البشر، فقد تجد العالِم ولكنّه ليس بكريم، أو كريمًا وليس بحليم، أو حليمًا وليس بشجاع، أوعادلًا وليس بمتواضع... إلى غير تلك الصفات التي لا تجتمع مُكتملة في البشر، كما قالوا في المثل: «**الكمال عزيز**»، وكما قال الشاعر:

وَمَن ذا الَّذي تُرضى سَجاياهُ كُلُّها ... كَفى المَرءَ نُبْلًا أَن تُعَدَّ مَعايِبُهْ

سِوى المصطفى فَهْو المُشرّف قدرُه ... عظيمٌ تَناهتْ فِي الكَمَال مناقِبُهْ

أمّا رسولنا ﷺ فإنّ اللهَ جمع له كلّ المحاسن في أجمل صورها، وجميع الفضائل في أبهى حُلَلِها، فهو ليس مُجرد صادق بل أصدق الصّادقين، ولا مجرد شجاع بل أشجع الشّجعان، ولا مجرد حليم بل أحلم الحلماء، ولا كريم فحسب بل أكرم الكرماء، ولا فصيح فقط بل أفصح الفصحاء، فهو في كلّ خُلُق الأوّلُ، لا يوجد خُلق شريف ولا مجد منيف إلّا له المنصب الأعلى، والأمد الأقصى ﷺ، له الكمال البشريّ المطلق وليس لأحد غيره من النّاس، وفي هذا دليل على أنّ الله سبحانه صنعه على عينه، واصطفاه وهذّبه وأدّبه وحلّاه بأجمل السّجايا وأفضل الخِلال وأنبل الخصال؛ ليكون قدوة للنّاس وأسوة للبشر.



ثلاثة وعشرون عامًا من الرّسالة دون تحريف أو اختلاف:

فرض اللهُ تعالى على نبيّه ﷺ عبادات مختلفة فيها بعض المشقّة، منها الصّلوات الخمس في اليوم واللّيلة في أوقات مُحدَّدة، تُؤدَّى هذه الصّلوات في الحضر والسّفر، والصّحة والمرض، والشّدة والرّخاء. وكذلك الصّيام، شهرٌ في كل عام، قد يُصام في شدّة الحرّ مع الفقر وألم الجوع والعطش. والحج يُدعى إليه من كافّة أقطار الأرض وما فيه من مشقة السّفر وكُلفة الزّاد والرّاحلة؛ فلو كان ﷺ مُدّعِيًا للنّبوة، وكانت هذه العبادات من اختياره وليست من عند الله؛ لكان الأولى أن يُسهّل على أتباعه ليجذبهم إلى دعوته بأمور سهلة مُيسّرة، كأن يجعل الصّلاة مثلًا مرة واحدة، ويُلغي الحج، ويجعل الصّيام يومًا واحدًا في العام أو نحو هذا، ولكن لا يستطيع ذلك؛ لأنّها فرضٌ وأمرٌ من ربّ العالمين جلّ في علاه، وقد التزم النّبي ﷺ بهذه الشّعائر طيلة حياته، وكذلك الصّحابة رضوان الله عليهم، ومَن أتى بعدهم منْذُ ما يُقارب ألفًا وأربعَ مئةِ عامٍ في أقطار الأرض، وأنحاء العالم يُؤدونها باستحسان، وشوق وحبٍّ، دون تبديل أو تحريف أو تغيير، فهذا من أعظم أدلة نبوّته ﷺ.



النّبيّ ﷺ بشر يُوحى إليه:

اختاره اللهُ إنسانًا لكنّه أكرمُ الإنسانيّة، واصطفاه بشرًا لكنّه أشرفُ البشريّة، ولا بد للرّسول ﷺ أن يعيش كما يعيش النّاس، يتألم كما يتألمون، ويفرح كما يفرحون، ويحزن كما يحزنون، ويجوع كما يجوعون، ويضحك كما يضحكون، ويبكي كما يبكون، يشعر بهم، ويعيش معهم،

ويشاركهم الآمال والآلام، والصّحة والمرض، والغنى والفقر، والنّصر والهزيمة، ليكون أسوة وقدوة.

ظهرت إنسانية الرّسول ﷺ في أبهى صورها، وأجمل مشاهدها، وهو يعيش الحياة بكل أطوارها، عاش الطفولة طُهرًا ونقاءً، وقضى الشباب صدقًا ووفاءً، رعى غنمه، وكنس بيته، وخصف نعله، ورقع ثوبه، وساعد أهله، وخدم ضيفه. ضحك في ساعة الأُنس فملأ الحياة بهجةً وسرورًا، وبكى لحظة الحزن فأسال الدّموع، وأشجى النّفوس، ورسم بدموعه قيمة الحياة. قال ففصل، وحكم فعدل، وخطب فأبان، ووعظ فألان. أوجز فأعجز، وأطنب فأطاب، ظهر واشتهر فبهر، قاد فأجاد وأفاد، كان يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، يأكل كما يأكل النّاس ويشرب كما يشرب البشر، ويتزوّج النّساء، ويحزن ويفرح، ويجوع ويظمأ، ويمرض ويتداوى.

ومن أدلة مظاهر بشريته ﷺ أن اللهَ توفّاه كما يتوفّى البشر، قال سبحانه: {وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ} [الأنبياء: 34]، فكان ﷺ بشرًا لكنه رسول، وكان إنسانًا لكنّه نبيّ، شرّفه الله بالوحي كما قال سُبحانه: {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} [الكهف: الآية 110].

ومن بلاغة القرآن أنّه حدّد بشرية النّبي ﷺ مثلنا {بَشَرٌ مِثْلُكُمْ} ، ولم يقل بشرًا فقط، حتى لا يظن البعض أو يدّعي أحد أنّ للرّسول ﷺ بشريّة خاصة تختلف عن بشرية الآخرين.

وحال النّبي ﷺ في بشريته هو حال جميع الأنبياء، قال تعالى: {وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لاَ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ} [الأنبياء: الآية 8]، فمن لطف الله بالخلق أنّه سبحانه أرسل جميع الأنبياء عليهم السّلام بشرًا، حتى يكون التّخاطب والتّفاهم بينهم وبين النّاس سهلًا واضحًا، يقول تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ} [إبراهيم: الآية 4].

وأعلن ﷺ تجرّده من الحول والقوة والخوارق التي يدّعيها الدّجالون والأفّاكون، فهو يُعلن بشريته، ويعلن بوضوح وصراحة أنّه لا يملك ضرًّا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، ويُنزّل عليه: {قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ} [الأحقاف: الآية 9]، فهو ﷺ لا يعلم من الغيب إلّا ما علّمه الله: {وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ} [الأنبياء: الآية 109]، فلا يعلم متى تقوم السّاعة، ولا يعلم ما في الأرحام، بهذا

الصّدق المكشوف، وبهذا التّجرد الظاهر أمام النّاس، ولو كان كاذبًا-وحاشاه-لأظهر ناموسًا مُزيّفًا، وكلامًا مُزخرفًا، وقام بحركات بهلوانية، وادّعى كرامات ذاتية، ولبّس على النّاس، لكن الله صانه وأجاره عن ذلك كلّه.

ومن إنسانيته وبشريته ﷺ أنّه تزوّج النّساء وأنجب ذريّة، كما قال تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً} [الرعد: الآية 38]، وكما صحّ عنه ﷺ أنّه قال: «**لَكِنِّي أُصلِّي وَأَنَامُ، وَأَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّساءَ، فمَن رَغِبَ عن سُنَّتي فليسَ مِنِّي**» [متفق عليه]، فكان عليه الصّلاة والسّلام قدوة لأمّته في كل حال من الأحوال، وكل شأن من شؤون الحياة، فهو ﷺ بشر ليس مَلَكًا لا يأكل الطعام، ولا يمشي في الأسواق، وأيضًا لم يكن بشرًا عاديًا غير معصوم، قد يحصل منه الهوى والزّيغ، بل كان يوحى إليه، وكان نبيًّا معصومًا مؤيدًا بوحي مقدّس، فاجتمعت فيه النّبوة والإنسانيّة ﷺ، كما قيل:

إنّ البريّة يوم مبعث أحمدٍ ... نظرَ الإلهُ لهَا فبدّل حَالهَا

بلْ كرَّم الإنسانَ حين اختَارَ مِن ... خَيرِ البريّة نَجمَهَا وهِلالَهَا

لبسَ المرقّعَ وهْو قائدُ أُمّةٍ ... جَبَتِ الكنوزَ وكسَّرتْ أغْلَالَهَا

لمَا رآهَا المجد تمشِي نَحْوَه ... في همةٍ فوق النجوم سَعَى لهَا



حياته ﷺ دستور أخلاق، وجامعة للتّربية والآداب:

لم يُعرف في العالم على مرّ التاريخ أيّ إنسان، زعيمًا كان، أو شاعرًا، أو حكيمًا، أو أديبًا، أو غنيًّا، أو تاجرًا، أتى بطريقة مُثلى للحياة، ونهج قويم للمعيشة، كما أتى بها النّبي ﷺ، فقد أتى بالخصال النّبيلة، والسّجايا الحميدة، والأخلاق العظيمة، والفضائل الشّريفة، بل إنّه ﷺ أتى بأدق التّفاصيل التي تُحوّل حياة الإنسان إلى الأجمل والأفضل، وتجعله أقرب من خالقه ومولاه، فكانت حياته دقُّها وجلُّها مميزةً عن الجميع، مملوءةً بالطّهر والشّرف والأمانة والمعروف، بعيدة كلّ البُعد عن التّطرف، والمنكرات، والفواحش، ورذائل الأمور، وسفاسف الأخلاق، وقبائح الأفعال، وبدر منير ظهر في ليلة داجية الظلمة، فمن علّم نبيّنا ﷺ هذه الطّريقة في الحياة وهو لم يدرس في مدرسة، ولا جامعة، ولا كلية، ولا أكاديمية، ولم يأخذها من أستاذ، ولا شيخ، ولا مربٍّ، ولا فيلسوف، ولا

حكيم؟ إنّما تعلّمها عن طريق الوحي، ولم تكن هذه الطريقة وهذا المنهج إلّا لرجل واحد، ألا وهو محمد بن عبدالله ﷺ. وكفى بهذا شاهدًا على نبوّته، وهذا نقوله عن طريق التّحدّي المؤيد بالبرهان والدّليل.

ومن الإعجاز أنّه شرع ﷺ في الوضوء والطّهارة والغُسل والتيمّم أكثر من مئة حديث، وفي اللّباس والطّيب والطّعام والشّراب أكثر من مئة حديث، وفي المشي والجلوس والكلام، والدخول إلى المنزل والخروج منه، وآداب الطريق أكثر من مئة حديث، جميعها مُرتّبة، مُنظّمة، مُتّفقة، لا تضادّ بينها، ولا اختلاف، صحيحة ثابتة، تناقلها عنه أصحابه (رضي الله عنهم)، وطبقوها في حياتهم، فصارت حياته دستورًا للأخلاق، وجامعة للتّربية والآداب.



تحريم الزّنا، والرّبا، والخمر، والفواحش:

لم يكن في عهد النّبي ﷺ أحد يعترف بأنّ الخمر أو الزّنا أو الشّذوذ لها تأثير في صحة الإنسان، أو أنّها تُسبّب الأمراض المُدمّرة لجسد الإنسان، بل كان العرب يتفاخرون بهذه العادات السّيئة، ولو لم يكن محمد ﷺ رسولًا من عند الله لما أقدم على منع مجتمعه من أهوائهم ورغباتهم، كما يفعل كثير من أهل الدّنيا الذين يريدون الرّئاسة أو الزّعامة أو متاع الدّنيا، فإنّهم يلتمسون موافقة الناس في الشّهوات والمُحرّمات ليكسبوا ودّهم، بل جاء ﷺ بموقف حاسمٍ ووحي مقدّسٍ، وأمرٍ إلهي لا يقبل الجدال ولا التّنازل ولا التّساهل في تحريم هذه الفواحش والمنكرات، رضي من رضي، وسَخط مَن سخط، قبل مَن قبل، ورفض مَن رفض، وهذا دليل على نبوّته ﷺ، وأنّه لا ينطق عن الهوى، ولا يذهب وراء رغبات النّاس، ولا يريد جاهًا دُنيويًا ولا مُلكًا ولا زعامة، بل أتى بتحريمها؛ لأنّه يريد ما عند الله، وأن يُوصل رسالة الله لعباده، ويُوصل عباده به سبحانه، ليحفظهم من كلّ أذى وضرر، وكان هدفه ﷺ هداية الإنسان إلى حياة كريمة قويمة، فيرشده إلى مصالحه في الدّنيا فيأتيها، ويدلّه على مضارّها فيجتنبها؛ لأنّه ﷺ جاء رحمة للعالمين كما قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ} [الأنبياء: الآية 107].

وقد أثبت العلم الحديث أنّ هذه المُنكرات لها أضرار بالغة على صحة الإنسان، وتكون سببًا إلى وفاته في الغالب، إضافةً إلى ذلك تأثيرها السّلبي فيمَنْ حوله أيضًا، حتى الغضب الذي كان

يتفاخر به العرب، ويعتبرونه دليلًا على القوة والعنفوان، وصفةً تُميّز كبراء القوم، نهى عنه ﷺ، فَقَدْ جاءه رجلٌ وقال: **أوصني**، فقال ﷺ: «**لا تغضب، فردّد مرارًا، فقال ﷺ: لا تغضب**» [رواه البخاري].

وقد أثبت الأطباء والعلماء بعد ألفٍ وأربعِ مئة عامٍ من بعثته ﷺ أنّ للغضب أخطارًا كثيرة وأضرارًا جسيمة، وأنّ عدم تحكم الإنسان في غضبه وسيطرته عليه يؤدّي به إلى الأعمال الإجراميّة، والمُشكلات الصّحية والعقلية، فسُبحان مَن أرسله نبيّا هاديًّا إلى النّهج القويم والطّريق المُستقيم!



مُعجزة الإسراء والمعراج:

جاءت رحلة الإسراء والمعراج دواءً لقلبه المكلوم ﷺ، ولنفسه الجريحة بأبي هو وأميّ، جاءت هذه المعجزة تأييدًا من الله لنبيّه ورسوله، ونصرة واحتفاءً وعزاءً ومواساة له، بعد مرور ثلاث سنوات من حصار المُشركين الجائر، والجوع والمشقّة والحزن المرير، وبعد أن مات عمّه أبو طالب الذي ناصره ودافع عنه، وبعدما ماتت زوجته الوفيّة الحفيّة خديجة (رضي الله عنها) التي كانت تواسيه وتعزّيه، وبعدما عُذّب أصحابه، وأُوذي أحبابه، واشتّد عليه الخصوم، وتكالب عليه الأعداء، وتآمر عليه البعيد، وخذله القريب.

فمَن يُدافع عن هذا النّبي ومَن يواسيه؟ ومَن يَنصره ومَن يحميه؟ ومَن يتولاه ومَن يُعالج جروحه؟ ومَن يؤيده؟ إنّه الله خالقه ومُرسله.

فأتى الأمر الإلهيّ بإسراء النّبي المُجتبى من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، والعروج به إلى السماء السّابعة، إلى الملكوت العليا إلى سدرة المنتهى، مُخترقًا السّماء، ليقال له: تعال فلك الزّلفى، ولك التّأييد، ولك البُشرى، فسوف تنتصر، وسوف تفتح العالم؛ لأنّ معك عناية الله، ورعاية الله، وحفظ الله.

وجاءت أيضًا رحلته ﷺ إلى السّماء؛ ليكون مُستعدًا لاستقبال المعجزات الكبرى والآيات العظيمة، كما قال تعالى: {لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى} ، [النجم: الآية 18]، وليتحمّل الشّدائد والمتاعب التي ستأتي؛ لأنّ الله يملأ قلبه يقينًا بما رأى من العيان والبيان.

وقد ذكر القرآن الحكيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه قصة الإسراء والمعراج، ونقلها الثّقات، ورواها أصحاب الصّحاح بأسانيد كالشّمس، وقد أجمع علماء الإسلام على صحة هذه المعجزة العظيمة.

وفيها من الإعجاز أنّ رسولنا ﷺ قد شاهد الأنبياء عليهم السلام، ورحبوا به جميعًا، وشهدوا برسالته، وأقروا بنبوّته، وأخبر عنهم واحدًا واحدًا، ووصفهم وصفًا دقيقًا لا يختلف عن أوصافهم في كتبهم، وعاد إلى مكة وقد رأى آيات الله الكبرى رأي العين، فعَظُم يقينه بالمعاينة أعظم من يقين الخبر، قال تعالى: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الإسراء: الآية 1].

فبدأ الله تعالى الآية الكريمة بقوله: {سُبْحَانَ}، ليُقدّس نفسه عن النّقص ويُثبت لها الكمال والقدرة؛ لأنّه سُبحانه خرق العادة لرسوله ﷺ حيث أسرى به في أطول رحلة في التّاريخ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثم عرج به إلى السّماء السّابعة إلى سدرة المنتهى، وسمع صَرِيف الأقلام في جزء من ليلة، أي: أنّه قطع ملايين السّنوات الضّوئية في ساعات محدودة، ولو أنّ العرب في جاهليتها وفي وقت مبعثه ﷺ قيل لهم: إنّ الإنسان قد يسافر إلى شرق الصين، أو غرب أوروبا عابرًا البحار والمُحيطات والجبال والصّحراء في ساعات محددة؛ لما صدّقوا ذلك ولا آمنوا به، والبشر الآن يسافرون من دولة إلى دولة، ومن مدينة إلى مدينة بالطّائرات والسّيارات والسّفن في ساعات، فكيف برحلة يُسخرها ربّ الأرض والسّماوات لنبيّه ومُصطفاه ﷺ؟! هنا تتجلى قدرة الله، وكرامة الله، وآية الله، ومكانة رسول الله ﷺ.

{بِعَبْدِهِ} : واختيار كلمة (عبده) هنا مقصودة، لإثبات تتويج النّبي الكريم ﷺ بتاج العبوديّة؛ لأنّ أجمل التّشريف وأعلى المقامات هو مقام العبودية لله ربّ العالمين، ولهذا وصف سُبحانه أنبياءه فقال: {إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا} [الإسراء: الآية 3]، وقال: {نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ} [ص: الآية 30]، وقال: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ} [الكهف: الآية 1].

{لَيْلاً} : ليلًا حيث كتم الأسرار، ومناجاة العزيز الغفّار، والنّجاة من الأعداء، ولهذا قال تعالى لنبيّه موسى عليه السلام: {فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً} [الدخان: الآية 23]، فوقعت المُعجزة الباهرة ليلًا، وفي معجزة الإسراء والمعراج تحقّق له ﷺ مشاهدة آيات الله الكبرى، وفُرضت عليه الصّلاة

عن رحلة المعراج؛ فبالمعراج تصعد أرواحنا ودعواتنا وقت النّكبات والأزمات إلى ربّ الأرض والسّماوات، وبالمعراج نرفع همومنا وغمومنا ليُفرّجها جلّ في عُلاه.

والصّلاة هي العبادة الوحيدة التي فُرضت ليلة الإسراء والمعراج؛ لأنّ فيها اكتمال أنواع العبوديّة من تلاوة وتسبيح وركوع وسجود وتشهّد ودعاء ومناجاة وإخبات لربِّ العالمين، ولذلك صارت الصلاة حلًّا في حياة النّبيّ ﷺ، فكلّما كرَبَهُ أمر قال: «**يا بلالُ أرحنا بالصّلاة**» [رواه أحمد وأبو داود]، وكان يقول: «**وجُعلتْ قرّة عيني في الصّلاة**» [رواه أحمد والنسائي].

{مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى} [الإسراء: الآية 1]: هذا السّفر كانت بدايته ونهايته من مسجد إلى مسجد، فالانطلاقة الأولى من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، والانطلاقة الثانية من المسجد الأقصى إلى البيت المعمور في السّماء؛ لأن هذه الرّحلة رحلة ربّانية مُقدّسة، لا يُناسبها إلّا المساجد في طُهرها وشرفها وقُدسيتها، وانطلاقها من مكة؛ لأنّها مهبط الوحي إلى بيت المقدس ليكون هناك دليل وشاهد في الأرض؛ لأنّ الرّحلة لو كانت من مكة إلى السّماء لما وجَدَ ﷺ دليلًا أرضيًّا يُقنع به كُفّار قُريش لمّا أنكروا، فوصف لهم بيت المقدس بابًا بابًا، وطريقًا طريقًا، فاندهشوا وأسلم بعضهم، قال ﷺ: «**لمَّا كَذَّبَتْنِي قُرَيْشٌ، قُمْتُ في الحِجْرِ، فَجَلا الله لي بَيْتَ المَقْدِسِ، فَطَفِقْتُ أُخْبِرهُمْ عن آياتِهِ وأنا أنْظُرُ إلَيْهِ**» [مُتّفق عليه].



إخباره ﷺ عن الغيبيات السّابقة:

أخبر ﷺ وهو الأمي الذي لم يقرأ ولم يكتب ولم يسافر إلى تلك البلدان، بدقائق من قصص السّابقين حيث يَصفُ تفاصيلها وكأنه عاش القصة كاملة، وكان حاضرًا معهم، قال تعالى: {ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ} [آل عمران: الآية 44]، فقد أخبر ﷺ من خلال الوحي المُقدّس عن أحسن قصة عبر تاريخ البشريّة، ألا وهي قصة نبيّ الله يوسف عليه السلام، منذ بداية مكر إخوتِه به حتى لقائه بهم مرة أخرى، قصة مُفصّلة، مُثيرة، بأدوارها، وشخصياتها، وأزمانها، وأماكنها، ممّا يُشعركَ وأنت تقرأ هذه القصة بالحماس والانجذاب لأحداثها وكأنّك عشت معهم أو شاركتهم أحداثها، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه المُعجزة الخارقة المُبهرة المُدهشة للعقول، فقال تعالى في سورة يوسف عليه

السلام: {ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوْحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ} [يوسف: الآية 102].

وانظر إلى قصة نبي الله موسى عليه السّلام كيف نقلها ﷺ وما فيها من المواجهة مع فرعون، وخلجات قلبه وهو يشاهد السّحرة، فقال الله تعالى: {فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى} [طه: الآية 67]، وقال تعالى: {وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ} [القصص: الآية 44]، فها هو الوحي يقول: إنّك يا محمد لم تحضر القصة، ولم تُشاهدها، لكنّا أخبرناك بها، وكأنّك تراهم، وكأنّك تسمعهم، وكأنّك عشت معهم، فأي إعجاز فوق هذا؟!

هذه اللّقطات الدّقيقة المُفصّلة لم يكن يعلمها ﷺ، ولم نكن لنعلمها إلّا من طريقه ﷺ، فما أعظم البرهان في هذه القصص التي نقلها لنا وغيرها من قصص الأمم السّابقة كقصة بلقيس ملكة سبأ وحوارها مع قومها، وما وقع من سحر هاروت وماروت، وقتال طالوت وجالوت، وأنباء فرعون وقومه، والنّمرود، وقصة مريم البتول العذراء، وقصة ذي القرنين، وقصص الأُمم السابقة إلى آخر تلك الأخبار!. فمن كان عنده ذرّة من عقل أو عدل أو إنصاف، وقرأ أي قصة من قصص القرآن أو السّنة النّبوية الصّحيحة عن الأمم السابقة يشهد أنّه رسول من عند الله.

وقد أيّد التّاريخ ما ذكره ﷺ، وأهل الأخبار والسِّيَر وهو لم يقرأ كتابًا ولم يخط وثيقة، قال عُمر بن الخطاب (رضي الله عنه): «**قَامَ فِينَا النبيُّ ﷺ مَقَامًا، فأخْبَرَنَا عن بَدْءِ الخَلْقِ حتَّى دَخَلَ أَهْلُ الجَنَّةِ مَنَازِلهُمْ، وأَهْلُ النَّارِ مَنَازِلهُمْ، حَفِظَ ذلكَ مَن حَفِظَهُ، ونَسِيَهُ مَن نَسِيَهُ**» [رواه البخاري مُعلّقًا].



إخباره ﷺ عن الغيبيات اللّاحقة:

من أعظم مُعجزاته ﷺ التي تجعل العقول مدهوشة بصدقه، والأرواح متيقّنة بنبوّته ما أخبر به من أخبار مستقبلية، منها ما يقع في حياته، ومنها ما يحدث بعد موته، ومنها ما يكون قبل قيام الساعة، ووقع ذلك بشكل واضح كالشّمس، ولو لم يكن هناك وحي من الله، وتأييد من الله، ورسالة من الله لنبيّه ﷺ، لكان الإخبار بما يحدث في المُستقبل وعالم الغيب نوعًا من الجنون والدّجل، فكيف

يُخبر إنسان أمّي عن عشرات الأمور التي تقع بعد موته بعشرات ومئات السنوات بأدقّ تفاصيلها، ثم تقع كما أخبر دون وحي من الخالق الباري سُبحانه؟!

وتبقى هذه الأخبار التي تحدّث عنها ﷺ صامدة أمام العِلم والاختراعات والاكتشافات، بل لا يزيدها العلم إلّا قوة، ولا تزيدها الاكتشافات إلا تأكيدًا وتأييدًا، قال تعالى: {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} [فصلت: الآية 53].

وإن لم يكن نبيًّا صادقًا مُرسلًا من عند الله فكيف له أن يُجازف بدعوته ويتنبّأ بأمور غيبيّة من الممكن ألّا تقع فيُفضح أمره؟! بل كان ﷺ يصف بعض المشاهد الغيبية والأخبار المُستقبلية وكأنّه يراها رأي العين بأدق تفاصيلها، وأشمل أوصافها، ومنها:



إخباره باستشهاد عُمر وعُثمان }:

جاء في الحديث الصّحيح لمّا صعد ﷺ جبل أُحد، ومعه أبو بكر وعُمر وعثمان (رضي الله عنهم)، فاهتزّ الجبل، فقال: «**اسْكُنْ أُحُدُ! فليس عَلَيْكَ إلّا نَبِيٌّ، وصِدِّيقٌ، وشَهِيدانِ**» [رواه البخاري]، فالصدّيق أبو بكر، والشهيدان عُمر وعُثمان، وثبت كذلك أنّه ﷺ أخبر أصحابه بفتح خيبر على يَدي عليّ (رضي الله عنه)، وأخبر ﷺ أنّ الحسن سِبْطه «سيدٌ» يُصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين، وقد وقع هذا، وأخبر ﷺ أنّ الخلافة بعده ثلاثون سنة، ووقع ما أخبر به، وهذه الأحاديث كلها صحيحة.



فتح مكّة وانتشار الإسلام:

في شدّة الأزمة ومعه ﷺ ثلّة من المُستضعفين في مكة أخبر أنّ الله تعالى سوف يفتح عليه وينصره وينشر دينه في الأرض، فحينما شكا له خبّاب بن الأَرَتِّ (رضي الله عنه) ما لقي هو وإخوتُه الصّحابة من أذى المُشركين، قال له ﷺ بكل ثقة وطمأنينة وثبات وهو متوسّدٌ بُردةً له في ظل الكعبة: «**والله لَيَتِمَّنَّ هذا الأمْرُ، حتّى يَسِيرَ الرّاكِبُ مِن صَنْعاءَ إلى حَضْرَمَوْتَ، لا يَخافُ إلّا الله، والذِّئْبَ على غَنَمِهِ، ولَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ**» [رواه البخاري].

وأشهد أنّ هذا وقع كما أخبر ﷺ وشهد على ذلك الملايين، فمع التّضييق الشّديد ومحاربة المُشركين له أوّل فجر الدّعوة، يقول ﷺ: «**إنَّ الله زوَى لي الأرضَ فرأيتُ مشارقَها ومغاربَها، وإنَّ أمَّتي سيبلغُ مُلكُها ما زُوِي لي منها، وأُعطيتُ الكَنزَيْن: الأحمرَ والأبيضَ**» [رواه مُسلم]، فوَالذي نفسي بيده! قد سافرتُ إلى شرق الصّين وغرب أوروبا، وإذا أتباعه وأحبابه بمئات الملايين، وقد عمّ دينه الكرة الأرضيّة بأسرها.



فتح جزيرة العرب ثم فارس ثم الروم:

أخبر ﷺ أصحابه بذلك فقال: «**تَغْزُونَ جَزِيرَةَ العَرَبِ فَيَفْتَحُهَا الله، ثُمَّ فَارِسَ فَيَفْتَحُهَا الله، ثُمَّ تَغْزُونَ الرُّومَ فَيَفْتَحُهَا الله**» [رواه مُسلم]. وقد تمّ ذلك، وفُتحت هذه البلاد ودخلها الصّحابة ومن جاء بعدهم، وقامت بها حضارة إسلاميّة شهد بها العالم.



هلاك كسرى ولا كسرى بعده، وهلاك قيصر ولا قيصر بعده:

قال ﷺ كما جاء في «الصحيحين»: «**إذَا هَلَكَ كِسْرَى فلا كِسْرَى بَعْدَهُ، وإذَا هَلَكَ قَيْصَرُ فلا قَيْصَرُ بَعْدَهُ، والذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بيَدِهِ، لَتُنْفِقُنَّ كُنُوزَهُما في سَبيلِ الله**»، فانظر إلى هذا الجزم والحسم منه ﷺ في إخباره عما سوف يقع مُستقبلًا، وانظر إلى تحقّقه بالفعل، فلم يأت بعد كسرى غيره، ولم يأت بعد قيصر غيره، حتى يومنا هذا.



فتح مصر:

بكل يقين وبلغة الواثق ممّا يقول؛ أخبر ﷺ بفتح مصر، وهذا ما وقع مباشرة، فعن أبي ذرٍّ (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّكُمْ سَتَفْتَحُونَ مِصْرَ وهي أرْضٌ يُسَمَّى فيها القِيراطُ، فإذا فَتَحْتُمُوها فأحْسِنُوا إلى أهْلِها، فإنَّ لهمْ ذِمَّةً ورَحِمًا، أوْ قالَ ذِمَّةً وصِهْرًا**» [رواه مُسلم].

فقل لي بالله عليك: أيّ طريقة أُخْبِر بها ﷺ عن عالم الغيب المستقبلي إن لم يكن عن طريق الوحي المُنزّل عليه؟!



قوله في (قُزمان): أنّه من أهل النار:

في الحديث المُتفق عليه أن رجلًا اسمه: قُزْمانَ، كان يُقاتل ببسالة مع الصّحابة (رضي الله عنهم)، فأخبروا النّبيَّ بذلك معجبين به، فقال ﷺ: «**إنّه من أهل النّار**»، فتابعوه فوجدوه بعدما جُرح جرحًا شديدًا لم يصبر وقتل نفسه بالسّيف، وهذا الإخبار منه ﷺ قاله في يوم واحد ومشهد واحد شهد على صدقه مئات الصّحابة.

بل كان ﷺ يُخبر أصحابه بمصارع المشركين قبل موتهم، فقال - كما رواه مسلم-: «**هذا مصرع فلان**»، ووضع يده على الأرض، ثم قال: «**هذا مصرع فلان**»، ووضع يده عليها، وذكرهم واحدًا واحدًا مشيرًا إلى مصارعهم، فصُرعوا كما أخبر، ولم يتجاوز أحد منهم موضعه الذي أشار إليه النّبي ﷺ.



انتصار الروم على الفُرس:

ومن أخباره ﷺ الجازمة من الغيبيات اللّاحقة: إخباره بأن الرّوم سينتصرون على الفُرس، كما جاء في الوحي المُقدّس المُنزّل عليه، قال تعالى: {غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ} [الروم: الآية 2- 4]، وقال تعالى: {وَعْدَ اللَّهِ لاَ يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ} [الروم: الآية 6]، وقد سجّل التّاريخ هذه الحقيقة التي وقعت، وشهد عليها الجميع.



إخباره ﷺ بأنّ فاطمة (رضي الله عنها) أوّل أهله لحوقًا به بعد وفاته:

قال ﷺ لفاطمة (رضي الله عنها): «**وَإِنَّكِ أَوَّلُ أَهْلِي لُحُوقًا بِي، وَنِعْمَ السَّلَفُ أَنَا لَكِ**» [مُتّفق عليه]، وبعد وفاته بستة أشهر لحقته، وكانت الأولى من أهل بيته جميعًا، كما أخبر عليه الصّلاة والسّلام، وهذا من دلائل نبوّته الباهرة الظّاهرة.



مُحمد ﷺ هو خاتم الأنبياء والمُرسلين:

ومن أدلة نبوّته السّاطعة ما أخبر به ﷺ من أنّه لا نبيّ بعده، كما قال تعالى: {مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ} [الأحزاب: الآية 40]، وقال ﷺ: «**وأنا خاتَمُ النبيّينَ**» [متفق عليه]، والآن وبعد ألفٍ وأربعِ مئة عامٍ لم يخرج نبيّ بعده ﷺ، وإنّما خرج أدعياء كذّابون مزورون هلكوا بعدما هتك الله أستارهم، وفضح أسرارهم كما قال ﷺ في [الصّحيحين]: «**لا تَقُومُ السَّاعَةُ حتَّى يُبْعَثَ دَجَّالُونَ كَذّابُونَ، قَرِيبًا مِن ثَلاثِينَ، كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أنَّه رَسولُ اللهِ**».

وهناك المئات من الأخبار الغيبية المُستقبلية التي أخبر بها ﷺ ووقعت كفلق الصّبح وشهد بوقوعها العالم، ونُقلت إلينا بأسانيد ثابتة واضحة لا يعتريها أي شك أو شبهة، وما ذلك إلّا لأنّه نبيّ مُوحى إليه من عند الله، كما قال تعالى عنه: {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى} [النجم: الآية 3- 4].

رسولنا ﷺ يتيم؛ لكنّ المليارات صاروا من عياله وأتباعه.

أميّ؛ لكن لا يخلو من علمه كتاب، ولا يخلو من ذكره محراب.

خرج من مكة وهو شريد طريد؛ ولكن جيوشه ملأت البيد، ودولته طبقت الأرض من السّند إلى مدريد.

زاهد فقير؛ ولكن ببركة بعثته فُتحت له الخزائن والقناطير. عاش في بيت من طين، وأذعن له الملوك والسلاطين.

وإذا كان نوح عليه السلام حمل أتباعه في سفينة النّجاة، فرسولنا ﷺ أركب أتباعه سفينة الحياة، وإذا كان الله أطفأ النّار للخليل بـ (**حسبنا الله ونعم الوكيل**)، فإنّ الله أطفأ بمبعث رسولنا ﷺ نار الوثنيّة، وأخمد به سعير الجاهليّة.

وإذا كان موسى عليه السّلام بُعث بالعصا تَلْقفُ ما يأفكون، فإنّ رسولنا ﷺ بُعث بوحي يدمغ ما يفترون.

وإذا كان عيسى عليه السلام أحيا بإذن الله الأموات، فرسولنا ﷺ أحيا أمّة من الشّتات، وبعث جيلًا من الرّفات.

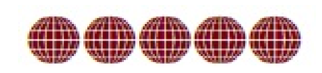
الله يشهد والبريّةُ تشهدُ أنّ المتوّج بالنّبوةِ أحمدُ

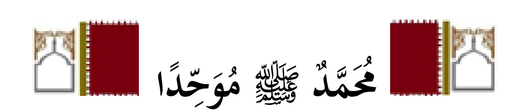
الصّخر أنطقه الإله بصدقه والجذع حنّ له وضجّ المسجدُ

بشرى لنا أنّا اتبعنا نهجه فكأنّنا في كل يومٍ نُولدُ

أنفاسُه عطرٌ ودرٌّ حديثه أرواحُنا فيه تهيمُ وتسعدُ

عبدٌ إمامٌ مرسلٌ متبتّلٌ شهمٌ كريمٌ موقنٌ وموحّدُ





مُحَمَّدٌ ﷺ مُوَحِّدًا

كان النّاسُ قبل مبعثه ﷺ في شركهم يتردّدون، وعلى أوثانهم يعكفون، ولأصنامهم يسجدون، فمنهم مَن يعبد البشر، ومنهم مَن يتبرّك بالحجر، ومنهم مَن يلوذ بالشّجر، يزعمون أنّها تُقرّبهم إلى الله زلفى، يأتون إلى الحجارة البكماء الصّماء، وإلى الصّخور الجامدة الهامدة، فيتضرّعون إليها، ويتَوسّلون بها، ويَطوفون حولها، ويَستجيرون بها، ويَنطرحون على أعتابها، ويَسألونها أن تُوصل حوائجهم إلى عالم السّر وأخفى.

فمنهم مَن يشكو إليها فقره، ومنهم مَن يعرض عليها حاجته، ومنهم مَن يطلب منها الشّفاء أو الذّرية أو الرّزق أو النّصر، ولا يُنادون مَنْ يعلم ما في الضّمائر، ويطّلع على ما في السّرائر، سُبحانه!.

ويا للسخرية! ويا للمهزلة! تجد منهم مَن يصنع إلهًا من تمرٍ ثم يسجد له، فإذا جاع أكله، وآخر يطوف بجذع شجرة ثم يتوسّدها وينام عليها، ومنهم مَن يعبد حجرًا فيأتي إليه في آخر اللّيل ليشكو إليه حاله، ويرفع إليه مسألته، ثم يجد الكلاب والثّعالب قد بالت عليه فيسجد له ويعبده من دون الله.

وهذا كلّه لأنّ الفِطَر محجوبة، والعقول مسلوبة، والبصائر منهوبة، حتى أشرق نور هذا النّبيّ الكريم ﷺ بتعاليم رسالة ربّ العالمين، فبُعث بالوحدانية، ونادى بلا إله إلا الله، ومعناها لا معبود بحق إلّا الله.

فحقَّق ﷺ التّوحيد بقوله وفعله وحاله، وحرص كل الحرص على غرس شجرة التّوحيد في النّفوس، وتصحيح العقيدة وتقرير أصولها للنّاس، وتحرير العبادة والطّاعة لله وحده لا شريك له، ونبذ الشّرك بكافة أشكاله وأنواعه، وكذلك البدع والخرافات والمعتقدات الفاسدة، فكان التّوحيد شعاره ودثاره، كما أمره ربّه سُبحانه وتعالى: {قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ} [الأنعام: الآية 162 - 163].

وقد أخبر ﷺ أنّ أساس سعادة الإنسان ونجاحه وفلاحه في الدّنيا والآخرة قائم على التوحيد، فبه تتحقّق العبوديّة الكاملة لله الواحد الأحد، الذي خلقه وأوجده من أجلها، قال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات: الآية 56]، وجاء اختلاف اللّيل والنّهار، وخلق السّماوات والأرض، وتنوع المخلوقات وأصناف النّبات والجماد والحيوان، وإتقان خلقها، وإبداع صُنعها، وإحكام صورها، ليدُلّ على أنّ الخالق واحد سبحانه لا شريك له، قال تعالى: {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ} [الزمر: الآية 62].

وصلاح حركة الكون، وروعة انسجامه، ودقّة انتظامه تدل على أنّ إله الكون واحد جلّ في عُلاه، قال سُبحانه: {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ} [الأنبياء: الآية 22].

سبحانه المُتفرّد بالعبودية، والألوهيّة، والجمال، والكمال، والجلال، خلق الخلق ليعبدوه، وأوجد الإنس والجنّ ليوحّدوه، وأنشأ البريّة ليُطيعوه.

من أطاعه فاز برضوانه، ومن أحبّه نال قُربه، ومن عصاه أدّبه، ومن حاربه أهلكه، يذكر من ذكره، ويزيد من شكره، له الحُكم وإليه تُرجعون.

وتتلخص حقيقة التّوحيد في إفراد الله تعالى بالعبادة، وإخلاص القصد له وحده، قال سبحانه وتعالى: {وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَانُ الرَّحِيمُ} [البقرة: الآية 163].

ومُهمة جميع الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام ورسالتهم الأولى هي: «**الدّعوة إلى توحيد الباري سبحانه**»؛ لأنّه أشرف عمل، وأعظم مُهمّة، كما قال تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلاَلَةُ} [النحل: الآية

36]، وقال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ} [الأنبياء: الآية 25].

وقد نادى ﷺ نداء مسموعًا، وأعلن إعلانًا عامًا على الصّفا حضره قرابته وبطون قريش، كما جاء في الصّحيحين عن أبي هريرة (رضي الله عنه)، قال: «**قامَ رَسولُ الله ﷺ حِينَ أَنْزَلَ الله عزَّ وجلَّ:** {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ} [الشعراء: الآية 214]، فقالَ: «**يا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ! اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ، لا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ الله شيئًا، يا بَنِي عبدِ مَنافٍ لا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ الله شيئًا، يا عَبّاسُ بنَ عبدِالمُطَّلِبِ لا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ الله شيئًا، ويا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسولِ الله لا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ الله شيئًا، ويا فاطِمَةُ بنْتَ مُحَمَّدٍ سَلِينِي ما شِئْتِ مِن مالِيّ لا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ الله شيئًا**» [مُتفق عليه].

وهذا قوله ﷺ لابنته فاطمة (رضي الله عنها)، وهي سيّدة نساء العالمين، أي أنّه لا يشفع في غير الموحدين مهما كانت قرابته منه، حتّى لو كانت ابنته فاطمة الزّهراء، والتي هي بضعة منه، بأبي هو وأمي ﷺ.

فبدأ ﷺ دعوته بالتّوحيد أولًا، وكان لبّ رسالته وجوهرها هو: توحيد الباري عزّ وجل. ومكث في مكة ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً يدعو إلى: «**لا إله إلّا الله**»، ينادي بها سِرًا وجهرًا، ليلًا ونهارًا، يكررها في النَّوادي والأسواق ومجامع النّاس، يهتف بها في الجموع، يعرضها للكبير والصّغير، والحاضر والبادي، فـ «**لا إله إلّا الله**» تجري مع أنفاسه ﷺ، وتسافر في دمه، وتنبض مع دقات قلبه، كانت «**لا إله إلّا الله**» رسالته الواضحة النّاصعة الصّريحة، والتي يلخصها في قوله: «**يا أيُّها النّاسُ، قُولوا:لَا إلهَ إلّا اللهُ؛ تُفلِحوا**».

ولك أن تسافر مع كلمة «**تفلحوا**» فهو الفلاح والنّجاح، والفوز العظيم في الدّنيا والآخرة، قال تعالى: {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ} [محمد: الآية 19]، فلم يبدأ ﷺ دعوته بالعبادات في مكة المكرمة، وإنما بدأها بعقيدة التوحيد، فدعا إلى توحيد الباري أن «**لا إله إلّا الله**»، وأن لا معبود بحق إلّا الله، وكل تلك العبادات جاء الأمر بها لاحقًا بعد دعوة التّوحيد، في الفترة المدنيّة، حيث شملت تشريع تفاصيل العبادات، وتثبيت أصول العقيدة وحمايتها والحفاظ عليها من الشّبهات، والخرافات، والبدع، والشّركيات، والجهاد في سبيلها، والتّصدي لأهل الباطل وأصحاب المعتقدات الفاسدة والمحرّفة، والرّد على شبهاتهم، وهذا كلّه حماية لعقيدة التّوحيد.

مكث ﷺ يعيد مسألة التّوحيد ويبسّطها ويشرحها للنّاس حتى لقي ربّه. فبداية دعوته «**لا إله إلّا الله**»، وآخر كلمة نطق بها في سكرات الموت: «**لا إله إلّا الله**»، وقد دعا رسول الله ﷺ إلى توحيد الرّبوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات، فالله واحدٌ في ربوبيته، واحد في ألوهيته، واحد في أسمائه وصفاته، وكان أكثر ما دعا إليه ﷺ توحيد الألوهية؛ لأنّ المشركين أنكروه، وكانت الخصومة بين الأنبياء وأممهم في توحيد الألوهية.

ورسّخ ﷺ قاعدة عامة هامة لجميع الدّعاة، وهي جعل التّوحيد أوّل مقاصد الدّعوة إلى الإسلام، وأجلّ أهدافها، وركيزتها الكُبرى، وأساس منهجها، فأيّ دعوة لا تُولي أمر العقيدة من الاهتمام كما أولاها رسول الله ﷺ قولًا وفعلًا فهي ناقصة، فعن عبدالله بن عباس (رضي الله عنهما) قال: لمَّا بعَثَ النبيُّ ﷺ معاذَ بنَ جبلٍ (رضي الله عنه) إلى نحوِ أهلِ اليمنِ، قال له: «**إنّك تَقْدَمُ على قومٍ مِن أهلِ الكتابِ، فلْيَكُنْ أوّلَ ما تدعوهم إلى أن يُوَحِّدوا اللهَ تعالى**» [رواه البخاري ومسلم].

وكانت عباراته ﷺ، وكلماته، ودمعاته، وأنفاسه، وزفراته، توحيدًا لربّه، بل كان قيامه وقعوده، وحركاته وسكناته، توحيدًا لربّه، وإفرادًا لخالقه بالعبوديّة، وتجريدًا لمولاه بالوحدانيّة والصّمدانيّة. وكان يبني عليه الصّلاة والسّلام جهاده، وخطبه، ومواعظه، وفتواه، على أساس التّوحيد الذي هو أصل الأصول، وسلم الوصول، وتاج القبول.

وكان يحمي ﷺ جناب التّوحيد في الألفاظ والأفعال، فعن عبدالله بن عباس (رضي الله عنهما) قال: **سمِع رسولُ الله ﷺ رجلًا** يقولُ: **ما شَاء اللهُ وشِئتَ**، قال: «**أجعلتَني لله عَدْلًا، قُلْ: ما شاء اللهُ وحدَه**» [رواه أحمد].

حتى في الألفاظ حمى ﷺ جناب التّوحيد، وأفرد الله وحده جلّ في علاه، ومنع التّشريك حتى في اللفظ.

وجاء في «سنن أبي داود»، أن رجلًا قال له: «**إنّا نستشفعُ بك على الله، ونستشفعُ بالله عليك!**، فقال رسولُ الله ﷺ: «**ويحك! أتدري ما تقولُ!؟**»، وسبَّح رسولُ الله ﷺ، فما زال يُسبِّحُ حتى عرف ذلك في وجوه أصحابِه، ثم قال: «**ويحك! إنّه لا يستشفعُ بالله على أحدٍ من خلقِه، شأنُ الله أعظمُ من ذلك**».

فمن تعظيم الله وتوحيده وتقديسه وتسبيحه سبحانه وتعالى أن يُمَجَّد جلّ في **علاه، وأن يعظَّم، وهذا سرّ التّوحيد. وقال ﷺ:** «**اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقاتِ**». قالوا: **يا رَسُولَ الله، وَما هُنَّ؟**، قالَ: «**الشِّرْكُ بالله، والسِّحْرُ، وقَتْلُ النَّفْسِ الَّتي حَرَّمَ الله إلَّا بالحَقِّ، وأَكْلُ مالِ اليَتِيمِ وأَكْلُ الرِّبا، والتَّوَلِّي يَومَ الزَّحْفِ، وقَذْفُ المُحْصِناتِ المُؤْمِناتِ الغافِلاتِ**» [مُتفق عليه].

فأعظم ذنب وأكبر خطيئة هو الشّرك به سبحانه وتعالى؛ ولذلك يأتي في أوّل المحرمات والمنهيات.

اقطع حبال العالمين جميعهم	يكفيك حبل الله جلّ جلالُه
فالخلق أموات وهل يُرجى العطا	من ميّت قد مُزّقت أسمالُه؟

وعن عقبة بن عامر (رضي الله عنه)، أنّ النّبيّ ﷺ قال: «**مَن علَّق تميمةً فلا أتَمَّ اللهُ له، ومَن علَّق وَدَعةً فلا ودَع اللهُ له**» [رواه ابن حبّان]. فانظر كيف اشتق ﷺ من كل اسم ما يناسبه؛ لأنّ مَن علّق تَميمة يريد أن يتمّم أمره، فدعا عليه ﷺ بعدم التّمام، ومن علّق ودعة يريد بها الحرز والحفظ، فدعا عليه ﷺ بأن لا يتركه الله في سكونٍ أو راحةٍ.

وعن أبي بشير الأنصاري(رضي الله عنه): «**أنَّهُ كانَ مع رَسولِ الله ﷺ، في بَعْضِ أسْفارِهِ، فأرْسَلَ رَسولُ الله ﷺ رَسولًا: أنْ لا يَبْقَيَنَّ في رَقَبَةِ بَعِيرٍ قِلادَةٌ مِن وتَرٍ، أوْ قِلادَةٌ إلّا قُطِعَتْ**» [مُتفق عليه].

فانظر كيف حرص ﷺ حتى فيما يُعلق على البهائم والدّواب ألّا يكون فيها شيء يصرف الإنسان عن عبادة ربّه سبحانه وتعالى وعن توحيده.

وعن زيد بن خالد الجهني (رضي الله عنه) قال: «**خَرَجْنَا مع رَسولِ الله ﷺ عَامَ الحُدَيْبِيَةِ، فأصَابَنَا مَطَرٌ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَصَلَّى لَنَا رَسولُ الله ﷺ الصُّبْحَ، ثُمَّ أقْبَلَ عَلَيْنَا، فَقالَ**: أتَدْرُونَ **مَاذَا قالَ رَبُّكُمْ؟. قُلْنَا: الله ورَسولُهُ أعْلَمُ، فَقالَ: قالَ الله: أصْبَحَ مِن عِبَادِي مُؤْمِنٌ بي وكَافِرٌ بي، فأمَّا مَن قالَ: مُطِرْنَا برَحْمَةِ الله وبِرِزْقِ الله وبِفَضْلِ الله، فَهو مُؤْمِنٌ بي، كَافِرٌ بالكَوْكَبِ، وأَمَّا مَن قالَ: مُطِرْنَا بنَجْمِ كَذَا، فَهو مُؤمِنٌ بالكَوْكَبِ كَافِرٌ بي**» [مُتفق عليه].

فجعل ﷺ من توحيد الله إخضاع نواميس الكون لخالقها ومُدبّرها سبحانه، فلا تتحرك إلّا بأمره وإذنه، وليس لها تصريف، ولا قدرة في الخليقة.

وفي حديث أبي واقد اللّيثي (رضي الله عنه) أنَّ رسولَ الله ﷺ لمّا خرَجَ إلى حُنينٍ مرَّ بشجَرةٍ للمشركينَ يُقالُ لها: ذاتُ أَنْواطٍ، يعلِّقونَ عليها أسلِحتَهم. فقالوا: يا رسولَ الله، اجعَلْ لنا ذاتَ أَنْواطٍ، كما لهم ذاتُ أَنْواطٍ. فقال النّبيُّ ﷺ: «**سُبْحانَ الله! هذا كما قال قومُ موسى:** {اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ} [الأعراف: الآية 139]، **والذي نَفْسي بيَدِه، لتركَبُنَّ سُنَّةَ مَن كان قبلَكم**» [رواه الترمذي].

وفي هذا نهيه ﷺ عن التّشبّه بأعداء الله، والتعلّق بغير الله، من حجر أو شجر أو إنسان، وفيها أنّ مشابهة أعداء الله في أفعالهم قد تجرّ إلى مشابهتهم في معتقداتهم. وقال ﷺ: «**مَن أتى عَرّافًا فَسَأَلَهُ عن شيءٍ؛ لَمْ تُقْبَلْ له صَلاةٌ أرْبَعِينَ لَيْلَةً**» [رواه مسلم]، وإنّما عوقب بعدم القبول؛ لأنّه قدح في توحيده وإخلاصه، فتعطّل قبول عمله وجازاه الله بردّ صلاته أربعين ليلة.

وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) أنّ النّبي ﷺ قال: «**من أتى عرّافًا أو كاهنًا، فصدَّقه بما يقولُ؛ فقد كفر بما أُنزِل على محمَّدٍ**» [رواه أبو داود]؛ لأنّ رسول الله ﷺ أتى بتوحيد خالص يخالف ويضادّ ما يأتي به العرّاف والكاهن، فمن صدّقهم فقد كذّب رسالة النّبيّ ﷺ.

وفي حديثِ ابن مسعودٍ (رضي الله عنه) قال: «**قال النّبيّ ﷺ: من ماتَ وهو يدعُو من دون الله نِدًّا دخلَ النارَ**» [رواه البخاري ومسلم]، خالدًا مُخلّدًا فيها؛ لأنّه مُشرك، والمشرك لا يدخل الجنة أبدًا، وقال ﷺ: «**اللَّهمَّ لا تجعَلْ قبرَي بَعدي وثَنًا**» [رواه أحمد].

فإذا كان عليه الصّلاة والسّلام يدعو إلى عدم التعلّق بقبره أو جعله وثنًا يُعبد من دون الله، فكيف بقبر غيره ممّن اتخذهم الجهلة والضّلال والقبوريون أولياءَ يُدْعَون من دون الله لطلب الحاجات وتفريج الكربات؟

وعن عائشة أمّ المؤمنين (رضي الله عنها) قالت: قالَ النّبيُّ ﷺ في مَرَضِ موته: «**لَعَنَ الله اليَهُودَ والنَّصارى اِتَّخَذُوا قُبُورَ أنْبِيائِهِمْ مَساجِدَ**» [متفق عليه]، ففي هذه الساعة الحرجة واللّحظة الخطيرة من حياته ﷺ وهو في سكرات الموت يُحذّر أمته من اتخاذ قبره مسجدًا أو التّعلّق بقبره بعد موته، فهو بشرٌ لا يملك ضرًا ولا نفعًا، وإنّما كان رسو معصومًا مُرسلًا من عند الله. قال عَليٌّ (رضي الله عنه)لأبي الهيّاجِ الأسَديِّ: «**أَلَا أَبْعَثُكَ على ما بَعَثَنِي عليه رَسولُ الله ﷺ؟ أَنْ لا تَدَعَ**

تِمْثَالًا إِلّا طَمَسْتَهُ، وَلا قَبْرًا مُشْرِفًا إِلّا سَوَّيْتَهُ»، وفي رواية: «**وَلا صُورَةً إِلّا طَمَسْتها**» [رواه مسلم].

ففي الحديث السابق يُلغي ﷺ كل مظاهر الشّرك، وكل ما يدعو إلى الوثنيّة، وكل ما يُصادم التّوحيد؛ لأنّ التّوحيد لا بد أن يكون أكثر بياضًا من الثّوب الأبيض، وأنقى من أن يُدنّسه أو يلوثه شيء، فكان ﷺ شديد الحرص على سدّ كل ذريعة توصل إلى الشّرك، وكانت حياته كلها توحيدًا لله، وتصحيحًا للمُعتقد ليلًا ونهارًا، سِرًّا وجهارًا، لا يقبل فيها صرفًا ولا عدلًا بل كان كل جهاده، وعلمه، وقوته، وطاقته، وحله، وترحاله، في الدّعوة إلى توحيد الباري سبحانه.

وكان يؤكد ﷺ على مسألة التّوحيد، ويُكرّر الحديث عنها، وينبّه النّاس إليها، ويُخبرهم أنّه بُعث بالتوحيد، وبيّن ﷺ أنّ التّوحيد هو حق الله على العبيد، كما جاء عن معاذ بن جبل (رضي الله عنه) أنّه قال: بَيْنَمَا أَنَا رَدِيفُ النَّبِيِّ ﷺ، لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ إِلّا آخِرَةُ الرَّحْلِ، فَقَالَ: «**يَا مُعَاذُ**» قُلْتُ: **لَبَّيْكَ يا رَسولَ الله وسَعْدَيْكَ، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً**، ثُمَّ قَالَ: «**يَا مُعَاذُ**» قُلْتُ: **لَبَّيْكَ رَسُولَ الله وَسَعْدَيْكَ، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً**، ثُمَّ قَالَ: «**يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ**» قُلْتُ: **لَبَّيْكَ رَسُولَ الله وَسَعْدَيْكَ**، قَالَ: «**هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ الله عَلَى عِبَادِهِ؟**» قُلْتُ: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**حَقُّ الله عَلَى عِبَادِهِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا**» ثُمَّ سَارَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: «**يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ**» قُلْتُ: **لَبَّيْكَ رَسُولَ الله وَسَعْدَيْكَ**، قَالَ: «**هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ العِبَادِ عَلَى الله إِذَا فَعَلُوهُ**» قُلْتُ: **الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ**، قَالَ: «**حَقُّ العِبَادِ عَلَى الله أَنْ لا يُعَذِّبَهُمْ**» [مُتفق عليه].

وقد أبدى وأعاد ﷺ في التّوحيد لدى كلّ عبادة ومع كل موقف، ففي كل أذان يُعلن التّوحيد على المنائر: «**أشهد أن لا إله إلّا الله وأشهد أنّ محمدًا رسول الله**»، وفي كل تشهد في الصّلاة: «**أشهد أن لا إله إلّا الله وأشهد أنّ محمدًا رسول الله**».

ويوم عرفة كله توحيد، قال ﷺ: «**خيرُ الدُّعاءِ دعاءُ يومِ عرفةَ، وخيرُ ما قلتُ أَنا والنَّبيُّونَ من قبلي: «لا إلَهَ إلّا الله وحدَهُ لا شريكَ لَهُ، لَهُ الملكُ ولَهُ الحمدُ وَهوَ على كلِّ ءيشٍ قديرٌ**» [رواه الترمذي]، وأحاديث الكرب كلّها توحيد، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ (رضي الله عنه) أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ يَقُولُ عِنْدَ الْكَرْبِ: «**لَا إِلَهَ إِلّا الله الْعَظِيمُ الْحَلِيمُ، لَا إِلَهَ إِلّا الله رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، لَا إِلَهَ إِلّا الله رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَرَبُّ الْأَرْضِ، وَرَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ**» [مُتفق عليه].

وإن تعجب فاعجب أنّ دعاء الكرب هذا ليس فيه ذكر لرفع الهمّ، أو إزالة الكرب، وإنّما هو توحيد خالص، وهذا من أعظم الأدلة على أنّ من حقّق التّوحيد وأخلص الألوهية والعبودية لله كشف الله كربه، وأزال همّه وغمّه، وأذهب حزنه. فحينما نُحقّق التّوحيد ولا نرى مع الله أحدًا، فإنّنا بذلك ننفض ذرات الشّرك من كياننا، ونُساقط أوضار الشّك من أركاننا، ونزرع شجرة التّوحيد في جناننا، ونُذهب عن أنفسنا كلّ يأس وإحباط، وكلّ اعتراض وتسخّط، وكلّ همّ وغم؛ لأنّنا علمنا أنّ كل شيء بيد الله وحده لا شريك له جل في عُلاه، كما قال تعالى: {قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ} [آل عمران: الآية 154].

وكان ﷺ يُبشّر الموحدين فيقول: «**مَن شَهِدَ أَنْ لا إِلَهَ إلّا الله وَحْدَهُ لا شَرِيكَ له، وَأنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأنَّ عِيسَى عبدُ الله وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إلى مَرْيَمَ وَرُوحٌ منه، وَالجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنّارُ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ الله الجَنَّةَ علَى ما كانَ مِنَ العَمَلِ**» [مُتفق عليه].

وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قُلتُ: يا رَسولَ الله، مَن أسْعَدُ النَّاسِ بشَفَاعَتِكَ يَومَ القِيَامَةِ؟ فَقَالَ: «**أسْعَدُ النَّاسِ بشَفَاعَتي يَومَ القِيَامَةِ: مَن قَالَ: لا إلَهَ إلّا الله، خَالِصًا مِن قِبَلِ نَفْسِهِ**» [رواه البخاري].

فمن أراد أن يظفر بشفاعة النّبي ﷺ فليخلص التّوحيد لربّه؛ وإلّا حُرم من شفاعته ﷺ.

وقال ﷺ: «**مَن قالَ: لا إلَهَ إلّا الله، وَكَفَرَ بما يُعْبَدُ مَن دُونِ الله، حَرُمَ مالُهُ وَدَمُهُ، وَحِسابُهُ على الله**» [رواه مسلم].

فالتّوحيد في الدّنيا لمن أظهره يعصم النّفس والمال، ومن أخفى غير ذلك فحسابه على الله عزّ وجل.

وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَن قالَ: لا إلَهَ إلَّا اللهُ وحْدَهُ لا شَرِيكَ له، له المُلْكُ وله الحَمْدُ، وهو علَى كُلِّ شيءٍ قَدِيرٌ. في يَومٍ مِئَةَ مَرَّةٍ، كانَتْ له عَدْلَ عَشْرِ رِقابٍ، وكُتِبَ له مِئَةُ حَسَنَةٍ، ومُحِيَتْ عنْه مِئَةُ سَيِّئَةٍ، وكانَتْ له حِرْزًا مِنَ الشَّيْطانِ، يَومَهُ ذلكَ حتَّى يُمْسِيَ، ولَمْ يَأْتِ أحَدٌ أَفْضَلَ ممَّا جاءَ إلَّا رَجُلٌ عَمِلَ أكْثَرَ منه**» [مُتفق عليه].

هذا تاج الأذكار، وأعظمها وأجلها شأنًا؛ لأنّه أتى بكلمة التّوحيد التي قال عنها ﷺ: خير ما قلت أنا والنّبيون قبلي: «**لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كلّ شيء قدير**».

وعن أُبَيِّ بن كعب (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ: «**يا أبا المُنذِر، أتدري أيَّ آيةٍ من كتاب الله معك أعظمَ؟**» قال: قلتُ: **اللهُ ورسولُه أعلمُ**، قال: «**يا أبا المنذِر، أتدري أيَّ آيةٍ من كتاب الله معك أعظمَ؟**» قال: قلتُ: **(الله لَا إِلَهَ إِلّا هُوَ الَحيُّ الْقَيُّومُ)**، قال: **فضرب في صدري**، وقال: «**والله! لِيَهْنِك العلمُ أبا المنذِرِ**» [رواه مسلم].

وإنّما فضلت آية الكرسي على كل آية؛ لأن فيها توحيد الباري ومدحه وتمجيده والإخلاص له، واشتمالها على اسم الله الأعظم، سبحانه تقدست أسماؤه.

وعن معاذ بن جبل (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَن كَان آخرُ كلَامِه لَا إله إلّا الله، دَخلَ الجنَّة**» [رواه أبو داود].

وكان ﷺ يُلبّي بالتوحيد فيقول: «**لَبَّيْكَ اللهمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لا شَرِيكَ لكَ لَبَّيْكَ، إنَّ الحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لكَ وَالمُلْكَ، لا شَرِيكَ لكَ**» [مُتفق عليه].

ومن يتدبّر القرآن الكريم الذي أنزله الله تعالى على نبيّه المُختار ﷺ يجد أنّ القضية الأولى، والمسألة الكبرى التي تدور حولها جميع الآيات البيّنات في كتاب ربّ الأرض والسّماوات هي التّوحيد، إمّا أمرٌ بالتّوحيد، أو نهي عن الشّرك، أو قصص عن التّوحيد، أو الحديث عن آيات الكون التي تدلّ على التّوحيد، أو الجنّة التي هي مأوى الموحدين والجائزة العظمى لهم، أو النّار التي هي مأوى المُشركين الذين خالفوا التّوحيد، أو توضيح لأحكام عبادات الموحدين، أو الثّناء على الموحدين، أو ذمّ للمشركين، فالقرآن كلّه من أوّله لآخره توحيد لله عزّ وجل.

وكانت أعظم شهادة في الكون هي: {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [آل عمران: الآية 18]. وقال سبحانه مخاطبًا نبيّه المختار ﷺ: {وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ} [الزمر: الآية 65 - 66]، يا لطيف! اللّهم الطف بنا، فإذًا كان هذا الخطاب لسيّد ولد آدم ﷺ؛ إمام الموحدين وأصدق المخلصين تحذيرا له من الشرك –وحاشاه من

ذلك-، فبالله ماذا يُقال لغيره من أفراد الأمة؟! فالشرك المُضاد للتوحيد هو أعظم ذنب كما قال تعالى: {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} [لقمان: الآية 13].

ومن أعظم السّور التي كان يرددها رسولنا ﷺ ويمدحُها، ويُثني على من قرأها سورة الإخلاص: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ} [الإخلاص: الآية 1- 4]، وبَعَثَ رَسول الله ﷺ رَجُلًا علَى سَرِيَّةٍ، وَكانَ يَقْرَأُ لأَصْحَابِهِ في صَلَاتِهِمْ، فَيَخْتِمُ بـ {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} ، فَلَمَّا رَجَعُوا ذُكِرَ ذلكَ لِرَسولِ الله ﷺ، فَقالَ: **سَلُوهُ لأَيِّ شيءٍ يَصْنَعُ ذلكَ؟ فَسَأَلُوهُ،** فَقالَ: **لِأنَّهَا صِفَةُ الرَّحْمَنِ، فأنَا أُحِبُّ أَنْ أَقْرَأَ بهَا،** فَقالَ رَسولُ الله ﷺ: «**أَخْبِرُوهُ أنَّ الله يُحِبُّهُ**» [مُتفق عليه].

وفي حديث رواه البخاري معلقًا بصيغة الجزم، أنّ رجلًا كان يقرأ بها في كلّ ركعة من صلواته فأخبر النّبيّ ﷺ أنّه يُحبها فقال له النّبيّ ﷺ: «**حُبُّكَ إيَّاها أدْخَلَكَ الجَنَّةَ**».

وجاء عن أبي الدّرداء أنّ النّبيّ ﷺ قال: «**أَيَعْجِزُ أحَدُكُمْ أنْ يَقْرَأَ في لَيْلَةٍ ثُلُثَ القُرْآنِ؟**، قالوا: **وكيفَ يَقْرَأْ ثُلُثَ القُرْآنِ؟**، قالَ: **قُلْ هو الله أحَدٌ؛ تَعْدِلُ ثُلُثَ القُرْآنِ**» [رواه مسلم].

لقد حقّق رسولنا ﷺ الإخلاص في أعلى درجاته، وأرفع مراتبه، فكان الإخلاص رفيقه الدّائم في كل عبادة يعبد الله بها، وقد أوصاه ربه بذلك فقال سبحانه: {قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ} [الزمر: الآية 11].

ويؤكد ﷺ أنّ الإخلاص شرط قبول العمل، فقال كما في «الصّحيحين»:«**إنّما الأعمال بالنّيات**»، وقال عليه الصّلاة والسّلام فيما يرويه عن ربّه كما في «صحيح مسلم»: «**أنا أغْنَى الشُّرَكاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَن عَمِلَ عَم أشْرَكَ فيه مَعِي غيرِي، تَرَكْتُهُ وشِرْكَهُ**».

وكان أمر الله لرسوله ﷺ بإخلاص العبادة له حاسمًا وجازمًا، قال تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ * أَلاَ لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ} [الزمر: الآية 2- 3]. فالإخلاص هو لبّ التّوحيد وسرّه الأجّل، ومفتاحه الأعظم.

وهدّد سُبحانه وتوعّد على الشّرك ما لم يتوعّد على ذنب غيره، فقال: {إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا} [النساء: الآية 48].

وقد ذكر الله صورة رهيبة من صور تهديده لأعدائه المُشركين فقال تعالى: {حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ} [الحج: الآية 31]، وقال سبحانه: {إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ} [المائدة: الآية 72].

ما هو الحامل لآلاف الملايين من البشر على اتّباعه ﷺ وحُبّه، والدّفاع عن دينه، والذّب عن سنته بالأرواح والدماء؟ ويُولد جيل بعد جيل، وقرن بعد قرن في جميع القارات، ومن وراء المحيطات، وحبه يزداد، ودينه ينتشر، وهو لم يُقسّم على أتباعه هبات، ولم يمنحهم أُعطيات، وإنّما اتّبعوه لأمر خاص، وسر خفي، لا يعلمه إلّا الله، وهو إخلاص توحيده لربّه، وثمرة هذا الإخلاص القبول الذي يشاهده العالم بأسره.

وهل هناك في البشريّة كلّها صديق أوفى لصديقه من أبي بكر الصديق، حيث أحبّ رسول الله ﷺ ودافع عنه، وصدّقه، وضحّى من أجله؟ ورغم ذلك كلّه وقف (رضي الله عنه) أمام الجميع لمّا تُوفي رسول الله ﷺ بقلب مطمئن، وعزيمة راسخة، وثقة تامة، وإيمان قوي، وسداد وتوفيق من الله تعالى، وقال بأعلى صوته: «**مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا ﷺ فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ الله فَإِنَّ الله حَيٌّ لَا يَمُوتُ**».

فرغم جلل المصيبة، وشدة الألم، ومرارة الحزن على فراق رسول الله ﷺ إلّا أنّه (رضي الله عنه) ركّز على القضية الأولى والرسالة الكُبرى ألا وهي: «**رسالة التوحيد**»، التي بُعث بها النّبي المُختار ﷺ، وجاهد من أجلها، فمن يوم بدأ ﷺ رسالته كانت أول كلمة قالها هي: «**لا إله إلّا الله**»، وآخر كلمة قالها هي: «**لا إله إلّا الله**»، إنّها الكلمة الأولى والكلمة الأخيرة التي كان يؤكد عليها ﷺ دائمًا وأبدًا؛ لأن الخلق خلقوا ليعلموا أنه: «**لا إله إلّا الله**»، والكتب نزلت لتثبت أنّه: «**لا إله إلّا الله**»، والرّسل بُعثت لتدعو إلى: «**لا إله إلّا الله**»، فقبل أن تعلّم اعلَمْ أنّه: «**لا إله إلّا الله**»، وقبل أن تدعو حقّق: «**لا إله إلّا الله**»، وقبل أن تأمر وتنهى صحّح: «**لا إله إلّا الله**».

إنّ «**لا إله إلّا الله**»، وثيقة ربّانية، هبط بها جبريل إلى الأرض، وحملها موسى إلى فرعون، وأعلنها محمد ﷺ من أعلى الصّفا.

إنّ مفتاح السّعادة كلمة، وميراث الملّة عبارة، وراية الفلاح جملة، فالكلمة والعبارة والجملة هي: «**لا إله إلّا الله**»، فهي أعظم كلمة تدل على الله، وهي أصدق العبارات، وأجمل الكلمات، وأفضل الحديث، وأجلّ الحسنات، وهي الكلمة الشّافية، والوافية، والكافية، والجامعة، والمانعة، والحصن الحصين من غضب الله وعذابه، وشرّ عقابه، تُخرجك من الظلمات إلى النور، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن الهمّ إلى السُّرور، ومن النّار إلى الجنّة، قال ﷺ: «**إنَّ الله قدْ حَرَّمَ علَى النَّارِ مَن قالَ: لا إلَهَ إلّا الله يَبْتَغِي بذلكَ وجْهَ الله**» [مُتفق عليه].

«**لا إلَهَ إلّا الله**»، أصلُ الأصول، وبوابة الدّيانة، وطريق الفلاح، وهي بداية الطّريق لمن أراد الحياة الطّيبة، والعيش السّعيد، والخاتمة الحسنة، والخلود في الجنّة، فهي الكلمة الرّائدة الخَالدة بكل ما تحويه من معنى أراده الله عزّ وجل يوم فرض على العباد تحقيقها، ولا بد لهذه الكلمة من اعتقاد جازم لا يُخالطه شك، وحُبّ صادق لا يكدره سخط، وصدق في قولها لا يمازجه كذب، وعمل بمقتضاها لا يناقضه مخالفة، ودعوة إليها لا يصاحبها فتور، وسلامة من كل ما يعارضها من شرك أو رياء أو بدعة، ليكون قائلها أسعد النّاس بها في الدنيا والآخرة، فاجعلها مشروعك في الحياة، وقضيتك الكبرى، ردّدها، واعتقدها، واعمل بمقتضاها، وانشرها، فهي أصدق كلمة، وأجمل عبارة، وأقوى لفظ، وأعظم حجة، وأنبل رسالة، فادع إليها، وتزوّد منها، واجعلها على طرف لسانك، وكررها وأكثر منها، فإنّها تُرضي الرّحمن، وتثقل الميزان، وتُخسئ الشيطان، وتورث الجنان.

يقول الواحد الأحد سبحانه: {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ} [محمد: الآية 19]. هذه أعظم قضيّة في العالم، وأكبر مسألة في الدّنيا، وهي مسألة أن تعلمَ وتقرَّ وتعترفَ أنّه «**لا إله إلّا الله**»، فلا تُشركَ معه في عبوديته أحدًا، ولا تدعوَ من دونه إلهًا آخر، بل تصرفُ له عبادتك، وتخلصُ له طاعتك، وتوحّدُ له قصدك ومسألتك ودعاءك، فلا يستحق العبادة إلّا هو، ولا أحد يكشف الضّر غيره، فإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله.

أخلص له العبادة لأنه لا يقبل شريكًا، وخف عذابه لأنّه شديد، واحذر أخذه لأنّه أليم، واسأله فهو الغنيّ، واطمع في فضله لأنّه كريم، واستغفره فهو واسع المغفرة، ولُذ بجنابه فهناك الأمن، وأدم ذكره لتنال محبته، والْزم شكره لتحظى بالمزيد، فهو أحق من شُكر، وأعظم من ذُكر، وأرأف من

ملك، وأجود من أعطى، وأحلم من قدر، وأقوى من أخذ، وأجلّ من قُصِد، وأكرم من ابتُغِي، فلا إله يُدعى سواه، ولا ربَّ يُطاع غيره جلّ في علاه.

صلّى الله وسلّم على نبينا مُحمّد الذي أنقذنا الله به من الضّلالة، وعلّمنا من الجهالة، وبصّرنا من العمى، وأرشدنا من الغيّ، وأخرجنا به من الظّلمات إلى النّور، صلاةً وسلامًا دائمين طاهرين طيبين زكيين زكاة أنفاسه الطّاهرة المُباركة:

بُعثت بالوحي والأصنام ماثلة

والأرض بالشّرك قد فاحت من الدّنسِ

فلم تزل تنشر التّوحيد مُحتسبًا

فكل قلبٍ غدا نورًا من القبسِ

حطّمت أوثان قوم لا عقول لهم

أرواحهم في بحار الوهم والفَلسِ

فكنت غيثًا على الأرواح يُمطرها

من رحمة الله أو رُوحًا من القُدُسِ



مُحَمَّدٌ ﷺ مُهَاجِرًا

كانت هجرته الأولى ﷺ هجرة غير مُرتبطة بزمان أو مكان، هجرة باقية إلى يوم القيامة، حينما أمره ربّه فقال له: {وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ} [المدثر: الآية 5]، فهجر ﷺ كلّ ذنب، وكلّ معصية، وكلّ سيئ من قول أو فعل. وقال ﷺ: «**الْمُهَاجِرُ مَن هَجَرَ ما نَهَى الله عَنْه**» [مُتفق عليه].

أمّا هجرته الثّانية فجاءت بعدما بلغ به الأذى أشدّه، من حصار، وتجويع، وتضييق، وحبس، وتكالب من كفار قريش، ومُحاربة من قبائل العرب، وتعذيب لأصحابه، وقهر لأحبابه الذين اشتكوا إليه ألم الجلد، ومهانة الإذلال والتّحقير، فكان يُصبّرهم ويُسلّيهم ﷺ حتى طفح الإناء، وفار التّنور وضاقت بهم السُّبل، وانقطعت بهم الحيل، ولم يبق لهم إلّا حبل واحد، وطريق واحد، وهو حبل الله والطّريق إليه جلّ في عُلاه.

حينها أذن الله لنبيّه أن يرتحل ويغادر داره، ويُسافر من موطنه، ويُهاجر إلى بلد آخر، وكان يعلم عليه الصّلاة والسّلام منذ فجر دعوته أنَّهُ سوف يُخرج من مكة، فقد جاء في «**الصّحيحين**» أن خديجة (رضي الله عنها) ذهبت برسول الله ﷺ إلى ورقة ابن نَوْفل، ولمّا سمع من رسول الله ﷺ خبر ما رآه في الغار قال: «**لَيْتَنِي أكُونُ حَيًّا إذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ!**، فقالَ رَسولُ الله ﷺ: **أوَمُخْرِجِيَّ هُمْ!؟** قالَ: **نَعَمْ!؟ لَم يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بمِثْلِ ما جِئْتَ به إلّا عُودِيَ**»، فعلم عليه الصّلاة والسّلام من تلك اللّحظة أنّه سوف يُخرج من مكة، ولكنّه لم يكن يعلم إلى أيّ أرض يذهب، وإنّما تهيّأ واستعد لتقديم هذه التّضحية الغالية، تضحية الهجرة ومُفارقة الأهل والوطن والأحباب.

وجاء الإذن من فوق سبع سماوات من الحكيم الخبير الذي على العرش استوى، من الذي يُجري الأمور بمقدار، ممّن له حكمة في كل خطوة، وله سر في كل لفظة، وله عناية في كل خطرة، من ربّ العالمين سُبحانه، فأذن لرسوله وخليله أن يرتحل من مكة إلى المدينة حيث الأنصار الذي بايعوه في العقبة، وقد هيّأ ﷺ لذلك قدم صدق في المدينة من أنصار وأحباب، وانتقل متوكلًا على الله وعلى بركة الله من أرض الشانئين إلى أرض المُحبّين، ومن ديار المشركين إلى ديار المُوحّدين، فلحق ﷺ بأصحابه الصّالحين المهاجرين الذين تركوا الأهل والأبناء، والإخوة والعشيرة والدّيار والأوطان، يتلقون أصناف الجوع، والتّعب، والظّمأ، والنّصب، والوصب، لكن كُلّها تهون لوجه الله، وفي سبيل الله.

جهّز ﷺ متاعه للهجرة والرّحيل، ووكّل علي بن أبي طالب أن يرد ما كان عنده ﷺ من أمانات وودائع إلى أصحابها، ولذلك تخلّف(رضي الله عنه) عن النّبي في يوم هجرته، ولتمام شجاعته، وكمال فتّوته، نام في فراش النّبي، وعرّض نفسه لحدِّ السّيوف، ورؤوس الرّماح إن حصل خطر، وضحّى بروحه فداءً لروح النّبي، وقدّم نفسه درعًا حصينة دون نفس النّبي المعصوم ﷺ، فهو منه بمنزلة هارون من موسى، وهو صاحب المواقف التي جلّى فيها الكرب عن وجه رسول الله ﷺ، فبيّض الله وجه أبي الحسن، ورضي عنه.

وذهب ﷺ إلى أبي بكر الصّديق صاحبه الوفيّ الأمين، أوّل مَن أسلم، ولازم النبي ﷺ حضرًا وسفرًا، وحلًّا وترحالًا، وفي السّراء والضرّاء، وحانت ساعة الصّفر، ولحظة الفراق وما أشدها على النّفس! كما يقول الشاعر:

لَوْلا مُفارَقَةُ الأحبابِ ما وَجَدَتْ ... لهَا المَنَايَا إلى أرْوَاحنَا سُبُلا

ولحظة أن تُفارق وطنك وتُخرَج منه كُرهًا لحظة تفوق الوصف، فلا يُعبّر عنها نثر ولا شعر، لذلك قرن الله بين الإخراج من الأوطان وقتل الأنفس، فقال تعالى: {وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِنْهُمْ} [النساء: الآية 66]، وحينها وقف رسولنا ﷺ وقفة مُفارق، مُشتاق، مُتيّم، باكٍ، يقول وهو ينظر إلى مكة وزفراته الحارة تتصاعد، ودموعه تسيل: «**والله إنَّكِ لخَيرُ أَرْضِ الله، وَأَحَبُّ أَرْضِ الله إلَى الله، وَلَوْلَا أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكِ مَا خَرَجْتُ**» [رَوَاهُ أحمد والترمذي].

يقول الشاعر:

وحبَّب أوطانَ الرجالِ إليهمُ	مآربُ قضَّاها الشبابُ هنالكَا
إذا ذكروا أوطانَهُم ذكَّرتهمُ	عُهودَ الصبا فيها فحنّوا لذلكَا

هاجر ﷺ من مدارج الطفولة، وملاعب الصّبا، ومراتع الفتوة، وفارق الأحباب والخلّان، والأهل والجيران. وما أصعب هذا الشّعور على النّفس! وما أفظعه على القلب!.

ثم مشى ﷺ ومعه أبو بكر الصّديق(رضي الله عنه)، وتوجّها إلى غار ثور، وبقيا فيه ثلاث ليال، في لحظات مُرعبة مُزلزلة لا ينساها التّاريخ، تلك اللّحظات الحاسمة التي طُوّق فيها ﷺ من كُفار قريش بعد أن قلبوا الأرض عليه، وفتّشوا الجبال والأوديَة، والهضاب والفيافي، ثم أقبلوا إلى الغار بخمسين شابًا سيوفهم تقطر دمًا، وحقدًا، وموتًا، وسُمًّا زعافًا، ولكن الله بجميل تدبيره أعمى بصائرهم، وردّ كيدهم بألطف السُّبل، فظلوا واقفين أمام الغار ولم يدخلوه، وهنا همس أبو بكر (رضي الله عنه) للنّبي ﷺ، وقال له: **يا رسول الله! لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ لأَبْصَرَنَا!**، فرد ﷺ بقول الثّابت المُطمئنّ الواثق المُتيقّن بنصر الله: «**مَا ظَنُّكَ يا أبَا بَكْرٍ باثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا**» [مُتفق عليه].

هنا الثّقة بمعيّة الله، هنا تفويض الأمر إلى الله! هنا الرّكون إلى نصـر الله! هنا صدق اللجأ إلى قوته جلّ في عُلاه! وهذا شأن الأنبياء في الأزمات، وموقف الأولياء في الكُربات، فانظر إليه ﷺ كيف ربط الله على قلبه، وقوّى يقينه، وأنزل عليه السّكينة!؟ فما اهتز له بنان، ولا رجف له جفن، وإنّما بقي صامدًا ثابتًا يقول لصاحبه: «**لَا تَحْزَنْ إنَّ الله مَعَنَا**».

ويعلمنا أعظم درس وأجلّ رسالة تُوجّه لكل إنسان في أيّ أزمة تمرُّ به، أو كرب يتغشاه، أو شدة تقع به، أن يتذكر معيّة الله، وأن يكثر من دعائه والتّضرع له جلّ في علاه، فالله لن يخذله ولن يتركه وحده، بل سينصره ويجعل له من كل هم فرجًا، ومن كل ضيق مخرجًا.

ونقل لنا القرآن الكريم هذا المشهد في أجمل تعبير مؤثر، وأبهى صورة موحية، فقال تعالى: {إِلاَّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ

تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [التوبة: الآية 40].

وإنّني أنتقل بفكري الآن إلى الغار الذي أوى إليه النّبي ﷺ وأبو بكر الصّديق، وأتصور هذا الغار الضّيق الموحش المُظلم في رأس جبل، بلا فرشٍ ولا إنارةٍ ولا كراسي ولا سُرر ولا تبريد ولا طعام ولا شراب، ومع ذلك تجد النّبي ﷺ في غاية الأنس بالله، وفي نهاية الرّضا وانشراح الصّدر والاطمئنان والوثوق بوعد ربّه، ومواصلة الهجرة؛ ليُبلّغ رسالة الله، وينصر دينه جلّ في عُلاه.

وكان عامر بن فهيرة مولى أبي بكر يرعى الأغنام فيريحها عليهما حين تذهب ساعة من العشاء فيبيتان على لبن، يفعل ذلك كلّ ليلة من اللّيالي الثّلاث، وتأتي أسماء بنت أبي بكر الصّديق فتصنع سفرة فلم تجد للطّعام والسّقاء ما تربطهما به، فشقّت نطاقها قسمين: فربطت بأحدهما السّفرة وبالآخر السّقاء، فسُميت ذات النّطاقين، فهو اسم شرف لها (رضي الله عنها).

واستأجر رَسولُ الله ﷺ وأَبُو بَكْرٍ رَجُلًا مِن بَنِي الدِّيلِ، يُدعى: «**عبدالله بن أرَيْقط**»، **وكان مُشركًا آنذاك، فأمِناهُ فَدَفَعا إلَيْهِ راحِلَتَيْهِما، وواعَداهُ غارَ ثَوْرٍ صُبْحَ ثَلاثٍ براحِلَتَيْهِما، وانْطَلَقَ معهُما عامِرُ بنُ فُهَيْرَةَ، والدَّلِيلُ، فأخَذَ بهِمْ طَرِيقَ السَّاحِلِ**» [رواه البخاري].

وبالرّغم من اتخاذه ﷺ لكل الأسباب والاحتياطات والتّدابير إلّا أنّه لم يركن إليها مطلقًا، بل كان كلّ ثقته بتأييد الله، وجُلّ توكلّه على نصر الله، وانطلق ﷺ والأمل يحدوه، والسّكينة تغشاه، وحفظ الله يتولّاه، والتفاؤل يملأ جوانحه.

خرج مُطمئنّ الخطى، واثق السّير، رابط الجأش، قويّ العزيمة.

خرج هذا المهاجر المجاهد ﷺ ليصنع أعظم قصة في التّاريخ، وأكبر ملحمة في العالم، وأجلّ حكاية في المعمورة.

ولمّا خرج ﷺ مُهاجرًا من مكة إلى المدينة خرج مُتخفّيًا متستّرًا من الرّصد والعيون التي بعثتها قريش تبحث عنه بعد أن أعلنت جائزة مئة ناقة من أثمن وأنفس إبل العرب لمن أتى برأسه الشّريف ﷺ، وأخذ النّاس يتبارون ويتسابقون أيّهم يكسب هذه الجائزة الثّمينة لارتكاب أعظم جريمة في تاريخ البشريّة، وهي قتل نبيّ الرّحمة محمّدِ بنِ عبدالله ﷺ، وإذا قُتل مُحمّدٌ ﷺ أصيبت الإنسانيّة

والرّحمة بمقتل، وإذا اغتِيل محمّدٌ ﷺ اغتيلت الكرامة والمروءة، وإذا أعدمُوا محمدًا ﷺ أعدموا الطّهر والشّرف والفضيلة في شخصه الكريم.

ويلاحق الفارس (سراقة بن مالك) النّبي ﷺ بفرسه ورمحه يريد قتله ليفوز بجائزة قريش، والنّبي في حالة اطمئنان تام وهدوء كامل لا يلتفت، يتلو القرآن الكريم، فالقرآن زاده ليلًا ونهارًا، وطاقته التي لا تنتهي، ومعينه الذي لا ينضب، وكنزه الذي لا ينفد، فيُخبره أبوبكر بأنّ الفارس اقترب فيدعو عليه ﷺ، فيسقط سراقة ويكبو جواده، وبعد أن تكرّر المشهد، وسقط عن فرسه عدّة مرات تيقّن سراقة أنّ المسألة فوق طاقة البشر فطلب من النّبي الأمان، فأعطاه ﷺ الأمان، فَقالَ سراقة: «**إنِّي قدْ عَلِمْتُ أنَّكُما قدْ دَعَوْتُما عَلَيَّ، فَادْعُوَا لِي، فَاللَّهُ لَكُما أنْ أرُدَّ عَنْكُما الطَّلَبَ. فَدَعَا اللَّهَ، فَنَجَا**، فَرَجَعَ لا يَلْقَى أحَدًا إلّا قالَ: **قدْ كَفَيْتُكُمْ ما هَاهُنَا، فلا يَلْقَى أحَدًا إلّا رَدَّهُ**» [مُتفق عليه]. وهنا يقول أنس بن مالك (رضي الله عنه): «**فَكَانَ سراقة أوَّلَ النَّهَارِ جَاهِدًا على نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ، وكَانَ آخِرَ النَّهَارِ مَسْلَحَةً لَهُ**» [رواه البخاري]، بل إنّه فوق هذا بشّره ﷺ ببشرى تعجب لها الأسماع، وتدهش لها العقول، بشّره ﷺ وهو المهاجر المُطارد في الصّحراء، فقال له: كيف بك يا سراقة إذا تسوّرت بسواري كسرى؟! فبُهت واندهش سراقة، وقال: كسرى أنوشروان؟! فقال ﷺ: نعم. وتدور الأيام وينتصر أتباعه ﷺ، ويفتحون بلاد فارس، ويأتي أمير المؤمنين عمر بن الخطّاب، بسواري كسرى ومنطقته وتاجه، ويدعو سراقة بن مالك ويُلبسه إيّاهما، كما أورده البيهقي في الكبرى وابن عبد البرّ في الاستيعاب، والحافظ ابن حجر في الإصابة.

فانظر لروحه العظيمة الكريمة المتفائلة الطّاهرة ﷺ! كيف حملت الفأل الحسن بالفتح المُبين، والبُشرى العظيمة بالغد المُشرق، والأمل المنشود بالانتصار العظيم، حتى وهو في أشدّ الأزمات، وأصعب اللّحظات، قال الشاعر:

يا طريدًا ملأ الدّنيَا اسْمُهُ	وغدا لحنًا على كلّ الشّفاهْ
وغدتْ سيرتُه أسطورةً	يتلقّاهَا رواة عن رواهْ
ليتَ شعري هل دَرَوْا من طاردُوا	عَابِدُو اللات وأتْباعُ مَناهْ
هلْ درتْ من طاردتْه أمّة	هُبلٌ معبودها شاهتْ وشَاهْ
طَاردت في الغار من بَوّأهَا	سؤددًا لا يبلغ النّجمُ مَدَاهْ

طَاردت في البيد من شَاد لهَا
دينَه في المجد جاهًا أيّ جاه

سؤدد عالي الذرى ما شاده
قيصر يومًا ولا كسرى بناه

ويُواصل ﷺ رحلته في هذه الأجواء الشّاقة الصّعبة، ويقتلع خُطاه المُتعبة في الرّمضاء، ومعه صاحبه الصدّيق (رضي الله عنه)، وعامرُ بنُ فُهَيرَةَ، ودليلُهما عبدُ الله الليثي، ويمرون بخيمة أم مَعْبَد، وهي: عاتكة بنت كعب الخزاعيّة، فسَألوها لحمًا وتمرًا ليشتروا منها، فلم يُصيبوا عندَها شيئًا من ذلكَ، فنظر رسولُ الله ﷺ إلى شاةٍ في كسرِ الخيمةِ، فقال: «**ما هذه الشاةُ يا أمَّ معبدٍ؟!**، قالت: **شاةٌ خلَّفها الجَهْدُ عن الغنمِ**، قال: **هل بها منْ لبنٍ؟**، قالت: **هي أجهدُ من ذلكَ**، قال: **أتأْذنينَ لي أن أحلُبَها؟**، قالتْ: **بأبي أنتَ وأمّي! إن رأيتَ بها حلبًا فاحلُبْها. فدعا بها رسولُ الله ﷺ، فمسح بيدهِ ضَرعَها، وسمّى اللهَ تعالى، ودعا لها في شاتِها، فتفاجَّت عليهِ، ودرَّت واجترَّت، فدعا بإناء يَرْبِضُ الرّهْطَ، فحلب فيهِ ثَجًّا، حتى علاهُ البهاءُ، ثمَّ سقاها حتى رَوِيَتْ، وسقى أصحابَهُ حتى رَوَوْا، ثمَّ شربَ آخرَهم، ثمَّ حلب فيه ثانيًا بعدَ بدءٍ، حتى ملأَ الإناءَ، ثمَّ غادرهُ عندَها وبايعَها، وارتحَلوا عنها**» [رواه الطّبراني والحاكم].

إنّه أفضل يوم على الإطلاق مرّ بأم معبد، فمروره ﷺ عليها ترك في بيتها بركة وأثرًا من الخير والفضل لا يُنسى أبد الدّهر.

وكان أبو بكر(رضي الله عنه) في طريق الهجرة يخدم النّبي ﷺ، ويلتمس له الغذاء والماء والرّاحة، حتى إنّه أجلسه في ظل ظليل في الظّهيرة، وسأله أن ينام حتى يعود إليه، ثم ذهب يلتمس لبنًا عند راع، فأتى فحلب شاته ثم جاء بإداوة من ماء فمزج اللّبن بالماء حتى برد، ثم ناوله(رضي الله عنه) إلى النّبي ﷺ، فشرب ﷺ. ويصف أبو بكر هذا المشهد فيقول: «**فَشَرِبَ ﷺ حتَّى رَضِيتُ**» [مُتفق عليه]. يا له من لُطف جميل! ويا له من إيثار جليل! يشرب حبيبه فيسعد هو، يشرب صديقه فيرتوي هو، يشرب خليله فيرضى هو، هنا تعجز القصائد والخطب والكلمات عن وصف هذا المشهد، مشهد الوفاء والصّداقة، مشهد الإيثار والمحبّة، مشهد الشّعور العجيب من أبي بكر الصّديق (رضي الله عنه)وحُبّه ووفائه للنّبي ﷺ.

ويستمرون في السّير، ويعبرون الصّحراء القاحلة بين الجبال الشّاهقة في شدّة الحر، ووهج الرّمضاء، مع شدّة الجوع، وشدّة العطش، وشدّة الإعياء، وشدّة الخوف، ووعثاء السّفر، ووعر

الطّريق، وليس معهم مركب هني، ولا طعام شهيّ، لا يدرون من أين يأتي الطّلب؟! ومن أين يخرج الكمين والرّصد؟! أشعة الشّمس المُلتهبة تضرب رؤوسهم، وغبار الرّمال الهائجة يتناثر عليهم من كل حدب وصوب، لكن رغم هذا كلّه معهم الصّبر والأمل والثّقة بوعد الله.

وننتقل بالمشهد الآن إلى المدينة، إلى يثرب، إلى طَيبة الطّيبة، حيث قلوب تفيض حُبًّا، وأرواح تطير فرحًا، ونفوس تسيل سرورًا، مُنتظرة قدومه ﷺ.

ولمّا علموا في المدينة بخروج النّبي مُهاجرًا إليهم كانوا ينتظرون هذا اللّقاء بشغف وحُبّ وشوق، ويخرجون كل يوم إلى أطراف المدينة ينتظرون اللّحظة التّاريخية والسّاعة الفريدة في حياتهم التي لم تتكرر أبد الدّهر، ينتظرون قدوم هذا الإمام العظيم، والرّسول الكريم، يخرجون كل صباح ويبقون حتى تشتد عليهم حرارة الشّمس في الظّهيرة، فيرجعون إلى بيوتهم، يقول عروة بن الزّبير: «**سَمِعَ المُسْلِمُونَ بالمَدِينَةِ مَخْرَجَ رَسولِ الله ﷺ مِن مَكَّةَ، فَكانُوا يَغْدُونَ كُلَّ غَداةٍ إلى الحَرَّةِ، فَيَنْتَظِرُونَهُ حتَّى يَرُدَّهُمْ حَرُّ الظَّهِيرَةِ**» [رواه البخاري].

وهكذا كل يوم يخرجون إلى ضواحي المدينة من جهة مكة يسألون الرّكبان والرّعاة: هل رأيتم راكبًا أو شاهدتم وافدًا؟! فكانت تمرّ السّاعات عليهم طويلة، يتساءلون متى يحين اللّقاء؟! متى تسعد قلوبهم برؤية أحبّ النّاس، وأكرم النّاس وأشرف النّاس؟! متى ترتاح أرواحهم بهذا اللّقاء الفريد؟! متى يصل سيد ولد آدم عليه الصّلاة والسّلام، أكرم ضيف في تاريخ الإنسانية؟!

وتحين اللّحظة الكبرى، وساعة البُشرى، ويصيح صائح في ضحى النّهار: «**وصل الرّسول ﷺ، أقبل نبيّ الهدى**»، يا لجمال المشهد! ويا لعظيم المُفاجأة! فيخرج الأنصار مُسرعين مُتقلّدين سيوفهم (رضي الله عنهم) وأرضاهم، وتصعد النّساء على أسطح البيوت، والأطفال في السّكك، ويغمر المدينة الفرح، ويعمّها البشر، ويملؤها الشّوق لأحبّ إنسان إلى الرّحمن، وأعظم إنسان عرفته الأكوان، فكان يوم استقباله ﷺ يوم فرح وابتهاج، يوم لم يمرّ ولن يمرّ بالمدينة مثلُه، حيث أطلّ ﷺ بوجهه الشّريف المُنير على الجموع، أطل بنور الوحي، ونور السُّنة، ونور الرّحمة، فاختلطت الدّموع بالبسمات، دموع الفرح الموحية المُعبّرة المُؤثّرة التي لا يغلبها بيان، ولا يصل إليها شعر ولا نثر مهما كان.

ويصف البراء بن عازب (رضي الله عنه) هذا المشهد فيقول: «**ما رَأَيْتُ أهْلَ المَدِينَةِ فَرِحُوا بشيءٍ، فَرَحَهُمْ به حتَّى رَأَيْتُ الوَلَائِدَ والصِّبْيَانَ يقولونَ: هذا رَسولُ الله ﷺ**» [رواه البخاري].

ويُقبل الأنصار من كل حَدبٍ وصَوبٍ يُرحبون، ويُحيّون، ويُسهّلون، يَودون لو يفرشون رموش أعينهم لأقدامه ﷺ، ويبسطون أرواحهم لخطواته، ويُقدّمون نفوسهم هدية لمقدمه ﷺ.

وعن ذلك اليوم يقول أنس بن مالك: «**لمَّا كانَ اليومُ الَّذي دخلَ فيهِ رسولُ اللهِ ﷺ المدينةَ أضاءَ منْها كلُّ شيءٍ**» [رواه الترمذي]، فكانت طلته ﷺ أجمل من الشّمس في ضحاها، وأبهى من القمر إذا تلاها، فإذا العيون تسفح دمعها لشدة ما غمرها، وإذا القلوب تطير فرحًا، والأرواح تسافر حُبًّا، يا الله! مُحمد بن عبدالله هو الضيف، يا الله! رسول الهُدى هو الوافد، يا الله! نبي الله هو القادم، يا الله! خاتم المُرسلين هو الزائر!.

برؤياك زالَ الهمّ يا خير من وَفدْ	وزالَ العنَا واليأس والغمّ والنَّكدْ
وسارتْ لك الأرواح في الأرض موكبًا	تُحيّيك يا من نَوّر الرّوح والجسدْ

وصل ﷺ إلى قباء وظفر به من بين النّاس كلثوم بن الهِدْمِ (رضي الله عنه) من بني عمرو بن عوف فأنزله في داره، ونزل أبو بكر على خُبيب بن إساف، فَلَبِثَ رَسولُ الله في بَنِي عَمْرِو بنِ عَوْفٍ بضْعَ عَشْرَةَ لَيْلَةً، وأَسَّسَ مسجد قباء، المَسْجِدَ الذي أُسِّسَ علَى التَّقْوَى، وصَلَّى فيه، ثم مشى ﷺ إلى المدينة وأدركته الجمعة في بني سالم بن عوف، فجمع النّاس وصَلَّى في المسجد الذي في بطن الوادي وكانوا مئة رجل، وكانت أوّل جمعة داخل المدينة، ثُمَّ رَكِبَ راحِلَتَهُ، وشقّ الصّفوف كأنّه البدر يجتاز السّحاب، الكل يُرحّب، والكُل يُحيّي، بين دموع الفرح، وتراحيب الشّوق، تواكب الجموع هذا المشهد الذي يرسم صورته في القلوب، ويطبع أثره في الأرواح، وأسطح المنازل كلّها عيون شاخصة، وأرواح متلهّفة لهذا الإمام العظيم، والنّبي الكريم، أين يا تُرى ستبرك ناقته؟! فتختار النّاقة موضعًا كريمًا من تقدير الباري، منزل أخوال نبيّه في بني النّجار صلة رحم بهم، وقُربى، وتكريم، فينزل ﷺ حيث بَرَكَتِ النّاقة عِنْدَ مَسْجِدِه بالمَدِينَةِ، وكان يُصَلِّي فيه يَومَئذٍ رِجالٌ مِنَ المُسْلِمِينَ، وكانَ مِرْبَدًا لِلتَّمْرِ، لِسَهْلٍ وسُهَيْلٍ غُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ في حِجْرِ أسْعَدَ بنِ زُرارَةَ، فقالَ رَسولُ الله ﷺ حِينَ بَرَكَتْ به راحِلَتُهُ: «**هذا إنْ شاءَ الله المَنْزِلُ. ثُمَّ دَعا رَسولُ الله ﷺ الغلامَيْنِ فَساوَمَهُما**

بالمِرْبَدِ، لِيَتَّخِذَهُ مَسْجِدًا، فَقالا: لا، بَلْ نَهَبُهُ لكَ يا رَسولَ الله، فأبَى رَسولُ الله أنْ يَقْبَلَهُ منهما هِبَةً حتَّى ابْتاعَهُ منهما، ثُمَّ بَناهُ مَسْجِدًا» [رواه البخاري].

وبادر أبو أيوب الأنصاري(رضي الله عنه) حيث أكرمه الله بالأسبقيّة لضيافة النّبي، فأخذ رحله ﷺ ومتاعه القليل الذي لا يكاد يُذكر، والذي يُحمل بيد واحدة، وما عسى أن يكون هذا المتاع؟! لعلّه قطعة ثوب، أو بقيّة من خبز جافٍ، أو عمامة بالية أو قدح ليس إلّا، ولكنه أتى ﷺ بمتاع أعظم، وبزاد أكبر، وبعطاء أوسع.

جاء بالفتوحات الربّانية، والبركات الإلهية، والرّسالة السّماوية، جاء إليهم حاملًا مفاتيح الفردوس الأعلى ليُسلّمها في أيديهم جزاء إيمانهم ووفائهم ونُصرتهم (رضي الله عنهم).

ولقد ذكر الله نصره لنبيّه فقال تعالى: {إِلاَّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ} [التوبة: الآية 40]، فأيّ نصر حصل له ﷺ، مع العلم أنّه خرج مُهاجرًا دون قتال أو معركة تُسفر عن منتصر أو مهزوم؟!

إنّ الانتصار في معركة أو غزوة هو نوع من أنواع الانتصارات، لكن هناك انتصارات أعظم وأفضل وأكبر في ميادين الحياة، ومنها النّصر المقصود هنا، المنوط بالأهداف الكبرى، والعاقبة المُباركة له ﷺ، فمجرد ارتحاله سالمًا معافىً بدينه ودعوته إلى المدينة أعظم انتصار.

فقد أقام هناك الدّولة، وأسس مسجده في المدينة ليكون المسجد منطلق الدّعوة، ومهد الرّسالة، ومهبط النّور، وجامعة العلماء والأولياء والشّهداء والكرماء، ومنارة المشروع الرّباني الذي فُتحت به القلوب والبصائر، ثم فُتحت له الدّنيا بأسرها فيما بعد، فلم تكن هجرته ﷺ هي الغاية والنّهاية، بل كانت البداية، والانطلاقة الكبرى، ورحلة المتاعب والمصاعب والتّحديات التي انتصر فيها ﷺ، وتغلّب عليها، وحقّق بها المستقبل المنشود للأُمة، وصنع من خلالها الحضارة-بفضل من ربه- الحضارة الإنسانية الباهرة التي أُسّست على العدل والإحسان، والتّقوى والإيمان.

فصلّى الله وسلَّم على مَن أقام الله به الميزان، وأنزل عليه القرآن، ومزّق به الكُفر والبُهتان، وحطّم به الأوثان والصُّلبان، عدد ما فاح ريحان، وما عبق أُقحوان، وما تزيّن بُستان، وما اهتزّت جنان، وما تعاقب الملوان، وما ضجّت بالصّلاة عليه الإنس والجانّ، وما تطهّرت بالسّلام عليه الثّقلان.



مُحَمَّدٌ ﷺ عظِيْمًا

كلّ العُظماء، والزّعماء، والحُكماء، والأُدباء، تخرّجوا من مدارس أرضيّة، وجامعات دنيويّة، إلّا هو ﷺ، فهو مبعوثُ العناية الرّبّانية، ومرسلُ الرّحمة الإلهية؛ لهداية الإنسانيّة وإرشاد البشريّة، بشّر به الله العالمينَ، فقال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ} [الأنبياء: الآية 107]، وأخبر سُبحانه بصفاته العظيمة فقال: {يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا} [الأحزاب: الآية 45 - 46]، وزكّى منهجه وهديه وأخلاقه فقال تعالى: {وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [القلم: الآية 4]، وأثنى على طريقته فقال سبحانه: {وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى} {صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [الشورى: الآية 52]، وذبّ التُّهَم عن عِرضه ﷺ وسُمْعته فقال تعالى: {وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى} [النجم: الآية 1- 4]، ووعد بنصره، وولايته، وحِفظه فقال سبحانه: {يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [الأنفال: الآية 64]، وقال: {إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ } [الحجر: الآية 95]، وحقّق له ما وعد من نصر، وأنجز له ما أخبر به من فتح فقال سبحانه: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِيناً * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا * وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا} [الفتح: الآية 1- 3]، فكان في إرساله ﷺ ميلادٌ جديدٌ للبشريّة، وفجرٌ باهرٌ للإنسانيّة.

ومن أسرار عظمته ﷺ، أنّه لم تأت بعده عبر التّاريخ شخصية تُنسيه أو تلغيه، فجميع القادة قد يتناوبون على العظمة، أو التفرّد، أو الرّيادة؛ فمثلًا طارق بن زياد قد يأتي بعده قادة ومثله قادة، وصلاح الدّين الأيوبيّ، يأتي مثله أو من يشابهه أو يتفوق عليه، وكذلك في جانب العلم، يأتي عالمٌ

فيكون مُجتهدًا ثم يأتي عالم آخر قد يفوقه، وقس على ذلك كلّ العلوم وجميع مناحي التّميز في الحياة، إلّا رسول الله ﷺ؛ فهو الشّخصية البارزة التي تختلف عن كل القادة، والعلماء، والرّواد، والعُظماء؛ إنّه باختصار: «المعصوم ﷺ»، فالعُظماء كل منهم عظيم في باب واحد، منهم من هو عظيم في السّياسة، أو العسكرية، أو العلم، أو الاقتصاد، أو الفلسفة... إلى غير ذلك، لكن رسولنا ﷺ عظيم في كل باب، وعظيم في كل مناحي الحياة، فهو الأوّل في كل مقام شريف، وفي كل مجد مُنيف، عظمته تُحطّم الأرقام، وتُنسيك الأعلام، وتصحبك مدى الأيام.

فهو ﷺ الأوّل الذي سكن قلوب النّاس، واستولى حُبُّه على مشاعرهم، فصار المُعلّم والقدوة، والإمام والأسوة، عصم الله فؤاده، وزكّى نهجه، وأثنى على هديه، ومدح خُلُقه، وطهّر روحه، فهو الأوّل في كل خُلُق نبيل، ووصف جميل، ومعنى جليل، بلغ في كل فضيلة منتهاها، وفي كل مكرمة أقصاها، وفي كل مَنقبةٍ أعلاها، ليس في حياته زلّة، ولا في خُلُقه هفوة، ولا في سجله سقطة، ولا في تاريخه كبوة، ولا في ديوانه غلطة.

هو ﷺ **الأوّل** الذي عظّم «اسم الله» في القلوب، وفتق الألسن بـ «لا إله إلا الله»، وغرس في الأرواح: «الله.. الله»، وبث في الوجدان «نور الله»، وفتح للنّاس «باب الله»، وأعلن في العالم «توحيد الله».

أعلن حقوق الإنسان، ونادى بالعدالة وحِفظ النّوع البشريّ، والمحافظة على البيئة، واحترام الذّوق العام.

هو ﷺ **الأوّل** الذي بهر عُقلاء العالم، وأعجب حُكماء الدّنيا، وأثّر برسالته في أهل الأرض، واجتمع على حُبّه واتّباعه البيض والسّود والحُمر، من جميع القارات، باختلاف اللّغات، وتعدّد اللّهجات، وتباين العرقيات.

هو ﷺ **الأوّل** الذي أتى بحق الرّوح في توحيد الله وعبادته وذكره، وحقّ العقل في التّفكير والتّدبر والرّأي الصّحيح، وحق الجسم في القوّة والرّياضة والنّشاط، وحق البطن في أكل الحلال وشربه، والاقتصاد وتناول النّافع المُفيد، فهو ﷺ مُلهم الرّوح، والعقل، والبدن.

هو ﷺ **الأوّل** الذي مهما طال عمرك وعظم ذكاؤك، لا تستطيع أن تُلمّ بأبعاد كلماته، ولا أن تُحيط بدرر حِكمه، بخلاف غيره من البشر مهما كان؛ فإنّك تستطيع أن تُحيط بنواحي حياته

وتفاصيل عمره.

هو ﷺ الأوّل الذي كُلّما اقتربت منه ومن سُنّته اقتربت من الله، وكُلما ابتعدت عنه وعن سُنّته ابتعدت عن الله، وهذا وصف لا يكون إلّا له ﷺ، لمنزلته العُظمى عند ربّه، ومحلّه الأشرف عند مولاه.

هو ﷺ الأوّل الذي لا يجوز لك أن تأخذ أفعاله وأقواله على محل الجدل والنّقاش، ترد ما شئت وتقبل ما شئت، بل عليك السّمع والطّاعة له؛ لأنّه معصوم ﷺ، بخلاف غيره، مهما كان علمه أو صلاحه فلك حقّ النّظر والأخذ والرّد والقبول والرّفض.

هو ﷺ الأميّ الأوّل الذي حار العلماء في أسرار شريعته، واندهش العباقرة من روعة كلماته، وغاص الحكماء والأذكياء في بحور معارفه، لم يحمل دفترًا من الدّفاتر، ولا محبرة من المحابر، ولكن عِلْمه دوّى على المنابر، وانتشر ميراثه على المنائر، فلم يكتب كتابًا، ولكنه ما خلا من ذكره كتاب، ولم يخط بيده جوابًا، ولكنه أعظم سؤال وأشرف جواب، فهو الذي فتح للمعرفة أبوابًا، ومدّ للعلم أسبابًا، وملأ بنور الله أوديةً وشعابًا.

هو ﷺ الأوّل الذي وصل جميله ومعروفه وإحسانه إلى كلِّ واحد من أتباعه إلى يوم القيامة، كبيرًا أو صغيرًا، رجلًا أو امرأة، غنيًّا أو فقيرًا، كلٌّ عنده بحسب ما استفاد من هذا النّبي العظيم، ألهم الأطفال، وشحذ همم الرّجال، وشجّع الأبطال، واحترم المرأة، وحافظ على المال العام، وقدّس الفضيلة، وصان المُثل العليا، ودعا للأهداف السّامية:

حبيبنَا أنت، أنت الفجر والأملُ	والفأل والفتح والإلهام والمُثلُ
أنت الصّباح لنا من بعد ليلتنا	وبدرنَا أنت فيك الحُسن مُكتملُ
على مُحيّاك غيث الوحي مُنسكبًا	يَخضرُّ من راحتيك السّهل والجبلُ
في مبسم الكون بُشرى أنت راسُمها	يفديك كلّ الورى حافٍ ومنتعلُ

عظيم ﷺ لأنّه الأوّل الذي لم يستطع أعداؤه أن يحفظوا عليه سقطة، ولم يعثروا في ملفّ خُلقه الكريم على غلطة، مع شدّة عداوتهم، وعظيم مكرهم، وضراوة حقدهم، بل وجدوا كل ما غاظهم من نُبل في الهمّة، ونظافة في السّجل، وطُهر في السّيرة، وَجَدُوا الصّدق الذي يُباهي سناء

الشّمس، ووجدوا الطّهر الذي يتطهر به ماء الغمام، فهو الأوّل في كل خُلق شريف وكل مذهب عفيف، كان مستودع الأمانات، ومرد الآراء، ومرجع المُحاكمات، ومضرب الأمثال في البرّ والسّمو، والرّشد والفصاحة.

ولهذا حُقّ لنا أن نقول بكل ثقة واطمئنان: إنّه بالإمكان كتابة ألف مجلد، في كل مجلدٍ سيرةُ مئة عظيم من عظماء الإسلام، في الفقه، أو التّفسير، أو الحديث، أو التاريخ، أو الوعظ، أو ال برّتية، وجميع هؤلاء العظماء هم ذرة مِن عظمته ﷺ.

ونقول أيضًا: ليس في العالم أحد بدأ الله تعالى بالصّلاة والسّلام عليه بنفسه المُقدّسة، وملائكته والمؤمنين؛ يصلون عليه إلى يوم الدّين إلّا محمّدًا ﷺ، وليس في العالم أحد أعطاه الله المقام المحمود، واللّواء المعقود، والموقف المشهود إلّا محمّدًا ﷺ، وليس في العالم أحد مُخوّل عن ربّه، ومُفوّض عن خالقه، يُحلّل ويُحرّم -بإذن الله- بعد مبعثه ﷺ إلّا هو، وليس في العالم أحد يدور الحقّ معه حيثما دار، ويكون الصّواب حليفًا له في كلّ قول وفعل، وتُقاس الأقوال على قوله، والأفعال على فعله، والأحوال على حاله إلّا محمّدًا ﷺ.

ويجب على كلّ إنسان أن يجعله له مُعلمًا، ويتخذه مُلهمًا، ويرضاه حَكمًا، فصلاته ﷺ، وصيامه، ولباسه، وطعامه، ونومه، ويقظته، وكلامه، ومزحه، وضحكه، وبكاؤه؛ شريعة وعبادة يُتعبّد بها.

إنّ أيّ عظيم في العالم وأيّ إنسان مثالي ستجد عنده عدة صفات جميلة، إمّا في الحِلم، أو الكرم، أو الزّهد، أو الشّجاعة، لكن أن يجمعها كلّها في أعلى مستوياتها وأرفع درجاتها فهذا مستحيل، ولم يكن ذلك إلّا لمُحمد ﷺ، فوالله إنّه عَذْب الأخلاق، كريم السّجايا، مهذّب الطّباع، نقيّ الفطرة، طيّب الخصال، عظيم الخلال، جمّ الحياء، حيّ العاطفة، جميل السّيرة، طاهر السّريرة، عفيف الجيب، سليم الصّدر. والله إنّه قمة الفضائل، ومنبع الجود، ومطلع الخير، وغاية الإحسان، ونهاية ما يصبو إليه الإنسان، وذروة ما تتوق إليه الأنفس وتطمح إليه الأرواح، كما قيل:

مَن كانَ فوْق مَحلّ الشّمسِ موْضِعُه ... فَلَيْسَ يَرْفَعُهُ شيءٌ وَلا يَضَعُ

عظيم ﷺ؛ لأنّ ميراثه باقٍ إلى قيام السّاعة، وكلامه شريعة يُتعبّد بها إلى يوم الدّين،هداه رب العالمين، واجتمعت الأجناس والألوان والأعراق على حُبّه وطاعته، أحبّه الملك والمملوك،

والصّغير والكبير، والرّجل والمرأة، والغنيّ والفقير، والقريب والبعيد؛ لأنّه ملك القلوب بعطفه، وأسر الأرواح بفضله، وطوّق الأعناق بكرمه، وسبى الأنفس بجوده، وكسب النّاس بلطفه، هذّبه الوحي، وعلّمه جبريل.

البسمة على محيّاه ﷺ، والبشر على طلعته، والنّور على جبينه، والحبّ في قلبه، والجود في يده، والبركة معه، هو الطهر كلّه، والصّدق أوّله وآخره، والحقّ ما دعا إليه، والعدل ما حكم به، لو كان الصّلاح رجلًا لكان في ثيابه، ولو كان البرّ إنسانًا لكان في هيئته، ولو أنّ الفضيلة بشر لحلّت فيه، صادق ﷺ ولو قابلَته المنايا، شجاع ولو قاتلته الأسود، جواد ولو سُئل كلّ ما يملك. هو المثال الرّاقي، والرّمز السّامي، والنّبي المُختار، والرّسول المُصطفى، سبَق العالَم ديانةً وأمانة، وصيانة، ورزانة، وتفوّق على الكل علمًا وعملًا، وكرمًا ونُبلًا، وشجاعة وتضحيةً، وعلا على الجميع صبرًا وثباتًا، وصلاحًا واستقامة.

فهو الأوّل ﷺ الذي يُبهرك في كل صفة من صفاته، وكل خُلق من أخلاقه، فله من كلّ وصف جميل أرقاه، وله من كلّ خُلق نبيل أشرفه، فقد نال ﷺ أعلى مكارم الأخلاق، وأرفع درجات الكمال البشريّ، فهل سبقه أو لحقه في العالم شخصٌ بهذه المرتبة في عالم الأخلاق والشّمائل؟

عظيم ﷺ لتحمّله وصبره على ما لاقاه من مصائب وما قابله من أهوال، فقد وُلد يتيمًا، ثم ماتت أمه، ومات جدّه، وفقَد زوجته، وتوفّي عمّه، ومات جميع أبنائه، وطُلّقت ابنتاه، واتُّهم في عرضه، وابتُلي بالجوع والفقر، ووُضع السّلا على رأسه، ورُميَ بالحجارة حتى أُدميت عقباه، واتُّهم ﷺ بالسّحر والجنون، وسُبَّ بأبشع الكلمات، وحوصر في الشِّعْب، وأُخرج من بيته وبلده، فقال: «**اللَّهُمَّ اغفِرْ لقَومي، فإنَّهم لا يَعلَمونَ**» [رواه ابن حبّان].

قتلوا أصحابه، وشجّوا وجهه، وكسروا رباعيته، ومثّلوا بعمه، فقال: « **اذهبوا فأنتمُ الطُّلَقاءُ**» كما في [سيرة ابن هشام] و[سنن البيهقي].

آذوه ﷺ فصبر، شتموه فحلم، ظلموه فعفا، جفوه فصفح، منعوه فأعطى، قطعوه فوصل، كان يوعك مِن الحُمّى كما يُوعك الرَّجلان، ويجوع فلا يجد كسرة خبز ولا حفنة تمر، وهو الذي فُتحت لأُمّته خزائن الدّنيا وكنوز المعمورة، وجلس أتباعه ﷺ بعده على عروش كسرى وقيصر، وأسرّة فارس والرّوم، وكان يجلس ﷺ على حصير مُمزّق، وينام على الرّمل، ويلتحف بكساء بالٍ، واجه

الوثنيّة بأسرها، والجاهلية بقضها وقضيضها، والشّرك بعتاولته وأصنامه؛ فثبت ثبات الحقّ، وصمد صمود الجبال الرّاسيات.

عظيم ﷺ؛ لأنّ الله نصره على كلّ عدوّ، وأظهره على كلّ خصم، وأيّده في كل أمر، ومنحه العزّ بلا عشيرة، والغنى بلا مال، والحفظ بلا حرس، فهو المُظفّر؛ لأن الله حَسْبُه، وهو المنصور لأنّ الله حَسْبُه، وهو الموفّق لأن الله حَسْبُه.

إذا سمع ﷺ صولة الباطل، وجلبة الخصوم، ودعاية الشّرك، ووعيد اليهود، وتربص المنافقين، وشماتة الحاسدين؛ ثَبَتَ لأنّ الله حَسْبُه.

وإذا ولّى الزّمان، وأعرض القريب، وشمت العدوّ، وضاقت النّفس، وأبطأ الفرج، ثبت ﷺ؛ لأن الله حَسْبُه.

وإذا داهمته المصائب، ونازلته الخطوب، وحفّت به النّكبات، وأحاطت به الكوارث، لم يلتفت إلى أحد من النّاس، ولم يدع أحدًا من البشر، ولم يتّجه لكائن من كان غير الله؛ لأن الله حَسْبُه.

ألمّ به ﷺ المرض، وحلّت به قلت ذات اليد، وأبطأ عليه النّصر، وتأخّر الفتح، واشتدّ الكرب، وثقل الحمل، وادلهمّ الخطب، فلم يجزع؛ لأنّ الله حَسْبُه، كما قال سُبحانه: {يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ} [الأنفال: الآية 64].

عظيم ﷺ بمُهمّته الغالية، ووظيفته السّامية؛ فقد هدى النّاس من الضّلالة، وعلّمهم من الجهالة، وأزال الشّبهات، وطرد الغوايات، ومحا الباطل، وشيّد الحق.

من أراد السّعادة اتَّبعه، ومن أحبّ الفلاح اقتدى به، ومن رغب في النّجاة اهتدى بهداه. فصلاته ﷺ أحسن صلاة، وصيامه أتمّ صيام، وحجّه أكمل حج، وصدقته أزكى صدقة، وذكره لربّه أعظم ذكر.

من ركب سفينة هدايته نجا، ومن دخل دار دعوته أمن، ومن تمسّك بحبل رسالته سلم، ومن اتّبعه اهتدى وما ضلّ، ومن تشرّف بسُنّته عزّ وما ذلّ، ومن اهتدى بهداه استقام وما زلّ، وكيف يذلُّ والنّصر معه ﷺ؟ وكيف يضل وكل الهداية لديه ﷺ؟ وكيف يزلّ والرّشد كلّه عنده ﷺ؟ فكلامه ﷺ هُدى، وحاله هُدى، وفعله هُدى، ومذهبه هُدى، فهو الهادي إلى الله، الدّال على طريق الخير، المُلهم

لكل برّ، الدّاعي إلى الجنة؛ لأنّه وافق الفطرة، وجاء بحنيفية سمحة، وشريعة غرّاء، وملّة كاملة، ودين تام، فهدى ﷺ العقل بإذن الله من الزيغ، وطهّر القلب بإذن الله من الرّيبة، وغسل الضّمير بإذن الله من الخيانة، وأخرج الأُمّة بإذن الله من الظّلام، وحرّر البشر بإذن الله من الطّاغوت، قال تعالى: {وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [الشورى: الآية 52].

عظيم ﷺ لأنّ الله شرح صدره؛ فصار وسيعًا فسيحًا لا ضيق فيه ولا حرج، ولا هم ولا غم، بل مُلئ بالنّور والسّرور، والحكمة والرّحمة، والإيمان والإحسان، قال تعالى: {أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ} [الشرح: الآية 1]. شرح الله صدره ﷺ فوسع أخلاق النّاس، وعفا عن تقصيرهم، وصفح عن أخطائهم، وستر عيوبهم، وحلم على سفيههم، وأعرض عن جاهلهم، ورحم ضعيفهم، كان ﷺ كالغيث جودًا، وكالبحر كرمًا، وكالنسيم لطفًا، أعطى السّائل، وأكرم القاصد، وجاد على المؤمّل.

شرح الله صدره فصار بردًا وسلامًا يُطفئ الكلمة الجافية، ويُبرّد العبارة الجارحة، صبر على جفاء الأعراب، ونيل السّفهاء، وعجرفة الجبابرة، وتطاول التّافهين، وتجهّم القرابة، وإعراض المُتكبّرين، ومقت الحسدة، وسهام الشامتين.

شرح الله صدره فكان بسّامًا في الأزمات، ضحّاكًا في المُلمّات، مسرورًا وهو في عين العاصفة، مطمئنًا وهو في جفن الرّدى، تداهمه المصائب وهو ساكن، وتنازله الخطوب وهو ثابت؛ لأنّه ﷺ مشروح الصّدر، عامر الفؤاد، حي النّفس، لم يكن فظًا قاسيًا، ولا غليظًا جافيًا، بل كان رحمة وسلامًا، وبرًّا وحنانًا، فالحلم يُطلب منه، والجود يُتعلم من سيرته، والعفو يُؤخذ من ديوانه، وصدق الله: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} [القلم: الآية 4].

عظيم ﷺ؛ لأنّ الله وضع عنه وزره، كما قال تعالى: {وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ } [الشرح: الآية 2- 3]. وحطّ عنه خطاياه، وغسّله من الذّنوب، وطهّره مِن العيوب، وغفر له ما تقدّم مِن ذنبه وما تأخر، فهو النّقيّ الطّاهر مِن كل خطيئة، ذنبه مغفور، وسعيه مشكور، وعمله مبرور، وفي كل شأن من شؤونه مأجور.

أُوتي جوامع الكلم، واختُصر له الكلام اختصارًا، ولا يتمثّل الشّيطان به، وأقسم الله تعالى بحياته ﷺ، لشرف هذه الحياة، ولعلو منزلته عند الله، فقال سبحانه: {لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ} [الحجر: الآية 72].

عظيم ﷺ لأنّه الأوّل في العالم الذي نال تاج: {وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ} [الشرح: الآية 4]، وانظر في كل يوم وليلة على مدى القارات كم يُصلَّى عليه ﷺ؟ وكم يُذكر على المنابر، وعلى رؤوس المنائر؟ لا يُذكر اسم الله تعالى إلّا وذُكر معه ﷺ، اقترن ذكره بذكر الله في الأذان والصّلاة، والخطب والمواعظ، يذكره كلّ مُصلّ، وكلّ مُسبّح، وكلّ حاج، وكلّ صائم، وكلّ خطيب، وكل داعية، فهل هناك أعظم شرفًا من هذا؟ وهل يوجد مجد أعلى من ذلك؟ ذكره الله في التّوراة والإنجيل، ونوّه باسمه في الصّحف الأولى والدّواوين السّابقة، اسمه يُشاد به في النّوادي، ويُتلى في الحواضر والبوادي، ويُمدح في المحافل، ويُكرّر في المجامع.

رفع الله ذكره فسار في الأرض مسير الشّمس، وعَبَر القارات عبور الرّيح، وسافر في الدنيا سفر الضّوء، فكل مدينة تَدرِي به، وكل بلد يسمع عنه.

رفع الله ذكره فصار حديث الرّكب، وقصة السّمر، وخبر المجالس، وقضية القضايا، والنبأ العظيم في الحياة.

رفع الله ذكره فما نُسي مع الأيام، وما مُحي مع الأعوام، وما شُطب من قائمة الخلود، وما حُذف من ديوان التّاريخ، وما أُغفل من دفتر الوجود.

نُسي النّاس إلّا هو، وسقطت الأسماء إلّا اسمه، وأُغفل العُظماء إلّا ذاته، من ارتفع ذكره من العباد فبسبب اتّباعه، ومن حُفظ اسمه فبسبب الاقتداء به، ذهبت آثار الدّول وبقيت آثاره، مُحيت مآثر السّلاطين وبقيت مآثره، زالت أمجاد الملوك وخُلّد مجده.

ليس في البشر أشرح منه صدرًا، ولا أرفع منه ذكرًا، ولا أعظم منه قدرًا، ولا أحسن منه أثرًا، ولا أجمل منه سيرًا.

عظيم ﷺ لأنّه ما جلس مجلسًا مع أحد، رجلًا كان أو امرأة، كبيرًا كان أو صغيرًا، إلّا ونسي ذاك الرّجل أو المرأة كل شيء في حياته، وكل ذكرى مرّت به، إلّا لقاءَه أو مجلسه أو حديثه مع الرّسول عليه الصّلاة والسّلام، فكان الواحد منهم بقية عمره يتحدث فقط عن تلك السّاعة التي ظفر بها مع الرّسول ﷺ، أو الكلمة التي تلقّاها منه، أو الثّناء الذي تشرّف به، أو الدّعوة التي نالها منه ﷺ، فتملك هذه المواقف كلّ شيء في حياته، وتستغرق ذكرياته، وتستولي على فكرته، لجلال بركته ﷺ، ورسوخ أثره المُبارك في أمّته، كما قيل:

وَالله مَا خَطَرَتْ بِالْقَلْبِ خَاطِرَةٌ	إِلَّا وَذِكْرُكَ يَجْرِي مِلْء أَنْفَاس
وَلَا جَلَسْتُ إلى قَوْمٍ أُحَدِّثُهُم	إِلَّا وَأَنْتَ حَدِيثِي بَيْنَ جُلَّاسي

إنّ العظماء إذا ماتوا ضمّتهم القبور، أمّا محمد ﷺ لمّا مات فضمّته القلوب. تقرأ عن العظماء فتراهم كبارًا، فإذا قرأت عن محمد ﷺ صاروا عندك أصفارًا صغارًا، ولقد قرأتُ حياة أئمة أهل السّنة وغيرها من الطّوائف المنتسبة للإسلام؛ فإذا كل طائفة تقدّر إمامها بحسب اتّباعه لهذا النّبي الكريم ﷺ، وفي داخل هذه الطّوائف مذاهب؛ فتجد الأحناف مثلًا يقدّرون أبا حنيفة ويتمذهبون بمذهبه بقدر قُربه من الرّسول عليه الصّلاة والسّلام، ويُؤخذ من كلامه ويُرد بعد عرضه على السُنّة المُطهّرة، وكذلك الإمام مالك عند المالكية، والإمام الشّافعي عند الشّافعية، والإمام أحمد بن حنبل عند الحنابلة، وغيرهم من بقية العلماء الذين يقتدي بهم أتباعهم من الطّوائف الأخرى، ولكن تجتمع كل هذه الطّوائف لتجعل ملهمها الأوّل بإلهام الله له؛ محمد عليه الصّلاة والسّلام، فكلٌّ يدّعيه، وكلٌّ يزعم أنّه أقرب إليه، وكلٌّ يرى أنّه الحبيب الأَوْلى بحُبّهم، فلم يجتمع هذا الحُبّ من كل الطّوائف والمذاهب إلّا له ﷺ؛ لقد ترك ﷺ بصمته في قلوب أتباعه إلى يوم الدّين كلٌّ بحسب ما أخذ من إلهام رسول الهدى عليه الصّلاة والسّلام.

ومن عظمته ﷺ أن سيرته مكشوفة للجميع كأنّه يعيش في غُرفة زُجاجية، ليس هناك أسرار ولا ألغاز، إنّما الوضوح والصّدق أمام العالمين، كل فرد في أمّته يعلم دقائق سيرته ومواقف حياته، فهو يعيش مع أُمّته على مدار اليوم واللّيلة، في نومهم ويقظتهم، وصلاتهم وصيامهم، وذكرهم وحجّهم، وطعامهم وشرابهم، معهم في جميع أطوار حياتهم، وصور معيشتهم، ومشاهد عُمرهم، يعيش معهم بتعاليمه، وهديه، ونوره، وسُنّته، معهم في الغنى والفقر، والصّحة والمرض، والانتصار والانكسار، والحِل والتّرحال، له في كل مُناسبة وصايَا، وكل موقف أحاديث، وكل قضية توجيهات، وكل مُشكلة إرشادات، فهل أحد في العالم يُشاركه في هذه العظمة؟!

إنّ كُلّ عاقل، وعادل، ومُنصف، يعلم تمام العلم أنّ أعظم إنسان في تاريخ البشريّة جمعاء حظيت شخصيته بأرقى درجات الاهتمام، وأعلى مقامات الإشادة، هو نبيّ الله محمد بن عبدالله ﷺ، وبرغم كل ما وُجّه إليه - بأبي هو وأمي- من حملات طعن، وتكذيب، وتشكيك، وتشويه، إلّا أنّ أغلب الآراء، وأعظم الشّهادات، وأعلى التّقديرات، في تاريخ الأمم كانت لصالحه ﷺ، ولصالح رسالته الخالدة وفضلها على الإنسانية جمعاء.

وقبْل شهادات البشر شَهِد الله وهو خير الشّاهدين لسيّد المرسلين وإمام المُتّقين؛ بأنّه على خُلق عظيم، وكفى بالله شهيدًا.

وشهد الصّحابة الأطهار، والتّابعون الأخيار، والأئمة الأبرار، ولن أذكر شهاداتهم هنا؛ لأنّها تحصيل حاصل، وواجب شرعي على كل مؤمن ومؤمنة، ولكني سأستشهد بعظماء، وزعماء، وكُتّاب، وفلاسفة (شرقيين وغربيين)، وأكثرهم غير مسلمين، يُقرّون بالحقيقة، ويعلنون شهادتهم بكل وضوح في سيّد الخلق ﷺ، وقد حملهم على ذلك العدل والإنصاف، وما طالعوه من سيرة هذا النّبي الكريم والإمام العظيم ﷺ.

أترككم مع بعض هذه الشهادات موثّقة بمراجعها؛ حتى تعلموا أنّ الله قد رفع ذكره ﷺ في الخافقين، وشهد له المُسلمون وغير المُسلمين، من كافّة الملل، والدّيانات، والثّقافات، والحضارات، والأعراق، والطوائف:

يقول الكاتب الإنجليزي «**برنارد شو**» في كتابه «**محمّد**»:«إنّ العالم أحوج ما يكون إلى رجل في تفكير محمد، هذا النّبي الذي وضع دينه دائمًا موضع الاحترام والإجلال، فإنَّه أقوى دين على هضم جميع الدّيانات، خالدًا خلود الأبد، وفي رأيي أنّه لو تولى أمر العالم اليوم، لوُفق في حلّ مشكلاتنا، بما يؤمن السّلام والسّعادة التي يرنُو البشر إليها.

و «**مايكل هارت**» يقول في كتابه «**العظماء المئة**»:«إنّ اختياري محمّدًا، ليكون الأوّل في أهمّ وأعظم رجال التّاريخ، قد يدهش القرّاء، ولكنّه الرّجل الأوّل في التّاريخ كلّه الذي نجح أعلى نجاح على المستويين: الدّيني والدّنيوي.

فهناك رُسل وأنبياء وحكماء بدؤوا رسالات عظيمة، ولكنهم ماتوا دون إتمامها، كالمسيح في المسيحية، أو شاركهم فيها غيرهم، أو سبقهم إليها سواهم، كموسى في اليهودية، ولكنّ محمدًا هو الذي أتمّ رسالته الدّينية، وتحددت أحكامها، وآمنت بها شعوب بأسرها في حياته؛ ولأنّه أقام جانب الدّين دولة جديدة، فإنّه في هذا المجال الدّنيوي أيضًا وحّد القبائل في شعب، والشّعوب في أمة، ووضع لها كلّ أسس حياتها، ورسم أمور دنياها، ووضعها في موضع الانطلاق إلى العالم. أيضًا في حياته، فهو الذي بدأ الرّسالة الدّينية والدّنيوية، وأتمّها.

و«**مهاتما غاندي**» في حديث لجريدة «**ينج إنديا**» تكلّم فيه عن صفات سيّدنا محمد ﷺ، فيقول: أردت أن أعرف صفات الرّجل الذي يملك بدون نزاع قلوب ملايين البشر، لقد أصبحت مقتنعًا كلّ الاقتناع أن السّيف لم يكن الوسيلة التي من خلالها اكتسب الإسلام مكانته، بل كان ذلك من خلال بساطة الرّسول مع دقّته وصدقه في الوعود، وتفانيه وإخلاصه لأصدقائه وأتباعه، وشجاعته مع ثقته المطلقة في ربّه وفي رسالته. هذه الصفات هي التي مهّدت الطّريق، وتخطّت المصاعب وليس السّيف، بعد انتهائي من قراءة الجزء الثاني من حياة الرّسول وجدت نفسي أسفًا لعدم وجود المزيد للتّعرف أكثر على حياته العظيمة» .

والفيلسوف الإنجليزي «**توماس كارليل**» في كتابه «**الأبطال**» يقول: «لقد أصبح من العار على أيّ فرد متمدِّن من أبناء هذا العصر، أن يصغي إلى ما يدعيه بعض الجهّال الحاقدين، مِن أن دين الإسلام كذب، وأنّ محمدًا ليس بنبي، إنّ علينا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة».

والدكتور «**جولدتسيهر**» الأستاذ بكلية العلوم جامعة بودابست يقول في كتابه «**العقيدة والشريعة في الإسلام**»:«الحق أنّ محمدًا كان بلا شك أوّل مصلح حقيقي في الشّعب العربي من الوجهة التاريخية».

الشّاعر الفرنسي الشّهير «**لامارتين**» من كتاب «**تاريخ تركيا**»، يقول: «إذا كانت الضّوابط التي نقيس بها عبقرية الإنسان هي سُمُوّ الغايةِ والنتائج المذهلة لذلك رغم قلّة الوسيلة، فمن ذا الذي يجرؤ أن يقارن أيًّا من عظماء التّاريخ الحديث بالنّبي (محمد ﷺ) في عبقريته؟ فهؤلاء المشاهير قد صنعوا الأسلحة وسنّوا القوانين وأقاموا الإمبراطوريات، فلم يجنوا إلّا أمجادًا بالية لم تلبث أن تحطّمت بين ظهرانَيْهم، لكن هذا الرّجل (محمّدًا ﷺ) لم يقد الجيوش ويسنّ التّشريعات ويقم الإمبراطوريات ويحكم الشّعوب ويروّض الحكّام فقط، وإنّما قاد الملايين من النّاس فيما كان يعد ثلث العالم حينئذ. ليس هذا فقط، بل إنّه قضى على الأنصاب والأزلام والأديان والأفكار والمعتقدات الباطلة. لقد صبر النّبي وتجلد حتى نال النّصر (من الله).

كان طموح النّبي ﷺ موجهًا بالكلية إلى هدف واحد، فلم يطمح إلى تكوين إمبراطورية أو ما إلى ذلك. حتى صلاة النّبي الدائمة ومناجاته لربّه ووفاته ﷺ وانتصاره حتى بعد موته، كل ذلك لا يدلّ على الغش والخداع بل يدل على اليقين الصّادق الذي أعطى النّبي الطاقة والقوة لإرساء عقيدة

ذات شقين: الإيمان بوحدانية الله، والإيمان بمخالفته تعالى للحوادث. فالشّق الأوّل يبيّن صفة الله (ألا وهي الوحدانية)، بينما الآخر يوضح ما لا يتصف به الله تعالى (وهو المادّية والمماثلة للحوادث)؛ ولتحقيق الأوّل كان لا بد من القضاء على الآلهة المدّعاة من دون الله بالسّيف، أمّا الثّاني فقد تطلّب ترسيخ العقيدة بالكلمة (بالحكمة والموعظة الحسنة)، هذا هو (محمد ﷺ).

«**مونتجومري وات**»، من كتاب «**محمد في مكة**»، يقول: «إنّ استعداد هذا الرّجل لتحمل الاضطهاد من أجل معتقداته، والطّبيعة الأخلاقية السّامية لمن آمنوا به واتّبعوه واعتبروه سيدًا وقائدًا لهم، إلى جانب عظمة إنجازاته المطلقة، كل ذلك يدلّ على العدالة والنّزاهة المتأصّلة في شخصه. فافتراض أنّ محمّدًا مدّع افتراضٌ يثير مشاكل أكثر ولا يحلها، بل إنّه لا توجد شخصيّة من عظماء التّاريخ الغربيين لم تنل التّقدير اللّائق بها مثل ما فعل بمحمّد».

المستشرق الفرنسي الكبير «**جوستاف لوبون**» في كتابه: «**حضارة العرب**»، يقول: «كان محمّد يقابل ضروب الأذى والتّعذيب بالصّبر وسعة الصّدر، عامل محمد قريشًا الذين ظلوا أعداءً له عشرين سنة بلطف وحلم، وأنقذهم من ثورة أصحابه بمشقّة، مكتفيًا بمسح صور الكعبة وتطهيرها من الأصنام الـ (٣٦٠) التي أمر بكبّها على وجوهها وظهورها، وبجعل الكعبة معبدًا إسلاميًا، وما انفك هذا المعبد يكون بيت الإسلام». ويقول أيضًا: «وإذا ما قيست قيمة الرّجال بجليل أعمالهم كان محمد من أعظم من عرفهم التّاريخ».

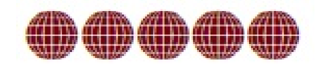
الفيلسوف «**إدوار مونته**» الفرنسي قال في آخر كتابه «**العرب**»:«عرف محمد بخلوص النّية والملاطفة وإنصافه في الحكم، ونزاهة التّعبير عن الفكر والتّحقق، وبالجملة كان محمد أزكى وأدين وأرحم عرب عصره، وأشدهم حفاظًا على الزّمام، فقد وجههم إلى حياة لم يحلموا بها من قبل، وأسّس لهم دولة زمنية ودينية لا تزال إلى اليوم».

الشاعر الشهير «**جوته**» الألماني يقول: «بحثت في التّاريخ عن مَثلٍ أعلى لهذا الإنسان، فوجدته في النّبي العربي محمد ﷺ».

الفيلسوف الإنكليزي «**هربرت سبنسر**» في كتابه «**أصول الاجتماع**»، يقول: «فدونكم محمدًا، إنّه رمز للسّياسة الدّينية الصّحيحة، وأصدق مَن نهج منهاجها المُقدّس في البشرية كافّة، ولم يكن محمد إلّا مثالًا للأمانة المجسّمة والصّدق البريء، وما زال يدأب لحياة أمّته ليله ونهاره».

الأديب العالمي «**ليو تولستوي**»، قال: «يكفي محمّدًا فخرًا أنّه خلّص أمّة ذليلة دمويّة مِن مخالب شياطين العادات الذّميمة، وفتح على وجوههم طريق الرّقي والتّقدم، وأنّ شريعة محمد، ستسود العالم لانسجامها مع العقل والحكمة».

ويكفيه عظمة ﷺ أن الله تعالى قد مدحه قبل أن يمدحه البشر، وأثنى عليه قبل أن يُثني عليه الناس، فهو ﷺ فوق مدح أهل الشرق والغرب، لأن الله سُبحانه قد رفع ذكره في العالمين، فصلى الله وسلم على من شهد بعظمته القريب والبعيد، والمؤمن والكافر، والعدو والصديق، والمُحب والمُبغض، وسُبحان من جعل اسمه يدوِّي في الأقطار، ويسير مسير الليل والنهار.



مُحَمَّدٌ ﷺ رَحِيْمًا

سمّاه ربّه (رحمة)، وقدّمه للعالمين (رحمة)، وجعل منهجه (رحمة)، وسيرته (رحمة)، وأخلاقه (رحمة)، وزكّاه من فوق سبع سماوات فقال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ} [الحجر: الآية 72]، فالرّحمة شعاره ودثاره ﷺ، والرّحمة سيرته وسريرته، والرّحمة أقواله وأفعاله، فهو الرّحمة المهداة، والنّعمة المسداة، كما قال عنه ربّه ومولاه: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ} [التوبة: الآية 128].

بعثه الله رحمة بالمؤمنين والكافرين، ورحمة بالحيوان والجماد، ورحمة بالصّغير والكبير، ورحمة بالرّجال والنّساء، ورحمة بالطّائعين والمذنبين، قال تعالى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ} [آل عمران: الآية 159].

وكان ﷺ يدعو إلى الرّحمة بحاله ومقاله وفعاله، تفيض رحمته على الجميع، فبسمته رحمة آسرة للقلوب، وكلمته رحمة نديَّة للأرواح، وأوامره ونواهيه رحمة ويُسر ولُطف تدعوك لاتّباعه وحُبّه، وامتثال أمره، والانتهاء عن نهيه ﷺ.

كان ﷺ رحيمًا بأُمّته، ودعا لَمِنْ يرفق بالنّاس أن يرفق الله به، فقال: «**اللهمَّ، مَن وَلِيَ مِن أَمْرِ أُمَّتي شيئًا فَشَقَّ عليهم، فَاشْقُقْ عليه، وَمَن وَلِيَ مِن أَمْرِ أُمَّتي شيئًا فَرَفَقَ بهِمْ، فَارْفُقْ بهِ**» [رواه مسلم].

ومن رحمته ﷺ بأمته أنّه كان يتوخّى بهم كلّ مسالك الرّحمة والرّفق، حتّى في الطّاعة، فكان يُقدّم صلاة العشاء مخافة المشقّة على أمّته، وصلّاها ذات ليلةٍ حينما ذهب عامّة اللّيل، ونام أهل

المسجد، وقال: «**إنَّه لَوَقْتُها لَوْلا أَنْ أَشُقَّ على أُمَّتِي**» [رواه مسلم].

ولمّا تطوع ﷺ في رمضان وقام ليلتين أو ثلاث ليال فقام معه بعض أصحابه فلم يخرج معهم في اللّيلة الثّالثة أو الرّابعة؛ خشية أن تُفرض عليهم صلاة القيام في رمضان. [متفق عليه]

فهو رحيم بأمّته في أمور دينهم ودنياهم، يسلك بهم ﷺ ألطف الطّرق، ويدلّهم على أيسر السُّبل.

ومن أجلّ صور رحمته ﷺ بنا أنّه تركنا على البيضاء، لا يزيغ عنها إلّا هالك، وما ترك خيرًا إلّا دلّنا عليه، وما ترك شرًّا إلّا حذّرنا منه، نصح أتمّ النّصح، وبلّغ الرّسالة، وأدّى الأمانة، وجاهد في الله حقّ جهاده حتّى أقامنا على الصّراط المستقيم، وهدانا إلى الدّين القويم، وحذّرنا مسالك أصحاب الجحيم.

أليس من رحمته ﷺ أن يُنقذنا الله به من النّار، ويخرجنا به من الظّلمات إلى النّور، ويهدينا به إلى سواء السّبيل؟!

أليس من رحمته ﷺ أن علّمنا من الجهالة، وهدانا من الضّلالة، وبصّرنا من العمى، وأسمعنا بعد الصّمم، وأنار قلوبنا بشمس رسالته، وأضاء دروبنا بقمر نبوته؟! بل إنّ رحمته ﷺ بأُمّته تظلّ معه إلى يوم الدّين وموقف الحشر، فهو الشّافع المُشفّع في المقام المحمود ﷺ يوم الفصل بين النّاس، حيث يناشد ربّه في كلّ موقف ويقول: «**أُمَّتي .. أُمَّتِي**»، كما جاء عن عبدالله بن عمرو (رضي الله عنهما) أنّ النّبيّ ﷺ رَفَعَ يَدَيْهِ وقالَ: «**اللهمَّ أُمَّتي أُمَّتِي، وبَكَى، فقالَ الله عزَّ وجلَّ: يا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ إلى مُحَمَّدٍ، فَقُلْ: إنَّا سَنُرْضِيكَ في أُمَّتِكَ ولا نَسوؤُكَ**». [رواه مسلم].

حتى أعداؤه ﷺ فاض عليهم برحمته، وهل سمعتم عبر التّاريخ أنّ هناك إنسانًا آذاه قومه، وشتموه، وسبّوه، وحاصروه، ثم طردوه، وردّوا دعوته، وشجّوا وجهه، وكسروا ثنيّته، وأدموا قدميه بالحجارة، وحاولوا اغتياله، وجرّبوا كل أساليب الإيذاء والتّضييق ضدّه، ثم يدعو لهم ويقول: «**اللهم اغْفِرْ لِقَوْمِي فإنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ**». [رواه ابن حبان]؟!

هل مرّ بكم في أخبار السّابقين أو اللّاحقين أنّ هناك قائدًا حرص قومه على الوقيعة به، وجنّدوا الأجناد، وحزّبوا الأحزاب، وتفنّنوا في إنزال أنواع الأذيّة به، وأصناف الانتقام، وأشكال

المكر، ثم ينتصر عليهم فيدخل فاتحًا ويقول لهم: «**اذهبوا فأنتم الطُّلقاء**»؟! لم يحصل هذا ولن يحصل؛ لأنّه ﷺ باختصار: «**النّبيّ المعصوم**»، و«**الرّسول الرّحيم**»، فوجوده رحمة حتى لأعدائه، وحياته رحمة حتى لمن أنكر نبوّته، وقد أمهل الله أعداءه ﷺ ولم يعذبهم في حياته، قال تعالى: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ} [الأنفال: الآية 33]، وهذا من رحمته ﷺ حتّى بمن آذاه، وأخرجه من أرضه، وكفر بدعوته، يأبى أن يُعذّب في حياته ﷺ، ولمّا كُسرت رباعيته ﷺ يوم أُحد، وشُجّ وجهه الشّريف، شَقَّ ذلك على أصحابه، وقالوا: يا رسول الله ادعُ على المُشركين، فأجاب أصحابه ﷺ قائلًا لهم: « **إنّي لم أُبعَثْ لعَّانًا، وإنما بُعِثْتُ رَحمةً**» [رواه مسلم].

ومن قصص رحمته ﷺ بأعدائه: قصة إسلام الصّحابي الجليل ثمامة بن أثال (رضي الله عنه)، عندما أسره المسلمون وأتوا به إلى النّبيّ ﷺ فربطوه بسارية من سواري المسجد، ومكث على تلك الحال ثلاثة أيام وهو يرى المجتمع المسلم عن قرب، حتى دخل الإيمان قلبه، ثم أمر النّبيّ ﷺ بإطلاقه، فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل، ثم دخل المسجد فقال: « **أشْهَدُ أنْ لا إلَهَ إلَّا الله، وأَشْهَدُ أنَّ مُحَمَّدًا رَسولُ الله، يا مُحَمَّدُ، والله ما كانَ علَى الأرْضِ وجْهٌ أبْغَضَ إلَيَّ مِن وجْهِكَ، فقَدْ أصْبَحَ وجْهُكَ أحَبَّ الوُجُوهِ إلَيَّ، والله ما كانَ مِن دِينٍ أبْغَضَ إلَيَّ مِن دِينِكَ، فأصْبَحَ دِينُكَ أحَبَّ الدِّينِ إلَيَّ، والله ما كانَ مِن بَلَدٍ أبْغَضُ إلَيَّ مِن بَلَدِكَ، فأصْبَحَ بَلَدُكَ أحَبَّ البِلَادِ إلَيَّ**» [متفق عليه].وسرعان ما تغيّر حال ثمامة فصار درعًا يُدافع عن الإسلام والمسلمين.

وعن عائشة (رضي الله عنها) قالت: استأذن رهطٌ من اليهود على النّبي ﷺ فقالوا: السّام عليك. فقلت: **بل عليكم السّام واللّعنة**. فقال ﷺ: «**يا عائشة إنّ الله رفيقٌ يحبّ الرّفق في الأمر كلّه**». قلت: أولم تسمع ما قالوا؟ قال ﷺ: «**قلت: وعليكم**» [مُتفق عليه]، فانظر كيف أعاد ﷺ كلمة: «**عليكم**» دون زيادة سبٍّ أو تعليق، وإنّما برفق ورحمة، ولم يبحث ﷺ وراء الكلمة، ولم يسألهم لماذا؟ ولم يُؤنّبهم، ولم يُعاقبهم، وإنّما تغاضى عليه الصّلاة والسّلام ورفق بهم، وكان يقول لعائشة (رضي الله عنها): «**يا عائِشَةُ إنَّ الله رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ، ويُعْطِي على الرِّفْقِ ما لا يُعْطِي على العُنْفِ، وما لا يُعْطِي على ما سِواهُ**» [رواه مسلم].

كان ﷺ رفيقًا في دعوته، رفيقًا في أمره، رفيقًا في نهيه، رفيقًا في كل شأن من شؤونه، يقول ﷺ: «**مَن حُرِمَ الرِّفْقَ، حُرِمَ الخَيرَ**» [رواه مسلم]، وقال ﷺ: «**إنَّ الرِّفْقَ لا يَكونُ في شيءٍ إلّا زانَهُ،**

ولا يُنْزَعُ مِن شيءٍ إلّا شانَهُ» [رواه مسلم].

وجعل ﷺ الرّفق قيمةً غاليةً من قيم الإسلام، ومعنىً جميلًا من معاني الرّحمة في البيت والمُجتمع والأُمّة، فكانت سُنّته كلُّها رفقًا بالنّاس ورحمة بهم، وقد علّم ﷺ أمّته الرّفق والرّحمة ودعا إلى ذلك، وبشّر ﷺ أنّ كلّ قريب من النّاس، رفيق بهم، فإنّه قريب من رحمة الله، بعيد عن عذاب الله.

أمّا رحمته ﷺ بالنّساء فإنّها درس يُتعلّم ويُدرّس أبد الدّهر في مدارس وجامعات العالم، فكان ﷺ ألطف الناس وأكرمهم وأبرهم وأرفقهم وأرحمهم بالمرأة، وقد دعا ﷺ إلى حُسن رعاية البنات، والحفاظ على حقوقهنّ، فقال ﷺ: «**مَنِ ابْتُلِيَ مِن هذِه البَناتِ بشيءٍ كُنَّ له سِتْرًا مِنَ النّارِ**» [متفق عليه]، وأوصى ﷺ النّاس برحمة المرأة، كما صح عنه ﷺ عند الترمذي وابن ماجه أنّه قال: «**استَوصوا بالنِّساءِ خيرًا، فإنَّهنَّ عندَكُم عَوانٍ**»، أي: ضعيفات أسيرات، وحقّ الأسير أن يُرحم وأن يُرفق به.

ودعا ﷺ إلى رحمة الرّجل بأهل بيته، ولطفه بهم، والتّراحم بين الأسرة، فقال ﷺ: «**إذا أراد اللهُ عزّ وجلّ بأهلِ بيتٍ خيرًا أَدْخَلَ عليهم الرِّفْقَ**» [رواه أحمد].

وكان ﷺ رحيمًا بنسائه غاية الرّحمة، فعن أنس (رضي الله عنه) قال: كانَ رَسولُ الله ﷺ في سَفَرٍ، وكانَ معهُ غُلامٌ له أسْوَدُ يُقالُ له: أنْجَشَةُ، يَحْدُو، فَقالَ له رَسولُ الله ﷺ: «**وَيْحَكَ يَا أَنْجَشَةُ! رُوَيْدَكَ بِالْقَوَارِيرِ**» [متفق عليه]، وقد راعى ﷺ ظرف المرأة ورفق بحالها ورحمها حتّى في الصّلاة، فعن أبي قتادة (رضي الله عنه)، عن النّبي ﷺ قال: «**إنِّي لَأَقُومُ إلى الصَّلاةِ وأَنا أُرِيدُ أنْ أُطَوِّلَ فِيها، فأسْمَعُ بُكاءَ الصَّبِيِّ، فأتَجَوَّزُ في صَلاتي كَراهيةَ أنْ أشُقَّ على أُمِّهِ**» [رواه البخاري]، فهل في العالم أحدٌ عاش للمرأة أبًا حنونًا، وزوجًا كريمًا، وأخًا وفيًّا، وابنًا بارًا، ومُربيًا راعيًا، وإمامًا هاديًا إلّا رسول العناية الإلهيّة، ومبعوثُ الرّحمة الربّانية، صلوات الله وسلامه عليه؟!

وفاضت رحمته ﷺ على الأطفال فكان يغمر قلوبهم حنانًا وبرًّا ولُطفًا، ويملأ أرواحهم هدىً ونورًا وبصيرةً، ومِنْ مشاهد رحمته ﷺ بهم ما ثبت في الحديث الصّحيح أنّه حمل حفيدته أُمامة بنت زينب وهي طفلة، وصلّى بالنّاس صلاة الفريضة، وكان إذا سجد وضعها، وإذا قام رفعها، حنانًا بها وشفقة عليها ورحمة بأمها؛ لأنّها شُغلت وقد حانت الصّلاة، ولو تركها ﷺ لأمّها لشقَّ عليها ذلك،

فأخذها معه إلى المسجد وهو قائد الأمة، وإمام النّاس في صلاتهم، فيا لهذا الخُلُق النّبيل! ويا لهذا المشهد الحيّ الذي لا ينْمحِي من الذّاكرة! المشهد الذي يُوصل من خلاله ﷺ درسًا عمليًّا لأمّته عن رحمته ورفقه ورأفته ﷺ، ويقطع ﷺ خطبته في النّاس، وتُنزلُه رحمته من المنبر ويأتي إلى سبطيه الحسن والحسين فيحملهما، ويضعهما بجانبه، يقول بريدة (رضي الله عنه):«**كان رسولُ الله ﷺ يخطُبُنا إذ جاء الحسَنُ والحُسينُ عليهما قميصانِ أحمرانِ يمشيانِ ويعثُرانِ، فنزَلَ رسولُ الله ﷺ مِن المِنبرِ فحمَلهما فوضَعهما بيْنَ يدَيْهِ**» [رواه أبو داود].

وكان يُقبّل ﷺ الأطفال، كما صح عنه أنه قَبَّلَ الحَسَنَ بنَ عَلِيٍّ وعِنْدَهُ الأقْرَعُ بنُ حابِسٍ التَّمِيمِيُّ جالِسًا، فَقالَ الأقْرَعُ: إنَّ لي عَشَرَةً مِنَ الوَلَدِ ما قَبَّلْتُ منهمْ أحَدًا، فَنَظَرَ إلَيْهِ رَسولُ الله ﷺ ثُمَّ قالَ: «**مَن لا يَرْحَمُ لا يُرْحَم**» [متفق عليه].

وانظر لمشهد رحمته ومشهد عدله ﷺ في آن واحد، حيث جمع بين فلذة كبده الحسن بن علي وفاطمة، وبين المولى ابن المولى والحِبّ ابن الحِبّ أسامة بن زيد رضوان الله عليهم، وأجلسهما على فخذيه، فعن أسامة بن زيدٍ (رضي الله عنهما)قال: «**كانَ رَسولُ الله ﷺ يَأْخُذُنِي فيُقْعِدُنِي علَى فَخِذِهِ، ويُقْعِدُ الحَسَنَ علَى فَخِذِهِ الأُخْرى ثُمَّ يَضُمُّهُما**، ثُمَّ يقولُ: «**اللهمَّ ارْحَمْهُما فإنِّي أرْحَمُهُما**» [رواه البخاري].

إنّ كل قصة من قصصه ﷺ مع الأطفال، وكل صورة من صور حياته وهو يرعاهم، ويُمازحهم، ويداعبهم كفيلة بأن تُقِيم منهجًا كاملًا لرعاية الطّفولة في العالم، ومهما تأمّلت أو درست شخصيته ﷺ من أيّ جانب، ومن أيّ باب مَلأتك حُبًّا وتعلقًا واتّباعًا لهذا النّبي الرّحيم ﷺ.

ومن رحمته ﷺ اهتمامه بالأيتام والأرامل اهتمامًا خاصًا، حيث أشرف بنفسه على كفالتهم ورعايتهم، وحثّ العالم على ذلك إلى يوم الدّين بقوله: «**أنَا وكافِلُ اليَتِيمِ في الجَنَّةِ هَكَذا**»، **وأشار بالسَّبّابَةِ والوُسْطى**. [رواه البخاري].

بل بشّر ﷺ من يكدح على الأرملة والمسكين أنّه كالمُجاهد في سبيل الله، وكمن يصوم النّهار ويقوم اللّيل، فقال ﷺ: «**السّاعِي على الأرْمَلَةِ والمِسْكِينِ، كالمُجاهِدِ في سَبيلِ الله، أوِ القائِمِ اللَّيْلَ الصّائِمِ النَّهارَ**» [مُتفق عليه].

وكان ﷺ يُقرّب الضّعفاء، ويشفق عليهم، ويقدّمهم، ويقول ﷺ: «**ابغوني الضُّعفاءَ، فإنَّما تُرزَقونَ وتُنصَرونَ بضُعفائِكُم**» [رواه أبو داود].

وحذّر ﷺ من اضطهاد الأيتام والنّساء، فقال في حديث صحيح [رواه أحمد وابن ماجه]: «**اللَّهمَّ إنِّي أحرِّجُ حقَّ الضَّعيفين: اليتيمِ، والمرأَةِ**».

وكم أمٍّ تظنّك من حشَاهَا	وُلدت وفي معاطفها ربيتَا
حللتَ محلّ نون العين منهَا	هُتاف فؤادها دومًا: فُديتَا

وفي وصف رحمته ﷺ بالمساكين والفقراء يقول عبدالله بن أبي أوفى (رضي الله عنهما): «**كانَ رسولُ الله ﷺ يُكْثرُ الذِّكرَ، ويُقلُّ اللَّغوَ، ويطيلُ الصَّلاةَ، ويقصِّـرُ الخطبةَ، ولا يأنَفُ أن يمشيَ معَ الأرمَلَةِ والمسكينِ، فيَقضيَ لَهُ الحاجةَ**» [رواه النسائي]. ومن يطالع رحمته ﷺ باليتيم والمسكين والضّعيف والفقير يشهد أنّه نبيّ المساكين، ورسول الرّحمة بالمستضعفين، ودعوته رسالة إنقاذ للمُعذّبين.

أشهد أنّ هذا اليتيم ﷺ هو سيد أيتام العالم؛ لأنّه ذاق اليُتم فرحم الأيتام، وتجرّع الفقر فلطف بالفقراء، وعاش المصاعب والأزمات فحَنَا وأشفق على المُستضعفين، وكان يقول ﷺ مُوصيًا بالخدم والعمّال البسطاء: «**هُمْ إخْوَانُكُمْ، جَعَلَهُمُ الله تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَأَطْعِمُوهُمْ مِمَّا تَأْكُلُونَ، وَأَلْبِسُوهُمْ مِمَّا تَلْبَسُونَ، وَلا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ**» [متفق عليه].

ومن لطيف تعامله ﷺ ورحمته وحُسن عشـرته ما رواه أنس بن مالك (رضي الله عنه) فقال: **كانَ رَسولُ الله ﷺ مِن أَحْسَنِ النّاسِ خُلُقًا، فأرْسَلَنِي يَوْمًا لِحاجَةٍ، فَقُلْتُ: واللهِ لا أَذْهَبُ، وفي نَفْسِي أَنْ أَذْهَبَ لِما أَمَرَنِي به نَبِيُّ الله ﷺ، فَخَرَجْتُ حتّى أَمُرَّ على صِبْيانٍ وَهُمْ يَلْعَبُونَ في السُّوقِ، فَإِذا رَسولُ الله ﷺ قدْ قَبَضَ بقَفايَ مِن وَرائِي**، قالَ: **فَنَظَرْتُ إلَيْهِ وَهو يَضْحَكُ**، فَقالَ: «**يا أُنَيْسُ أَذَهَبْتَ حَيْثُ أَمَرْتُكَ؟**»، قالَ: قُلتُ: **نَعَمْ، أَنا أَذْهَبُ، يا رَسولَ الله**» [رواه مسلم].

فانظر كيف صغّر ﷺ اسمه تحبيبًا ولطفًا، وضحك في وجهه حلمًا ورحمة، ولم يعاقبه ﷺ على تأخّره، فأيّ خلق أجلّ من هذا الخُلق، وأي رحمة فوق هذه الرّحمة!؟. وقِفْ عند قوله (رضي

الله عنه): **خَدَمْتُ النَّبيَّ ﷺ عَشْرَ سِنِينَ**، فَما قالَ لي: **أُفٍّ**، ولا: «**لَمِ صَنَعْتَ؟ ولا: ألا صَنَعْتَ**» [متفق عليه].

فتأمل كيف لم ينكر عليه ﷺ أيّ أمْرٍ!؟ مع أنّ حالات الإنسان في مثل هذه المدّة تتغير من غضبٍ ورضا، وسرور وحزن، إلى غير ذلك، ومع هذا كان خلقه ﷺ الرّحمة في كل زمان ومكان.

وأمّا عن رحمته بالمسنّين فكان له ﷺ رحمة خاصة بمن طال عمره ووخَطَه الشّيب؛ فكان يوقرهم، ويتلطّف بهم، ويراعي أوضاعهم، يقول أنس بن مالك (رضي الله عنه): جاءَ شيخٌ يريدُ النَّبيَّ ﷺ فأبطأَ القومُ عنه أن يوسِّعوا لَه، فقالَ ﷺ: «**ليسَ منّا من لم يرحَمْ صغيرَنا، ويوقِّرْ كبيرَنا**» [رواه الترمذي].

ومن لطفه ورحمته ﷺ بكبار السّن أنّه بعد فتح مكة أتاه أبو بكر الصّديق ووالده أبو قحافة ليبايعه ﷺ، فلمّا رآه رسولُ الله ﷺ قال: «**هلّا تركتَ الشّيخَ في بيتِه حتى أكونَ أنا آتيه فيه!؟**»، فقال أبو بكرٍ: يا رسولَ الله، هو أحقُّ أن يمشــي إليك من أن تمشِيَ أنت إليه، قال: «**فأجلسَه بينَ يدَيه، ثم مسح صدرَه**» [رواه أحمد].

فيا لنُبل هذه النّفس العظيمة الرّحيمة!، ويا لجلال خُلقه ﷺ وإنزاله للنّاس منازلهم، ومراعاة ظروفهم!، أشهدُ أنّ هذه السّجايا لا تجتمع إلّا فيمن عصمه الله بالوحي، وأيّده بالرّسالة، وحفظه بالنّبوّة.

وفي عتابه ﷺ للصّحابي الجليل معاذ بن جبل (رضي الله عنه) عندما وقف إمامًا لجمعٍ من المصلين وأطال بهم الصّلاة، دلالة على عظم رحمته، وجميل رأفته ﷺ؛ فنجده يقول: «**يا مُعاذُ، أَفَتّانٌ أَنْتَ!؟** -**ثَلاثَ مِرارٍ**- **فَلَوْلا صَلَّيْتَ بِـ(سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ)، و(الشَّمْسِ وضُحاها)، و(اللَّيْلِ إذا يَغْشى)، فإنَّه يُصَلِّي وراءَكَ الكَبِيرُ والضَّعِيفُ وذُو الحاجَةِ**» [متفق عليه].

فرحمته ﷺ يجدها المُتتبّع لسيرته، المُستضيء بتعاليمه، يقول الشاعر:

وَإِذا رَحِمت فَأَنتَ أُمٌّ أَو أَبٌ ... هَذانِ في الدّنيا هُما الرُّحَماءُ

قُلت: بل رحمته أعظم من رحمة الأب والأم، فإنّه ﷺ الأب الرّوحاني، أمّا والدك الذي أنجبك فهو أبوك الجسماني.

فإن كان أبوك سببًا لإخراجك إلى الوجود فرسول الهُدى ﷺ سبب إلى سُكناك جنات الخلود، وجوارك للملك المعبود، وإن كان والدك سببًا لتوفير الطّعام والشّراب فإنّه ﷺ أحياك بالسّنّة والكتاب، ووقاك برحمة الله من العذاب، ودلّك بنور الله على الهُدى والصّواب.

ولقد ضرب رسولنا ﷺ أروع الأمثلة فِي الرّحمة بالمذنبين، والرّفق بالمُخطئين، فرحم من شرب الخمر عندما سبّه أحد الصّحابة فقال ﷺ: «**لا تَلْعَنُوهُ، فَوَالله مَا عَلِمْتُ أَنَّهُ يُحِبُّ الله وَرَسُولَهُ**» [رواه البخاري].

وسبّ أحدهم المرأة التي زنت وأقيم عليها حدّ الرّجم فقال ﷺ: «**لقَدْ تابَتْ تَوْبَةً لو قُسِمَتْ بيْنَ سبْعِينَ مِن أَهْلِ المَدِينَةِ لَوَسِعَتْهُم**» [رواه مسلم].

بل تشمل رحمته ﷺ العُصاة في موقف الحشر، كما صحّ عنه ﷺ أنّه قال: «**أسْعَدُ النّاسِ بشَفاعَتي يَومَ القِيامَةِ مَن قالَ: لا إلَهَ إلّا الله، خالِصًا مِن قِبَلِ نَفْسِهِ**» [رواه البخاري].

ولا بد لكثير ممّن قالها من ذنوب يأتون بها فليسوا معصومين، فصلّى الله وسلّم على من رحمته شاملة للمُذنبين في الدّنيا والآخرة.

وتعدّت رحمته ﷺ إلى الحيوانات والطّيور فنهى عن وسم الدّابة في وجهها، كما جاء عن جابر (رضي الله عنه) قال: «**نَهَى رَسُولُ الله ﷺ عَنِ الضَّرْبِ فِي الْوَجْهِ، وَعَنِ الْوَسْمِ في الْوَجْهِ**» [رواه مسلم]. والوسم في الوجه هو (تمييز الحيوان في وجهه بعلامة عن طريق الكي بالنار)، ومرّ ﷺ على حمار وُسم في وجهه فقال: «**لَعَنَ الله الَّذِي وَسَمَهُ**» [رواه مسلم].

وحرّم ﷺ الإساءة للحيوان، وإهماله وعدم العناية به، فعن سهل بن الحنظلية (رضي الله عنه) قال: مرَّ رسول الله ببعير قد لَحِقَ ظَهْرُهُ بِبَطْنِهِ (أي ظهر عليه الهزال من الجوع)، فقال: «**اتَّقُوا اللهَ فِي هَذِهِ الْبَهَائِمِ المُعْجَمة، فَارْكَبُوهَا صَالَحِةً وَكُلُوهَا صَالَحِةً**» [رواه أحمد].

وعن قرة بن إياس المزني (رضي الله عنه) أنَّ رجُلًا قال: «**يا رسولَ الله، لأذبحُ الشاةَ وأنا أَرحَمُها**، أو قال: **لأرحَمُ الشاةَ أنْ أَذبَحَها**، فقال: **والشّاةُ إن رحِمتَها رحِمَكَ الله**» [رواه أحمد].

ودعا ﷺ إلى استعمال الحيوان فيما خلقه الله له، فقال: «**إيَّاكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا ظُهُورَ دَوَابِّكُمْ مَنَابِرَ، فَإِنَّ الله إنَّ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُبَلِّغَكُمْ إلى بَلَدٍ لَم تَكُونُوا بَالِغِيهِ إلّا بِشِقِّ الأَنْفُسِ**» [رواه أبو داود].

وحرّم ﷺ اتّخاذ الحيوان غرضًا وهدفًا للرّماة، فقد مرّ ابن عمر (رضي الله عنهما) بفتيانٍ قد نصبوا طيرًا وهم يرمونه، فقال لهم: «**لعنَ اللهُ مَنْ فَعَلَ هَذَا؛ إِنَّ رَسُولَ الله لَعَنَ مَنِ اتَّخَذَ شَيْئًا فِيهِ الرُّوحُ غَرَضًا**» [متفق عليه].

وسنّ ﷺ الإحسان بالحيوان عند ذبحه وقال: «**إذا ذَبَحْتُمْ فأحْسِنُوا الذَّبْحَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، ولْيُرِحْ ذَبيحَتَهُ**» [رواه مسلم]، وهذا من رحمته ﷺ.

وحذر من تعذيب الحيوان، فقال ﷺ: «**عُذِّبَتِ امْرَأَةٌ في هِرَّةٍ سَجَنَتْها حتّى ماتَتْ، فَدَخَلَتْ فيها النّارَ، لا هي أطْعَمَتْها ولا سَقَتْها، إذْ حَبَسَتْها، ولا هي تَرَكَتْها تَأْكُلُ مِن خَشاشِ الأرْضِ**» [متفق عليه].

وفي المقابل أيضًا ذكر لنا ﷺ ثواب من رحم الحيوان وأطعمه وسقاه فقال: «**بيْنَما رَجُلٌ يَمْشِي بطَرِيقٍ، اشْتَدَّ عليه العَطَشُ، فَوَجَدَ بئْرًا فَنَزَلَ فيها، فَشَرِبَ ثُمَّ خَرَجَ، فإذا كَلْبٌ يَلْهَثُ، يَأْكُلُ الثَّرى مِنَ العَطَشِ، فقالَ الرَّجُلُ: لقَدْ بَلَغَ هذا الكَلْبَ مِنَ العَطَشِ مِثْلُ الذي كانَ بَلَغَ بي، فَنَزَلَ البِئْرَ فَمَلَأَ خُفَّهُ ثُمَّ أمْسَكَهُ بفِيهِ، فَسَقى الكَلْبَ، فَشَكَرَ الله له فَغَفَرَ له**». قالوا: يا رَسولَ الله، وإنَّ لنا في البَهائِمِ أجْرًا؟، فقالَ: «**نَعَمْ، في كُلِّ ذاتِ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أجْرٌ**» [متفق عليه].

فانظر ما أوجز هذه العبارة! وما أوسع معناها!: «**في كُلِّ ذاتِ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أجْرٌ**» من الإنسان والحيوان والطيور، وهذه نهاية الرّحمة، وغاية البرّ، ومنتهى الرّفق.

وهذا مشهد آخر من مشاهد رحمته ﷺ التي جعلها الله في قلبه، ففاضت من هذا القلب الطّاهر الزكي الطيب على كل شيء حوله حتى وصلت إلى البهائم والطّيور، فعن عبدالله بن جعفر (رضي الله عنهما) قال: دخلَ النّبي ﷺ حائطًا لرَجُلٍ مِن الأنصارِ فإذا جَملٌ، فلَمَّا رأى النَّبيَّ ﷺ حنَّ وذرِفَتْ عيناهُ، فأتاهُ النَّبيُّ ﷺ فمَسحَ ذِفراهُ فسَكَتَ، فقالَ: «**مَن ربُّ هذا الجَمَلِ؟ لمن هذا الجمَلُ؟** فَجاءَ فتى منَ الأنصارِ فَقالَ: **لي يا رسولَ الله.** فَقالَ: **أفلا تتَّقي الله في هذِهِ البَهيمةِ الَّتي ملَّكَكَ الله إيَّاها؟ فإنَّهُ شَكا إليَّ أنَّكَ تُجيعُهُ وتُدئبُهُ**» [رواه أبو داود].

فانظر كيف أعتق ﷺ هذا الجمل من التّعب رحمة به.

وقال ﷺ: «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا، أَوْ يَزْرَعُ زَرْعًا، فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ أَوْ إِنْسَانٌ أَوْ بَهِيمَةٌ، إِلَّا كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ**» [متفق عليه].

فالحمد لله الذي منّ علينا بمبعث هذا النّبي الرّحيم، وهدانا لسنّته، المليئة بالرّحمة واللّطف والرّفق.

وأمّا رحمته ﷺ بالطّيور فمن أجمل ما ورد في ذلك ما رواه عبدالله بن مسعود (رضي الله عنه) عنه فقال: «**كنّا مع رسولِ الله ﷺ في سفرٍ فانطلق لحاجته فرأينا حُمَّرةً معها فرخان فأخذْنا فرخَيها، فجاءت الحُمَّرةُ فجعلت تفرشُ**، فجاء النّبيُّ ﷺ فقال: «**من فجّع هذه بولدِها؟ رُدُّوا ولدَها إليها**». ورأى قريةَ نملٍ قد حرقناها، فقال: «**من حرقَ هذه؟**» قلنا: نحن، قال: «**إنّه لا ينبغي أن يعذِّبَ بالنّارِ إلّا ربُّ النّارِ**» [رواه أبو داود].

جاءتْ إليكَ حمامةٌ مشتاقةٌ	تشكو إليكَ بقلب صبٍّ واجفِ
منْ أخبرَ الورقاءَ أنّ مكانكم	حَرمٌ وأنّك ملجأ للخائفِ

حتى الجماد حنّ له من عظيم رحمته ﷺ، فحينما استعمل ﷺ منبرًا جديدًا صُنع له، وترك الجذع الذي كان يتّكئ ويستند إليه عندما يخطب في النّاس حنّ إليه ذلك الجذع كما جاء في الحديث الصحيح عن جابر بن عبدالله (رضي الله عنهما): «أنَّ امْرَأَةً مِنَ الأنْصارِ قالَتْ لِرَسولِ الله ﷺ: **يا رَسولَ الله ألا أجْعَلُ لكَ شيئًا تَقْعُدُ عليه، فإنَّ لي غُلامًا نَجّارًا**، قالَ: «**إنْ شِئْتِ**»، قالَ: فَعَمِلَتْ له المِنْبَرَ فَلَمّا كانَ يَوْمُ الجُمُعَةِ قَعَدَ النبيُّ ﷺ على المِنْبَرَ الذي صُنِعَ، فَصاحَتِ النَّخْلَةُ الَّتي كانَ يَخْطُبُ عِنْدَها، حتّى كادَتْ تَنْشَقُّ، فَنَزَلَ النبيُّ ﷺ حتّى أخَذَها، فَضَمَّها إلَيْهِ، فَجَعَلَتْ تَئِنُّ أنِينَ الصَّبِيِّ الذي يُسَكَّتُ، حتّى اسْتَقَرَّتْ، قالَ: «**بَكَتْ على ما كانَتْ تَسْمَعُ مِنَ الذِّكْرِ**» [رواه البخاري].

لقد جاء نبيّ الرّحمة ﷺ بكتاب الرّحمة، ليُبشّرنا برحمة أرحم الرّاحمين، وأخبرنا بقول الرّحمن سبحانه: {وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ} [الأعراف: 156]، وقوله تعالى: {سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [الأنعام: 54].

وبشّر ﷺ الأُمّة كما في الصّحيحين برحمة أرحم الرّاحمين فقال: «**لَمَّا قَضَى اللهُ الخَلْقَ، كَتَبَ عِنْدَهُ فَوْقَ عَرْشِهِ: إنَّ رَحْمَتي سَبَقَتْ غَضَبِي**» [متفق عليه]. وكان ﷺ يقول: «**الرَّاحمونَ يرحمُهم الرّحمنُ، ارحموا من في الأرضِ يرحمْكُم من في السّماءِ**» [رواه الترمذي].

فالرّحمة أعظم هبة ربّانية بشّر بها رسولنا ﷺ أمّته، وكتابه المُنزّل الخالد المُعجز يبدأ بـ (**بسم الله الرّحمن الرّحيم**)، ودائمًا تجد اسم الرّحمن يتكرر كثيرًا في كتاب الله، بل إنّ هناك سورةً كاملة باسم: (**الرّحمن**)، وتأتي الرّحمة في هذا الكتاب العظيم، مرة بالصّفة، ومرة بالفعل، وتأتيك في ثنايا الآيات، وتُشرف عليك من بدايات هذه البيّنات، فتعمر قلبك يقينًا، ورضًا، وبشرى، وسعادة، واطمئنانًا.

لقد كانت صفة الرّحمة الصّفة البارزة الماثلة الشّهيرة في حياته ﷺ حتى صارت الرّسالة ومُرسلها، والنّبوّة وصاحبها، رحمة للعالمين، فما أجمل فيض الرّحمة ونهر الحُبّ والشّفقة في دنياه ﷺ!

فإن ذهبت إلى عالم الطّفولة وجدته الأب الحنون الرّحيم، وإن ذهبت إلى عالم المرأة وجدته الزّوج القريب اللّطيف، وإن ذهبت إلى عالم البشريّة وجدته الإمام الحريص على إسعادهم، السّاعي في إنقاذهم، الرّاعي لمصالحهم؛ لأنّ دينه ﷺ هو قول الصّدق، والدّعوة إلى الحقّ، والرّحمة بالخَلق.

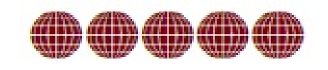
لقد كانت رسالته ﷺ رسالة رحمة للعالم، إذا عُرضت على العقول تلقّتها بالقبول، ولذلك دخل الناس في دينه ﷺ أفواجًا، وأتته القبائل أمواجًا، وفتح الله ببركة رسالته في العالم فجاجًا؛ لأنّ رحمته ﷺ تختلف عن رحمة سائر الناس، فهي رحمة معصومة، ليس فيها خورٌ ولا مهانةٌ أمام صولة الباطل أو في إعمال الحقّ؛ ولذلك كان ﷺ مع رحمته ورأفته يقوم بتنفيذ الحدود على من وجبت عليه، عملًا بقوله تعالى: {وَلاَ تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأَفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآَخِرِ} [النور: 2].

فصلّى الله وسلّم على من جمع بين القوّة والرّحمة، واللّين والحزم، والبأس والجود، والهيبة والتّواضع؛ لأنّ الله كمّل أوصافه، وتمّم خُلقه، وزكّى نفسه، وطهّر روحه:

سمّاك ربّك رحمةً فنشرتَها	في العالمين محبةً وسلامًا
ورحمت حتّى الطّير في وكناتهِ	وبقيت تغرسُ في القلوب وئامًا

سالتْ دموعُهم لفقدكَ كلّهم فكأنّهم لمّا رحلتَ يتامَى

ذكراكَ تَبقى في الحياة رسالةً وتظلّ في دنيا الخلود إمامًا



مُحَمَّدٌ ﷺ حَلِيْمًا

الحِلْم هو أن تعفو عمّن أساء إليك، وتصفح عمّن ظلمك مع قدرتك عليه، وهو من أفضل خصال الإنسان وأنبلها على الإطلاق؛ لاشتماله على كثير من الفضائل منها الأناة، وسعة الصدر، وقوة التحمّل، وكظم الغيظ، وكرم النفس، ولا يتصف بذلك إلّا الشرفاء الأوفياء، وإمامهم هو رسول الهُدى محمد بن عبدالله ﷺ الذي اتّصف بأجمل صور الحلم، وأبهى مشاهد العفو، فكان أحلم النّاس، وأوسعهم صدرًا، وألينهم عريكة، وأحسنهم خُلُقًا، وألطفهم عشرة، يعفو عمّن ظلمه، ويُعطي من حرمه، ويصل من قطعه، ويغفر لمن أساء إليه، ويتنازل عن حقوقه الخاصة ما لم تكن حقوقًا لله.

وقد واجهه الأعراب بالجفاء وسوء الأدب، فحلم وصفح، وامتثل أمر ربّه: {فَاصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ} [الحجر: الآية 85]، ولم يكن يُكافئ على السّيئة بالسّيئة، بل يقابلها بالعفو والصّفح، وكان لا يغضب لنفسه ﷺ، ولا ينتقم لشخصه، بل إذا أُغضب ازداد حلمًا، وربما تبسّم في وجه من أغضبه، وينوّه بخُلُق الحلم، ويُذكّر أصحابه بفضائله، ويحثّهم على التخلّق به، فقال ﷺ للأشجّ عبدالقيس(رضي الله عنه): «**إنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُما الله: الحِلْمُ والأناةُ**» [رواه مسلم]. وقال له رجل: **أوْصِنِي**، فقالَ ﷺ: «**لا تَغْضَبْ، فَرَدَّدَ مِرارًا**، قالَ: **لا تَغْضَبْ**» [رواه البخاري].

وكان ﷺ إذا بلغه كلام سيئ قيل فيه، لا يبحث عمّن قاله، ولا يُعاتبه، ولا يُعاقبه، ويقول ﷺ: «**لا يُبلِّغُني أحَدٌ مِن أصحابي عن أحَدٍ شيئًا؛ فإنّي أُحِبُّ أن أخرُجَ إليكم وأنا سليمُ الصَّدْرِ**» [رواه أحمد]. وبلّغه ابن مسعود (رضي الله عنه) كلامًا قيل فيه، فتغ وجهه ﷺ وقال: «**رَحِمَ الله مُوسى قَدْ أُوذِيَ بأَكْثَرَ مِن هذا فَصَبرَ**» [متفق عليه].

وقد واجهه بعض اليهود بما يكره، وآذاه المشركون في رسالته، وفي عِرضه، وسُمعته، وأهله، فلما قدر عليهم ﷺ عفا عنهم، وأطفأ بحلمه نار العداوات مُمتثلًا أمر ربه: {ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ} [المؤمنون: الآية 96].

إنّ مشاهد حِلمه ﷺ آية للسائلين، تدور في مجالس العلم وجامعات الدّنيا، وتُسَطّر في المُصنّفات، وتُحفَظ في المؤلّفات:

منها مشهد حلمه ﷺ عندما ذهب إلى أهل الطّائف ليعرض عليهم دعوة التّوحيد، فقابلوه بالرّفض والأذيّة، وأمروا أطفالهم أن يرموه بالحجارة ﷺ، حتى أدموا عقبيه الشّريفتين ﷺ، كما ثبت عن عائشة (رضي الله عنها) أنّها قالت: قال رسول ﷺ: «**نَادَاني مَلَكُ الجِبَالِ وَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قالَ: يا مُحَمَّدُ، إنَّ الله قدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَأَنَا مَلَكُ الجِبَالِ وَقَدْ بَعَثَنِي رَبُّكَ إلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بأَمْرِكَ، فَما شِئْتَ، إنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عليهمُ الأخْشَبَيْنِ، فَقالَ له رَسولُ الله ﷺ: بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ الله مِن أَصْلَابِهِمْ مَن يَعْبُدُ الله وَحْدَهُ لا يُشْرِكُ به شيئًا**» [متفق عليه].

فهل مرّ بك إنسان عبر التّاريخ يقول في حقّ خصومه الذين آذوه، وأعدائه الذين أخرجوه وهو يُشاور في هلاكهم، ويُطلب رأيه في تدميرهم: «**بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ الله مِن أَصْلَابِهِمْ مَن يَعْبُدُ الله وَحْدَهُ لا يُشْرِكُ به شيئًا**»؟ هنا يتجسد حلمه ﷺ، في مشهد نبويّ كريم يتعدّى كل قامات الحلماء عبر التّاريخ، ويتحدّى كل رموز الإنسانيّة أبد الدّهر، فلو لم يكن ﷺ نبيًّا ما تحمّل الأوجاع المُضنية والأذى المرّ، ثمّ هو ﷺ لا يطلب مُلكًا، ولا يريد ثروةً، ولا جاهًا؛ لأنّ من عادة البشر الصّبر على الأذى والمشاق طموحًا لمُرادات أنفسهم، كحُبّ السّلطة، أو السّعي لمنصب، أو الاستيلاء على مال، أو الحصول على سمعة أو شهرة ونحو ذلك.

وفي معركة أحد قُتل عمّه حمزة وقرابة السّبعين من خيرة أصحابه(رضي الله عنهم)، وكسر المشركون رباعيته ﷺ، وشجّوا وجهه الشّريف وقابل ﷺ كلّ ذلك بالحلم والصّفح، بل دعا لهم ولم يدع عليهم، وكان يذكر قصص الأنبياء في الحلم مُتأسّيًا ومُقتديًا، فعن ابن مسعود (رضي الله عنه) قال: كَأَنِّي أَنْظُرُ إلى رَسولِ الله ﷺ يَحْكِي نَبِيًّا مِنَ الأنْبِيَاءِ ضَرَبَهُ قَوْمُهُ، وَهو يَمْسَحُ الدَّمَ عن وَجْهِهِ، ويقولُ: «**رَبِّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فإنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ**» [متفق عليه].

فأيُّ حلم فوق هذا الحُلم؟! وأيّ صفحٍ وعفو يوازي هذا الصّفح والعفو؟! يحلم ﷺ ويصفح عن كل من آذاه في سبيل أن يُبلّغ دين الله، ويتحمّل المشاق بسعة صدر، وكرم نفس، ولمّا أرسل ﷺ الطّفيل بن عمرو الدّوسي (رضي الله عنه) إلى قومه في دوس ليدعوهم إلى الإسلام آذوه وسبّوه وشتموه، فعاد الطّفيل إلى رسول الله ﷺ وقال له: **ادعُ عليهم يا رسول الله**، فرفع ﷺ يديه ليدعو، وظن الطّفيل أنّ رسول الله ﷺ سوف يدعو على قبيلة دوس، وقال: هلكت دوس، فقال ﷺ وهو رافع يديه ومُستقبل القبلة: «**اللهمَّ اهْدِ دَوْسًا وأْتِ بِهِمْ**». [متفق عليه]

فهدى الله قلوبهم للإسلام، ووفدوا مع الطّفيل بن عمرو الدوسي إلى المدينة، وصاروا أنصارًا للملة، وحماةً للتوحيد.

والآن دعونا نقف وقفة إجلال وتأمل، أمام مشهد يُبكي العيون، ويهزّ الأرواح، ويقف له الدّهر، إنّه الموقف الذي لا يُنسى مهما مرّت اللّيالي، موقف حلمه ﷺ على أهل مكة وهو يعود إليهم فاتحًا منتصـرًا، بعدما شتموه، وسبّوه، وآذوه، وحاربوه، وطردوه، يعود إليهم بجيش عرمرم، وقد استسلموا أمامه، ونزعت منهم أسلحتهم، فيقول وهو ممسك بحلقة باب الكعبة ـ كما رُوي عنه ـ: «**ما تقولون إنّي فاعل بكم**؟ قالوا: **خيرًا، أخ كريم، وابن أخ كريم**». قف هنا وأرسل روحك في سماء هذا المشهد، وتصور هذا الإمام العظيم وهو يعلن أعظم عفو في التّاريخ، في مشهد يملؤه البكاء، وتبلُّه الدّموع، فيقول ﷺ: «**لَا تثريبَ عليكُمْ اليومَ يغفرُ الله لكمْ وهُو أرحمُ الرّاحمين، اذهبوا فأنتم الطلقاء**» [رواه النسائي].

يا للصفح! ويا للعفو! ويا للكرم! ويا للّطف! ويا للحلم! صدق الله تعالى: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} [القلم: الآية 4].

أشهد أنّك أعظم حليم في العالم، وأشهد أنّك أجل كريم في الدّنيا، وأشهد أنّك إمام العفو طيلة الأيام ومرّ التاريخ -حينها وقف أبو سفيان بن حرب وكان قائد المشركين قبل إسلامه (رضي الله عنه)، وهو الذي جهّز الجيوش، وجنّد الأجناد لحرب النّبي ﷺ، فلمّا سمع العفو والصّفح والحلم منه ﷺ قال بتأثر عجيب: «**بِأَبِي أنت وَأُمِّي، مَا أَحْلَمَكَ! وَأَكْرَمَكَ! وَأَوْصَلَكَ! وَأَعْظَمَ عَفْوَكَ!**» [رواه الطّبراني].

فيا الله! كيف يستطيع الإنسان أن يُعبّر عن هذا المشهد!؟ وأي كلمات توفي هذا المقام حقّه!؟ وأي شعر أو نثر يُسامي هذا القدر العالي من الحُلم النّبوي الشّريف، والعفو المحمدي العظيم؟!

ومن أعظم مشاهد حلمه وعفوه ما سجّله ﷺ مع ابن عمّه أبي سفيان بن الحارث، الشاعر الذي جنّد نفسه لأذيته ﷺ بشعره، فلمّا دخل ﷺ مكة فاتحًا مُنتصرًا أخذ أبو سفيان بن الحارث أطفاله ليذهب إلى البيداء، فلقيه عليٌّ بن أبي طالب (رضي الله عنه) وهو ابن عمّه فقال له: **إلى أين يا أبا سفيان؟** قال: **أذهب إلى البيداء بأطفالي فوالله لئن ظفر بي محمد ليقطّعنّي إربًا إربًا**، فقال علي (رضي الله عنه) وهو العارف بحلم النّبي ﷺ وكرمه وعفوه وصفحه: **أخطأت يا أبا سفيان، إنّ رسول الله ﷺ أحلم النّاس وأكرم النّاس، تعال وسلم عليه بالنّبوة، وقل له كما قال إخوة يوسف ليوسف**: {تاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ} [يوسف: الآية 91]، فلمّا جلس ﷺ بعد الفتح وحوله الجيش أتى أبو سفيان وسلّم عليه بالنّبوة، وقال والنّبي ﷺ جالس: {تاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ}، فرفع ﷺ طرفه إليه وقال: {قَالَ لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} [يوسف: الآية 92].

فعاد أبو سفيان جنديًا وفيًا يُقاتل بين يدي رسول الله ﷺ، ويُقدّم نحره دون نحر النّبيّ ﷺ يوم حنين وغيره من المشاهد، ويقسم أن لن يترك نفقة أنفقها في الجاهلية في حرب النّبي ﷺ إلّا أنفق أضعافها لنصرته.

وروى ابن إسحاق في «**السّيرة**» أنّ الشاعر عبدالله بن الزِّبَعْرَى آذى رسول الله ﷺ وهجاه، فلمّا قدم ﷺ فاتحًا مكة أتى عبدالله إليه مُسلمًا مُعتذرًا يقول:

مَضَتِ الْعَدَاوَةُ وَانْقَضَتْ أَسْبَابُهَا	وَدَعَتْ أَوَاصِرُ بَيْنَنَا وَحُلُومُ
فَاغْفِرْ– فِدًى لَكَ وَالِدَايَ كِلَاهُمَا–	زَلَلِي، فَإِنَّكَ رَاحِمٌ مَرْحُومُ
وَعَلَيْكَ مِنْ عِلْمِ المَلِيكِ عَلَامَة	نُورٌ أَغَرُّ وَخَاتَمٌ مَخْتُومُ
أَعْطَاكَ بَعْدَ مَحَبَّةٍ بُرْهَانَهُ	شَرَفًا وَبُرْهَانُ الْإِلَهِ عَظِيمُ

فعفا عنه ﷺ وحلم عليه وتجاوز عن زللـهِ.

ورُوي في السّير كما في «**الاستيعاب**» وغيره، أنّ عكرمة بن أبي جهل هرب بعد فتح مكة نحو البحر أو طريق اليمن، فأخذت له امرأته الأمان من رسول الله ﷺ، فأتى طريدًا شريدًا بعد انهزامه وفراره، فاستقبله ﷺ بحفاوة وقال له بكل حلم، ورأفة، وسماحة: «**مرحبًا بالرّاكب المُهاجر**» [رواه الترمذي].

ولم يُعيّره ﷺ بأنّه هرب وشرد، بل رفع من قيمته وأعلى من قدره، وكأنّ هذا الرّجل الذي هرب من رسول الله ﷺ ورسالته أقبل أصلًا مُهاجرًا إلى الله ورسوله، وكأنّني بعكرمة (رضي الله عنه) وهو يرى رسول الله ﷺ يتهلل، ويهش، ويبش، ويكرر عليه: «**مرحبًا بالرّاكب المُهاجر**»، تمتلئُ روحه يقينًا، وإيمانًا، وفرحةً، وبُشرى.

وتألّف بِحِلمِه ﷺ صناديد العرب الذين آذوه، وحاربوه، وامتشقوا السّيوف في وجهه، وأشهروا الرّماح لقتاله، فلمّا نصره الله أسلموا، فأكرمهم ﷺ وأعطى بعضهم مئة ناقة، وأخذ يستميلهم بالخُلق الحسن، والعفو، والصفح، والحلم حتى دخلوا في دين الله أفواجًا.

كان غضبه ﷺ لله، ورضاه لله، ومنعه لله، وعطاؤه لله، وما كان يثأر لنفسه ولا يقتص انتقامًا ممّن آذاه، بل يعفو، ويصفح، ويغضّ الطّرف، وما كان يثأر، فعن عائشة (رضي الله عنها) قالت: «**ما ضَرَبَ رَسولُ الله ﷺ شيئًا قَطُّ بيَدِهِ، ولَا امْرَأةً، ولَا خَادِمًا، إلّا أَنْ يُجَاهِدَ في سَبيلِ الله، وَما نِيلَ منه شيءٌ قَطُّ، فَيَنْتَقِمَ مِن صَاحِبِهِ، إلَّا أَنْ يُنْتَهَكَ شيءٌ مِن مَحارِمِ الله، فَيَنْتَقِمَ عَزَّ وَجَلَّ**» [رواه مسلم].

وكان ﷺ أحلم الناس مع أهله، يصبر ويعفو ويصفح، ومن لطيف عشرته ﷺ وحلمه على أهله، غضّه الطّرف عمّا يحصل من غيرة نسائه، وما يصدر منهنّ من غضبٍ. وسع الجميعَ بحلمه، وأفاض على الكلّ بعفوه وصفحه، فعن أَنَسِ بن مالك (رضي الله عنه)، قَالَ: (**كَانَ النَّبِيُّ ﷺ عِنْدَ بَعْضِ نِسَائِهِ، فَأَرْسَلَتْ إِحْدَى أُمَّهَاتِ المُؤْمِنِينَ بِصَحْفَةٍ فِيهَا طَعَامٌ، فَضَرَبَتِ الَّتِي النَّبِيُّ ﷺ فِي بَيْتِهَا يَدَ الْخَادِمِ فَسَقَطَتِ الصَّحْفَةُ؛ فَانْفَلَقَتْ، فَجَمَعَ النَّبِيُّ ﷺ فِلَقَ الصَّحْفَةِ، ثُمَّ جَعَلَ يَجْمَعُ فِيهَا الطَّعَامَ الَّذِي كَانَ فِي الصَّحْفَةِ**، وَيَقُولُ: «**غَارَتْ أُمُّكُمْ**»، **ثُمَّ حَبَسَ الْخَادِمِ حَتَّى أُتِيَ بِصَحْفَةٍ مِنْ عِنْدِ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا، فَدَفَعَ الصَّحْفَةَ الصَّحِيحَةَ إِلَى الَّتِي كُسِرَتْ صَحْفَتُهَا، وَأَمْسَكَ المَكْسُورَةَ فِي بَيْتِ الَّتِي كَسَرَتْ**) [رواه البخاري].

وكانت إحداهنّ تغضب فتهجر اسمه ﷺ، تقول أمّ المؤمنين عَائِشَةَ (رضي الله عنها): قال لي رسول الله ﷺ: «**إنِّي لَأَعْلَمُ إذا كُنْتِ عَنِّي راضِيَةً، وإذا كُنْتِ عَلَيَّ غضْبى**». قالَتْ: فَقُلتُ: **مِن أيْنَ تَعْرِفُ ذلكَ؟** فقالَ: «**أمّا إذا كُنْتِ عَنِّي راضِيَةً، فإنَّكِ تَقُولِينَ لا ورَبِّ مُحَمَّدٍ، وإذا كُنْتِ عَلَيَّ غَضْبى**»، قُلْتِ: **لا ورَبِّ إبْراهِيمَ** قالَتْ: قُلتُ: «**أجَلْ واللهِ يا رَسولَ اللهِ، ما أهْجُرُ إلّا اسْمَكَ**» [متفق عليه].

فكان ﷺ مع أهله أحلم النّاس، يمازحهم ويلاطفهم ويعفو عما يصدر عنهم، ويدخل عليهم بسّامًا ضحّاكًا، يملأ قلوبهم وبيوتهم أنسًا وسعادة، وكان ﷺ يحمل الأطفال، ويحلم على أذاهم، فعن عائشة أمّ المؤمنين (رضي الله عنها) أنّها قالت: «**أُتِيَ رَسولُ اللهِ ﷺ بصَبِيٍّ، فَبالَ على ثَوْبِهِ، فَدَعا بماءٍ فأتْبَعَهُ إيّاهُ**» [متفق عليه].

ويقول أنس (رضي الله عنه): خَدَمْتُ النبيَّ ﷺ عَشْرَ سِنِينَ، فَما قالَ لِي: «**أُفٍّ، ولا: صَنَعْتَ؟ ولا: ألا صَنَعْتَ**» [متفق عليه].

فأيّ كرم؟! وأيّ حلم تمثّل في شخص هذا النّبي ﷺ؟! إنّ هذا غاية النّبل، وقمّة حُسن الخلق.

فاق حلمه وعفوه ﷺ، وحُسن عشرته لأهله ما يصفه الواصفون، فهو القدوة والأسوة للزّوج الحليم الكريم، فعن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، قال: «**كُنَّا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ نَغْلِبُ النِّسَاءَ، فَلَمَّا قَدِمْنَا علَى الأنْصَارِ إذَا قَوْمٌ تَغْلِبُهُمْ نِسَاؤُهُمْ، فَطَفِقَ نِسَاؤُنَا يَأْخُذْنَ مِن أدَبِ نِسَاءِ الأنْصَارِ، فَصَخِبْتُ علَى امْرَأَتي فَرَاجَعَتْنِي، فأنْكَرْتُ أنْ تُرَاجِعَنِي، قالَتْ: ولِمَ تُنْكِرُ أنْ أُرَاجِعَكَ؟ فَوَاللهِ إنَّ أزْوَاجَ النبيِّ ﷺ لَيُرَاجِعْنَهُ، وإنَّ إحْدَاهُنَّ لَتَهْجُرُهُ اليومَ حتَّى اللَّيْلِ، فأفْزَعَنِي ذلكَ وقُلتُ لَهَا: قدْ خَابَ مَن فَعَلَ ذَلِكِ منهنَّ، ثُمَّ جَمَعْتُ عَلَيَّ ثِيَابِي، فَنَزَلْتُ فَدَخَلْتُ علَى حَفْصَةَ فَقُلتُ لَهَا: أيْ حَفْصَةُ، أتُغَاضِبُ إحْدَاكُنَّ النبيَّ ﷺ اليومَ حتَّى اللَّيْلِ؟ قالَتْ: نَعَمْ، فَقُلتُ: قدْ خِبْتِ وخَسِرْتِ، أفَتَأْمَنِينَ أنْ يَغْضَبَ اللهُ لِغَضَبِ رَسولِهِ ﷺ فَتَهْلِكِي؟**» [متفق عليه].

إنّ هذه التّعاليم النّبوية الشّريفة والأخلاق السّامية الكريمة من معلم الخير ﷺ لو طُبّقت في البيوت لما حصل شجار، ولا نزاع، ولا فراق.

كان اليهود أشدّ مَن ناصب العَدَاء لرسول الله ﷺ، فأخذوا يُدبّرون له المكائد، ويتفننون في إيذائه، ويغرون المنافقين ومشركي العرب بالصدّ عن سبيل الله والكفر برسالة نبيّ الله ﷺ، حتى بلغوا في ذلك إلى محاولة اغتياله ﷺ، فعن أنس بن مالك(رضي الله عنه):«**أنَّ امْرَأَةً يَهُودِيَّةً أَتَتْ**

رَسولَ الله ﷺ **بشاةٍ مَسْمُومَةٍ، فأكَلَ منها، فَجِيءَ بها إلى رَسولِ الله ﷺ،** **فَسَأَلَها عن ذلكَ؟**، فَقالَتْ: **أَرَدْتُ لأَقْتُلَكَ**، قالَ: **ما كانَ الله لِيُسَلِّطَكِ على ذاك**، قالَ: أَوْ قالَ: **عَلَيَّ**، قالوا: **أَلا نَقْتُلُها؟**، قالَ: **لا**». [متفق عليه].

وجاء تاجر من تجّار اليهود يُدعى زيد بن سَعْنة قبل إسلامه يتقاضى دينًا عند النّبيّ ﷺ قبل موعد الوفاء، فأغلظ للنّبي ﷺ وجرّه بثيابه أمام النّاس، وصاح في وجهه الشّريف ﷺ قائلًا: إنّكم يا بني عبد المطلب مطلٌ، فزجره عمر (رضي الله عنه) وهمَّ أن يبطش به، والنّبي ﷺ ينظر إلى عُمر في سكونٍ وتُؤدَةٍ وتبسّم، ثم قال ﷺ لعمر: «**إنَّا كنَّا أحوجَ إلى غيرِ هذا منك يا عمرُ، أنْ تأمُرَني بحُسنِ الأداءِ وتأمُرَه بحُسنِ القَضَاءِ. اذهَبْ به يا عمرُ فاقضِه حقَّه، وزِدْه عشرينَ صاعًا مِن تمر مكانَ ما رُعْتَه**»، قال زيدٌ: فذهَب بي عمرُ فقضاني حقِّي وزادني عشرينَ صاعًا مِن تمرٍ، فقُلْتُ: ما هذه الزِّيادةُ؟ قال: أمَرني رسولُ الله ﷺ أنْ أزيدَك مكانَ ما رُعْتُك. فقُلْتُ: أتعرِفُني يا عمرُ؟ قال: لا، فمَن أنتَ؟ قُلْتُ: أنا زيدُ بنُ سَعْنةَ. قال: الحبرُ؟ قُلْتُ: نَعم، الحبرُ، قال: فما دعاك أنْ تقولَ لرسولِ الله ﷺ ما قُلْتَ وتفعَلَ به ما فعَلْتَ!؟ فقُلْتُ: يا عمرُ كلُّ علاماتِ النُّبوَّةِ قد عرَفْتُها في وجهِ رسولِ الله ﷺ حينَ نظَرْتُ إليه إلّا اثنتينِ لم أختبِرْهما منه: يسبِقُ حِلْمُه جهلَه، ولا يزيدُه شدَّةُ الجهلِ عليه إلّا حِلْمًا، فقد أختبَرْتُهما، فأُشهِدُك يا عمرُ أني قد رضيتُ بالله ربًّا، وبالإسلامِ دينًا، وبمحمَّدٍ ﷺ نبيًّا [رواه ابن حبان].

فقُل لي بالله من الذي يمرّ به مثل هذا الموقف النّبيل من النّبي الكريم ﷺ وفيه ذرة من الإنسانية ثم لا تتحرك مشاعره ويجيش فؤاده بالإقبال على دين هذا الإمام العظيم ﷺ والنبي الكريم!؟

إنّ شريعته ﷺ تُدرّس في كل باب من أبواب الحياة، وسُنّته تُتّبع في كل موقف من مواقف الإنسان، ومنها مواقف حِلْمه ﷺ على العصاة والمُذنبين، فلنتعلّم كيف تجاوز عنهم ﷺ بحلمه، وأعطاهم فرصة العودة إلى الله والتّوبة إليه، ومنحهم الأمل في رحمة الله وعفوه، ولم يُغلق عليهم باب العودة، فعندما أرسل حاطب ابن أبي بلتعة (رضي الله عنه) رسالة إلى مشركي مكة يخبرهم فيها أنّ رسول الله ﷺ عازم على فتح مكة، وأنّه جهّز جيشًا لذلك، فنزل الوحي وأخبر النّبي ﷺ، فأرسل ﷺ إلى حاطب، وسأله في هدوء: «**يَا حَاطِبُ، مَا هَذَا؟**». قال حَاطِبُ: يا رسول الله، لا تَعْجَلْ عَلَيَّ، إنّي كنت امْرَأً مُلْصَقًا في قريش، وَلَمْ أَكُنْ مِنْ أَنْفُسِهَا، وَكَانَ مَنْ مَعَكَ مِنَ المُهَاجِرِينَ لَهُم قَرَابَاتٌ بِمَكَّةَ يَحْمُونَ بِهَا أَهْلِيهِمْ وَأَمْوَالَهُمْ؛ فَأَحْبَبْتُ إِذْ فَاتَنِي ذَلِكَ مِنَ النَّسَبِ فِيهِمْ أَنْ أَتَّخِذَ عِنْدَهُمْ يَدًا

يَحْمُونَ بِهَا قَرَابَتِي، وَمَا فَعَلْتُ كُفْرًا وَلا ارْتِدَادًا وَلا رِضًا بِالْكُفْرِ بَعْدَ الإِسْلامِ؛ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**لَقَدْ صَدَقَكُمْ**». قَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ الله، دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ. قَالَ: «**إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا؛ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ الله أَنْ يَكُونَ قَدِ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ، فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ**» [متفق عليه]، فانظر لحلمه ﷺ كيف عرف لهذا منزلته وسابقته فتجاوز عنه! إنّ هذا لموقف يستدرّ دمع العين، ويخفق له القلب.

لقد جعل ﷺ شرف الإنسان في الحلم، وكظم الغيظ، لا في البطش والانتقام، ويقول ﷺ في كلمة قوية مؤثرة: «**ليسَ الشَّدِيدُ بالصُّرَعَةِ (أي الذي يصرع الرجال عند المُغالبة)، إنَّما الشَّدِيدُ الذي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الغَضَبِ**» [متفق عليه].

وهذه هي معاني الإنسانية الرّاقية الرّائعة، وليس البطش والأذية وتدبير الضّرر للآخرين.

لقد أعلى رسول الله ﷺ من قيمة الحلم والعفو والصّفح، وجعلها تيجانًا على رؤوس أصحابها، ولذلك قال ﷺ: «**لا تَحاسَدُوا، ولا تَناجَشُوا، ولا تَباغَضُوا، ولا تَدابَرُوا، ولا يَبِعْ بَعْضُكُمْ على بَيْعِ بَعْضٍ، وكُونُوا عِبادَ الله إخْوانًا. المُسْلِمُ أخُو المُسْلِمِ، لا يَظْلِمُهُ ولا يَخْذُلُهُ، ولا يَحْقِرُهُ**» [متفق عليه].

ويقول ﷺ في كلمة جميلة رائعة: «**ما زادَ الله عَبْدًا بعَفْوٍ، إلّا عِزًّا**» [رواه مسلم]، وروى أبو داود عنه ﷺ أنّه قال: «**مَنْ كَظَمَ غيظًا، وهو قادِرٌ على أنْ يُنْفِذَهُ، دعاه اللهُ عزّ وجل على رؤوسِ الخلائِقِ يوم القيامة، حتّى يُخيِّرَهُ الله مِنَ الحورِ العينِ ما شاءُ**».

إنّ هذه المعاني يجب أن ندرسها بعناية، دراسة من يعتقد ويتيقن أنّ في العمل بها نجاته في الدّنيا والآخرة، وأنّها شريعة يُتعبد الله بها، لا أنّها أخبار تاريخية للتّسلية والمتعة الذّهنية.

ولمّا أراد الخروج ﷺ لغزوة تبوك جاءه بعض المُنافقين، يعتذرون بأعذار كاذبة، فقبل عليه الصّلاة والسّلام أعذارهم، وحملهم على الظّاهر، فجاء العتب من الله تعالى لنبيّه ﷺ، فقال سبحانه: {عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ} [التوبة: الآية 43].

وهنا لفتة جميلة، فمن حبّ الله لرسوله ولمكانته ﷺ عند مولاه، بدأه الله بالعفو قبل أن يُعاتبه في شأن المُنافقين، وما ذاك إلّا لمنزلته الرّفيعة ﷺ عند ربّه، فهو أعزّ الخليقة على الله، وأحبّهم إلى

الله، وأكرمهم على الله .

في الموقف السّابق تلمح سعة حلمه ﷺ، وعظيم عفوه، مع علمه بمؤامرتهم، ودسائسهم، وغدرهم، وكفرهم بدعوته في الباطن، ومع هذا كلّه قبل أعذارهم، وحَلُم عليهم، وعفا عنهم.

وانظر إلى تعامله ﷺ مع رأس المنافقين عبدالله بن أبي بن سلول، فقد فعل الأفاعيل في الإسلام، وانخذل بثلث الجيش يوم أحد، واتّهم أمّ المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) في عرضها، الصّديقة بنت الصّديق المبرّأة من فوق سبع سماوات، وقال في إحدى الغزوات لمّا تشاجر مهاجريّ وأنصاري: «**لَئِنْ رَجَعْنا إلى المَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأعَزُّ منها الأذَلَّ**» [متفق عليه]، يقصد أنّه الأعز -قاتله الله- وأنّ الأذلّ نبيّ الله ﷺ صانه الله، فلمّا قدموا إلى المدينة وقف ابنه موقف المؤمن الصّادق المُحب لله ولرسوله ﷺ وقال لأبيه كما في الترمذي: **لا تدخل المدينة حتى يأذن لك نبيّ الله ﷺ، فإنّك أنت الأذل وهو الأعزّ**، فأذن له ﷺ، وعفا، وحلم، وصفح.

ولمّا مات ابن سَلول جاء ابنهُ عبدُ الله للنّبي ﷺ وطلب منه ثوبه الشّريف ليكفّن فيه أباه، فأعطاه النّبي ﷺ ثوبه لُطفًا وحلمًا وكرمًا منه فكُفّن فيه، وسأل ابنهُ: **أتُصَلِّي عليه يا رسولَ الله؟** فقال ﷺ: **نعم**-وكان هذا قبل أن يوحى إليه بعدم الصلاة على المنافقين-،كما وصف عمر بن الخطاب هذا المشهد فقال(رضي الله عنه): «**لَما مَاتَ عبدُ الله بنُ أُبَيٍّ بن سَلُولَ، دُعِيَ له رَسولُ الله ﷺ لِيُصَلِّيَ عليه، فَلَمَّا قَامَ رَسولُ الله ﷺ وثَبْتُ إلَيْهِ، فَقُلتُ: يا رَسول الله، أتُصَلِّي عَلَى ابْنِ أُبَيٍّ وقدْ قَالَ يَومَ كَذَا وكَذَا: كَذَا وكَذَا؟ أُعَدِّدُ عليه قَوْلَهُ، فَتَبَسَّمَ رَسولُ الله ﷺ وقَالَ: أخِّرْ عَنِي يا عُمَرُ، فَلَمَّا أكْثَرْتُ عليه، قَالَ: إنِّي خُيِّرْتُ فَاخْتَرْتُ، لو أعْلَمُ أنِّي إنْ زِدْتُ عَلَى السَّبْعِينَ يُغْفَرُ له لَزِدْتُ عَلَيْهَا، قَالَ: فَصلَّى عليه رَسولُ الله ﷺ ثُمَّ انْصَرَفَ**» [متفق عليه].

فتصوّر وأنت تعيش هذا المشهد أن تقف لتُصلّي على أكبر أعدائك، وتستغفر له وتترحم عليه، وهو الذي كاد لك المكائد في حياته وسبّك وشتمك وألّب عليك الرأي العام، وسعى في الفتك والإضرار بك، وطعنك في عرضك، وكذّبك، واستهزأ بك، وتفنن في إيذائك بصنوف الإيذاء، وبعد كل هذا يكون الصّفح والعفو والحلم والتّجاوز، أشهد أنّ هذه الأخلاق لا تكون إلّا في إنسان واحد اسمه: محمد بن عبدالله ﷺ.

وانظر إليه ﷺ وهو يتحمّل جفاء أعرابي أتاه يطلب منه المعونة وكان عليه ﷺ رداء نجرانيّ غليظ الحاشية فجرّه الأعرابي من خلفه حتى أثّر الرّداء في عُنقه الشريف، كما روى أنس بن مالك (رضي الله عنه) فقال: «**كُنْتُ أمْشِي مع رَسولِ الله ﷺ وعليه بُرْدٌ نَجْرَانِيٌّ غَلِيظُ الحَاشِيَةِ، فأدْرَكَهُ أعْرَابِيٌّ فَجَبَذَ بردَائِهِ جَبْذَةً شَدِيدَةً**، قالَ أنَسٌ: **فَنَظَرْتُ إلى صَفْحَةِ عَاتِقِ النبيِّ ﷺ، وقدْ أثَّرَتْ بهَا حَاشِيَةُ الرِّدَاءِ مِن شِدَّةِ جَبْذَتِهِ**، ثُمَّ قالَ: **يا مُحَمَّدُ مُرْ لي مِن مَالِ الله الذي عِنْدَكَ، فَالْتَفَتَ إلَيْهِ فَضَحِكَ، ثُمَّ أمَرَ له بعَطَاءٍ**» [متفق عليه].

وهنا قام الأعرابي بثلاثة تجاوزات: جذب النّبي ﷺ، وعبّس في وجهه، وأغلظ له القول، فرد عليه ﷺ بثلاث مُباركات: التفت إليه، ثم ضحك في وجهه، ثم أمر له بعطاء.

وهذا منهجه بأبي هو وأمي، كما قال له ربّه: {ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ} [فصلت: الآية 34]، فصلّى الله وسلم على خير من نفّذ أمر ربّه، وبلّغ عن مولاه، ودفع بالتي هي أحسن.

ومن حلمه ﷺ أنّه كان يتلطّف بالأعراب الذين يجهلون أحكام الدّين لحداثة دخولهم فيه، فعن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: **قامَ رَسولُ الله ﷺ في صَلاةٍ وقُمْنا معهُ، فَقالَ أعْرابِيٌّ وهو في الصَّلاةِ: اللهمَّ ارْحَمْنِي ومُحَمَّدًا، ولا تَرْحَمْ معنا أحَدًا. فَلَمّا سَلَّمَ النّبيُّ ﷺ قالَ لِلأَعْرَابِيِّ:** «**لقَدْ حَجَّرْتَ واسِعًا**»، يُرِيدُ رَحْمَةَ الله. [رواه البخاري].

وعن أنس بن مالك (رضي الله عنه) قال: «بيْنَما نَحْنُ في المَسْجِدِ مع رَسولِ الله ﷺ إذْ جاءَ أعْرابِيٌّ فَقامَ يَبُولُ في المَسْجِدِ، فقالَ أصْحابُ رَسولِ الله ﷺ: **مَهْ مَهْ**، قالَ: قالَ رَسولُ الله ﷺ: **لا تُزْرِمُوهُ دَعُوهُ (أي: دعوه لا تقطعوا عليه بوله)، فَتَرَكُوهُ حتّى بالَ**، ثُمَّ إن رَسولَ الله ﷺ دَعاهُ فقالَ له: **إنَّ هذِه المَساجِدَ لا تَصْلُحُ لِشيءٍ مِن هذا البَوْلِ، ولا القَذَرِ إنَّما هي لِذِكْرِ الله عزَّ وجلَّ، والصَّلاةِ وقِراءَةِ القُرْآنِ، وأمَرَ رَجُلًا مِنَ القَوْمِ فَجاءَ بدَلْوٍ مِن ماءٍ فَشَنَّهُ عليه**» [متفق عليه]. فمثلما أمر ﷺ بإفراغ الماء على بول الأعرابي ليُطهره، أفرغ ﷺ من حلمه على جهل هذا الرجل فنقّاه.

بل إنّه ﷺ حلم وعفا عمّن أراد قتله، وهذا غاية ما يصل إليه الحلماء، فعن جَابِر بْن عَبْدِ الله (رضي الله عنهما)، أَنَّهُ غَزَا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ قِبَلَ نَجْدٍ، فَلَمَّا قَفَلَ رَسُولُ الله ﷺ، قَفَلَ مَعَهُ، فَأَدْرَكَتْهُمُ الْقَائِلَةُ فِي وَادٍ كَثِيرِ الْعِضَاهِ، فَنَزَلَ رَسُولُ الله ﷺ، وَتَفَرَّقَ النَّاسُ يَسْتَظِلُّونَ بِالشَّجَرِ، فَنَزَلَ رَسُولُ الله

ﷺ تَحْتَ سَمُرَةٍ وَعَلَّقَ بِهَا سَيْفَهُ، وَنِمْنَا نَوْمَةً؛ فَإِذَا رَسُولُ الله ﷺ يَدْعُونَا، وَإِذَا عِنْدَهُ أَعْرَابِيٌّ، فَقَال: «**إِنَّ هَذَا اخْتَرَطَ عَلَيَّ سَيْفِي وَأَنَا نَائِمٌ، فَاسْتَيْقَظْتُ وَهُوَ فِي يَدِهِ صَلْتًا،** فَقَالَ: **مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟**، فَقُلْتُ: **الله، ثَلَاثًا، وَلَمْ يُعَاقِبْهُ وَجَلَسَ**» [متفق عليه]. وورد أنّ هذا الرّجل ذهب إلى قومه وأسلم، وكان سببًا في إسلامهم. [الإصابة].

وروى جابر بن عبدالله (رضي الله عنهما)، قصة أخرى عن حلمه وعفوه ﷺ حينما اعترض عليه أعرابيّ وهو يُقسّم الغنائم في حنين وقال له: «**يا مُحَمَّدُ، اعْدِلْ،** فقال ﷺ: **ويْلَكَ، ومَن يَعْدِلُ إذا لَمْ أكن أَعْدِل!؟ قدْ خِبْتَ وخَسِرْتَ إنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ**»، فقال عمر (رضي الله عنه): **دَعْنِي، يا رَسولَ الله، فأقْتُلَ هذا المُنافِقَ،** فقال ﷺ: **معاذَ الله، أَنْ يَتَحَدَّثَ النّاسُ أَنّي أَقْتُلُ أَصْحابي**» [رواه البخاري-مختصرًا - ومسلم].

فهو ﷺ مع حلمه وعفوه وصفحه نظر إلى المصلحة الكبرى وإلى المقصد الأعظم وهو هداية النّاس، فإذا سمع الناس أنّه ﷺ قتل بعضًا ممّن صاحبه، انجفلوا عن الدّين، وخافوا من الإسلام، فانظر سعة النّظرة، وجلال الحكمة، ونور البصيرة، في ترك هذا المُعترض والإعراض عنه لمصلحة الدّعوة، وهذا من حرصه ﷺ على إظهار الإسلام بصورته الجميلة، وحرصه على حُسن السّمعة للرّسالة المحمدية الخالدة.

إنّ أخلاقه الكريمة ﷺ ومنها عفوه وحلمه، كانت من أعظم الأسباب لهداية النّاس، وإقبالهم على دين الله عزّ وجل، واعتناقهم رسالته ﷺ، تقول أمّ المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) وهي تصف سجاياه ﷺ وتتحدث عن حلمه، ونُبله، وكرمه: «**لم يَكُن ﷺ فاحِشًا ولا مُتفَحِّشًا ولا صخّابًا في الأسواقِ، ولا يَجزي بالسَّيِّئةِ السَّيِّئةَ، ولَكِن يَعفو ويَصفَحُ**» [رواه الترمذي].

فهذه سجاياه وشمائله وخلقه النّبيل ﷺ، وكيف لا يكون كذلك وهو الذي أُنزل عليه قوله تعالى: {وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [آل عمران: الآية 143]!؟، وبلّغنا هذه الآية بقوله وفعله وحاله، وهو الذي أُوحي إليه قول الباري: {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} [الأعراف: الآية 199].

وهذه الآية وحدها دستور أخلاق عالمي، وميثاق شرف إنساني، لن تسعد البشرية إلّا بتنفيذ هذه التعاليم الرّبّانية والسّنن المُحمديّة، ومِن أين تُتعلّم الرجولة، وشيم الأوفياء، وسجايا الشّرفاء، إلّا

من سيرته العطرة ﷺ وأخلاقه الفوّاحة الزّكية؟!

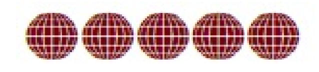
صلى الله وسلّم على أعظم العالمين حِلمًا، وأكثرهم صفحًا وعفوًا، نشهد أنّه أعظم مَن كَظم غيظًا في تاريخ البشريّة ﷺ، ونشهد أنّه الإمام في كل خلق نبيل، والمُقدَّم في كل سجيّة حميدة، ونشهد أنّ كل خُلق محبوب أحبّه ربّ العالمين كان في نبيّنا الكريم، فتحبّب إلى الله بخُلق نبيّه ﷺ تكن من أوليائه، وإذا أردت أن ينصرك الله بلا جنود، ويحميك بلا عشيرة، فعليك بالحلم.

سمة النّبوّةِ أن تكون حليما ... برًّا وَصولًا مُحسنًا وكريما

فكأنّك الغيثُ الهنيء على الرّبى ... أحيت وكانت قبل ذاك حطيما

لمّا عفوت عن الخصوم تفضّلًا ... سمّاك ربّك في الكتابِ رحيما

هتفت لك الأرواحُ لمّا آنست ... من روضِ عفوك نفحةً ونسيما





مُحَمَّدٌ ﷺ كَرِيمًا

محمد بن عبدالله ﷺ أجود البريّة نفسًا، وأسخاها يدًا، هو الغمامة السّحاء، والغيث المدرار، أسرع بالخير من الرّيح المرسلة، يُعطي عطاء من لا يخشى الفقر، يُعطي مع الحاجة، يجمع الغنائم ثم يُوزّعها ولا يأخذ منها شيئًا لخاصة نفسه. مائدته معروضة لكل قادم، وبيته قبلة لكل وافد، يُكرم الضّيف، ويُطعم الجائع، ويكسو العاري، ويُكسب المعدوم، ويُغيث الملهوف، ويُنقذ المكروب، ويُعين على نوائب الدّهر، ويؤثر المحتاج، ويصل القريب، ويحتوي الشّريد، ويواسي المصاب، ويحتفي بالغريب، ويرأف بالمسكين، ويكفل اليتيم، ويرحم الضعيف. فكان ﷺ آية في الجود والكرم، لا يُقارن به أجواد العرب كحاتم وهَرِم وابن جُدْعان؛ لأنّه ﷺ يعطي عطاء مَن لا يطلب الخلف إلّا من الله، ويجود جود مَن بذل نفسه وماله وكل ما يملك في سبيل ربّه ومولاه، فهو أندى العالمين راحًا، وأسمحهم رُوحًا، وأكرمهم محتدًا، فعن أنس بن مالك (رضي الله عنه) قال: «**ما سُئِلَ رَسولُ الله ﷺ علَى الإسْلَامِ شيئًا إلّا أَعْطَاهُ**، قالَ: **فَجَاءَهُ رَجُلٌ فأعْطَاهُ غَنَمًا بين جَبَلَيْنِ، فَرَجَعَ إلى قَوْمِهِ**، فَقالَ: **يا قَوْمِ أَسْلِمُوا، فإنَّ مُحَمَّدًا يُعْطِي عَطَاءً لا يَخْشَى الفَاقَةَ**» [رواه مسلم].

قد وَسِع النّاس برّه ﷺ، فطعامه مبذول، ووجهه بسّام، وخلقه سهل، وصدره واسع، كما قيل:

تراهُ، إذا ما جئتهُ، متهلّلًا	كأنّكَ تعطيهِ الذي أنتَ سائلُهْ
هُوَ البَحرُ مِن أَيِّ النَّواحي أَتَيتَهُ	فَلُجَّتُهُ المَعروفُ وَالجودُ ساحِلُهْ

ومن لطيف كرمه ﷺ أنّه غمر أصحابه وأحبابه وأتباعه - بل أعداءه - بجوده وبرّه وإحسانه، أكل اليهود من طعامه، وجلس الأعراب على مائدته، وحفّ المنافقون بجفنته، وأناسٌ حاربوه

وأسالوا دمه، وقتلوا أولياءه، وآذوا أصحابه، وكذّبوا دعوته، فلمّا أسلموا تألّفهم بالمال، فأعطى مئة ناقة لكل رئيسٍ من رؤسائهم، وأكرمهم بسائر العطايا والهدايا، وترك نفسه ومحبيه حتى أتاه عتبٌ من الأنصار في ذلك، فأجابهم ﷺ فقال: «**أَما تَرْضَوْنَ أَنْ يَرْجِعَ النّاسُ بالدُّنْيا، وَتَرْجِعُونَ برَسولِ الله إلى بُيُوتِكُمْ؟ لو سَلَكَ النّاسُ وادِيًا، وَسَلَكَ الأنْصارُ شِعْبًا، لَسَلَكْتُ شِعْبَ الأنْصارِ**» [متفق عليه].

وأمر ﷺ بالإنفاق والكرم والبذل، ودعا للجود والسّخاء، فقال: «**مَن كانَ يُؤْمِنُ بالله واليَومِ الآخِرِ فليُحسن إلى جاره، ومَن كانَ يُؤْمِنُ بالله واليَومِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ**» [متفق عليه]، وكان ﷺ يُحذّر أصحابه من البُخل، وينذرهم شؤم الشُّح، ويخبرهم أنّه من أعظم الذّنوب وأكبر الخطايا فقال ﷺ: «**مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ إِلّا مَلَكَانِ يَنْزِلَانِ فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللهمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، وَيَقُولُ الْآخَرُ: اللهمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا**» [متفق عليه].

ولمّا وزّع ﷺ غنائم حنين لم يدّخر لنفسه خاصة درهمًا ولا دينارًا، ولا ناقة ولا شاة، فعن جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ (رضي الله عنه) :«**أَنَّهُ بَيْنَمَا هُوَ يَسِيرُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ وَمَعَهُ النَّاسُ مَقْفَلَهُ مِنْ حُنَيْنٍ فَعَلِقَهُ النَّاسُ يَسْأَلُونَهُ حَتَّى اضْطَرُّوهُ إِلَى سَمُرَةٍ فَخَطِفَتْ رِدَاءَهُ، فَوَقَفَ النَّبِيُّ ﷺ** فَقَالَ: **أَعْطُونِي رِدَائِي، لَوْ كَانَ لِي عَدَدُ هَذِهِ الْعِضَاهِ نَعَمًا لَقَسَمْتُهُ بَيْنَكُمْ ثُمَّ لا تَجِدُونِي بَخِيلًا، وَلا كَذُوبًا، وَلا جَبَانًا**» [رواه البخاري].

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ(رضي الله عنه) قال: «**أنَّ نَاسًا مِنَ الأنْصَارِ سَأَلُوا رَسولَ اللهِ ﷺ، فأعْطَاهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوهُ فأعْطَاهُمْ، حتَّى إذَا نَفِدَ ما عِنْدَهُ**» [مُتفق عليه].

وسأله محتاج ذات يوم ثوبًا جديدًا كان يرتديه ﷺ فخلع الثّوب له، ولبس ثيابه القديمة، فعَنْ سَهْلِ بن سعد(رضي الله عنه): «**أَنَّ امْرَأَةً جَاءَتِ النَّبِيَّ ﷺ بِبُرْدَةٍ مَنْسُوجَةٍ، فِيهَا حَاشِيَتُهَا... قَالَتْ: نَسَجْتُهَا بِيَدِي فَجِئْتُ لِأَكْسُوَكَهَا فَأَخَذَهَا النَّبِيُّ ﷺ مُحْتَاجًا إِلَيْهَا، فَخَرَجَ إِلَيْنَا وَإِنَّهَا إِزَارُهُ، فَحَسَّنَهَا فُلانٌ، فَقَالَ: اكْسُنِيهَا، مَا أَحْسَنَهَا!، قَالَ الْقَوْمُ: مَا أَحْسَنْتَ، لَبِسَهَا النَّبِيُّ ﷺ مُحْتَاجًا إِلَيْهَا، ثُمَّ سَأَلْتَهُ، وَعَلِمْتَ أَنَّهُ لا يَرُدُّ،** قَالَ: **إِنِّي وَالله، مَا سَأَلْتُهُ لِأَلْبَسَهُ، إِنَّمَا سَأَلْتُهُ لِتَكُونَ كَفَنِي،** قَالَ سَهْلٌ: **فَكَانَتْ كَفَنَهُ**» [رواه البخاري].

بل كان ﷺ أسعد بالعطيّة من السائل، فيتبسّم عند العطاء، وتهشّ روحه للسّخاء، وينشرح صدره للبذل، وتندى يده بالجود، ويسيل الكرم من قلبه الطّاهر الزّكي، ولم يُحفظ عنه ﷺ أنّه تبرّم

بضيفٍ، أو تضجّر من سائل، أو تضايق من طالب، بل جرّ أعرابيّ بُرده حتى أثّر في عُنقه ﷺ، وقال له: «**يا مُحَمَّدُ، مُرْ لي مِن مالِ الله الذي عِنْدَكَ، فالْتَفَتَ إلَيْهِ رَسولُ الله ﷺ ثُمَّ ضَحِكَ، ثُمَّ أمَرَ له بعَطاءٍ**» [متفق عليه].

الله أكبر! هنا اجتمع الحلم والكرم، الحلم في أبهى صوره، والكرم في أجمل مظاهره، ولا يكون إلّا في جلباب النّبوة وثوب الرّسالة، فصلّى الله وسلّم عليه من جوادٍ كريمٍ ومن عفوٍ حليمٍ.

انظر كيف بذل وتصدّق على أعرابيّ جافٍ قاسٍ لم يوفّه حقّه، ولم يعرف قدره، ومع ذلك جمع ﷺ الكرم كلّه، والبرّ أوّله وآخره، فهو كريم القلب واليد واللّسان، وكريم المخبر والمظهر والمعشر، ولو صُوِّر الكرم رجلًا لكان هو ﷺ، وهل الكرم والجود إلّا سجاياه وشمائله؟! وهل السّخاء والبذل إلّا عطاياه وفضائله؟! وهل المجد والسؤدد إلّا مناقبه ومحامده؟!، يقول الشاعر:

مُفِيدٌ ومِتْلافٌ إذا ما سَأَلْتَهُ ... تَهَلَّلَ وَاهْتَزَّ اهْتِزَازَ المُهَنَّدِ

مَتى تَأْتِهِ تَعْشُو إلى ضَوْءِ نَارِهِ ... تَجِدْ خيرَ نَارٍ عندَها خيرُ مُوْقِدِ

لقد شَمل كرمُه ﷺ كرم النّفس، وكرم اليد، وكرم الخُلق، وكرمه جبلة جبله اللهُ عليها، عَنْ عُقْبَةَ بن عامر (رضي الله عنه) قَالَ: «**صَلَّيْتُ وَرَاءَ النَّبِيِّ ﷺ بِالْمَدِينَةِ العَصْرَ، فَسَلَّمَ، ثُمَّ قَامَ مُسْرِعًا، فَتَخَطَّى رِقَابَ النَّاسِ إلى بَعْضِ حُجَرِ نِسَائِهِ، فَفَزِعَ النَّاسُ مِنْ سُرْعَتِهِ، فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ، فَرَأَى أَنَّهُمْ عَجِبُوا مِنْ سُرْعَتِهِ**، فَقَالَ: **ذَكَرْتُ شَيْئًا مِنْ تِبْرٍ -أي: ذهب- عِنْدَنَا، فَكَرِهْتُ أَنْ يَحْبِسَنِي، فَأَمَرْتُ بِقِسْمَتِهِ**» [رواه البخاري].

فكانت يده ﷺ سحّاء بالكرم لا تُمسك شيئًا، يؤثر بطعامه وهو جائع، كما جاء في «صحيح البخاري» أنّه أطعم أهل الصفّة وهم فقراء في مسجده على لبنٍ أُهدي إليه وكان جائعًا فسقاهم قبل أن يشرب ﷺ.

وقال ﷺ: «**لَوْ كانَ لي مِثْلُ أُحُدٍ ذَهَبًا ما يَسُرُّنِي أنْ يَمُرَّ عَلَيَّ ثَلاثٌ، وعِنْدِي منه شيءٌ إلّا شيءٌ أُرْصِدُهُ لِدَيْنٍ**» [متفق عليه].

ويقول حكيم بن حِزام(رضي الله عنه): «**سَأَلْتُ رَسولَ الله ﷺ فأعْطانِي، ثُمَّ سأَلْتُهُ فأعْطانِي،** ثُمَّ قالَ لِي: **يا حَكِيمُ، إنَّ هذا المالَ خَضِرٌ حُلْوٌ، فمَن أَخَذَهُ بسَخاوَةِ نَفْسٍ بُورِكَ له فِيهِ، ومَن أَخَذَهُ**

بإشْرافِ نَفْسٍ لَمْ يُبارَكْ له فِيهِ، وكانَ كالَّذِي يَأْكُلُ ولا يَشْبَعُ، واليَدُ العُلْيا خَيْرٌ مِنَ اليَدِ السُّفْلى» [متفق عليه].

ومن كرمه ﷺ: لمّا رأى في وجه أبي هريرة (رضي الله عنه) الجوع، تبسّم ودعاه إلى إناء فيه لبن، ثم أمره أن يشرب منه، فشرب حتى ارتوى، وظلّ النّبي ﷺ يعيد له الإناء حتّى قال أبو هريرة (رضي الله عنه): «**والذي بَعَثَكَ بالحَقِّ، ما أجِدُ له مَسْلَكًا**» [رواه البخاري].

وفي «الصحيحين» أنّ أبا طلحة الأنصاري (رضي الله عنه) أرسلَ أنس بن مالك (رضي الله عنه) ليدعوَ النّبي ﷺ إلى طعام صنعه له، فقام رسول الله ﷺ ومعه ما يُقارب الأربعين من أصحابه، وجَعَلَ يَدْعُو عَشَرَةً عَشَرَةً ويقدّم لهم الطعام، ثم أكل بعدهم.

فكان يشارك ﷺ طعامه مع الكبير والصّغير، والرّجل والمرأة، والغنيّ والفقير، والحاضر والباد بطيب نفس، ولا يدّخر شيئًا يخصه من الطّعام، فبابه مفتوحٌ، وصدره مشروحٌ، وعطاؤه يغدو ويروح، قد وسِعَ الناس ببرّه، وعمّ الخليقة بكرمه.

هل سمعتم بقائد قدّم أصحابه وأتباعه إلى الطّعام ووقف على خدمتهم وهو جائع؟

هل مرّ بكم زعيمٌ سكن غرفة من طينٍ، وبلغ به الجوع مبلغًا عظيمًا فإذا أتاه طعامٌ دعا الفقراء وقدّمه إليهم ولم يأكل إلّا آخرهم؟

وهنا أقول كلمة لم أقلها من قبل، وما وجدت مَن قالها، وأسأل الله أن يجعلها صادقة وخالصة لوجهه الكريم:

إن الكُرماء على مرّ التّاريخ لهم مُشاركات في جوانب من الكرم، فمنهم من يجود بروحه، ومنهم من يجود بماله، ومنهم من يجود بطعامه، ومنهم من يجود بلباسه، ومنهم من يجود بعلمه، ومنهم من يجود بجاهه، لكن رسولنا ﷺ كانت حياته كلّها كرم، وليله ونهاره كلّه جود وسخاء، فهو كريم في إمامته بالنّاس، يُصلّي بهم مُحتسبًا لوجه الله لا يُريد عَرَضًا من الدّنيا. كريم في خُطبه فينفع بها القلوب، ويجود بها على الأرواح. كريم في فتاويه يُب بها الحلال والحرام. كريم في تواضعه يفعله بلا تكلّف، يؤثر غيره بالدّنيا سماحةً وتفضلًا. كريم في صلته وبرّه يفعل ذلك عبودية لربّه.

كريم في دعوته يريد بها ما عند الله، لا لعرضٍ زائلٍ، ولا لمُلكٍ فانٍ، ولا لمجدٍ خدّاع من أمجاد الدّنيا.

كريم في علمه يُعلّم الناس لا لراتبٍ معين، ولا لوظيفة قائمة، ولا لمنصب مرجوٍّ، بل كرم في الله، ولله، وابتغاء مرضاة الله عزَّ وجل، كريم بأخلاقه النّدية. كريم في ضحكه وتبسّمه الذي يملأ القلوب انشراحًا، ويعمر النّفوس سرورًا. كريم برعايته وولايته، فهو العدل كلّه، والحنان والشّفقة والرّأفة بأسرها.

ومن المعاني النّبيلة، والإشارات الجليلة: أنّ كلّ كريم في العالم مَدَحه على كرمه بشرٌ مثله، وأثنى عليه مخلوقٌ من جنسه، إلّا رسولنا ﷺ، فقد مدحه ربّ العالمين، وأثنى عليه سُبحانه بكريم الخصال، وأشرف الخلال، وأنبل الفعال، وأرقى وأحسن الأقوال والأحوال، وجمع له معاني الجلالة، والسؤدد، والكرم، والنُّبل، في قوله تعالى: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} [القلم: الآية 4]، فإذا جمعت مدح البشر بعضهم لبعض تجده ذرّة من محيط مدح الله لرسوله ومصطفاه ﷺ؛ لأنّه الأوّل ﷺ في كل فضلٍ وخيرٍ، وهو الغاية في كل نُبل وسمو.

ومن كرمه ﷺ أنّه لم يكن على بابه حُجّاب، ولا على سُفرته بوّاب، بل كان يدخل عليه وقت طعامه القريب والغريب، والمُقيم والمُسافر، والغني والفقير، فكان ﷺ يُرحّب بالجميع، ويُكرمهم، ويُشاركهم الطّعام على مائدته، وعند أحمد وأبي داود من حديث المغيرة بن شعبة (رضي الله عنه) أنّه دخل على النّبي ﷺ، فشوى له ﷺ جنب شاةٍ، وأخذ يُقطّع له من اللّحم لطفًا منه وكرمًا عليه الصّلاة والسّلام.

ومن كرمه ﷺ أنّه كان يُثيبُ على الهديّة ويردّ عليها بأحسن وأثمن وأنفس منها، ولا يقبل منّة من أحد، وكان يحفظ الجميل لمن أسداه، ويحث النّاس على ذلك فيقول ﷺ: «**مَنِ استعاذَ بالله فأعيذوهُ، ومن سألَكُم بالله فأعطوهُ، ومَنِ استجارَ بالله فأجيروهُ، ومَن أتى إليكُم معروفًا فَكافئوهُ، فإن لم تَجِدوا فادعوا لَهُ حتَّى تعلَموا أن قد كافأتُموهُ**» [رواه أبو داود].

ومن كرمه ﷺ وسخائه أنّه لم يدّخر يومًا درهمًا ولا دينارًا، ولم يكن له خزانة لماله، ولا حقيبة لدراهمه، إنّما ينطلق الدّرهم من كفّه الشّريف انطلاقًا إلى صاحب الحاجة:

إنّا إذَا اجتمعتْ يومًا دراهمُنا ... ظلّتْ إلى طُرقِ المعروفِ تَستَبقُ

ومن كرمه ﷺ أنّه كان يشتري السّلعة من صاحبها ويزيد في ثمنها، وأحيانًا بعد أن يشتريها ﷺ يُعيدها إلى صاحبها ومعها ثمنُها، كما جاء عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِالله (رضي الله عنهما)، قَالَ: **كُنَّا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ فِي سَفَرٍ، فَاشْتَرَى مِنِّي بَعِيرًا، فَجَعَلَ لِي ظَهْرَهُ حَتَّى أَقْدَمَ الْمَدِينَةَ،** «**يعني ركوب ظهر البعير إلى المدينة**»، فَلَمَّا قَدِمْتُ أَتَيْتُهُ بِالْبَعِيرِ، فَدَفَعْتُهُ إِلَيْهِ، وَأَمَرَ لِي بِالثَّمَنِ، ثُمَّ انْصَرَفْتُ، فَإِذَا رَسُولُ الله ﷺ قَدْ لَحِقَنِي، قَالَ: **قُلْتُ: لَعَلَّهُ قَدْ بَدَا لَهُ**، قَالَ: **فَلَمَّا أَتَيْتُهُ، دَفَعَ إِلَيَّ الْبَعِيرَ**، وَقَالَ: «**هُوَ لَكَ**»، **فَمَرَرْتُ بِرَجُلٍ مِنَ الْيَهُودِ، فَأَخْبَرْتُهُ**، قَالَ: **فَجَعَلَ يَعْجَبُ**، وقَالَ: **اشْتَرَى مِنْكَ الْبَعِيرَ، وَدَفَعَ إِلَيْكَ الثَّمَنَ، وَوَهَبَهُ لَكَ؟**، قَالَ: قُلْتُ: **نَعَمْ**. [رواه أحمد].

ولقد تميّز ﷺ بكرم خاص لم يفعله أحد قطّ على مرّ الدّهر من البشر - إلّا الرّسل عليهم الصّلاة والسّلام - إنّه كرم الهداية الرّبانية، وكرم السّخاء المحمديّ، حيث أهدى علمه ونوره لأمّته فأخرجهم من الظّلمات إلى النّور، وردّهم من الضّلال إلى الهدى، ومن الغيّ إلى الرّشد، واستنقذهم من النّار إلى الجنّة، فهل فوق هذا الكرم من كرم؟! مهما بذل الباذلون على مدى الدّهر، وطول فترات التاريخ لا يساوي ذلك ذرةً من كرمه ﷺ في هداية البشريّة وتعبيدهم لربّ البريّة جلّ في علاه.

ومن جميل اللّفتات، وأروع الوقفات، أنّ كلّ كريم في الأمّة الإسلاميّة أراد بكرمه وجه الله فإنّما إمامه سّيد الكرماء ﷺ، فهو الذي علّمه وحثّه على البذل والعطاء بما أُوتيه من وَحيٍ مُقدّس.

وفي كرمه ﷺ ملمحان عظيمان لم يجتمعا في جواد ولا كريم قط ﷺ: الأول كرمه ﷺ بما في يده قلّ أو كثر، والثاني زهده ﷺ فيما عند النّاس، وبعض الكرماء إذا بذلوا أموالهم طمعوا في المقابل، أو تحقيق مكاسب للوصول إلى امتيازات وفرص للثراء والتّطلع لزيادة المغانم، ومنهم من يدّخر أصول أمواله فيجود بالأرباح دون أصل المال، أو يبذل جزءًا من أمواله كالعُشر مثلًا أو التُسع أو الثُمن أو أقلّ أو أكثر، أمّا رسول الله ﷺ فقد بذل ماله كلّه، وعمله كلّه، وطعامه كلّه، وجاهه كلّه، حتى إنّه لم يترك من ماله بعد موته لا قليلًا ولا كثيرًا، بل كان يجوع ليشبَعَ الآخرون، فلا يمرّ بخاطره طمع ولا جشع؛ لأنّ الله صانه، وعصمه، وحصّن سمعه وبصره، وطهّر فؤاده.

وكان كرمه ﷺ خاليًا من النّقائص والشّوائب، فلا يمنّ إذا أعطى، ولا ينتظر عوضًا ولا خلفًا إذا بذل، ولا يُريد مديحًا، بل يُنفق ويُكرم لوجه مولاه، ويُعطي ويبذل لما عند الله، كرمًا، خالصًا، طاهرًا، طيبًا، بريئًا من كل نقيصة وعيب، ومَا من صحابيّ من صحابته ﷺ إلّا وقد ناله نوعٌ من كرمه عليه الصّلاة والسّلام، فبعضهم أكرمه ﷺ بولاية أو منصب، أو مُهمّة أو مال، أو دعوة طيبة، أو طعام أو شراب، أو اختصاص أو تمييز، أو تقديم أو حفاوة أو بُشرى، حتى إنّ بعضهم فرح ببشارة بشّره بها النّبي ﷺ فكانت عنده أعظم من الدّنيا وما فيها، كما جاء عن عَمْرِو بْنِ تَغْلِبَ (رضي الله عنه): أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ أُتِيَ بِمَالٍ أَوْ سَبْيٍ فَقَسَمَهُ، فَأَعْطَى رِجَالًا وَتَرَكَ رِجَالًا، فَبَلَغَهُ أَنَّ الَّذِينَ تَرَكَ عَتَبُوا، فَحَمِدَ الله، ثُمَّ أَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «**أَمَّا بَعْدُ، فَوَالله إِنّي لَأُعْطِي الرَّجُلَ، وَأَدَعُ الرَّجُلَ، وَالَّذِي أَدَعُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الَّذِي أُعْطِي، وَلَكِنْ أُعْطِي أَقْوَامًا لِما أَرَى فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الجَزَعِ وَالهَلَعِ، وَأَكِلُ أَقْوَامًا إِلَى مَا جَعَلَ الله فِي قُلُوبِهَمْ مِنَ الغِنَى وَالخَيْرِ، فِيهِمْ عَمْرُو بْنُ تَغْلِبَ،** قال عمرو: **فَوَ الله مَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِكَلِمَةِ رَسُولِ الله ﷺ حُمْرَ النَّعَمِ**» [رواه البخاري].

وكان ﷺ وهو يُكرم ويُعطي ويجود يجلس مع الفقراء على المائدة التي يُقدّمها لهم، ويُشارك المساكين الطّعام الذي يجود به، بينما تجد البعض من المترفين والكُبراء لهم مجلس خاص وطعام خاص، وإذا شبعوا وشبعت أسرُهم وخدمهم بدؤوا بإعطاء فضول أموالهم، وبقايا طعامهم للفقراء والمساكين دون أن يخالطوهم أو يجلسوا معهم أو يُؤثروهم، فشتّان بين هذا الكرم وذاك.

وبخلاف كثير من الكُرماء الذين يريدون السّؤدد وعلو المنزلة في الدّنيا، أو يطمحون إلى انقياد النّاس لهم والاستعانة بهم في بناء جاههم وأمورهم الدّنيوية ومطالبهم الأرضيّة، كان رسول الله ﷺ يريد بكرمه ما عند الله، ومقصوده أن يُعيد النّاس إلى ربّ العالمين، وأن يؤلّف بين قلوبهم، ويُعبّدهم لمولاهم وخالقهم، ويدعوهم إلى جنّات النّعيم، وينقذهم من النّار، فلم يُردْ ﷺ مُلكًا دُنيويًّا، ولا منصبًا أرضيًّا، ولا شهرة ولا جاهًا عند الخلق؛ لأنّ الله أعطاه أعظم من ذلك، فقد أعطاه الله المقام المحمود، الذي يغبطه عليه الأولون والآخرون، وأعطاه الحوض المورود، الذي يَرِدُ عليه الواردون، وأعطاه اللّواء المعقود الذي يُحشر تحته الوافدون، فأيّ كرم أعظم من كرم خاتم الأنبياء، وسيّد الأولياء، وإمام الأتقياء، وقدوة العلماء، فما أعظمها من مكانة! وما أجلّها من زُلفى! فكرمه يختلف تمامًا عن كلّ كرم رُوي عن إنسانٍ أو أُثر عن مخلوق، يقول عبدالله بن عباس (رضي الله

عنهما)، عن كرمه وجوده ﷺ: «**كانَ النّبيُّ ﷺ أجْوَدَ النَّاسِ بالخَيْرِ، وكانَ أجْوَدَ ما يَكونُ في رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ، وقال: كانَ ﷺ أجْوَدَ بالخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ المُرْسَلَةِ**» [متفق عليه].

سبقتَ بالجودِ جَود الرّيح مُرسلةً	أسْخى من البحْر بلْ أندَى من المطرِ
ففاضَ بِرّك حتّى عمَّ نائلُه	طوائفَ النَاس مِن بدوٍ ومِن حَضرِ
أسرت بالجودِ أعناقًا وأفئدةً	فكنتَ منها محلّ السّمع والبصرِ
لَا زالَ إحسَانُك السّامي يُطوّقنا	منْ فضل ربّك نُور الآي والسّورِ





مُحَمَّدٌ ﷺ مُتَفَائِلًا

منذ فجر دعوته، وبداية بعثته، وهو يثق في خالقه، ويُحسن ظنّه بمولاه، ويتطلّع للغد المُشرق، ويتفاءل ﷺ بالمُستقبل الواعد، حياته عامرة بالتّفاؤل، وروحه مُشرقة بالأمل، بَشّره ربّه بالانشراح المنشود، والفأل الميمون فقال له: {أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ} [الشرح: الآية 1]، شرح اللهُ صدره فكان واسعًا رحبًا، يُشرق بالنّور، ويتّسع لكل مواقف الدّنيا، بل من أجمل الفأل في حياته ﷺ اسمه الجميل: «مُحمّد»، فإنّه جمع المحامد في هذا الاسم، كما قيل:

وشقّ لهُ من اسمِهِ ليجلّهُ ... فذو العرشِ محمودٌ، وهذا محمّدُ

نَبِيٌّ أَتَانَا بَعْدَ يَأْسٍ وَفَتْرَةٍ ... منَ الرّسلِ، والأوثانُ في الأرضِ تعبدُ

كان ﷺ رائق البشر، دائم التّفاؤل، جميل البسمة، لا يعرف الإحباط ولا الانكسار، بل المواصلة والاستمرار. لمّا جاءه مَلَك الجبال، وعرض عليه أن يُطبق على مَن آذوْه الأَخْشَبَين (جبلين بمكة) قال ﷺ بكل أمل وتفاؤل: «**بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ الله مِن أَصْلَابِهِمْ مَن يَعْبُدُ الله وَحْدَهُ لا يُشْرِكُ به شيئًا**» [مُتفق عليه]. ووقع ذلك بفضل الله ورحمته، وبركة تفاؤل نبيّه ﷺ، وحُسن ظنّه بمولاه.

ومنذ انطلاقة رسالته الميمونة، وركبه المُبارك، وعزيمته ﷺ ماضية، وهمّته متوقّدة، يملأ تفاؤله صدر الزّمان، ويشعّ أمله في الوجدان، يَعِدُ أصحابه بنصر مجيد، وفتحٍ مُبينٍ، ومُستقبلٍ واعدٍ، يفيضُ ببرد تفاؤله على قلوبهم في شدّة الأزمات وتتابع الكُرُبات، فيُبشّرهم بأنّ الدّنيا سوف تُفتح لهم، وأنّ العاقبة للمُتّقين، وأنّ النّصر لهذا الدّين العظيم، وقد كان والحمد لله.

يُؤذى ﷺ في مكة، ويُضيّق عليه، ويُعَذّب أصحابه، فيقول بكل تفاؤل وثقة بربّه: «**والله ليتِمنَّ الله هَذا الأَمْر حتَّى يسِير الرَّاكِبُ مِنْ صنْعاءَ إِلى حَضْرَمَوْتَ لا يخافُ إِلّا اللهَ والذِّئْبَ عَلَى غنَمِهِ، ولكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ**» [رواه البخاري].

فتفاءلَ ﷺ أنّ دينه سوف ينتشر، وانتشر برحمة الله، وتفاءل ﷺ أنّ النّاس سوف يُقبلون على الإسلام أفرادًا وجماعات، فدخلوا في دين الله أفواجًا والحمد لله، واستقبل وفود العرب من كلّ حدبٍ وصوبٍ، وصدق قول الباري سبحانه: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا} [سورة النصر: الآية 1- 3].

وتفاءل ﷺ أنّ الإسلام سيبلغ ما بلغ اللّيل والنّهار، وقد بلغ ذلك بفضل الله، ووالله لقد رأيتُ ذلك بعيني وأنا فرد من أفراد أمّته، وخادم من خدّام رسالته، يوم سافرت إلى شرق الصّين في مقاطعة «لانجو»، ويوم وصلت إلى غرب الكرة الأرضية «نيس» و«كان» في فرنسا، رأيت المُصلّين والخُطباء، والأئمّة والعلماء، جميعهم من طلّاب دعوته، ومن حملة رسالته ﷺ.

وتفاءل ﷺ في أصعب المواقف وأشدّ الأزمات، فعندما اختبأ ﷺ في غار ثور ومعه صاحبه الصّديق (رضي الله عنه)، ووصل المشركون إلى الغار ومعهم السّيوف تقطر موتًا وحقدًا وسُمًّا زُعافًا، وطوّقوا الغار يبحثون عن النّبي ﷺ للفتك به، ولكنه ﷺ كان في أمان الله، ورعاية الله، وحفظ الله، قد أنزل الله عليه السّكينة، وعمّر قلبه بالثّقة به، والتّوكل عليه، وتفويض الأمر إليه سُبحانه، فهو في جنّة من الأنس والرّضا، لا يشعر بأيّ قلق، ولا خوف، ولا همٍّ ولا حزن؛ ولهذا وصف ربّ العالمين هذا المشهد فقال تعالى: {إِلاَّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [التوبة: الآية 40].

ويقول أبو بكر الصّديق (رضي الله عنه) - واصفًا هذا المشهد الصّعب -: قُلتُ للنبيِّ ﷺ: وأنا في الغارِ: لو أنَّ أحَدَهُمْ نَظَرَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ لَأَبْصَرَنا، فَقالَ: «**ما ظَنُّكَ يا أبا بَكْرٍ باثْنَيْنِ الله ثالِثُهُما**» [متفق عليه].

إنّ كلمته ﷺ: «**ما ظَنُّكَ باثْنَيْنِ الله ثالِثُهُما**» تُغني عن عشرات المؤلفات، ومئات المُصنّفات، وكل المُحاضرات التي قيلت في التّفاؤل، فكانت الثّقة بالله عَتَاده، والتّوكل على الله زادُه، وهو يقول

لصاحبه: {لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا}، فقل لي بالله: أيّ كلمة في الكون أكثر تفاؤلًا من: {لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا}!؟ وأيّ جملة أعذب في أذن الدّنيا من جملة: {لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا}!؟ وأيّ رسالة أرقّ وألطف وأكثر إشراقًا وأملًا من رسالة: {لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا}!؟ وأيّ برقية عاجلة كلّها طمأنينة واعتماد على الله وتفويض إليه أعظم من برقية: {لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا}!؟

لقد عاش ﷺ التّفاؤل وهو يُصارع الأعداء ويُنازل الأقران، فبعد أن تهيّأت قريش لمُحاربته بجيش قوامه ألف مقاتل مدجّجين بالسّلاح ومعهم المؤن والإبل والخيل، التجأ ﷺ مباشرة إلى الله، وقام يدعوه سبحانه ويناجيه ويسأله حتى سقط رداؤه من على كتفيه ﷺ، فأتَاهُ أَبُو بَكْرٍ فأخَذَ رِدَاءَهُ، فألْقَاهُ علَى مَنْكِبَيْهِ، ثُمَّ التَزَمَهُ مِن وَرَائِهِ، وَقالَ: «**يا نَبِيَّ الله، كَفَاكَ مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ، فإنَّه سَيُنْجِزُ لكَ ما وَعَدَكَ**»، فأنْزَلَ الله عَزَّ وَجَلَّ: {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ مُرْدِفِينَ} [الأنفال: الآية 9] [رواه مسلم].

واستمرّ ﷺ على مناشدة ربّه، وفي الصّباح ومع إطلالة الفجر الباهي الجميل أطل ﷺ بوجهه الأجمل، وبسمته الرّائعة الرّائقة يُبشّر أصحابه بكل تفاؤل وثقة في الله، ويقول فيما صح عنه: «**سيروا على بركةِ الله وأبشروا، فإنَّ الله قد وعدني إحدَى الطَّائفتين، والله لكأنّي أنظرُ الآن إلى مصارعِ القومِ غدًا**». ذكره ابن هشام في [السيرة]. وقال تعالى عن هذا المشهد: {وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ * لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ} [الأنفال: الآية 7- 8].

إنّ هذه الآية الكريمة تُلخّص كلّ المشهد، وتُبيّن نتيجة المعركة، وتُقدّم أروع بُشرى للصّحابة، فقد امتلأت صدورهم طمأنينة وثقة بالله، وزيادة في البُشرى يُنزّل الله الغيث من السماء، كما قال سبحانه: {إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ} [الأنفال: الآية 11]. فنزل الغيث وشربوا وتوضؤوا واغتسلوا، وربط اللهُ على قلوبهم وثبّت أقدامهم، وقام ﷺ يتصرّف تصرُّف المُنتصر الذي حُسمت له نتيجة المعركة قبل أن تبدأ، ثمّ بدأت المعركة، وشاركت الملائكة في نصره ﷺ، وتمّ النّصر والحمد لله في ذاك اليوم يوم الفُرقان، وكان أوّل انتصار كاسح للإسلام، وبعدها توالت الانتصارات والفتوحات حتى أعزّ الله دينه، وأعلى كلمته، وأتمّ نعمته.

لم يعترف ﷺ باليأس أبدًا، وكيف يقنط وييأس وهو المُنزّل عليه: {وَلاَ تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ} [يوسف: الآية 87]، فكان ﷺ أبعد النّاس من ذلك، وعلّم أصحابه حُسن الظّن بالله، والتّفاؤل بموعوده، والتّوكل عليه.

ومن أروع وأجمل مواقف تفاؤله ﷺ هذا الموقف الذي طاف بوجداني وعقلي ومُخيلتي، وكأنّني انتقلت بروحي إلى الخندق، وإلى هذا المشهد العظيم حيث يحفر نبيّ الرّحمة الخندق مع أصحابه، وقد أخذ منهم الجوع والتّعب والإعياء كل مأخذ، وطُوّقوا بجيش عرمرم من الأحزاب (كُفّار قريش، واليهود، وبعض قبائل العرب)، وبلغت بهم الضّائقة لدرجة أنّ القرآن الكريم نقل لنا بدقّة صورة ذلك الضّيق الشّديد الذي نزل بهم، فقال سُبحانه وتعالى: {إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا} [الأحزاب: الآية 10 - 11].

إنّ هؤلاء الحُفاة الجائعين الضُعفاء الفقراء المُتعبين الذين يحفرون الخندق بآلاتهم البدائية، ويتساقط التّراب على ثيابهم، ويتناثر الغبار على رؤوسهم وكأنّهم يحفرون قبورهم، والموت يترصّدهم ذات اليمين وذات الشّمال، وهم في ضيق لا يعلمه إلّا الله، حيث نزل بهم الكرب، وأحاط بهم الخطب، يتمنّى الواحد منهم كسرة خبزٍ من شدّة الجوع، وإذْ بنبيّ الله ﷺ يُفجّر لهم الأمل والنّور، ويُخرج لهم التّفاؤل من بين الحجارة والصّخور، فيقول عبدالله بن عباس (رضي الله عنهما): **احتفر رسول الله ﷺ الخندق وأصحابه قد شدّوا الحجارة على بطونهم من الجوع ثمّ مشوا إلى الخندق،** فقال: **اذْهَبُوا بِنَا إِلَى سَلْمَانَ، فَإِذَا صَخْرَةٌ بَيْنَ يَدَيْهِ قَدْ ضَعُفَ عَنْهَا،** فَقَالَ نَبِيُّ الله ﷺ لِأَصْحَابِهِ: «**دَعُونِي فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ ضَرَبَهَا**»، فَقَالَ: «**بِسْمِ الله**» فَضَرَبَها فَوَقَعَتْ فِلْقَةٌ ثُلُثُهَا، فَقَالَ: «**الله أَكْبَرُ قُصُورُ الرُّومِ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ**»، ثُمَّ ضَرَبَ بِأُخْرَى فَوَقَعَتْ فِلْقَةٌ فَقَالَ: «**الله أَكْبَرُ قُصُورُ فَارِسَ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ**»، فَقَالَ: «**عِنْدَهَا الْمُنَافِقُونَ: نَحْنُ نُخَنْدِقُ عَلَى أَنْفُسِنَا وَهُوَ يَعِدُنَا قُصُورَ فَارِسٍ وَالرُّومِ**» [رواه الطبراني].

وكأنّ هذا التّفاؤل وهذه البشرى من خير الخلق ﷺ سحابة غيث تحمل معها الماء العذب الزّلال البارد في شدّة الظّمأ، ويقول ﷺ: «**إِنَّ الله زَوَى لِي الأَرْضَ، فرأَيْتُ مَشارِقَها ومَغارِبَها، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ**» [رواه مُسلم].

هذه النّقلة النّوعية من الثّرى إلى الثّريا، ومن حفر خندقٍ بسيط باليد إلى الانتصار على أعظم دولتين على وجه الأرض في تلك الفترة، والحصول على كنوزهما، لم يتصوروها ولم يُصدّقها إلّا المؤمنون الصّادقون الموقنون من أصحابه رضوان الله عليهم، الذين انتقلوا بعد هذه البشارة إلى حالة من الرّضا والسّكينة والبشر والطّمأنينة، وصارت تتلألأ وجوههم، وتكاد أرواحهم تطير فرحًا وسرورًا بهذا الأمل وهذه البشرى ويرددون ما جاء في القرآن حكاية عنهم: {هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَاناً وَتَسْلِيمًا} [الأحزاب: الآية 22].

أمّا المنافقون فأخذوا يُردّدون مع الشّك والتّشاؤم وسوء الظّن بالله ما جاء في القرآن حكاية عنهم: {مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا} [الأحزاب: الآية 12]، ويقولون باستهزاء وسُخرية: «الواحد منّا لا يستطيع قضاء حاجته من الخوف وهو يعدنا قصور فارس والرّوم!»؛ لأنّهم نظروا بنظر الشّك والرّيبة، ولكن رسول الله ﷺ دمغهم بمنطق الوحي فحلّت البُشرى، ووقع ما أخبر ﷺ، وتحقّق أمله، وصحّت نبوّته، بعد سنوات معدودات، ودخلت جيوش الإسلام أرض فارس والرّوم مُهلّلة مُكبّرة، وسجد الصّحابة في إيوان كسرى، وفي معقل هرقل.

فانظر إلى النّفوس المتفائلة والمتشائمة في مشهد واحد، يقول تعالى: {وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ} [التوبة: الآية 124 - 125]، فالآيات واحدة، والتّنزيل واحد، والمشهد واحد، والمكان واحد، والزّمان واحد، ولكنّ النّفوس اختلفت، هناك نفوس تثق في الله، وتؤمن به، وتتوكّل عليه، فآتاها اللهُ الأمل والفأل الحسن والبُشرى، ونفوس منكوسة مظلمة تظنّ بالله ظنّ السّوء، وتكفر بدينه، وتكذّب رسوله ﷺ فعاقبها الله في الدّنيا بالخِزي والعار، وفي الآخرة بالطّرح في النّار.

ولئن كان موسى عليه السّلام ضرب الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عينًا من الماء، فإنّ رسولنا ﷺ انبجست له السّماء، ورحّبت به الغبراء، وبلغ دينه مبلغ الصّباح والمساء، بشّر وهو يحفر الخندق، بفتح مُحقّق، ونصر مُصدّق، فبلغ دينه المغرب والمشرق، فإذا اشتدّ ظلام الليل وُلد الفجر، وإذا تلبّدت السّماء بالغيوم نزل القطر؛ لأنّ اليُسر مع العسر.

ويقف ﷺ على المنبر وأمامه الصّحابة الكرام، ثم يأتي سبطه الحسن بن علي وفاطمة (رضي الله عنهم)، فيُجلسه ﷺ معه على المنبر وهو طفل صغير وينظر إلى النّاس ويقول: «**إِنَّ ابْنِي**

هذا سَيِّدٌ، ولَعَلَّ الله أنْ يُصْلِحَ به بيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ» [رواه البخاري].

وكأنّه ﷺ يُطالع الغيب من ستر رقيق، ويتفاءل لهذا الطّفل أن يكون سببًا لحقن دماء المسلمين، ودَرْءِ الفتنة، وإنْهاء التّقاتل بين طوائف الأمة الإسلاميّة، وهو ما حصل- والحمد لله- لهذا الإمام الكريم الحسن بن علي (رضي الله عنهما) حيث تنازل عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان (رضي الله عنهما) فهدأت الفتنة، وحُسم الشّر من أصله.

وقد صاحبَه ﷺ التّفاؤل والبُشرى حتّى في منامه، كما روتْ أمّ حرام بنت ملحان -وكانت من محارمه- (رضي الله عنها) ، فتقول: «نَامَ النّبيُّ ﷺ يَوْمًا قَرِيبًا مِنِّي، ثُمَّ اسْتَيْقَظَ يَتَبَسَّمُ، فَقُلتُ: **ما أَضْحَكَكَ؟** قالَ: **أُنَاسٌ مِن أُمَّتي عُرِضُوا عَلَيَّ يَرْكَبُونَ هذا البَحْرَ الأخْضَرَ كَالملُوك علَى الأسِرَّةِ،** قالَتْ: **فَادْعُ الله أَنْ يَجْعَلَنِي منهمْ فَدَعَا لَها**، ثُمَّ نَامَ الثَّانِيةَ، فَفَعَلَ مِثْلَهَا، فَقالَتْ مِثْلَ قَوْلِهَا، **فأجابها مِثْلَهَا** فَقالَتْ: **ادْعُ الله أَنْ يَجْعَلَنِي منهمْ**، فَقالَ: **أَنْتِ مِنَ الأوَّلِينَ**» [متفق عليه].

يا الله حتى رُؤاه ﷺ تفاؤل وأمل، وبُشرى، ويُحققها الله يقظة، ويقع ما أخبر به ﷺ، فقد سار هذا الجيش ومعه الصّحابي الجليل عبادة بن الصامت وأم حرام بنت ملحان زوجته (رضي الله عنهما)، وآلاف المؤمنين الأبرار يعبرون البحر إلى جزيرة قبرص، وهم يحملون كلمة الأمن والسّلام والإيمان: «أشهد أن لا إله إلّا الله وأنّ محمدًا رسول الله»، فلله الحمد على إتمام النّعمة، وإكمال الدّين، وتحقيق البُشرى النّبوية.

ومن تفاؤله ﷺ حبّه للأسماء التي تحمل البُشرى والخير والتفاؤل، وفيها معاني الحياة والنّماء والبركة، ونهى عن التّسمية بالأسماء القبيحة أو الدّال معناها على شيء مكروه كالتّشاؤم أو الحرب أو الشّر أو الخوف أو الحزن أو المصائب، ونحو ذلك، فعن أبي وهب الجشمي (رضي الله عنه) أنّه ﷺ قال: «**أحبُّ الأسماءِ إلى الله عبدُالله، وعبدُالرحمنِ، وأصدُقُها: حارثٌ، وهَمَّامٌ، وأقبَحُها: حَرْبٌ، ومُرَّةُ**». [رواه البخاري في الأدب المُفرد].

فأخذ ﷺ من الأسماء الأمل، والصّدق، وحُسن الطالع، والفأل المحمود، والنتائج الجميلة، والثّمار المُباركة، ودلّ على أنّ أحب الأسماء إلى الله ما عُبّد باسمه جلّ في عُلاه، كعبدالله وعبدالرحمن، وأقبحها: (حربٌ ومُرّة)؛ لأنّ دينه ﷺ دين السّلام والعدل والأمن والإيمان، والحرب ضد ذلك، و(مرّة) ضد الحلو الطّيب الذي يعارض دين الإسلام الذي أعلاه حلاوة، وأسفله طلاوة،

وغيّر ﷺ اسم امرأة كما جاء في «صحيح مسلم» كانت تُدعى: (عاصية)، فجعل اسمها: (جميلة)؛ لأنّه ﷺ جاء بالدّين الجميل، والنّهج الجميل.

وسأل رسول الله ﷺ رجلًا: «**ما اسْمُكَ؟**، قالَ: اسْمِي حَزْنٌ، فقالَ ﷺ: **بَلْ أنْتَ سَهْلٌ**» [رواه البخاري]؛ لأن شريعته ﷺ سهلة ميسّرة. وفي يوم الحديبية، لمّا أرسل كفار قريش مندوبين للنّبي ﷺ وكان آخرهم سهيل بن عمرو قال ﷺ للصّحابة مُتفائلًا: «**لقَدْ سَهُلَ لَكُمْ مِن أمْرِكُمْ**» [ذكره البخاري مرسلًا].

ولمّا قَدِمَ ﷺ إلى المدينة كان اسمها: (يثرب)، فغيّر اسمها إلى: (طيبة)؛ لأنّ التّثريب هو التّشنيع والتّبكيت والتّوبيخ، ولكن طيبة اسم رائع جميل حسن يدل على الخير والنّماء والطّيب في كل شيء.

وروى مُسلم عن سمرة بن جندب (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تُسَمِّيَنَّ غُلامَكَ: يَسَارًا، وَلا رَباحًا، وَلا نَجاحًا، وَلا أفْلَحَ، فإنَّكَ تَقُولُ: أثَمَّ هُوَ ؟ فَلا يَكُونُ، فَتَقُولُ: لا، إنَّمَا هُنَّ أَرْبَعٌ فَلا تَزِيدونَ عَلَيَّ**».

ومعنى الحديث أنّك إذا سمّيت بهذه الأسماء فإنّك تقول مثلًا: أفي البيت يسار، فيُقال لك: لا، فيقع التشاؤم بأنّ فيه عسرًا، أو تقول: أرباح موجود؟ فيقولون: لا، فتحلّ في المقابل الخسارة، ونحو ذلك، وهذا لحرصه ﷺ على حسن الطّالع وجميل التّفاؤل، فأغلقَ كل الأبواب الموصلة إلى الإحباط، والتّذمّر، والتّشاؤم، والتّطير، وكان يشتق ﷺ من الأسماء كلّ حسن وجميل لينشرها بُشرى في الحياة، فعن أنس (رضي الله عنه)أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ **أَتَى خَيْبَرَ لَيْلًا وَكَانَ إِذَا أَتَى قَوْمًا بِلَيْلٍ لَمْ يُغِرْ بِهِمْ حَتَّى يُصْبِحَ فَلَمَّا أَصْبَحَ خَرَجَتِ الْيَهُودُ بِمَسَاحِيهِمْ وَمَكَاتِلِهِمْ فَلَمَّا رَأَوْهُ قَالُوا مُحَمَّدٌ وَالله، مُحَمَّدٌ وَالْخَمِيسُ!-يعني الجيش-** فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**خَرِبَتْ خَيْبَرُ**» [متفق عليه].

فانظر كيف اشتقّ ﷺ من اسم بلدهم الشّؤم، وهو أشبه بالجناس: «خَرِبَتْ خَيْبَرُ»، ثم تفاؤله ﷺ لمّا شاهد آلات الهدم بأيديهم كالمسحاة ونحوها التي تسحو الأرض فأخبر بأنّ أمر يهود خيبر إلى دمار، وأنّ قوتهم إلى انكسار، وأنّه عليه الصّلاة والسّلام وأصحابه إلى الانتصار.

وفي صلح الحديبية كان ظاهر الصّلح أنّه تنازل منه ﷺ في قضايا كثيرة، فَجَاءَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ (رضي الله عنه)، إلى رَسُولَ الله ﷺ فَقَالَ:«**يَا رَسُولَ الله أَلَسْنَا عَلَى حَقٍّ وَهُمْ عَلَى بَاطِلٍ؟**

قَالَ: **بَلَى** قَالَ: **أَلَيْسَ قَتْلَانَا فِي الْجَنَّةِ وَقَتْلَاهُمْ فِي النَّارِ؟** قَالَ: **بَلَى** قَالَ: **فَفِيمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ في دِينِنَا وَنَرْجِعُ وَلَمَّا يَحْكُمُ اللهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ؟** فقَالَ: **يَا ابْنَ الْخَطَّابِ إِنِّي رَسُولُ الله وَلَنْ يُضَيِّعَنِي اللهُ أَبَدًا، فَنَزَلَ الْقُرْآنُ عَلَى رَسُولِ الله ﷺبِالْفَتْحِ فَأَرْسَلَ إِلَى عُمَرَ فَأَقْرَأَهُ إِيَّاهُ:** {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِيناً * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا * وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا} [الفتح: الآية 1- 3]، فَقَالَ: **يَا رَسُولَ الله أَوَفَتْحٌ هُوَ؟**، قَالَ: **نَعَمْ. فَطَابَتْ نَفْسُهُ وَرَجَعَ**» [مُتّفق عليه].

وهنا تحقّق تفاؤله ﷺ بالوحي، وبشّر عُمرَ (رضي الله عنه) بالفتح، بعد أن جمع الله له في هذه السّورة، الفتح، والمغفرة، وإتمام النّعمة، والهداية الكاملة، والنّصر المُبين، كل هذا في سطر واحد، ورغم كلّ شروط الصّلح المجحفة الجائرة إلّأ أنّه ﷺ كان ينظر إلى العواقب الحميدة بروح التّفاؤل والثّقة في نصر الله، ويرى أنّه سوف يعود إلى مكة منتصرًا، وستُرفع راية التّوحيد، وتُهزم راية الشّرك، ويعلو الحق، ويُزهق الباطل، كأنّه يرى ذلك رأي العين أمَامه مباشرة؛ لأنّ معه نور الوحي وعصمة النّبوة ورعاية الله، فكل خطوة من خطواته ﷺ أمل، وكل مشروع من مشاريعه نجاح، وكل كلمة من كلماته بُشرى، وكل خاتمة لأي عمل يعمله فتح، وفي قوله : «**لَنْ يُضَيِّعَنِي اللهُ أَبَدًا**»، غاية الثّقة بربّه، وكامل التّوكل والاعتماد على مولاه، فكانت النّتيجة النّصر المُبين، والفتح القريب.

إنّ كلمته ﷺ: «**لَنْ يُضَيِّعَنِي اللهُ أَبَدًا**»، هي توقيع ربّاني، وشهادة تفاؤل نبويّة، لو امتثلها كلّ مؤمن في الحياة، وجعلها دستورًا له في كل موقف، لأفلح وأجح، فردِّدْها في كلّ أزمةٍ، وثق بربّك حين يمرّ بك الكرب والفقر والمرض والشدّة، وقُلْ بإيمان وثبات: «**لَنْ يُضَيِّعَنِي اللهُ أَبَدًا**»، حينها يكون الله معك، وتكون العاقبة الحسنة لك.

وحثّ ﷺ كل مؤمن ومؤمنة على التّفاؤل وحُسن الظّن بالله، وبشّرنا أنّنا في خير مع أيّ حال نزلت بنا، من ضراء أو سراء، أو شدة أو رخاء، أو صحة أو مرض، أو غنى أو فقر، فقال ﷺ: «**ما مِن مُصِيبَةٍ يُصابُ بها المُسْلِمُ، إلّا كُفِّرَ بها عنْه حتّى الشَّوْكَةِ يُشاكُها**» [متفق عليه].

فأيّ أمل فوق هذا الأمل؟ وأيّ فأل حسنٍ أعلى من هذا الفأل؟ خسائرك وأرباحك وهمومك وسرورك كلّها في صالحك. فالحمد لله على هذا الدّين الميسّر السّمح السّهل، وأخبر ﷺ بأنّ

للمتفائلين أجرًا ومثوبة عند الله، فصح عنه ﷺ أنّه قال: «**تَبَسُّمُكَ في وجْهِ أخِيكَ لَكَ صدَقةٌ**» [رواه الترمذي].

البسمة التي لا تُباع ولا تُشترى، وإنّما تفتر عن أسنان باسمة بالبِشْر، وشفاه واعدة بالأمل يُؤجر عليها صاحبها؛ لأنّه يوم يتبسّم لأخيه يُشعره أنّ الدّنيا بخير، وأنّ النّاس طيبون، وأنّ الغد أجمل، والقادم أفضل، بل جعل رسول الله ﷺ تفاؤل المؤمن سببًا لتحقق أمانيه بإذن الله؛ لأنّه توقّع الأجمل من الله فأكرمه الله بما تمناه وما رجاه، فقد صحّ عنه ﷺ أنّه دخل على شابٍ وهو في الموتِ، فقال: كيف تجدُك؟ قال: والله يا رسولَ الله إنّي أرجو اللهَ، وإني أخاف ذنوبي، فقال ﷺ: «**لا يجتَمِعانِ في قلبِ عبدٍ في مثلِ هذا الموطِنِ إلّا أعطاهُ الله ما يرجو وآمنَهُ ممّا يخافُ**» [رواه الترمذي].

والرّجاء هو التّفاؤل بمغفرة الله ورحمته ورضوانه، وهو الأمل الموصل لرضا الله ونعيم جنانه، لقد جمع لنا نبيّنا الكريم ﷺ التّفاؤل كلّه، وحُسن الطالع أجمعه، والأمل أوله وآخره في جملة واحدة، يقول عليه الصّلاة والسّلام عن الله عزّ وجل أنّه قال: «**أنا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بي**» [متفق عليه].

هل هناك كلام يوفّي أو يشرح هذه الكلمة العظيمة الجليلة التي تصل إلى قلوب الناس مباشرة؟!

إذا ظننت بالله الخير، وأنّه أجود الأجودين، وأكرم الأكرمين، وأرحم الراحمين، فأبشر بالنّتائج الجميلة الواعدة الرّائعة، وعلى الضّد من ذلك فمن ظن بالله سوءًا أو شرًا -أعاذنا الله- وقع به المكروه جزاءً لظنه السّيئ كما قال تعالى: {الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا} [الفتح: الآية 6].

إنّ أغلب الدّراسات العلمية الحديثة أكّدت أنّ التفاؤل يطيل عُمرَ الإنسان بمعدل سبع سنوات ونصف تقريبًا، وأنّ المتفائلين بالحياة أطول النّاس أعمارًا بإذن الله جلّ في عُلاه، وكلّ شيء بقضاء وقدر، ولكن الذي قدّر طول العمر قدّر التّفاؤل لهم، فالتفاؤل مدد قويّ وطاقة إيجابية اتّفق عليها علماء العالم، ولكن المُذهل أنّ رسول الهدى ﷺ قبل أكثر من ألف وأربع مئة عام أخبر بهذا، فعن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا يَزالُ قَلْبُ الكَبِيرِ شابًّا في اثْنَتَيْنِ: في حُبِّ الدُّنْيا، وطُولِ الأمَلِ**» [رواه البخاري].

وأتى العلم المعاصر ليؤكِّد هذا الخبر النّبوي الكريم، وفي الثّقافة الغربية المُعاصرة في القرن العشرين قدّموا دراسات في مئات المؤلفات انتهت إلى نتيجة: «كما تتوقّع يكون»، وقد سبقهم الوحي قبل أكثر من ألف وأربع مئة عام بقاعدة أفضل وأجمل وهي: «**أنا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بي**»، فحوّل بوصلة قلبك، ودقّة نيّتك إلى التّفاؤل والأمل دائمًا، وأبشر بما يسرّك من ربّ العالمين.

لقد علّمنا رسولنا ﷺ أنّ نتفاءل، وأنّ نتوقع الأجمل والأحسن في حياتنا، وأنّ لا ننتظر السّوء؛ لأنّ منهج القرآن يؤكّدُ أنّ مَن توقّع الجميل من الله، وأحسنَ الظّن به أعطاه وأسعده وحقّق له أمانيه، وبالمقابل مَن ظنَّ بالله ظن السّوء وانتظر المصائب والمصاعب وقع له ذلك.

وكان ﷺ ينهى عن التّشاؤم، ومن ذلك أنّه دخل ﷺ على أعرابي يُوعك فقال له: «**لا بَأْسَ عليك، طَهُورٌ إنْ شاءَ الله**»، فأجاب الأعرابي: **طَهُورٌ؟! بَلْ هي نُمحّ تَفُورُ على شيخٍ كَبِيرٍ تُزِيرُهُ القُبُورَ**، فقال النبي ﷺ: «**فَنَعَمْ إذًا**» [رواه البخاري].

والمعنى أنّك طالما رفضت التّفاؤل فخذ التّشاؤم الذي سوف يقع بك، ونهى ﷺ عن التّطير، فقال: «**لا عَدْوى، ولا طِيَرَةَ، ويُعْجِبُنِي الفَأْلُ.** قالَ: قيلَ: **وما الفَأْلُ؟** قالَ: **الكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ**» [متفق عليه].

والمعنى أنّه بعد الالتزام وأخذ الحيطة لا يُعدي شيء شيئًا إلّا بإذن الله؛ لأنّ من يُشغل نفسه بالتّحسس من العدوى يصبح في ريبة وشك ووهم وتشاؤم، والذي يتعلّق بحركة الطّير يُفسد مُعتقده كما هي عادة العرب في الجاهلية، فإنّهم كانوا يُعلّقون سفرهم وأمورهم بوجهة الطّير، ويسمونه السّانح والبارح، فنهى ﷺ عن ذلك كلّه، وأمر بالتّوكل على الله وتفويض الأمر إليه والثّقة به سبحانه، فكل شيء بقضاء وقدر، وكلٌ في كتاب مسطّر، فعن عبدالله بن عباس (رضي الله عنهما) أنّ النّبي ﷺ قال: «**يَدْخُلُ الجَنَّةَ مِن أُمَّتي سَبْعُونَ أَلْفًا بغيرِ حِسابٍ، هُمُ الَّذِينَ لا يَسْتَرْقُونَ، ولا يَتَطَيَّرُونَ، وعلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**». [متفق عليه].

ونهى ﷺ عن التّشاؤم والتّطير، يقول أبو هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه): سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**لا طِيَرَةَ وخَيْرُها الفَأْلُ**»، قَالُوا: وَمَا الْفَأْلُ ؟ قَالَ: «**الْكَلِمَةُ الصَّالِحَةُ يَسْمَعُهَا أَحَدُكُمْ**» [مُتفق عليه]، وكان ﷺ يتفاءل بحُسن الطّالع، مثل الكلمة الطيبة فيستبشر بها، وكان يكل الأمور لقضاء الله وقدره، ويفوّض الأمر إليه ويتوكل عليه، ونهى ﷺ عن الأفعال التي تدعو إلى التّشاؤم والإحباط

والشّك في القضاء والقدر وعدم الرّضا بحُكم الله تعالى، كلطم الخدود، وشقّ الجيوب، وتمني الموت أو التّسخط من قضاء الله، فقال ﷺ: «**لَيسَ مِنَّا مَن لَطَمَ الخُدُودَ، وشَقَّ الجُيُوبَ، ودَعَا بدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ**» [مُتفق عليه].

حتى الموت وهو قضاء لا بد منه، يقول عنه ﷺ: «**لا يَتَمَنَّيَنَّ أحَدُكُمُ المَوْتَ مِن ضُرٍّ أصابَهُ، فإنْ كانَ لا بُدَّ فاعِلًا، فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ أحْيِنِي ما كانَتِ الحَياةُ خَيْرًا لِي، وتَوَفَّنِي إذا كانَتِ الوَفاةُ خَيْرًا لِي**» [مُتفق عليه]. فجعل ﷺ الدّعاء على اختيار الأصلح، والنّظر إلى اختيار الله الأجمل، وطلب الأحسن في البقاء أو في الرّحيل، يقول خبَّابُ(رضي الله عنه): «**لولا أنَّ رَسولَ الله ﷺ نَهَانَا أنْ نَدْعُوَ بالمَوْتِ لَدَعَوْتُ بهِ**» [متفق عليه].

فكان رسولنا ﷺ يدعو إلى الحياة الجميلة، فالحياة في سبيل الله فيها نماء وعطاء وتزود بالخير ومضاعفة للحسنات ورفع للدّرجات؛ ولهذا يقول الباري سبحانه: {وَلاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا} [النساء: الآية 29].

فجاءت الرّحمة عند ذكر القتل، وهي قمة التّفاؤل وطلب الحياة السّعيدة الطّيبة، فكل فعل فيه اكتئاب أو إحباط أو تسخُّط نهى عنه ﷺ، وقال: «**مَن تَرَدّى مِن جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَهو في نارِ جَهَنَّمَ يَتَرَدَّى فيها خالِدًا مُخَلَّدًا فِيها أبَدًا، وَمَن تَحَسَّى سُمًّا فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَسُمُّهُ في يَدِهِ يَتَحَسّاهُ في نَارِ جَهَنَّمَ خالِدًا مُخَلَّدًا فِيها أبَدًا، وَمَن قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ، فَحَدِيدَتُهُ في يَدِهِ يَجَأُ بِهَا في بَطْنِهِ في نارِ جَهَنَّمَ خالِدًا مُخَلَّدًا فِيها أبَدًا**». [متفق عليه].

لقد علّمنا نبيُنا ﷺ التّفاؤل والثّقة وعلو الهمّة حتى في الدّعاء، فأمرنا أن نُكثر من الطّلب ونتفاءل برحمته سبحانه، ونرفع قيمة ما نرغب فيه؛ لأنّ اللهَ لا يعجزه شيء جلّ في عُلاه، فهو أكرم الأكرمين وأرحم الرّاحمين، يقول ﷺ: «**إذا سَأَلْتُمُ اللهَ، فاسْأَلُوهُ الفِرْدَوْسَ، فإنَّه أوْسَطُ الجَنَّةِ وأَعْلَى الجَنَّةِ - أُراهُ - فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، ومِنْهُ تَفَجَّرُ أنْهارُ الجَنَّةِ**» [رواه البخاري].

وكان أكثر دعائه ﷺ ومناجاته لربّه أملًا وتفاؤلًا، فكان يُكثر من قول: «**اللهمَّ إنّي أعُوذُ بكَ مِنَ الهَمِّ والحَزَنِ، والعَجْزِ والكَسَلِ، والبُخْلِ والجُبْنِ، وضَلَعِ الدَّيْنِ، وغَلَبَةِ الرِّجالِ**» [متفق عليه].

لا إحباط في حياته ﷺ ولا كسل ولا جبن ولا بُخل، وإنّما انتصار وفتوحات وأمل وتفاؤل وثقة بالله، وعواقب حميدة، وجوائز رائعة، ومستقبل واعد، وأمل منشود، وهدف سام، وغاية

مُباركة، فلله ما أعظم هذا الإنسان الكريم!-بأبي هو وأمي ﷺ-حتى دعاؤه ﷺ لأصحابه كلّه ثقة، وحُسن ظن بالله، فحينما جاء أعرابي إليه ﷺ يريد أن يسافر لأهله في الصّحراء وأمامه مئات الأميال، وليس له زاد ولا متاع، وخاف أن ينقطع في فلاة مقفرة، فوقف على مُعلّم الخير ﷺ يُلخّص طلبه وحاجته فيقول: إنّي أُرِيدُ سفرًا فزوّدنِي، والظّاهر أنّه أراد متاعًا من متاع الدّنيا، إمّا بُرًّا أو شعيرًا أو تمرًا أو نحو ذلك، ولكن رسول الهدى ﷺ أعطاه ما هو أرفع وأثمن وأنفس، فقال له: «**زوّدكَ اللهُ التّقوى**»، ومن زوده الله التقوى فلا خوف عليه، فاستحسن الأعرابيّ وتلذّذ، وقال: **زِدْني يا رسول الله**، فقال ﷺ: «**وغفرَ ذنبكَ**»، ومن غفر الله ذنبه كيف يخاف؟! وكيف يحزن؟!، فانتشى الأعرابي وانشرح صدره، وقال: **زِدنِي بأبي أنتَ وأمي**، فقال ﷺ: «**ويسَّر لكَ الخير حيثما كنتَ**» [رواه الترمذي].

ومن يسّر له الله الخير حيثما كان، فلن يشكو جوعًا، ولا ظمأً، ولا تعبًا، ولا سفرًا، وغاية ما يتمناه الإنسان في حياته، ويتفاءل به، تقوى الله، ومغفرة الذّنوب، وتيسير الأمور.

وقد صحّ من حديث جابر (رضي الله عنه) أنّه سمع رسول الله ﷺ قبل موته بثلاثة أيام يقول: «**لا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إلّا وَهو يُحْسِنُ الظَّنَّ بالله عَزَّ وَجَلَّ**» [رواه مسلم].

وهنا لفتة عجيبة قبل موته ﷺ وهي أنّ الأمل معه ﷺ حتى الوفاة، وحسن الظّن بربّه يصاحبه حتى الموت.

حتى في مرض موته ﷺ كان متفائلًا، يقول أنس بن مالك(رضي الله عنه): «**إنَّ أبَا بَكْرٍ كانَ يُصَلِّي لهمْ في وجَعِ رَسولِ الله ﷺ، الذي تُوُفِّيَ فيه حتَّى إذَا كانَ يَوْمُ الإثْنَيْنِ وهُمْ صُفُوفٌ في الصَّلَاةِ كَشَفَ رَسولُ الله ﷺ سِتْرَ الحُجْرَةِ، فَنَظَرَ إلَيْنَا، وهو قَائِمٌ، كَأنَّ وجْهَهُ ورَقَةُ مُصْحَفٍ، ثُمَّ تَبَسَّمَ رَسولُ الله ﷺ ضَاحِكًا**» [مُتفق عليه].

تبسّم ﷺ ثقةً بموعود ربّه، وفرحًا بصلاح أُمّته، واجتماعهم على إمام واحد، وتآلف قلوبهم، فالأمل يحدوه، والتّفاؤل رفيقه، حتى في أحلك الظّروف وفي أوقات المعاناة.

إن تفاؤله ﷺ يختلف عن تفاؤل أيّ شخص في العالم؛ لأنّ تفاؤله مبنيّ على الوحي المُقدّس من الله تعالى، وكأنّه ﷺ ينظر إلى الغيب من ستر رقيق وهو واثق بمستقبله؛ ولأنّه على علم بهذا المستقبل بخلاف غيره الذي يُخمّن تخمينًا، ويظن ظنًا ولا يستيقن بالعواقب.

وتميّز تفاؤله ﷺ بأنّه تفاؤل العامل المُجدّ الذي يجمع بين التّوكل على الله والعمل، فلم يكن توكّله مجرّد أمنيات عذبة يردّدها أو عواطف، بل كان تفاؤلًا بمدد الله ونصره، فمن داخل الغار وفي تلك المرحلة الحرجة خطَّط للذّهاب إلى المدينة وبناء الدولة الإسلامية.

ويوم كان يتفاءل بالانتصار على فارس والروم وحيازة كنوزهما من الذهب والفضة للأمة كان يحفر في تلك اللحظة في الخندق، ويعمل بجد، بخلاف من يعيش الأمنيات المعسولة العذبة وهو متكئ على أريكته، وجالس على كرسيه يُقلّب كفيه، فالمؤمن دائمًا يقتدي برسوله الكريم ﷺ، في حُسن الظن بربّه، وانتظار الأجمل دائمًا، وتوقع الأحسن، والرّضا باختيار الله عزّ وجل، فهو قدوتنا ﷺ في استقبال الحياة بصدر رحب، وأمل وفأل حسن، قال تعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا} [الأحزاب: الآية 21].

من ليلةِ الغارِ فارقْنا مآتِمَنا

منْ برْدِ (لا تحزنْ) انسابتْ تغاريدُ

وكيفَ نحزنُ والكونُ انتشى طربًا

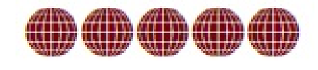
من هدي (اقرأ) توحيدٌ وتجديدُ

وكيفَ نأسى وفي أرواحِنا ألَقٌ

من رحمةِ الله منها تُعشبُ البِيدُ

نحنُ الحياةُ فهل تقسو الحياةُ بنَا

من وحيِنا سالَ بالأنهارِ جُلمودُ





مُحَمَّدٌ ﷺ رَاضِيًا

تحقّق رضاه ﷺ عن مولاه في كل أطوار الحياة، في السّراء والضـرّاء والشّدة والرّخاء، والبأساء والنّعماء، فكان مشروح الصّدر، مُطمئن القلب، مسرور الرّوح.

رضيَ عن الله وهو يتجرّع مرارة اليُتم فآواه ورعاه واجتباه، ورضي عن الله وهو يُعاني الفقر فأغناه وأعطاه، ورضي عن الله وهو يلاقي الأذى والمكاره والشّدائد، فأيّده ونصره وتولّاه، تقول أمّ المؤمنين عَائِشَةُ (رضي الله عنها) : «**كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا رَأَى مَا يُحِبُّ قَالَ: الحَمْدُ للهِ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ، وَإِذَا رَأَى مَا يَكْرَهُ قَالَ: الحَمْدُ للهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ**» [رواه ابن ماجه].

أهلًا وسهلًا بما يأتي به القدرُ ... فإنّما نحنُ في أحكامِه بشرُ

ومرحبًا بقضاء الله خالقنا ... حتى ولو مسّنا ممّا قضى الضّررُ

لقد تلقّى ﷺ المآسي والكُربات بقلب مُطمئن، وصدر مُنشرح، ونفس راضية ساكنة إلى موعود ربّها، واثقة بأنّ ما قدّره الله وقضاه هو غاية الاختيار والاصطفاء، والحكمة المُطلقة منه سبحانه، وهناك الكثير من المواقف التي تمرّ بالإنسان فتوقع به في غيابات التّسخط والتّذمر وقلة الصبر وضيق الصّدر وعدم الرّضا، مثل الفقر والدَّين والمرض ونحو ذلك من الظّروف القاسية، وجميعها قد مرّ بها نبيّنا ﷺ، بل وأعظم وأصعب منها، لكنه قابلها بالتّسليم والقبول، وكان في غاية الرّضا، وهو يمشي على جمر الغضا، ولو لُخّصت حياته ﷺ في كلمة لكانت: (**الرّضا**)، فبالرّضا لقي الخطوب، وواجه المخاطر، وخاض المعارك، وتغلّب على الصّعاب، وتجاوز الأزمات ﷺ.

كذّبه أعداؤه، وقاتلوه، وسبّوه، وآذوه، وطردوه، واتّهموه بالجنون، والسّحر، فرضي بقضاء ربّه وسلّم أمره لمولاه.

شاهد أصحابه يُعذَّبون ويُسحبون في الرّمضاء، ويُجلدون بالسّياط، ويُجوّعون ويُحاصرون في الشِّعْب، فرضي وسلّم واحتسب، وواصل السّير واثقًا بنصر الله وتأييده.

مات عمّه أبو طالب الذي حماه، ودافع عنه، وآواه، فسلّم ورضي.

فقد زوجته خديجة التي ناصرته، ووقفت معه، وكانت له عزاءً في حُزنه، فسلّم ورضيَ.

قُتل عمّه حمزة (رضي الله عنه) الذي ناصره وسانده وأيّده فسلّم ورضي وأعاد الأمر لخالقه بنفس مُطمئنة.

أخرجه قومه من مكة بالقوّة الظّالمة، والجبروت الغاشم، واقتلع ﷺ خُطاه في الصّحراء، وذاقَ حرارة الرّمضاء جائعًا، مُتعبًا مُبعدًا من مكة مهد شبابه، ومغنى فتوته، وخير أرض الله، فحاصروه في الغار بسيوف الحقد والضّغينة والتّآمر فلم يكن منه ﷺ إلّا أن فاض قلبه بالرّضا كالنّبع الهنيء المريء بالماء النّمير.

يُقتل أحبابه ﷺ أمام عينه في المعركة، ويُجرّح في وجهه الشّريف، ويُشجّ جبينه، وتُكسر رباعيته، فيَرضى ويُسلّم.

يُشاهد ﷺ دسائس المشركين، ويطّلع على مكائد اليهود، ويكشف غدر المُنافقين، وما يُحاك ضدّه، لمحق دعوته، وإلحاق الأذى به، فيرضى ويُسلّم ويستعين بربّه.

يغشاه الفقر فلا يجد ﷺ كسرة خبز ولا حفنة تمر، ويتلوى من الجوع، ويعيش أزمة القوت، ويمرّ به الهلال بعد الهلال ولا يُوقد في بيته ﷺ نار فيرضى ويُسلّم لحُكم ربّه. تقول أمّ المؤمنينَ عائشةُ لعُروة بن الزبير (رضي الله عنهم):«**إنْ كُنَّا لَنَنْظُرُ إلى الهِلَالِ ثَلَاثَةَ أهِلَّةٍ في شَهْرَيْنِ، وما أُوقِدَتْ في أبْيَاتِ رسولِ الله ﷺ نَارٌ.** قال عروة: **ما كانَ يُعِيشُكُمْ؟ قالَتْ: الأسْوَدَانِ: التَّمْرُ والمَاءُ، إلّا أنَّه قدْ كانَ لِرَسولِ الله ﷺ جِيرَانٌ مِنَ الأنْصَارِ، كانَ لهمْ مَنَائِحُ، وكَانُوا يَمْنَحُونَ رَسولَ الله ﷺ مِن أبْيَاتِهِمْ فَيَسْقِينَاهُ**» [متفق عليه].

التفتَ ﷺ لجيش المُسلمين خلفه فوجد أعدادهم قليلة، وطالع أمامه جيوش المُشركين فوجدها جيوشًا تملأ المكان، لها صولة وعنفوان، فيرضى ويُسلّم ويُوكّل أمره لربّه.

يمرض ﷺ مرضًا شديدًا، ويتعب تعبًا مُرهقًا، ويُجهد إجهادًا مُضنيًا، ويُهزم المسلمون هزيمة مُرّة، فيفيض الرّضا من روحه الطّاهرة كما يفيض الغمام المدرار بالماء البارد العذب الزّلال، يقول ابن مسعود(رضي الله عنه): «**دَخَلْتُ على النّبيّ ﷺ وهو يُوعَكُ، فَمَسِسْتُهُ بيَدِي فَقُلْتُ: إنَّكَ لَتُوعَكُ وعْكًا شَدِيدًا،** قالَ: **أجَلْ، كما يُوعَكُ رَجُلانِ مِنكُم.** قالَ: **لكَ أجْران؟** قالَ: **نَعَمْ، ما مِن مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أذًى، مَرَضٌ فَما سِواهُ، إلّا حَطَّ اللهُ سَيِّئاتِهِ، كما تَحُطُّ الشَّجَرَةُ ورَقَها**» [مُتفق عليه].

يفقد ﷺ ابنه إبراهيم وثلاثًا من بناته ويُشيّعهم ودموعه تسيل على خدّه الشّريف، والحُزن يأخذ منه كل مأخذ، فيرضى ويذعن ويُفوض الأمر لربّه، ويقول: «**إنَّ العَيْنَ تَدْمَعُ، والقَلْبَ يَحْزَنُ، ولَا نَقُولُ إلَّا ما يَرْضَى رَبُّنَا، وإنَّا بفِرَاقِكَ يا إبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ**» [مُتّفق عليه].

وكان إبراهيم ابنه الوحيد آنذاك، ونحن نَعْلَم مدى تعلّق الأب بابنه، وزد على ذلك أنّه كان صغيرًا حبيبًا إلى قلبه ﷺ، وبرغم هذا كلّه أعلن عليه الصّلاة والسّلام الرّضا والتّسليم لربّه؛ لأنّه على يقين تام بحُسن اختيار الله عزّ وجل، فلله هذه النّفس الزّكية الطّاهرة التي يحملها ﷺ بين جنبيه! كمْ مُلئت إيمانًا ورضًا، وسكينةً وطُهرًا!

ونَعْلَم مدى حُب الأب لبناته، خاصة إذا كُنّ بارّات، راشدات، مؤمنات، طاهرات، فتموت بناته ﷺ الواحدة تلو الأخرى، ولا تجده إلّا راضيًا، مفوضًا الأمر لربّه، واثقًا بحُسن اختيار مولاه جلّ في عُلاه.

ورغم كل ما عاناه ﷺ من شدائد وصعاب كان يُطمئن أصحابه، ويسكب الرّضا في قلوبهم، الرّضا بما قدّر الله، والرّضا بما قسمه جل في علاه، ثم يُذكّرهم بما فيه العوض عن كل مفقود، والسّلوة عن كل فائت، وهو ما أُعدّ لهم من نعيم مُقيم، في جوار ربّ كريم، ولخّص لهم ﷺ الحياة الطيّبة في الرّضا، فقال: «**ارْضَ بما قَسَمَ اللهُ لك تَكُنْ أَغْنَى الناسِ**» [رواه الترمذي].

فعند الرّضا تجد غنى القلب وطمأنينة الرّوح بما كتب الله لك، وتلمح حُسن اختيار الله لك فيما قدّر وقضى سُبحانه.

وكان ﷺ يحثّ على طلب مرضاة الله وحده فيقول: «**مَن الْتمَسَ رِضا اللهِ بسَخَطِ النَّاسِ، كفَاه اللهُ مُؤْنةَ النَّاسِ، ومَن الْتَمس رِضا النَّاسِ بسَخَطِ الله وكَلَه اللهُ إلى النَّاسِ**» [رواه التّرمذي]، أي: إذا رضيت عن الله ورضي عنك سُبحانه فما عليك من الخليقة، يقول الشّاعر:

فليتكَ تحلو والحياةُ مريرةٌ	وليتكَ ترضى والأنامُ غضابُ
وليت الذي بيني وبينكَ عامرٌ	وبيني وبين العالمينَ خرابُ
إذا صَحَّ مِنْكَ الودُّ فالكلُّ هَيّنٌ	وكلُّ الذّي فوقَ التّرابِ ترابُ

يقول ﷺ: «**ليسَ الغِنَى عن كَثْرَةِ العَرَضِ، ولَكِنَّ الغِنَى غِنَى النَّفْسِ**» [متفق عليه].

فليس الغنى بالأموال ولا بالمدخرات، وإنّما بهذا الكنز الثّمين الذي تحمله في نفسك، إنّه (**كنز الرّضا**)، فإذا أنعم اللهُ عليك بهذا الكنز هانت عليك الدّنيا بأسرها، وصرت من أغنى عباد الله تعالى.

صَاحبَه الرّضا في دعائه ﷺ فكان يدعو ويتبتّل في صلاة اللّيل، وقد سافرت روحه الطّاهرة الشّريفة لتطوف حول العرش، وهو يلهج بهذه العبارة المُشجية المُبكية: «**اللَّهمَّ إنِّي أعُوذُ بِرِضاكَ مِن سخَطِكَ**» [رواه مسلم].

يا لهذا الدّعاء الحار الصّادق الخالص المُنبعث من قلبه الطّاهر ﷺ! سُبحان من ألهمه بليغ المناجاة، لربّ الأرض والسّماوات!

هنا منتهى الآمال، وغاية السؤال، وقمة الانطراح على باب ذي الجلال، وكان ﷺ يقول في دعائه: «**أسأَلُك الرِّضا بعدَ القضاءِ**» [رواه النسائي]، لا أدري كيف أُعبّر عن هذه العبارة النّبوية المُشرقة الباهرة التي كان يدعو بها نبيّ الله ﷺ إلّا أن أقول: «أشهد أنّه رسول الله»، وتالله لو امتثلنا الرّضا بعد القضاء لهانت علينا الشّدائد، وسُهّلت لنا الصّعاب.

علمنَا ﷺ أنّ كلَّ أقدار الله جلّ وعلا لُطفٌ ورحمةٌ وعدلٌ، فتلذذنا بالعيش في جوار الله، ونعمنَا بجنة الدّنيا قبل جنة الآخرة، قال ﷺ في دعاء الاستخارة: «**واقْدُرْ لي الخَيْرَ حَيْثُ كانَ ثُمَّ رَضِّنِي به**» [رواه البخاري]، فما أجمل كلمة «رَضِّنِي بهِ» بعد «واقْدُرْ لي الخَيْرَ»! فإذا كان نبيّ الله

ﷺ يَطلب منه ربّه تبارك وتعالى أن يرضى بما قُدّر له من خيرٍ، فهو أيضًا يرضى عن أقدار الله ولو كان فيها مرارة وصعوبة؟

وهذا أعلى منازل الرّضا؛ لأن التّسخط باب الكفر، وبريد النّفاق، وسُلّم الشّك في أقدار الله عزّ وجل، قال تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ} [محمد:الآية 9]، وعن أنس (رضي الله عنه) أنّ النّبي ﷺ قال: «**إنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ البَلاءِ، وَإنَّ اللهَ إذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْط**» [رواه التّرمذي].

هذا حُكم نبويّ شريف، وليختر الإنسان أيّ المنزلتين: منزلة الرّضا عن الله في أحكامه وأقداره ومعه رضوان الله، أو منزلة السّخط على الله وعلى شرعه وأقداره والعياذ بالله، فله سخط الله ومقته، فالله حكم عدل، من رضي عنه وفوض الأمر إليه وأذعن لأحكامه ملأ صدره رضًا وسكينة وطمأنينة يجد حلاوتها في قلبه، ومن سخط واعترض وجَدَ سُخطًا ومقتًا وشقاءً وتعاسةً حتى يلقى الله.

وما أجملها من لحظة وأعظمها من ساعة مرّت بالصّحابة الكرام!.. حينما نزل جبريل عليه السّلام بقول الباري سبحانه: {لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا} [الفتح: الآية 18]!؛ فكيف يكون إذًا رضا الرّحمن الرّحيم عمّن كان سببًا في هدايتهم وإيمانهم، ومعرفتهم بربّهم، وبيعتهم لنبيّهم، ونُصرتهم لدين خالقهم حتى نالوا رضا الله؟! كل رضا عن الله يعتقده أيّ مؤمن أو مؤمنة إلى يوم القيامة فإنّما تعلّمه من خير الرّاضين وسيد العابدين ﷺ.

وبيّن ﷺ أن الرّضا أعلى المقامات وأرفع الدرجات، فقال في حديثه الذي رواه مُسلم عن العباس(رضي الله عنه): «**ذاقَ طَعْمَ الإيمانِ مَن رَضِيَ بالله رَبًّا، وبالإسْلامِ دِينًا، وبِمُحَمَّدٍ رَسولًا**»، وذكر في حديثه الذي رواه مسلم عن سعد بن أبي وقاص(رضي الله عنه): أن: «**من قال رَضِيتُ بالله رَبًّا، وبِمُحَمَّدٍ رَسولًا، وبالإسْلَامِ دِينًا، غُفِرَ له ذَنْبُهُ**»، وفي لفظ صحيح رواه أبو داود: «**وجَبَتْ له الجنَّةُ**».

فَتذوّق طعم الإيمان وغفران الذّنوب ودخول الجنّة مرهون بالرّضا عن الله عزّ وجل، فإذا رضيت بهذه المقامات الرّفيعة الطّاهرة: (**الرّضا بالرّبوبية، والرّضا بدين الإسلام وشريعته،**

والرّضا بنبوة الرّسول الكريم ﷺ ورسالته)، فأبشر برضوان الله عزّ وجلّ، وانتظر الجائزة الكُبرى والهدية العُظمى في جوار ملك الملوك في الفردوس الأعلى حينما تقرأ التوقيع الإلهي على بطاقتك في خاتمة رحلتك ونهاية روايتك: {رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [التوبة: الآية 100].

فكل ما يحصل عليه الإنسان من نجاحات أو إنجازات أو هبات أو لذائذ أو نعيم فرضوان الله أكبر من هذا كلّه.

ما شعورك إذا علمت أنّ الرّحمن الذي على العرش استوى سبحانه قد رضي عنك؟! هل بقي لك مطلوب أو أمنية أعظم من هذا؟! قال الشاعر:

دع المقاديرَ تجري في أعَنّتها ... ولا تبيتنّ إلا خاليَ البالِ

ما بين غَمضةِ عيَن وانتباهتها ... يغيّر الله من حالٍ إلى حالِ

رضي ﷺ عن الله ربًّا وخالقًا قد أبدع في صنعه، ورضي به مُدبّرًا قد عدل في قسمته جلّ في عُلاه، لذلك وجد الأمن والسّكينة، والأمان والطمأنينة، في كل مراحل عمره، وجميع أيام حياته، وفاض رضاه ﷺ عن ربّه من أعماق روحه الطّاهرة، فاض في قسمات وجهه، فاض في نور مُحيّاه، فاض في بهجة نفسه، فاض في ثقته بربّه، فاض في اعتماده على مولاه، فاض في توكله على خالقه، فاض في تسليمه بأمر إلهه، فكانت حياته رضًا في رضا، رضًا يفيض ثناءً من لسانه، وجميع جوارحه ﷺ، دائم الشّكر والامتنان والعرفان، للواحد الديّان، وللملك الرّحمن.

وما له ﷺ بأبي هو وأمي لا يرضى عن ربّه!؟ أما شرح صدره؟ أما غفر ذنبه؟ أما رفع ذكره؟ أما حقق نصره؟ أما أرغم حاسديه؟ أما جعل المنابر تعلن مبادئه؟ أما جعل المنائر تُردّد اسمه؟ أما جعل المليارات من البشر تُصلّي وتُسلّم عليه؟ أما جعل السماء تتفتّح بالقبول له؟ أما جعل الأرض تُرحّب بأتباعه إلى يوم الدّين؟ أما جعل اسمه في كل كتاب ودفتر، وكل ديوان وسجل، وكل جامعة ومدرسة؟

وما له لا يرضى ﷺ وقد أعطاه ربّه النبوّة في الوجود، والمقام المحمود، واللواء المعقود، وما له ﷺ لا يرضى وقد وعده الله بأجمل وعد، وأغلى هدية، وأعظم عطيّة، فقال له سبحانه:

{وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى} [الضحى: الآية 5]، بعد هذا الوعد يعجز الكلام، وتَحار الأفهام، وتجف الأقلام. يا له من قسم عظيم من أكرم الأكرمين لأشرف المُرسلين! ورافق هذا القسم الشّريف مُخاطبة مُباشرة، تدلّ على قربه ﷺ من ربّه، وعظيم حُبّ خالقه له، فقال له سُبحانه: {يُعْطِيكَ} ، عطاءً مباشرًا دون أيّ وسيط، وفي قوله تعالى: {رَبُّكَ} ، كل الاحتفاء والاجتباء والاصطفاء، وفي قوله تعالى: {فَتَرْضَى} ، غاية السّرور ونهاية الحبور، وقمة الفرح بالمقدور.

وعندما أقرأ قول الباري سُبحانه وهو يُخاطب نبيّه ﷺ ويقول له: {وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى} تملؤني الدّهشة، ويهزّني الانبهار؛ لأنّني أبحث عن العطاء الدّنيوي الذي أعطاه ربّه فلا أجد شيئًا كثيرًا من المحسوسات والماديات، فلا قصور ولا دور، ولا حدائق غنّاء، ولا بساتين فيحاء، ولا أنهار جارية، ولا كنوز مُدّخرة، بل أجد غرفة من طين يسكنها، وحصيرًا يجلس عليه، وثوبًا مُرقّعًا يلتحف به، وخبزًا يابسًا يأكله، فلا خيول مسوّمة ولا أنعام ولا حرث ولا مُدّخرات.

فأعود إلى الآية وأقرؤها مرة أخرى: {وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى} ، فأجد أنّ هناك عطاءً آخر أغلى وأثمن وأنفس، عطاءً أرفع وأعلى من كل المناصب، ومن كل القناطير المُقنطرة، وكل الكنوز المحفوظة، وكل الأشياء النفيسة الغالية، عطاءً جعل النّبي ﷺ راضيًا عن الواحد القهار، في الليل والنّهار، إنّه عطاء النّبوة، وهبة الرّسالة، وهديّة الوحي الرّباني والغيث الرّوحاني، وجائزة الإيمان العظيم، والعلم النّافع، مع انشراح الصّدر، وراحة البال، واطمئنان القلب، وبهجة الرّوح، وعطاء هداية البشريّة، ودلالة الإنسانيّة إلى ربّ البريّة.

لقد أرضاه ربّه في حياته بأن نصره نصرًا مؤزّرًا، وفتح له فتحًا مُبينًا، وهداه صراطًا مُستقيمًا، وأكمل له الدّين، وأتمّ عليه النّعمة، وكبت أعداءه، وكسر خصومه، ونشر ملّته، وأعزّ أصحابه وأتباعه إلى يوم الدّين.

ثم أنعم عليه الله وأرضاه بعطاء أخروي أعظم وأنفس وأغلى وأثمن من هذا العطاء الدّنيوي. إنّه عطاء الشّفاعة الكُبرى، عطاء نهر الكوثر العظيم، عطاء دخول الجنّة قبل البشر أجمعين، ثم عطاء الوسيلة، وهي المنزلة العالية، والدّرجة الرّفيعة، أعلى درجة في جنات النّعيم، ليست لأحد إلّا له ﷺ، ومَنّ عليه سبحانه بمفتاح الرّضا وبوابته الكُبرى وطريقه الموصل، فقال سبحانه: {وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى} [طه: الآية 130]، فأرشده إلى تسبيحه ودوام ذكره ؛ لأن في هذا العمل ذروة الرّضا وغاية

السّعادة، وقال سُبحانه: {لَعَلَّكَ تَرْضَى} ، ولم يقل: «لعلي أرضى ،» فإنّه راض عن رسوله ونبيّه ﷺ بلا شك، ولكن لعلك أنت يا محمد أن تسعد، وأن تفرح وتهنأ، وأن يطمئن قلبك وتبهج روحك؛ ولهذا كان النّبي الكريم ﷺ أكثر الناس تسبيحًا وتحميدًا وتكبيرًا وتهليلًا وذكرًا لله، فأدرك من الرضّا غايته، ومن السّرور نهايته، فهنيئًا له هذا الرضّا عن الله، وهنيئًا له رضوان الله عليه، فالمُسلمون والمُسلمات من سكان القارات وهم أكثر من المليار ونصف المليار يُصلّون ويسلمون عليه في كل زمان ومكان، صلاة وسلامًا ممزوجين بالدّموع، والحُبّ، والشّوق، والحنين إلى هذا النّبي العظيم والإمام الكريم ﷺ.

لقد علّمنا رسولنا ﷺ أن نرضى عن الله في خلقه وأمره، في خلقه حيث بديع صنعه، وفي أمره حيث جميل شرعه، فكما أن الله جمّل الكون وأبدعه ونسّقه، وأحسن نظامه، فكذلك أحكم تشريعه، وبيّن تنزيله، وأحسن فيما كتب وقدّر، قال الشاعر:

علَّمتني الحياة أن أتلقَّى	كلَّ ألوانها رضًا وقَبولا
ورأيتُ الرِّضا يخفِّف أثقالي	ويُلقي على المآسي سُدولا
والذي أُلهِمَ الرِّضا لا تراهُ	أبدَ الدهر حاسدًا أو عَذولا
أنا راضٍ بكلِّ ما كتب اللهُ	ومُزْجٍ إليه حَمْدًا جَزيلا

فأخبرنا ﷺ أنّ قضاء الله كلّه جميل، وكلّه حسن، وأنّ ما يقضيه للعبد فهو خير على أيّ حال، ومَن يعتقد هذه العقيدة يجد كل الاطمئنان والرّضا في تقبّل أمر الله، ويوم تعتقد هذا الاعتقاد وتتيقّنه غاية اليقين لا تجد همًّا، ولا غمًّا، ولا حُزنًا، بل تشعر بالسّكينة والاطمئنان وهذا سر مسألة الرّضا.

وقد دلّنا ﷺ على طريقة سهلة مُيسّرة نصل بها إلى الرّضا عن الله عزّ وجل فيما قسّم من الرّزق فقال ﷺ: «**إِذَا نَظَرَ أَحَدُكُمْ إِلَى مَنْ فُضِّلَ عَلَيْهِ فِي المَالِ وَالخَلْقِ، فَلْيَنْظُرْ إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْهُ**» [متفق عليه].

وأخبرنا ﷺ بجزاء من رضي عن الله تعالى أن يثيبه الله أعظم الثّواب في الجنة، وأرفع درجات الجزاء في دار الخلود، فقال ﷺ: «**إنَّ الله تَبارَكَ وتَعالى يقولُ لأهْلِ الجَنَّةِ: يا أهْلَ الجَنَّةِ. فيَقولونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنا وسَعْدَيْكَ، فيَقولُ: هلْ رَضِيتُمْ؟ فيَقولونَ: وما لنا لا نَرْضَىْ وقدْ أعْطَيْتَنا ما لَمْ**

تُعْطِ أحَدًا مِن خَلْقِكَ! فيَقولُ: أنا أُعْطِيكُمْ أفْضَلَ مِن ذلكَ، قالوا: يا رَبِّ، وأَيُّ شيءٍ أفْضَلُ مِن ذلكَ؟ فيَقولُ: أُحِلُّ علَيْكُم رِضْوانِي، فلا أسْخَطُ علَيْكُم بَعْدَهُ أبَدًا» [متفق عليه].

وألهمنا ﷺ لأمر إذا اعتقدناه وجدنا أقدار الله كلّها بلسمًا شافيًا، وبردًا وسلامًا حتى ولو كانت أزماتٍ، وخطوبًا، وكروبًا، فقال ﷺ: «**عجبًا لأمرِ المُؤمِنِ، إنَّ أمْرَه كُلَّه خَيرٌ، وليس ذاك لأحدٍ إلَّا للمؤمِنِ: إنْ أصابَتْه سرَّاءُ شكَرَ فكان خيرًا له، وَإنْ أصابَتْه ضرَّاءُ صبَرَ فكان خيرًا له**» [رواه مسلم].

وبشّرنا ﷺ بأن الرّضا عن الله برهان على قوة اليقين، ودليل على حُسن الظّن بربّ العالمين، وأنّه الطّريق الأقرب لنيل رضوان الباري جلّ في علاه، وفي الرّضا عن الله نجاة من الهموم، والغموم، والأحزان، والتّسخط، والقلق، والاضطراب النّفسي، فلا تجد الرّاضي عن الله إلّا مُطمئنًا مُنشرح الصّدر، مسرور الخاطر، يعيش أسعد لحظات عمره، وأفضل أيام حياته، لأنّه رضي عن الله فرضي الله عنه.

ووجّه رسول الهُدى ﷺ أُمّته إلى الرّضا عن الله سُبحانه رغم أي ظروف قاسية تمرّ بهم، ولهذا مدح الخالق سبحانه من كانت هذه صفته فقال: {وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ} [التوبة: الآية 59].

فانظر هنا إلى كلمة: {رَضُوا} ، ولم يقل: «**قبلوا أو أخذوا**»، بل: {رَضُوا} رَضُوْاْ بما كتب الله لهم، فانشرحت صدورهم، إن أمسك رَضُوا، إن أرسل رَضُوا، إن قلّل رَضُوا، إن أنعم رَضُوا، وإن ابتلى رَضُوا، إن أصحّ الجسم رَضُوا، وإن أمرضه رَضُوا، إن وهب الذّرية رَضُوا، وإن لم يُقدّرها رَضُوا، إن أغنى رَضُوا، وإن أفقر رَضُوا، فالرّضا المُطلق كما علّمنا نبيّنا ﷺ هو السّلاح الأعظم لتجاوز الصّعاب والأزمات، وتخطي العقبات، في هذه الحياة، وهو البوابة العظمى إلى الفردوس الأعلى والفردوس الأدنى، فردوس الآخرة، وفردوس الدّنيا، وهو نهاية التّسليم، وغاية الإذعان، وديوان العبوديّة، وسرّ الانقياد، وهو غيث يُمطره الله على القلوب المُطمئنة، وسكينة يغشّيها الله الأرواح الطّاهرة، وهو سر انشراح الصّدر، وصلاح الأمر، وإبدال العُسر باليُسر، وهو فرحة عامرة غامرة يجدها من فوّض أمره لربّه، ووثق بتدبير خالقه، وعلم تمام العلم أنّ اختيار الله له خير من اختياره لنفسه، فيرضى على كل حال وهيئة، وفي كل زمان ومكان، يرضى بكل ما قدّر الله وقضى، حينها يكون العذاب من أقدار الله عذبًا، والمُرّ ممّا يجري عليه من القضاء حلوًا، فيتلذّذ

حتى بالمكاره في مرضاة الله، وتُصبح عنده الشّدائد رغائب، ويهنأ ويسعد في أيّ منزلة أنزله الله بها، من شدّة ورخاء، وضرّاء وسرّاء، لأنّه أيقن من قلبه تمام اليقين أنّ ربّه لا يختار له إلّا الأحسن، ولا يكتب له إلّا الأجمل، كما قيل:

دَعِ الأَيّامَ تَفعَلُ ما تَشاءُ ... وَطِب نَفسًا إِذا حَكَمَ القَضاءُ

وَلا تَجزَع لِحادِثَةِ اللَيالي ... فَما لِحَوادِثِ الدُنيا بَقاءُ

وفي الختام أقول للبؤساء والفقراء والمساكين والأيتام والمحرومين والمصابين والمضطهدين والمشرّدين والمنكوبين:

إنّ إمامكم سيد ولد آدم رسول الله ﷺ فاقتدوا به في الرّضا والتّسليم والقناعة والطّمأنينة وانتظار الفَرَج، والرّكون إلى الله، والثّقة بحسن صنيعه تعالى وجميل اختياره، واجعلوا هذه الآية الكريمة نصب أعينكم في كل مُلمّة وأزمة، وفي كل حادثة ومُشكلة، وفي كل خطب وكرب: {وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ} [البقرة: الآية 216].

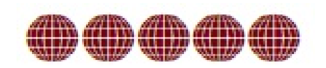
وأقول للمُسلمين المُهتدين بسُنّة سيّد المُرسلين: انزلوا مع رسولكم ﷺ المنازل التي نزلها من غنى وفقر، وسرّاء وضرّاء، وشدّة ورخاء، ومرض وصحة، ونصر وهزيمة، برضا ويقين وتسليم تامٍّ لربّ العالمين، فوالذي نفسي بيده لو فعلتم ذلك لوجدتم الانشراح والأفراح، ولزال عنكم كل أسى ولوعة، وكل هم وغمٍّ، ولدخلتم جنة الدّنيا قبل جنة الآخرة، ولذقتم الأنس بالله والتّلذّذ بقضائه وقدره والفرح بما كتبه؛ لأنّه حكيم لا يختار إلّا الأصلح جلّ في عُلاه، وحينها تنالون سعادة الدّنيا والآخرة:

شمس الرّضا من نور وجهك تلمعُ ... والبدرُ من أنوار هديك يسطعُ

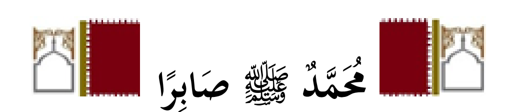
ترضى ولو أنّ الزّمانَ مصائبٌ ... وتظل تشكر والحوادث تُوجعُ

وتُقابل الخطبَ العظيم بهمةٍ ... متوكلًا لا تستكين وتجزعُ

صلّى عليك اللهُ أيّ عقيدة ... في كل قلب بالسّماحة تزرعُ!؟







مُحَمَّدٌ ﷺ صَابِرًا

وصف اللهُ عزّ وجل الصّبر بأنّه جميل فقال سُبحانه: {فَصَبْرٌ جَمِيلٌ} [يوسف: الآية 18]، وهذا أجمل تعريف، وأجلّ توصيف، فالصّبر مُرّ لكنّه جميل، وعذاب لكنّه جميل، وقاس ومؤلم لكنّه جميل، جميل لثماره اليانعة، وجميل لإنجازاته البارعة، فبالصّبر يُدرك المجد، ويُنال الحمد، وكل خلق فاضل سببه ومعينه الصّبر، فلا رحمة، ولا عدل، ولا حلم، ولا كرم، ولا شجاعة، ولا زهد إلّا بالصّبر، وقس عليها كلّ خُلق نبيل:

يا صبرُ إنّك في الخطوب جميلُ فوق المعالي دائمًا إكليلُ

الله أعطاكَ الجمالَ تكرّمًا وأتى به للمصطفى جبريلُ

صبر آدم عليه السلام على مُفارقة الوطن الأوّل في الجنّة، وصبر نوح عليه السلام على فقد الولد، وصبر إبراهيم عليه السلام على مقام ذبح الابن، وصبر يعقوب عليه السلام على فراق يوسف، وصبر موسى عليه السلام على أذى الطّاغية، وصبر سليمان عليه السلام على فتنة الدّنيا، وصبر عيسى عليه السلام على ألم الفقر، أمّا مُحمّد ﷺ فقد صبر عليها كلّها، وعاشها كلّها، وذاقها كلّها.

وبعض الناس يُمدح لصبره على الضراء، أو صبره على الشّدائد، أو صبره في مواقف اللّقاء مع الأعداء، أو صبره على فقد الأحبة، أو صبره على شدة المرض، أو صبره على قلّة ذات اليد، أو صبره على تأخّر مراده، وتطاول الزّمان دون أن ينال ما يطمح إليه، أو صبره على كثرة الخصوم وتألّب الأعداء وكيد المناوئين، أو صبره على قلّة النّاصر وخذلان القريب، أو صبره على

فراق الوطن وإبعاده من أهله وذويه وتشريده عن مُحبيه، أو صبره على القيام بالواجبات وأداء المروءات والصّدق في المقامات، أو صبره على الكفّ عن الهوى وشهوة النّفس والتّهالك على الحطام الفاني، وهذه مُفرّقة في النّاس، ولم تجتمع إلّا في شخص واحد، وإنسان عظيم هو النّبي الكريم ﷺ، فإنّ كل هذه المآسي والمواجع والمصائب والشّدائد والكربات والويلات قد جُمعت له ﷺ، فكان الصّابر في كل موقف، وكان الصّبر درعه في الخطوب، وحصنه في الأزمات، ومطيّته في الأسفار، ولباسه في النّوائب.

لقد صبر ﷺ على الكلام المؤذي، والكيد الخفي، والفقر المُضني، والمرض المُوجع، والفراق المُبكي.

فَقَدَ مَن ناصره وواساه فصبر، وتَشفّى عدوّه وخصمه فيه فَصَبر، وقلّت ذات يده فَصَبر، وسَمعَ من الشّتم المُرّ ما يُمرض القلب فَصَبر، وجُرح في وجهه الشّريف فَصَبر، ونيل من عرضه الطّاهر فَصَبر.

وجميع مقامات الرّيادة في حياته ﷺ نالها بالصّبر، وكل مواقف السّيادة أدركها بالصّبر، فصلاته الخاشعة أدّاها بالصّبر، وتلاوته المُتدبّرة المُباركة أحسنها بالصّبر، وتعليمه للناس ودعوتهم إنّما كانت بالصّبر، وانتصاره في الحروب وكسره للأعداء كان بالصّبر، وتحمّله مصاعب السّفر وآلام التّنقل ومتاعب الرّحلة بالصّبر.

بالصّبر صلّى فكان أفضل المُصلين، وبالصّبر صام فكان أتقى الصّائمين، وبالصّبر جاهد فكان قائد المُجاهدين، وبالصّبر تعبّد فكان قدوة العابدين.

هو الأوّل ﷺ قبل أصحابه في كل موقف يحتاج إلى صبر، إن جاعوا فهو أوّل الجائعين، وعند التّضحية فهو إمام المُضحين، وعند البذل فهو إمام الباذلين.

أجهده الفقر حتى لم يجد درهمًا يتموّل به فصبر، وعضّه الجوع حتى لم يجد كسرة خبز يتقوّت بها فصبر، وأوجعه المرض حتى كان يُوعك ﷺ كما يوعك رجلان فصبر، وتكالب عليه الأعداء هو وأصحابه حتى بلغت القلوب الحناجر فصبر، وصبر ﷺ على فراق الوطن، ومراتع الفتوّة، وملاعب الصّبا، وربوع الشّباب، فترك الأهل والعشيرة والدّار والمال.

وصبر ﷺ على فقد الولد، فاضت أرواح أبنائه بين يديه، وذابت أنفسهم أمام ناظريه.

وصبر ﷺ على ألم الأذى فأُوذي في المنهج والوطن، والسُّمعة والخُلق، والرّسالة والزّوجة.

وصبر ﷺ على بطر الأغنياء، وزهو الكُبراء، وجلافة الأعراب، وصلف الجهلاء، وسوء أدب الجفاة.

وصبر ﷺ على خيانات اليهود، ومراوغة المُنافقين، ومُجابهة المُشركين، وبطء استجابة المدعوين.

وصبر ﷺ على فَرَح الفتح، وافتخار الانتصار، وإقبال الدّنيا، وإذعان الملوك، واستسلام الجبابرة، ودخول النّاس في دين الله أفواجًا.

وصبر ﷺ وهو يرى الكنوز تُفرّغ في أوعية النّاس فلم يأخذ منها لنفسه درهمًا واحدًا، **وصبر** ﷺ وهو يُشاهد القناطير المُقنطرة من الذّهب والفضة يتقاسمها النّاس ولم يحمل منها قطميرًا.

وصبر ﷺ على سكنى بيت الطين، وأكل الشّعير، ولباس الصّوف، وافتراش الحصير.

لقد جعل ﷺ الصّبرَ أعظمَ كنز يحمله الإنسان، وأعظم طاقة تمدّه في طريق مواجهة مصاعب الحياة، وشدائد الزّمان، فعن أبي سعيد الخدري (رضي الله عنه) أنّه ﷺ قال: «**مَن يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ الله، وَمَن يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ الله، وَمَن يَصْبِرْ يُصَبِّرهُ الله، وَما أُعْطِيَ أَحَدٌ مِن عَطَاءٍ خَيْرٌ وَأَوْسَعُ مِنَ الصَّبْرِ**» [مُتّفق عليه].

وقال أسيد بن حضير (رضي الله عنه):«**إنَّ رَجلًا مِنَ الأنْصَارِ** قالَ: **يا رَسولَ الله، ألا تَسْتَعْمِلُنِي كما اسْتَعْمَلْتَ فُلانًا؟** قالَ: **سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي أَثَرَةً، فاصْبِرُوا حتّى تَلْقَوْنِي على الحَوْضِ**» [متفق عليه]. و(**الأَثْرَة**) أي: استئثار النّاس عليهم بالدّنيا ويبخسونهم حقوقهم.

فأخبر ﷺ الأنصار بالعوض والخلف إذا استأثر النّاس عليهم بالأموال والمناصب، ودلّهم على أعظم كنز، وأجلّ عزّ يُغنيهم عن كل شيء، وهو الصّبر، فاجعله شعارك، واتّخذه دثارك، يقول الشاعر:

تَعَزَّ فإنّ الصّبرَ بالحرّ أجملُ ... وليسَ على ريب الزّمان مُعَوَّلُ

فلو كانَ يُغْني أن يُرى المرءُ جازِعًا	لحادثةٍ أو كان يُغني التَّذَلُّلُ
لكان التَّعزي عند كل مُصيبةٍ	ونائبة بالحرِّ أَوْلى وأجملُ
وقَيْنا بحُسن الصّبر منّا نُفوسَنَا	فَصَحّتْ لنا الأعراضُ والنّاسُ هُزَّلُ

الأب مات ولم يره، والأم تُوفّيت في طفولته، والجدّ فارق الدّنيا ولم يُكمل رعايته، والعمّ ذهب وقت النّضال، وخديجة ودّعت يوم الحزن، والابن سالت روحه يوم تمام الحُبّ، وعائشة تُرمى بالإفك ساعة كَمال الأنس، وحمزة يُقتل زمن المصاولة، أَنسَ بالمدينة فنغّص عليه المنافقون أُنسه، استبشر بالنّصر في بدر فأسرعته غُصّة الألم في أُحد، أزهر وجهه كالقمر ليلة البدر فشج بالسّهام، وتلألأت أسنانه كالبرد فكُسرت ثنيته في المعركة.

كذّبوه، شتموه، سبّوه، آذوه، فنزل: {فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ} [طه: الآية 130].

حاربوه، نازلوه، أخرجوه، طاردوه، قاتلوه، فنزل: {وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ} [النحل: الآية 127].

هجروه، وأعرضوا عنه، وصدّوا عن سبيله، ووقفوا في طريقه، فنزل: {فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلاً } [المعارج: الآية 5].

طال عليه المدى، ترقَب النّصر، كثر العدوّ، تزاحمت النّكبات، فنزل: {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ} [الروم: الآية 60].

ردّ عليه قومه أقذع ردٍّ، وأفظع جواب، وأبشع خطاب، وأقبح مواجهة، فنزل: {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ} [الأحقاف: الآية 35].

فكان صبره ﷺ صبرًا جميلًا، صبر الواثق بنصر الله، المُطمئن إلى وعد الله، الرّاكن إلى مولاه، المُحتسب الثّواب من ربّه جلّ في عُلاه.

صَبَرَ ﷺ صبرَ من عَلم أنّ الله ناصرُه لا محالة، وأنّ العاقبة له، وأنّ الله معه حسبه وكافيه.

يصبر على الكلمة النّابية فلا تهزّه، وعلى اللّفظة الجارحة فلا تزعجه، وعلى الإيذاء المُتعمّد فلا ينال منه، ليبقى أجره في الآخرة موفورًا، وسعيه عند ربه مشكورًا، وليلقى وليّه ومعبوده

مسرورًا، ويجتمع له الثّواب كلّه، أوله وآخره، في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

واستحق ذلك ﷺ فله الزّلفى، وتمام الرّفعة، والوسيلة والفضيلة، والمنازل الجليلة لأنّه صبر. وله المقام المحمود، والحوض المورود، واللّواء المعقود، لأنّه صبر. وله الشّفاعة، والقرب، والحظوة، لأنّه صبر.

وماذا أقول، وماذا أترك إذا تحدّثت عن مواقف صبره ﷺ التي تجفّ الأقلام إذا كتبتُ عنها، وتنتهي الأوراق إذا دوّنتها!؟

لقد صبر ﷺ على أذيّة المُشركين لمّا تجاوزوا كل الأعراف القبليّة، ومعاني المروءة والشّهامة في أذيّته صلوات ربّي وسلامه عليه، يقول ابن مسعود: (رضي الله عنه) «**بيْنَما رَسولُ الله ﷺ يُصَلِّي عِنْدَ البَيْتِ، وَأَبُو جَهْلٍ وَأَصْحابٌ له جُلُوسٌ، وَقَدْ نُحِرَتْ جَزُورٌ بالأمْسِ، فَقالَ أَبُو جَهْلٍ: أَيُّكُمْ يَقُومُ إلى سَلا جَزُورِ بَنِي فُلانٍ، فَيَأْخُذُهُ فَيَضَعُهُ في كَتِفَيْ مُحَمَّدٍ إذا سَجَدَ؟ فانْبَعَثَ أَشْقى القَوْمِ فأخَذَهُ، فَلَمّا سَجَدَ النبيُّ ﷺ وَضَعَهُ بيْنَ كَتِفَيْهِ، قالَ: فاسْتَضْحَكُوا، وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَمِيلُ على بَعْضٍ وَأَنا قائِمٌ أَنْظُرُ، لو كانَتْ لي مَنَعَةٌ طَرَحْتُهُ عن ظَهْرِ رَسولِ الله ﷺ، والنبيُّ ﷺ ساجِدٌ ما يَرْفَعُ رَأْسَهُ حتّى انْطَلَقَ إنْسانٌ فأخْبَرَ فاطِمَةَ، فَجاءَتْ ـ وَهي جُوَيْرِيَةٌ ـ فَطَرَحَتْهُ عنْه**» [متفق عليه].

ومشهد آخر في غاية الشّناعة، ومُنتهى الفظاعة، عندما أقبل عُقبة بن أبي مُعيط ورسول الله ﷺ يُصلّي في حِجْر الكعبة، فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ ولوى ثوبه في عنقه، فخنقه خنقًا شديدًا، فأقبل أبو بكر (رضي الله عنه)، فأخذ بمنكبه، ودفعه عن رسول الله ﷺ وقال: «**أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ؟**» [رواه البخاري].

وبلغت أذيّتهم للنّبي ﷺ حتى شجّوا وجهه الشّريف، وأسالوا دمه الطاهر، يقول سهل بن سعد السّاعدي(رضي الله عنه): «**لَمّا كُسِرَتْ بَيْضَةُ النّبيّ ﷺ على رَأْسِهِ، وأُدْمِيَ وجْهُهُ وكُسِرَتْ رباعِيَتُهُ، وكانَ عَلِيٌّ يَخْتَلِفُ بالماءِ في المِجَنِّ، وكانَتْ فاطِمَةُ تَغْسِلُهُ، فَلَمّا رَأَتِ الدَّمَ يَزِيدُ على الماءِ كَثْرَةً، عَمَدَتْ إلى حَصِيرٍ فأحْرَقَتْها وأَلْصَقَتْها على جُرْحِهِ، فَرَقَأَ الدَّمُ**» [رواه البخاري].

ففي تلك المعركة شُجّ وجهه الشّريف، وجُرح في جبينه، وكُسرت رباعِيَتُهُ، مع الإعياء الذي أصابه، والتّعب والجوع والإرهاق الشّديد من مصاولة الأعداء، ومع هذا كلّه صبر واحتسب عليه الصّلاة والسّلام.

وبلغ الأذى ذروته والمكائد قمتها إلى درجة أنّ الصّحابة رضوان الله عليهم قالوا له ﷺ: ألا تستنصر لنا؟! ألا تدعو لنا؟! فما كان جوابه ﷺ إلّا أن قال لهم: «**قدْ كانَ مَن قَبْلَكُمْ، يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فيُحْفَرُ له في الأرْضِ، فيُجْعَلُ فيها، فيُجاءُ بالمِنْشارِ فيُوضَعُ علَى رَأْسِهِ فيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ، ويُمْشَطُ بأَمْشاطِ الحَدِيدِ، ما دُونَ لَحْمِهِ وعَظْمِهِ، فَما يَصُدُّهُ ذلكَ عن دِينِهِ، واللهِ لَيَتِمَّنَّ هذا الأمْرُ، حتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِن صَنْعاءَ إلى حَضْرَمَوْتَ، لا يَخافُ إلَّا اللهَ، والذِّئْبَ علَى غَنَمِهِ، ولَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ**» [رواه البخاري].

الله أكبر! أيّ همّة، وأيّ صبر جاء به هذا النّبي الكريم!؟ لقد بلغت ثقته بوعد ربّه أن يُقسم قسمًا على الله أنّه سوف يُتم أمره، وينصره نصرًا مؤزّرًا، وهو ما حصل بالفعل، وما أجمل قوله ﷺ: «**ولَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ**»! «أي: تريدون المقاصد بلا أسباب، والمجد بلا ثمن، والمعالي بلا تضحيات، ونسيتم أنّ الصبر مفتاح كل هذه الأبواب».

وصبر ﷺ على مقاطعة المشركين له ومحاصرته وقرابته في شِعْب أبي طالب ثلاث سنوات عِجاف، ونصّت بنود المقاطعة والحصار على عدم مُبايعتهم أو مُناكحتهم أو مُكالمتهم أو مُجالستهم حتى يتخلَّوا عن النّبي ﷺ وينفَضّوا من حوله، وكتب كُفّار قريش صحيفة، وعلّقوها في جوف الكعبة، فبقي ﷺ مع أصحابه يأكلون أوراق الشّجر من الجوع، ومع ذلك لم يستسلم ﷺ، ولم يهادن، ولم يتنازل عن رسالته ولا مبدئه ولو بكلمة واحدة، وبقي صابرًا محتسبًا كالطّود الشّامخ يُعلن رسالته بكل قوة، ويُردّد قبل الحصار، وفي الحصار، وبعد الحصار: «**يا أيُّها الناسُ، قُولوا: لا إلهَ إلّا اللهُ، تُفلِحوا**».

يُردّدها بعزيمة وإصرار، وإباء وشموخ، فلم تُكسر له قناة، ولم يُفلّ له عزم، ولم تضعف له همّة، لقد حُوصر ﷺ في مواطن كثيرة، فما زاده ذلك إلّا عزمًا ومضاءً، كما قيل:

ما أَبعَدَ العَيبَ وَالنُقصانَ عَن شَرَفي	أَنا الثُرَيّا وَذانِ الشَيبُ وَالهَرَمُ
كَم تَطلُبونَ لَنا عَيبًا فَيُعجِزُكُم	وَيَكرَهُ اللهُ ما تَأتونَ وَالكَرَمُ

حُوصر ﷺ في بيته يوم طوّقه المُشركون ونام عليٌّ (رضي الله عنه) في فراشه، وحُوصر ﷺ مع أبي بكر الصّديق (رضي الله عنه) في الغار بخمسين شابًا وخمسين سيفًا، وحُوصر ﷺ في

شِعْب أبي طالب، وحُوصر ﷺ في المدينة من الأحزاب، ومع كل هذه الحصارات كان ﷺ أعظم صبرًا، وأكثر توكلًا على الله، وأجلّ ثقةً بربّه، وأجمل حسن ظن بمولاه.

وهناك حصار أفظع وأشنع، وهو حصار الدّعوة حتّى لا تصل إلى النّاس، فقد قام المشركون بكُل جُهد لمنع دعوته، وبكل وسيلة لحبس رسالته، وقد وصف القرآن أساليبهم في مُحاربته، فقال سُبحانه: {وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} [الأنفال: الآية 30].

فكان كفار قريش - ومنهم عمّه أبو لهب - يقومون في الأسواق يُحذّرون النّاس منه ﷺ ويخبرون العرب بأنّه مجنون، وتارة ساحر، وتارة كاهن، وتارة شاعر، أعاذه الله من ذلك كله!

وحصار الفكر والعلم والدّعوة من أقسى ما يمرّ على النّفوس، وأشدّ ما يعصف بالأرواح، ومع ذلك صبر ﷺ وواصل ولم تلن له عريكة، ولم يفتر له عزم، بل كان يصل إلى الضّعفاء والمساكين والموالي يُعلّمهم ويدعوهم، ويُواصل نشر رسالته حتّى كانت العاقبة الحميدة له ﷺ.

حاول أعداؤه أن يُحاصروه بين الجدران، فدخل حُبّه كلّ جنان، حاولوا أن يخنقوا صوته، فبلغ الآفاق صيته.

ولم يترك المشركون والمنافقون واليهود وأعداء الرّسالة أيّ لفظ يُسيء للنّبي ﷺ إلّا قالوه، ولا شتيمة إلّا تفوّهوا بها، ولهذا يُعزّيه ربّه ويُسليه بقوله تعالى: {وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} [الأنعام: الآية 10]، ويقول سبحانه: {وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَانِ هُمْ كَافِرُونَ} [الأنبياء: الآية 36]؛ لأنّهم لمّا عجزوا عن مُقارعة الحُجّة بالحُجّة، والبرهان بالبرهان، رجعوا إلى أسلوب خسيس بذيء دنيء وهو التّعرّض لمقامه الشّريف، وعرضه الطاهر، ومجده المنيف ﷺ، فأخذوا يخترعون له ألقابًا، وشتائم ليهْزؤوا من شخصه الكريم، فما زاده ذلك إلّا صبرًا، ومواصلةً، واستمرارًا.

اتّهموه ﷺ بالجنون، وصانه الله من ذلك، قال تعالى: {وَقَالُوا يَاأَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ} [الحجر: الآية 6]، فدافع الله عنه، فقال تعالى: {وَمَا * صَاحِبُكُمْ * بِمَجْنُونٍ *} [التكوير:

الآية 22]، وقال سبحانه: {ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ} [القلم: الآية 1-2].

أمجنون من يأتي بالآيات المُحكمات، والمُعجزات الباهرات، والدلائل الساطعات؟!

أمجنون من أتى بالملّة المُطهّرة، والبراهين الدّامغة، والسّنن العظيمة، والأخلاق الكريمة؟!

أمجنون من لم تحفظ له عثرة، ولم تُنقل عنه زلّة، ولم تُؤثر عنه كذبة؟!

بل المجنون من كذّبه، وعصاه، وردّ الحق الذي بُعث به ﷺ.

واتّهموهﷺ بأنّه كاهن يتنبّأ بالأخبار المُستقبلية، يقول تعالى: {ولاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ} [الحاقة: الآية 42]. فهو أبعد ما يكون ﷺ عن الكهانة؛ لأنّ الكهانة عمل المشعوذين الأفّاكين الآثمين، وشغل اللّاهين الدّجاجلة الكذّابين، أمّا هو فصاحب نور ربّاني، ووحي سماوي، وميراث نبويّ شريف.

واتّهموه ﷺ بأنّه شاعر، قال تعالى حكاية عنهم: {أَإِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ} [الصافات: الآية 36]، وقال تعالى: {أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ} [الطور: الآية 30]، وقال تعالى: {بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ بَلْ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ} [الأنبياء: الآية 5].

ولم يكن بشاعر -بأبي هو وأمي- لأنّ الشاعر يضرب في أودية الخيال، ويهيم في أوهام التّصور، ويخبط خبط عشواء في سراديب الضّلال إلّا من عصمه الله، يقول ربّ العزة والجلال في وصفهم: {وَالشُّعَرَاءُ * يَتَّبِعُهُمُ * الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ} [الشعراء: الآية 224 - 226]، بل جاء بالحقّ وصدّق المُرسلين، وجاء بالبيان وأيّد النّبيين، قال تعالى: {وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ} [يس: الآية 69].

واتّهموه ﷺ بأنّه ساحر صانه الله عن ذلك قال تعالى: {أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ} [يونس: الآية 2]، وهو أبعد ما يكون ﷺ عن السّحر، بل جاء ﷺ بما يُبطل السّحر، ويدمغه ويسحقه؛ لأنّ السّاحر يُغيّر الحقائق، ويلعب على العقول ويهيم بالأفئدة، قال تعالى: {كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ} [الذاريات: الآية 52].

واتّهموه ﷺ بأنّه أبتر لا يُنجب، كما روى عبدالله بن عباس (رضي الله عنهما)، قال: **لمّا قدِم كعبُ بنُ الأشرفِ مكَّةَ أتَوْه فقالوا: نحنُ أهلُ السِّقايةِ والسَّدانةِ وأنتَ سيِّدُ أهلِ يثرِبَ فنحنُ خيرٌ أم هذا الصُّنَيْبِيرُ المُنبَتِرُ مِن قومِه يزعُمُ أنَّه خيرٌ منّا؟** فقال: «**أنتم خيرٌ منه**» فنزَل على رسولِ الله ﷺ: {إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ} [الكوثر: الآية 3] [رواه ابن حبّان].

فلفظة: (**الصُّنَيْبِيرُ المُنبَتِرُ**) يقصدون بها رسول الله ﷺ، وهي لفظة بشعة مهينة مشينة استخدمها هذا المُشرك الأفّاك الأثيم للنّيل من شخصه الكريم ﷺ، حتى في تكوينه الشّخصي لم يسلم منهم ﷺ، فردّ الله عليهم ودمغهم فقال سبحانه: {إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ} [الكوثر: الآية 3]. أيّ أنّ عدوّك هو الأبتر مقطوع البركة، مقطوع النّفع، مقطوع الأثر الطّيب في الأرض، مقطوع السّمعة الجميلة، والثّناء الحسن، أمّا أنت فأنت المُبارك، باقي الأثر إلى يوم الدّين، وسوف يبقى ذكرك يدوي في العالمين، وسيرتك تُدرّس في الخالدين.

واتّهموه ﷺ في عرضه الشّريف، في زوجته الطّاهرة المبرّأة من فوق سبع سماوات، الصدّيقة بنت الصدّيق، عائشة أم المؤمنين (رضي الله عنها) ؛ لأنّها كانت أحبّ النّساء إليه، فبرّأها الله، وأنزل فيها قرآنًا يُتلى إلى يوم القيامة.

واتّهموه ﷺ أنّه يذهب إلى غلام نصراني كان يقرأ التوراة والإنجيل من الموالي الفُقراء المساكين في مكة، وكان حدّادًا يصنع السّيوف، ذهب يدعوه ﷺ فقال كفار قريش: «محمد ذهب يتعلّم القرآن منه»، وهو أعجمي والنّبي ﷺ عربي، والقرآن عربي، فرد القرآن على هذه الشّبه بأبلغ رد فقال تعالى: {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ} [النحل: الآية 103].

واتّهموهﷺ أنّه يكذب -أعاذه الله من ذلك- وكيف يكذب وهو أصدق البشر؟ كيف يكذب وقد أيّده الله بالآيات البيّنات، والمُعجزات الخالدات؟ بل هو أصدق من أظلّت الخضراء، وأقلّت الغبراء، اتهموه بالكذب وهم يعلمون أنّه أصدق النّاس، فعن أبي سفيان أنّه لمّا سأله هرقل يوم قابله، فقال: «**هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟** فقلت: **لا.** قال: **فقَدْ أعْرِفُ أنَّه لَم يَكُنْ لِيَذَرَ الكَذِبَ علَى النَّاسِ ويَكْذِبَ علَى الله**». [متفق عليه].

فالكذب على الله أصعب وأشد من الكذب على النّاس، ولهذا عزّاه اللهُ وسلّاه لمّا كذّبه أعداؤه فقال: {وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ} [الأنعام: الآية 34].

واتّهموه ﷺ أنّه يكتب صُحفًا في اللّيل ويقرؤها في النّهار، قال تعالى: {وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً} [الفرقان: الآية 5]. كيف يكتتبها في اللّيل وهو لم يقرأ ولم يكتب، والله سُبحانه يقول عنه: {وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لاَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ * بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ} [العنكبوت: الآية 48 - 49]، بل هو ﷺ نبيّ أمّي معصوم مؤيّد بوحي من الله.

واتّهموه ﷺ بأنّه يفتري ويختلق أحاديث لا أصل لها، ولهذا ردّ اللهُ عليهم، فقال سبحانه: {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ} [هود: الآية 35]، ويقول سبحانه: {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ} [السجدة: الآية 3].

لقد تعرّضوا لشخصه الكريم ﷺ مرّةً بحرب شعواء، ومرّةً بإفك أثيم، وكيد خفي مدسوس من المُنافقين، ومرّةً بمُكاشفة وقحة، وبهجوم قبيح، والقرآن يُجيب على الشُّبه شبهةً شُبهةً، ويرد على السّخريات سُخريةً سُخريةً، ويُفنّد الأقاويل الآثمة قولًا قولًا، وخرج ﷺ بعد كل هذه الاتهامات، وكل هذه الافتراءات، وجميع هذه الشتائم والدّسائس وهو أصدق النّاس، وأبرّ البشر، وأطهر الخليقة، إلى يوم الدّين.

وصبر ﷺ على الجوع والفقر ومشاق الحياة، فذاق وأصحابه كلّ أنواع المشاق من جوع وفقر وحاجة، فكان أوّل من يجوع إذا جاعوا، وأوّل مَن يتعب إذا تعبوا، وأوّل مَن يُضحّي إذا ضحّوا، فعن أنس بن مالك (رضي الله عنه) أنّ النّبي ﷺ قال: «**لقَدْ أُخِفْتُ في اللهِ وما يُخافُ أحَدٌ، ولقدْ أوذيتُ في اللهِ وما يُؤذَى أحَدٌ، ولقدْ أتَتْ علَيَّ ثلاثونَ ، من بينِ يومٍ وليلَةٍ ، وما ليَ ولبلالٍ طعامٌ يأكُلُهُ ذو كبدٍ إلّا شيءٌ يواريه إبطُ بلالٍ**» [رواه أحمد والترمذي].

لقد كان رسولنا ﷺ يبحث عن قوت يومه، وأحيانًا لا يجد كسرة خبز يسدّ بها رمق جوعه، ولا يجد حفنة من تمر يُقيم بها صلبه، فعن النّعمان بن بشير (رضي الله عنه) قال: سمعت عمر بن

الخطاب (رضي الله عنه) يخطب فذكر ما فتح على النّاس فقال: «**لقَدْ رَأَيْتُ رَسولَ الله ﷺ يَظَلُّ اليومَ يَلْتَوِي، ما يَجِدُ دَقَلًا يَمْلأُ به بَطْنَهُ**» [رواه مسلم].

واسمعْ أبا هريرة (رضي الله عنه) يروي لنا قصة من قصص صبره ﷺ على الجوع فيقول: «**خَرَجَ رَسولُ الله ﷺ ذاتَ يَومٍ - أَوْ لَيْلَةٍ - فَإِذا هو بأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ،** فَقالَ: **ما أَخْرَجَكُما مِن بُيُوتِكُما هذِه السّاعَةَ؟** قالا: **الجُوعُ يا رَسولَ الله،** قالَ: **وَأَنا، والَّذِي نَفْسِي بيَدِهِ، لأَخْرَجَنِي الذي أَخْرَجَكُما**» [رواه مسلم].

فانظر إلى أحبّ خلق الله إلى الله، وأقربهم منه، كيف صبر على شظف العيش بين جوع وفقر، وجهد ومشقة، وبذل وتضحية، فماذا يقول الأثرياء والوجهاء والأغنياء الذين قلّ شكرهم على النّعم، وقلّ صبرهم على الشّدائد؟!

أحاطه ﷺ الأعداء من كل جانب، وأرهقه التّعب والإجهاد، لكن كان معه الملاذ الآمن في الأزمات، والدّرع الحصين في المُلمّات، إنّه الصّبر الجميل، وتمرّ به أيام وليال من المعاناة والتّضحية، ويبقى صابرًا، صامدًا، مُحتسبًا، يقول جابر: (رضي الله عنه) «**إنّا يَومَ الخَنْدَقِ نَحْفِرُ، فَعَرَضَتْ كُدْيَةٌ شَدِيدَةٌ -صخرة صلبة-، فَجاؤُوا النَّبيَّ ﷺ** فقالوا: **هذِه كُدْيَةٌ عَرَضَتْ في الخَنْدَقِ،** فَقالَ: **أنا نازِلٌ. ثُمَّ قامَ وبَطْنُهُ مَعْصُوبٌ بحَجَرٍ، ولَبِثْنا ثَلاثَةَ أيّامٍ لا نَذُوقُ ذَواقًا**» [رواه البخاري].

لقد اجتمع له ﷺ الإيثار، والصّبر، وكرم النّفس، والتّواضع، وهي شمائل نبويّة، وفتوحات ربّانية، لا تجتمع بكمالها وجمالها إلّا في نفسه الشّـريفة المُطهرة، وهذه السّجايا الحميدة والخصال النّبيلة ومعجزة البركة في الطّعام على يديه ﷺ من علامات نبوّته وشواهد رسالته.

وصبر ﷺ على المنافقين لمّا قاموا في المدينة بالمكر والكيد له ولدعوته وافتعلوا الدّسائس والمؤامرات للنّيل من مقامه الشّـريف ﷺ.

ومن مواقف صبره على المنافقين: ما جاء في «الصّحيحين» عن أسامة بن زيد (رضي الله عنهما)، أنَّ النبيَّ ﷺ مرّ ومعه بعض أصحابه بمجلس فيه عبدُ الله بن أُبيٍّ ابن سَلول رأس المُنافقين، فسلّم ﷺ ودعاهم إلى الإسلام فأغلظ عبدالله بن أُبَيٍّ القول للنّبي ﷺ، وحصل خلاف وتنازع وخصام فنزل ﷺ من على حماره وسكّت الناس وسكّنهم، ثم عفا ﷺ عنهم وصفح وصبر، وكان رئيسهم في النّفاق والمكر والكيد عبدالله بن أبي ابن سلول، وهو الذي قال تعالى حكاية عنه: {لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى

الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ} [المنافقون: الآية 8]، يقصد أنّه الأعز - قاتلهُ اللهُ - ويقصد بالأذل: نبيّ الله ﷺ -صانه اللهُ- وهو الذي انخذل بثلث الجيش في أحد، وهو المقصود بقوله تعالى في قصة الإفك: {لِكُلِّ امْرِىءٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [النور: الآية 11]، وهو الذي نال من أمّ المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) ، وطعن في عرض النّبي ﷺ، ورغم هذا كلّه صبر عليه ﷺ، وتحمّل مكره وكيده وأذيّته.

وفي تبوك جلس المنافقون يسمرون ويمزحون ويخوضون في الحديث، وينالون من النّبي ﷺ ومن أصحابه، ويقولون: «**ما رأينا مثلَ قُرَّائِنا هؤلاءِ أرغبَ بطونًا، ولا أكذبَ ألسُنًا، ولا أجبَنَ عندَ اللّقاءِ**»، يقصدون رسول الله ﷺ والصّحابة رضوان الله عليهم، فكشف الله سرّهم، وهتك سترهم، وأنزل فيهم: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لاَ تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ} [التوبة: الآية 65 - 66].

وقد نقل لنا القرآن الكريم صورًا كثيرة ومواقف مثيرة لخبثهم ومكرهم وما دبّروه من مكائد خفية، وهنا يتجلّى عظيم صبره ﷺ على هذه الدسائس والمكائد، ونظرته للمقاصد العُظمى والغايات الكُبرى من تأليف النّاس، وتسكين الفتنة، والمُحافظة على السّمعة، وجذب الأمم للإسلام.

ويا ليتنا نتعامل مع أصدقائنا - ولا أقول: مع أعدائنا - كما تعامل ﷺ مع أعدائه من المُنافقين، فإنّه لم ينتقم منهم، وصفح عنهم، وصبر عليهم، واستغفر لهم، وقَبِل عُذرهم، ووكّل سرائرهم إلى الله، ودعاهم بالتي هي أحسن، بينما كان بعض الصّحابة يستأذنونه في قتل بعض المُنافقين وعلى رأسهم عبدُ الله بن أُبيٍّ بن سَلول، لكنه ﷺ منعهم، وردّ بكل صبر قائلًا: «**لا يَتَحَدَّثُ النّاسُ أنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أصْحابَهُ**» [متفق عليه].

بل كانوا يحضرون الصلاة معه في الظاهر، ويُشاركونه الطعام والجلوس، ولم يمنعهم من ذلك، وامتثل أمر ربّه سبحانه: {وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ} [النحل: الآية 127].

ومن رحابة صبره وسعة صدره ﷺ أنّه تعايش مع جميع الفئات في المدينة من المؤمنين والمنافقين واليهود، بكلّ صبر وسلام، وأُلفة ومودة، يقول ﷺ: «**المؤمنُ الَّذي يُخالِطُ النَّاسَ ويَصبرُ على أذاهم أعظمُ أجرًا من الذي لا يخالِطُهم ولا يَصبرُ على أذاهم**» [رواه أحمد والتّرمذي].

وصبر ﷺ على المرض وآلامه، فكان يقضّ مضجعه الألم، وتزوره الحمّى بحرارتها فيتلقّاها ببرودة صبره، ويُطفئ نارها بماء يقينه، ليرفع اللهُ درجته في علّيين، ويُبقي ذكره في الخالدين، يقول عبدالله بن مسعود(رضي الله عنه): «دَخَلْتُ على رَسولِ الله ﷺ وهو يُوعَكُ وعْكًا شَدِيدًا، (يوعك) أي (يصيبه الألم والتّعب من الحمى)، فَمَسِسْتُهُ بيَدِي فَقُلتُ: يا رَسولَ الله، إنَّكَ لَتُوعَكُ وعْكًا شَدِيدًا؟ فقالَ رَسولُ الله ﷺ: **أجَلْ، إنِّي أُوعَكُ كما يُوعَكُ رَجُلانِ مِنكُم.** فَقُلتُ: **ذلكَ أنَّ لكَ أجْرَيْنِ؟**، فقالَ رَسولُ الله ﷺ: **أجَلْ.** ثُمَّ قالَ رَسولُ الله ﷺ: **ما مِن مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أذًى، مَرَضٌ فَما سِواهُ، إلّا حَطَّ الله له سَيِّئاتِهِ، كما تَحُطُّ الشَّجَرَةُ ورَقَها**» [متفق عليه]، والحمى من أكثر الأمراض إيلامًا للجسد، وهي في الغالب تأتي المريض ليلًا.

وعن عائشة (رضي الله عنها) : «أنَّهَا سَأَلَتْ رَسولَ الله ﷺ عَنِ الطَّاعُونِ، فأخْبَرَهَا نَبِيُّ الله ﷺ: «**أنَّه كانَ عَذَابًا يَبْعَثُهُ اللهُ علَى مَن يَشَاءُ، فَجَعَلَهُ اللهُ رَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ، فليسَ مِن عَبْدٍ يَقَعُ الطَّاعُونُ، فَيَمْكُثُ في بَلَدِهِ صَابِرًا، يَعْلَمُ أنَّه لَنْ يُصِيبَهُ إلَّا ما كَتَبَ اللهُ له، إلَّا كانَ له مِثْلُ أجْرِ الشَّهِيدِ**» [رواه البخاري]، ويقول أنس بن مالك (رضي الله عنه)، قال ﷺ: «**إنَّ الله قالَ: إذا ابْتَلَيْتُ عَبْدِي بحَبِيبَتَيْهِ فَصَبَرَ، عَوَّضْتُهُ منهما الجَنَّةَ. يُرِيدُ: عَيْنَيْهِ**» [رواه البخاري].

وصبر ﷺ على طاعة الله وعبادته جلّ في عُلاه، فلم يكن صبره على البلاء والشّدائد والمصاعب فقط، بل كان هناك صبر آخر، صبر جميل على أداء العبادات في أجمل حالاتها كما يُحب اللهُ تعالى، وقد أمره اللهُ بالصّبر في مواقف كثيرة في القرآن فقال سُبحانه عند ذكر الصّلاة: {وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاَةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا} [طه: الآية 132]، ولهذا قرن سُبحانه الصّبر بالصّلاة؛ لأنّها كما وصفها ﷺ رباط، تأتي مع اختلاف المناسبات، وتغيّر الحالات، من حرٍّ وبرد، وصيف وشتاء، ونوم ويقظة، وليل ونهار، وحل وترحال، وصحة ومرض، قال تعالى: {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ} [البقرة: الآية 45].

وقد أمره سبحانه وتعالى بالصّبر على إتمام العبادة وأداء الطّاعة فقال سبحانه: {رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا} [مريم: الآية 65]، وكل العبادات وشعائر الدّين تحتاج إلى صبر، وقد صبر ﷺ على أداء الصّيام في أكمل صوره، وصبر ﷺ على أداء الحج ومعاناة مصاعب السّفر إليه، وأدائه أحسن الأداء من سعي وطواف ووقوف ومبيت ورمي ونحر.

وصبر ﷺ على أعباء الدّعوة، وتبليغ الرّسالة، فمنذ أن أنزل الله عز وجل عليه قوله: {يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ * وَلاَ تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ * وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ} [المدثر: الآية 1- 7]، بعدها قام قيامًا لم يعرف بعده راحةً ولا فتورًا، ولا كسلًا، وإنّما صبر، ومجاهدة، وجلاد، وسهاد وتضحية، وبذل وعطاء، مُمْتثلًا أمر ربّه: {رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا} [مريم: الآية 65]، وهذا في العبادة، فليله ﷺ: {قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً} [المزمل: الآية 2]، ونهاره: {قُمْ فَأَنْذِرْ} [المدثر: الآية 2]، فـ«سورة المُدّثر» للإنذار والتّبليغ، ونشر الدّعوة وتعليم الرّسالة، و«سورة المزّمل» للتزود بقيام اللّيل، والتّهجد في الظّلماء، والتّبتل لربّ الأرض والسّماء، فكان ليله ونهاره ﷺ بين تهجّد وجهاد، وعلم وتعليم، وعبادة ودعوة، وتزوّد وتبليغ.

إنّ أفراد النّاس يصبر كل واحد منهم على ما فُتح عليه من باب عبادة أو علم، فمنهم مَن يصبر على الصيام حتى يُعرفَ به، ومنهم مَن فُتح عليه في الجهاد، وآخر في كثرة النّوافل في الصّلاة، ورابع في تبليغ الدّين وتعليم النّاس، وخامس في بذل المال، وسادس في العدل والإصلاح بين الناس... إلى آخر هذه القائمة من الفتوحات الرّبانية على سائر البشريّة.

أمّا رسولُنا ﷺ ففُتح عليه في كلِّ باب: فهو الأوّل في العبادة والطّاعة بأنواعها، من صلاة وصيام وحج وجهاد وتعليم وعدل ورعاية وولاية وتربية، فسبحان من جعله المُقدّم في كل فضيلة! وجعله الأوّل في كل خصلة نبيلة!

وأقول: لا يوجد باب من أبواب الخير والعطاء، والبذل والفداء، إلّا وكان رسولنا ﷺ هو الأسوة في هذا الباب، والقدوة في هذا الطّريق؛ ولهذا عرّفه الله بذلك، ونوّه بهذا المقام الشّريف، وهذه هي الوظيفة المُقدّسة، فقال سُبحانه: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا} [الأحزاب: الآية 21].

فمن الذي صلّى أطول صلاة فقرأ في ركعة واحدة بعد الفاتحة سورة البقرة والنّساء وآل عمران على ترتيب ابن مسعود؟

ومن الذي قام أطول قيام في صلاة الكسوف نهارًا فقرأ قراءة طويلة مقدار سورة البقرة، وركع نحو ذلك، ورفع نحو ذلك، وسجد نحو ذلك، حتى تجلّت الشّمس؟

ومن الذي صام أطول صيام على مرّ التاريخ؟ إنّه وحده ﷺ الذي كان يتابع اللّيالي والأيام صيامًا مواصلًا، ونهى أصحابه أن يواصلوا.

ومن الذي دعا أطول دعاء على مرّ الدهر؟ إنّه هو ﷺ، فقد دعا يوم عرفة من صلاة الظّهر إلى صلاة المغرب في وقفة واحدة دعاءً واحدًا مُتّصلًا.

ومن الذي صبر على أعظم وأشق رحلة؟ رحلة الهجرة من دار الكفر الى دار الايمان، رحلة المعاناة والجوع والظمأ والتعب والاعياء، والتربص من الأعداء، رحلة الهجرة العظيمة التي قام بها ﷺ مع صاحبه الصدّيق (رضي الله عنه).

ومن الذي صبر على كثرة الوظائف، وتنوّع المهام، وتعدد التّخصصات؟

صبر ﷺ على تربية النّاس وتزكيتهم، وتطهيرهم، وفيهم الجافي، والجاهل، والمُعاند، والمغرض.

وصبر ﷺ على تبليغ الرّسالة للجن والإنس، والحاضر والباد، والرّجل والمرأة، والكبير والصغير.

وصبر ﷺ على تنفيذ الأحكام العادلة في السّلم والحرب، والرّضا والغضب، والحلّ والتّرحال، ووقت الرّاحة والتّعب، فما ظلم، ولا استبدّ، ولا جار.

رسول الله ﷺ هو قدوة الصّابرين إلى يوم الدّين، وكلّ أذى مرّ بأيّ فرد من أفراد أمّته، أو خوف أو جوع أو فقر أو مشقّة فهو السّابق في هذا الباب، والأسوة في هذا الطّريق، وقد أراد الله تعالى أن يمرّ ﷺ بهذه الظّروف القاسيّة، وهذه المواقف الشّاقة؛ ليكون قدوة لأمّته، ويجمع بين صدق القول، وصحّة العمل، وأن يكون أجره موفورًا، وسعيه مشكورًا، وعمله مبرورًا.

وعلّمنَا رسولُنا ﷺ أنّ الصّبر هو جندك الذي لا يُغلب، وكنزك الذي لا ينفد، ومعينك الذي لا ينضب، إنّه عوض لكل فاقد، وسلوة عن كل ذاهب، وعزاء في كل مصاب، قرّة عين للصّابرين، وبشرى للمحتسبين بأجر ربّ العالمين.

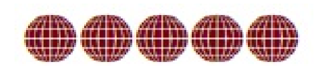
ولو ذهب بنا الحديث في ذكر صبره ﷺ على أنواع الأذى وتحمّله لمختلف المشاق، لطال المقام ولكثر الكلام، ولكننا نقف خاشعين مبهورين مذهولين أمام هذه القمّة السّامقة، والعظمة الباذخة في شخص النّبي الكريم ﷺ الذي جعله اللهُ للعالمين قدوةً أسمى، ومثلًا أعلى.

الصّبرُ من ديوانِ أحمدَ يُكتبُ ... صبر النّبوّة في الحياة مُحبّبُ

علّمتنا الصّبرَ الجميلَ عبادةً ... ومعين صبرك للورى لا يَنضُبُ

شيّدت فينا الصّبر صرحًا شامخًا ... فحياتنا من نهر صبرك تَعذُبُ

الصّبر يَنهل منك حُسن صنيعهِ ... والمجدُ في دُنيا سموّك يَخطبُ





مُحَمَّدٌ ﷺ شَاكِرًا

مَن يقرأ سيرته ﷺ يجد أنّ الشّكر قد ملأ حياته، واستغرق أوقاته، لأنّه يرى نِعم الله تترى من بين يديه، ومن خلفه، وعن يمينه، وعن شماله، فهو يُثني ويمدح ويقدّس، بل إنّك إذا ذهبت تدقّق أحاديثه ﷺ في الأذكار والأدعية تجدها مملوءة بالحمد والشّكر، فثناؤه على ربّه حمد، ومدحه لمولاه حمد، ودعاؤه لخالقه حمد، ومقامه يوم القيامة في الشّفاعة الكبرى هو مقام الحمد، ولذلك قال له ربّه: {عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا} [الإسراء: الآية 79]، وهو المقام الذي يُثني فيه ﷺ على الله كما قال: «**فإذا رَأَيْتُ رَبِّي وقَعْتُ له ساجِدًا، فَيَدَعُنِي ما شاءَ الله أنْ يَدَعَنِي، ثُمَّ يُقالُ :لي ارْفَعْ مُحَمَّدُ وقُلْ يُسْمَعْ، وسَلْ تُعْطَهْ، واشْفَعْ تُشَفَّعْ، فأحْمَدُ رَبِّي بمَحامِدَ عَلَّمَنِيها، ثُمَّ أشْفَعُ فَيَحُدُّ لي حَدًّا، فَأُدْخِلُهُمُ الجَنَّةَ**» [متفق عليه].

فالحمد مفتاح الخيرات، وعربون البركات، وباب المسرّات، وهو طريق الاستزادة، ووسيلة القُربى، به تثبت النّعمة، وتستقرّ البركة، ويصلح الحال، ويدوم النّعيم، وتتوالى الهبات، ويُستمطر الرّزق، وهو تاج الأعمال، ودليل الوفاء، وقيد الإحسان؛ ولأنّ رسول الهدى ﷺ هو أعرف النّاس بمقام ربّه، وبجلال خالقه، وعظمة مولاه، وكانت تخرج كلمة: «الحَمْد لله» من شفتيه الطّاهرتين عذبةً صادقةً كأنّها تنبعث من كل جزء من جسده الشّريف، وكأنّها تنسكب من كل ذرة من بدنه الطّاهر.

ومن يُطالع سيرته ﷺ يجد أنّ كل جارحة من جوارحه تشكر ربّها، فهو صاحب القلب الشّاكر واللّسان الذاكر، والرّوح المُسبّحة في ملكوت السّماوات والأرض، والأعضاء العاملة في

مرضاة ربّها، فهو أعظم العباد لربه شكرًا، وأجلّهم لمولاه حمدًا، وكلّ الشّاكرين بعده إنّما تعلّموا الشّكر منه ﷺ، فالفؤاد واللّسان والجوارح كلّها تشارك في حمد ربّ العالمين.

شكر ﷺ ربّه بقلبه يوم تيقّن غاية اليقين أنّ كل نعمة جلّت أو دقّت، كبرت أو صغرت، قدُمت أو حدثت، ظهرت أو بطنت، هي من الله وحده جلّ في عُلاه، وشكر القلب من أركان العبوديّة عند المؤمن؛ لأنّه يتيقّن أنّ كل نعمة وصلته هي من الله، فعن ثوبان (رضي الله عنه) أنّ النّبي ﷺ قال: «**ليتَّخِذْ أحدُكُم قَلْبًا شاكرًا، ولِسانًا ذاكرًا**» [رواه الترمذي].

وشكر ﷺ ربّه بلسانه فكان دائم الحمد له والثناء عليه سبحانه، يشكره في السرّاء والضرّاء، والشّدة والرّخاء، وفي كل زمان ومكان، فهو دائم الحمد للرّحمن، والثّناء على الديّان، يأكل الطّعام فيحمد مولاه، ويشرب الشّراب فيشكر خالقه، ويلبس الثّوب فيُثْنِي على واهبه، ويركب الدّابة فيعترف بنعمة ربه.

وهو ﷺ الشّاكر بالجوارح، فكل جوارحه تشكر ربّه، وتحمد مولاه، بل إنّه شكر ربّه في كل موقف ولو كان صعبًا، وفي كل مشهدٍ ولو كان كربًا، فرُوي عنه ﷺ أنّه في غزوة أحد بعد الهزيمة والجراح، وبعدما قُتِل أصحابه، وشُجّ وجهه الطّاهر، وكُسِرت رباعيته، قال: «**اسْتَوُوا حَتَّى أُثْنِيَ عَلَى رَبي**» [رواه أحمد، والبخاري في الأدب المفرد].

فعلّم ﷺ الأمُّة معنى لطيفًا وسرًا شريفًا في الشُّكر، ألا وهو شُكر الله وحمده على المصائب، فإنّه أعلى درجات اليقين والتّسليم، وأرفع من الرّضا، والرّضا أرفع من الصّبر، ولهذا أورد الله شكره ﷺ وشكر أصحابه بعد معركة أُحُد فقال تعالى: {وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ} [آل عمران: الآية 144].

وحمد الله وشكره سبحانه يستجلب رضاه، ويستدعي المزيد من عطاياه، وقد حمد اللهُ نفسه قبل أن يحمده الحامدون، وشكر ذاته قبل أن يشكره الشاكرون، وأثنى على نفسه المقدّسة قبل أن يثني عليه المثنون، فقال تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الفاتحة: الآية 2]، وقال سُبحانه: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى} [الكهف: الآية 1]، وقال سُبحانه: {وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا} [الإسراء: الآية 111].

وتروي أمّ المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) : **أنّ رسول الله ﷺ كانَ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ حتَّى تَتَفَطَّرَ قَدَمَاهُ، فتقول له: لَمِ تَصْنَعُ هذا يا رَسولَ الله، وقدْ غَفَرَ الله لكَ ما تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وما تَأَخَّرَ؟** فيقول ﷺ: «**أفلا أُحِبُّ أنْ أكُونَ عَبْدًا شَكُورًا!؟**» [متفق عليه].

فترجم ﷺ شكره لله عزّ وجل إلى عمل وعبادة، وقُربى وطاعة، ولم يكن شكره مجرد ذكر باللّسَان، أو أداء بعض الرّكعات، أو التّصدّق بدريهمات، بل أتبع ذلك صفّ القدمين في محراب العبوديّة، يُحيي الليل تسبيحًا وقرآنًا، وتلاوةً ومُناجاةً، وبُكاءً ودُعاءً، وقيامًا لله ربّ العالمين، في الثُّلث الأخير من الليل حين ينام النّاس، ويستسلمون لأسرّة الرّاحة، يقف هو وقوفًا تتفطّر منه قدماه، لطول التهجّد، وزيادة المُناجاة، وكثرة الرّكوع والسّجود، ولم يأخذ ﷺ كلمة: «غفَرَ الله له ما تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِه وما تَأَخَّرَ» على أنّها رسالة أمان يتكئ عليها ويترك العمل، بل جعلها رسالة تشجيع ومثابرة تدعو للمزيد من الطّاعة، والتّكثير من نوافل العبادة، والانطراح على عتبات الرّبوبية، وقضاء أوقات النّوم والرّاحة في مناجاة ملك الملوك وشكره؛ لأنّ حق من تفضّل بالإحسان أن يُشكر ويُثنى عليه، وأن يُحمد الحمد الكثير، سبحانه وبحمده.

ويوالي ﷺ الحمد على ربّه والثّناء على خالقه فيقول: «**اللهمَّ لكَ الحَمْدُ أنْتَ نُورُ السَّمَاوَاتِ والأرْضِ، ولَكَ الحَمْدُ أنْتَ قَيِّمُ السَّمَوَاتِ والأرْضِ، ولَكَ الحَمْدُ أنْتَ رَبُّ السَّمَوَاتِ والأرْضِ ومَن فِيهِنَّ**» [متفق عليه].

أمّا قوله ﷺ: «**اللهمَّ لكَ الحَمْدُ، أنْتَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ والأرْضِ**»، فهنا يحمد ربّه على ربوبيته؛ لأنّ فيها الخلق والرّزق والتّصـريف والتّدبير، فاستحق الله بها الشّكر من عباده، وأوّل الشّاكرين هو رسولنا ﷺ.

وقوله ﷺ: «**لكَ الحَمْدُ أنْتَ قَيِّمُ السَّمَاوَاتِ والأرْضِ ومَن فِيهِنَّ**» تقتضي قيوميّة الله إصلاح أحوال الخليقة وتصريف شؤونهم، ورعاية مصالحهم، فحمده ﷺ على هذا الفضل العظيم، و«**لكَ الحَمْدُ أنْتَ نُورُ السَّمَاوَاتِ والأرْضِ**» سُبحانه هو الذي نوّر السّماوات والأرض نورًا حسيًّا ومعنويًّا، حسيًّا بالشّمس والقمر والنّجوم والكواكب، ونورًا معنويًّا بإرسال الرّسل وإنزال الكُتب، فحمدَ ﷺ ربّه على أسمائه الجليلة وأوصافه المُقدّسة، وحمده وقت الجوع والشّبع، والظّمأ والرّي، والمرض

والصّحة، والابتلاء والعافية، والفقر والغنى، والهزيمة والنّصـر، فكل مقام من مقاماته ﷺ شكر لربّه، وكلّ كلمة من كلماته ثناء، وعلّمنا بقوله وفعله ﷺ أن نقابل الحياة بحلوها ومُرّها، ومكروهها ومكروبها، بالشّكر والحمد في كل حال.

يا ربّ حمدًا ليس غيركَ يُحمدُ	يا من له كلّ الخلائق تَسجدُ
أبواب غيرك ربّنا قد أوْصِدتْ	ورأيتُ بابكَ واسعًا لا يوصَدُ

وكتابه ﷺ القرآن العظيم يبدأ بالحمد، قال تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الفاتحة: الآية 2]، وصاغ ﷺ الحمد في عبارات عظيمة مؤثرة جليلة، مرة يقول: «**الحمد لله**»، ومرة يقول: «**الحمد لله ربّ العالمين**»، وأخرى يقول: «**اللّهم لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهكَ وعظيم سلطانك**».

وعن أبي أُمامة (رضي الله عنه)، أن النبيَّ ﷺ مَرَّ به وهو يُحرّكُ شَفَتَيْهِ، فقال: «**مَاذَا تَقُولُ يَا أَبَا أُمَامَةَ؟**». قال: أَذْكُرُ رَبِّي. قال ﷺ: «**ألا أُخبرُكَ بأكثرَ وأفضلَ من ذِكرِك باللَّيلِ والنَّهارِ؟**». قال: بلى يا رسولَ الله! قال ﷺ: تقولُ: «**سبحان الله عدَدَ ما خلق، سبحان الله مِلْءَ ما خلَق، سبحان الله عدَدَ ما في الأرضِ والسماءِ سبحان الله مِلْءَ ما في الأرضِ والسماءِ، سبحان الله عدَدَ ما أحصى كتابُه، سبحان الله مِلْءَ ما أحصى كتابُه، سبحان الله عددَ كلِّ شيءٍ، سبحانَ الله مِلْءَ كلِّ شيءٍ، الحمدُ لله عددَ ما خلق، والحمدُ لله مِلْءَ ما خلَق، والحمدُ لله عدَدَ ما في الأرضِ والسماءِ، والحمدُ لله مِلْءَ ما في الأرضِ والسماءِ، والحمدُ لله عدَدَ ما أحصى كتابُه، والحمدُ لله مِلْءَ ما أحصى كتابُه، والحمدُ لله عدَدَ كلِّ شيءٍ، والحمدُ لله مِلْءَ كلِّ شيءٍ**» [رواه أحمد].

وبيّن ﷺ نوعًا جميلًا من أنواع الشّكر وهو إظهار نعمة الباري جلّ في عُلاه والتحدّث بها كما قال تعالى: {وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ} [الضحى: الآية 11]. وروى أحمد وأبو داود عنه ﷺ أنّه رأى رجلًا رثّ الثّياب فقاله له: «**ألك مال؟**»، قال: نعم، قال: **إذا آتاك اللهُ ما فلْيُرَ أثَرَ نعمةِ الله عليك وكرامتِه**، وقال ﷺ: «**إنَّ اللهَ عزَّ وجَلَّ يُحِبُّ أنْ يَرى أثَر نِعمَتِه على عبدِه**» [رواه أحمد].

وهنا يُعلِّمُ ﷺ أُمّته الشّكر بالاعتراف بالنّعم وإظهارها والثّناء باللّسان على المُنعم سبحانه، قال تعالى: {وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ} [الأنعام: الآية 53].

وكان أوّل كلمة يقولها ﷺ إذا استيقظ من نومه: «**الحَمْدُ لله الذي أحْيانا بَعْدَ ما أماتَنا وإلَيْهِ النُّشُورُ**» [رواه البخاري].

فيحمد ربّه على نعمة النّوم المريح بعد التّعب المُضني، ويحمد ربّه على أن ردّ إليه روحه ليستقبل يومًا جميلًا وحياة ملؤها الأمل والعملُ، ويحمد ربّه على نعمة الصّباح الذي أطلّ على الكون ببهائه، وغطّى المعمورة بسنائه.

وبشّر ﷺ أُمّته كما جاء في [سنن أبي داود] أنّه قال: «**من قال حين يصبحُ: اللهمَّ ما أصبح بي من نعمةٍ فمنك وحدك لا شريكَ لك فلك الحمدُ ولك الشكرُ فقد أدّى شكرَ يومِه. ومن قال مثلَ ذلك حين يُمسي، فقد أدّى شكرَ ليلتِه**».

ومن يُطالع سيرته ﷺ يجد أنّ حاله مع ربّه بين الحمد والمدح، إمّا أن يشكر الله على نعمه الجزيلة، وهذا «**حمد**»، وإمّا أن يُثني عليه سُبحانه بأوصافه الجليلة وهذا «**مدح**».

وكذلك قرن ﷺ بين: «**التّسبيح**» و«**الحمد**»، فكان يقول في الصّباح - كما عند مُسلم في الصّحيح-: «**سُبْحانَ الله وَبِحَمْدِهِ، عَدَدَ خَلْقِهِ، وَرِضا نَفْسِهِ، وَزِنَةَ عَرْشِهِ، وَمِدادَ كَلِماتِهِ**» (ثلاثًا).

ويستمر حمده ﷺ وشكره لربّه حتى عند نومه، فيقول إذا أتى فراشه: «**الحمَدْ لله الذي أَطْعَمَنَا وَسَقَانَا، وَكَفَانَا وَآوَانَا، فَكَمْ مِمَّنْ لا كَافِيَ له ولا مُؤْوِيَ**» [رواه مسلم].

يحمد ربّه على أن سلّمه من الآفات سائر يومه، وغمره بالنّعم، وصرف عنه النّقم، وبلّغه ليلة وديعة ونومًا هانئًا.

وأوصى ﷺ صهره عليًّا، وفلذة كبده ابنته فاطمة (رضي الله عنهما)، ودلّهما على كنز عظيم قبل النّوم، فقال: «**أَلا أُعَلِّمُكُمَا خَيْرًا مِمَّا سَأَلْتُمَا!؟ إِذَا أَخَذْتُمَا مَضَاجِعَكُمَا تُكَبِّرَا أَرْبَعًا وَثَلاثِينَ، وَتُسَبِّحَا ثَلاثًا وَثَلاثِينَ، وَتَحْمَدَاه ثَلاثًا وَثَلاثِينَ، فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمَا مِنْ خَادِمٍ**» [مُتّفق عليه].

حتى في الرّؤيا الحسنة دلّنا رسولنا ﷺ على أن نحمد الله ونشكره؛ لأنه سبحانه الذي سهّل لنا هذه الرّؤيا المنامية، فكيف بالنّعم التي نُشاهدها، ونلمسها ونحسّها، ونذوقها في اليقظة سائر النّهار؟ فقال ﷺ: «**إذا رَأى أحَدُكُمْ رُؤْيا يُحِبُّها، فإنَّما هي مِنَ الله، فَلْيَحْمَدِ الله عليها ولْيُحَدِّثْ بها**» [رواه البخاري].

وكانت صلاته ﷺ مملوءة بحمد الله، والثّناء عليه جلّ في علاه، من افتتاحها بالتّكبير إلى ختامها بالتّسليم، فكان يستفتح صلاته فيقول: «**سُبحانَكَ اللَّهمَّ وبحَمدِكَ، وتبارَك اسمُكَ، وتعالى جَدُّكَ، ولَا إلَهَ غَيْرُكَ**» [رواه أبو داود].

فأجلّ نعم الله تعالى أن وفّقنا لعبادته، ومن أعظمها الصّلاة، فالعبادات تُفتتح بالحمد، والنّعم تُختتم بالحمد، ويقرأ سورة الفاتحة التي سُمّيت: (الصّلاة) في «صحيح مسلم»، كما قال تعالى في الحديث القدسي: «**قَسَمْتُ الصَّلاةَ بَيْنِي وبيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، ولِعَبْدِي ما سَأَلَ، فإذا قالَ العَبْدُ: (الْحَمْدُ لله رَبِّ العالَمِينَ)، قالَ اللهُ تَعالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي**».

فسورة الفاتحة تستفتح بشكر الله على نعمه وآلائه، وكان يقول عند الرّفع من الرّكوع: «**سَمِعَ الله لمَنِ حَمِدَهُ**»، وهنا غاية الاحتفاء، ومنتهى الاصطفاء، والاجتباء لمن حمده وشكره سُبحانه، فكُن من الشّاكرين الحامدين، فقد سمع الله لمن حمده، وما ظنك بقدر الجزاء والثّواب والتّكريم من ربّ العالمين إذا سمعك وأنت تحمده وتشكره؟ والذي نفسي بيده لكفى إكرامًا وشرفًا لك أن يسمعكَ سُبحانه وأنت تقول: «ربّنا ولكَ الحمدُ»، اقرأ «سَمِعَ الله لمَنِ حَمِدَهُ» بتأمّل، وتفكّر، وعناية، وأكثر من حمد ربّك سُبحانه، فإنّه إذا سمعك فقد رفعك، وإذا سمعك فقد رحمك، وإذا سمعك فقد غفر لك، ألا يكفيك هذا تعظيمًا لشُكره، وتقديرًا لحمده سُبحانه؟!

ولهذا كانَ رَسولُ الله ﷺ إذا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ قالَ: «**رَبَّنا لكَ الحَمْدُ مِلْءَ السَّمَواتِ والأرْضِ، ومِلْءَ ما شِئْتَ مِن شيءٍ بَعْدُ، أهْلَ الثَّناءِ والْمَجْدِ، أحَقُّ ما قالَ العَبْدُ، وكُلُّنا لكَ عَبْدٌ: اللهمَّ لا مانِعَ لِمَا أعْطَيْتَ، ولا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، ولا يَنْفَعُ ذا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ**» [رواه مسلم].

فهذا الدّعاء يتقاطر بعطر تحميد الله، وبطيب شكره والثّناء عليه جلّ في عُلاه، وهو من أبلغ الأدعية في الاعتراف بالنّعمة والثّناء على الله به وشكره عليها، يقول رفاعة بن رافع (رضي الله عنه): «**كُنَّا يَوْمًا نُصَلِّي ورَاءَ النبيِّ ﷺ، فَلَمَّا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرَّكْعَةِ قالَ: سَمِعَ الله لِمَن حَمِدَهُ، قالَ رَجُلٌ ورَاءَهُ: رَبَّنَا ولَكَ الحَمْدُ حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ،** قالَ: **مَنِ المُتَكَلِّمُ؟**، قالَ: أنَا، قالَ: **رَأَيْتُ بضْعَةً وثَلَاثِينَ مَلَكًا يَبْتَدِرُونَهَا أيُّهُمْ يَكْتُبُهَا أوَّلُ**» [رواه البخاري].

وعن ابنِ عمرَ (رضي الله عنهما) قال: «**بينما نحنُ نصلِّي مع رسولِ الله ﷺ إذ قال رجلٌ في القومِ: اللهُ أكبَرُ كبيرًا، والحمدُ لله كثيرًا، وسبحانَ الله بُكرةً وأصيل**، فقال رسولُ الله ﷺ: **مَن القائلُ**

كذا وكذا؟ قال رجلٌ مِن القومِ: **أنا يا رسولَ الله**، قال: **عجِبْتُ لها، فُتِحَتْ لها أبوابُ السَّماءِ**، قال ابنُ عُمَرَ: **فما تركتُهنَّ منذُ سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ ذلك**» [رواه مسلم].

ومن عظيم شكره ﷺ لربّه أنّه سنّ سجود الشّكر؛ فقد صحَّ عنه عند أبي داود وابن ماجه عن أبي بكرة بن الحارث (رضي الله عنه) قال: «**كان رسولَ الله ﷺ إذا جاءه أمرُ سرورٍ أو بُشِّر به، خَرَّ ساجدًا شاكرًا الله**»، وفي هذا سِرٌّ لطيف، وهو أنّ النّعمة قد تُحدث زهوًا وفخرًا، فدوامها بالخضوع والاستكانة للمُنعم سُبحانه والسّجود له، وهو أجمل صور الشّكر، وأبهى مشهد للثّناء على الله، كما قال ﷺ: «**أَقْرَبُ ما يَكونُ العَبْدُ مِن رَبِّهِ، وهو ساجِدٌ**» [رواه مسلم].

وكان ﷺ إذا انتهى من الطّعام والشّراب قال: «**الحَمْدُ للهِ الذي أَطْعَمَنَا وَسَقَانَا، وَكَفَانَا وَآوَانَا، فَكَمْ مِمَّنْ لا كَافِيَ له ولا مُؤْوِيَ**» [رواه مسلم].

وهنا إعادة النّعمة إلى الله، والاعتراف بجميله سُبحانه، والإقرار بإحسانه، ثمّ الثّناء عليه والشّكر له، وإذا رُفعت المائدة كان يقول ﷺ: «**الحَمْدُ لله حمدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ، غَيْرَ مَكْفِيٍّ وَلا مُوَدَّعٍ وَلا مُسْتَغْنًى عَنْهُ رَبَّنَا**» [رواه البخاري].

وما أجمل: «**حمدًا كثيرًا طيّبًا مُباركًا فيه**»! ليستغرق أوصاف الحمد، وقوله: «**غير مَكْفِيّ**»، أي لا يكفيه غيره سبحانه ولا يقوم أحد مقامه جلّ في علاه في إهداء النّعمة، فليس هناك مُنعم إلّا الله، «**ولا مُوَدَّعٍ**» أي: لا نأخذ هذه النّعمة، ثم نهجر الثّناء عليه وندع حمده وشكره سبحانه، «**ولا مُسْتَغْنًى عنْه رَبَّنَا**»، فنحن بأشدّ الحاجة إليه عزّ وجل في كل لمحة طرف.

وكان ﷺ يمتثل لقول الباري سبحانه: {فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلاَلاً طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ} ، [النحل: الآية 114]، ما أيسر العمل! وما أعظم الجائزة! وما أحسن الإرشاد!

{فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلاَلاً طَيِّبًا} هذه هبة الله وعطيته لعباده، وفي قوله تعالى: {وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ} : واجب الشّكر للمنعم سبحانه، لتقوم حياة المُسلم على أجمل صورة من السّعادة، والاطمئنان، والاستعانة على الرّزق بشكر الرّزاق جلّ في علاه، ولهذا كان ﷺ يُذكّرنا بهذه الآيات، ويحثّنا على أكل الحلال وشُكر ذي الجلال.

وعن أبي أيوب الأنصاري (رضي الله عنه) قال: كانَ رسولُ الله ﷺ إذا أكَلَ أو شربَ قالَ: «**الحمدُ لله الَّذي أطعمَ وسَقى، وسوَّغَهُ وجعلَ لَه مخرجًا**» [رواه أبو داود].

وعن أنس بن مالك (رضي الله عنه) أنّ النّبي ﷺ قال: «**من أكل طعامًا ثم قال: الحمدُ لله الذي أطعمَني هذا الطعامَ ورزقَنِيهِ من غيرِ حولٍ مني ولا قوةٍ؛ غُفِرَ له ما تقدَّمَ من ذنبِه وما تأخَّرَ**» [رواه أبو داود].

إنّ هذه الكلمات تندى بالشّكر الصّادق، والامتنان من القلب، فجرّبها في حياتك إذا تناولت طعامًا أو شربت شرابًا، وليعترف قلبك بأنّ مسديها ومُهديها هو الله، ولينطق لسانك بالامتنان، والحمد للواهب جلّ في علاه، وستجد كيف يُعمر فؤادك باليقين، وتشعر بالرّضا والطّمأنينة، ويبارك الله في عافيتك ووقتك لأنّك شكرته والله يُحب الشّاكرين، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله : «**إِنَّ اللهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا، أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا**» [رواه مسلم].

فالشّاكرون الحامدون هم الفائزون في الدّنيا والآخرة، قال تعالى: {وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ} [آل عمران: الآية 145].

وكان ﷺ إذا ارتدى أيّ نوع من أنواع اللّباس حمد الله وشكره على أن رزقه إيّاه، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ (رضي الله عنه) قَالَ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ: **إِذَا اسْتَجَدَّ ثَوْبًا سمَّاهُ بِاسْمِهِ عِمَامَةً، أَوْ قَمِيصًا، أَوْ رِدَاءً، ثُمَّ يَقُولُ:** « **اللهمَّ لَكَ الحمدُ أَنْتَ كَسَوْتَنِيهِ، أَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِهِ وَخَيْرِ مَا صُنِعَ لَهُ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شرِّهِ، وَشرِّ مَا صُنِعَ لَهُ**» [رواه أبو داود والنسائي].

نعمة اللبّاس من أجلّ النّعم، وهي مِمّا امتنّ اللهُ به على عباده فقال سبحانه: {يَابَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ} [الأعراف: الآية 26].

وسنّ لنا رسول الله ﷺ أن نبدأ الدّعاء بحمد الله والثّناء عليه سبحانه، ثم الصّلاة عليه ﷺ؛ لأن الدّاعي يطلب من ربّه، ويُستحب تقديم المدح والثناء قبل الطلب، فقد سمع رسول الله ﷺ رجلًا يُصلّي، فمجّد الله وحمده وصلّى على النّبي ﷺ، فقال رسول الله: «**ادْعُ تَجُبْ، وَسَلْ تُعْطَ**» [رواه النسائي]، **ويقول ﷺ:** «**أفضلُ الذكرِ: لا إلَه إلّا اللهُ، وأفضلُ الدعاءِ: الحمدُ لله**» [رواه الترمذي].

فجعل ﷺ الحمد دعاءً؛ لأنّ من أثنى على الله وشكره فقد تعرّض لسؤاله والطلب منه عزّ وجل، ومن كرم الله وجلاله وعظمته أنّك إذا أثنيت عليه أو مدحته أو سألته فقد شكرته.

وقد سُئل سُفيان بن عُيينة: كيف يكون الحمد دعاء؟ قال: أما سمعت قول أمية ابن أبي الصّلت يمدح ابن جُدْعان:

أَأَذْكُرُ حَاجَتِي أَمْ قَدْ كَفانِي	حَيَاؤُكَ إِنَّ شِيمَتَكَ الحَيَاءُ
إِذَا أَثْنَى عليكَ المرءُ يومًا	كفَاه من تعرُّضِهِ الثناءُ

حتى في الاستسقاء بدأ خطبته ﷺ فقال: «**الحَمدُ لله رَبِّ العالَمينَ، الرَّحمنِ الرَّحيمِ، مَالِكِ يَومِ الدِّينِ، لا إلهَ إلَّا اللهُ يفعَلُ ما يريدُ**» [رواه أبو داود].

فقبل أن يسأل حمد الله، وقبل أن يطلب شكر الله، فإنّ الاعتراف بالنّعم والثّناء بها على الله من أعظم أسباب إجابة الدّعاء ونزول الغيث، وكان ﷺ يفتتح خطبه بالحمد فيقول: «**إِنَّ الْحَمْد للهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِالله مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا**». [رواه أبو داود].

فلِعظم عبودية الحمد والشّكر جعلها رسول الله ﷺ في مقدّمة كلامه، ليكون الحمد أوّل ما يطرق أسماع الجمهور، ويكون الشّكر في مقدمة ما يقع في قلوب الحضور، وعند التّرمذي يقول ﷺ: «**مَن رَأَى مُبْتَ فقال: الحمدُ لله الذي عافاني مِمَّا ابتلاك به وفَضَّلَنِي على كثيرٍ مِمَّنْ خَلَقَ تفضيلًا، لم يُصِبْهُ ذلك البلاءُ**».

فصرف هذا البلاء عنك نعمة تستوجب الشُّكر، وقد علّمنا ﷺ أن نقول هذا الدّعاء، ولا نُسمع المُبتلى مراعاة له، فيكون شكرك بينك وبين ربّك على أن أتمّ عليك النّعمة، وصرف عنك البلاء.

وكان ﷺ يحمد ربّه ويشكره عند العطاس؛ لأنّه علامة الصّحة والعافية، حتى إن كثيرًا من الأطباء يستبشرون للمريض، ويتفاءلون له إذا عطس ويُبشّرونه بالشّفاء، فانظر كيف اتفق كلام طبيب القلوب مع كلام طبيب الأبدان، فعن أبي هريرة (رضي الله عنه)، أنّ النّبي ﷺ قال: «**إذا عَطَسَ أحَدُكُمْ فَلْيَقُلْ: الحَمْدُ لله، ولْيَقُلْ له أخُوهُ أوْ صاحِبُهُ: يَرْحَمُكَ الله، فإذا قالَ له: يَرْحَمُكَ الله، فَلْيَقُلْ: يَهْدِيكُمُ الله ويُصْلِحُ بالَكُمْ**» [رواه البخاري].

ولمّا دخل ﷺ مكة فاتحًا مُنتصرًا، نكّس رأسه على هيئة الخضوع حتى وصلت لحيته إلى ظهر رحل دابته، كما صحّ في الحديث، متواضعًا شاكرًا لربّه، مُثنيًا على مولاه، مُعترفًا بفضله في وقت الانتصار والافتخار.

ولمّا وقف ليلقي خطبته على النّاس وقد امتلأ الحرم واكتظّ بهم كانت أوّل كلمة قالها ﷺ هي: «**الحمدُ لله الذي صدقَ وعدَهُ، ونصر عبدَهُ، وهزم الأحزابَ وحدَهُ**» [رواه أبو داود]، فملأ بها الزّمان، وهزّ بها المكان.

وكان الشّكر أوّل جملة نطق بها؛ لأن هذا الانتصار العظيم، والفتح المبين إنّما حصل بعون الله وتسديده وتوفيقه جلّ في علاه.

وعن ابن عباس (رضي الله عنه) أنّ النّبي ﷺ قال: «**إنَّ المؤمنَ بكلِّ خيرٍ على كلِّ حالٍ، إنَّ نفسَه تخرُجُ من بينِ جَنْبَيْه وهو يحمَدُ الله عزَّ وجل**» [رواه أحمد].

فانظر إلى حمده لربّه في وقت حزنه، وفي وقت نزول المصيبة به؛ لأن اختيار الله تعالى جميل، وقضاؤه كلّه حسن، وعن أبي موسى الأشعري (رضي الله عنه) أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا ماتَ ولَدُ العبدِ قالَ الله لملائِكتِهِ: قبضتم ولدَ عبدي؟ فيقولونَ: نعم، فيقولُ: قبضتُم ثمرةَ فؤادِهِ؟ فيقولونَ: نعم، فيقولُ: ماذا قالَ عبدي؟ فيقولونَ: حمِدَكَ واسترجعَ. فيقولُ الله: ابنوا لعبدي بيتًا في الجنَّةِ، وسمُّوهُ: بيتَ الحمْدِ**» [رواه الترمذي].

فأثاب الله سبحانه عبده؛ لأنّه حمده وقت نزول المكروه؛ ولهذا كان من أعظم العبادات أن تحمد الله وتشكره في الضّراء والمصيبة والشّدائد، وإلّا فحمده عند النّعم أمر مفروغ منه ومُسلّم، ولكن الأصدق من ذلك أن يقع عليك القضاء القاسي، والكرب الشّديد فتثني على الله وتحمده وتشكره، هذا المقام من مقامات العبوديّة الجليلة التي لا يُوفّق إليها إلّا الأبرار.

وقد جعل ﷺ الشّكر على النّعمة نعمة أخرى تستوجب الشّكر، فقد رُوي عند الطبراني أنّه ﷺ قال: «**ما أنعمَ اللهُ على عبدٍ نعمةً فحمِدَ اللهَ عليها، إلّا كان ذلِكَ الحمدُ أفضلَ منْ تلكَ النعمةِ**»، وعند ابن ماجه: «**ما أنعم الله على عبد نعمة فقال: الحمد لله، إلّا كان الذي أَعْطَى أفضل ممّا أخذ**».

وفي لفتة عجيبة ورسالة مُهمّة منه ﷺ لمُعاذ بن جبل (رضي الله عنه) كما جاء عند أبي داود، وابن حبّان، أنّه ﷺ قال: «**يا معاذُ والله إنّي لأُحِبُّك**، فقال معاذٌ: **بأبي أنتَ وأُمِّي والله إنّي لأُحِبُّك**، فقال: «**يا معاذُ أوصيك ألَّا تَدَعَنَّ في دبُرِ كلِّ صلاةٍ أنْ تقولَ: اللَّهمَّ أعِنِّي على ذِكرِك وشُكرِك وحُسنِ عبادتِك**».

وهنا تنتهي عبارات المدح وقصائد العشق عند قول النّبي ﷺ لمعاذ: «**يا معاذُ والله إنّي لأُحِبُّك**».

أي تكريم وحبٍ وحفاوة من هذا الإمام العظيم لأحد أتباعه؟!

وبعد هذا التشريف والقُرب يوصيه ﷺ بأعظم وصيّة وأغلى هديّة، وهي خير من الدّنيا وما فيها فيقول له: «**يا معاذُ أوصيك ألَّا تَدَعَنَّ في دبُرِ كلِّ صلاةٍ أنْ تقولَ: اللَّهمَّ أعِنِّي على ذِكرِك وشُكرِك وحُسنِ عبادتِك**»، والشاهد: «**وشكرك**»، أي: أسألك أن تُعينني وتُلهمني أن أشكرك غاية الشّكر على ما أسديت من النّعم، وما أعطيت من المواهب، وما يسّرت من الهُدى، فإذا أعانك الله على ذكره وشكره فلتنس كلّ مواهب الأرض، وكلّ كنوز الدّنيا، وكل مدّخرات البشر.

ولقد أثبت علماء العصر الحديث من خلال دراساتهم وبحوثهم أنّ كثرة الشّكر طاقة لا يُستهان بها في الرّيادة والنّجاح، وهي تجعل الشّاكر يواصل مسيرته بعزيمة وهمّة، وأن هناك قدرة شفائية بإذن الله لمن يملك الشّكر، وإذا جُمع الشّكر والصّبر كان دواءً نافعًا ناجعًا بإذن الله لكثير من الأمراض النّفسية المستعصية.

وقد أخبر رسولنا ﷺ بهذا قبل أن يكتشف هؤلاء العلماء هذه الدّراسات بألف وأربع مئة عام، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [لقمان: الآية 31].

فقرن الله بين الصّبر على المصائب والشّكر على النّعم، وكان رسولنا ﷺ يحثّنا دائمًا على الشّكر والحمد ويقول: «**الْحَمْدُ لله تَمْلَأُ الْمِيزَانَ**» [رواه مسلم].

فقد بسط ﷺ التّسبيح بين نصفي الميزان، لكنه لمّا أتى إلى الحمد، وهو الثّناء على الله بالشّكر أخبر أنه «**يملأ الميزان**»، وأيّ ميزان؟ إنّه ميزان الرحمن جلّ في علاه، الم، وقال ﷺ: «**مَن قالَ:**

الحمدُ ربِّ العالمينَ، مِن قبلِ نفسِهِ، كُتِبَت لَهُ ثلاثونَ حسنةً، وحطَّ عنهُ ثلاثونَ سيِّئةً» [رواه أحمد]، وهذه الكلمة أعظم الكلمات الأربع أجرًا لمنزلة الحمد عند الله عزّ وجل، يقول الشاعر:

تَمَلَّكَ الحَمدَ حَتّى ما لِمفُتَخِرٍ   في الحَمدِ حاءٌ وَلا ميمٌ وَلا دالُ

بل إنّ رسول الله ﷺ جعل للشّكر حقولًا عديدة، وأبوابًا كثيرة، فقال ﷺ: «**لا يَشْكُرُ اللهَ مَن لا يَشْكُرُ الناسَ**»، [رواه أبو داود].

كشُكر المُحسن على إحسانه، وشُكر الوالد، وشُكر الوالدة، وشُكر الزّوج لزوجته، والزّوجة لزوجها، وشُكر الأبناء، وشُكر الصّديق، وشُكر كل من له حق علينا، كلها تدخل في الطّاعة وكلّها محفّزات للزّيادة والإنتاج، وانشراح الصّدر، وكثرة الأجر.

وأخبرنا ﷺ بسُنّته وسيرته، وأقواله وأفعاله، على أن شُكر الله عزّ وجل يستوجب رضوانه، ومزيد بركاته، وترادف عطاياه، وفتوحاته جلّ في عُلاه، وعلّمنا أنّ النعم تُحفظ بشكرها، وتذهب بكُفرها، فبقدر شُكرك يُعطيك ربّك، وكلّما أكثرت الشّكر أكثر عليك النّعمة، وكلّما قلّلت أمسك عليك بقدر هذا الإقلال، يقول تعالى: {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ} [إبراهيم: الآية 7]، فقد أقسم جلّت قُدرته بأنّه يزيد الشّاكرين بالنّعم، ويُذهب النّعم عمّن كفرها وجحدها.

ووصف لنا ﷺ أجمل مشهد للحمد، وأخبرنا بقول الباري جلّ في عُلاه: {وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الزمر: الآية 75]، ما أجمله من مشهد! وما أعظمها من كلمة! فبعدما سكن هؤلاء الأبرار دار الخلود، في نعيمٍ لا يخطر على البال، ولا يدور في الخيال، ولا سمعت به أذن، ولا شاهدت مثله عينٌ ظفروا برؤية وجهه الكريم سُبحانه، فكان أعظم عمل يُقابلون به هذه الهديّة الرّبّانية، والعطيّة الإلهية أن يقولوا: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ} [فاطر: الآية 34]، يا لها من كلمة عظيمة تلفّظ بها هؤلاء الأبرار بعد أن خرجوا من دار الحُزن والبلاء! وشاهدوا النّعيم في جوار ربٍّ كريم، وسعدوا بتلك الحضرة القُدسية، فخرجت من أعماق قلوبهم عذبة لطيفة جميلة، جعلنا الله وإيّاكم منهم.

لبستَ الشكر للرّحمن ثوبًا   جميلًا زاهيًا فِي كلّ نادِي

وعمرك كُلّهُ لله حمدٌ   حمدتَ اللهَ في الكُرَب الشّدادِ

بحال أو بقول أو بفعلٍ   ثناءً عاطرًا مِلْءَ الوهادِ

فص الله ما ذرفت دموعٌ   على ذكراكَ يا خ العِبادِ



مُحَمَّدٌ ﷺ مُيَسِّرًا

إمام التّيسير هو البشير النّذير والسّراج المنير رسول الله ﷺ، فقد عاش الحياة في أيسر صورها وأبسط حالاتها، بُعث بالتّيسير، كما قال تعالى: {وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى} [الأعلى: الآية 8]، وجاء بالشّريعة السّمحة، كما قال ﷺ: «**بُعِثْتُ بِالحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ**» [رواه أحمد]، وقال ﷺ: «**إِنَّ الله لم يَبْعَثْنِي مُعَنِّتًا، ولا مُتَعَنِّتًا، وَلَكِنْ بَعَثَنِي مُعَلِّمًا مُيَسِّرًا**» [رواه مسلم]، فكانت حياته ﷺ كلّها تيسيرًا في تيسير، فاليُسر معه يُصاحبه أينما حلّ وارتحل، وأينما أقام وانتقل، فلا يختار ﷺ إلّا الأيسر من الأقوال والأفعال والأحوال، كلامه وخطبه، ومواعظه وعبادته، وطعامه وشرابه، ويقظته ومنامه، كلّها يُسر وسماحة ورحمة.

أراد الله تعالى أن يُيسّر على البشريّة بمبعث سيّد ولد آدم فجعل رسالته فتحًا مُبينًا للعالمين، ولطفًا بالعابدين، ويُسرًا للناس أجمعين، فسُبحان من يسّره لليُسرى، وجنّبه العُسرى، وبعثه بالبُشرى، وجعله إمامًا في الدّنيا والأُخرى.

وقامَ تيسيره للأُمّة على التّوازن بين حقّ الرّوح وحقّ البدن، كما قال ﷺ: «**إِنَّ لِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وإِنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وإِنَّ لضيفك عَلَيْكَ حَقًّا، وإِنَّ لِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا**» [متفق عليه].

فكان تيسيره ﷺ التّيسير الذي يوافق الحياة وطبيعة الإنسان كما قال ﷺ: «**سَدِّدُوا وقارِبُوا، واغْدُوا ورُوحُوا، وشيءٌ مِنَ الدُّلْجةِ (أي قوموا ولو قليلًا من اللّيل)، والقَصْدَ القَصْدَ تَبْلُغُوا**» [متفق عليه]. أي: سلوك الأرفق والأيسر من الأمور؛ لأنّ ذلك يؤدّي إلى الوصول للغاية بسلام، وهذا كلّه تيسير على الأمة، ودعوة إلى التماس الأرفق في كلّ شيء ليكون العمل أنشط في الأداء، وأسهل

على النّفس، وأشرح للصّدر، وصح عنه ﷺ أنّه لمّا سُئِلَ: أَيُّ العَمَلِ أَحَبُّ إلى الله؟ قالَ: «**أَدْوَمُهُ وإنْ قَلَّ**» [متفق عليه]؛ لأن المقصود استمرارية الأعمال ودوامها حتى ولو كانت قليلة، فالقليل المُتّصل خير من الكثير المُنقطع.

ونهى ﷺ عن إرهاق النّفس وتكليفها فوق طاقتها، فمنهجه ﷺ في التّيسير منهج الاعتدال والوسطيّة، قال تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا} [البقرة: الآية 143]، فالحسنة بين سيئتين، بين الإفراط والتّفريط، والغلوّ والجفاء، وعن طلحة ابن عبيدالله (رضي الله عنه) قال: جاءَ رَجُلٌ إلى رَسولِ الله ﷺ، فَإذا هو يَسْأَلُهُ عَنِ الإسْلامِ، فَقالَ رَسولُ الله ﷺ: «**خَمْسُ صَلَوَاتٍ في اليَومِ واللَّيْلَةِ،** فَقالَ: **هلْ عَلَيَّ غَيْرُها؟** قالَ: **لا، إلَّا أنْ تَطَّوَّعَ،** فَقالَ رَسولُ الله ﷺ: **وصِيامُ شَهْرِ رَمَضانَ،** قالَ: هلْ عَلَيَّ غَيْرُهُ؟، قالَ: **لا، إلَّا أنْ تَطَّوَّعَ،** قالَ: **وذَكَرَ له رَسولُ الله ﷺ الزَّكاةَ،** قالَ: **هلْ عَلَيَّ غَيْرُهَا؟،** قالَ: **لا، إلَّا أنْ تَطَّوَّعَ،** فأدْبَرَ الرَّجُلُ وهو يقولُ: والله لا أزِيدُ على هذا، ولا أنْقُصُ، قالَ رَسولُ الله ﷺ: «**أفْلَحَ إنْ صَدَقَ**» [متفق عليه].

لقد أتى ﷺ برفع الكلفة والحرج والمشقة عن النّاس، كما قال تعالى: {وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ} [الحج: الآية 78]، وقال تعالى: {لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا} [البقرة: الآية 286]، وكان يقول ﷺ: «**إنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، ولَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أحَدٌ إلّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وقَارِبُوا**»، [رواه البخاري]. وكان يدعو دائمًا إلى التّيسير ويُبشّر المُيسرين فيقول: «**مَن يسَّرَ على مُعسرٍ يسَّرَ الله عليْهِ في الدُّنْيا وَالآخِرَةِ**» [رواه مسلم]، وجاء في الصحيحين: أنّه ﷺ ما خُيِّر بين أمرين قَطّ إلّا أخذ أيسرهما، ما لم يكن إثمًا أو حرامًا.

وفتح ﷺ كافة أبواب اليُسر، ومنها باب التّوبة، كما قال تعالى: {وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ} [الأعراف: الآية 157]، بعدما كان توبة بعضهم بقتل أنفسهم لتُقبل توبتهم، قال تعالى عن بني إسرائيل: {فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [البقرة: الآية 54]، فجاءت رسالته ﷺ إنقاذًا للبشريّة، ورحمة للإنسانية، وبُشرى للعالمين، قال تعالى: {قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا} [الزمر: الآية 53].

فقد يسّر ﷺ طرق التّوبة وقرّبها للتائبين مهما عظمت ذنوبهم ومهما كثرت خطاياهم، مرّة بالوضوء فجعله كفارة وطهارة، ومرّةً بالصّلاة فريضة ونافلة، ومرّة بالاستغفار، وأخرى بالدّعاء، والنّصوص في ذلك فوق الحصر.

ومنها ما جاء عن أنس بن مالك (رضي الله عنه) أنّه قال: «**كُنْتُ عِنْدَ النّبيِّ ﷺ فَجاءَهُ رَجُلٌ** فَقالَ: **يا رَسولَ الله، إنِّي أصَبْتُ حَدًّا فأقِمْهُ عَلَيَّ،** قالَ: **ولَمْ يَسْأَلْهُ عنْه، قالَ: وحَضَرَتِ الصَّلاةُ، فَصلّى مع النّبيِّ ﷺ، فَلمّا قَضى النّبيُّ ﷺ الصَّلاةَ، قامَ إلَيْهِ الرَّجُلُ فَقالَ: يا رَسولَ الله، إنِّي أصَبْتُ حَدًّا، فأقِمْ فِيَّ كِتابَ الله،** قالَ: **أليسَ قدْ صَلَّيْتَ معنا؟!** قالَ: **نَعَمْ،** قالَ: **فإنَّ الله قدْ غَفَرَ لكَ ذَنْبَكَ، أوْ قالَ: حَدَّكَ**» [متفق عليه].

وعمرو بن العاص (رضي الله عنه) لمّا قدم إلى النّبيّ ﷺ ليُسلم فلمّا جلس بين يديه قال: «**ابْسُطْ يَمِينَكَ فَلْأُبايِعْكَ،** فَبَسَطَ يَمِينَهُ، قالَ: فَقَبَضْتُ يَدِي، قالَ: **ما لكَ يا عَمْرُو؟** قالَ: قُلتُ: أرَدْتُ أنْ أشْتَرِطَ، قالَ: **تَشْتَرِطُ بماذا؟** قُلتُ: أنْ يُغْفَرَ لِي، قالَ: **أما عَلِمْتَ أنَّ الإسْلامَ يَهْدِمُ ما كانَ قَبْلَهُ؟ وأنَّ الهِجْرَةَ تَهْدِمُ ما كانَ قَبْلَها؟**» [رواه مسلم].

وما أجمل وأروع وأيسر كلمته ﷺ: «**الإسْلامَ يَهْدِمُ ما كانَ قَبْلَهُ**»!، في لحظة واحدة، وجلسة واحدة ينتهي السّجل الأسود لعمرو بن العاص بتوبة ومغفرة من الله جلّ في عُلاه.

ويسّر لنا ﷺ الطّهارة، وأرشدنا بقول الباري سبحانه: {وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا} [النساء: الآية 43]، فتجد اليُسر والسّماحة في كل سُبل الطّهارة، ومنها على سبيل المثال: أنّ مَن أحدث حدثًا أصغر يكفيه أن يغسل أطراف جسمه بالوضوء المعروف، ومن كان على طهارة له أن يصلي عدّة صلوات حتى ينتقض وضوؤه، وفي الجنابة يغتسل ويُعمِّم جسمه بالماء، وإذا انعدم الماء تيمّم بالتّراب.

ومن تيسيره ﷺ ما شرعه في المسح على الخفين للمقيم يومًا وليلة، وللمسافر ثلاثة أيام تخفيفًا من الله ورحمة؛ لأنّه قد يشق على من لبس الجوربين والخفين خلعهما عند كل وضوء.

وكذلك من التّيسير التّيمم بالتّراب عند الخوف من الضّرر من مرض، أو جراح في جسمه، أو شدّة برد يخشى أن يتلف منه، رحمة من الله وتيسيرًا ولُطفًا، وقد صحّ عنه ﷺ أنّه قال: «**جُعِلَتْ لي**

الأرْضُ مَسْجِدًا وطَهُورًا، وأَيُّما رَجُلٍ مِن أُمَّتي أدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ» [متفق عليه].

وهذا من التّيسير، فأيّ مكان وُجد من الصّعيد الطّيب جاز التّيمم به، وكذلك جاز الصّلاة فيه ما لم يكن هناك مانع شرعيّ.

وانظر إلى تيسيره ﷺ في الصّلاة فتجدها موزّعة على خمس صلوات بعد أن فُرضت خمسين صلاة، فرحمنا اللهُ عزّ وجلّ، ولطف بنا عن طريق رسوله ﷺ فجعلها خمسًا في العمل، وخمسين صلاة في الأجر والثّواب، ورخّص ﷺ للمريض أن يُصلّي قاعدًا أو مضطجعًا أو على جَنْبٍ أو مستلقيًا على ظهره.

وكان ﷺ يُصلّي النّوافل أحيانًا قائمًا، وأخرى جالسًا، ويطوّل مرةً ويُقصّر أخرى، وربما جهر في صلاة اللّيل وربّما أسرّ، وأحيانًا يوتر في أوّل اللّيل أو وسطه أو آخره، بل كان ﷺ ينهى عن إطالة الإمام في الصّلاة، وأمر بأن لا يُشق على المأمومين كما فعل مع معاذ بن جبل (رضي الله عنه) حين نهاه أن يطوّل بقومه وغضب ﷺ وقال: «**يا مُعاذُ أفَتّانٌ أنْتَ؟**» [متفق عليه].

وعن أبي مسعود عقبة بن عمرو (رضي الله عنه) قال: جاءَ رَجُلٌ إلى رَسولِ الله ﷺ، فَقالَ: «**يا رَسولَ الله، إنِّي والله لَأَتَأَخَّرُ عن صَلَاةِ الغَدَاةِ مِن أجْلِ فُلَانٍ، ممّا يُطِيلُ بنا فِيها**، قالَ: **فَما رَأَيْتُ النَّبيَّ ﷺ قَطُّ أشَدَّ غَضَبًا في مَوْعِظَةٍ منه يَومَئِذٍ**، ثُمَّ قالَ: **يا أيُّها النّاسُ إنَّ مِنكُم مُنَفِّرِينَ، فأيُّكُمْ ما صلَّى بالنّاسِ فَلْيُوجِزْ، فإنَّ فِيهِمُ الكَبِيرَ، والضَّعِيفَ، وذا الحاجَةِ**». [متفق عليه].

ودَخَلَ ﷺ ذات يوم فَإِذَا حَبْلٌ مَمْدُودٌ بيْنَ ساريتين، فَقالَ: «**ما هذا الحَبْلُ؟** قالوا: **هذا حَبْلٌ لِزَيْنَبَ فَإِذَا فَتَرَتْ تَعَلَّقَتْ**، فَقالَ النّبيُّ ﷺ: **لا، حُلُّوهُ، لِيُصَلِّ أَحَدُكُمْ نَشَاطَهُ، فَإِذَا فَتَرَ فَلْيَقْعُدْ**» [متفق عليه].

ومن تيسيره ﷺ وتسهيله على الأمة أنّه كان إذا سافر قَصر الصّلاة الرّباعية ركعتين، وجمع بين الظّهر والعصر، أو المغرب والعشاء، وترك النّوافل إلّا الوتر وركعتي الفجر، وكانت صلاته ﷺ بالمسلمين قصدًا ميسرةً يتوخّى راحتهم والتّسهيل عليهم.

وأمر ﷺ بتخفيف خطبة الجمعة تيسيرًا وتسهيلًا على النّاس، فقال - كما في «صحيح مسلم»-: «**إنَّ طُولَ صَلاةِ الرَّجُلِ، وقِصرَ خُطبتِه، مَئِنَّةٌ مِن فِقهِه**»، أي: علامة على فقهه في الدّين،

هذا في باب الصّلاة التي جعلها ﷺ قُرّة عين له ولكل مُسلم ومُسلمة إلى يوم الدّين، ولا تكون قرة عين إلّا إذا كانت مُيسّـرة لا مشقة فيها ولا عَنتَ.

وجعلها ﷺ راحة له، ولا تكون راحة إلّا إذا كانت سهلة لا تكليف فيها، وهذا بالفعل حال الصّلاة، وعن مِحْجَن بن الأَدْرعِ (رضي الله عنه)، أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «**إنَّ خيرَ دينِكم أيسرُه**» **قاله ثلاثًا**. [رواه أحمد]. وقال ﷺ: «**عليكم هَدْيًا قاصدًا، عليكم هَدْيًا قاصدًا، عليكم هَدْيًا قاصدًا، فإنَّه مَن يُشادَّ هذا الدِّينَ يغلِبْه**» [رواه أحمد].

فكان اليسر سبيله، والسّماحة مطلبه، والسّهولة منهجه ﷺ.

وكان تيسيره ﷺ في الصّيام المفروض ظاهرًا للعيان، فإنّ الله فرض عليه وعلى أُمّته شهرًا في العام فقط مع الاستطاعة، قال سبحانه: {وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ} [البقرة: الآية 185]، فانظر إلى مقصود الشّريعة في التّيسير والتّسهيل على الأمة.

وقد أفطر ﷺ في السفر وأمر بالإفطار، فذكروا له - كما في الصّحيح -: أن أناسًا رفضوا أن يفطروا وظلّوا صائمين، فقال ﷺ: «**أُولَئِكَ العُصَاةُ، أُولَئِكَ العُصَاة**» [رواه مسلم].

وكان ﷺ في سَفَرٍ، فَرَأَى زِحَامًا ورَجُلًا قدْ ظُلِّلَ عليه، فَقالَ: **ما هذا؟**، فَقالوا: صَائِمٌ، فَقالَ: «**ليسَ مِنَ البِرِّ الصَّوْمُ في السَّفَرِ**» [متفق عليه].

ومن تيسيره ﷺ أنّه أباح الفطر للمريض والمسافر والحائض والمرضع والحامل في رمضان ويقضون في أيامٍ أُخر.

وعن عبدالله بن عمرو (رضي الله عنهما) قال: «أُخْبِرَ رَسولُ الله صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أَنِّي أَقُولُ: واللهِ لَأَصُومَنَّ النَّهَارَ، ولَأَقُومَنَّ اللَّيْلَ ما عِشْتُ، فَقالَ له رَسولُ الله صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: **أَنْتَ الذي تَقُولُ والله لَأَصُومَنَّ النَّهَارَ ولَأَقُومَنَّ اللَّيْلَ ما عِشْتُ**؟!، قُلتُ: قدْ قُلْتُهُ قالَ: **إنَّكَ لا تَسْتَطِيعُ ذلكَ، فَصُمْ وأَفْطِرْ، وقُمْ ونَمْ، وصُمْ مِنَ الشَّهْرِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، فإنَّ الحَسَنَةَ بعَشْرِ أَمْثَالِهَا، وذلكَ مِثْلُ صِيَامِ الدَّهْرِ**» [متفق عليه].

وفي صيام النّافلة كان ﷺ مُيسّرًا، فعن عائشة أمّ المؤمنين (رضي الله عنها) قالت: «**كان رَسولُ الله ﷺ يَصومُ حتى نقولَ: لا يُفطِرُ، ويُفطِرُ حتى نقولَ: لا يصومُ، وما رأيتُ رَسولَ الله ﷺ استكمَلَ صِيامَ شَهرٍ قَطُّ إلّا رَمضانَ، وما رأيتُه في شَهرٍ أكثَرَ منه صيامًا في شَعبانَ**» [متفق عليه].

ومن يُسره ﷺ في صيام التّطوع ما جاء عن أمّ المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) قالت: «قالَ لي رَسولُ الله ﷺ ذَاتَ يَومٍ: **يا عَائِشَةُ، هلْ عِنْدَكُمْ شيءٌ؟**، قالَتْ: فَقُلْتُ: يا رَسولَ الله، ما عِنْدَنَا شيءٌ. قالَ: **فإنِّي صَائِمٌ**، قالَتْ: فَخَرَجَ رَسولُ الله ﷺ فَأُهْدِيَتْ لَنَا هَدِيَّةٌ، أَوْ جَاءَنَا زَوْرٌ (أي: ضيف)، قالَتْ: فَلَمَّا رَجَعَ رَسولُ الله ﷺ قُلتُ: يا رَسولَ الله، أُهْدِيَتْ لَنَا هَدِيَّةٌ، أَوْ جَاءَنَا زَوْرٌ، وَقَدْ خَبَأْتُ لكَ شيئًا، قالَ: **ما هُوَ؟**، قُلتُ: حَيْسٌ، قالَ: **هَاتِيهِ. فَجِئْتُ به فأكَلَ**، ثُمَّ قالَ: «**قدْ كُنْتُ أَصْبَحْتُ صَائِمًا**» [رواه مسلم].

فانظر إليه ﷺ لمّا لم يتيسر الطّعام صام، ولمّا وُجد الطعام أفطر.

وكذلك في سفره ﷺ فإنّه عمل بالرّخصة والتّيسير الذي أنزله الله في كتابه، ويقول ﷺ: «**إنَّ الله يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى رُخَصُهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ تُؤْتَى مَعْصِيَتُهُ**» [رواه أحمد].

وجاء ﷺ باليُسر في الزّكاة فهي لا تجب إلّا على مَن بلغت أمواله مقدارًا محددًا، وتكون نسبتها قليلة يسيرة تزكية للأموال وتطهيرًا لصاحبها.

وكذلك زكاة بهيمة الأنعام، فقد فرّق ﷺ بين السّائمة التي ترعى غالب الحول والتي لا ترعى، ويسّر ﷺ زكاة محاصيل الحبوب والثّمار، وفرّق في زكاتها بين ما يُسقى بالعيون والآبار وما يُسقى بالأمطار، إلى غير ذلك من أحكام الزّكاة المليئة باليُسر والسّهولة والوضوح، فكان ﷺ يُراعي حق الفقير، ولا يضـرّ صاحب المال.

وكان ﷺ مُيسّرًا في الحجّ، فإنّ الله تعالى لمّا فرض الحجّ قال: {مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً} [آل عمران: 97]، فلمّا حج ﷺ يسّـر على المُسلمين حتى كان شعاره الظّاهر في الحج: «**افْعَلْ ولَا حَرَجَ**»، ففي «الصّحيحين»: أنه في يوم النّحر قام رَجُلٌ فَقَالَ للنّبي ﷺ: كُنْتُ أحْسِبُ أنَّ كَذَا قَبْلَ كَذَا، ثُمَّ قَامَ آخَرُ فَقَالَ: كُنْتُ أحْسِبُ أنَّ كَذَا قَبْلَ كَذَا، حَلَقْتُ قَبْلَ أنْ أنْحَرَ، نَحَرْتُ قَبْلَ أنْ أرْمِيَ، وأَشْبَاهَ ذلكَ، فَقَالَ النّبيُّ ﷺ: **افْعَلْ ولَا حَرَجَ لهنَّ كُلِّهِنَّ، فَما سُئِلَ يَومَئِذٍ عن شيءٍ إلّا قَالَ: افْعَلْ ولَاحَرَجَ،** وجملة «**افْعَلْ ولَاحَرَجَ**»، هي غاية اليُسـر، ونهاية السّهولة، وذروة الرّحمة، بالحجّاج، فعن أنس بن

مالك (رضي الله عنه) قال: إنَّ النبيَّ ﷺ رَأى شيخًا يُهادى بيْنَ ابْنَيْهِ، فَقالَ: **ما بالُ هذا؟**، قالوا: نَذَرَ أَنْ يَمْشِيَ، قالَ: «**إنَّ الله عن تَعْذِيبِ هذا نَفْسَهُ لَغَنِيٌّ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَرْكَبَ**» [متفق عليه]، فسهّل ﷺ ويسّر على النّاس.

وسألته امرأةٌ من خَثْعمَ في حجةِ الوداعِ، فقالت: «**يا رَسولَ الله، إنَّ فَرِيضَةَ الله في الحَجِّ على عِبادِهِ، أدْرَكَتْ أبِي شيخًا كَبِيرًا، لا يَسْتَطِيعُ أنْ يَسْتَوِيَ على الرّاحِلَةِ، فَهلْ يَقْضِي عنْه أنْ أحُجَّ عنْه؟**، قالَ: **نَعَمْ**» [متفق عليه].

فالنّيابة عن الحاج الذي لا يستطيع من يُسر الشّريعة.

ومن تيسيره ﷺ بما أُوحيَّ إليه من ربّه أن الحج لا يجب في العمر إلّا مرّة واحدة مع الاستطاعة، ويسقط مع عدم الاستطاعة، فأيّ فضل أكبر من هذا؟! وأي يُسر أعظم من هذا؟!

وكان ﷺ مُيسرًا في تلاوة القرآن، لأنّ الله أوحى إليه: {فَاقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ} [المزمل: الآية 20]. فلم يحد حدًّا ﷺ للقراءة، وإنّما على حسب القدرة والطاقة، تسهيلًا على الأمة، وقال تعالى: {طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى} [طه: الآية 1- 2]، فليس القرآن طريقًا للشقاء أو الصّعوبة أو العُسر، بل لليُسر والسّماحة والرّفق والرّحمة.

وقال ﷺ لعبدالله بن عمرو (رضي الله عنهما) لمّا أُخبر أنّه يختم كل ليلة: «**اقْرَإِ القُرْآنَ في كُلِّ شَهْرٍ**»، قالَ: إنِّي أَجِدُ قُوَّةً، قالَ ﷺ: « **فَاقْرَأْهُ في عِشْرِينَ**»، قالَ: إنِّي أَجِدُ قُوَّةً، قالَ ﷺ: « **فَاقْرَأْهُ في سَبْعٍ وَلَا تَزِدْ علَى ذلكَ**» [متفق عليه].

فبدأ ﷺ بالشّهر، وهذه توسعة منه ﷺ وتسهيل لكل مُسلم ومسلمة إلى يوم القيامة، أي أنّه ﷺ دعا إلى قراءة جزء كل يوم، فالحمد لله على رحمته سُبحانه وكمال تيسيره وتسهيله لشريعته عن طريق رسوله ونبيّه ومُصطفاه محمد بن عبدالله ﷺ.

وكان ﷺ سهلًا مُيسّرًا حتّى في طعامه، فكان لا يتكلّف مفقودًا، ولا يرد موجودًا، يأكل ما قُدّم له ولا يشترط أكلًا مُحدّدًا، ويرضى بما قُدّم من الميسور، فأكل ﷺ خبز الشّعير، ورديء التّمر، ومذقة اللّبن والسّويق إلى آخر تلك الأنواع السّهلة المُيسّرة، وأكل ﷺ ما قُدّم له من طيّبات من عسل ولحم وغيرها، فكان طعامه من جنس طعام معاصريه الذين عاشوا في عهده، يأكل كما يأكلون،

ويشرب كما يشربون، لا يوجد له طعام أو شراب خاص، وإنّما كبقية النّاس ما لم يكن حرامًا، فطريقته ﷺ في الطّعام هي الطّريقة المُيسّرة السّهلة، ليست طريقة المُترفين أهل البذخ والإسراف الذين تشغلهم بطونهم عن الفقراء والمساكين، ولا طريقة المُتزهّدين المُنحرفين عن السُنّة، الذين ابتدعوا رهبانية ما أنزل الله بها من سلطان، فأدخلوا الأمراض على أجسامهم بحجّة ترك الطّعام وهجر المنام.

وكان عليه الصّلاة والسّلام مُيسّرًا في اللّباس، يلبس ما وجد من غال ورخيص، ويبتعد عن الحرام من ذهب وحرير ونحو ذلك، فلبس ﷺ الصّوف والقطن، ولبس الكساء والإزار والرّداء، ولبس القميص والبُرد والحِبَرةَ والسّراويل، ولبس القَلَنْسُوة والعمامة، ولبس الخفّ والنّعل والجورب، كل ذلك على وجه التّيسير على حسب ما أمكن وما استطاع أن يلبس.

وربّما لبس الأبيض أو الأخضر أو الأحمر المُخطط، فكان يلبس مثل ما يلبس من عاش معه من النّاس ما لم يكن حرامًا، فهو المُيسّر السّهل في كل شأن من شؤون الحياة، ولم يلتزم ﷺ بزي خاص أو هيئة خاصة، أو وضع خاص في الطّعام أو الشّراب أو اللّباس أو المشي كما يفعل بعض المتعبّدين المتّشدّدين المُتزمّتين الذين يُحافظون على طقوس خاصة، وهيئات تُخملفة عن النّاس.

وكان ﷺ ميسرًا في كلامه وخطبه ومواعظه، فلم يكن يتكلّف في الحديث، بل نهى عن ذلك وقال ـ كما في الصّحيح-: «**هَلَكَ المُتَنَطِّعُونَ، قالَها ثَلاثًا**» [رواه مسلم]. والمُتنطّعون هم المُتعمّقون الذين يخرجون عن حدّ الاتزان والسّهولة واليُسر، وعن أنس بن مالك (رضي الله عنه) قال: «**كُنّا عِنْدَ عُمَرَ فَقالَ: «نُهِينا عَنِ التَّكَلُّفِ**» [رواه البخاري].

وقال تعالى لنبيّه ﷺ: {قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ} [ص: الآية 86]، فكان ينهى ﷺ عن تشقيق الخطب ويقول: «**أيُّها النَّاسُ قولوا بقولِكم، فإنَّما تشقيقُ الكلامِ مِن الشَّيطانِ، فإنَّ مِن البيانِ سِحرًا**» [رواه أحمد].

ونهى عن التقعر باللّسان، فقال ﷺ: «**إنَّ الله عزَّ وجلَّ يُبغِضُ البليغَ منَ الرِّجالِ، الَّذي يتخلَّلُ بلسانِهِ، كما تخلَّلُ البقرةُ بلِسانِها**» [رواه أبو داود].

ونهى ﷺ عن التّفاصح وهو إظهار المقدرة البلاغية تكلفًا وكبرًا وتجبّرًا، والتّشدّق وهو تحريك الشّفتين بالجمل زهوًا وخيلاءً، والتعمّق وهو التقعّر في الكلام، ودعا ﷺ إلى الوضوح

والسّهولة فكان قوله ﷺ فصلًا، إذا سلّم سلّم ثلاثًا، وإذا دعا دعا ثلاثًا، وإذا تكلّم أوجز، ويقول: «**أُعْطِيتُ جَوامِعَ الكَلِمِ**» [متفق عليه]، وعن ابن مسعود (رضي الله عنه) قال: «**إنَّ رَسولَ الله ﷺ كانَ يَتَخَوَّلُنَا بالمَوْعِظَةِ في الأيَّامِ، كَرَاهيةَ السَّآمَةِ عَلَيْنَا**» [متفق عليه].

ولم يكن ﷺ يُطيل الخطب ولا المواعظ، إلّا في القليل النّادر، مع أنّه أحسن النّاس حديثًا، وأجملهم منطقًا، وأبينهم لفظًا، وأحبّ البشر إلى أصحابه، وهم في غاية الشّوق لسماع كلامه، وفي نهاية الحُبّ للإنصات لدُرره وجواهره، ومع ذلك كان ﷺ يُوجز ويختصر، ويُخفّف على السّامعين، فغيره أولى منه مهما كان.

وكان ﷺ مُيسّرًا في معاملاته وبيعه وشرائه، وأخذه وعطائه، ودعا لهذا النّهج فقال: «**رَحِمَ الله رَجلًا سَمْحًا إذا باعَ، وإذا اشْتَرَى، وإذا اقْتَضى**» [رواه البخاري].

ومن يُسره وسماحته أنّه اشترى جمل عمر بن الخطاب وأهداه لابنه عبدالله (رضي الله عنهما)، واشترى جمل جابر ثم أعطاه الثّمن والجمل.

ومن تيسيره ﷺ على الأمة تيسيره في مسألة المَهر والزّواج، فعن عقبة بن عامر (رضي الله عنه) أنّ النّبي ﷺ قال: «**خيرُ النِّكاحِ أيسرُه**». وقال النَّبيُّ لرجلٍ: «**أترضى أنْ أُزوِّجَك فلانةَ؟**، قال: نَعم، وقال لها: **أترضَيْنَ أنْ أُزوِّجَكِ فلانًا؟**، قالت: نَعم، فزوَّجها ﷺ ولم يفرِضْ صداقًا فدخَل بها فلم يُعطِها شيئًا، فلمّا حضَرتْه الوفاة، قال: **إنَّ رسولَ الله ﷺ زوَّجني فلانةَ ولم أُعطِها شيئًا، وقد أعطَيْتُها سهمي مِن خيبرَ، فكان له سهمٌ بخيبرَ فأخَذتْه فباعتْه فبلَغ مئةَ ألفٍ**» [رواه أبو داود].

وهذا من مقاصد شريعته ﷺ أن يُخفّف على الأمة ليتم الزّواج بيسر وسهولة فتقطع المفاسد الخلقية في المجتمع، والسّلوك المشين في الأمّة.

وأنا أتحدث عن تجربة شخصيّة لي بعد مدة طويلة من مُطالعة سيرته ﷺ فإنّي وجدت فيها إنقاذًا لروحي من إرهاق الحياة وهمومها وأحزانها، وهي السّيرة الوحيدة السّهلة المُيسّرة التي يستطيع أن يعيشها كل إنسان في هدوء وأمن وسلام؛ لأنّها السّيرة التي تُناسب الفطرة، وتُوافق العقل، وتُراعي مطالب الرّوح والبدن، وتستقيم مع ناموس الكون وطبيعة البشر، ولقد طالعت حياة الكثيرين من عُبّاد وعلماء، وزُهّاد وحُكماء، ومشاهير وشُعراء، فوجدتُ أنّ سيرة كل واحد منهم لا تخلو من مآخذ، من إفراط أو تفريط، أو غلو أو جفاء، إلّا سيرته ﷺ، فهي السيرة اليسيرة السّمحة

المُعتدلة التي وجدت فيها روحي، ونهلت منها اليقين، والرّضا، والأمن، وشعرت بالأنس والبهجة والسّعادة، وأنا أعيشها فصلًا فصلًا، وموقفًا موقفًا، وكُنت أردد من روعة الإعجاب وقوة الاندهاش: «**أشهد أنّك رسول الله**».

إن من يُسره ﷺ وسهولة حياته، وسماحة شريعته؛ أنّ كل إنسان يستطيع أن يأخذ منها ما ينفعه في حياته الخاصة مهما كان: عالمًا أو عاميًّا أو ملكًا أو وزيرًا أو غنيًّا أو فقيرًا أو شيخًا أو شابًّا أو رجلًا أو امرأة؛ لأنّه ﷺ عاش أطوار الحياة، ومرّ بأدوارها كلّها، فقد عاش اليُتم، ورعى الغنم، وعاش فترة الشّباب، ثم الزّواج، فالأبوة، فالقيادة، ومرّ بالسّلم والحرب، والغنى والفقر، والصّحة والمرض، والشّدة والرّخاء، ليكون لكل إنسان قدوة، ولكل عبد أسوة، وما ذكرته في هذا الباب ما هو إلّا غيض من فيض يُسره ﷺ، وسهولة منهجه وسماحة شريعته التي نعم بها أصحابه، وسعد بها أتباعه إلى يوم الدّين.

بُعثتَ بدين اليُمنِ والفأل والبُشرى

وأرشدت للحُسنى ويُسّرت لليُسرى

أتيت بها بيضاء كالشّمس في الضّحى

وجئتَ بعلمٍ سِرُّ حكمتهِ (اقرا)

سماحةُ تشريعٍ، ويُسر عبادةٍ

ورحمة دينٍ لن ترى أبدًا عُسرًا

فيَا ربّ بلّغه الصلاة زكيّةً

وسلّم على روحٍ قد امتلأت طُهرًا





بُعث ﷺ بشيرًا للعالمين، كما قال تعالى: {يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا} [الأحزاب: الآية 45]، وتأمّل هنا تقديم التّبشير على الإنذار، وهذا من رحمة الله بعباده، فكانت كلماته ﷺ وعباراته تَندى بُشرى، وتسيل أملًا، وتشعّ سرورًا ونورًا، تصغي لها الآذان، وتهفو لها الأرواح، تهب في القلوب فتنفض عنها غبار اليأس والقنوط، وتملؤها طمأنينة وسكينة، وتُجدّد فيها الهمّة والنّشاط، يتعاهد ﷺ أصحابه بالبُشرى حتى في أحلك الظّروف، وأصعب الأزمات، فتُرسم على وجوههم البسمة، وتُزرع في صدورهم الأُلفة، فالتّبشير أمر إلهي، ومنهج نبويّ، يُعين على تحمّل مصاعب الحياة، ويملأ الأرواح بحُسن الظّن بالله.

أطالع سيرته ﷺ وأقرأ حديثه، وأفتّش سُنّته فإذا كُلّها بُشـرى، وأمل، وفأل، وحُسن ظن بالله، ورجاء في رحمته ومغفرته جلّ في عُلاه، لا يأس، لا إحباط، لا قنوط، بُشـرى في كل فريضة وسُنّة، بُشـرى مع الشدّة والرّخاء، والسـرّاء والضـرّاء.

يُبشّـر ﷺ دائمًا بالعاقبة الجميلة، والأجور الجزيلة، يُبشّـر ﷺ وهو في عين العاصفة بالنّصر، ويُبشّـر ﷺ وهو في قمة المُعاناة بالفتح، ويُبشّـر ﷺ وهو في ذروة الشّدة بالرّخاء، ويُبشّـر وهو في نهاية العُسر باليُسر، يُبشّـر مَن شكا له الفقر بالغنى، ومَن شكا المرض بالعافية، ومَن شكا المُصيبة بالأجر، ومَن شكا الحزن بالسّرور، ويكفي إطلالة وجهه الشّريف وطلعته البهيّة ﷺ على أصحابه لتكون أعظم بشارة، وأغلى هديّة، فبسمته بُشرى، وكلمته بُشرى، وأمره بُشـرى، ونهيه بُشرى، وكل حياته بُشرى.

أمره الله فقال له سُبحانه: {فَبَشِّرْ عِبَادِ} [الزمر: ١٧]، وبعثه بالبشارة الكبرى، والغاية العظمى وهي توحيده والإيمان به سُبحانه، والبشارة بجنّة عرضها السّماوات والأرض، والبشارة بجميل عفوه وغفرانه ورحمته ورضوانه، فانطلق ﷺ بعد هذا الأمر الإلهي والتّوجيه الرّبّاني، مُبشّـرًا عباد الله بإذنه جلّ في علاه، فقد بشّر ﷺ بتوبة الله على من تاب، وعفوه عمّن أناب، وبشّر المُذنبين بأن باب التّوبة مفتوح حتى تطلع الشّمس من مغربها، وبشّر العُصاة بسعة رحمة الله، كما أمره ربّه: {نَبِّىءْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} [الحجر: الآية 49]، وقال تعالى: {قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} [الزمر: الآية 53].

وبشّرعليه الصّلاة والسّلام بأنّ الوضوء يحطّ الخطايا، وأنّ الصّلاة ورمضان والحج والعمرة كفّارات لما بينها من الذّنوب إلّا الكبائر، وأنّ مَن قال: سُبحان الله وبحمده مئة مرة حُطّت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر، وأنّ مَن أذنب ذنبًا ثم توضّأ وصلّى ركعتين واستغفر الله غفر الله له، وقال ﷺ: «**إِذَا أَسْلَمَ الْعَبْدُ فَحَسُنَ إِسْلَامُهُ، يُكَفِّرُ الله عَنْه كُلَّ سَيِّئَةٍ كانَ زَلَفَهَا (أي: اقترفها وفعلها)**» [رواه النسائي]. إلى غير ذلك من مئات الأحاديث له ﷺ تحمل البُشـرى برحمة الله ومغفرته، وتوبته على من تاب إليه.

وجاء ﷺ بأعظم البشارات، وأجلّ المُعجزات، آيات الله البيّنات، القرآن العظيم، قال سبحانه: {فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ} [مريم: الآية 97]، وقال تعالى: {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ} [النحل: الآية 89]، فبشّر ﷺ قارئ القرآن فقال: «**مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ الله فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا؛ لَا أَقُولُ: (الم) حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ، وَلَامٌ حَرْفٌ، وَمِيمٌ حَرْفٌ**». [رواه الترمذي].

بل إنّه ﷺ بشّر بأن (**قُلْ هو الله أحَدٌ**) تَعْدِلُ ثُلُثَ القُرْآنِ. [متفق عليه].

وعن أبي شريح الخزاعي (رضي الله عنه) قال: خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: «**أبشروا، أليس تشهدون أن لا إله إلا الله وأني رسول الله؟**»، قالوا: **بلى**. قال: «**إن هذا القرآن سبب طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم فتمسكوا به فإنكم لن تضلوا ولن تهلكوا بعده أبدًا**» [رواه الطبراني بسند جيد].

وبشّر ﷺ بأنّ القرآن يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه، إلى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة المليئة بالبشارات عن فضل كتاب الله العظيم، الكتاب الذي يفيض بُشرى، ويشع أملًا وأُنسًا، فهو من أوّله إلى آخره مصدر سعادة ونجاة، وفوز وأمن، ونجاح وفلاح لمن آمن به، حتى إنّه بعدما بشّر المؤمنين، بقرّة العين، ورضا ربّ العالمين، بشّر الكافرين بالمغفرة إذا آمنوا، والعصاة إذا عادوا بالتّوبة، وكلّ من قرأ القرآن مؤمنًا به، متدبّرًا له، انقشعت سُحُب همومه، وانزاحت جبال غمومه، وملأت المسرّة قلبه، وعمّرت البهجة روحه.

حتى المُصابون والمرضى والمُبتلون الصّابرون بشّرهم ﷺ كما أمره ربه: {وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ} [البقرة: الآية 156-155]، فكان ﷺ يُبشّر المبتلين والمصابين والمحزونين، بما يثلج صدورهم، ويبعث الأمل في نفوسهم، ويُخفف من معاناتهم، فبشّر ﷺ من فقد عينيه فصبر بالجنّة، كما جاء عَنْ أَنسٍ (رضي الله عنه) قالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يقولُ: **إنَّ الله قَالَ:** «**إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبدِي بحبيبتَيْهِ فَصبر عَوَّضْتُهُ مِنْهُمَا الْجنَّةَ. يُرِيدُ عينيْه**» [رواه البخاري].

وبشّر ﷺ من فقد ابنه فاحتسب بقصر في الجنّة فقال: «**إذا مات ولدُ العبدِ المؤمنِ قال اللهُ للملائكةِ: قبَضْتُم ولَد عبدي؟**، قالوا: نَعم، قال**: قبَضْتُم ثمرةَ فؤادِه؟** قالوا: نَعم. قال**: فما قال؟** قالوا**:** استرجَع وحمِدك، قال**: ابنوا له بيتًا في الجنَّةِ وسمُّوه بيتَ الحمدِ**» [رواه الترمذي].

وبشّر ﷺ من أصابه مرض بأنّه يمحو الخطايا، وأنّ من أراد الله به خيرًا ابتلاه. وعاد ﷺ مريضًا فقال له: «**أبشر؛ فإن الله يقول: هي ناري (يعني: الحمى)، أسلّطها على عبدي المؤمن في الدّنيا لتكون حظّه من النّار في الآخرة**» [رواه التّرمذي بسند حسن].

ولمّا دخل ﷺ على أمّ العلاء وهي مريضة قال لها: «**أَبْشِرِي يَا أُمَّ الْعلاءِ؛ فَإِنَّ مَرَضَ الْمُسْلِمِ يُذْهِبُ الله بِهِ خَطَايَاهُ كَمَا تُذْهِبُ النَّارُ خَبَثَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ**» [رَوَاهُ أَبُو دَاوُد].

بل بشّر ﷺ المرضى بأجمل بشرى فقال: «**إذَا مَرِضَ العَبْدُ، أوْ سَافَرَ، كُتِبَ له مِثْلُ ما كانَ يَعْمَلُ مُقِيمًا صَحِيحًا**» [رواه البخاري].

فكان ﷺ تبشيره بلسمًا للقلوب المضطربة، ودواءً للأجساد السّقيمة، وتثبيتًا للنّفوس القلقة، وبشّر أنّ مَن أصابه مرض أو وصب أو نصب أو همّ أو غمّ أو حزن حتّى الشّوكة يشاكها جعلها الله

كفّارة له من الذّنوب، فقال: «**ما مِن مُصِيبَةٍ تُصِيبُ المُسْلِمَ إلّا كَفَّرَ الله بها عنْه، حتّى الشَّوْكَةِ يُشاكُها**» [متفق عليه].

حتى في سكرات الموت كانت بشاراته حاضرة ﷺ، يقول ابن شماسة المهري: حَضَرْنا عَمْرَو بنَ العاصِ، وهو في سِياقَةِ المَوْتِ، يَبْكِي طَوِيلًا، وحَوَّلَ وجْهَهُ إلى الجِدارِ، فَجَعَلَ ابنُهُ يقولُ: يا أبَتاهُ، أما بَشَّـرَكَ رَسولُ الله ﷺ بكَذا ؟ أما بَشَّـرَكَ رَسولُ الله ﷺ بكَذا؟ قالَ: فأقْبَلَ بوَجْهِهِ، فقالَ: «**إنَّ أفْضَلَ ما نُعِدُّ شَهادَةُ أنْ لا إلَهَ إلَّا الله، وأنَّ مُحَمَّدًا رَسولُ الله**». [رواه مسلم].

وكان ﷺ يُعلّم أصحابه أن يُبشّـروا النّاس فيقول لهم: «**بشّروا ولا تنفّروا**» [متفق عليه]، وطيّب خاطرهم لمّا اشتدتْ بهم الحال فقال: «**أبْشِروا وأَمِّلُوا ما يَسُرُّكُمْ**» [متفق عليه]، وبشّرهم بأنّ الإسلام سينتشر ويبلغ مبلغ اللّيل والنّهار، وبشّر المؤمنين يوم الفرقان بقول الباري سبحانه: {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ} {لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ مُرْدِفِينَ * وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [الأنفال: الآية 9- 10].

وكان يُبشّر ﷺ الصّحابة الكرام فيشحذ هممهم، ويحثهم على الاجتهاد في الطّاعات والإكثار من الأعمال الصّالحة، كما ثبت في الأحاديث الصحيحة، فبشّـر ﷺ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ (رضي الله عنه) فَقَالَ: «**مَا ضَرَّ عُثْمَانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ الْيَوْمِ**». فازداد بذلًا وعطاءً وسخاءً، وبشّر ﷺ كعب بن مالك (رضي الله عنه) بتوبة الله عليه، وبشّر ﷺ ثَابِتَ ابنَ قَيْسٍ (رضي الله عنه) أنّه مِن أهْلِ الجَنَّةِ، وبشّـر ﷺ جابرًا (رضي الله عنه) بأن الله كلّم أباه، وبشّـر ﷺ المسلمين بدخول زيد وجعفر وابن رواحة الجنّة، (رضي الله عنهم)، وبشّـر ﷺ بلالًا (رضي الله عنه) بأنّه سمع دفَّ نعليه في الجنّة، وبشّر ﷺ خديجة (رضي الله عنها) ببيتٍ في الجنّة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب، وبشّر ﷺ عائشة (رضي الله عنها) بتبرئة الله لها، وبشّـر أبيّ بن كعب (رضي الله عنه) بأنّ الله ذكره في الملأ الأعلى، وبشّـر ﷺ العشـرة (رضي الله عنهم)بالجنّة، وبشّـر ﷺ أهل بدر بقول الباري في الحديث القُدسي: «**اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ فقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ**» [مُتفق عليه].

وبشّـر ﷺ أهل البيعة تحت الشّجرة برضوان الله، وبشّـر ﷺ الذي لازم «**قُلْ هُوَ الله أَحَدٌ**» بأنّ الله يُحبّه، وبشّـر رجلًا صلّى معه وقد أصاب حدًّا بأنّ الله قد غفر له، وبشّـر ﷺ صاحبه أبا بكر في الغار والسّيوف تُحيط بهم تقطر سُمًّا زعافًا، فقال له: «**لا تَحْزَنْ إنَّ الله مَعَنَا**»، وبشّـر ﷺ علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) بمحبة الله ورسوله ﷺ، وبشّـر ﷺ أبا موسى الأشعري (رضي الله عنه)

بكنزٍ من كنوز الجنّة فقال له: «**أَلَا أَدُلُّكَ علَى كَلِمَةٍ هي كَنْزٌ مِن كُنُوزِ الجَنَّةِ؟ لا حَوْلَ وقُوَّةَ إلّا باللهِ**» [متفق عليه]. فلم يفتر لسانه (رضي الله عنه) بعد هذه اللحظة من هذه الكلمة.

كان ﷺ كلما لقي أحدًا من أصحابه البررة الأطهار أفاض عليه من البشارات ما يسرّ خاطره، وتأنس به روحه.

وبشّر ﷺ أهل الأعمال الصّالحة بأجورهم الكبيرة، وما ادّخره الله لهم من أجر جزيل وثواب عظيم، كما أمره الله تعالى فقال: {وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [البقرة: الآية 25].

فبشّر ﷺ من انتظر الصّلاة أنّ الملائكة تُصلّي عليه وتدعو له ما لم يحدث، وبشّر أنّ ليلة القدر خير من ألف شهر، وبشّر أنّه ما من أيام العمل الصّالح فيهنّ أحبّ إلى الله من أيام العشر من ذي الحجة.

وبشّر ﷺ من سبّح تسبيحة واحدة بغرس نخلة له في الجنّة، وبشّر أنّ عمرة في رمضان تعدل حَجّةً معه، وبشّر ﷺ المشائين فِي الظُّلَمِ إِلَى الْمَسَاجِدِ بِالنُّورِ التَّامِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وبشّر ﷺ أهل الاستقامة بالجنّة، كما قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ} [فصلت: الآية 30].

وبشّر ﷺ من يصل رحمه فقال: «**مَن سَرَّهُ أنْ يُبْسَطَ له في رِزْقِهِ، أوْ يُنْسَأَ له في أثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ**» [متفق عليه].

وبشّر ﷺ من يُحافظ على صلاة الجماعة فقال: «**صَلَاةُ الجَمَاعَةِ أَفْضَلُ مِن صَلَاةِ الفَذِّ (أي: الفرد)بسَبْعٍ وَعِشْرِينَ دَرَجَةً**» [متفق عليه].

وبشّر ﷺ من يُحافظ على صلاة الضّحى فقال: «**يُصْبِحُ علَى كُلِّ سُلَامَى مِن أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ، فَكُلُّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ، وَأَمْرٌ بالمَعروفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنِ المُنْكَرِ صَدَقَةٌ، وَيُجْزِئُ مِن ذلكَ رَكْعَتَانِ يَرْكَعُهُما مِنَ الضُّحَى**» [رواه مسلم].

وبشّر ﷺ المصلين عليه، فقال: «**من صلَّى عليَّ صلاةً واحدةً صلَّى الله عليهِ عشرَ صلواتٍ، وحُطَّت عنهُ عَشـرُ خطيئاتٍ، ورُفِعَت لَهُ عشرُ درجاتٍ**» [رواه النّسائي].

ولم ينس ﷺ طلبة العلم من بشاراته فقال: «**إنَّ الملائكةَ لَتضعُ أجنحتَها لطالبِ العلمِ رضًا بما يطلُبُ**» [رواه الترمذي]. وهذا لعظم منزلتهم عند الله وهو احتفاء الملائكة بهم وخضوعها إجلالًا لهم.

وبشّر ﷺ أهل الذكر فقال: «**لَا يَقْعُدُ قَوْمٌ يَذْكُرُونَ الله عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا حَفَّتْهُمُ المَلَائِكَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَنَزَلَتْ عليهِمِ السَّكِينَةُ، وَذَكَرَهُمُ الله فِيمَن عِنْدَهُ**» [رواه مسلم].

فكيف لا يهشّ القلب، وتطير النفس شوقًا لمجالس الذّكر بعد هذه البشارات العظيمة، والأجور الجسيمة التي أخبر بها!؟ وبشاراته ﷺ في أجور الأعمال والأذكار كثيرة، قد دوّنتها مجلدات، وتعطّرت بها آلاف الصّفحات.

وأدخل ﷺ ببشاراته المسرّة على أمّته، ومنها ما جاء في «**الصّحيحين**» أنّه قال: أتاني جبريل فبشرّني وقال: «**بَشِّرْ أُمَّتَكَ أنَّه مَن مَاتَ لا يُشْرِكُ بالله شيئًا دَخَلَ الجَنَّةَ**». وهذه أعظم بشارة على الإطلاق في تاريخ الدّعوة المحمدية أن يُبشّر أمّته أن مَن مات على التّوحيد والإخلاص فإنّ مثواه جنّات النّعيم، فيا لها من بُشـرى تشـرح الصّدور، وتُبهج الأنفس، وتُرضي الأرواح.

وقال ﷺ: «**إنَّ أُمَّتي يُدْعَوْنَ يَومَ القِيامَةِ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِن آثارِ الوُضُوءِ**» [متفق عليه].

وصحّ عنه ﷺ أنّه قال: «**نَحْنُ الآخِرُونَ، ونَحْنُ السَّابِقُونَ يَومَ القِيامَةِ**» [متفق عليه]، أي: (الآخرون زمنًا، والسّابقون قدرًا ومنزلةً)، فالأمّة المُحمّدية أتت في آخر الأمم ولكنّها أعظمها أجرًا، وأرفعها ذِكرًا، وأجلّها منزلةً عند الله عزّ وجل.

وبشّر ﷺ أمّته كما جاء في «**صحيح مسلم**» أنّها لن تُهلك بسَنَةٍ عامَّةٍ، وأن الله لن يُسلّط عليها عدوًا يستحل بيضتها، ولمّا أخّر ﷺ صلاة العشاء قال: «**أبْشِـرُوا، إنَّ مِن نِعْمَةِ الله علَيْكُم؛ أنَّه ليسَ أحَدٌ مِنَ النَّاسِ يُصَلِّي هذِه السَّاعَةَ غَيْرُكُمْ**» [متفق عليه].

وبشّر ﷺ هَذِهِ الْأُمَّةَ: «**بِالسَّنَاءِ وَالرِّفْعَةِ وَالدِّينِ وَالنَّصْرِ وَالتَّمْكِينِ فِي الْأَرْضِ**» [رواه أحمد].

وبشّر ﷺ الأُمّة بشفاعته يوم القيامة فقال: «**لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ دَعاها لِأُمَّتِهِ، وإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوتيَ شَفاعَةً لِأُمَّتي يَومَ القِيامَةِ**» [متفق عليه].

بشرُى لنا مع الإسلام إنّ لنا ... من العناية ركنًا غير منهدِمِ

لمّا دعَا الله داعينَا لطاعتهِ ... بأكرم الرّسل كنّا أكرمَ الأممِ

لقد كانت جُلّ حياته ﷺ تبشيرًا، وإسعادًا للنّاس، وإدخا للسّرور على قلوبهم، وقد انقطعت النّبوة، لكن بقيت مبشّراتها كما أخبر ﷺ فقال: «**لَم يَبْقَ مِنَ النُّبُوَّةِ إلّا المُبَشِّراتُ. قالوا: وما المُبَشِّراتُ؟، قالَ: الرُّؤْيا الصَّالِحَةُ**» [رواه البخاري]، وكذلك من عاجل البشرى للمؤمن في الحياة الدّنيا ثناء النّاس عليه، والشّهادة له بالعمل الصّالح النّافع، وهذه الشّهادة وهذا الثّناء لم يحصل عليه العبد المؤمن رياءً ولا سُمعةً، بل هي مكافأة من الله تعالى، لعلمه سبحانه ما في قلبه من إخلاص وإخبات، وقد قِيلَ لِرَسُولِ الله ﷺ: «**أَرَأَيْتَ الرَّجُلَ يَعْمَلُ العَمَلَ مِنَ الخَيْرِ، وَيَحْمَدُهُ النَّاسُ عليه؟ قالَ: تِلكَ عَاجِلُ بشْرَى المُؤْمِنِ**» [رواه مسلم].

لقد بشّر ﷺ الأمة بالتوحيد الذي هو حقّ الله على العبيد، وهو إنقاذ الأرواح من الشّرك، وتطهيرها من الوثنيّة، وتزكيتها من أدران الجاهليّة، وهو مفتاح الجنّة، ووسام الخلود في الفردوس، وتاج القبول عند ملك الملوك سبحانه.

وبشّر ﷺ بأنّ الوضوء كفارة وطهارة، وأنّ الجنة تفتح أبوابها الثّمانية للمتوضئين.

وبشّر ﷺ بالصّلاة، وأنّها الحل للأزمات، والنّجاة من مشكلات الحياة؛ لأنّ فيها الأمن الدّاخلي، والهدوء النّفسي، والنّور الرّبّاني، وهي كفّارة الخطايا، ومذهبة الهموم والغموم.

وبشّر ﷺ بالصّيام، وأنّه سرٌ بين العبد وربّه، وأنّ للصائم فرحتين: عند الفطر، وعند لقاء الرّب، مع ما في الصّيام من تهذيب الرّوح وصحة البدن، وتذكّر الجائعين، ورحمة المساكين، والتّدرب على الصّبر وقهر الهوى والنّفس الأمّارة بالسّوء.

وبشّر ﷺ بالصّدقة وهي زكاة المال، وطُهْرة النّفس والانتصار على الشّح، وإطفاء الخطايا وعون المحتاج، وشكر النّعمة وحفظ المال من العاهات، وإنقاذ الرّوح من الآفات.

وبشّـر ﷺ بالحجّ، وفيه أعظم تكفير لكل خطيئة بحيث يعود الحاجّ الصّادق المنيب كما ولدته أمّه مغفورًا له، قد غُسلت نفسه، وعظم أجره، وقُبل سعيه، وفاز بجائزة الغفران والرّضوان من الرّحمن.

لم تكن هناك قبل بعثته ﷺ بشارات تدور في أذهان النّاس، أو مجالسهم كالبشارة بالفردوس الأعلى للّصادقين المنيبين، والبشارة بالجنّة لعموم المؤمنين الصّالحين، والبشارة بالمغفرة للمذنبين التائبين، والبشارة بالحسنات العظيمة والثّواب الجزيل للمُصلين والمُتصدّقين والصّائمين، والبشارة بالنّجاة من النّار، والفوز برضوان العزيز الغفّار للموحدين، والبشارة بصلوات الله ورحمته وهداه للمبتلين الصّابرين، والبشارة ببياض الوجه، وتيسير الحساب لأولياء الله البررة، والبشارة بالنّصر على الأعداء وكمال الدّين وتمام النّعمة وفتح البلدان ودخول النّاس في دين الله أفواجًا، كل هذا وغيره من البشارات إنّما بشّرنا به رسولنا ﷺ. والعجيب أن كلمته وبسمته وخطبته ومصافحته وهديته بشارة، ومواعظه وأقواله وأحواله وأفعاله كلّها بشارات للأمّة، حتى أمره ونهيه ورضاه وغضبه؛ لأنّه لمصلحتنا ولإصلاحنا، فهي بشارة من البشارات.

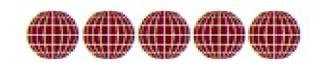
وأعود لنفسي وأسألها: ما هي أعظم بشارة تلقيتها في حياتي؟ هل البيت الذي أمتلكه؟ أم السّيارة التي أمتطيها؟ أو المال الذي أكسبه؟ أم الثّوب الذي ألبسه؟ أم الشّهادة العلمية التي حصلت عليها؟ أم الأصدقاء في حياتي؟ أم الكتب التي ألفتها؟ أم الدّروس التي ألقيتها؟ أم صحة البدن التي أنعم بها؟ أم نعمة الطّعام والشّراب ؟ أم السّفر البهيج الممتع؟

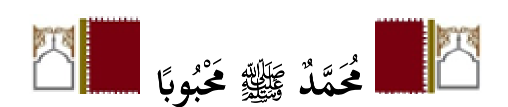
فأجيب: كلّها نِعَمٌ، والحمد لله، ولكن والله إنّ أعظم البشارات، وأجلَّ الأعطيات، وأجزل الهبات، وأجمل الفتوحات: رسالته ﷺ والاهتداء بهديه، والفرح باتّباعه، والفوز بالاقتداء به، والعيش في كنف شريعته، والشّرب من كوثر نبوّته، والاستضاءة بأنوار ملّته، {قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ} [يونس: الآية 58].

إنّ أعظم البشارات التي مرّت بالإنسانية في تاريخها الطّويل هي مبعثه، فكان منظره ومظهره ومخبره يبشّر بالخير والفلاح والنّجاح والمغفرة والرّضوان، وكان حديثه وخطبه ومواعظه تسيل بشرى، فهو الذي بشّر الأمّة بالفتح والمغفرة والنّصر والرّزق، وبشّر المُذنبين بالتّوبة، وبشّر العصاة إذا عادوا بالرّحمة، وبشّـر العاملين بالأجر الجزيل، وبشّـر الصّابرين بالثّواب الكبير، وبشّر الفقراء والمساكين بما ادّخر لهم ربّ العالمين من أجر، وبشّـر المُصاب بالثّواب،

وجبر القلوب المُنكسرة بلُطف الله عزّ وجل، وبشّر الموحّدين بجنة عرضها السّماوات والأرض، فجزاه الله عنّا أكرم وأجلّ وأجزل ما جزى نبيًا عن أُمّته، وصلّى وسلّم عليه ما غنّى حمام، وما هطل غمام، وما انجلى ظلام، وما سُلّ حُسام، قال الشاعر:

وُلِدَ الهُدى فَالكائِناتُ ضِياءُ	وَفَمُ الزَمانِ تَبَسُّمٌ وَثَناءُ
الروحُ وَالمَلَأُ المَلائِكُ حَولَهُ	لِلدّينِ وَالدُنيا بِهِ بُشَراءُ
بِكَ بَشَّرَ اللهُ السَماءَ فَزُيِّنَت	وَتَضَوَّعَت مِسكًا بِكَ الغَبراءُ
وَبَدا مُحَيّاكَ الَّذي قَسَماتُهُ	حَقٌّ وَغُرَّتُهُ هُدىً وَحَياءُ





للمحبّة صور شتّى، فمنها عند عامة الناس الميل للصّور الجميلة الجذّابة، والمناظر الآسرة الخلّابة، وهذه محبة فطر الله عليها الخليقة.

وهناك أيضًا محبّة تدركها العقول الذكيّة، وتستحسنها النّفوس السّويّة، وهي محبة الخصال الجليلة والصّفات النّبيلة، والأخلاق الفاضلة والمكارم المُنيفة.

وهناك أيضًا محبة لمن تَفضّل علينا وأحسن إلينا، فله عندنا اعتراف بالفضل، وله لدينا الامتنان والشّكر، لأنّه قدّم إلينا جميلًا، وصنع لنا معروفًا، فنُقابل صنيعه بالحُبّ والثّناء، والشّكر والوفاء.

وكل هذه المعاني والأسباب جُمعت في نبيّنا الكريم ﷺ، فإن الله أعطاه المحاسن أوّلها وآخرها، سرّها وجهرها، فهو المحبوب لأنّه أبرّ الخليقة وصفًا، وأطيبهم عرفًا، فمحاسنه أبهى من البدر ليلة التّمام، ومحامده أجمل من الرّوض البسّام، فهو الجميل في صورته وسريرته، والجميل في خلقه وأخلاقه، وهو بعد الله صاحب الفضل علينا، والإحسان إلينا، نوّر قلوبنا بالإيمان، وشرح صدورنا بالقرآن، ودلّنا على طاعة الرّحمن، فلا نلتفت يمنة ولا يسرة إلّا وقد وجدنا آثار هديه المُستقيم ﷺ، فليس لأحد في العالم منَّة علينا أعظم من منّته، ويكفينا أنّه هدانا لملّته، ودلّنا على سُنّته، فهو سبب سعادتنا في الدنيا، ونجاتنا في الآخرة.

أحبّه الله، وشرّف قدره وأعلاه، فهو أحبّ الخليقة إلى الخالق، وأقربهم زلفى من كل سابق ولاحق، فمن حُبّ الله له أنّه يُذكر مع الله في القرآن، وينوّه باسمه بعد اسم ربّه في الأذان، اختاره الله

للنّبوة واجتباه، وشرّفه بالرّسالة واصطفاه، وصلّى عليه آناء اللّيل والنّهار، وصلّى عليه الملائكة الأطهار، وصلّى عليه العباد الأبرار، وأعظم شرف حازه عليه الصّلاة والسّلام، أنّه أحبّ الأنام، إلى الملك العلّام، فإنّ الله اتخذه خليلًا، وجعله للخيرات دليلًا، كما قال ﷺ: «**ولَكِنْ صَاحِبُكُمْ خَلِيلُ الله**» [رواه مُسلم]. والخلّة هي أرفع مراتب المحبّة، وأعظم درجات القُربة.

وقرن الله طاعته ومحبته سُبحانه، بطاعة ومحبة نبيّه ﷺ، فلا يُطاع الله إلّا من طريق هذا الرّسول الكريم، ولا يُعبد إلّا من باب هذا النّبي الرّحيم، فمن أراد أن يتقرّب بالحُبّ إلى مولاه، فليتّبع نبيّه المُصطفى ويلتمس هُداه، فجميع أبواب الحُبّ والقُرب موصدة إلّا بابه، وكل طرق السّلامة والنّجاة مُغلقة إلّا طريقه، وهو سبب نجاة مُحبّيه، يوم يفرُّ المرء من أخيه، وأمِّه وأبيه، وصاحبته وبَنِيه.

ولو بقي الإنس والجان على مدار اللّيل والنّهار، يمدحون النّبي المُختار ﷺ، لما بلغوا ذرّة من قول الملك الحقّ المُبين، في سيد المُرسلين: {فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا} [الطور: الآية 48]، ولو صُفّت دواوين الثّناء، من الأرض إلى السّماء، لما بلغت قطرة من محيط: {فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا}، ولو كانت المُحيطات محابر، والسّماوات دفاتر، وكتب البشر كلّ مديح، بلسان فصيح، لما بلغوا حرفًا من جمال وجلال: {فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا}.

إنّ محبته ﷺ هي أصل ثابت من أصول الإيمان، وكلّما زاد حُبه ﷺ في القلوب زاد إيمانها، وكلما نقص حُبّه نقص الإيمان، فيجب وجوبًا أن يكون حُب الله وحُبّ رسوله ﷺ قُرّة العيون، وبهجة النّفوس، وانشراح الصّدور، ويجب كذلك أن تكون محبّته ﷺ مُقدّمة على محبة الآباء والأولاد، والأمهات والأحفاد، وعلى محبّة المال والتّجارة، والمساكن والإمارة، كما قال ﷺ: «**لا يُؤْمِنُ أحَدُكُمْ حتّى أكُونَ أحَبَّ إلَيْهِ مِن والِدِهِ ووَلَدِهِ والنّاسِ أجْمَعِينَ**» [متفق عليه].

بل لا يقبل اللهُ إيمان مؤمن حتى يُقدّم هذه المحبّة على نفسه التي بين جنبيه، ويؤثرها على كل ما لديه، فتكون هذه المحبّة نصب عينيه، وإلّا فلينتظر العواقب الوخيمة، على أفعاله الأثيمة؛ لأنّ من قدّم حُب الأبناء والنّساء، والأحباب والأصدقاء، على حُبّ ربّ الأرض والسّماء، وحُبّ صاحب الشّريعة العصماء، دلّ ذلك على خواء في الضّمير، وسوء ظن بالسّميع البصير، وانحراف عن منهج البشير النّذير، كما قال الحكيم الخبير: {قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ

وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} [التوبة: الآية 24].

ومَن يطالع سيرة الصّحابة الكرام يجد ذلك الحبَّ الصّادق الفيّاض لشخص الرّسول الكريم ﷺ، حُبًّا يستولي على النّفس ويملك المشاعر، حبًا لا يعدله حبّ الولد والوالد، والابنة والزّوجة، حُبًّا يصل شغاف القلب، ويمازج قرار الرّوح.

ولكن لماذا أحبّوه هذا الحبّ؟ إذ لا يوجد في التّاريخ كلّه قوم أحبّوا إمامهم أو زعيمهم أو شيخهم أو قائدهم أو أستاذهم كما أحبّ أصحابُ محمّدٍ محمدًا ﷺ، فقد افتدوه بالمُهج، وعرّضوا أجسامهم للسيوف دون جسمه، وضحّوا بدمائهم لحمايته، وبذلوا أعراضهم دون عرضه.

فكان بعضهم لا يملأ عينيه من النّظر إليه ﷺ إجلالًا له.

ومنهم من ذهب إلى الموت طائعًا ويعلم أنّها النّهاية وكأنّه يذهب إلى عُرس.

ومنهم من احتسى الشّهادة في سبيل الله كالماء الزّلال، لأنّه أحبّ محمدًا ﷺ ودعوته.

بل كانوا يؤثرون رضاه على رضاهم، وراحته ولو تعبوا، وشبعه ولو جاعوا، فما كانوا يرفعون أصواتهم على صوته، ولا يُقدّمون أمرهم على أمره، ولا يقطعون أمرًا دونه ﷺ، فهو المطاع المحبوب، والأسوة الحسنة، والقدوة المباركة.

لقد أحبّ الصّحابة رسول الله ﷺ؛ لأنّه وصلهم بالله، ود لّهم على رضوانه، وهداهم إلى صراطه المستقيم، وإنّهم لمشكرون مغبطون على هذا الحُبّ؛ فهم يرون أن ما قدموه أقل ما يجب عليهم نحو هذا الرّسول المعصوم، فالله أنقذهم به من النّار، وبصّرهم به من العمى، وعلّمهم به من الجهل، وأصلحهم به بعد الفساد، وهداهم به بعد الضّلالة.

كانت قلوبهم قبل دعوته ﷺ أقسى من الحجارة، ونفوسهم قبل رسالته أظلم من الليل، وبؤسهم قبل بعثته أشد بشاعة من الموت، فلا عقل محفوظ، ولا دم معصوم، ولا مال حلال، ولا عرض مصون، ولا نفوس راضية، ولا أخلاق قويمة، ولا مجتمع يحترم الفضيلة، ولا شعب يحمي المبادئ، فلما أراد الله إنقاذ هذه البشريّة وإسعادها وصلاحها وفلاحها بعث محمّدًا ﷺ، فكأن النّاس ولدوا من جديد، وكأنّ وجه الدّنيا تغيّر وكأن الأرض لبست ثوبًا جميلًا في عالم الحياة.

أحبّوه ﷺ لأنّه رسول الرّحمن، وصفوة الإنس والجان، أرسله الله ليخرجهم من الظّلمات إلى النّور، ويقودهم إلى جنة عرضها السّماوات والأرض.

وجدوا فيه ﷺ الإمام الذي كمُلت فضائله وتمّت محاسنه، فقد أسرهم بهذا الخلق العظيم والمذهب الكريم.

ووجدوا في قربه واتّباعه جنّة وارفة من الإيمان، بعد نار تلظّى من الكفر والجاهليّة، فهو الذي غسّل أرواحهم بإذن الله من أوضار الوثنية، وزكّى نفوسهم من آثام الشّرك، وطهّر ضمائرهم من لوثة الأصنام، وعلّمهم الحياة الكريمة، فملأ صدورهم سعادة بعد عمر من القلق والاضطراب والغموم والهموم، وبنى في قلوبهم صروح اليقين بعد خراب الشّك والرّيبة والانحراف.

لقد سجّل الصّحابة الكرام أعظم الملاحم في حُبّه ﷺ، وأجمل المواقف في تقديره وإعزازه وتوقيره، لقد ملك حبّه مشاعرهم وأحاسيسهم، وجرى في دمائهم، وسافر في شرايين قلوبهم، والنماذج والصّور الخالدة من حُبّ الصحابة للنّبي ﷺ كثيرة، نذكر منها:

أبو بكر (رضي الله عنه) لمّا انطلقَ معَ رسولِ الله ﷺ إلى الغار كان يَمْشِـي سَاعَةً بَيْنَ يَدَيْهِ وَسَاعَةً خَلْفَهُ، حَتَّى فَطِنَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ فَقَالَ: «**يَا أَبَا بَكْرٍ، مَا لَكَ تَمْشِي سَاعَةً بَيْنَ يَدَيْ وَسَاعَةً خَلْفِي؟**» فَقَالَ: **يَا رَسُولَ الله، أَذْكُرُ الطَّلَبَ فَأَمْشِي خَلْفَكَ، ثُمَّ أَذْكُرُ الرَّصْدَ فَأَمْشِي بَيْنَ يَدَيْكَ**، فَقَالَ: «**يَا أَبَا بَكْرٍ، لَوْ كَانَ شَيْءٌ أَحْبَبْتَ أَنْ يَكُونَ بِكَ دُونِي؟**» قَالَ: «**نَعَمْ، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، مَا كَانَتْ لِتَكُونَ مِنْ مُلِمَّةٍ إِلَّا أَنْ تَكُونَ بِي دُونَكَ، فَلَمَّا انْتَهَيَا إِلَى الْغَارِ**، قَالَ أَبُو بَكْرٍ(رضي الله عنه): **مَكَانَكَ يَا رَسُولَ الله، حَتَّى أَسْتَبْرِئَ لَكَ الْغَارَ، فَدَخَلَ وَاسْتَبْرَأَهُ، حَتَّى إِذَا كَانَ فِي أَعْلَاهُ ذَكَرَ أَنَّهُ لَم يَسْتَبْرِ الْجُحْرَةَ**، فَقَالَ: **مَكَانَكَ يَا رَسُولَ الله حَتَّى أَسْتَبْرِئَ الْجُحْرَةَ، فَدَخَلَ فَاسْتَبْرَأَ**» [رواه الحاكم، والبيهقي في «دلائل النبوة»] .

وعُمر بن الخطاب (رضي الله عنه) يُلخّص هذا الحُبّ فيقول للنّبي ﷺ: «**لَأَنْتَ أحَبُّ إلَيَّ مِن كُلِّ شَيْءٍ إلَّا مِن نَفْسِي، فَقالَ ﷺ: لَا، والَّذِي نَفْسِي بيَدِهِ، حتَّى أكُونَ أحَبَّ إلَيْكَ مِن نَفْسِكَ**، فَقالَ له عُمَرُ: **فإنَّه الآنَ، واللَّه، لَأَنْتَ أحَبُّ إلَيَّ مِن نَفْسِي، فَقالَ ﷺ: الآنَ يا عُمَرُ**» [رواه البخاري].

وعُثمان بن عفان (رضي الله عنه) حين دعا النّبي ﷺ لشراء بئر رُومة قام بشرائها وحده، حُبًّا وقُربًا، وحين دَعَا ﷺ. لتجهيز جيش العُسْرة بادر وجهّز الجيش جلَّه من حُرّ ماله.

وهذا علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) ينام في فراش النّبي ليلة الهجرة فداءً له، ويكون أوّل المُبارزين في كلّ معركة مع النّبي يذبّ عنه وعن رسالته، ويُقدّم نحره دون نحره ﷺ، ويفديه بدمه وروحه.

وانظر إلى عمرو بن العاص (رضي الله عنه) الذي ملأ حُبّ النّبي كلّ جوانحه، واستولى على مشاعره، يقول مُعبّرًا عن هذا الحُب الرّاسخ الدّفين، للنبي الأمين: «**ما كانَ أحَدٌ أحَبَّ إلَيَّ مِن رَسولِ الله ﷺ، ولا أجَلَّ في عَيْنِي منه، وما كُنْتُ أُطِيقُ أنْ أمْلأَ عَيْنَيَّ منه إجْلالًا له، ولو سُئِلْتُ أنْ أصِفَهُ ما أطَقْتُ؛ لأَنِّي لَمْ أكُنْ أمْلأُ عَيْنَيَّ منه**» [رواه مسلم].

وهذا أبو طلحة الأنصاريُّ (رضي الله عنه) يتلقى السّهام عن النّبي ﷺ في أحد ويقول: «**يا نَبِيَّ الله، بأَبِي أنْتَ وأُمِّي، لا تُشْرِفْ يُصِيبُكَ سَهْمٌ مِن سِهامِ القَوْمِ، نَحْرِي دُونَ نَحْرك**» [متفق عليه].

وهذا عروة بن مسعود الثّقفي وقد أرسلته قريشٌ سفيرًا إلى النّبي ﷺ في صُلح الحديبية، لمّا رأى طاعة الصّحابة، وحُبّهم، وتعلّقهم بالنّبي، ومُسابقتهم لخدمته، أُصيب بالدهشة، وعاد مذهولًا إلى قريش يقول لهم: «**وَالله لَقَدْ وَفَدْتُ عَلَى المُلُوكِ، وَوَفَدْتُ عَلَى قَيْصَرَ وَكِسْرَى، وَالنَّجَاشِيِّ، وَالله إنْ رَأَيْتُ مَلِكًا قَطُّ يُعَظِّمُهُ أَصْحَابُهُ مَا يُعظِّمُ أصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ مُحَمَّدًا، وَالله إنْ تَنَخَّمَ نُخَامَةً إلّا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ، فَدَلَكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ، وَإِذَا أَمَرَهُمْ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ، وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ، وَإِذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، وَمَا يُحِدُّونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا لَهُ**» [رواه البخاري].

إنّ هذه القصة يرويها رجل كان مُشركًا آنذاك قبل أن يُسلم، في مشهد أبصره بعينه، ولم يكن رجلًا عاديًا بل كان سفيرًا، مُحنّكًا، داهية، وفد على الملوك، ثم عرض هذه المُقارنة، وخرج بنتيجة أنّه ليس في العالم أحد أحبّه أصحابه وأتباعه كما أحبّ أصحاب وأتباع محمّدٍ محمدًا ﷺ.

وهذا الصّحابي الجليل رَبيعة بن كعب الأسلمي (رضي الله عنه) يخاف ألّا يرى النّبي ﷺ بعد أن يُغادر الحياة، وأن لا يتنعّم برؤيته في الجنّة، فيقول: «**كُنْتُ أبِيتُ مع رَسولِ الله ﷺ فأتَيْتُهُ بوَضُوئِهِ وحاجَتِهِ،** فَقالَ لِي: **سَلْ،** فَقُلتُ: **أسْأَلُكَ مُرافَقَتَكَ في الجَنَّةِ.** قالَ: **أوْ غيرَ ذلكَ؟** قُلتُ: **هو ذاكَ.** قالَ: **فأعِنِّي على نَفْسِكَ بكَثْرَةِ السُّجُودِ**» [رواه مسلم].

حتّى الصّبيان تشرّفوا بحُبّه، ونعموا بقُربه ﷺ، يقول عبد الرّحمن بن عوف(رضي الله عنه): «**بيْنا أنا واقِفٌ في الصَّفِّ يَومَ بَدْرٍ، نَظَرْتُ عن يَمِينِي وَشِمالِي، فَإِذا أنا بيْنَ غُلامَيْنِ مِنَ الأنْصارِ حَدِيثَةٍ أسْنا نُهُما، تَمَنَّيْتُ لو كُنْتُ بيْنَ أضْلَعَ منهما، فَغَمَزَنِي أحَدُهُما،** فَقالَ: **يا عَمِّ، هلْ تَعْرِفُ أبا جَهْلٍ؟ قالَ: قُلتُ: نَعَمْ، وَما حاجَتُكَ إلَيْهِ يا ابْنَ أخِي؟،** قالَ: **أُخْبِرْتُ أنَّهُ يَسُبُّ رَسولَ الله ﷺ، والَّذِي نَفْسِي بيَدِهِ، لَئِنْ رَأَيْتُهُ لا يُفارِقُ سَوادِي سَوادَهُ حتّى يَمُوتَ الأعْجَلُ مِنّا،** قالَ: **فَتَعَجَّبْتُ لذلكَ، فَغَمَزَنِي الآخَرُ، فَقالَ: مِثْلَها، قالَ: فَلَمْ أنْشَبْ أنْ نَظَرْتُ إلى أبِي جَهْلٍ يَزُولُ في النّاسِ،** فَقُلتُ: **ألا تَرَيانِ؟ هذا صاحِبُكُما الذي تَسْألانِ عنهْ، قالَ: فابْتَدَراهُ فَضَرَباهُ بسَيْفَيْهِما حتّى قَتَلاهُ**» [متفق عليه].

والأمثلة لحبُّ الصحابة الكرام (رضي الله عنهم) للنّبي المُصطفى ﷺ وفيرة وكثيرة، فوالله لم نسمع ولم نقرأ عن قوم أحبّوا إمامهم وقائدهم ونبيّهم كما أحبّ الصّحابة إمامهم ونبيّهم ﷺ، يعيشون حُبّه ﷺ في حياتهم، معهم في ليلهم ونهارهم، كأنّهم يتذوّقون حُبّه مع الطّعام، ويحتسونه مع الشّراب، ويكتحلون به مع المنام، حتى صار يجري في دمائهم، ويسيل مع دموعهم، (رضي الله عنهم) وأرضاهم جزاء هذا الحبّ وهذا الفداء، وهذه التّضحية وهذا الوفاء، فلهم علينا الدّعاء، ولهم منّا الثّناء.

وكيف لا يحبُّونه ﷺ وهم لا يزاولون طاعة إلّا وهو نصب أعينهم، في طهارتهم، وصلاتهم، وصيامهم، وزكاتهم، وحجّهم، وذكرهم، وعقيدتهم، وآدابهم، وسلوكهم، كيف لا يُحبه كل مسلم وكلّما فعل خيرًا فإنّما إمامه محمّد ﷺ، أو قام بقربة فقدوته محمّد ﷺ، أو أحسن في حياته فأسوته محمد ﷺ، أو أسدى جميلًا أو قدّم معروفًا فمثله الأعلى محمد ﷺ!؟

كيف لا يُحبّه الإنسان وحديثه ﷺ يرنّ في الآذان، ويعبر إلى القلوب بكل فضيلة، وكل خُلق شريف، داعيًا إلى الصّدق والعدل، والسّلام والرّحمة، والتآخي والإحسان، مُحذّرًا من الفجور والفسوق والعصيان، والظُلم والاعتداء والبهتان، فميلاد الإنسان الثّاني يوم اتّبع هذا الرّسول، واقتدى بهذا النّبي الأمي ﷺ!؟

كيف لا نُحبّه بأبي هو وأمّي ﷺ وهو يحرص ﷺ على ما يُسعدنا، ويشق عليه ما يشق علينا!؟

وقد شهد الله له برأفته ورحمته بنا، فقال سُبحانه: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ} [التوبة: الآية 128].

كيف لا نُحبّه ﷺ وقد بذل حياته كلها ثمنًا لهدايتنا ودلالتنا على الخير، وإخراجنا من الظّلمات إلى النوّر، وعلّمنا كلّ شيء في الحياة، علّمنا أكبر المسائل وأعلاها: «**لا إله إلّا الله**»، وأصغرها: «**إماطة الأذى عن الطّريق**»، وشرح لنا أبواب العلم بابًا بابًا!؟

كيف لا نُحبّه ﷺ وقد أحلّ لنا الطيّبات، وحرّم علينا الخبائث، وي لنا الشّريعة، وفتح لنا باب الرّحمة، ودلّنا على طريق التّوبة، وأخبرنا بأسباب رضوان الله تعالى، وحذّرنا من كل ما يؤذينا، وأنذرنا طريق الغواية، وبصّرنا طريق الهداية!؟

كيف لا نُحبّه ﷺ وإنما أحبنا الله بسبب حُبنا له واتباعنا له ﷺ، قال تعالى عن أوليائه: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ} [آل عمران: الآية 31]، وإنّما أحب الله أولياءه لأنهم آمنوا بنبيّه، وصدّقوه، واتّبعوه، واقتدوا به، وأحبوه!؟

كيف لا نُحبه ﷺ وقد قال الله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ} [البقرة: الآية 222]، وأوّل التّوابين والمُتطهرين، هو رسول ربّ العالمين، وإمام المُتقين، والذي دلّ المُتطّهرين على تقوى إله الأوّلين والآخرين هو خاتم المرسلين ﷺ، والذي أرشد التّوابين لمرضاة الرّحمن الرّحيم هو النّبي العظيم ﷺ!؟

كيف لا نحبّه ﷺ وكل خصال الخير مجموعة فيه، وكل خلال البرّ كمُلت فيه، زكّاه ربّ العالمين فقال عنه: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} [القلم: الآية 4]، فله من الفضائل أبهاها وأرقاها وأعلاها، وهو الذي تآلفت على حُبّه القلوب، واجتمعت على مودّته الأرواح، برّأه الله من العيب، ونفى عنه الإثم، وطهّره من الخطايا، وزكّاه من الدّنايا، فهو الطّاهر نفسًا وجسمًا، والطيّب روحًا وذاتًا!؟

ومن ادّعى محبة رسول الله المُصطفى، ونبيّه المُقتفى، فليُقدّم على دعواه البيّنة، ويُخرج عند الفحص العيّنة، فإن لم يدعم دعواه بالدّليل، كان ضالًا عن السّبيل، وإنّما حُبه نوع من اللّعب: {وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ} [يوسف: الآية 18]:

إذا اشْتَبَكَتْ دُموعٌ في خُدودٍ ... تَبَيّنَ مَنْ بَكَى مِمّنْ تَباكَى

ومن البراهين، على حُبّ سيّد الأوّلين والآخرين، تصديقه ﷺ فيما أخبر، كأنّك شاهدته بالنّظر، بلا شك ولا ارتياب، ولا حيرة ولا اضطراب، بل تسليم لما أتى به وإذعان، وانقياد وإيمان، ولسان حال كل جارحة في جسمك يقول، عند خبر الرّسول، صدق، وبالحق نطق، فهو أبرّ من سبق، وأكرم من لحق، فلا تتقدّم على شرعه، ولا تورد رأيًا عند قوله، ولا تُعارض سُنّته بالأقوال، ولا تضرب لها الأمثال، ولا تُكثر عند ورودها من الجدال، بل تتلقى ما أتى عنه على أنّه نبي معصوم، ورسول من الحيّ القيوم، فتكون مع نبيّك الكريم، ورسولك العظيم، في منزلة التّابع، وفي درجة المُطيع السّامع، وفي رُتبة الجندي من القائد، والابن من الوالد، والطالب من المُعلّم، والمُستفيد من الإمام الملهم، ليس لك معه اختيار في القبول والرّد، والإقبال والصّد، بل انقياد وإذعان، وتسليم وإيمان، تتلقّى خطاب سُنّته المُعظّم، ومرسوم شريعته المُكرّم، تلقي المُحبّ لرسائل من اختصه بالحُبّ، واصطفاه بالودّ من بين الأنام:

ولو قيل طأ في النّار أعلم أنّه	رضًا لك أو مُدنٍ لنا من وصالكا
لقدّمتُ رجلي نحوها فوطئتُها	سرورًا لأنّي قد خطرتُ ببالكا

ومَن ادّعى حُبّ الله فعليه أن يُقدّم البيّنة والبرهان على دعواه، باتّباع نبيّه ورسوله ومُصطفاه، محمد بن عبدالله ﷺ، قال تعالى: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ} [آل عمران: الآية 31]، فيكون حُبّه واتّباعه سرّ بهجتك، ونور مُهجتك، تتحلّى بهداه، وتتسنّن بكل وصف يرضاه، فتجعل سُنّته شعارك، وطريقته دثارك، فهو إمامك ليلًا ونهارًا، سرًّا وجهارًا، فكأنّ شخصه العظيم ﷺ بين ناظريك، وطيفه بين عينيك، وتجعل مقامه الكريم في سويداء العيون، وأقواله وأحكامه فوق الشّكوك والظّنون، فيملك عليك حُبّه بعد حُب الله السّمع والبصر، والفكر والنّظر، فكأنك تذوق حُبّه مع الطّعام، وتكتحل به عند المنام، فالشّرب من معين سنّته العذب الزّلال الفرات، ألذّ من الماء البارد على كبد العطشان المشرف على الأموات.

ومنها مُطالعة سيرته، والتعرّف على دقائق حياته وتفاصيل سُنّته، فمَن أحبّ شخصًا حرص على تتبع آثاره، وسماع أخباره، فكيف إذا كان هذا الشّخص هو دليلك إلى السّعادة، وإمامك إلى النّجاة؟! فإنّ المعرفة داعية الحُبّ، والعلم بالشيء داعية التعلّق به، ومن قرأ أوصافه الجليلة وصل بعقله السّليم وفطرته السّويّة إلى حُب هذا الإمام العظيم ﷺ.

ومن براهين الحُبّ الإجلال لمقامه الشّريف والتّقدير والاحترام والتوقير، فتستقبل كلامه وسنّته ﷺ بالخضوع والخشوع، والانقياد التّام، والاتباع لما أرشد عليه الصّلاة والسّلام، فلا تُقابل ذلك بتسخّط أو كراهية، أو تذمّر أو اعتراض، ولا تتعرّض للجناب الشّريف، والمجد المُنيف، بسخرية أو استهزاء، أو انتقاص أو ازدراء، فإنّه مُخرج من الملّة، ومُورث للخزي والذلّة، بل كُلّما سمعت له أمرًا أو أتاك منه نهي، أحضرت قلبك وكيانك، وقلت: سمعًا وطاعة، لصاحب الشّفاعة ﷺ.

ومنها الذّب عن سُنّته، والدّفاع عن ملّته، والنّضال عن شريعته، فتجنّد نفسك في خدمة هداه، جنديًا على ثغور الملّة، مُرابطًا على أبواب الشّريعة، مُحتسبًا نفسك وأنفاسك، وحالك ومالك، قُربة إلى الله لنُصرة هذا النّبي الكريم، والإمام العظيم، عليه أجلّ صلاة، وأفضل تسليم، فيكون عملك نشر سُنّته في النّوادي، ووظيفتك بثّ هديه في الحواضر والبوادي، بحالك وقولك وفعلك، لتكون صادقًا في الاتّباع، مُحققًا الدّعوة في طاعة الرّسول الكريم ﷺ، لتنال شفاعته، وتظفر بقُربه، وتحظى بمرافقته، وتُحشر تحت لوائه، فليكن عملك المُبارك تعليمَ النّاس شرعَه المُطهّر، باللّسان والقلم، والدّرس والمُحاضرة، والخُطبة والنّدوة، على حسب القُدرة.

ومن علامات محبّته كثرة الصّلاة عليه ﷺ، وجعلها عند الحديث على طرف لسانك، وعند الكتابة على طرف بنانك، تُعمّر بها جنانك، وتُطهّر بها أركانك، وألّا تُحب أحدًا من البشر، من أهل المدر والوبر، ألّا بقدر حُبّه واتّباعه لرسول الهُدى، وإمام التّقى ﷺ، فتوالي وتُعادي، وتُحب وتُبغض فيه ومن أجله، نُصرةً وحُبًّا، وولاءً وقُربًا، فلا عبرة بالأحساب والأنساب، والأسماء والألقاب، عند ورود السُنّة والكتاب.

ومنها أن تُحكّمه ﷺ في حياتك بأسرها، في صلاتك وصيامك، ويقظتك ومنامك، وجلوسك وقيامك، ولباسك وهندامك، فهو الإمام المُرتضى، والأسوة المُقتفى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا} [الأحزاب: الآية 21]، فتُقدّم حُكمه ﷺ عند الخلاف، على أقوال الآباء والأسلاف، فإذا ورد حكمه فلا التفات لمرادات النّفوس، ووساوس الرّؤوس، فقوله وفعله وحاله هي شوكة الميزان، وهي الحاكمة على قول وفعل وحال كلّ إنسان، فلا عبرة لفلان وفلان، كائنًا من كان.

ومن آيات حُبّه ﷺ: تمنّي رؤيته، وعظيم الشّوق لمقابلته، وتحديث النّفس بالجلوس معه ومُصافحته في دار الكرامة والرّضوان، بجوار الرّحمن، كما قال ﷺ: «**مِنْ أَشَدِّ أُمَّتي لي حُبًّا، ناسٌ**

يَكونُونَ بَعْدِي، يَوَدُّ أحَدُهُمْ لو رَآنِي بأَهْلِهِ ومالِهِ» [رواه مسلم].

ومنها عدم الغلو فيه كما قال ﷺ: «**لا تُطْرُونِي كما أَطْرَتِ النَّصارى ابْنَ مَرْيَمَ، فإنَّما أَنا عَبْدُهُ، فَقُولوا: عبدُ الله، وَرَسُولُهُ**» [رواه البخاري].

وامتثال أمره واجتناب نهيه، كما قال تعالى: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [الحشر: الآية 7].

وهجر البدع وأهلها، لأنها تُخالف سُنّته، وتُعارض شريعته، لقوله ﷺ: «**مَن رَغِبَ عن سُنَّتي فليسَ مِنِّي**» [مُتفق عليه].

فالجامع بينه ﷺ وبين أحبابه هو سنّته المُطهّرة، أمّا البدعة فهي سبب الفراق بينه ﷺ وبين أتباعه، فعن أبي هريرة (رضي الله عنه) أنَّ رَسولَ الله ﷺ أتى المَقْبُرةَ، فقالَ: «**السَّلامُ علَيْكُم دارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ، وإنّا إنْ شاءَ الله بكُمْ لاحِقُونَ، ودِدْتُ أنّا قدْ رَأَيْنا إخْوانَنا** قالوا: **أوَلَسْنا إخْوانَكَ يا رَسولَ الله؟**، قالَ: **أنْتُمْ أصْحابِي، وإخْوانُنا الَّذِينَ لَمْ يَأْتُوا بَعْدُ**، فقالوا: **كيفَ تَعْرِفُ مَن لَمْ يَأْتِ بَعْدُ مِن أُمَّتِكَ يا رَسولَ الله؟**، فقالَ: **أرَأَيْتَ لو أنَّ رَجلًا له خَيْلٌ غُرٌّ مُحَجَّلَةٌ بيْنَ ظَهْرَيْ خَيْلٍ؟ دُهْمٍ بُهْمٍ ألا يَعْرِفُ خَيْلَهُ؟** قالوا: **بَلَى يا رَسولَ الله**، قالَ: **فإنَّهُمْ يَأْتُونَ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنَ الوُضُوءِ، وأنا فَرَطُهُمْ علَى الحَوْضِ ألا لَيُذادَنَّ رِجالٌ عن حَوْضِي كما يُذادُ البَعِيرُ الضَّالُّ أُنادِيهِمْ ألا هَلُمَّ فيُقالُ: إنَّهُمْ قدْ بَدَّلُوا بَعْدَكَ فأقُولُ سُحْقًا سُحْقًا**» [رواه مسلم].

ومن علامات حُبّه ﷺ حُب من أحبّ من الناس، والمكان، والزّمان، فإن هذا يدل على صدق المحبّة، فنُحب أهل بيته عليهم السّلام، كما قال ﷺ: «**أُذَكِّرُكُمُ الله في أَهْلِ بَيْتِي**» [رواه مسلم].

ونُحبّ أصحابه الكرام رضوان الله عليهم كما قال ﷺ: «**خَيرُ النَّاسِ قَرْني، ثمَّ الَّذين يَلُونـهم، ثمَّ الَّذين يَلُونَـهم**» [متفق عليه]، وقوله ﷺ: «**لا تَسُبُّوا أصْحابي؛ فلو أنَّ أحَدَكم أنفَقَ مِثلَ أُحُدٍ ذَهَبًا ما بلَغَ مُدَّ أحَدِهم، ولا نَصيفَه**» [متفق عليه].

ونُحب الأنصار رضوان الله عليهم، لقوله ﷺ: «**حُبُّ الأنْصارِ آيَةُ الإيمانِ، وبُغْضُهُمْ آيَةُ النِّفاقِ**» [متفق عليه].

أو أنّ قلبي لا يحبّ محمدًا	أحرقته بالنّار لم أتَرَدّدِ
فأنا مع الأسلاف أقفو نَهجهم	وعلى الكتاب عقيدتي وتعبّدي
فعلى الرسول وآله وصحابه	منّي السّلامُ بكلّ حبٍّ مسعدِ

وأُبشّر المُحبّين أنّ لمحبتهم واتّباعهم للرسول الكريم ﷺ أجورًا عظيمةً، وجوائز مُضاعفة، وثمارًا طيّبة دانية، ينعمون بها في الدّنيا والآخرة، منها:

أنّها سبب محبة الله لك؛ لأنّ أحبّ العباد إليه سُبحانه هو رسوله المصطفى ﷺ، فمن أحبّ خليل الله أحبّه الله، وهذه وحدها خير من الدّنيا وما فيها، وأفضل من الكنوز الثّمينة والقناطير المقنطرة.

وإذا أحبّك الله فلن يُعذّبك لقوله تعالى: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَنْ خَلَقَ} [المائدة: الآية 18].

فالحبيب لا يُعذّب حبيبه، ومن أحبّه الله غفر ذنبه، ويُستشهد على ذلك بقول رسول الله ﷺ لعمر: «**وَما يُدْرِيكَ لَعَلَّ الله اطَّلَعَ على أَهْلِ بَدْرٍ فَقالَ: اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ، فقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ**» [متفق عليه].

فالمحبوب سعيه مشكور، وعمله مبرور، وذنبه مغفور، كما قال تعالى: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [آل عمران: الآية 31]، وقوله سُبحانه في الحديث القُدسي: «**فإذا أحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الذي يَسْمَعُ به، وبَصَرَهُ الذي يُبْصِرُ به، ويَدَهُ الَّتي يَبْطِشُ بها، ورِجْلَهُ الَّتي يَمْشِي بها، وإنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، ولَئِنِ اسْتَعاذَ لَأُعِيذَنَّهُ**» [رواه البخاري].

فالمحبوب عند خاتم الأنبياء، محبوب عند ربّ الأرض والسماء، محفوظ في الدّنيا والآخرة، دعاؤه مُستجاب، وعمله مقبول، وعاقبته إلى خير.

ومن ثمار حُبك للنّبي ﷺ أنّه يُبادلك حُبًّا بحُب، كما قال تعالى: {هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ} [الرحمن: الآية 60].

وأوفى النّاس هو رسولنا ﷺ فهنيئًا لك هذا الحبّ منه إذا أحببته ﷺ، وقد بادل رسولنا الحبّ بالحب حتى مع الجماد، كما قَالَ رَسُولُ الله ﷺ عن جبل أحد: «**هَذَا جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ**» [متفق عليه].

ومنها أنّ محبته ﷺ مع كثرة الصلاة والسلام عليه سبب لكشف الكروب، وغفران الذنوب، وصلاح الحال، وانشراح البال، وإزالة الهموم والغموم والأحزان، فعن أُبي بن كعب (رضي الله عنه) أنّه قال للنّبي ﷺ: «**أجعلُ لكَ صلاتي كلَّها**» -أي: **أجعل الدعاء كله صلاة عليك**-، فقال له النبيُّ ﷺ: «**إذًا تُكفى همَّك، ويُغفرُ لك ذنبُك**» [رواه الترمذي].

ومن ثمار حُبّك له ﷺ أنّ هذا الحُبّ بعد حُب الله يملك عليك حياتك، ويملأ جوانح قلبك، ونواحي نفسك، فيُسليك عن كلّ محبوب، ويُعزيك عن كل غائب، ويُعوّضك عن كل فائت، فلا تشعر بعدها بالغُربة لفقد لأحد، والوحشة لمخلوق، فهنيئًا لمن مُلِئ قلبه بحُب الله وحُب نبيه ﷺ.

ومنها أنّك تتذوّق بهذا الحبّ حلاوة الإيمان كما جاء عَنْ أَنَسٍ (رضي الله عنه) عَن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**ثَلاثٌ مَن كُنَّ فيه وجَدَ حلاوة الإيمانِ (وذكر منها): مَن كانَ الله ورَسولُهُ أحَبَّ إلَيْهِ ممّا سِواهُما**» [متفق عليه].

وهذه الحلاوة تُسهّل عليك الطّاعات، وتحجبك عن المُنكرات، وتُحبّب لك لقاء الله، وتجعلك راضيًا بقضائه وقدره، فرحًا بعبوديته، مسرورًا بطاعته.

ومن ثمار حُبّ الرّسول الكريم صُحبته يوم القيامة، ورفقته في مقعد صدق عند مليك مُقتدر، فعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ (رضي الله عنه) أنّ رجلًا قال للنّبي ﷺ: «**يا رَسُولَ الله، مَتَى السَّاعَةُ؟** قالَ رَسُولُ الله ﷺ: **ما أَعْدَدْتَ لَهَا؟ قالَ: يا رَسُولَ الله، ما أَعْدَدْتُ لَهَا كَبِيرَ صَلَاةٍ وَلَا صِيَامٍ وَلَا صَدَقَةٍ، وَلَكِنِّي أُحِبُّ الله وَرَسُولَهُ، قالَ: فأنْتَ مع مَن أَحْبَبْتَ**» [متفق عليه].

وعن عبدالله بن مسعود (رضي الله عنه) قال: «**جاءَ رَجُلٌ إلى رَسولِ الله ﷺ فَقالَ: يا رَسولَ الله، كيفَ تَقُولُ في رَجُلٍ أحَبَّ قَوْمًا ولَمْ يَلْحَقْ بهِمْ؟**، فَقالَ رَسولُ الله ﷺ: «**المَرْءُ مع مَن أحَبَّ**» [متفق عليه].

فإن كُنت تريد أن تكون من جلّاسه ورفقائه في الفردوس الأعلى، فاصدق في حُبّه واتّباعه، وقد بشّرنا ربّنا عزّ وجلّ ببشارة عظيمة، وعطيّة كريمة، أن من أطاع رسوله ﷺ ظفر برفقته،

ورفقة إخوانه الأنبياء الكرام، فقال تعالى: {وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا} [النساء: الآية 69].

فسُبحان من جعل حُبّ هذا النّبي الكريم ﷺ حنينًا بين الضّلوع، وشوقًا صادقًا يجري مع الدّموع، فما شهد مُوحد بالوحدانية إلى الواحد الأحد، إلّا شهد بالرّسالة لأحمد، ولن تكون الأرواح مُطهّرة، حتى تكون بالصّلاة عليه ﷺ مُعطّرة، جعل اللهُ حُبّه يجري في شرايين قلوبنا مجرى الدّماء، ليكون أحبّ إلينا من زلال الماء، على أكباد ظماء، في شدة حرارة الرّمضاء.

نسأل الله باسمه الأجل الأكرم أن يُلبسنا بحُبه تاج الشّرف، ويُسكننا به الغُرف، مع الصّفوة المُجتباة من أبرار السّلف، وأن يجعله ﷺ أحبّ إلينا من وأرواحنا وجوارحنا، أسماعنا وأبصارنا، وأحبّ إلينا من آبائنا وأمهاتنا، وأبنائنا وبناتنا، ويجعل محبّته ﷺ تجري في قطرات دمائنا، وشرايين قلوبنا، وذرّات أجسامنا، وأن يحشرنا في زمرته، ويجعلنا من رفقته، ويُشرّفنا باتّباع سُنّته، ويُثبّتنا على ملّته.

اللهم صلِّ وسلِّم على نبيك، ورسولك، وخليلك، محمد بن عبدالله، صلاةً تجلو بها همومنا، وتُزيح بها غمومنا، وتشرح بها صدورنا، وتُيسّر بها أمورنا، وتغفر بها ذنوبنا، وتُصلح بها عيوبنا، وتُشافي بها قلوبنا، وتُعطّر بها أنفاسنا، وتطيّب بها أفواهنا، صلاةً وسلامًا دائمين، زكيّين، طيّبين، طاهرين:

يا قلبُ بلّغْ صلاتي أشرف الرّسلِ

واكتبْ بدمعيَ ما سطرتَ من أملي

عطّرْ بذكراه أنفاسِي ومحبرتي

واغسلْ بشوقي له ما كان من زللِ

اركبْ سفينتَه واسعد بسُنّته

فإنّ ملّته من أكرمِ المللِ

في مقلتِي وسويدَا القلب مسكنهُ

أفديه بالرّوحِ والأجفانِ والمُقَلِ





مُحَمَّدٌ ﷺ مُبَارَكًا

ماذا أقول عمّن ملأ الدّنيا بركةً، وفاض على البشريّة رحمةً، وغمر الحياة نورًا، وسرورًا، وحبورًا؟!

ماذا أقول عن الذي لم تحصل بركة لأحد من العالمين بعد مبعثه إلّا وهي قطرة من بحر كراماته، وومضة من شمس فتوحاته؟!

ماذا أقول عن الذي عمّر ببركته الزّمان، والمكان، والإنسان، ووصلت بركته مشارق الأرض ومغاربها، يتوارثها الأحفاد عن الآباء والأجداد مع مرور الأيام، وترادف الأعوام إلى كُل الأقطار والأمصار، على تعاقب اللّيل والنّهار؟!

ماذا أقول عمّن يقول الكلمة الواحدة فيكتب الله لها البركة فتمتلئ بها الدّفاتر، وتُضوّع بها المحابر، وتُشرق بها المنابر؟!

ماذا أقول عن المُبارك رسول الله بأبي هو وأمي ﷺ؟!

هو المُبارك في أيّ زمان ومكان، جعل اللهُ فيه من البركة ما لم يجعله في أحد من العالمين، لا من الأوّلين، ولا من الآخرين، جعل البركة فيه ومعه، ومنه وإليه، وكأنّ البركة وُلدت مع ميلاده، وانتشرت ببعثته.

هو المُبارك الذي هدى الإنسان إلى عبادة الرّحمن، نادى النّفوس فأشرقت على نور هُداه، وخاطب الأرواح فاستفاقت على نور مُحيّاه، وهتف في الجيل فهبّ إلى مراقي المجد، وبُعث في

الأمة فتسابقت في درجات السّعد.

هو المُبارك الذي أمر بعمارة المساجد فامتلأت بالمُصلّين، وأرشد إلى العلم فامتلأت رياض المدارس بالعُلماء، وبنى صرح العدل فسقطت أوكار الظّلم، وتهدّمت صروح الجبروت والطّغيان.

هو المُبارك الذي حوّل جزيرة العرب من ملاعب وثنيّة، ومراتع جاهليّة، وأوكار مُنكر، وغابات توحّش؛ إلى محراب عبادة، ومسجد قداسة، وجامعة إيمان، ومصنع رجال، وميدان أبطال، ومولد حضارة، ومهد رسالة، ومشرق نور، وقبلة أُمّة، ومنبر ملّة.

هو المُبارك الذي يضع يده على المريض فيبرأ بإذن الله، وعلى الماء فينهمر زلا فراتًا بفضل الله، وعلى الطّعام فيزيد ويكثر بنعمة الله، وعلى العين الرّمدة فتُبصر بنور الله، ويرفعها إلى السّماء فإذا الغيث المدرار، وغزير الأمطار، ويضع كفيه على صدر المُبتلى فيمتلئ راحة وطمأنينة، وانشراحًا وسكينة.

كلامه مُبارك، قاله بوحي من ربه ولم يقرأه من كتاب، ولم يُخرجه من مؤلّف، ولم يخطّه بيمينه، هذا الحديث النّبوي المُبارك والسّنة المُطهّرة التي ملأت الدّواوين، وعبّأت المُجلّدات، من الصّحاح، والسُّنن، والمسانيد، والمعاجم، التي أنارت للبشريّة أفكارها، وحدّدت مسارها، وبيّنت للعالم تدبير الحياة الرّشيدة السّديدة.

جعل الله في كلامه وحديثه من الأسرار والبركات ما لا يدور بالخيال ولا يخطر بالبال، فإنّ سطرًا واحدًا أو جملة يقولها ﷺ تُعادل آلاف المُجلّدات من كلام غيره.

يقول ﷺ الكلمة المُوجزة فتحمل في طيّاتها العبر والعظات ما يُدهش لروعتها العقل حُسنًا وبلاغةً، ويُلقي الخُطبة فيجعل الله فيها من النّفع والتّأثير والبركة ما يبقى صداه في الأجيال جيلًا بعد جيل.

إنّ كلماته ﷺ الموجزة هي قواعد عامة في كل باب من أبواب الحياة، بل إنّ الحديث الواحد يُشرح في مجلد كامل، كما حصل في حديث: «كلمتان خفيفتان على اللّسان»، أو «سيّد الاستغفار»، إلى غير ذلك من أحاديثه ﷺ.

ورسالته ﷺ مُباركة، اهتدى بها آلاف الملايين من البشر، أي بلغة العصر: «مليارات» النّاس، منهم العُلماء، والقضاة، والفُقهاء، والمُفسّرون، والحُكماء، والدّعاة، والمُفتون، جيلًا بعد جيل، وقرنًا بعد قرن.

رسالة مُباركة أحيا بها اللهُ قلوبًا ميتة، وبصّر بها عيونًا عمياء، وأسمع بها آذانًا صمّاء.

الرّسالة المُباركة التي طهّرت الضّمائر، وغسلت النّفوس، وأصلحت القلوب، وجمعت الشّمل، ووحّدت الكلمة، وأرست معالم العدل، ونشرت الفضيلة، وزرعت القيم المُثلى.

الرّسالة المُباركة التي حفظ اللهُ بها الدّماء والأموال والأعراض، ووصل بها الأرحام وكفل بها الأيتام، ولطف ببركتها بالمساكين والفقراء والمُضطهدين.

الرّسالة المُباركة التي حوّلت الأُمة من الوثنيّة إلى التّوحيد، ومن الرّجس إلى الطّهارة، ومن الظّلم إلى العدل، ومن الطبقية إلى المساواة، ومن الفقر إلى الغنى، ومن الوهم إلى الحقيقة.

الرّسالة المُحمدية المُباركة التي تُصاحبك في المسجد خشوعًا وإخباتًا، وفي الجامعة علمًا وفهمًا، وعلى المنبر خطابةً وتأثيرًا، وعلى المنائر حُجّة وإعلانًا، وفي الميدان عملًا وإتقانًا، وفي الزّراعة تحصيلًا وزكاةً، وفي التّجارة نماءً وبركةً، وفي القلب اطمئنانًا وسكينةً، وفي العقل بصيرةً ورُشدًا، وفي الأُسرة اجتماعًا وألفةً.

رسالة مُباركة خالدة إلى يوم الدّين، نقلت الأمة من الجهل إلى العلم، وقام عليها علم العُلماء، وحكمة الحُكماء، والقضاء عند القضاة، وقامت عليها الجوامع والجامعات والمدارس، فاستنارت بها العقول، ولا زالت أجيال الأمة جيلًا بعد جيل ينهلون من هذا العلم المُبارك الذي تركه ﷺ والذي قال عنه: «**إنَّ العُلَماءَ ورَثةُ الأنبياءِ، وإنَّ الأنبياءَ لم يُورِّثوا دينارًا ولا درهًما، وإنّما ورَّثوا العِلْمَ، فمَن أخَذه أخَذ بحظٍّ وافرٍ**» [رواه أبو داود].

فأيّ رسالة وأي دعوة بلغت بركتها هذا المبلغ؟!

وكتابه ﷺ مُبارك، فقد نصّ الله تعالى على بركة هذا الكتاب العظيم الذي أنزله على نبيّه الكريم، فقال سُبحانه: {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ} [ص: الآية 29].

فهو مُبارك في تلاوته، مُبارك في تدبّره، مُبارك في العمل به، مُبارك في الدّعوة إليه.

تلاوة الحرف منه بعشر حسنات إلى أضعاف لا يعلمها إلّا الله، كما قال ﷺ: «**من قرأ حرفًا من كتابِ الله فله به حسنةٌ، والحسنةُ بعشرِ أمثالِها، لا أقول: (ألم) حرفٌ، ولكن ألفٌ حرفٌ، ولامٌ حَرفٌ، وميمٌ حَرفٌ**» [رواه الترمذي].

ومن بركته أن من يتلوه بتدبّر ينعم بسداد في الرّأي، ونور في البصيرة، واطمئنان في القلب، وانشراح في الصّدر، وبركة في الحال والمآل، واستقامة في كل الأمور الدّينية والدّنيوية كما قال تعالى: {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ} [الإسراء: الآية 9].

فمُتدبّره على نهج قويم وصراط مستقيم، مُعان مُسدّد، محفوظ ببركة هذا الكتاب العظيم الذي أنزله عالم السّر وأخفى، فلا يضل صاحبه في الدّنيا، ولا يشقى في الآخرة، كما قال سُبحانه: {فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى} [طه: الآية 123].

ومن بركة كتابه ﷺ أنّه يشفع لصاحبه يوم القيامة كما قال ﷺ: «**اقْرَؤُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ**» [واه مسلم].

والقرآن سبب في ارتقاء صاحبه لأعلى الدّرجات في الجنّة فيُقال له: «**اقرأ وارتقِ ورتِّلْ كما كنت تُرتِّلُ في الدّنيا فإنَّ منزلَك عند آخرِ آيةٍ تقرؤُها**» [رواه أبو داود].

وقال ﷺ: «**الماهِرُ بالقُرْآنِ مع السَّفَرَةِ الكِرامِ البرَرَةِ، والذي يَقْرَأُ القُرْآنَ ويَتَتَعْتَعُ فِيهِ، وهو عليه شاقٌّ، له أجْرانِ**» [متفق عليه].

ومن بركة القرآن أنّه حفظ لأهل البيت، وإسعاد لهم، وطردٌ للشياطين عنهم، كما وصف ﷺ سورة البقرة فقال: « **إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْفِرُ مِنَ البَيْتِ الَّذِي تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ البَقَرَةِ**» [رواه مسلم].

وكذلك تُطرد به الهموم، وتُكشف به الغموم، وتُحفظ به الأنفس بإذن الله من الحسد والعين والمسّ، وفيه شفاء للأمراض كما قال تعالى: {وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ} [الإسراء: الآية 82].

وهو بركة لأهل المجلس، وأي محفل أو اجتماع يُتلى فيه كما قال ﷺ: «**ما اجْتَمع قَوْمٌ في بَيْتٍ مِن بُيُوتِ الله، يَتْلُونَ كِتابَ الله، وَيَتَدارَسُونَهُ بيْنَهُمْ، إلّا نَزَلَتْ عليهم السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَة وَحَفَّتْهُمُ المَلائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ الله فِيمَن عِنْدَهُ**» [رواه مسلم].

ومن أجلّ بركات هذا القرآن العظيم أن أسراره وأنواره لا تنتهي ولا تنطفئ أبدًا، فعلى مرّ العصور، ومدى الدّهور، لا يزال العلماء يغوصون على لآلئه، ودرره وجواهره، عبر أربعة عشر قرنًا من الزّمان، ومع هذا كلّه لا يزال جديدًا غضًّا طريًّا، يُمطر العالم بإعجازه وعجائبه، ويُبهر العقول بفتوحاته وعلومه، وعلى رغم كثرة التّفاسير في كل باب من أبواب العلم فإنّ القرآن يتجدّد مع كل جيل، ويحضر مع كل عصر، ويُواكب كل تطور، لأنّه مُبارك من عند الله، وهذا سرّ عظمة القرآن، وبقائه، وهيمنته.

ومُبارك ﷺ في أصحابه، فلا يُعلم إمام أو زعيم أو قائد ترك من الأثر الطيّب والبركة في أصحابه كما ترك ﷺ، فقد تحوّلوا ببركته من رعاة غنم إلى قادة أمم، ومن عبدة أصنام إلى حملة أعلام، ومن أتباع للوثنيّة إلى هداة للبشريّة، كانوا نكرات فسيّرهم شموسًا مُشرقات، ونجومًا لامعات.

كانوا قبل مبعثه في جاهلية جهلاء، وفي دياجير ظلماء، فتحوّلوا ببركة رسالته ويُمن نبوّته إلى عُلماء حُكماء، وأئمة حُلماء، وفاتحين مُجددين، وصالحين مُوحّدين.

كانوا قبل أن يُطلّ عليهم بنوره وبركته تائهين في أودية الضّلال، حائرين في مسارب الضّياع، أيتامًا على موائد اللّئام، حيارى في صحراء الوهم، فلمّا تجلّى بنوره العظيم إذا هم ينطلقون على بركة الله يجوبون القفار، ويمتطون البحار، ويُسابقون اللّيل والنّهار، في نشر دين الواحد القهّار.

ولو لم يبعث الله هذا النّبي العظيم لما كان لهم اسم في التّاريخ، ولا مكان في المجد، ولا منبر في السّيادة، ولا كرسي في القيادة، فإنّهم صاروا أئمّة في كل أبواب الخير إلى قيام السّاعة، فتجد أبا بكر الصديق إمامًا في الصدق، وعمر في العدل، وعثمان في الحياء، وعليًّا في القضاء، وأُبيًّا في القراءة، وابن عباس في التّفسير، وحسّان في الشّعر، وزيدًا في الفرائض، فصاروا رضوان الله

عليهم أئمةً لكل من يأتي بعدهم ببركته ﷺ، فأيّ بركة أعظم من بركته ﷺ على أصحابه (رضي الله عنهم)؟!

وعُمره ﷺ مُبارك، فقد وضع الله البركة في عُمره ﷺ وأيامه ولياليه، فمكث ثلاثًا وعشرين سنة في إبلاغ رسالته ليس إلّا، وكان في هذه الفترة الوجيزة من الفتح والنّصر، والنّفع والعلم، والإيمان والإصلاح، ما لا يقوم به غيره في قرون ولا دهور.

في ثلاث وعشرين سنة فحسب، بلّغ الرّسالة، وأدّى الأمانة، وعلّم القرآن، ونشر السّنّة، وقضى على الكُفر، وأسّس دولة العدل، وأقام أعظم حضارة راشدة عرفتها الإنسانيّة، وملأ الدّنيا علمًا، وهدى الله به الأمم، وأخرجهم به من الظّلمات إلى النّور.

فلو وزنت هذا العمر المحدود في الزّمن لوجدته أكثر بركة من آلاف السنوات لأقوام آخرين، فسُبحان من جعل السّاعة من ساعاته تُعادل العام، بل مئة عام من عمر غيره.

وانظر إلى بركة يوم واحد من أيامه عليه الصّلاة والسّلام، وهو يوم النّحر، اليوم العاشر من حجّه ﷺ على سبيل المثال، ففي هذا اليوم الواحد صلّى عليه الصّلاة والسّلام الفجر بمزدلفة، ودفع إلى منى وهو يُلبّي ويذكر الله ويدعوه، ويُعلّم النّاس المناسك، ويفتي الحجّاج، ثم رمى جمرة العقبة، ثم حلق، ثم نحر، ثم ذهب إلى المسجد الحرام فطاف، ثم صلّى الظّهر، وهو مع ذلك يُرشد النّاس ويُوجّههم، ووسيلة النّقل ناقته ﷺ، مع بُعد المسافة، وكثرة الزّحام، وحرارة الجو، ووقوفه للنّاس يسألونه، فسُبحان من بارك في لحظات عمره ودقائق حياته.

ودعاؤه ﷺ مُبارك، فالسماء تُفتّح له حينما يرفع يديه، وكلماته تصعد إلى العرش مُباشرة ليس بينها وبين الله حجاب، يرفع يديه إلى إلهه وخالقه، ويدعو خليله ومولاه، فتنهمر الإجابة كلمح البصر، وأسرع من زخّات المطر، ففي «الصّحيحين» وقف ﷺ على المنبر في شدّة الحر والسّماء ليس بها سحاب، ودعا الله أن يغيث العباد، فانهمر الغيث مُباشرة حتى انسكب الماء من سقف المسجد، وبقي المطر أسبوعًا كاملًا حتى سأل ﷺ ربّه أن يجعله على رؤوس الجبال وبطون الأودية ومنابت الشّجر، وقد شهد هذه القصة جمع من أصحابه ﷺ ورواها الثّقات.

ويُرسل ﷺ دعوته المُباركة في ليلة من الليالي لعبدالله بن عباس (رضي الله عنهما)- وهو غلام - ويقول: «**اللهمَّ فَقِّهْهُ في الدِّينِ**» [متفق عليه]، فيتحوّل هذا الغلام إلى ترجمان للقرآن، وبحر

للأمّة، وحبر لها.

ويُكافئ ﷺ خادمه أنس بن مالك (رضي الله عنه) بدعوة مُباركة فيقول: «**اللهمَّ أكْثِرْ مالَهُ، ووَلَدَهُ، وبارِكْ له فِيما أعْطَيْتَهُ**» [رواه مسلم].

فيُغدق اللهُ عليه من الخيرات، ويُبارك له في الذّريّة، ويُطيل عمره حتى يزيد عن المئة، يقول أنس(رضي الله عنه): «**فَوالله إنَّ مالِي لَكَثِيرٌ، وإنَّ وَلَدِي وَوَلَدَ وَلَدِي لَيَتَعادُّونَ على نَحْوِ المِئَةِ اليَومَ**» [رواه مسلم].

وعندما زار ﷺ سعد بن أبي وقاص (رضي الله عنه) في مرضه، فدعا له، فعاش بعد هذه الدّعوة خمسة وأربعين عامًا، ورُزق تسعة وعشرون ولدًا وبنتًا.

ومن أعظم المقامات في بركة دعائه ﷺ يوم وقف خاشعًا مُتبتّلًا باكيًا «**ليلة معركة بدر**» يدعو ربّه ومولاه، ويقول في مُناجاة حارة مُؤثّرة، وفي نشيج نبوي صادق: «**اللهمَّ أَنْجِزْ لي ما وَعَدْتَنِي، اللهمَّ آتِ ما وَعَدْتَنِي، اللهمَّ إنْ تُهْلِكْ هذِه العِصَابَةَ مِن أَهْلِ الإسْلَامِ لا تُعْبَدْ في الأرْضِ**» [رواه مسلم].

فأنزل الله نصره، وأعزّ جنده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ببركة دعائه ﷺ، ويقول ﷺ: «**لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ دَعاها لِأُمَّتِهِ، وإنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوتيَ شَفاعَةً لِأُمَّتي يَومَ القِيامَةِ**» [متفق عليه].

فمن بركته ﷺ على أمّته أنّه لم يدع بالهلاك على عصاتها، ولم يتعجّل الدّعوة في الدّنيا؛ لأنّ الدّنيا منقضية، مُنتهية، قصيرة، وإنّما جعل دعوته ذخرًا لأمّته يوم العرض الأكبر، شفقةً منه، ورحمة بهم، وحنانًا عليهم، فجزاه الله عنّا خير ما جزى نبيًّا عن أمّته، وأحاديث وقصص بركة دعائه ﷺ كثيرة حفلت بها كتب السُنّة والسّيرة، ولكن نكتفي بالأصح منها لعدم الإطالة.

وريقه ﷺ مُبارك، فلمّا أصابه الجوع ﷺ وأصحابه يوم حفر الخندق، صنع جابر (رضي الله عنه) طعامًا قليلًا، ودعا النّبي إلى بيته، فدعا ﷺ أهل الخندق، وكانوا ألف رجل، وقال لجابر: «**لا تُنْزِلُنَّ بُرْمَتَكُمْ، ولا تَخْبِزُنَّ عَجِينَكُمْ حتّى أجِيءَ**»، قال جابر: (رضي الله عنه) «**فَجِئْتُ وجاءَ رَسولُ الله ﷺ يَقْدُمُ النّاسَ حتّى جِئْتُ امْرَأَت**، فَقالَتْ: **بكَ وبِكَ**، فَقُلْتُ: **قدْ فَعَلْتُ الذي قُلْتِ، فأخْرَجَتْ له عَجِينًا فَبَصَقَ فيه وبارَكَ، ثُمَّ عَمَدَ إلى بُرْمَتِنا فَبَصَقَ وبارَكَ**، ثُمَّ قالَ: **ادْعُ خابِزَةً فَلْتَخْبِزْ مَعَكِ، واقْدَحِي مِن**

بُرْمَتِكُمْ ولا تُنْزِلُوها وهُمْ ألْفٌ، فَأُقْسِمُ باللهِ لقَدْ أكَلُوا حتّى تَرَكُوهُ وانْحَرَفُوا، وإنَّ بُرْمَتَنا لَتَغِطُّ كما هي، وإنَّ عَجِينَنا لَيُخْبَزُ كما هُوَ» [متفق عليه].

ومن بركة ريقه ﷺ أنّه شفا عين علي بن أبي طالب بإذن الله بعدما أصيب (رضي الله عنه) بالرّمد يوم خيبر، فعن سهل بن سعد (رضي الله عنه) أنّه سمع النّبي ﷺ يقول يوم خيبر: «**أيْنَ عَلِيٌّ ؟ فقِيلَ: يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ، فأمَرَ، فَدُعِيَ له، فَبَصَقَ في عَيْنَيْهِ، فَبَرَأَ مَكَانَهُ حتَّى كَأنَّهُ لَمْ يَكُنْ به شيءٌ**» [متفق عليه]. وأخذ الرّاية ومضى لأمر رسول الله ﷺ.

وعن البراء بن عازب (رضي الله عنهما) قال: «**كُنّا يَومَ الحُدَيْبِيَةِ أرْبَعَ عَشْرَةَ مِئَةً والحُدَيْبِيَةُ بئْرٌ، فَنَزَحْناها، حتّى لَمْ نَتْرُكْ فِيها قَطْرَةً، فَجَلَسَ النَّبيُّ ﷺ على شَفِيرِ البِئْرِ فَدَعا بماءٍ فَمَضْمَضَ ومَجَّ في البِئْرِ، فَمَكَثْنا غيرَ بَعِيدٍ، ثُمَّ اسْتَقَيْنا حتّى رَوِينا، ورَوَتْ، أوْ صَدَرَتْ رَكائِبُنا**» [رواه البخاري].

فهذه مُعجزة له ﷺ، وكرامة إلهية، وبركة ربّانية، شهدها العدد الكثير من أصحابه، وكانوا قرابة ألف وأربعمئة.

وآثاره ﷺ مُباركة، فعن عبدالله بن عباس (رضي الله عنهما)، قال: مَرَّ رَسولُ اللهِ ﷺ على قَبْرَيْنِ فقالَ: «**إنَّهُما لَيُعَذَّبانِ وما يُعَذَّبانِ في كَبِيرٍ، أمَّا أحَدُهُما فَكانَ يَمْشِي بالنَّمِيمَةِ، وأَمَّا الآخَرُ فَكانَ لا يَسْتَتِرُ مِن بَوْلِهِ، قالَ فَدَعا بعَسِيبٍ رَطْبٍ فَشَقَّهُ باثْنَيْنِ ثُمَّ غَرَسَ علَى هذا واحِدًا وعلَى هذا واحِدًا، ثُمَّ قالَ: لَعَلَّهُ أنْ يُخَفَّفُ عنْهما ما لَمْ يَيْبَسا.** وفي رواية: **وكانَ الآخَرُ لا يَسْتَنْزِهُ عَنِ البَوْلِ، أوْ مِنَ البَوْلِ**». [متفق عليه].

وهذا خاص به، ولا يكون إلّا له ﷺ، لما جعل الله فيه من البركة، وكان يحرص أصحابه غاية الحرص على أخذ شيء من آثاره المُباركة ﷺ، فعن سهل بن سعد السّاعدي قال(رضي الله عنه): «جَاءَتِ امْرَأَةٌ ببُرْدَةٍ، قالَتْ: يا رَسولَ اللهِ، إنِّي نَسَجْتُ هذِه بيَدِي أكْسُوكَهَا، فأخَذَهَا رَسولُ اللهِ ﷺ مُحْتَاجًا إلَيْهَا، فَخَرَجَ إلَيْنَا وإنَّهَا لَإِزَارُهُ، فَجَسَّهَا رَجُلٌ مِنَ القَوْمِ، **فَقالَ: يا رَسولَ اللهِ، اكْسُنِيهَا، قالَ:** نَعَمْ. فَجَلَسَ ما شَاءَ اللهُ في المَجْلِسِ، ثُمَّ رَجَعَ فَطَوَاهَا، ثُمَّ أرْسَلَ بهَا إلَيْهِ، **فَقالَ له القَوْمُ:** ما أحْسَنْتَ، سَأَلْتَهَا إيَّاهُ، وقدْ عَرَفْتَ أنَّه لا يَرُدُّ سَائِلًا، **فَقالَ الرَّجُلُ:** واللهِ ما سَأَلْتُهَا إلَّا لِتَكُونَ كَفَنِي يَومَ أمُوتُ.**قالَ سَهْلٌ:** فَكَانَتْ كَفَنَهُ» [رواه البخاري].

ومن هذا أيضًا ما صحّ عنه ﷺ أنّه أعطى إزاره للنّساء الغاسلات اللّاتي غسّلنّ ابنته بعدما توفيت وقال: «**أشعرنها إيّاه**» [متفق عليه]. ومعنى أشعرنها إيّاه: (أي اجعلنَ هذا الثّوب يلي جسدها تبركًا بثوبه ﷺ)، وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قُلتُ: «**يا رَسولَ الله، إنِّي سَمِعْتُ مِنْكَ حَدِيثًا كَثِيرًا فأنْساهُ، قالَ: ابْسُطْ رِداءَكَ فَبَسَطْتُ، فَغَرَفَ بيَدِهِ فِيهِ،** ثُمَّ قالَ: **ضُمَّهُ فَضَمَمْتُهُ، فَما نَسِيتُ حَدِيثًا بَعْدُ**» [رواه البخاري].

فصار أبو هريرة (رضي الله عنه) أحفظ الأُمّة لحديثه ﷺ إلى قيام السّاعة ببركة دعائه ﷺ.

ومن التبرّك بلباسه ﷺ ما صحّ عن أسماء بنت أبي بكر (رضي الله عنهما) أنّها قالت: «**هذِه جُبَّةُ رَسولِ الله ﷺ، فأخْرَجَتْ إلَيَّ جُبَّةَ طَيالِسَةٍ كِسْرَوانِيَّةٍ لَها لِبْنَةُ دِيباجٍ، وَفَرْجَيْها مَكْفُوف بالدِّيباجِ، فَقالَتْ: هذِه كانَتْ عِنْدَ عائِشَةَ حتّى قُبِضَتْ، فَل قُبِضَتْ قَبَضْتُها، وَكانَ النّبيُّ ﷺ يَلْبَسُها، فَنَحْنُ نَغْسِلُها لِلْمَرْضى يُسْتَشْفى بها**» [رواه مسلم].

وكفّه ﷺ مبارك، فعن جابر بن عبدالله (رضي الله عنهما) قال: «**دَخَلَ عَلَيَّ رَسولُ الله ﷺ وَأَنا مَرِيضٌ لا أَعْقِلُ، فَتَوَضَّأَ، فَصَبُّوا عَلَيَّ مِن وَضُوئِهِ، فَعَقَلْتُ**» [متفق عليه].

فببركة الماء الطّاهر الذي كان في جسده الشّريف ﷺ، شُفي جابر (رضي الله عنه) بإذن الله.

وعن أنس بن مالك (رضي الله عنه) قال: «**أُتِيَ النّبيُّ ﷺ بإنَاءٍ، وهو بالزَّوْرَاءِ، فَوَضَعَ يَدَهُ في الإنَاءِ، فَجَعَلَ المَاءُ يَنْبُعُ مِن بَيْنَ أصَابِعِهِ، فَتَوَضَّأَ القَوْمُ. قالَ قَتَادَةُ: قُلتُ لأنَسٍ: كَمْ كُنْتُمْ؟ قالَ: ثَلَاثَ مِئَةٍ، أوْ زُهَاءَ ثَلَاثِ مِئَةٍ**» متفق عليه].

ويقول عبدالله بن مسعود(رضي الله عنه): «**كُنَّا نَعُدُّ الآيَاتِ بَرَكَةً، وأَنْتُمْ تَعُدُّونَهَا تَخْوِيفًا، كُنَّا مع رَسولِ الله ﷺ في سَفَرٍ، فَقَلَّ المَاءُ،** فَقالَ: **اطْلُبُوا فَضْلَةً مِن مَاءٍ. فَجَاؤُوا بإنَاءٍ فيه مَاءٌ قَلِيلٌ، فأدْخَلَ يَدَهُ في الإنَاءِ،** ثُمَّ قالَ: **حَيَّ علَى الطَّهُورِ المُبَارَكِ، والبَرَكَةُ مِنَ الله. فَلَقَدْ رَأَيْتُ المَاءَ يَنْبُعُ مِن بَيْنِ أصَابِعِ رَسولِ الله ﷺ ولقَدْ كُنَّا نَسْمَعُ تَسْبِيحَ الطَّعَامِ وهو يُؤْكَلُ**» [رواه البخاري].

وعن جابر بن عبدالله (رضي الله عنهما) قال: «**عَطِشَ النَّاسُ يَومَ الحُدَيْبِيَةِ والنَّبيُّ ﷺ بيْنَ يَدَيْهِ رِكْوَةٌ فَتَوَضَّأَ، فَجَهِشَ النَّاسُ نَحْوَهُ،** فَقالَ: **ما لَكُمْ؟** قالوا: **ليسَ عِنْدَنَا مَاءٌ نَتَوَضَّأُ ولَا نَشْرَبُ إلَّا ما بيْنَ يَدَيْكَ، فَوَضَعَ يَدَهُ في الرِّكْوَةِ، فَجَعَلَ المَاءُ يَثُورُ بيْنَ أصَابِعِهِ كَأَمْثَالِ العُيُونِ، فَشَرِبْنَا**

وتَوَضَّأْنَا. قُلتُ: كَمْ كُنْتُمْ؟ قالَ: لو كُنَّا مِئَةَ ألْفٍ لَكَفَانَا، كُنَّا خَمْسَ عَشْرَةَ مِئَةً» [رواه البخاري، ورواه مُسلم مُختصرًا].

وكانَ رَسولُ الله ﷺ إذا صَلَّى الغَداةَ جاءَ خَدَمُ المَدِينَةِ بآنِيَتِهِمْ فِيها الماءُ، فَما يُؤْتى بإناءٍ إلّا غَمَسَ يَدَهُ فِيها، فَرُبَّما جاؤُوهُ في الغَداةِ البارِدَةِ، فَيَغْمِسُ يَدَهُ فِيها. [رواه مُسلم]، فحيًّا الله ذاك الكفّ الطّاهر المُبارك الذي ما خان، ولا غشّ، ولا غدر، ولا نهب، ولا سلب، ولا سرق، ولا سفك.

وانظر لحرص أصحابه ﷺ على التّبرك بآثاره، بعد أن اتّبعوا النّور الذي جاء به واهتدوا بهداه، فإنّ أعظم بركة يُتبرّك فيها بالنّبي ﷺ هي: اتّباع تعاليمه من كتاب الله وسُنّة رسوله ﷺ، وليس فقط الصّور والآثار الظّاهرة، فإنّ بعض النّاس قد يترك الاقتداء بسُنّته ﷺ وامتثال أمره واجتناب نهيه، ثم يتعلّق بآثار من اللّباس والشّعر التي كانت له ﷺ، فكيف يكون هذا؟!

وقصص بركته ﷺ لا تنتهي، وأحاديث مُعجزاته لا تنقضي، فهو المُبارك أينما حلّ وأينما ارتحل، وهو الموفّق أينما سار وأقام، وليست هذه البركة لأحد من النّاس إلّا له، ولا يجوز لأحد من الناس أن يدّعي البركة في آثاره، بل هذا وقف على سيّد النّاس أجمعين؛ لأنّ الله اصطفاه وهذّبه، وطهّره وزكّاه، ثم سكب في روحه الشّريفة البركة ففاضت على من حوله، وأشرقت على الحياة كلّها فحوّلتها إلى بهجة ونعيم، فهو الوحيد ﷺ الذي يُتَبرك به، ومن فاته التبرّك بآثاره ﷺ من ثوبٍ أو وضوءٍ أو شعرٍ أو نحوه فليتبرّك بما هو أعظم، بهذا النّور الإلهي، والفتح الرّباني، مِن: «**قال الله تعالى**»، و«**قال رسوله** ﷺ»، فإنّ الوحي أعظم بركة، وأجلّ رحمة، ففيه النّجاة والفوز العظيم، والمقام الكريم في الآخرة بجوار ربٍّ رحيم.

إنّ الأجيال التي أتت بعده ﷺ عبر القرون المُتتالية على مدى التّاريخ الإسلامي وإن لم تُدرك الماء الذي نبع من بين أصابعه إلّا أنّها أدركت ماء الرّسالة العذب الزّلال من الكتاب والسُنّة، فتروي عطشها في ظمأ هواجر المسيرة، فتجد الرّي المُبارك.

وإنّ أتباع النّبي ﷺ يهتمون بالمصاحف لا بالمتاحف، وبالأثر لا بالآثار، فإنّ بركة ميراثه ﷺ من العلم الشّرعي هي التي تُنجي صاحبها متى ما اتّبعها واستنار بنورها واستضاء بضيائها.

فتركته ﷺ التي تركها للنّاس ليست في قدح، ولا جفنة، ولا كساء، ولا عصا، وإنّما في شريعة مُطهّرة، وسُنّة مُيسّرة، وملّة سمحة، ولذلك علّق الله عزّ وجل اتّباع النّبي ﷺ بالاهتداء بهديه،

والاستنان بسنّته، فقال: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا} [الأحزاب: الآية 21]. وقال تعالى: {فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [الأعراف: الآية 157].

فليست المسألة فقط الوقوف مع الصّور، بل مع السّور، وليس التمسّك بهديه ﷺ التّمسّح بآثار الدّيار، بل بما تركه من أخبار، وما نشره من أنوار، عليه الصّلاة والسّلام ما عَسْعَسَ ليلٌ وما تنفّس نهار:

أهديتنا منبَرَ الدّنيا وغارَ حِرَا

وليلةَ القدرِ والإسراءَ للقممِ

والحوض والكوثر الرّقراقَ جئتَ بهِ

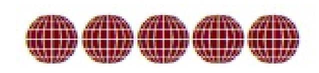
أنتَ المزملُ في ثوبِ الهدىَ فقُمِ

الكونُ يسألُ والأفلاكُ ذاهلةٌ

والجنُّ والإنسُ بين اللَّاءِ والنِّعمِ

والدّهرُ محتفلٌ والجوُّ مبتهجٌ

والبدرُ ينشّقُّ والأيامُ في حُلُمِ



مُحَمَّدٌ ﷺ مُعَلِمًا

ميراث النّبيين، وتركة المرسلين، هو العِلم، به عُبِدَ الدّيّان، وقام الميزان، وبه نزل جبريل، على صاحب الغرّة والتّحجيل، وبه عُرفَت شرائع الإسلام، ومُيّزَ بين الحلال والحرام.

وبالعلم قام صرح الإيمان، وارتفع حصن الإحسان، وبُيّنت العبادات، وشُرِحَت المُعاملات، ودُلَّ به على الجنّة، ودُعِيَ به إلى السّنة، وهو من العلل دواء، ومن الشّكوك شفاء، ينسف الشُّبُهات، ويحجب الشّهوات، ويُصلح القلوب، ويُرضي علّام الغيوب.

به تُقام الحُجة، وتُعرَف المَحَجَّة، ويكفي العلم شرفًا أنّ أوّل كلمة نزلت من السّماء على نبيّ الهدى ﷺ كلمة: {اقْرَأْ} ، وهي من أعظم أدلة فضل العلم وقيمة المعرفة. وأمره الله أن يقول: {رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا} [طه: الآية 114]، ولم يأمره بطلب زيادة إلّا من العلم؛ لأنّه طريق الرّضوان، وباب التّوفيق، وسبيل الفلاح، وامتنّ عليه ربّه بأن علّمه ما لم يكن يعلم، من المعارف الإيمانية، والفتوحات الرّبّانية، والمواهب الإلهية.

وقال له ربه: {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ} [محمد: الآية 19]، فبدأ بالعلم قبل القول والعمل، وكان ﷺ أسوة العلماء وقدوة طلبة العلم في الاستزادة من العلم النّافع والعمل الصّالح. وقال ﷺ: «**مَثَلُ ما بَعَثَنِي الله به مِنَ الهُدَى والعِلْمِ، كَمَثَلِ الغَيْثِ الكَثِيرِ أصابَ أرْضًا...**» [متفق عليه].

بعث اللهُ نبيّه مُعلّمًا يُعلّم الناس مكارم الأخلاق، ومعالي الأمور، وأشرف الخصال، وأنبل السّجايا، فكانت مُهمته الكبرى تعليم الكتاب والحكمة كما قال تعالى: {لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ

بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ} [آل عمران: 164].

وقال ﷺ: «**إِنَّ الله لَمْ يَبْعَثْنِي مُعَنِّتًا، ولا مُتَعَنِّتًا، وَلَكِنْ بَعَثَنِي مُعَلِّمًا مُيَسِّرًا**» [رواه مسلم].

ولقد ألهمنَا ﷺ أنّ العلم إيمان وإيقان، وإحسان وعرفان، وإذعان وإتقان، فهو إيمان بما جاء به الرّسول، وإيقان بالمنقول والمعقول، وإحسان يُجَوَّد به العمل، ويحذَر به من الزّلل، وعرفان يحمل على الشّكر، ويدعو لدوام الذّكر، وإذعان يحمل على العمل بالمأمور، واجتناب المحذور، والرِّضا بالمقدور، وإتقان تصلح به العبادة وتُطلب به الزيادة.

وحثّ ﷺ النّاس على طلب العلم ونشره، فقال - كما جاء في حجّة الوداع -: «**فَلْيُبَلِّغِ الشّاهِدُ الغائِبَ، فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أوْعى مِن سامِعٍ**» [متفق عليه].

وقال ﷺ: «**نضَّرَ الله امرأً سمعَ منّا حديثًا فحفظَهُ حتّى يبلِّغَهُ غيرَهُ، فربَّ حاملِ فقْهٍ إلى من هوَ أفقَهُ مِنْهُ، وربَّ حاملِ فقْهٍ ليسَ بفقيهٍ**» [رواه أبو داود].

وقال ﷺ: «**بلِّغُوا عَنِّي ولو آيَةً**» [رواه البخاري].

وبيّن ﷺ فضل العلم والعُلماء فقال: «**مَن يُرِدِ الله به خَيْرًا يُفَقِّهْهُ في الدِّينِ**» [متفق عليه].

وعن أبي أمامة الباهلي (رضي الله عنه) قال: «**ذُكِرَ لرَسولِ الله ﷺ رجُلانِ؛ أحدهما عابدٌ، والآخَرُ عالِمٌ**»، فقال رسولُ الله ﷺ: «**فضلُ العالِمِ على العابِدِ كفضلي على أدناكم**»، ثمَّ قالَ رسولُ الله ﷺ: «**إنَّ الله وملائِكتَهُ وأَهلَ السَّماواتِ والأرضِ حتَّى النَّملةَ في جُحرِها وحتَّى الحوتَ ليصلُّونَ على معلِّمِ النَّاسِ الخيرَ**» [رواه الترمذي].

وقال ﷺ: «**خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ**» [رواه البخاري].

وقد رفع الله العلماء فقال تعالى: {يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ} [المجادلة: الآية 11].

وميّزهم فقال سُبحانه: {هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ} [الزمر: الآية 9].

وذكرهم بالخشية فقال: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} [فاطر: الآية 28].

واستشهدهم على ألوهيته فقال: {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ} [آل عمران: الآية 18].

واستحفظهم على كتابه فقال: {بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ} [العنكبوت: الآية 49].

فالعلماء هم وَرَثَة الأنبياء، وسادة الأولياء، وحمَلة الوثيقة، والشّهداء على الخليقة، بهم تصلح الدّيار، وتعمر الأمصار.

إنّ صيد الكلب المُعلَّم حلال، وصيد الكلب الجاهل حرام ووبال، فعن عدي ابن حاتم الطائي (رضي الله عنه) قال: «**سَأَلْتُ رسول الله ﷺ قُلتُ: إنَّا قَوْمٌ نَصِيدُ بهذِه الكِلَابِ ؟** فَقالَ: **إذَا أَرْسَلْتَ كِلَابَكَ المُعَلَّمَةَ، وَذَكَرْتَ اسْمَ الله عَلَيْهَا، فَكُلْ ممَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكَ**» [متفق عليه].

قال حافظ الحكمي:

يَكفِيكَ فِي ذاكَ أُولَى سُورَةٍ نَزَلَتْ	عَلى نَبِيِّكَ أعْني سورَةَ القَلَمِ
كذاكَ فِي عِدَّةِ الآلاءِ قدَّمَهُ	ذِكْرًا وقدَّمَهُ فِي سُورَةِ النَّعَمِ
وميزَ اللهُ حَتى فِي الجوارِحِ مَا	مِنْها يُعلّمُ عنْ باغٍ ومُغْتَشِمِ
وذمَّ ربّي تعالَى الجاهِلِينَ بِهِ	أشَدَّ ذمٍّ فَهُمْ أدْنى مِنَ البُهمِ
وليْسَ يُغبطُ إلّا فِي اثْنَتَيْنِ هُما الْ	إحْسانُ في المالِ أو في العِلْمِ والحكمِ

وما ذاك إلّا لشرف العلم حتى في البهائم، ومكانة المعرفة حتى في السّوائم، والهُدهد حمل علمًا إلى سليمان عليه السلام، فسطّر الله اسمه في القرآن، فهو بالحجّة دمغ بلقيس، وأنكر عليهم عبادة إبليس، وحمل من سليمان رسالة، وأظهر بالعلم شجاعة وبسالة.

وقد حثّ ﷺ أصحابه على تعلّم بعض اللّغات غير العربية ومنهم الصّحابي الجليل زيد بن ثابت (رضي الله عنه) يقول: «**أمرَني رسولُ الله ﷺ أن أتعلَّمَ لَهُ كلمات من كتابِ يَهودَ، قالَ: فما مرَّ بي نِصفُ شَهْرٍ حتَّى تعلَّمتُهُ لَهُ، قالَ: فلمَّا تَعلَّمتُهُ كانَ إذا كتبَ إلى يَهودَ كتبتُ إليهِم، وإذا كتَبوا إليهِ قرأتُ لَهُ كتابَهُم**» [رواه أبو داود].

ودعا ﷺ إلى حضور مجالس العلم والإنصات للعلماء، فعن أبي واقد اللَّيثي (رضي الله عنه) قال: «**بيْنَما رَسولُ الله ﷺ في المَسْجِدِ فأقْبَل ثَلَاثَةُ نَفَرٍ، فأقْبَلَ اثْنَانِ إلى رَسولِ الله ﷺ وذَهَبَ واحِدٌ، فأمَّا أحَدُهُمَا، فَرَأَى فُرْجَةً في الحَلْقَةِ فَجَلَسَ، وأَمَّا الآخَرُ فَجَلَسَ خَلْفَهُمْ، فأما الثالث فأدبر ذاهبًا.** فَلَمَّا فَرَغَ رَسولُ الله ﷺ قالَ: **ألَا أُخْبِرُكُمْ عَنِ النَّفَرِ الثَّلَاثَةِ؟ أمَّا أحَدُهُمْ فأوَى إلى الله فَآوَاهُ اللهُ، وأَمَّا الآخَرُ فَاسْتَحْيَا فَاسْتَحْيَا اللهُ منه، وأَمَّا الآخَرُ فأعْرَضَ فأعْرَضَ اللهُ عنْه**» [متفق عليه].

وبشّر ﷺ طلبة العلم فقال: «**مَن سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فيه عِلْمًا، سَهَّلَ الله له به طَرِيقًا إلى الجَنَّةِ**» [رواه مسلم].

وبشّر ﷺ أنّ من الأعمال الباقية للإنسان حتى بعد وفاته هي العلم النافع فقال: «**إذَا مَاتَ الإنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إلَّا مِن ثَلَاثَةٍ: إلَّا مِن صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو له**» [رواه مسلم].

فإذا كان هذا أجر العالم، فكيف بأجر من علّم الأمة بأسرها، وأرشدها إلى الله من أوّلها إلى آخرها، ودلّها على الجنّة وأبعدها عن النّار؟!

وهو سيد ولد آدم ﷺ، أعظم الأمة أجرًا، وأرفع النّاس ذكرًا، وأشرح الخلق صدرًا، وأعلى البشر ذكرًا.

كان ﷺ في تعليمه رحيمًا رفيقًا، يصل إلى قلوب الناس بألين السّبل، وإلى عقولهم بألطف العبارات، كما قال فيه رب العالمين: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ} [آل عمران: الآية 159].

يأتيه أعرابيّ فيقول: اللّهم ارحمني ومحمدًا ولا ترحم معنا أحدًا، فيرد ﷺ بكل رفق: «**لقَدْ حَجَّرْتَ واسِعًا**» [رواه البخاري].

أي: أنّه ضيّق رحمة الله التي وسعت كل شيء.

ويقوم أعرابي فيبول في طرف المسجد، ويهمّ الصّحابة يريدون زجره، فيمنعهم ﷺ ويقول: «**لا تُزْرِمُوه، دَعُوه**» [متفق عليه].

ويدعو بدلو من ماء ليُصبّ على بول الأعرابي، ثم يدعوه ويُعلّمه بكل رفق ولين وحُسن خلق، ويقول له: «**إنَّ هذِه المَساجِدَ لا تَصْلُحُ لِشيءٍ مِن هذا البَوْلِ، ولا القَذَرِ، إنَّما هي لِذِكْرِ الله عزَّ وجلَّ، والصَّلاةِ وقِراءَةِ القُرْآنِ**» [رواه مسلم].

وهذا معاوية بن الحكم السّلمي (رضي الله عنه) يصف لنا رفق المُعلّم الأعظم ورحمته فيقول: «**بيْنا أنا أُصَلِّي مع رَسولِ الله ﷺ، إذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنَ القَوْمِ، فَقُلتُ: يَرْحَمُكَ اللهُ فَرَمَانِي القَوْمُ بأَبْصَارِهِمْ، فَقُلتُ: واثُكْلَ أُمِّيَاهْ، ما شَأْنُكُمْ؟ تَنْظُرُونَ إلَيَّ، فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بأَيْدِيهِمْ علَى أفْخَاذِهِمْ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ يُصَمِّتُونَنِي لَكِنِّي سَكَتُّ، فَلَمَّا صَلَّى رَسولُ الله ﷺ، فَبِأَبِي هو وأُمِّي، ما رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ ولَا بَعْدَهُ أحْسَنَ تَعْلِيمًا منه، فَوَالله، ما كَهَرَنِي ولَا ضَرَبَنِي ولَا شَتَمَنِي، قالَ: إنَّ هذِه الصَّلَاةَ لا يَصْلُحُ فِيهَا شيءٌ مِن كَلَامِ النَّاسِ، إنَّما هو التَّسْبِيحُ والتَّكْبِيرُ وقِرَاءَةُ القُرْآنِ**» [رواه مسلم].

فلم يُعكّر تعليمه ﷺ عنف أو زجر أو فظاظة أو غلظة، بل فاض تعليمه طُهرًا ونقاءً، ورفقًا وصفاءً، ولينًا وسماحةً، وكان إذا تكلّم أو علّم تبسّم بخلاف بعض النّاس تجده إذا وعظ أو علّم تجهّم، لأنّه ﷺ رحمةٌ مُهداة، ونعمةٌ مُسداة، وخيرٌ مُتصل، وبركةٌ مُستمرّة.

وقد علّم ﷺ أصحابه تعليمًا عمليًّا ميدانيًّا، بفعله قبل قوله؛ لأنّ التّعليم بالعمل الميداني أسهل على الفهم، وأقوى على الثّبات في الأنفس والعقول، كالوضوء أمام النّاس ليأخذوا عنه.

ويصلي ويقول: «**صَلُّوا كما رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي**» [راوه البخاري].

ويُعلّم بسيرته فيقول: «**مَن رغِبَ عن سُنَّتي فليسَ مِنِّي**» [متفق عليه].

ويعلّم بنُسكه فيحج بهم ويقول: «**لِتَأْخُذُوا مَنَاسِكَكُمْ**» [رواه مسلم].

فهو القدوة في التّعليم باللّفظ واللّحظ، والهدي والخُلق، والقول والفعل، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: الآية 21].

وكان يكثر ﷺ من قول: «**اللهمَّ إنِّي أَعُوذُ بكَ مِن عِلْمٍ لا يَنْفَعُ**» [رواه مسلم].

فكانت حياته كلها تعليمًا لأُمّته بأقواله وأفعاله، وسيرته وأحواله، وجلوسه ومقامه، وصلاته وصيامه، وصدقته وحجه، وأكله وشربه.

كان ﷺ يُعلّم أصحابه بالقدوة الحيّة المتمثّلة في سيرته العطرة وأخلاقه السامية، وخصاله الجليلة التي أجمع على حسنها العقلاء، وأحبها الأتقياء، واقتدى بها الأولياء.

فكان يدعو إلى تقوى الله وهو أتقاهم، وينهاهم عن الشـّيء فيكون أشدّهم حذرًا منه، ويَعظهم ودموعه على خدّه الشّريف، ويوصيهم بأحسن الخُلق فإذا هو أحسنهم خلقًا، ويندبهم إلى ذكر الله وإذا به أكثرهم ذكرًا، ويناديهم إلى البذل والعطاء ويكون أسخاهم يدًا، وأكرمهم نفسًا، وينصحهم بحُسن العشـرة مع الأهل، وهو خير الناس لأهله رحمةً وعطفًا ورقةً ولطفًا.

وتدرّج ﷺ في تعليم أصحابه، فلم يُلق عليهم العلم جُملة واحدة بل شيئًا فشيئًا، كما قال تعالى: {وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ} [الإسراء: الآية 106]، وقال سُبحانه: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً} [الفرقان: الآية 32].

فكان ﷺ يمتثل هذا المنهج في التّعليم، ويبدأ بكبار المسائل والأهم فالمهم، ويُعلّم النّاس مسألة مسألة لترسخ في عقولهم، وتثبت في قلوبهم؛ لأنّ المقصود الفهم والتدبّر، ثم الدّعوة والعمل والانطلاق في الحياة بهذا الدّين العظيم؛ ولذلك بقي ﷺ ثلاثة عشر عامًا يدعو النّاس في مكة ويُعلّمهم: «**لا إله إلّا الله**»

يقول عبدالله بن عباس (رضي الله عنهما): قالَ رَسولُ الله ﷺ لِمُعَاذِ بنِ جَبَلٍ حِينَ بَعَثَهُ إلى اليَمَنِ: «**إنَّكَ سَتَأْتي قَوْمًا أهْلَ كِتَابٍ، فَإِذَا جِئْتَهُمْ، فَادْعُهُمْ إلى أنْ يَشْهَدُوا أنْ لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ، وأنَّ مُحَمَّدًا رَسولُ الله، فإنْ هُمْ أطَاعُوا لكَ بذلكَ، فأخْبِرْهُمْ أنَّ اللهَ قدْ فَرَضَ عليهم خَمْسَ صَلَوَاتٍ في كُلِّ يَومٍ ولَيْلَةٍ، فإنْ هُمْ أطَاعُوا لكَ بذلكَ، فأخْبِرْهُمْ أنَّ اللهَ قدْ فَرَضَ عليهم صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِن أغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ علَى فُقَرَائِهِمْ، فإنْ هُمْ أطَاعُوا لكَ بذلكَ، فَإِيَّاكَ وكَرَائِمَ أمْوَالِهِمْ، واتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ؛ فإنَّه ليسَ بيْنَهُ وبيْنَ الله حِجَابٌ**» [رواه البخاري ومسلم].

ولهذا كان الصّحابة رضوان الله عليهم أطهر الأمّة قُلوبًا، وأكثر الناس علمًا، وأقَلهم تكلُّفًا وتشدّدًا؛ لأنّ مُعلّمهم وقدوتهم وأسوتهم سيد ولد آدم ﷺ.

وممّا تفرّد به رسول الله ﷺ في تعليمه عن كل مُعلمي الأرض أنّه كان نبيًّا ربّانيًا، ورسو معصومًا ينقل عن جبريل، عن ربّه، حكمة راشدة، وملّة هادية، ودينًا قيمًا، كما قال تعالى: {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى } [النجم: الآية 3- 5].

فلا ينطق إلّا بالحق، ولا يقول إلّا الصّدق، ينهى عن التكلّف والتّعمّق والتّفيهق والتّشدّق، ويتكلم بالعبارة السّهلة اليسيرة الواضحة التي يفهمها الجميع.

مَنّ عليه ربّ العالمين بالبركة في حديثه، فكان إذا تكلّم أوجز، ويقول ﷺ: «**أُعْطِيتُ جَوامِعَ الكَلِمِ**» [متفق عليه].

بل إنّ حديثه مُعجز يختلف عن حديث النّاس مهما بلغت فصاحتهم وبلاغتهم، كما قالت أمّ المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) : «**إنَّ رَسُولَ الله ﷺ لَمْ يَكُنْ يَسْرُدُ الحَدِيثَ كَسَرْدِكُمْ**» [متفق عليه].

كان ينطق بالكلمة الواحدة فيُحيي بها الله القلوب والأرواح، وقد كُتب في الكلمة الواحدة من كلامه ﷺ مُجلّدات، وأُلّف فيها مؤلفات.

وانظر مثلًا إلى إعجازه ﷺ في قوله: «**إنَّما الأعْمالُ بالنِّيّاتِ، وإنَّما لِكُلِّ امْرِئٍ ما نَوَى**» [متفق عليه].

أنّها قاعدة كُليّة رأى بعض العلماء أن يُبدأ بها كل باب من أبواب العلم، وقال ﷺ: «**اتَّقِ الله حيثُما كنتَ، وأتبعِ السَّيِّئةَ الحسنةَ تمحُها، وخالِقِ النَّاسَ بخلقٍ حسنٍ**» [رواه الترمذي].

فقُل لي بربك: ماذا أبقى هذا الحديث من خير إلّا ودلّ عليه؟ ومن شر إلّا وحذّر منه؟

فإنّه جمع حق الخالق وحق المخلوق، ومقام المؤمن في الطّاعة، وموقفه من المعصية، وقوله ﷺ لمّا سأله عُقبة بن عامر (رضي الله عنه): ما النّجاة؟ فقال له: «**أمسِكْ عليكَ لسانَكَ، وليسعْكَ بيتُك، وابكِ على خطيئتِكَ**» [رواه الترمذي].

هل رأيت أوضح، وأشرح، وأبين، وأنفع من هذا الحديث المُبارك المُختصر المُشرق؟! ويسأله النّواس بن سمعان الأنصاري (رضي الله عنه)، عَنِ البِرّ وَالإِثْمِ، فَقالَ ﷺ: «**البِرُّ حُسْنُ**

الخُلُقِ، وَالإِثْمُ ما حَاكَ في نَفْسِكَ، وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عليه النَّاسُ» [رواه مسلم].

ويقول ﷺ: «**الدِّينُ النَّصِيحَةُ**» [رواه مسلم].

ويقول: «**الحلالُ بَيِّنٌ والحرامُ بَيِّنٌ**» [متفق عليه].

ويقول ﷺ: «**دَع ما يَرِيبُكَ إلى ما لا يَرِيبُكَ**» [راوه أحمد].

ويسأله سفيان بن عبدالله الثّقفي (رضي الله عنه) ويقول: يا رَسولَ الله، قُلْ لي في الإسْلامِ قَوْلًا لا أسْأَلُ عنْه أحَدًا بَعْدَكَ، قالَ ﷺ: «**قُلْ: آمَنْتُ بالله، ثم اسْتَقِمْ**» [رواه مسلم].

إلى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة التي اختصر فيها ﷺ المعاني العظيمة المُتعدّدة، بأبسط عبارة، وألطف جُملة.

وتميّز ﷺ بجوابه الحاضر، المُباشر، الواضح، المُعجز، يُفتي النّاس دون تردد أو تأخر أو تلعثم، يقول رافع بن خديج (رضي الله عنه) قُلتُ للنّبيِّ ﷺ: إنَّنَا نَلْقَى العَدُوَّ غَدًا وليسَ معنَا مُدًى، فَقالَ: «**ما أنْـهَرَ الدَّمَ وذُكِرَ اسْمُ الله فَكُلُوهُ، ما لَمْ يَكُنْ سِنٌّ ولَا ظُفُرٌ**» [متفق عليه].

ويأتيه أعْرابِي فيأخُذَ بخِطامِ ناقَتِهِ ويقول له: يا رَسولَ الله أخبِرنِي بما يُقَرِّبُنِي مِنَ الجَنَّةِ، وما يُباعدُني مِنَ النَّارِ، فيقول ﷺ: «**تَعْبُدُ الله لا تُشْـرِكُ به شيئًا، وتُقِيمُ الصَّلاةَ، وتُؤْتي الزَّكاةَ، وتَصِلُ الرَّحِمَ، دَعِ النَّاقَةَ**» [رواه مسلم].

ويسأله أبو ذر الغفاري (رضي الله عنه) فيقول: يا رَسولَ الله، أيُّ الأعْمالِ أفْضَلُ؟ قالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيّ الأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «**الإِيمَانُ بِالله وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ.** قَالَ: قُلْتُ: **أَيّ الرّقَابِ أَفْضَلُ؟** قَالَ: **أَنْفَسُهَا عِنْدَ أَهْلِهَا، وَأَكْثَرُهَا ثَمَنا.** قَالَ قُلْتُ: **فَإِنْ لَمْ أَفْعَلْ؟** قَالَ: **تُعِينُ صَانِعا أَوْ تَصْنَعُ لأَخْرَقَ.** قَالَ: قُلْتُ: **يَا رَسُولَ الله أَرَأَيْتَ إِنْ ضَعُفْتُ عَنْ بَعْضِ الْعَمَلِ؟** قَالَ: **تَكُفّ شَرّكَ عَنِ النّاسِ، فَإِنّهَا صَدَقَةٌ مِنْكَ عَلَى نَفْسِكَ**» [متفق عليه].

ومن تأييد ربّه له ﷺ في علم الفُتيا وبراعته في التّعليم، وبركته في التّفهيم، كان يُجيب السّائل بأكثر ممّا سأل، إذا علم حاجته لزيادة في الجواب، وبسط في الخطاب، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ (رضي الله

عنهما)، قالَ: **رَفَعَتِ امْرَأَةٌ صَبِيًّا لَهَا**، فَقالَتْ: يا رَسولَ الله، **أَلِهذا حَجٌّ؟**، قالَ: «**نَعَمْ، وَلَكِ أَجْرٌ**» [رواه مسلم].

فما دامت قد جهلت أن للصّبي أجرًا إذا حج فمن باب أولى أنّها تجهل أجرها إذا حجّت بالصّبي.

وعن عبدالله بن عمر (رضي الله عنهما)، أنَّ رَجُلًا قالَ: يا رَسولَ الله، ما يَلْبَسُ المُحْرِمُ مِنَ الثِّيابِ؟ فَقالَ النبيُّ ﷺ: «**لا يَلْبَسُ المُحْرِمُ القَمِيصَ، ولَا السَّرَاوِيلَ، ولَا البُرْنُسَ، ولَا الخُفَّيْنِ، إلَّا أنْ لا يَجِدَ النَّعْلَيْنِ، فَلْيَلْبَسْ ما هو أسْفَلُ مِنَ الكَعْبَيْنِ**» [متفق عليه]. وهنا سأل السائل ما الذي يلبس المحرم؟ ولكن النّبي بيّن له المحظورات في الإحرام؛ لأنّها محصورة، وقد يجهلها الحاج.

وجاء رجل فقالَ: يا رسولَ الله إنَّا نَركبُ البَحرَ، ونحملُ معَنا القليلَ منَ الماءِ، فإن توضَّأنا بِهِ عطِشْنا، أفنَتوضَّأُ من ماءِ البحرِ؟ فقالَ ﷺ: «**هوَ الطَّهورُ ماؤُهُ، الحلُّ ميتتُهُ**» [رواه الخمسة وهو حديث صحيح].

فإنّ السّائل هنا سأل عن حكم الوضوء من ماء البحر، ولكنه ﷺ أجابه بأكثر ممّا سأل، وزاده بحُكم أكل ميتة البحر.

ومن إعجاز نبوّته ﷺ أنّه كان يُبادر النّاس بالجواب على الأسئلة المُحتملة لعلمه أنّ هذا سوف يقع، مثلما قال لأصحابه: « **يَأْتي الشَّيْطَانُ أحَدَكُمْ فيَقولُ: مَن خَلَقَ كَذَا؟ مَن خَلَقَ كَذَا؟ حتَّى يَقُولَ: مَن خَلَقَ رَبَّكَ؟ فَإِذَا بَلَغَهُ فَلْيَسْتَعِذْ باللهِ ولْيَنْتَهِ**» [متفق عليه].

فكان ﷺ أفقه النّاس، وأعظمهم إجابة، وأكثرهم إصابة، وأعرفهم بما يصلح للسائل.

ومن هديه ﷺ في التّعليم مراعاته للأعمار والفروق بين النّاس، فكان يُعطي كل واحد ما يُناسبه من التّعليم والنُصح والإرشاد، وهذه خاصية له وحده ﷺ لما أعطاه الله من أنوار النبوّة، وفتح عليه من أبواب المعرفة، فكان عنده جواب لكل سائل على حسب حاله، وما يصلح له، وما ينفعه في دنياه وأخراه، وكأنّ الجواب ثوبٌ مُفصّلٌ على السّائل، مع جمال الأداء وبهاء الإلقاء، فكأنه قرأ حياة السّائل قبل أن يأتيه، وألَمَّ بدخائله ومذاهبه قبل أن يستفتيه. يسأله شيخ كبير أدركه الهرم وأضناه الكبر عن عمل يداوم عليه، فأفتاه بأفضل عمل يُناسب حاله، وأسهل عبادة، وأيسر طاعة، في لفظ

وجيز، ولو كان المُعلّم غيره ﷺ لربّما أوصى الرّجل بالاجتهاد في الطّاعة، واغتنام آخر العمر بالجدّ في العبادة مع إغفال ضعفه وإهمال شيخوخته، بينما نبيّ الهدى ورسول الرّحمة ﷺ قال له: «**لا يزالُ لسانُكَ رَطْبًا مِن ذِكْرِ الله**» [رواه أحمد].

وتأمّل في جمال هذه الكلمة، وما فيها من حُسن تصوير، وبراعة عرض، وطلاوة عبارة تُشجّع السّامع على هذا العمل الجليل.

وسأله رجل أن يوصيه وكان غضوبًا فقال له ﷺ: «**لا تغضب ... ثلاثًا**» [رواه البخاري].

فكان هذا دواءه وبلسم حاله الذي لا يُصرف إلّا من صيدلية النّبوّة المُباركة.

ويرى ﷺ أبا موسى الأشعري يصعد جبلًا فيقول له: «**ألَا أدُلُّكَ علَى كَلِمَةٍ هِيَ كَنْزٌ مِنْ كُنوزِ الجنةِ ؟ لَا حولَ ولَا قُوَّةَ إلَّا بالله**» [متفق عليه].

فهذه الكلمة تُناسب صعود الجبال، وحمل الأثقال؛ لأنّ فيها البراءة من قوة العبد وحوله، وطلب المعونة والمدد من الله، فما أحسن الاختيار في هذا الإرشاد مع مراعاة مُقتضى المقام.

وأوصى ﷺ معاذ بن جبل (رضي الله عنه) لمّا بعثه إلى اليمن: «**إنَّك تأتي قومًا أهلَ كتابٍ**» [متفق عليه]، وذلك ليُنبّه مُعاذًا إلى معرفة أقدار المُخاطبين، والاطلاع على أحوالهم ليقول لهم ما يُناسبهم.

وأرشد ﷺ علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)إلى أن يقول: «**اللَّهُمَّ اهْدِنِي وَسَدِّدْنِي**» [رواه مسلم]. وهذا يُناسب حال عليًّ، فإنّه عاش حتى أدرك اختلاف الأمور، وظهور الفتن والتباس الحال التي تتطلب الهداية من الله في هذا الجوّ المُظلم، وطلب السّداد من الحيّ القيوم عند هذه الواردات والآراء والأهواء.

ويقول عبدالله بن عمرو بن العاص (رضي الله عنهما): كُنَّا عندَ النبيِّ ﷺ فجاءَ شابٌّ فقالَ: يا رسولَ الله: **أُقَبِّلُ وأنا صائمٌ؟** قالَ: **لا. فَجَاءَ شيخٌ** فقالَ: **أُقَبِّلُ وأنا صائمٌ؟** قال: **نعم.** قال: **فنظر بعضُنَا إلى بعضٍ،** فقالَ رسولُ الله ﷺ: «**قدْ علِمتُ نَظَرَ بعضُكُمْ إلى بعضٍ إنَّ الشّيخَ يَمْلِكُ نفسَهُ**» [رواه أحمد].

فسُبحان من ألهم رسوله، وفتح على نبيّه، وأفاض عليه من مكنون الفهم، ومخزون الفقه، ما فاق الوصف وجلّ عن المدح!.

ومن جمال تعليمه ﷺ للنّاس، وكريم تربيته لأصحابه، كان يُعطي كل جليس من جلسائه حقه من العناية، والحفاوة، والالتفات، والاهتمام، وكأنّه يخصّه بالحديث، فممّا يُروى عن هند بن أبي هالة (رضي الله عنه) قال: «**كان ﷺ يُعطي كل جلسائه نصيبه، لا يحسب جليسه أن أحدًا أكرم عليه منه**» [رواه البيهقي في دلائل النّبوّة].

فكان كل من جلس في حضرته يشعر أنّ له حظوة وتكريمًا خاصًا منه ﷺ، ويقول أبو رفاعة العدوي (رضي الله عنه): «**انْتَهَيْتُ إلى النبيِّ ﷺ وَهو يَخْطُبُ، فَقُلتُ: يا رَسولَ الله، رَجُلٌ غَرِيبٌ، جَاءَ يَسْأَلُ عن دِينِهِ، لا يَدْرِي ما دِينُهُ،** قالَ: **فأقْبَلَ عَلَيَّ رَسولُ الله ﷺ، وَتَرَكَ خُطْبَتَهُ حتَّى انْتَهَى إلَيَّ، فَأُتِيَ بكُرْسِيٍّ-حَسِبْتُ قَوَائِمَهُ حَدِيدًا- قالَ: فَقَعَدَ عليه رَسولُ الله ﷺ، وَجَعَلَ يُعَلِّمُنِي ممَّا عَلَّمَهُ اللهُ، ثُمَّ أَتَى خُطْبَتَهُ، فأتَمَّ آخِرَهَا**» [رواه مسلم].

فما أروعها من حفاوة! وما أجمله من اهتمام! وما أعظمه من حرص على تعليم النّاس دينهم! خاصة الجدد الذين دخلوا الإسلام حديثًا، وليس عندهم علم أو فقه في الدّين، فلم يؤجّل ﷺ هذا الطّلب، ولم يتأخّر عنه، بل نزل مباشرة من على المنبر وهو يخطب في النّاس، وتوجّه بكل تواضع ورفق واهتمام إلى هذا الوافد السّائل ليحتفي به ويُعلّمه.

ومن هديه ﷺ في تعليم النّساء اختياره أجمل الكلمات وأرق العبارات بعيدًا عن كسر قلوبهنّ أو خدش حيائهن، فعن أبي سعيد الخدري (رضي الله عنه) قال: **جَاءَتِ امْرَأَةٌ إلى رَسُولِ الله ﷺ** فَقالَتْ: **يا رَسُولَ الله، ذَهَبَ الرِّجَالُ بحَدِيثِكَ، فَاجْعَلْ لَنَا مِن نَفْسِكَ يَوْمًا نَأْتِيكَ فِيهِ، تُعَلِّمُنَا ممَّا عَلَّمَكَ اللهُ،** فقالَ: «**اجْتَمِعْنَ في يَومَ كَذَا وَكَذَا في مَكَانِ كَذَا وَكَذَا**» **فَاجْتَمَعْنَ، فأتَاهُنَّ رَسُولُ الله ﷺ فَعَلَّمَهُنَّ ممَّا عَلَّمَهُ اللهُ،** ثُمَّ قالَ: «**ما مِنْكُنَّ مِنِ امْرَأَةٍ تُقَدِّمُ بيْنَ يَدَيْهَا، مِن وَلَدِهَا ثَلَاثَةً، إلَّا كَانُوا لَهَا حِجَابًا مِنَ النَّارِ**» فَقالتِ امْرَأَةٌ منهنَّ: **يا رَسولَ الله، أوِ اثْنَيْنِ؟** قالَ: **فأعَادَتْهَا مَرَّتَيْنِ،** ثُمَّ قالَ: «**وَاثْنَيْنِ، وَاثْنَيْنِ، وَاثْنَيْنِ**»[متفق عليه].

وعن عبدالله بن عباس (رضي الله عنهما) قال: «**أَشْهَدُ علَى رَسُولِ الله ﷺ لَصَلَّى قَبْلَ الخُطْبَةِ، ثُمَّ خَطَبَ، فَرَأَى أنَّهُ لَمْ يُسْمِعِ النِّسَاءَ، فَأَتَاهُنَّ، فَذَكَّرَهُنَّ، وَوَعَظَهُنَّ، وَأَمَرَهُنَّ بِالصَّدَقَةِ،**

وَبِلَالٌ قَائِلٌ بِثَوْبِهِ، فَجَعَلَتِ المَرْأَةُ تُلْقِي الخَاتَمَ، وَالْخُرْصَ، وَالشَّيْءَ» [متفق عليه].

وتقول أمّ المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) : «**إنَّ أسْماءَ سَأَلَتِ النبيَّ ﷺ عن غُسْلِ المَحِيضِ؟، فَقالَ: تَأْخُذُ إحْداكُنَّ ماءَها وسِدْرَتَها، فَتَطَهَّرُ فَتُحْسِنُ الطُّهُورَ، ثُمَّ تَصُبُّ على رَأْسِها فَتَدْلُكُهُ دَلْكًا شَدِيدًا حتّى تَبْلُغَ شُؤُونَ رَأْسِها، ثُمَّ تَصُبُّ عَلَيْها الماءَ، ثُمَّ تَأْخُذُ فِرْصَةً مُمَسَّكَةً فَتَطَهَّرُ بها.** فَقالَتْ أسْماءُ: **وكيفَ تَطَهَّرُ بها؟** فَقالَ: **سُبْحانَ اللهِ! تَطَهَّرِينَ بها،** فَقالَتْ عائِشَةُ: - كَأنّها تُخْفِي ذلكَ - **تَتَبَّعِينَ أثَرَ الدَّمِ. وسَأَلَتْهُ عن غُسْلِ الجَنابَةِ؟** فَقالَ: **تَأْخُذُ ماءً فَتَطَهَّرُ فَتُحْسِنُ الطُّهُورَ، أوْ تُبْلِغُ الطُّهُورَ، ثُمَّ تَصُبُّ على رَأْسِها فَتَدْلُكُهُ حتّى تَبْلُغَ شُؤُونَ رَأْسِها، ثُمَّ تُفِيضُ عَلَيْها الماءَ،** فَقالَتْ عائِشَةُ: **نِعْمَ النِّساءُ نِساءُ الأنْصارِ لَمْ يَكُنْ يَمْنَعُهُنَّ الحَياءُ أنْ يَتَفَقَّهْنَ في الدِّينِ»** [متفق عليه].

فما ألطفه من مُعلّم! وما أكرمه من مُربٍّ! وما أجلّه من رسول كريم! أعطى كل ذي حق حقّه، فاجتمعت القلوب على حُبّه، وتعطّفت الأرواح على هديه، وانساقت النّفوس إلى تعاليمه ﷺ.

ومن حُسن تعليمه ﷺ وبراعة تفهيمه ومُخاطبته الأطفال بما يُناسبهم بعد أن تعلّقوا به حُبًّا وشوقًا، وملأهم رحمة ورأفة، ففي الترمذي أنّه ﷺ أردف ابن عباس خلفه على الدابة ثم قال له: « **يا غُلامُ إنّي أعلِّمُكَ كلِماتٍ، احفَظِ اللهَ يحفَظكَ، احفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تجاهَكَ ، إذا سأَلتَ فاسألِ اللهَ ، وإذا استعَنتَ فاستَعِن باللهِ، واعلَم أنَّ الأمَّةَ لو اجتَمعت علَى أن ينفَعوكَ بشَيءٍ لم يَنفعوكَ إلَّا بشيءٍ قد كتبَهُ اللهُ لَكَ، وإن اجتَمَعوا على أن يضرُّوكَ بشَيءٍ لم يَضرُّوكَ إلَّا بشيءٍ قد كتبَهُ اللهُ عليكَ ، رُفِعَتِ الأقلامُ وجفَّتِ الصُّحفُ»** [رواه أحمد].

فانظر كيف سلك معه ﷺ سبيل الرّفق والموعظة، وأهدى له نصيحة هي قاعدة من قواعد التّوجيه والإرشاد على مر الدهر!؟

ومن لطفه ﷺ تعليمه لخادمه أنس بن مالك (رضي الله عنه)، ورعايته له، وتأهيله ليكون من رجال الإسلام الكبار، وربّما مازح ﷺ الأطفال وهو يُعلّمهم حتى يأنسوا به وتألفه أرواحهم، فعَنْ مَحْمُودِ بنِ الرَّبِيعِ، قالَ: «**عَقَلْتُ مِنَ النبيِّ ﷺ مَجَّةً مَجَّها في وجْهِي وأنا ابنُ خَمْسِ سِنِينَ مِن دَلْوٍ»** [رواه البخاري]، وعقد عليها باب: «**متى يصحّ سماع الصّغير؟**» وهذه المجّة لها أثر ولها مقصد عنده ﷺ لما فيها من البركة والأنس، وإرسال السّرور على هذا الطّفل ومُداعبته وتعليمه. وَعَنْ عُمَرَ

بْنِ أَبِي سَلَمَةَ (رضي الله عنه) قَالَ: **كُنْتُ غُلامًا فِي حِجْرِ رَسُولِ اللهِ، وَكَانَتْ يَدِي تَطِيشُ فِي الصَّحْفَةِ**، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ: «**يَا غُلامُ، سَمِّ اللهَ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ**» [متفق عليه].

وهذه الجملة هي أصل أدب الطّعام على الإطلاق، وقد جمع فيها ﷺ آداب الأكل بكلام بليغ، ولفظ مختصر، يلقيه بكل محبّة ولُطف إلى هذا الغلام، فيحفظه ويُحدّث به طيلة حياته.

وعن معاوية بن الحكم السّلمي (رضي الله عنه) أنّه أتى النّبي ﷺ يستفتيه عن جارية كان قد لطمها، فعظّم النّبي ﷺ فعله فقال: «يا رَسولَ الله، **أفلا أُعْتِقُها؟** قالَ: **ائْتِنِي بها فأتَيْتُهُ بها**، فَقالَ لَها: **أيْنَ اللهُ؟**، قالَتْ: **في السَّماءِ**، قالَ: **مَن أنا؟**، قالَتْ: **أنْتَ رَسولُ اللهِ**، قالَ: **أعْتِقْها، فإنّها مُؤْمِنَةٌ**» [رواه مسلم].

فانظر كيف بدأ يُعلّمها أصل الدّين وهو التّوحيد، وقَبِل إيمانها، وسعى في عتقها وفك رقبتها، فصلّى الله وسلّم عليه ما أرحمه! وما أوصله! وما أبرّه!. ونشر ﷺ العلم بالحوار، والمُساءلة، والمُقارنة، والمُجادلة بالحُسنى، وجذب فهم السائل، ولفت انتباه السّامع، واستعمل الموازنة العقلية، والنّقاش الجميل، فعن أبي أمامة الباهلي(رضي الله عنه): «أنَّ فتًى شابًّا أتى النَّبيَّ ﷺ، فقال: **يا رسولَ الله ائذَنْ لي في الزِّنا**. فأقبَل القومُ عليه وزجَروه، فقالوا: **مَهْ مَهْ**. فقال: **ادنُهْ. فدنا منه قريبًا**، فقال**: أتُحِبُّه لأمِّك؟**، قال: **لا واللهِ، جعَلَني اللهُ فداءك**. قال: **ولا النّاسُ يُحِبُّونَه لأمَّهاتِهم**، قال: **أفتُحِبُّه لابنتِك؟**. قال: **لا واللهِ يا رسولَ اللهِ، جعَلَني اللهُ فداءك**. قال: **ولا النّاسُ يُحِبُّونَه لبناتِهم**. قال: **أفتُحِبُّه لأختِك؟** قال: **لا واللهِ يا رسولَ اللهِ، جعَلَني اللهُ فداءك**. قال: **ولا النّاسُ يُحِبُّونه لأخواتِهم**. قال: **أتُحِبُّه لعمَّتِك؟**. قال: **لا واللهِ يا رسولَ اللهِ، جعَلَني اللهُ فداك**. قال: **ولا النّاسُ يُحِبُّونه لعمّاتِهم**. قال: **أتُحِبُّه لخالتِك؟** قال: **لا واللهِ يا رسولَ اللهِ، جعَلَني اللهُ فداءك**. قال: **ولا النّاسُ يُحِبُّونَه لخالاتِهم**. قال: فوضَع يدَه عليه، وقال: **اللَّهمَّ اغفِرْ ذنبَه، وطهِّرْ قلبَه، وحصِّنْ فرجَه**. قال: «**فلم يكُنْ بعدَ ذلك الفتى يلتَفِتُ إلى شيءٍ**» [رواه أحمد].

وعن أبي ذر الغفاري (رضي الله عنه) أنّ النّبي ﷺ قال: «**في بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ، قالوا: يا رَسولَ اللهِ، أَيَأتي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكونُ له فِيهَا أَجْرٌ؟**، قالَ: **أَرَأَيْتُمْ لو وَضَعَهَا في حَرَامٍ أَكانَ عليه فِيهَا وِزْرٌ؟ فَكَذلكَ إذَا وَضَعَهَا في الحَلَالِ كانَ له أَجْرٌ**» [رواه مسلم].

وقال ﷺ: «**أَتَدْرُونَ ما المُفْلِسُ؟** قالوا: **المُفْلِسُ فِينا مَن لا دِرْهَمَ له ولا مَتاعَ**، فقالَ: **إنَّ المُفْلِسَ مِن أُمَّتي يَأْتي يَومَ القِيامَةِ بصَلاةٍ، وصِيامٍ، وزَكاةٍ، ويَأْتي قدْ شَتَمَ هذا، وقَذَفَ هذا، وأَكَلَ مالَ هذا، وسَفَكَ دَمَ هذا، وضَرَبَ هذا، فيُعْطَى هذا مِن حَسَناتِهِ، وهذا مِن حَسَناتِهِ، فإنْ فَنِيَتْ حَسَناتُهُ قَبْلَ أنْ يُقْضَى ما عليه أُخِذَ مِن خَطاياهُمْ فَطُرِحَتْ عليه، ثُمَّ طُرِحَ في النَّارِ**» [رواه مسلم].

وعن عبدالله بن عمر (رضي الله عنهما) قال حدَّثَني أبِي عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ قالَ: «**بيْنَما نَحْنُ عِنْدَ رَسولِ اللهِ ﷺ ذاتَ يَومٍ، إذْ طَلَعَ علَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَياضِ الثِّيابِ، شَدِيدُ سَوادِ الشَّعرِ، لا يُرَى عليه أثَرُ السَّفَرِ، ولا يَعْرِفُهُ مِنَّا أحَدٌ، حتَّى جَلَسَ إلى النَّبيِّ ﷺ، فأسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إلى رُكْبَتَيْهِ، ووَضَعَ كَفَّيْهِ علَى فَخِذَيْهِ.** وَقالَ: **يا مُحَمَّدُ، أخْبِرْني عَنِ الإسْلامِ**، فقالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: **الإسْلامُ أنْ تَشْهَدَ أنْ لا إلَهَ إلّا اللهُ وأنَّ مُحَمَّدًا رَسولُ اللهِ ﷺ، وتُقِيمَ الصَّلاةَ، وتُؤْتِيَ الزَّكاةَ، وتَصُومَ رَمَضانَ، وتَحُجَّ البَيْتَ إنِ اسْتَطَعْتَ إلَيْهِ سبِيل.** قالَ: **صَدَقْتَ**، قالَ: **فَعَجِبْنا له يَسْأَلُهُ، ويُصَدِّقُهُ**، قالَ: **فأخْبِرْنِي عَنِ الإيمانِ**، قالَ: **أنْ تُؤْمِنَ باللهِ، ومَلائِكَتِهِ، وكُتُبِهِ، ورُسُلِهِ، والْيَومِ الآخِرِ، وتُؤْمِنَ بالقَدَرِ خَيْرِهِ وشَرِّهِ**، قالَ: **صَدَقْتَ**، قالَ: **فأخْبِرْنِي عَنِ الإحْسانِ**، قالَ: **أنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأنَّكَ تَراهُ، فإنْ لَمْ تَكُنْ تَراهُ فإنَّه يَراكَ**، قالَ: **فأخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ**، قالَ: **ما المَسْؤُولُ عَنْها بأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ**، قالَ: **فأخْبِرْنِي عن أمارَتِها**، قالَ: **أنْ تَلِدَ الأمَةُ رَبَّتَها، وأَنْ تَرَى الحُفاةَ العُراةَ العالَةَ رِعاءَ الشَّاءِ يَتَطاوَلُونَ في البُنْيانِ**، قالَ: **ثُمَّ انْطَلَقَ، فَلَبِثْتُ مَلِيًّا**، ثُمَّ قالَ لِي: **يا عُمَرُ أتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟** قُلتُ: **اللهُ ورَسولُهُ أعْلَمُ**، قالَ: **فإنَّه جِبْرِيلُ أتاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ**» [رواه مسلم].

وعن عبدالله بن عمر (رضي الله عنهما) قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً لا يَسْقُطُ ورَقُها، وأنَّها مَثَلُ المُسْلِمِ، فَحَدِّثُونِي ما هي؟ فَوَقَعَ النَّاسُ في شَجَرِ البَوادِي، قالَ عبدُالله: ووَقَعَ في نَفْسِي أنَّها النَّخْلَةُ، فاسْتَحْيَيْتُ**، ثُمَّ قالوا: **حَدِّثْنا ما هي يا رَسولَ اللهِ؟** قالَ: **هي النَّخْلَةُ**» [متفق عليه].

فانظر إلى إقناعه ﷺ وهديه في تثبيت المعلومة وترسيخ الدّليل، وإثبات الحجّة حتى يشعر المتلقي ببرد اليقين، وعمق المعرفة، وذهاب الشّك.

وقرّب ﷺ المعاني للنّاس بضرب الأمثال لهم مما يشاهدونه بأعينهم، ويلمسونه بأيديهم، ويعيشونه في حياتهم، ليكون أدعى للفهم، وأكثر قوة لإيضاح الصّورة، وإبراز المقصود، وهذه

طريقة القرآن الكريم كما قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا} [البقرة: الآية 26].

فنهج ﷺ هذا المنهج القويم في التّعليم، فكان يقول ﷺ: «**مَثَلُ المُؤْمِنِ الذي يَقْرَأُ القُرْآنَ، مَثَلُ الأُتْرُجَّةِ، رِيحُها طَيِّبٌ وطَعْمُها طَيِّبٌ، ومَثَلُ المُؤْمِنِ الذي لا يَقْرَأُ القُرْآنَ مَثَلُ التَّمْرَةِ، لا رِيحَ لها وطَعْمُها حُلْوٌ، ومَثَلُ المُنافِقِ الذي يَقْرَأُ القُرْآنَ مَثَلُ الرَّيْحانَةِ، رِيحُها طَيِّبٌ وطَعْمُها مُرٌّ، ومَثَلُ المُنافِقِ الذي لا يَقْرَأُ القُرْآنَ كَمَثَلِ الحَنْظَلَةِ، ليسَ لها رِيحٌ وطَعْمُها مُرٌّ**» [متفق عليه].

وقال ﷺ: «**أَرَأَيْتُمْ لو أنَّ نَهْرًا ببَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ منه كُلَّ يَومٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ، هلْ يَبْقَى مِن دَرَنِهِ شيءٌ؟ قالوا: لا يَبْقَى مِن دَرَنِهِ شيءٌ، قالَ: فَذلكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الخَمْسِ، يَمْحُو اللهُ بهِنَّ الخَطَايَا**» [متفق عليه].

وقال ﷺ: «**إنَّما مثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ والجليس السَّوْءِ، كَحامِلِ المِسْكِ ونافِخِ الكِيرِ، فَحامِلُ المِسْكِ: إمَّا أنْ يُحْذِيَكَ، وإمَّا أنْ تَبْتاعَ منه، وإمَّا أنْ تَجِدَ منه رِيحًا طَيِّبَةً، ونافِخُ الكِيرِ: إمَّا أنْ يُحْرِقَ ثِيابَكَ، وإمَّا أنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً**» [متفق عليه].

وقال ﷺ: «**إنَّ مَثَلَ ما بَعَثَنِيَ اللهُ به عزَّ وجلَّ مِنَ الْهدَى والْعِلْمِ، كَمَثَلِ غَيْثٍ أصابَ أرْضًا، فَكانَتْ مِنْها طائِفَةٌ طَيِّبَةٌ، قَبِلَتِ الماءَ، فأنْبَتَتِ الكَلأَ والْعُشْبَ الكَثِيرَ، وكانَ مِنْها أجادِبُ أمْسَكَتِ الماءَ، فَنَفَعَ اللهُ بها النَّاسَ، فَشَرِبُوا مِنْها وسَقَوْا ورَعَوْا، وأَصابَ طائِفَةً مِنْها أُخْرَى، إنَّما هي قِيعانٌ لا تُمسِكُ ماءً، ولا تُنْبِتُ كَلأً، فَذلكَ مَثَلُ مَن فَقُهَ في دِينِ اللهِ، ونَفَعَهُ بما بَعَثَنِيَ اللهُ به، فَعَلِمَ وعَلَّمَ، ومَثَلُ مَن لَمْ يَرْفَعْ بذلكَ رَأْسًا، ولَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الذي أُرْسِلْتُ بهِ**» [متفق عليه].

واستخدم ﷺ أسلوب القَصص الجذّاب الخلّاب الذي يثير في النّفوس الإنصات والإعجاب، فميّزه ربّ العالمين على الأوّلين والآخرين إلّا الأنبياء والمُرسلين بما أخبره من غيب عن الأمم السابقة؛ ليُعلّم النّاس على طريقة القصص المؤثر في سياق عجيب تنشرح له النّفوس، وتخضع له الرّؤوس، بلسان فصيح، ونبأ صحيح، فيزداد النّاس بهذا القصص إيمانًا مع إيمانهم عملًا بقول الله تعالى: {فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} [الأعراف: الآية 176].

فكان أسلوب القصص في حديثه ﷺ أسلوبًا ماتعًا، وطرحًا رائعًا يأخذ منه السّامع العظة والاعتبار لما سلف في ماضي العصور كما قال تعالى: {وَكُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ

بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ} [هود: الآية 120].

وعلى سبيل ذلك قوله ﷺ: « **أنَّ رَجُلًا زارَ أخًا له في قَرْيَةٍ أُخْرَى، فأرْصَدَ الله له، علَى مَدْرَجَتِهِ، مَلَكًا فَلَمَّا أتَى عليه، قالَ: أيْنَ تُرِيدُ؟ قالَ: أُرِيدُ أخًا لي في هذِه القَرْيَةِ، قالَ: هلْ لكَ عليه مِن نِعْمَةٍ تَرُبُّها؟ قالَ: لا، غيرَ أنِّي أحْبَبْتُهُ في الله عزَّ وجلَّ، قالَ: فإنِّي رَسولُ الله إلَيْكَ، بأنَّ الله قدْ أحَبَّكَ كما أحْبَبْتَهُ فِيهِ**» [رواه مسلم].

وقال ﷺ: «**عُذِّبَتِ امْرَأَةٌ في هِرَّةٍ سَجَنَتْها حتّى ماتَتْ، فَدَخَلَتْ فيها النّارَ، لا هي أطْعَمَتْها ولا سَقَتْها، إذْ حَبَسَتْها، ولا هي تَرَكَتْها تَأْكُلُ مِن خَشاشِ الأرْضِ**» [متفق عليه].

وعلّم ﷺ بالإشارة مع الكلام ليجمع بين التّفهيم باللّفظ، والتّعليم بالحركة؛ ليكون أدعى للاستيعاب والفهم، كما قال: «**أنا وكافِلُ اليَتِيمِ في الجَنَّةِ هَكَذا**» وأشار بإصْبَعَيْهِ السَّبَّابَةِ والوُسْطَى .[رواه البخاري ومسلم].

وقوله ﷺ: «**المُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كالْبُنْيانِ، يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا، ثُمَّ شَبَّكَ بيْنَ أصابِعِهِ**»[متفق عليه].

وعن سفيان بن عبدالله الثقفي (رضي الله عنه) قال: «**قلتُ يا رسولَ الله حدِّثْني بأمرٍ أعتصِمُ بِهِ**، قالَ: **قُلْ ربِّيَ الله، ثمَّ استقِم. قلتُ: يا رسولَ الله، ما أخوَفُ ما تخافُ عليَّ؟ فأخذَ بلسانِ نفسِهِ،** ثمَّ قالَ: **هذا**» [رواه الترمذي].

وعن زينب أمّ المؤمنين (رضي الله عنها) أنَّ النبيَّ ﷺ اسْتَيْقَظَ مِن نَوْمِهِ وهو يقولُ: «**لا إلَهَ إلَّا اللهُ وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِن شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ! فُتِحَ اليومَ مِن رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هذِه. - وحَلَّقَ بإصْبَعِهِ الإبْهامِ والَّتي تَلِيها- قُلتُ: يا رَسولَ الله، أنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟! قالَ: نَعَمْ، إذَا كَثُرَ الخَبَثُ**» [متفق عليه].

وعلّم ﷺ بضحكه وإقراره على ما حدث، كما قال عمرو بن العاص: (رضي الله عنه) «**احتلمتُ في ليلةٍ باردةٍ شديدةِ البردِ، فأشفقتُ إن اغتسلتُ أن أَهْلَكَ، فتيمَّمتُ ثم صلَّيتُ بأصحابي صلاةَ الصّبحِ.** قال: فلمَّا قَدِمْنَا على رسولِ الله ﷺ ذكرتُ ذلكَ لهُ، فقال: **يا عمرُو صلَّيت بأصحابِكَ وأنتَ جُنُبٌ؟** قال: **قلتُ: نعم يا رسولَ الله إنّي احتلمتُ في ليلةٍ باردةٍ شديدةِ البردِ فأشفقتُ إن**

اغتسلتُ أن أَهْلَكَ، وذكرتُ قولَ الله عزَّ وجلَّ: {وَلاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا} [النساء: الآية 29]، **فتيمَّمتُ ثم صلَّيتُ، فضحكَ رسولُ الله ﷺ ولم يَقُلْ شيئًا**» [رواه أحمد وأبو داود].

وأحيانًا يغضب ﷺ إذا استدعى الأمر ذلك، فعن زيد بن خالد الجهني (رضي الله عنه) أنَّ النّبيَّ ﷺ سُئِلَ عن ضَالَّةِ الغَنَمِ، فَقالَ: «**خُذْهَا، فإنَّما هي لكَ أوْ لأخِيكَ أوْ لِلذِّئْبِ**» وسُئِلَ عن ضَالَّةِ الإبِلِ، فَغَضِبَ واحمرَّتْ وجْنَتَاهُ، وقالَ: «**ما لكَ ولَها!؟ معهَا الحِذَاءُ والسِّقَاءُ، تَشْرَبُ المَاءَ، وتَأْكُلُ الشَّجَرَ، حتَّى يَلْقَاهَا رَبُّهَا**» [متفق عليه].

وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) أنّه قال: «**خرجَ علَينا رسولُ الله ﷺ ونحنُ نتَنازعُ في القَدرِ فغَضبَ حتَّى احمرَّ وجهُهُ، حتَّى كأنَّما فُقِئَ في وَجْنَتَيْهِ الرُّمَّانُ، فقالَ: أبِهَذا أُمِرتُمْ!؟ أم بِهَذا أُرسلتُ إليكم!؟ إنَّما هلَكَ من كانَ قبلَكُم حينَ تَنازعوا في هذا الأمرِ، عزَمتُ عليكم ألَّا تتَنازَعوا فيهِ**» [رواه الترمذي].

فكان غضبه ﷺ في هذه المواقف شريعة ولمصلحة التعلّم، فسُبحان من جعل رضاه وغضبه، وضحكه وبكاءه، وصمته وكلامه، سُنّة يُتعبّد بها!.

وعلّم ﷺ بسكوته فيُقرّ على الحالة القائمة فتصبح سُنّة، وهذا الفعل يُسمى عند العُلماء بالتّقرير.

فما رآه ﷺ، أو سمع به وسكت عنه ولم ينكره فهو من ضمن سُنّته الشّريفة، فسُبحان من أعطاه هذه المنزلة التي ليست لأحد من الناس كائنًا من كان! حيث يُصبح سكوته عن الشّيء شريعة يُتعبّد بها، يقول أبو جُحيفة(رضي الله عنه): «**آخَى النَّبيُّ ﷺ بيْنَ سَلْمَانَ وأَبِي الدَّرْدَاءِ، فَزَارَ سَلْمَانُ أبَا الدَّرْدَاءِ، فَرَأَى أُمَّ الدَّرْدَاءِ مُتَبَذِّلَةً، فَقَالَ لَهَا: ما شَأْنُكِ؟ قَالَتْ: أخُوكَ أبو الدَّرْدَاءِ ليسَ له حَاجَةٌ في الدُّنْيَا. فَجَاءَ أبو الدَّرْدَاءِ فَصَنَعَ له طَعَامًا، فَقَالَ: كُلْ، قَالَ: فإنِّي صَائِمٌ، قَالَ: ما أنَا بآكِلٍ حتَّى تَأْكُلَ، قَالَ: فأكَلَ، فَلَمَّا كانَ اللَّيْلُ ذَهَبَ أبو الدَّرْدَاءِ يَقُومُ، قَالَ: نَمْ، فَنَامَ، ثُمَّ ذَهَبَ يَقُومُ، فَقَالَ: نَمْ، فَلَمَّا كانَ مِن آخِرِ اللَّيْلِ قَالَ سَلْمَانُ: قُمِ الآنَ. فَصَلَّيَا فَقَالَ له سَلْمَانُ: إنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، ولِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، ولِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فأعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ.** فأتَى النبيَّ ﷺ، **فَذَكَرَ ذلكَ له**، فَقَالَ النَّبيُّ ﷺ: **صَدَقَ سَلْمَانُ**» [رواه البخاري].

ومن أساليبه ﷺ في التّعليم تكراره للمسألة حتى تُفهم عنه ويعيها السّامع، فعن أنس بن مالك(رضي الله عنه): «**أنَّ النّبي ﷺ كانَ إذَا تَكَلَّمَ بكَلِمَةٍ أعَادَهَا ثَلَاثًا، حتَّى تُفْهَمَ عنْه، وإذَا أتَى علَى قَوْمٍ فَسَلَّمَ عليهم، سَلَّمَ عليهم ثَلَاثًا**» [رواه البخاري].

وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) أنّ النّبي ﷺ قال: «**رَغِمَ أنْفُهُ، ثُمَّ رَغِمَ أنْفُهُ، ثُمَّ رَغِمَ أنْفُهُ! قيلَ: مَنْ يا رَسولَ الله؟ قالَ: مَن أدْرَكَ والِدَيْهِ عِنْدَ الكِبَرِ، أحَدَهُما، أوْ كِلَيْهِما، ثُمَّ لَمْ يَدْخُلِ الجَنَّةَ**» [رواه مسلم].

وأحيانًا أخرى يُقسم ﷺ ليؤكّد قوله، وربّما كرّر القسم تثبيتًا للمعلومة في قلب المتلقي فعن أبي هريرة (رضي الله عنه) أنّ النبي ﷺ قال: «**والَّذي نَفْسي بيدِه، لا تَدخلُونَ الجنَّةَ حتَّى تُؤمِنُوا، ولا تُؤمِنُوا حتَّى تحابُّوا، أَوَلَا أدلُّكم على شَيءٍ إذا فعلتمُوه تحابَبتُم؟ أفشُوا السَّلامَ بينَكُم**» [رواه مسلم].

وعنه أيضًا أنّ النبي ﷺ قال: «**والله لا يُؤْمِنُ، والله لا يُؤْمِنُ، والله لا يُؤْمِنُ، قيلَ: مَن يا رَسولَ الله؟ قالَ: الذي لا يَأْمَنُ جارُهُ بَوائقَهُ**» [رواه البخاري].

وإنّما أقسم ﷺ وهو الصّادق المصدوق لكي لا يدع في نفس المُتلقي ريبة، ولا يبقى في قلبه شك، ويكون على يقين تام بما يُخبر به نبي الهُدى الصّادق الأمين ﷺ.

وأحيانًا كان ﷺ يُمسك بيد مَن يُعلّمه، أو منكبه أو أذنه؛ لإثارة انتباهه وجلب استماعه، وهذا من حُسن التّعليم وجميل التّفهيم، فعن عبدالله بن مسعود (رضي الله عنه) قال: «**عَلَّمَنِي رَسولُ الله ﷺ – وكَفِّي بيْنَ كَفَّيْهِ- التَّشَهُّدَ، كما يُعَلِّمُنِي السُّورَةَ مِنَ القُرْآنِ**» [متفق عليه].

فانظر إلى حنان هذا المُعلّم كيف ضمّ كف ابن مسعود بكفيه الطاهرتين الطيبتين!؟ فكان له من الوقع الجميل، والأثر الجليل على نفس ابن مسعود، فسهّل عليه الحفظ والتعلّم.

ويقول عبدالله بن عمر (رضي الله عنها) : «**أخَذَ رَسولُ الله ﷺ بمَنْكِبِي، فَقَالَ: «كُنْ في الدُّنْيَا كَأنَّكَ غَرِيبٌ أوْ عَابِرُ سَبِيلٍ**» [رواه البخاري].

ومع مرور الأعوام لم ينس ابن عمر مشهد أخذ رسول الله منكبه، ورسوخ ما أوصاه وعلّمه في قلبه مدى حياته. وهذا ابن عباس (رضي الله عنه) لمّا قام يُصلّي مع النّبي ﷺ صلاة اللّيل وقف

على يساره، قال: «**فأَخَذَ بيَدِي فأَدَارَنِي عن يَمِينِهِ**» [متفق عليه].

بلمسة حانية، ولفتة مباركة، يجذب المُعلّم الأعظم انتباه تلميذه، وإصغاءه لهذه الوصيّة النّافعة، وهذا الدّرس المُفيد، فيظل عالقًا في ذهنه (رضي الله عنه) ويلتزم بتطبيقه، ويُعلّمه النّاس.

ونهج ﷺ في تعليمه أسلوب إجمال الكلام، ثم تفصيله ليكون أسهل على المُخاطب الإحاطة بأطرافه، وأمكن على ثباته في الذّهن، فعن أبي قتادة (رضي الله عنه) أنَّ رَسولَ الله ﷺ مُرَّ عليه بجِنَازَةٍ، فَقالَ: **مُسْتَرِيحٌ ومُسْتَرَاحٌ منه**. قالوا: «**يا رَسولَ الله، ما المُسْتَرِيحُ والمُسْتَرَاحُ منه؟** قالَ: **العَبْدُ المُؤْمِنَ يَسْتَرِيحُ مِن نَصَبِ الدُّنْيا وأَذَاهَا إلى رَحْمَةِ الله، والعَبْدُ الفَاجِرُ يَسْتَرِيحُ منه العِبَادُ والبِلَادُ، والشَّجَرُ والدَّوَابُّ**» [متفق عليه].

وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) أنّ النبي ﷺ قال: «**تُنْكَحُ المَرأةُ لأربعٍ: لمالِها، ولِحَسَبِها، وجَمالِها، ولِدِينِها؛ فاظفَرْ بذاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَداكَ**» [متفق عليه].

ونهى ﷺ عن أشياء في التّعليم منها:

الجدل: فنهى عن الجدل العقيم، والخلاف السّقيم، الذي يُبنى على المُكابرة، ويُقصد منه المُفاخرة والمُكاثرة، عملًا بقول الباري: {مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ} [الزخرف: الآية 58].

أمّا الجدل بالحُسنى فهو منهجه ﷺ مؤتمرًا بقوله تعالى: {وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [النحل: الآية 125]. وعن أبي أمامة الباهلي (رضي الله عنه) أنّ النبي ﷺ قال: «**ما ضَلَّ قومٌ بعدَ هُدًى كَانُوا عليهِ إلَّا أُوتُوا الجَدَلَ، ثُمَّ تَلا رسولُ الله ﷺ هذه الآيَةَ:** {مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ} . [رواه التّرمذي].

ونهى ﷺ عن كتم العلم: كما قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُوْلَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ} [البقرة: الآية 159]، وقال ﷺ: «**من سُئل عن علم فَكَتمه، ألجمه اللهُ بلجام من نار يوم القيامة**» [رواه أبو داود والتّرمذي].

ونهى ﷺ عن طلب العلم رياءً وسمعةً: فقال ﷺ: «**من تعلَّم عِلمًا لغيرِ الله، أو أراد به غيرَ الله؛ فليتبوَّأْ مقعدَه من النّار**» [رواه الترمذي]. وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**لا تَعَلَّمُوا**

الْعِلْمَ لِتُبَاهُوا بِهِ العلماءَ، ولا تُماروا بِهِ السُّفَهاءَ، ولا تخيَّروا بِهِ المجالسَ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَالنَّارُ النَّارُ» [رواه ابن ماجه].

ونهى ﷺ عن كثرة القيل والقال والسّؤال عمَّا لم يقع: فعن المغيرة بن شعبة (رضي الله عنه) أن النبي ﷺ **كانَ يَنْهَى عن قِيلَ وقالَ، وكَثْرَةِ السُّؤَالِ**. [متفق عليه].

ونهى ﷺ عن سؤال الجهلة: فقال: «**إنَّ اللهَ لا يَقْبِضُ العِلْمَ انْتِزاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ النَّاسِ، ولَكِنْ يَقْبِضُ العِلْمَ بقَبْضِ العُلَماءِ، حتَّى إذا لَمْ يَتْرُكْ عالِمًا، اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُوسًا جُهّالًا، فَسُئِلُوا فأفْتَوْا بغيرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وأَضَلُّوا**» [متفق عليه]، وأمر ﷺ بسؤال أهل العلم عملًا بقول الباري سُبحانه: {فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ} [النحل: الآية 43].

وروى أبو داود وغيره من حديث جَابِرٍ (رضي الله عنه) قَالَ: «خَرَجْنَا فِي سَفَرٍ، فَأَصَابَ رَجُلًا مِنَّا حَجَرٌ، فَشَجَّهُ فِي رَأْسِهِ، ثُمَّ احْتَلَمَ، فَسَأَلَ أَصْحَابَهُ، فَقَالَ: هَلْ تجِدونَ لِي رُخْصَةً فِي التَّيَمُّمِ؟ فَقَالُوا: مَا نَجِدُ لَكَ رُخْصَةً وَأَنْتَ تَقْدِرُ عَلَى الْماءِ، فَاغْتَسَلَ، فَمَاتَ. فَلَمَّا قَدِمْنَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أُخبِرَ بذلِكَ، فَقَالَ: **قَتَلُوهُ قَتَلَهُمْ الله! أَلَا سَأَلُوا إِذْ لَمْ يَعْلَمُوا؛ فَإِن شِفَاءُ الْعِيِّ السُّؤَالُ، إن كَانَ يَكْفِيهِ أَنْ يَتَيَمَّمَ، وَيَعْصِبَ عَلَى جُرْحِهِ خِرْقَةً، ثُمَّ يَمْسَحَ عَلَيْهَا، وَيَغْسِلَ سَائِرَ جَسَدِهِ**».

ونهى ﷺ عن الفُتيا بغير علم: فقال: «**من تَقَوَّل علَيَّ ما لم أقُلْ، فَلْيَتَبَوَّأْ مقعدَه مِنَ النَّارِ، ومَنِ استشارهُ أخوهُ المسلِمُ، فأشارَ عليه بغيرِ رُشْدٍ، فقد خانَهُ، ومَنْ أُفْتِيَ بِفُتْيا غيرِ ثَبَتٍ، فإنَّما إثْمُه عَلَى مَنْ أفتاهُ**» [رواه أحمد].

وأنّها لمُعجزة كُبرى، وآية عُظمى، أنّ المُعلّم الأعظم والنّبي الأكرم قد علّم أُمّته إلى يوم الدّين وهو ما قرأ كتابًا، وما سطّر بيده خطابًا، وما خطّ جوابًا، فيملأ علمه الصّدور، وتُزيّن أقواله السّطور، ويُنشر ميراثه من على المنابر، ويُعلن من فوق المنائر، وتمتلئ به الدفاتر، وتنفد في تسطيره المحابر، قال تعالى: {وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ} [النساء: الآية 113]، فكل العُلماء، والحُكماء، والأدباء، والخُطباء، والفُقهاء، والأولياء، الذين ملؤوا الدّنيا علمًا، وحكمةً، ورشدًا، واستفاقةً، كما قيل عنهم:

فكلّهم من رسول الله ملتمسٌ   غرفًا من البحر أو رشفًا من الدّيَمِ

لقد علّم ﷺ أُمّته كيف يعيشون، وكيف يسعدون، وكيف يتعاملون، كما قال ﷺ: «**إِنَّهُ لَمْ يَكُن نَبِي قَبْلِي إِلَّا كَان حَقًّا عليه أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَه عَلَى خَيرِ مَا يَعْلَمُهُ لَهُم، ويُنْذِرَهُم شَرَّ ما يَعْلَمُهُ لهمْ**» [رواه مسلم].

فعلّمهم الطّهارة، بقوله وفعله، وعلّمهم الصّلاة، وأخذوا عنه مناسك الحجّ، وبيّن لهم آداب اللّباس والجائز والمُحرّم منه، وما يُقال عند لبس الثّوب، وما يُقال عند خلعه، وكيف يُلبس الحذاء، وكيف يُخلع.

وأخبرهم بآداب الكلام، وما يُستحسن من الحديث وما يُجتنب منه، وما هو المُحبب من القول، وما هو المُحرّم.

وعلّم الأمراء والولاة آداب الولاية، والعدل والإنصاف بين الرّعية.

وعلّم القضاة أحكام القضاء والفصل بين الخصومات، وحذّرهم من الظّلم والإجحاف، ودلّهم على أحكام المواريث بكل دقة ووضوح في عشرات الأحاديث الصّحيحة الثابتة.

وبيّن للدّعاة منهج الدّعوة المُستقيم وطريق الهداية القويم، ودعاهم للرّفق والحكمة ونبذ العنف والغلو والغلظة، وعلّم الفقهاء الفتيا والاستدلال والتفقه في الدّين.

وعلّم التُجّار أسباب التّجارة، وسُبل الكسب الحلال والرّزق الطيّب، وأنواع البيوع، وأصناف التّعامل الشّرعي.

وعلّم المُزارعين فضل الزّراعة وما ينبغي فيها، وما يحذر منها.

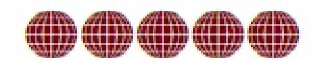
وقد كُتبت في ذلك مؤلفات، وعقدت فيها أبواب، وإنّما أشرنا مُجرّد إشارات، هي أشبه بالتّنبيهات؛ لأنّ تعليمه ﷺ للأمة بحر لا ساحل له، وحسبنا أن نقف على السّاحل ونسأل: هل في العالم من مُعلّم تخرّج على يديه أعلم وأكرم وأتقى وأنقى من أصحاب النّبي ﷺ ومن أتباعه إلى يوم الدّين؟ إنّ كل صحابيّ وكل تابع إلى يوم القيامة إنّما هو دليل قائم بنفسه على مُعجزة هذا النّبي المُعلّم.

وتخيّل حال الصّحابة قبل بعثته وحالهم بعدها؟ وكيف نقلهم من الخرافة؛ والجهل، والشّرك؛ إلى نور العلم، وضياء البصيرة، وفضاء التوحيد؟

والمُعجز في تعليمه أيضًا ﷺ توصّله إلى غرس هذا العلم في نفوس أصحابه غرسًا بقي بقاء حياتهم، ودام دوام أعمارهم، ونقله الأتباع عنهم، وأتباع الأتباع عن الأتباع إلى يوم الدّين، فكان إذا لقيه الرّجل يومًا من الدّهر أو ساعة من الزّمن وآمن به، ترك فيه من الأثر ما يبقى مُلازمًا له حتّى الموت، وكأنّه ليس في حياة هذا الرّجل إلّا ذلك اليوم، أو تلك السّاعة التي لقي فيها رسول الله ﷺ، وما ذاك إلّا لصدق نبوّته، وبركة دعوته، وجلال إخلاصه، وعظيم خُلقه، ونُبل فضائله،

فاللّهم صلِّ وسلِّم على من أغثت به القلوب، وأنرت به الدّروب، وبصّرت به عيونًا عُميًا، وأسمعت به آذانًا صُمًّا، وهديت به من الضّلالة، وعلّمت به من الجهالة، وأخرجتنا به من الظُّلمات إلى النّور، ومن الحزن إلى السّرور، ولا يسعني هنا الآن إلّا أن أضع القلم وأقول:

«أشهد أنّ محمّدًا رسول الله، عليه صلاة الله، وسلام الله».



مُحَمَّدٌ ﷺ مُصْلِحًا

الإصلاح هو منهج الأنبياء وطريق الرّسُل عليهم السّلام، وأوّل الإصلاح هو الدّعوة إلى توحيد الباري، والتّبشير والإنذار، وإقامة الحجّة وبيان المحجّة، لكي تستقيم حياة الأفراد والمجتمعات، ويتم الحفاظ على الأخلاق الفاضلة، والقيم الإنسانية النّبيلة.

إنّ منهجه ﷺ في الإصلاح قام من مُنطلق العصمة والوحي المُقدّس، وهو منهج واقعي شامل واضح، ولذلك كان يكثر ﷺ من قول: «**اللهمَّ أَصْلِحْ لي دِينِي الذي هو عِصْمَةُ أَمْرِي، وَأَصْلِحْ لي دُنْيَايَ الَّتي فِيهَا معاشِي، وَأَصْلِحْ لي آخِرتيَ الَّتي فِيهَا معادِي**» [رواه مسلم].

وقد بشّر الله تعالى المُصلحين فقال: {إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ} [الأعراف: الآية 170].

وقال تعالى على لسان نبيه شعيب عليه السلام: {إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ} [هود: الآية 88].

ولما اسْتَخْلَفَ موسى عليه السلام أخاه هارونَ في قومه أوصاه فقال له: {اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ} [الأعراف: الآية 142].

وجاء خاتم المُرسلين ﷺ بالإصلاح الشّامل العادل في كافة الميادين، وجميع المجالات، فصار إمام المُصلحين وسيدهم وقدوتهم إلى يوم الدّين.

جاء ﷺ ليُصلح القلوب بإذن الله، ويمحو منها الشّحناء والبغضاء والعداوة، وبدأ بالقلوب لأنّها أساس الإصلاح ومنبعه فقال ﷺ: «**إنَّ في الجَسَدِ مُضْغَةً إذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وإذَا فَسَدَتْ**

فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وهي القَلْبُ» [متفق عليه].

وأصلح ﷺ العقول التي مُلئت بفساد التّصور، وضلال المُعتقد، وسوء المُعاملة، ودعا النّاس إلى العودة لأصل فطرتهم التي خلقهم الله عليها بعد أن اجتالتهم الشّياطين قال تعالى: {فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ} [الروم: الآية 30].

وكان أوّل ما اعتمد عليه رسول الله ﷺ في عملية الإصلاح الشّاملة هو إصلاحه للإنسان؛ لأنّ صلاح المجتمع بصلاح الفرد، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ} [الرعد: الآية 11].

فاهتم بإصلاح الفرد والأسرة والمجتمع والأمّة، وبدأ ﷺ الإصلاح بنفسه فهو أسوة للعالمين، فوضع رِبَا عمّه العباس (رضي الله عنه)، ووضع دم أحد بني عبد المطلب، فقال: «**دِمَاءُ الجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعَةٌ، وإنَّ أَوَّلَ دَمٍ أَضَعُ مِن دِمَائِنَا دَمُ ابْنِ رَبِيعَةَ بنِ الحَارِثِ، كانَ مُسْتَرْضَعًا في بَنِي سَعْدٍ فَقَتَلَتْهُ هُذَيْلٌ، وَرِبَا الجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ، وَأَوَّلُ رِبًا أَضَعُ رِبَانَا رِبَا عَبَّاسِ بنِ عبدِ المُطَّلِبِ، فإنَّه مَوْضُوعٌ كُلُّهُ**» [رواه مسلم].

وكان ﷺ في باب الإصلاح يتنازل عن حقه الشّخصي ليتم الوفاق، وتُدفع الفتنة، فقد صحّ -عند البخاري ومُسلم- أنّه مرّ بمجلس لعبدالله بن أُبيّ ابن سلول رأس المنافقين وكان ﷺ راكبًا على حمار، ومعه بعض أصحابه فتضجّر ابن أُبيّ وقال كلمة ذميمة عن حمار النّبي، فقام رجل من الأنصار وردّ على عبدالله بن أُبيّ وقَالَ: والله لَحِمَارُ رَسولِ الله أطْيَبُ رِيحًا مِنْكَ، فَغَضِبَ لِعَبْدِ الله رَجُلٌ مِن قَوْمِهِ، فَشَتَمَهُ، فَغَضِبَ لِكُلِّ واحِدٍ منهما أصْحَابُهُ، وحصل خصام وشجار بين المؤمنين والمنافقين، فنزل ﷺ وسكّن الخصومة، وهدّأ الخواطر، وسكت عمّا ناله من أذى من هذا المنافق حُبًا منه ﷺ لإضفاء السّكينة على المُجتمع، ونزع فتيل الأزمة، وتهدئة النّفوس، قال تعالى: {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا} [الحجرات: الآية 9].

وسعى ﷺ وضرب أروع الأمثال في الإصلاح بين النّاس، فكان يُصلح بين المؤمنين، وبين المؤمنين والمُنافقين، وبين المؤمنين وأهل الكتاب، وبين المؤمنين والمُشركين، وبين الرّجل وزوجته، والصّاحب وصاحبه، والجار وجاره، بحكمة وعصمة نبويّة، ونهج ربّاني، وكان يخرج

في كل مشروع إصلاحي بنجاح باهر وثمار يانعة، يُصلح بين الخصوم، ويُسكّن الفتنة، ويزيل الخلاف، ويُقدّم الصّلح على الحُكم، والعفو والصفح على استيفاء الحقّ.

فألّف بين القلوب المُتنافرة، وجمع بين النفوس المُتباعدة، وجعل باب الإصلاح بين النّاس من أعظم أبواب البرّ، وأجلّ سُبل الطّاعة؛ لأن فيه جبر القلوب، وتطييب الخواطر، وجمع الشّمل، وتأليف الأرواح، ونزع فتيل الفتنة، قال تعالى: {لاَ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا} [النساء: الآية 114].

وقال ﷺ: «**لَا يُؤْمِنُ أحَدُكُمْ، حتَّى يُحِبَّ لأخِيهِ ما يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**» [مُتفق عليه].

فكان ﷺ يحثّ دائمًا وأبدًا على الوحدة والتّرابط، فآخى بين المُهاجرين والأنصار، ونبذ الفرقة والتّخاصم، ليكون المُجتمع أكثر قوة وتماسكًا؛ لأنّه إذا فُقد الإصلاح هلكت الأمم وضلّت الشّعوب، وتبددت الثّروات، وتفرّقت الأسر، وانتُهكت الأعراض، قال تعالى: {وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ} [الأنفال: الآية 46]، وقال ﷺ: «**تَرَى المُؤْمِنِينَ في تَراحُمِهِمْ وتَوادِّهِمْ وتَعاطُفِهِمْ، كَمَثَلِ الجَسَدِ، إذا اشْتَكَى عُضْوًا تَداعَى له سائِرُ جَسَدِهِ بالسَّهَرِ والحُمَّى**» [مُتفق عليه].

وبيّن ﷺ عن طريق التّشبيه أنّ الجميع في سفينة واحدة، ولا بد بينهم من تعاون، وترابط، فقال ﷺ: «**مثَلُ القَائِمِ عَلَى حُدُودِ الله وَالوَاقِعِ فِيهَا، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ المَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا في نَصِيبِنا خَرْقًا ولَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا، وَنَجَوْا جَمِيعًا**» [رواه البخاري].

فكان ﷺ دائم السّعي في إصلاح ذات البين؛ لأنّ بالصّلح تُستجلب المودات، وتُجتنب الخصومات التي تُفنى بسببها الأعمار، وتُراق الدّماء، وتُثار المُنازعات والعداوات، وقد أمر الله بإصلاح ذات البين، وجعل ذلك من علامات الإيمان فقال سُبحانه: {وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [الأنفال: الآية 1].

ولمّا علم رسول الله ﷺ أنَّ أهلَ «قُباء» اقتتلوا حتى تراموا بالحجارة، قال لأصحابه: «**اذْهَبُوا بِنَا نُصْلِحُ بَيْنَهُمْ**» [رواه البخاري].

وكان يقول ﷺ لأصحابه: «**أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ!؟**» قالوا: «بلى»، فقال: «**صَلَاحَ ذَاتِ البَيْنِ،فَإِنَّ فَسَادَ ذَاتِ البَيْنِ هِيَ الحَالِقَةُ**» [رواه أبو داود].

ورُوي عنه ﷺ أنّه قال: «**هِيَ الحَالِقَةُ، لَا أَقُولُ تَحْلِقُ الشَّعَرَ، وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ**» [رواه الترمذي].

وقال ﷺ: «**لا يَحِلُّ لِرَجُلٍ أنْ يَهْجُرَ أخاهُ فَوْقَ ثَلاثِ لَيالٍ، يَلْتَقِيانِ: فيُعْرِضُ هذا ويُعْرِضُ هذا، وخَيْرُهُما الذي يَبْدَأُ بالسَّلامِ**» [مُتفق عليه].

وقال ﷺ: « **تُفْتَحُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَ الإِثْنَيْنِ وَيَوْمَ الْخَمِيسِ، فَيُغْفَرُ لِكُلِّ عَبْدٍ لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا، إِلَّا رَجُلًا كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَحْنَاءُ، فَيُقَالُ أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا**» [رواه مسلم].

وذكر المُفسرون إصلاحه ﷺ بين الأوس والخزرج وهو سبب نزول قول الباري سبحانه: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ} [آل عمران: الآية 100].

فقد نزغ الشّيطان بين الأوس والخزرج، ونادوا بثاراتهم في الجاهلية بوشاية يهودي، ولجؤوا لحمل السّلاح، والتقوا خارج المدينة، وجاء الخبر للنّبي ﷺ، فهب مُسرعًا ومعه بعض أصحابه، ووقف بين الصّفين وأخذ يُردّد: «**يا معشر المُسلمين! الله، الله.. أبِدَعْوَى الجاهلية، وأنا بين أَظْهُرِكُم، بعد إذ هداكم الله إلى الإسلام، وأكرمَكُم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر، وألّف به بينكم، ترجعون إلى ما كنتم عليه كفّارًا؟**».

ثم أخذ يعظهم بنعمة الله عليهم بالإسلام، فثابت لهم أرواحهم، وعاد لهم رشدهم، وقاموا يتعانقون ويبكون فأنزل الله: {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [آل عمران: الآية 103].

فما هي إلّا لحظات منه ﷺ حتى عادت السّيوف إلى أغمادها، وتحوّل الغضب الشّديد إلى رضا وسكينة، والشّراسة إلى دموع محبة، وحصل العناق، وعادوا إلى ديارهم إخوة مُتحابين.

وفي الصّحيحين أنّه ﷺ لمّا سمع بخلاف وخصومة بين أناس من بني عمرو بن عوف، ذهب مُباشرة ليُصلح بينهم، وحانت صلاة الظّهر حتى أقام بلال الصّلاة في المسجد، وكان ﷺ غائبًا في هذا الصُلح، فقدّم الصّحابة أبا بكر الصدّيق ليُصلّي بهم، وما ذاك إلّا لعظم الإصلاح بين النّاس وما فيه من أجر عظيم، ودفع شرٍ جسيم، بل إنّه ﷺ أباح الكذب للإصلاح بين الناس؛ فقال: «**لَيْسَ الْكَذَّابُ الَّذِي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ فَيَنْمِي خَيْرًا، أَوْ يَقُولُ خَيْرًا**» [مُتفق عليه].

فيحل الكذب للمُصلح بين المُتخاصمين ليزيل بينهم الشّحناء والبغضاء، ويُؤلّف بين قلوبهم، وينشر المودة والمحبة في نفوسهم.

ولقد كان إصلاحه ﷺ عامًّا وخاصًّا يبدأ بالإصلاح في المسائل الكبرى من الدّماء والأعراض والفتن والحروب، وينتهي إلى الإصلاح بين المتخاصمين حتى في دراهم معدودة من المال، فقد أصلح بين المتداينين كما جاء في الصّحيحين من حديث كعب بن مالك (رضي الله عنه) أَنَّهُ تَقَاضَى ابْنَ أَبِي حَدْرَدٍ دَيْنًا لَهُ عَلَيْهِ فِي عَهْدِ رَسُولِ الله فِي الْمَسْجِدِ، فَارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُما حَتَّى سَمِعَهَا رَسُولُ الله وَهُوَ فِي بَيْتِهِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمَا رَسُولُ الله حَتَّى كَشَفَ سِجْفَ حُجْرَتِهِ، وَنَادَى كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ: «**يَا كَعْبُ**»، قَالَ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ الله، **فَأَشَارَ بِيَدِهِ أَنْ ضَعِ الشَّطْرَ مِنْ دَيْنِكَ**، قَالَ كَعْبٌ: قَدْ فَعَلْتُ يَا رَسُولَ الله، قَالَ رَسُولُ الله: «**قُمْ فَاقْضِه**».

فأصلح ﷺ بين الجميع، وحرّم عليهم الدماء والأموال والأعراض، وحدد الدّستور الخالد ليُصلح حياتهم، فقال: «**كُلُّ المُسْلِمِ علَى المُسْلِمِ حَرامٌ، دَمُهُ، ومالُهُ، وعِرْضُهُ**» [رواه مسلم، وأصله في البخاري].

وقال ﷺ: «**فلا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ**» [مُتفق عليه].

كانوا قبل مبعثه ﷺ في حياة فقر وشظف، وجوع وخوف، فأبدلهم الله بمبعثه حياة طيّبة صالحة، ففتحوا الفتوحات، ومصّروا الأمصار، واختطوا المُدن، وبنوا حضارة ضربت بأطنابها في ربوع الصّين، وسهول الهند، وهضاب سيبيريا وأدغال إفريقيا، ومشارف أوروبا، يحكمها العدل والرّحمة والتّسامح والسّلام.

حتّى المشركون الذين آذوه وسبّوه وأخرجوه وحاربوه أبرم معهم ﷺ صلح الحديبية، وتحمّل شروط هذا الصّلح المُجحفة، حقنًا للدّماء، وتسكينًا للفتنة، ودرْءًا للحرب.

وصالح ﷺ اليهود أوّل ما دخل المدينة بما يُسمى في لُغة العصر: «وثيقة التّعايش السّلمي المُشترك»، لكف أذاهم، وسلّ سخيمتهم، ولم يُقاتلهم حتى نقضوا العهد وغدروا بالميثاق، وما عُرض عليه ﷺ صُلح فيه إقامة لشعائر الله، وتعظيم لحرماته، ونشر السّلام بين الناس، ونزع فتيل القتال، إلّا وسارع إليه، وبادر به، وفعّله مُباشرة، يقول الشاعر:

أَنتَ الَّذي نَظَمَ البَرِيَّةَ دينُهُ	ماذا يَقولُ وَيَنظُمُ الشُّعَراءُ
المُصلِحونَ أَصابِعٌ جُمِعَت يَدًا	هِيَ أَنتَ بَل أَنتَ اليَدُ البَيضاءُ
أَنصَفَت أَهلَ الفَقرِ مِن أَهلِ الغِنى	فَالكُلُّ في حَقِّ الحَياةِ سَواءُ
صَلّى عَلَيكَ اللهُ ما صَحِبَ الدّجى	حادٍ وَحَنَّت بِالفَلا وَجناءُ

ولقد أصلح ﷺ نظام الأسرة بعد أن كان طابعها التفكّك والتّشتت، لا تحتكم إلى مبدأ، ولا لقانون، ولا لدستور، فسنّ للأسرة نظامًا ربانيًّا راشدًا منذ أن يحصل العقد بين الزّوجين إلى ما بعد الوفاة.

وتجد شريعته ﷺ ترافق هذا الطّفل منذ التقاء أبويه إلى أن يشيخ ويُفارق هذه الحياة؛ لأنّ بناء الأسرة المُسلمة، وتحديد التزامات وواجبات كلّ فرد فيها يعين على تسهيل مهماته الموكلة إليه في بناء المجتمع، وتكاتف الأمة، وإعمار الأرض.

وأحاط ﷺ الأسرة بسياج قوي من الأمان والاستقرار، والمودة والرحمة، كما قال تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً} [الروم: الآية 21].

وحرّم إفشاء أسرارها وخبايا أمورها كما قال ﷺ: «**إِنَّ مِن أَشَرِّ النّاسِ عِنْدَ الله مَنْزِلَةً يَومَ القِيامَةِ؛ الرَّجُلَ يُفْضِي إلى امْرَأَتِه، وَتُفْضِي إِلَيْهِ، ثُمَّ يَنْشُرُ سِرَّها**» [رواه مسلم].

وجعل ﷺ الحياة الزّوجية حياة مُشاركةٍ وتسامحٍ ووئامٍ، وحثّ على المعاشرة بالمعروف والرّفق بالنّساء، وحثّ على عدم مباغتة أهل الدّار عند القدوم من السّفر كما جاء عن أنس (رضي الله عنه) أنّه قال:«**كانَ النبيُّ ﷺ لا يَطْرُقُ أهْلَهُ، كانَ لا يَدْخُلُ إلّا غُدْوَةً أوْ عَشِيَّةً**» [مُتفق عليه].

وعن جابر (رضي الله عنه) قال: «**نَهى النبيُّ ﷺ أنْ يَطْرُقَ أهْلَهُ لَيْلا**» [مُتفق عليه].

وحاول الإصلاح ﷺ كما جاء في «صحيح البخاري» بين مغيث وبريرة، وهما من موالي المدينة.

وكان يعيش قضايا الإصلاح بنفسه، وكأن كل قضية صُلح هي أعظم قضية في الدّنيا لعظيم نصحه، وكمال رشده، وشفقته ورحمته بأُمّته ﷺ؛ ولأن درء الفتنة وجمع قلبين على طاعة الله أعظم عند الله من قيام اللّيل وصيام الهواجر، قال تعالى: {وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلاَحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا} [النساء: الآية 35]، وقال سُبحانه: {وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ} [النساء: الآية 128].

وقالَ سَهْلُ بن سعد الساعدي (رضي الله عنه): ما كانَ لِعَلِيٍّ اسْمٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِن أَبِي التُّرَابِ، وإنْ كانَ لَيَفْرَحُ إذَا دُعِيَ بهَا، فَقالَ له: أَخْبِرْنَا عن قِصَّتِهِ، لِمَ سُمِّيَ أَبَا تُرَابٍ؟ قالَ: «**جَاءَ رَسولُ الله ﷺ بَيْتَ فَاطِمَةَ، فَلَمْ يَجِدْ عَلِيًّا في البَيْتِ،** فَقالَ: **أَيْنَ ابنُ عَمِّكِ؟**، فَقالَتْ: **كانَ بَيْنِي وبيْنَهُ شيءٌ، فَغَاضَبَنِي فَخَرَجَ، فَلَمْ يَقِلْ عِندِي**، (أي لم ينم نومة القيلولة) فَقالَ رَسولُ الله ﷺ لإنْسَانٍ: **انْظُرْ، أَيْنَ هُوَ؟**، فَجَاءَ فَقالَ: يا رَسولَ الله، هو في المَسْجِدِ رَاقِدٌ، فَجَاءَهُ رَسولُ الله ﷺ وَهو مُضْطَجِعٌ، قدْ سَقَطَ رِدَاؤُهُ عن شِقِّهِ، فأصَابَهُ تُرَابٌ، فَجَعَلَ رَسولُ الله ﷺ يَمْسَحُهُ عنْه ويقولُ: **قُمْ أَبَا التُّرَابِ! قُمْ أَبَا التُّرَابِ!**» [مُتفق عليه].

فانظر إليه ﷺ حضر بعدله ورحمته ليصلح بين ابنته التي هي بَضْعة من قلبه، وبين صهره ونسيبه أبي الحسن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)، بهذا الدّفء وهذا الحنان وهذه الرأفة، فيتم الوئام والأُلفة والتّصالح والتّسامح.

وأصلح ﷺ الحياة الاقتصادية، فقد وُلد في أوضاع اقتصادية مُتردّية، تتكدّس فيها الثّروات عند عدد محدود، وفئة معيّنة من النّاس، حين تقبع الأكثرية التي لا تملك شيئًا في قاع الفقر فيزداد الفقير فقرًا، والغنيّ غنًى.

وكان الرّجل في الجاهليّة فوضويًا عشوائيًا تحكمه نزواته، ويقوده هواه، لا يهمّه إلّا أن يكسب المال من أي وجه، سواءً كان بالرّبا، أو الغش، أو السّرقة، أو الظّلم، أو الجور، أو الاحتكار،

إلى غير ذلك من الأساليب المُحرمة، فجاء ﷺ بنظام مُسدّد في كسب المال وإنفاقه بآيات ونصوص وأحكام مُحددة في شريعته المُطهرة.

ولم يأمر النّاس بالانقطاع للعبادة فقط، بل حثّهم ﷺ على الكسب والتّجارة، وأعطى الإنسان الحريّة الكاملة في الكسب الحلال من خلال البيع والشّراء، والإجارة والمُشاركة والمُضاربة إلى غير ذلك من صور الكسب الحلال المُباح، كما قال تعالى: {فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاَةُ فَانْتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ} [الجمعة: الآية 10].

وأتى الحث في جمع المال الحلال بأسلوب مُحبّب، فعن أبي سعيد (رضي الله عنه) أنّه ﷺ قال: «**إنَّ هذا المالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، فمَن أخَذَهُ بحَقِّهِ، ووَضَعَهُ في حَقِّهِ، فَنِعْمَ المَعُونَةُ هُوَ، ومَن أخَذَهُ بغيرِ حَقِّهِ؛ كانَ كالَّذِي يَأْكُلُ ولا يَشْبَعُ**» [مُتفق عليه].

فالمال نعم المُساعد على شؤون الحياة من طاعة الله، وبرّ الوالدين، وصلة الرّحم، وإكرام الضّيف، وإغاثة المنكوب، وكفالة اليتيم، وعمارة المساجد، والإنفاق في وجوه الخير.

ربّى ﷺ الإنسان على كرامة النّفس، وترفّعها عن ذلة المسألة، وأن خيرالطّعام والشّراب ما يحصل عليه الإنسان من كسبه وسعيه وجدّه واجتهاده فقال: «**ما أكَلَ أحَدٌ طَعامًا قَطُّ؛ خَيْرًا مِن أنْ يَأْكُلَ مِن عَمَلِ يَدِهِ، وإنَّ نَبِيَّ الله داوُدَ عليه السَّلامُ؛ كانَ يَأْكُلُ من عَمَلِ يَدِهِ**» [رواه البخاري]، وقَال ﷺ: «**اليَدُ العُلْيَا خَيْرٌ مِنَ اليَدِ السُّفْلى**» [مُتفق عليه]، فَاليَدُ العُلْيَا: هي المُنْفِقَةُ، والسُّفْلى: هي السَّائِلَةُ.

ودعا ﷺ إلى النّزول إلى ميدان العمل ليكفّ الإنسان وجهه بكسبه الحلال عن ذلّ المسألة، ويستعفّ عمّا في أيدي النّاس، كما قال تعالى: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ} [الملك: الآية 15].

وقال ﷺ: «**لَأَنْ يَأْخُذَ أحَدُكُمْ حَبْلَهُ ثُمَّ يَغْدُوَ فَيَحْتَطِبَ، فَيبِيعَ، فَيأْكُلَ ويَتَصَدَّقَ؛ خَيْرٌ له مِن أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ**» [مُتفق عليه].

وقد وُجد من أصحابه ﷺ أغنياء وأثرياء كبار، ربّاهم على الكسب الحلال، والإنفاق الحلال حتى صاروا من أثرياء العالم في زمانهم، كعثمان بن عفّان، وعبدالرحمن بن عوف، والزبير بن

العوّام، وطلحة بن عبيد الله، وغيرهم ممّا يتفق مع سياسة الإسلام المالية في صيانة المال وكسبه وإنفاقه في الوجوه المُباحة.

ونهى ﷺ عن الظّلم والغش والاحتيال في كسب المال والاستيلاء على أموال النّاس بالباطل كما قال تعالى: {وَلاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ} [البقرة: الآية 188].

وقال ﷺ: «**مَن غَشَّنا فليسَ مِنّا**» [رواه مسلم]، وقال ﷺ: «**ثَلَاثَةٌ لا يُكَلِّمُهُمُ الله يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ**، وذكر منهم: **رَجُلٌ حَلَفَ على سِلْعَةٍ لقَدْ أُعْطِي بها أَكْثَرَ ممّا أعْطى وهو كاذِبٌ**» [مُتفق عليه].

وأمر ﷺ بالسّهولة والسّماحة في المُعاملات التجارية فقال: «**رَحِمَ الله رَجُلًا سَمْحًا إذا باعَ، وإذا اشْتَرَى، وإذا اقْتَضى**» [رواه البخاري].

ونهى ﷺ عن النّجش، والغرر، والبيعتين في بيعة، وتلقي الرّكبان، وصور البيع الرّبوي، كما قال تعالى: {وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا} [البقرة: الآية 275].

وحرّم الاحتكار؛ لأنّ فيه تحكمًا في أقوات النّاس وإدخال الضّرر عليهم في غلاء الأثمان فقال: «**لا يَحْتَكِرُ إلّا خاطِئٌ**» [رواه مسلم].

وحرّم ﷺ الرّشوة، واستغلال النّفوذ، وأقام حدّ السّرقة على جميع من قارفها كما قال تعالى: {وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [المائدة: الآية 38].

وأرشدنا ﷺ أنّ صاحب الكسب الحرام لا يُجاب دعاؤه، كما أخبر ﷺ **حينما ذكر الرجل يُطِيلُ السَّفَرَأشْعَثَ أغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إلى السَّماءِ: يا رَبِّ، يا رَبِّ، ومَطْعَمُهُ حَرامٌ، ومَشْرَبُهُ حَرامٌ، ومَلْبَسُهُ حَرامٌ، وغُذِيَ بالحَرامِ، فأنَّى يُسْتَجابُ لذلكَ؟** [رواه مسلم].

ونهى ﷺ عن الغصب والظّلم فقال: «**مَنِ اقْتَطَع شِبْرًا مِنَ الأرْضِ ظُلْمًا، طَوَّقَهُ الله إيّاهُ يَومَ القِيامَةِ مِن سَبْعِ أَرَضِينَ**» [مُتفق عليه].

وحارب ﷺ الإسراف والبذخ كما قال تعالى: {إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ} [الإسراء: الآية 27].

ونهى ﷺ عن كنز الذّهب والفضة إلّا إذا أخرجت زكاته، قال تعالى: {وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} [التوبة: الآية 34].

لقد أصلح ﷺ النّظام الاقتصادي إصلاحًا شاملًا، وحقّق العدالة الاجتماعية بين الجميع، وقدّم يد العون والإحسان إلى الفقراء والمُحتاجين، وفرض الزّكاة، وحثّ على الصّدقات كما قال تعالى: {الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلاَ أَذىً لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} [البقرة: الآية 262].

وصحّ عنه ﷺ أنّه قال: «**ما مِن يَومٍ يُصْبِحُ العِبادُ فِيهِ، إلَّا مَلَكانِ يَنْزِلانِ، فيَقولُ أحَدُهُما: اللهمَّ أعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، ويقولُ الآخَرُ: اللهمَّ أعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا**» [مُتفق عليه].

وجعل ﷺ التّعاملات تقوم على الكسب الحلال والدّخل الطّيب؛ لأن الله طيّب لا يقبل إلّا طيّبًا.

وحفظ أموال النّاس، وأقام البيع والشّراء والأخذ والعطاء على مبدأ التّراضي والإنصاف بين الجميع بحكمة إلهيّة مُقدّسة، وسيرة نبويّة مُطهرة.

وأصلح ﷺ النّظام الإداري والمجتمعي، فكان قبل بعثته مجتمعُ مكة مُجتمعًا فاسدًا تديره عصابة وثنيّة مارقة لا عدل عندها، ولا شُورى، ولا مساواة، يحكمون بالأهواء والاستبداد ونزغات الشّيطان، وكان العرب في الجزيرة قبائل مُتقاتلة مُتناحرة يديرون حياتهم بلا نظام ولا دستور ولا منهج، وتقوم معيشتهم على السّلب والنّهب، يتقاتلون قتالًا قبليًّا عصبيًّا دمويًّا جاهليًّا ظالمًا المقصود منه الاستيلاء على حقوق الآخرين، وسفك دمائهم، وهتك أعراضهم، وسلب مُمتلكاتهم، ونهب أموالهم.

أمّا العالم في عهده ﷺ فكان مُقسّمًا بين إمبراطوريتين: فارسية، ورومانية، تقومان على التّوسُّع والاستيلاء والبطش والجبروت، فبعث الله نبيّه المُصطفى على حين فترة من الرّسل، وغفلة من النّاس، وبؤسٍ في الحياة، وقسوة في القلوب، وجفاف في الأرواح، فأعلن ﷺ من مكة للعالمين: «**يا أيُّها النّاسُ، قُولوا: لا إلهَ إلّا اللهُ تُفلِحوا**» [رواه أحمد].

ثم بدأ ﷺ يبني دولته بإدارة رشيدة تقوم على أُسس العدل، والشّورى، والحريّة، والمساواة، والإنصاف، واحترام حقوق الإنسان، وحفظ الدّماء والأموال والأعراض، وصيانة حياة البشر، واستقلال القضاء، ومراعاة أمن النّاس وسعادتهم، ودفع كل ما يؤذيهم ويضر بمصالحهم، حتى وصل برّه وخيره إلى الكبير والصّغير، والرّجل والمرأة، والغني والفقير، فنظّم شؤون أُمّته الإدارية حتى قام المجتمع على أسس ونصوص شرعيّة ثابتة يهتدي بها العلماء والقضاة، مُحددة في كل باب، وفي كل مسألة، وفي كل شأن من شؤون الحياة.

وبعد أن كان الأعراب تحكمهم شريعة الغاب لا سُنّة ولا كتاب، حوّلهم إمام المُصلحين ﷺ إلى بُناة حضارة، وصنّاع مدنية، ونجوم إبداع، ومشاعل علم، ورُسل سلام إلى كلّ أنحاء العالم، ولك أن تفتح سجلات السُّنة، ودواوين الحديث النّبوي لتجد أنّه ﷺ ما ترك شاردة ولا واردة في إدارة الدولة إلّا وقد سنّ فيها حُكمًا، وفرض فريضةً، وشرع شريعةً من عند الله تعالى، فأشرق دينه ﷺ على الأرض بالصّلاح والإصلاح، واليُمن والفلاح، والبركة والنّجاح، وانتشرت رسالته، ونعمت بظلالها الوارفة الكرة الأرضية، من الصّين شرقًا إلى فرنسا غربًا، ومن القوقاز شمالًا إلى أصقاع أفريقيا جنوبًا.

وأصلح ﷺ البيئة فدعا بشريعته لعمارة الأرض واستثمارها، واستصلاحها وحفظها من كل ما يُفسدها من أذى أو إتلاف أو تخريب، وأتى بأحكام للطّريق والمجالس العامة والأنهار والآبار والحدائق والمزارع والبساتين.

كل ذلك في شريعة مُفصّلة مُحدّدة بأدلة ونصوص شرعية ثابتة واضحة، ولم تكن تُعرف هذه الحياة البيئية قبل مبعثه ﷺ في جزيرة العرب، بل كانوا رعاة إبل وبقر وغنم يعيشون الفوضويّة والعشوائية دون رقابة لإله، ولا تحاكم إلى شرعٍ، ولا اعتراف بمبدأ، قال تعالى: {وَلاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ} [الأعراف: الآية 56]، وقال سبحانه: {وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [الأعراف: الآية 85].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه)، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ وَجَدَ غُصْنَ شَوْكٍ عَلَى الطَّرِيقِ فَأَخَّرَهُ، فَشَكَرَ الله لَهُ فَغَفَرَ لَهُ**» [مُتفق عليه].

وأصلح ﷺ الحياة الصحيّة، وحثّ على اهتمام الإنسان بصحّته فقال:«**الْمُؤْمِنُ القَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إلى الله مِنَ المُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وفي كُلٍّ خَيْرٌ. احْرِصْ على ما يَنْفَعُكَ، واسْتَعِنْ بالله وَلا تَعْجَزْ**» [رواه مسلم].

والشّريعة المُحمدية مليئة بالإرشادات العامّة، والقواعد الكُلّية في الصّحة والطّب ما صار منها مفاتيحَ للأطباء وعلماء النّفس، حتى ألّف ابن القيم مجلدًا كاملًا في الطّب النّبوي، وكذلك السّيوطي وغيرهما، فتجده ﷺ تكلّم عن نوع الطّعام، وطريقة الأكل، وما هو الغذاء الصّحي، وما هو الضّار، بشيء لم تكن تعرفه العرب في جاهليتها، بل كانوا يتناولون الضّار والخبيث من المُسكر والميتة وغير ذلك، ولهذا قال ربّ العالمين عنه ﷺ: {وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ} [الأعراف: الآية 157]، وقال تعالى: {كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ} [المؤمنون: الآية 51]. ويقول ﷺ: «**إنَّ الله طَيِّبٌ لا يَقْبَلُ إلّا طَيِّبًا**» [رواه مسلم].

وقدّم ﷺ وصايا صحية عديدة منها قوله: «**إذا شَرِبَ أحَدُكُمْ فلا يَتَنَفَّسْ في الإناءِ**» [مُتفق عليه]، وقوله: «**وفِرَّ من الْمَجْذُومِ كما تَفِرُّ من الأسد**» [رواه البخاري مُعلّقًا]، وقوله أيضًا: «**لا يُورِدَنَّ مُمْرِضٌ على مُصِحٍّ**» [مُتفق عليه].

وقال ﷺ: «**إذَا سمِعْتُمْ بالطَّاعُونِ بِأَرْضٍ فَلا تَدْخُلُوهَا، وَإذَا وقَعَ بِأَرْضٍ، وَأَنْتُمْ بهَا، فَلا تَخْرُجُوا مِنْهَا**» [مُتفق عليه].

ونجد الآن جهابذة الطّب وعُلماءه في شتى بقاع الأرض يُطبّقون هذا الحديث النّبوي الشّريف فيما يُعرف في العصر الحديث بـ «الحجر الصحي»، لمُواجهة الفيروسات القاتلة والأمراض الخطيرة التي تنتشر وتتفشى بين النّاس.

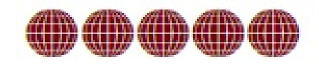
لقد صلحت الحياة كلها بمبعثه ﷺ حيث أنقذ الناس، وخلّصهم من حياة الشّرك والوثنيّة إلى حياة التوحيد، وهذّب أخلاقهم بعدما كانوا في غابات الفُحش، ومراتع المُنكر، وملاعب السّلب والنّهب، وميادين الاقتتال والانتقام، فنقلهم نقلة نوعيّة إلى حياة البرّ والصّلة، والرّحمة والتّسامح، والأمن والسّكينة، والتّآلف والإخاء، وحسّن من آدابهم، فنقلهم من الفظاظة والغلظة والقسوة والجفاء إلى اللّين والحلم والرّفق والتّواضع:

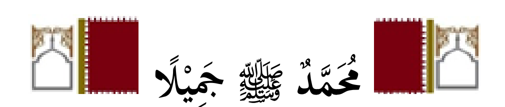
من وحي ربّك قد غسلت قلوبنا ... وملأتها بالبيّنات يقينًا

هذّبت أنفسنا وشُدتَ صرُوحنا وبعثت جيلًا صادقًا وأمينَا

جمّلت حتى الأرض في أبصارنَا ونثرت دُرّ المكرُمات ثمينَا

في كل ربع من صلاحك قصةٌ نُسقى الهُدى من راحتيك معينَا





مَن منّا لا يحلم أو يتمنَّى أن يلقى خير الخلق، رسول الهدى، نبي الله المختار، وإمام الأئمة الأبرار، محمد بن عبدالله ﷺ؟!

إنّ لقاءه ورؤيته أسمى أمنيات كل مؤمن ومؤمنة –بعد رؤية الله-، كيف لا!؟.. وهو الذي علّم ألسنتنا الذّكر، وقلوبنا الشّكر، وأجسادنا الصّبر.

جاءنا بالرّسالة، وعلّمنا العدالة، وأوضح لنا الدّلالة، وكشف عنّا الضّلالة، أخرجنا اللهُ به من الظّلمات إلى النّور، ومن الحَزن إلى السّرور.

إذا ذُكر الجمال ذُكر محمدٌ، وإذا ذُكر البهاء ذُكر محمدٌ، وإذا ذُكر الصّفاء ذُكر محمدٌ، وإذا ذُكر النّقاء ذُكر محمدٌ.

إنّ الذي خلقَ الجمال سُبحانه هو الذي أرسله ﷺ وأعطاه من الجمال أوفاه، ومن الحُسن أعلاه، ومن البهاء مُنتهاه، فهو السّراج المنير كما قال تعالى: {يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا} [الأحزاب: الآية 45 - 46].

لقد جمّل الله خَلقه ﷺ، وأحسن تصويره، وكمّل منه السّيرة والسّريرة، فكان جمالُه عنوان كتابِ قيَمه الشّريفة، وبوابة قصر محاسنه المُنيفة، يملأ العين جلالًا والنّفس محبّة، والقلب رحمة، والمجلس هيبة، والكون ضياءً، فهو أقرب النّاس إلى النّفوس، وأحبّهم إلى الأرواح، وأجملهم وجهًا، وأبهاهم محيًّا، وأزهرهم جبينًا، وأنورهم طلعة، وأزينهم لباسًا، وأطيبهم عطرًا، وأحسنهم مبسمًا، وأعظمهم هيبة، وأسعدهم مجلسًا، وأكثرهم بركة، وأجودهم يدًا، وأصدقهم قولًا، وألينهم كفًّا، يقول

أنس (رضي الله عنه):«**ما مَسسْتُ حَرِيرًا ولَا دِيبَاجًا أَلْيَنَ مِن كَفِّ النبيِّ ﷺ، وشَمَمْتُ رِيحًا قَطُّ أوْ عَرْفًا قَطُّ أطْيَبَ مِن رِيحِ أوْ عَرْفِ النبيِّ ﷺ**» [مُتفق عليه].

مَسِسْتُ بكفِّي كفَّه أبْتغِي الغِنَا — ولَمْ أدْرِ أنّ الجُود مِنْ كفِّه يَجرِي

فصرَتُ إذَا صَافحتُ شخصًا أَصَابَهُ — مِن الطِّيبِ ممّا قدْ أصبتُ من العِطرِ

وكان ﷺ أجلّ النّاس وقارًا فلا تراه إلّا عفيف النّظرة، كريم الجناب، يصدّ عن الرّيبة، ويتباعد عن العيب، ويذبّ عن نفسه كلّ ما يَشين، ويدفع عن عرضه كلّ ما يُريب، يَندى جبينُه الطاهر، ويحمّر خدّه الزّاهر عندما تُخدش القيم، وتُنال الحُرمات، ويُتعرّض للأعراض؛ فعن أبي سعيد الخدري (رضي الله عنه) قال: «**كانَ رَسولُ الله ﷺ أَشَدَّ حَيَاءً مِنَ العَذْرَاءِ فِي خِدْرِهَا**» [مُتفق عليه].

وكانت على وجهه ﷺ أنوار الرّسالة وأضواء النّبوة، وسِمة القبول والجلال، والسؤدد والكمال، والعظمة والجمال، بسيط في عظمته، سهل في هيبته، من رآه أحبّه، ومن خالطه ألفه، ومن استمع إليه صدّقه؛ لأنّه جمع ﷺ محاسن الخَلق، ومكارم الخُلُق، أسر بجماله قلب كل من عامله، وجذب بخُلُقه كلّ من داخله.

كان رائق البِشْر كثير التّبسّم في وجوه النّاس، كما أخبر عبدالله بن الحارث (رضي الله عنه) فقال: «**ما رأيتُ أحدًا أكثرَ تَبَسُّمًا من رسولِ الله ﷺ**» [رواه أحمد].

فإذا نظرتَ إلى وجهه الشّريف ﷺ وجدتَ البشاشة والسّماحة، والبهاء والجمال، والوقار والهيبة، فهو أجمل من الشّمس في ضُحاهَا، وأبهى من القمر إذا تلاها، قد جمع ﷺ بين النّور والبهاء، والإشراق والصّفاء، والجمال والنّقاء، فعن جابر بن سمرة (رضي الله عنه) أنّ رجلًا قال له: «**وَجْهُهُ ﷺ مِثْلُ السَّيْفِ؟ قالَ: لا، بَلْ كانَ مِثْلَ الشَّمْسِ والْقَمَرِ، وَكانَ مُسْتَدِيرًا**» [رواه مسلم].

وعن كعب بن مالك (رضي الله عنه) قال: «**كانَ رَسُولُ الله ﷺ، إذَا سُرَّ اسْتَنَارَ وَجْهُهُ، كَأنَّ وَجْهَهُ قِطْعَةُ قَمَرٍ**» [مُتفق عليه]، قال الشاعر:

وضياءُ وجهٍ لو تأمّله امْرؤٌ — صَادِي الجَوانحِ لارتَوَى مِن مَائِه

ومن أجمل ما جاء في وصفه ﷺ قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(رضي الله عنه):«**كانَ رسولُ الله ﷺ أبيضَ اللونِ، مُشْرَبًا حُمْرَةً، أَدْعَجَ العينَيْنِ، سَبْطَ الشعرِ**(أيْ: ناعمٌ لا جُعودةَ فيهِ)، **كَثَّ اللحيَةِ، ذا وَفْرَةٍ، دقيقَ الْمَسْرُبَةِ، كأنَّ عُنُقَهُ إبريقُ فِضَّةٍ، منْ لَبَّتِهِ إلى سُرَّتِهِ شَعْرٌ يَجْرِي كالقضيبِ، ليسَ في بَطْنِهِ ولا صَدْرِهِ شَعْرٌ غيرُهُ، شَثْنُ الكفَّيْنِ والقدَمَيْنِ، إذا مَشَى كأنَّما يَنْحَطُّ منْ صَبَبٍ، وإذا مَشَى كأنَّما يَنْقَلِعُ منْ صَخْرٍ، إذا الْتَفَتَ الْتَفَتَ جَميعًا، كأنَّ عَرَقَهُ اللُّؤْلُؤُ، وَلَرِيحُ عَرَقِهِ أَطْيَبُ منْ ريحِ الْمِسْكِ الأَذْفَرِ، ليسَ بالطويلِ ولا بالقصيرِ، ولا الفاجرِ ولا اللئيمِ، لمْ أَرَ قَبْلَهُ ولا بعدَهُ مِثْلَهُ**» [رواه الترمذي].

وأمّا لباسه فكان يَحرصُ ﷺ أن يلبس ما يُزيّنه ويُجمّله أمام الناس من غير إسراف ولا مخيلة، فلم يكن يتكلّف في اللّباس فوق طاقته، مثل لباس المُترفين، وأهل البذخ المُسرفين، ولم يقصد لباس أهل الزّهد المُظلمِ المُتصنّعين، ولا أهل التّكلّف من المُرائين، فجمع لباسه بين الجمال والجلال، والتّوسّط والاعتدال، والتّمام والكمال.

فكان ﷺ يلبس الجميل الطيّب الساتر، الذي يريح النفس، وينفع الجسم، ويُبهج العين، ويُظهر نعمة الله عليه، كما عُرف عنه في الأعياد والمناسبات؛ فعن البَرَاءَ (رضي الله عنه) قال: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ مَرْبُوعًا، وَقَدْ رَأَيْتُهُ فِي حُلَّةٍ حَمْرَاءَ، مَا رَأَيْتُ شَيْئًا أَحْسَنَ مِنْهُ» [متفق عليه]؛ فكان ﷺ يُسعد نفس من رآه، ويَسرُّ خاطر من نظر إليه.

ومن جمال هيئته ﷺ أنّه كان يرتدي العمامة البيضاء المعتدلة على رأسه، وهي من تيجان العرب، وكان يلبس نعلًا من جلد سِبتِي جميل مُنسّق.

وحثّ ﷺ أصحابه على التّجمّل والتّزيّن في المظهر والمخبر؛ لأن النّفس تنجذب إلى الجمال، والعين يُبهجها الحُسن.

وفرّق ﷺ بين الكبر والخُيلاء، وبين حُسن المظهر وجمال الهيئة، فقال ﷺ:«**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ**»، قَالَ رَجُلٌ: **إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا، وَنَعْلُهُ حَسَنَةً!** قَالَ: «**إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ**» [رواه مسلم].

فسُبحان مَن بالبهاء كمّله، وبالحُسن جمّله، وبالنّبوّة فضّله ﷺ! قال حسّان بن ثابت (رضي الله عنه) في وصفه ﷺ:

وأَحسنُ منكَ لم ترَ قطُّ عيني | وَأجْمَلُ مِنْكَ لَمْ تَلِدِ النّسَاءُ
خلقتَ مبرأً منْ كلّ عيبٍ | كأنّكَ قدْ خلقتَ كَمَا تشاءُ

وكان الأنقى ﷺ في مخبره، والأحسنَ والأعظمَ في خُلُقه، حسَّن الله خَلْقَه، وجمّل مُحيّاه، وأبدع صورته، فجعله أفضل البريّة أخلاقًا، وأحسنهم شمائلَ، وأفضلهم مناقبَ؛ لأنّه أحبّ الخلق إليه، وأكرمهم عليه، وأفضلهم لديه.

لقد أكمل اللهُ المحاسنَ لِرسولِهِ ﷺ وأتمّ عليه نعمه، واختصّه بالعناية حتى صار الأسوة الحسنة في كل فضيلة، فمنه يُتعلم فنون المكارم، ومن برديه تتْبع صنوف المناقب؛ لأنّ من لوازم القدوة أن يكون مثاليًّا جامعًا لما تفرّق في الأخيار من سجايا حميدة.

فكان عليه الصّلاة والسّلام ذاك الإنسان المُجتبى من ربّه، المُصطفى من خالقه، ليقود النّاس إلى أحسن الأخلاق، وأنبل الأعمال، وأكرم المذاهبِ.

جمّل اللهُ مخبره عليه الصّلاة والسّلام، فكانت روحه طاهرة زكيّة، وقلبه سليمًا مُطمئنًا، وصدره مشروحًا عامرًا بذكر الله، فقد شرح الله صدره، وأذهب عنه كل غيظ وحسد وحقد وغلٍّ، فصار أرحم الناس قاطبة، وأبرّهم كافة، وأكرمهم جميعًا.

عمّ حِلمُه وكرمُه وجودُه الحاضر والبادي، والقريب والبعيد، فنفسه أزكى نفس، وباله أشرح بالٍ، وضميره أطهر ضمير، وحق له أن يكون كذلك؛ لأنّه المُرشّح لقيادة العالم، وإصلاح الكون، وتقويم البشريّة، قال تعالى: {وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا} [الأحزاب: الآية 46].

وقد أعلن ﷺ للبشريّة أنّه أتقى البريّة، والأتقى هو الأجمل في كلّ خُلق وعمل، فقال ﷺ: «**إنَّ أتْقاكُمْ وأَعْلَمَكُمْ بالله أَنَا**»[رواه البخاري]، وكان يُشير ﷺ إلى صدره ويقول: «**التَّقْوى هاهُنا**».[رواه مسلم]، أي أنّها في الصّدر، وهل يظنّ عاقل أنّ من قال له ربّه: {أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ} [الشرح: الآية 1]، أن يبقى بعد هذا القول في ذلك الصّدر الشّريف شيء من كدرٍ أو كبرياء أو خُيلاء أو انتقام أو ظلم أو عدوان؟! والله لا يكون ذلك أبدًا؛ لأنّ الذي تولّى الله شرح صدره، وتنقية روحه، وصفاء ضميره، لا يكون إلّا الأجمل والأكمل والأجلّ ﷺ، فهو الطّاهر الجميل الذي غُسل قلبه بماء الحكمة فصار أبيضَ نقيًّا مُطهرًا، أزال الله منه كل ما يُعكّر الصّفاء، وكل ما يُفسد الجمال، من حقدٍ وحسدٍ،

وضَغناء وشحناء، وغلٍّ وغشٍّ، «**فعن أنس بن مالك (رضي الله عنه) أن رَسولَ الله ﷺ أتاهُ جِبْرِيلُ عليه السّلام وهو يَلْعَبُ مع الغِلْمانِ، فأخَذَهُ فَصَرَعَهُ، فَشَقَّ عن قَلْبِهِ، فاسْتَخْرَجَ القَلْبَ، فاسْتَخْرَجَ منه عَلَقَةً، فقالَ: هذا حَظُّ الشَّيْطانِ مِنْكَ، ثُمَّ غَسَلَهُ في طَسْتٍ مِن ذَهَبٍ بماءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ لأَمَهُ، ثُمَّ أعادَهُ في مَكانِهِ**» [رواه مسلم].

فأجمل قلب في العالم، هو القلب الذي مُلئ بالحكمة والإيمان، والصّفاء والوفاء، والمحبة والرّحمة، والبرّ والبركة، والحنان والإحسان، والتي فاض بها ﷺ على العالم أجمع.

وممّا يدلك على جمال مخبره ﷺ هذه الأخلاق الشّريفة الطاهرة الزّكية التي فاضت من روحه المباركة، فلو لم يكن أبرّ الناس وأتقاهم، وأصفاهم سريرة، وأنقاهم نيّة، لما جمع هذه السّجايا المباركة التي أجمع عقلاء العالم أنّها لم تُجمع في غيره عليه الصّلاة والسّلام.

وإذا كان الله قد زكّاه بقوله سُبحانه: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} [القلم: الآية 4]، فمعنى ذلك أنّ روحه أجمل الأرواح، وأنّ قلبه أنقى القلوب، وهل الجمال الرّوحي إلّا ما يحمله بأبي هو وأمّي في روحه؟!

أليس من الجمال عفوه ﷺ عن أعدائه وقد تآمروا على قتله والفتك به، وتفننوا في إيذائه؟!

أليس من الجمال كرمه ﷺ الذي فاض على النّاس أجمعين، القريب والبعيد والصّديق والعدوّ؟

أليس من الجمال عدله ﷺ الذي أقامه ميزانًا في الحياة؟!

أليس من الجمال رحمته ﷺ التي عمّت حتّى وصلت إلى البهائم والعجماوات؟!

إنّ الأخلاق والأفعال تدل على ما ينطوي عليه القلب، إنْ خيرًا فخير، وإنْ شرًّا فشر، فقل لي بالله: أليست هذه الصّفات النّبيلة والمعاني الجميلة التي اجتمعت فيه ﷺ أعظم برهان على جمال مخبره، ودليل ساطع أنّ روحه ﷺ أنقى من قطر السّماء، وأصفى من شعاع الشّمس في الظهيرة؟!

يَا مَنْ أنارتْ بنورِ الله سيرتُه ... فَطَابَ مِن طِيبِ ذَاكَ القاعُ والأكمُ

قَلبٌ مِن البرّ لَو فَاضَت سَمَاحتُهُ ... عَلَى البريّة عَمَّ البِشرُ والشِّيمُ

زَكّاكَ ربُّك مِن غِلٍ ومِنْ حَسدٍ فأنتَ أطْهرُ مَنْ سَارتْ بِه قَدمُ

نَفْسي الفِدَاءُ لِوجهٍ زانَه ألقٌ مِن رحمةِ الله فيهِ المَجْدُ والشَّممُ

وأمّا جمال طَهارته ﷺ فإنَّه الطُّهر كلّه، أوله وآخره، لأنّ نبوّته بُنيت على الطّهر في المعنى والمبنى، والحياة والموت، والدنيا والآخرة، وهو الطّاهر المُطَّهر، والطيّب المُطيَّب، الذي قال: «**الطَّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ**» [رواه مسلم].

لأنّ الإيمان اعتقاد في القلب، وطهارة في الظاهر، فصارت الطهارة كالغسل، والوضوء نصف الدّين، وهو ﷺ الذي علّمنا كيف نتوضأ، وكيف نغتسل، وكيف نستبرئ من النّجاسات، وكيف نتخلص من القاذورات، وكيف نبتعد عن القبائح، وكيف ننتهي عن الفواحش، وكيف نُزكّي أرواحنا، وكيف نُطهّر أجسادنا، وكيف نُقبل على الله طيّبين، متوضئين، طاهرين، مُطَهّرين.

وإمام الطّيبين والمُتطهّرين هو رسول ربّ العالمين وخاتم النّبيين ﷺ، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ} [البقرة: الآية 222].

وقال ﷺ: «**مَن تَوَضَّأَ فأحْسَنَ الوُضُوءَ خَرَجَتْ خَطاياهُ مِن جَسَدِهِ، حتّى تَخْرُجَ مِن تَحْتِ أَظْفارِهِ**» [رواه مسلم].

وقال ﷺ: «**لا يَقْبَلُ الله صَلاةَ أحَدِكُمْ إذا أحْدَثَ حتّى يَتَوَضَّأَ**» [مُتفق عليه].

وحرصه ﷺ على الطّهارة وتقديس الوحي المُنزّل يؤيده قول الله تعالى: {إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لاَ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ} [الواقعة: الآية 77 - 79].

وتَوَضَّأَ عثمان بن عفان (رضي الله عنه) فأفْرَغَ على يَدَيْهِ ثَلاثًا، ثُمَّ تَمَضْمَضَ واسْتَنْثَرَ، ثُمَّ غَسَلَ وجْهَهُ ثَلاثًا، ثُمَّ غَسَلَ يَدَهُ اليُمْنى إلى المَرْفِقِ ثَلاثًا، ثُمَّ غَسَلَ يَدَهُ اليُسْرى إلى المَرْفِقِ ثَلاثًا، ثُمَّ مَسَحَ برَأْسِهِ، ثُمَّ غَسَلَ رِجْلَهُ اليُمْنى ثَلاثًا، ثُمَّ اليُسْرى ثَلاثًا، ثُمَّ قالَ: «**رَأَيْتُ رَسولَ الله ﷺ تَوَضَّأَ نَحْوَ وضُوئِي هذا، ثُمَّ قالَ: مَن تَوَضَّأَ وُضُوئِي هذا، ثُمَّ يُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ لا يُحَدِّثُ نَفْسَهُ فِيهِما بشيءٍ؛ إلّا غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِهِ**» [مُتفق عليه].

وعن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) أنّ النّبي ﷺ قال:«**ما مِنكُم مِن أحَدٍ يَتَوَضَّأُ فيُبْلِغُ، أوْ فيُسْبِغُ الوَضُوءَ ثُمَّ يقولُ: أشْهَدُ أنْ لا إلَهَ إلّا الله وأنَّ مُحَمَّدًا عبدُالله ورَسولُهُ؛ إلّا فُتِحَتْ له أبْوابُ**

الجَنَّةِ الثَّمانِيَةُ يَدْخُلُ مِن أيِّها شاءَ» [رواه مسلم]، وزاد الترمذي: «**اللَّهمَّ اجعَلني منَ التوّابينَ، واجعَلني منَ المتطهِّرينَ**».

وعن عائشة (رضي الله عنها) قالت: «**كانَ رَسولُ الله ﷺ إذا اغْتَسَلَ بَدَأَ بيَمِينِهِ، فَصَبَّ عَلَيْها مِنَ الماءِ، فَغَسَلَها، ثُمَّ صَبَّ الماءَ على الأذى الذي به بيَمِينِهِ، وغَسَلَ عنْه بشِمالِهِ، حتّى إذا فَرَغَ مِن ذلكَ صَبَّ على رَأْسِهِ**» [رواه مسلم].

وأمّا نظافته ﷺ فكان إمامَ البشريّة في النّظافة والنّقاء، ومُعلم الإنسانيّة في الرّقي والصّفاء، فكان بأبي هو وأمي ﷺ إذا ذهب إلى الخلاء يبعد في الصّحراء، وكان يستتر، وينصح أصحابه بذلك، ويُعلمّهم طريقة إزالة النّجاسات، والتّخلص من القاذورات، والاستنجاء والاستجمار، والوضوء والغسل وآداب ذلك، كما جاء عن أمّ المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) أنّ النّبي ﷺ قال:«**عَشْرٌ مِنَ الفِطْرَةِ: قَصُّ الشّارِبِ، وإعْفاءُ اللِّحْيَةِ، والسِّواكُ، واسْتِنْشاقُ الماءِ، وقَصُّ الأظْفارِ، وغَسْلُ البَراجِمِ، ونَتْفُ الإبِطِ، وحَلْقُ العانَةِ، وانْتِقاصُ الماءِ. قالَ أحد رواة الحديث: ونَسِيتُ العاشِرَةَ، إلّا أنْ تَكُونَ المَضْمَضَةَ**» [رواه مسلم].

فهذه العشر نظافة وطهارة، وكلّها مُسطّرة في كُتب السُنّة بتفاصيل موثّقة لأطيب الطّيبين، وأطهر المُطهّرين.

إنّ العلماء من بعده ﷺ جعلوا أبوابًا للطهارة، والنظافة، والاستنجاء، والاستجمار، والوضوء، والغسل، والتطيّب، وجميعها قد سنّها وشرّعها ﷺ وعمل بها، ودعا إليها، وقد تفضّل الله على نبيّه ﷺ وعلى أمته بأن طهّر لهم الأرض كما قال ﷺ: «**وجُعِلَتْ لي الأرْضُ مَسْجِدًا وطَهُورًا**» [مُتفق عليه].

وكان يُحذّر ﷺ من كل ما يُخالف الطيب والطّهر، وينهى عن التلبّس بالنّجاسات، والقُرب من القاذورات، والتغوّط في طريق النّاس أو في ظلّهم أو تحت الشّجر المُثمر، كما قال ﷺ: «**اتَّقُوا اللَّعانَيْن**»، **قَالُوا: ومَا اللَّعَّانَانِ يا رسول الله؟ قَالَ:** «**الَّذِي يَتَخَلَّى في طَرِيقِ النَّاسِ أَوْ في ظِلِّهِمْ**» [رواه مسلم].

وكان ينهى ﷺ أن يكون الإنسان أشعث غير مُنظّم ولا مُرتب ولا نظيف، فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله (رضي الله عنهما)، قَالَ: «**أَتَانَا رَسُولُ الله ﷺ فَرَأَى رَجُلًا شَعِثًا قَدْ تَفَرَّقَ شَعْرُهُ، فَقَالَ:** «**أَمَا كَانَ**

يَجِدُ هَذَا مَا يُسَكِّنُ بِهِ شَعْرَهُ»، وَرَأَى رَجُلًا آخَرَ وَعَلَيْهِ ثِيَابٌ وَسِخَةٌ، فَقَالَ: «**أَمَا كَانَ هَذَا يَجِدُ مَاءً يَغْسِلُ بِهِ ثَوْبَهُ**» [رواه أبو داود]، قال الشاعر:

وَمُبَرَّأً مِنْ كُلِّ غُبَّرِ حَيْضَةٍ	وَفَسَادِ مُرْضِعَةٍ وَدَاءٍ مُغْيِلِ
وَإِذَا نَظَرْتَ إِلَى أَسِرَّةِ وَجْهِهِ	بَرَقَتْ كَبَرْقِ الْعَارِضِ الْمُتَهَلِّلِ

وماذا يقول القائلون؟ وماذا يصف الواصفون؟ في أطيب النّاس، وأطهرهم، وأجملهم، وأعطرهم، وأنقاهم، وأنظفهم؟! ماذا يقول المادحون فيمن اصطفاه الله فجعله طيّبًا مُطيّبًا، حيًّا وميّتًا، طيّب السّيرة والسّريرة، جميل الذّات والمعنى، مُعطّر الأنفاس والأغراس؟! أشهد أنّ كُل ما سمعتَه من مدح لطيبٍ أو عطرٍ أو طُهرٍ أو مسكٍ فإنّما يُعدّ نفحة ممّا اختص الله به نبيّه المُختار عليه الصّلاة والسّلام.

كان ﷺ طيّب الرّائحة، زكيّ الشّذا، عَرقُه كالجمان، وأنفاسه كالمسك، إذا مرّ من طريق عُرف أنّه مرّ منها بطيبه ورائحة مسكه، كما روى أبو يَعلَى والبزّار بسَنَدٍ صحيح عن أنَس (رضي الله عنه) قال: «**كَانَ النبي ﷺ إِذَا مَرَّ فِي الطَّرِيقِ مِنْ طُرُقِ الْمَدِينَةِ وُجِدَ مِنْهُ رَائِحَةُ الْمِسْكِ، قَالُوا: مَرَّ رَسُولُ الله ﷺ فِي هَذَا الطَّرِيقِ الْيَوْمَ**».

ولم تمسّ يده الشّريفة يد أحد إلّا وبقي آثار المسك في يد من صافحه ﷺ، كما جاء في حديثِ وائلِ بنِ حُجْرٍ عندَ الطبرانيّ والبيهقيّ، قال: «**لَقَدْ كُنْتُ أُصَافِحُ اَلنَّبِيّ ﷺ، أَوْ يَمَسُّ جِلْدِي جِلْدَهُ، فَأَتَعَرَّقُهُ فِي يَدَيَّ بَعْدَ ثَالِثَةٍ أَطْيَبَ رِيحًا مِنَ الْمِسْكِ**»، وفِي حديثِهِ عندَ أحمد، قال: «**أُتِي النَّبِيُّ ﷺ بِدَلْوٍ مِنْ مَاءٍ فَشَرِبَ مِنْهُ، ثُمَّ مَجَّ فِي الدَّلْوِ، ثُمَّ صَبَّ فِي الْبِئْرِ، أَوْ شَرِبَ مِنَ الدَّلْوِ، ثُمَّ مَجَّ فِي الْبِئْرِ، فَفَاحَ مِنْهُ مِثْلُ رِيحِ الْمِسْكِ**».

وقد كان له ﷺ وعاء للمسك يتطيّب منه، ويتعاهد به جسمه الشّريف وثيابه ﷺ، فعن أنس بن مالك (رضي الله عنه) قال: «**كانت للنَّبيِّ ﷺ سُكَّةٌ يتطيَّبُ منْها**» [رواه أبو داود].

وكانَ عرقُهُ إذا رَشَحَ من جسَدِه الشّريف كاللؤلؤِ فِي البياضِ والنّقاء، وكان ريحُ عرقِهِ أطيبُ مِنَ المسك، فكانت أم سُلَيم (رضي الله عنها) تَجمعُهُ في قارورةٍ وتجعلُهُ في طِيبِها، كما [رواهُ مسلمٌ

وغيرُه]. كان عرقه ﷺ مُباركًا، وطيّبًا يفوح ويُنعش الأرواح، ويُفرّح النّفوس الصّحاح، قال أنس (رضي الله عنه):«**ما شَمِمْتُ رِيحًا قَطُّ أوْ عَرْفًا قَطُّ أطْيَبَ مِن رِيحِ أوْعَرْفِ النّبيِّ ﷺ**» [مُتفق عليه].

وعن جابر بن سمرة (رضي الله عنه) قال:«**صَلَّيْتُ مع رَسولِ الله ﷺ صَلاةَ الأُولى، ثُمَّ خَرَجَ إلى أَهْلِهِ وَخَرَجْتُ معهُ، فاسْتَقْبَلَهُ وِلْدانٌ، فَجَعَلَ يَمْسَحُ خَدَّي أَحَدِهِمْ واحِدًا واحِدًا، قالَ: وَأَمّا أَنا فَمَسَحَ خَدِّي، قالَ: فَوَجَدْتُ لِيَدِهِ بَرْدًا، أَوْ رِيحًا كَأنَّما أَخْرَجَها مِن جُؤْنَةِ عَطّارٍ**» [رواه مسلم].

ومن حُبّه ﷺ للطّيب كان لا يردّه إذا أُهدي إليه، فعن أنس (رضي الله عنه) قال: «**كانَ النبيُّ ﷺ لا يَرُدُّ الطِّيبَ**» [رواه البخاري].

أمّا فمُه ﷺ فهو الفمُ الشّريف النّظيف الطّاهر الطّيب، فتجده ﷺ يتعاهده بالسّواك والمضمضة والاستنشاق حتى شُبّهت أسنانه بالبَرَدِ، ووُصفت بأنّها اللؤلؤ والجُمان في شدّة الصّفاء والبياض والجمال، وكان لا يأكل الثّوم والبصل، ويقول ﷺ لأحد أصحابه: «**إنّي أُناجِي مَن لا تُناجِي**» [مُتفق عليه].

وكان ﷺ يحث النّاس على السّواك والاهتمام برائحة الفم، فعَن عَائِشَةَ (رضي الله عنها) أنَّ رَسُول الله ﷺ قَالَ:«**السِّوَاكُ مطهرةٌ لِلْفَم مَرْضَاةٌ لِلرَّبِّ**».[رَوَاهُ النَّسَائِيّ].

وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) أنّ النبي ﷺ قال: «**لَوْلا أنْ أشُقَّ على أُمَّتي أوْ على النّاسِ لَأَمَرْتُهُمْ بالسِّواكِ مع كُلِّ صَلاةٍ**» [مُتفق عليه].

وعن أمّ المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) قالت: «**إنَّ النبيَّ ﷺ كانَ إذا دَخَلَ بَيْتَهُ بَدَأَ بالسِّواكِ**». [رواه مسلم].

فلم تُوجد منه ﷺ قطُّ رائحة غير طيّبة، بل يصِفُ أصحابه وزوجاته من طيب نَفَسِه الكريم، وجمال روائِحه ما يفوق الوصف في هذا الباب.

وكان ﷺ يستخدم الكافور وأنواع الطّيب في سائر شؤونه، وحثّ على النّظافة والتّطيّب فقال ﷺ: «**مَنِ اغْتَسَلَ يومَ الْجُمُعَةِ، وتَطَهَّرَ بما اسْتَطاعَ مِن طُهْرٍ، ثُمَّ ادَّهَنَ أوْ مَسَّ مِن طِيبٍ، ثُمَّ راحَ فَلَمْ يُفَرِّقْ بيْنَ اثْنَيْنِ، فَصَلّى ما كُتِبَ له، ثُمَّ إذا خَرَجَ الإمامُ أنْصَتَ، غُفِرَ له ما بيْنَهُ وبيْنَ الْجُمُعَةِ الأُخْرى**» [رواه البخاري].

وفي [صحيح مسلم] عن ابن عمر (رضي الله عنهما)أن رسول الله ﷺ كان يتطيّب بِالْأَلُوَّةِ وهي أغلى أنواع الطّيب ويخلطها بالكافور فيزداد عَبقُها وطيب رائحتها، فصلّى الله وسلم دائمًا وأبدًا على النّبي الطّاهر المُطهّر، والدُّر الفاخر، والسّراج المنير، والبشير النّذير، جميل الخصال، وبدر التمام، شفيع الخلق يوم الزّحام، قال الشاعر:

سبحان من جَمَعَ المحاسنَ كلّها ... فيه فتمّ بهاؤه وفخارُهُ

جُبلت على التّشريف طينته فما ... نشأَت على غير العلى أطوارهُ

وصفَت خلائقه، وطُهّر صدرهُ ... فزكَا وطابَ أديمه ونِجارُهُ

وإذا تكلل بالجمان جبينه ... عرقًا لأمر عُظّمت أسرارُهُ

فلَرُ يحه أزكى وأطيب مخبرًا ... من ريح مسك فضّه عطّارُهُ

إذا قرأت سيرة النّبي ﷺ بحُبٍ وتعمّق ظهر لك ثلاث علامات بارزات واضحات شامخات:

العلامة الأولى: الجلال في حياته ﷺ، وهو ما منحه الله له من عظمة، ومكانة مرموقة، وسؤدد، وهيبة، فمع تواضعه ﷺ وبساطته وقُربه من الناس، يجدون له في القلوب من الإعزاز، والإجلال، والهيبة، ما يفوق الوصف، فهو يدلفُ ﷺ على الجموع وفيهم الرّؤساء، والزّعماء، والأغنياء، وشيوخ القبائل، والشّعراء، والخطباء، فيطرقون، وينصتون، ولا يتكلّم أحد، ولا يعترض أحد، بل شأنهم الاستماع له، والتّلطّف معه، والإجلال لشخصه الكريم ﷺ.

أمّا العلامة الثّانية: فهي الجمال، فتعال إلى كلّ جزئية من شخصيته ﷺ في ذاته ومعناه، فقد جمّل الله خَلْقه، وجمّل خُلُقه، جمّل وجهه فكان أجمل من الشّمس والقمر، وجمّل شعره، وأنفه، وفمه، وعينيه، وأذنيه، وجميع أعضائه، وظاهره وباطنه، حتى عُقدت فصول عند العلماء في التكلّم عن كل جزء من هذه الشّخصية العظيمة المُباركة، وعقدوا بابًا في عطره ﷺ وطيبه؛ فكان أحسن الطّيب وأزكى العطر.

وعقدوا بابًا للباسه ﷺ فإذا به أجمل لباس، وأطهر لباس، وأوفق لباس مع بساطته. وعقدوا بابًا عن نعله ﷺ وأشيائه التي يستعملها.

ثم يأتي الجمال في معناه ﷺ وأخلاقه الشّريفة، جمالُه في كرمه، وفي تواضعه، وفي حلمه، وفي زُهده، وفي شجاعته، وفي عدله، وفي رحمته، إلى آخر تلك القائمة، وقد عُقدت في ذلك الفصول والأبواب.

وأمّا العلامة الثالثة: فهي الكمال، وأعني بالكمال هنا الكمال البشريّ، فلم يُوجد على ظهر البسيطة، ولم يَطرق باب العالم، ولم يحصل في تاريخ البشريّة لشخص من الكمال الإنسانيّ مثلُما حصل له ﷺ.

وتعالَ أنت بنفسك إلى أعظم قائدٍ عرفه النّاس، وادرسْ حياته، ثم قارنها بحياة النّبي ﷺ في عالم القيادة؛ تجده ﷺ أرفع شأنًا، وأعظم ميزانًا.

وتعال إلى أعدل العدول الذين حكموا الدّنيا واقرأ وادرس عدلَهم وسير تَهم، ثم قارنها بسيرته ﷺ في العدل؛ تجدهم يتلاشون أمام هذه القمّة والهامة في شخصه الكريم ﷺ؛ لأنّه نبيّ مؤيّد من عند الله.

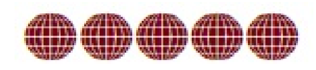
وتعال إلى الفصاحة واقرأ صفات الفُصحاء، وسيرَ البُلغاء، ثم قارنها ببلاغته وفصاحته ﷺ، تجدها لا شيء مع هذا الفتح الرّباني الذي فتحه الله على نبيّه ﷺ في عالم الكلمة البليغة، الفصيحة، الآسرة.

واذهب إلى عالم التّواضع، وادرس حياة الأولياء والعُبّاد والصالحين، ثم قارنها بتواضعه ﷺ ولينه ورفقه؛ تجد الفرق الشّاسع كما بين الثّرى والثريّا.

إنّ هذا الكمال البشريّ هبة نورانيّة، ونبوّة ربّانية من عند الله، ووحي يُوحى ليصوغ الله هذا الإنسان الطّاهر المبارك صياغة خاصة؛ ليكون الأسوة لكل من اهتدى، والقدوة لكل من استقام، قال تعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا} [الأحزاب: الآية 21].

ولقد مرت بي حقبة من الحِقَب كنت أقرأ سيرته ﷺ في الموسوعات العالمية، وفي الدراسات الشّرقية والغربيّة، وماذا قال عنه الفلاسفة، والزّعماء، والأدباء، من كلّ القارات، وكلّ الأجناس، والألوان، والأعراق، فإذا هي شهادة قاضية بليغة بأنّ له الذّروة في كل كمالٍ إنسانيّ.

فصلَى الله على ذاك القدوة ما أزكاه! وسلّم الله على ذاك الوجه ما أبهاه! وبارك الله على ذاك الأُسوة ما أجمله وأعلاه! إنّه محمد بن عبدالله، رسول الله ومُصطفاه، خاتم النبيّين، وإمام المُرسلين، وخير قدوة للعالمين. فإن لم نهنأ في هذه الدّنيا برؤية نور وجهه، ولم نشْرُف بسماع صوته، ولم نسعد بلمس يده؛ فإنّنا نُشهد الله على حُبّه، وندعوه سبحانه أن يرزقنا جواره في الجنّة وقُربَه.





مُحَمَّدٌ ﷺ فَاتِحًا

فتح رسولنا ﷺ الأسماع بجميل الخطاب، وفتح النفوس بفيض الرّحمة، وفتح البصائر بنور الحق، وفتح البيوت بضياء النّبوة، وفتح العالم بالعدل والسّلام، وفتح بكلام الله قلوبًا هامدة، وأرواحًا خامدة، وعقولًا جامدة، قال تعالى: {وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى} [الرعد: الآية 31]، أي لكان هذا القرآن.

والذي نفسي بيده! إنّ تسييره للأجيال، أعظم من تسيير الجبال، وإنّ تقطيعه للمعتقدات الجاهلية الوثنيّة، أعظم من تقطيع الأرض، وإنّ تكليمه للنّفوس، ومُخاطبته للأرواح، أعظم من تكليم الموتى.

لقد جاء ﷺ فاتحًا بالتوحيد، فأبطل الشّرك، ودمغ الأصنام، وحطّم الأوثان، وأزال آثار الجاهليّة، ونسف غبار الوثنيّة.

وجاء فاتحًا بالعلم فغسل القلوب من أدران الجهل، ومن غبار التّخلف، ومن رُكام الخرافة والتّبعية والعبوديّة لغير الله.

وجاء فاتحًا بالعدل فأنقذ النّاس من عبادة بعضهم بعضًا، ومن حُكم الطّاغوت، واستبداد الجبروت إلى حُكم الله، وعدل الإسلام، وميزان الحق: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [النحل: الآية 90].

وأتى فاتحًا بالحُرّية ونادى بها، وحكّمها بين البشر، فأعتق الرّقاب، وأنقذ الأرواح، ونصر المُستضعفين والمساكين والمُعذبين في الأرض، وأوى الأيتام والمشردين واللاجئين، وأطعم

الجائعين، وفك الأسرى، ونشر الرّحمة في العالم كافة: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ} [الأنبياء: الآية 107].

وأتى فاتحًا بالمساواة، فكل النّاس أمامه سواسية، القرشي، والحبشي، والرّومي، والفارسي، والأمازيغي، والتّركي، والكردي، كلهم كأسنان المشط، لا فضل لعربي على أعجمي، ولا أبيض على أسود إلّا بالتقوى: {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ} [الحجرات: الآية 13].

وأتى فاتحًا بالطّهر فكل دينه طهارة، طهارة للضّمير، وطهارة للنّفس، وطهارة للأعضاء، وطهارة للمخبر والمظهر، وطهارة للبيت والطّريق، وطهارة للزّمان والمكان، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ} [البقرة: الآية 222]. وقال ﷺ: «**الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمَانِ**» [رواه مسلم].

ولك أن تُقارن بين فتوحاته ﷺ وفتوحات أتباعه من بعده، وبين فتوحات مشاهير وزعماء الاحتلال في العالم، كجنكيز خان، وهولاكو، وتُبّع، ونابليون، وهتلر النّازي، وبختنصر، وحمورابي، وغيرهم الكثير ممن دخلوا البلدان فأهلكوا الحرث والنّسل.

وانظر لفتوحاته ﷺ كيف حملت وحدانية الله، وعدالة الأحكام، وحُسن الشّمائل، وكرم الأخلاق، والرّحمة بالنّاس، وجمال المُثُل العُليا، والمساواة بين الجميع!؟ فكل الأوطان التي دخلها المُستعمرون دخلوها مُحتلّين، ثم خرجوا منها ولم يستطيعوا صبغ تلك الشّعوب بصبغاتهم الدّينية أو الأخلاقيّة.

لقد دخل المستعمرون عبر التاريخ دول إفريقية وآسيوية بجيوشٍ جرّارة واحتلّوا بلدانًا، وحكموا شعوبًا، فغيّروا أخلاقهم وآدابهم إلى الأسوأ في الغالب.

ودخل المسلمون كثيرًا من البلدان كإندونيسيا وماليزيا وغيرها تجّارًا بلا جيوش ولا طائرات ولا دبابات فاعتنق أهلها الإسلام بواسطة التُجّار لصلاحهم وعدلهم وحُسن تعاملهم.

فكلّما دخل المسلمون بلدًا تركوا فيه معالم حضارتهم، وأنوار رسالتهم، ومكارم أخلاقهم، ببركة دعوة النّبيّ ﷺ.

فكل فتح فتحه المسلمون أو سوف يفتحونه إلى يوم الدّين سواء في العقول أو البلدان هو من بركات وفتوحات الفاتح الأوّل، رسول الله ﷺ الذي بدأ الرّحلة، وقاد القافلة، وأعلن الانطلاقة الكبرى، فمنذ بعثته ونحن نعيش فرحة الفتح الكبرى، يقول الشاعر:

فَتْحٌ تفَتَّحُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ لَهُ	وتَبْرُزُ الأَرْضُ فِي أَثْوَابِهَا القُشُبِ
تَدْبِيرُ مُعْتَصِمٍ بِاللهِ مُنْتَقِمٍ	للهِ مُرْتَقِبٍ فِي اللهِ مُرْتَغِبِ
إن كان بَيْنَ صُرُوفِ الدَّهْرِ مِن رَحِمٍ	مَوْصُولَةٍ أَوْ ذِمَامٍ غيْرِ مُنْقَضِبِ
فبَيْنَ أيَّامِكَ اللاَّتِي نُصِرْتَ بِهَا	وبَيْنَ أيَّامِ بَدْرٍ أَقْرَبُ النَّسَبِ

لقد زرتُ دولًا كثيرة في آسيا وإفريقيا وأوروبا وأمريكا، فوجدت ملايين المسلمين على اختلاف مذاهبهم قد ملؤوا الدنيا تسبيحًا، وتحميدًا، وتكبيرًا، وتهليلًا، وتلاوةً، فأقول في نفسـي: يا الله! مَن أقنع هؤلاء الملايين بهذا الدين العظيم؟!

ثم أجيب: صدق الباري سُبحانه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِيناً﴾ [الفتح: الآية 1].

وانظر إلى الدّول الإسلامية في آسيا وإفريقيا وأهلها يعتنقون الإسلام منذ أكثر من ألف عام لم يُرغموا على هذا الدّين، ولم يُحمل في وجههم سلاح، ولم يُهددوا بقتل أو إبادة، وإنّما هو اقتناع بهذا الفتح العظيم، فتجد الشيوخ والأطفال والعجائز يلفظون اسم «محمّدٍ ﷺ» بحنان، ورقة، وحُبّ، ودموع، من الذي جعل أطفال مُسلمي اليابان وشيوخ نيجريا، وعجائز باكستان، وشباب إثيوبيا يذرفون الدّموع السّخيّة إذا ذُكر رسول الهُدى ﷺ؟! أي حُبّ هذا؟! أيّ ولاء؟! أيّ حنين؟! أيّ أثر؟! أيّ صلة ربّانية؟! أيّ قربة إلهية؟! أي فتح أعظم من هذا الفتح؟! أن تسكن في القلوب، وأن تحلّ في الأرواح، وأن تبقى سيرتك عطرة في الأجيال قرنًا بعد قرن، وتبقى أخلاقك ماثلة للعيان أبد الدّهر.

إنّ الذي فتح مشارق الدّنيا ومغاربها مات ودرعه مرهونة في ثلاثين صاعًا من شعير ﷺ، وهذا دليل على أن فتحه ﷺ وفتح أتباعه للبلاد لم يكن استعمارًا عسكريًا أو طمعًا دنيويًا، بل كان فتحًا ربانيًا حيث العلم النّافع، والعمل الصّالح، والأخلاق الحسنة، والسّلوك الجميل، والحكم القائم على العدل.

وقد لخص ذلك رِبْعِي بن عامر (رضي الله عنه) قبل معركة القادسية لمّا أرسله سعد بن أبي وقّاص (رضي الله عنه) إلى رستم، فقال له رستم: «**ما الذي جاء بكم**»؟، فقال رِبْعِي: «إنّ الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة ربِّ العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه» [ذكره ابن كثير في البداية والنهاية].

لقد كانت الرّحمة والرّفق ملازمة لفتوحاته ﷺ، فقد صح عنه أنّه قال: «**يا أيها الناس، إنّما أنا رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ**» [رواه الحاكم].

وبيّن الله مقصد رسالته فقال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ} [الأنبياء: الآية 107].

ولقد كان ﷺ يُوصي قادة جيوشه فيقول: «**اغْزُوا وَلَا تَغُلُّوا، وَلَا تَغْدِرُوا، وَلَا تَمْثُلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا**» [رواه مسلم].

فلم تكن حروبه وفتوحاته ﷺ للإتلاف أو الإفساد في الأرض أو إزهاق الأنفس وإسالة الدّماء، بل كانت حروبًا مقصود منها البناء، وحفظ النّوع البشري، وإحلال العدل مكان الظلم، والرّحمة مكان الجور، والسّلام مكان الحرب؛ لأنّه ﷺ جاء لإصلاح الحياة، وعمارة الأرض، وتأليف قلوب النّاس، وبناء مجتمع كريم متراحم متآخٍ، ولهذا كان يعمل بمدلول كتاب الله حيث يقول سبحانّه: {وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ} [البقرة: الآية 190].

ولهذا حذّر الله من منهج الظلوم الفاجر في حروبه، فقال تعالى: {وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الْفَسَادَ} [البقرة: الآية 205].

وفي «الصّحيحين» لمّا أرسل ﷺ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) لفتح خيبر قال له: «**ادْعُهُمْ إلى الإسْلَامِ، فَوَالله لَأَنْ يَهْدِيَ الله بكَ رَجُلًا واحِدًا، خَيْرٌ لكَ مِن أنْ يَكونَ لكَ حُمْرُ النَّعَمِ**» [مُتفق عليه].

وفي حديث آخر: «**أنّه قيل للنّبي ﷺ: هذا وحشـي قاتل حمزة**، فقال: « **دَعُوهُ فلإسلامُ رَجُل واحد أحب إلي من قتل ألف كافر**» [ذكره الحافظ ابن حجر في الفتح].

إنّ هداية النفوس وإنقاذها من عذاب الله وإخراجها من الظّلمات إلى النّور من أعظم مقاصد رسالته ﷺ، وفتحه ﷺ لمكة خير دليل على ذلك، بل من أجمل الصّور وأمجد المثل لكل فتح إسلامي إلى يوم القيامة.

لم يدخل معتديًا، ولم يسعَ إلى ثأرٍ أو حربٍ، بل فتح كل أبواب السّلام والأمان للجميع فقال ﷺ: «**مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ أَلْقَى السِّلَاحَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ أَغْلَقَ بَابهُ فَهُوَ آمِنٌ**» [رواه مسلم].

ولمّا دخل ﷺ مكة فاتحًا مُنتصرًا، ولاح له الحرم، نكّس رأسه ودمعت عيناه، فما أعظم تلك اللّحظة! وما أجلّها! لحظة النّصـر الذي رُجّت له الأرض رجًّا، وفُتّحت له السّماء، ووقف التّاريخ يسجلها، والدّهر يشهد عليها، والملائكة تُشيعه، والمؤمنون يحفّون به.

ومع ذلك كلّه لم يدخل ﷺ سفَّاكًا، ولا بطَّاشًا، ولا سفَّاحًا، ولا منتقمًا، بل دخل فاتحًا حليمًا كريمًا متواضعًا، فلمّا رأى الكعبة خفّض رأسه ولحيته حتى لامست لحيته قربوس ناقته (مقدمة رحله) تواضعًا للواحد الأحد.

ودمعت عيناه، وهو يُشاهد مكة التي أُبعد عنها، وأُخرج منها طريدًا شريدًا وحيدًا قبل عشر سنوات يوم وقف يودّع مكة عند حمراء الأسد ويلتفت إليها، ودموعه تسيل على خديه.

وكذلك الكعبة التي تمنى أن يطوف بها ويُصلّي فيها، وكان محرومًا من دخولها عشر سنوات، ومع ذلك ينصـره الله، وتتهاوى أمامه الأصنام، ويقترب ﷺ ليدخلها فيكبّر ويُهلّل ويحمد ربّه الذي أنجز له وعده، يقول عبدالله بن مُغَفَّل: (رضي الله عنه) «**رَأَيْتُ رَسولَ الله ﷺ يَومَ فَتْحِ مَكَّةَ علَى ناقَتِهِ، وهو يَقْرَأُ سُورَةَ الفَتْحِ يُرَجِّعُ. وقالَ: لَوْلا أنْ يَجْتَمِعَ النَّاسُ حَوْلِي لَرَجَّعْتُ كما رَجَّعَ**» [مُتفق عليه].

وكانت قريش قد ملأت المسجد تنتظر؛ ماذا يصنع بها النّبيّ ﷺ؟! فوقف فيهم، وكان مماّ قاله ﷺ ـ كما روي عنه ـ: «**لا إلهَ إلَّا الله وَحدَه، صدَقَ وَعدَه، ونَصرَ عبدَه، وهزَمَ الأحزابَ وَحدَه، ألَا إنَّ**

كلَّ مَأثُرةٍ تُعَدُّ وتُدْعى، ودَمٍ ومالٍ تحت قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ، غيرَ سِدانةِ البَيْتِ، وسِقايةِ الحاجِّ، يا معشر قريش! إنّ الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهليّة وتعظّمها بالآباء، النّاس من آدم، وآدم من تراب»، ثم تلا: {يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [الحجرات: الآية 13]. ثم قال: «**يا مَعشرَ قريشٍ، ما تَرَوْنَ أنّي فاعِلٌ بكم؟!**» قالوا: خيرًا، أخ كريم وابن أخ كريم، قال: «**لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ، اذهبوا فأنتم الطّلقاء**».

فأسقط ﷺ دماء الجاهلية وثاراتها، ولم ينتقم من أعداء الماضي، بل أعلن السّلام والعفو العام والتراحم، فحيّته القلوب، وكان يومًا بهيجًا لا ينساه الزّمان، وهو يُطلق هذه الكلمة الجميلة الأخّاذة الآسرة في وجه الدهر، ويقول لخصومه الذين قاتلوه، وسبّوه، وخاصموه، وآذوه: «**اذهبوا فأنتم الطّلقاء**»!.

فهل مرّ عبر التاريخ فاتح دخل مُنتصرًا على أعدائه الذين تفننوا في إيذائه، والوقيعة به، ومُحاربته، وحصاره، وطرده، ثم يعفو عنهم، ويُسامحهم، ويُكرمهم، ويمسح ماضيهم بكلمة العفو والغفران إلّا محمّد رسول الله ﷺ؟!

وفي فتح النّبيّ ﷺ لمكة صور مُشرّفة لها دلالتها، منها أمره ﷺ لبلال الحبشي (رضي الله عنه) ذي البشرة السوداء أن يؤذّن على الكعبة، وهي وحدها تحمل رسائل الإخاء البشري، وكرامة الإنسان، وحقوق المُستضعفين، وإنقاذ البائسين والمحرومين، وخير تطبيق عملي لقول الباري سبحانه: {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ} [الحجرات: الآية 13].

فيصعد بلال إلى الكعبة، ويصدح من فوقها بالأذان لينصت الدهر، ويقف التاريخ شاهدًا على هذا الفتح العظيم، والعدالة البيضاء، والرّحمة الوارفة، وتدوّي في أرجاء مكة كلمة الحق، وكلمة التّوحيد، والكلمة الخالدة أبد الدهر: (**لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ**).

وانتصر الحق وزهق الباطل، وأذعن أهل مكة لرسول الهدى ﷺ واجتمعوا للبيعة، وجلس رسول الله ﷺ على الصّفا، وقدم الناس رجالًا ونساءً يُبايعونه على السّمع والطّاعة بكل حب وسلام، وسماحة ووئام:

ويكاد القلب من فرط الجوى ... ولهيب الشّوق تقبيل الثّرى

وكأنّ الرّمل أضحى جوهرًا ... والحصى أصبح مسكًا أذفرًا

لقد شهد برحمة وعدل فتوحاته ﷺ أساطين الشّرق والغرب حتى غيرُ المسلمين منهم، يقول الفيلسوف الفرنسي (**جوستاف لوبون**) في كتابه (**حضارة العرب**): «كان مُحمد يُقابل ضروب الأذى والتّعذيب بالصّبر وسعة الصّدر، عامل محمد قريشًا الذين ظلّوا أعداءً له عشرين سنة بلطف وحلم، وأنقذهم من ثورة أصحابه بمشقة، مكتفيًا بمسح صور الكعبة وتطهيرها من الأصنام، وكانت ثلاث مئة وستين صنمًا التي أمر بكبها على وجوهها وظهورها، وبجعل الكعبة معبدًا إسلاميًّا، وما انفك هذا المعبد يكون بيت الإسلام، وإذا ما قيست قيمة الرّجال بجليل أعمالهم كان محمّد من أعظم من عرفهم التّاريخ. إِنَّ الْعَالَمَ كُلَّهُ لَمْ يَشْهَدْ فَاتِحًا أَرْحَمَ مِنَ الْعَرَبِ»؛ يَعْنِي: أَرْحَمَ مِنَ المُسْلِمِينَ أَتْبَاعِ النّبيّ محمّد ﷺ.

ويكفي عن كل الشّهادات شهادة الباري جلّ في عُلاه: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِيناً} [الفتح :الآية 1].

لقد فتحنا لك يا محمد فتحًا بيّنًا طاهرًا مُباركًا، فتحنا لك القلوب فغرست بها الإيمان، وفتحنا لك الضّمائر فبنيت فيها الفضيلة، وفتحنا لك الصّدور فرفعت فيها الحقّ، وفتحنا لك البلدان فنشرت بها الهدى، وفتحنا لك كنز المعرفة وديوان العلم ومستودع التّوفيق، وفتحنا بدعوتك القلوب الغُلف، والعيون العُمي، والآذان الصُّم، وأسمعنا رسالتك الثقلين.

فتحنا لك فتدفّق العلم النّافع من لسانك، وفاض الهُدى المُبارك من قلبك، وسحّ الجود من يمينك.

وفتحنا لك فحزت الغنائم وقسّمتها، وجمعت الأرزاق ووزّعتها، وحصلت على الأموال وأنفقتها.

وفتحنا لك باب العلم وأنت الأميُّ الذي لم يقرأ ولم يكتب، فصار العلماء ينهلون من بحار علمك.

وفتحنا لك أبواب الخير فوصلت القريب وأعطيت البعيد، وأشبعت الجائع وكسوت العاري، وواسيت المسكين، وأغنيت الفقير، بفضلنا ورزقنا وكرمنا.

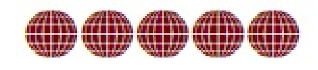
وفتحنا لك القلاع والمُدن والقُرى، فهيمن دينك، وارتفعت رايتك، وانتصرت دولتك، فأنت مفتوح عليك في كل خير وبرٍّ، وإحسان ونصر وتوفيق.

نُصرتَ بالرّعبِ شهرًا قبلَ موقعةٍ ... كأنَّ خَصْمَك قبلَ الحربِ في صممِ

إذا رأوا بارقًا في الجوِّ أذهلهم ... ظَنُّوك بين بنودِ الجيشِ والحشَمِ

بك استفقنَا على صبحٍ يُحَمِّلُهُ ... بلالُ في نَغَمٍ يُشفي من السَّقَمِ

عليك مني سلامُ الله ما هَمَلَتْ ... دُموعُ خلقِك عندَ البيتِ في الحرمِ







مُحَمَّدٌ ﷺ نَاجِحًا

وُلدت همّته معه ﷺ يوم وُلد، فمنذ طفولته ونفسه مهاجرة إلى النّجاح ومعالي الأمور، ومكارم الأخلاق، لا يرضى بالدّون ولا يهوى السّفاسف، بل هو السبّاق والمقدام المتفرّد.

وتميّز ﷺ قبل النّبوة بسمات الرّيادة والتفوّق والنّجاح ما جعل قريشًا يُسمونه الصّادق الأمين، ويرضون حكمه ويعودون إليه في أمورهم، فلمّا منَّ الله عليه بالبعثة تاقت نفسه إلى الوسيلة، وهي أعلى درجة في الجنَّة، فسأل الله إيّاها، وعلّمنا أن نسألها له من ربّه، وبلغ سدرة المنتهى، وحاز الكمال البشريّ المُطلق، والفضيلة الإنسانيّة.

أركان النّجاح أربعة: أولها: أن يكون الله راضيًا عنك، وثانيها: أن تكون مطمئنًا لعملك، وثالثها: أن تقدّم نفعًا للناس وأثرًا طيبًا يبقى بعدك، أمّا رابعها: فأن يكون من حولك راضين عنك فتكون علاقاتك صالحة مع من يتعامل معك.

وقد اجتمعت كلّها في رسولنا ﷺ بأعلى درجاتها، وأبهى صورها، وأجمل حُللها، فهو أعظم النّاس منزلة عند الله، وأحبّ الخليقة إلى مولاه، وهو المُطمئنّ لرسالته، الواثق من مبدئه، وهو الذي نجح في تقديم أعظم نفع للبشرية، ولا نعلم أحدًا في الدّنيا على مرّ التاريخ سواءً من رأوه وصاحبوه، أو الذين جاؤوا من بعده وما رأوه، إلّا وكانوا شاهدين له بالنّجاح والتّفرّد والتّميّز.

أمّا نجاحه عليه الصّلاة والسّلام فإنّ هذا هو المتوقع والمنتظر أن يكون، وقد كان والحمد لله؛ لأن من أرسله الله، وأيّده بالوحي، وعصمه بالنبوّة، لن يكون إلّا ناجحًا، بل في أعلى مقامات النّجاح.

في همةٍ عصفتْ كالدَّهر واتقدتْ ... كمَ دكّ من وثنٍ منها ومن صنمِ

وأشرق الكون من أنوار طلعته	ومن أبَى عاش في الدّنيا أصمّ عمِي
ناداك ربُّكَ والأكوان منصِتةٌ	(كما أُمرت بوحي الله فاستقمِ)
حتّى الزّمانُ أعاد الله دورتَه	من أجله لجلال الفخر والعِظَمِ

لقد نجح ﷺ في دعوته إلى التّوحيد في مكة حيث وقف وكثّف جهده على كلمة واحدة فقط: «**لا إله إلا الله**»، وأعادها وأبداها ثلاثة عشر عامًا، ليلًا ونهارًا، وسرًّا وجهارًا، يُكرّر على الكبير والصّغير، والفرد والجماعة، «**قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا**».

ولم يقم بقتال الكفار ولا مجابهتهم، بل صبر واحتسب وتحمّل الأذى حتى غرس هذه الكلمة في قلوب كثير من أصحابه الذين صاروا حُماة للرّسالة، وحُرّاسًا للعقيدة.

ونجح ﷺ يوم انتقل إلى المدينة؛ لأنّها مأرز الإسلام، ودار النّصرة، وملاذ المؤمنين، فكان هذا الاختيار من أنجح القرارات، وأصوب الآراء.

ونجح ﷺ في المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، فكان يؤاخي بينهم حتى صاروا على قلب رجل واحد؛ إخاءً، ولُحمةً، ونُصرةً، ومحبةً، وألفة، قال تعالى: {وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [الأنفال: الآية 63].

ونجح ﷺ لمّا بنى مسجده بالمدينة المنورة، وهو أوّل مشروع معماري قام به، فصار هذا المسجد مُنطلقًا للصّلاة، وإقامة المواعظ والدّروس والفتاوى، وعقد النّدوات، واستقبال الوفود، وتعليم الجاهل، ومداواة المريض، وإلقاء الخطب والأشعار في نصرة الدّعوة، واستضافة الفقراء والمساكين، وتجهيز الجيوش، إلى غير ذلك من المهام التي قام بها هذا المسجد المُبارك، ففاقت بركته كل جامعات الدّنيا ومدارس العالم إلى يوم الدّين.

ونجح ﷺ بكتابة عهود إخاءٍ بينه وبين اليهود، فكسر شوكتهم فحقبةً من الزّمن، وهدّأ خصومتهم مرحلة من مراحل تاريخه، حتى استقام له الأمر، واجتمع له الشّمل.

ونجح ﷺ في التّعامل مع المنافقين، فعفا وأعرض عنهم، ولم يقم بعقابهم؛ لئلّا تثور ثائرة أتباعهم، بل صفح، وسكّن، وأخذهم على ظواهرهم، ليحافظ على وحدة المجتمع وتماسكه، وليقرر

أن التعامل مع الناس يكون حسب ظواهرهم والله يتولى سرائرهم.

ونجح ﷺ في أوّل معركة خاضها ضد المشركين؛ لأنّها كانت الفاصلة في تاريخ دعوته ﷺ، وهي غزوة بدر الكبرى المجيدة، التي نصره الله فيها، وتوالت بعدها الفتوحات والانتصارات، فبها قامت قائمة الدّين، وأذل الله المشركين، وكسر راية الكافرين، وأعزّ المؤمنين.

ونجح ﷺ وهو يُرسل الرّسائل إلى الملوك؛ ليقيم الحُجّة عليهم ويدعوهم، فمن استجاب نجا ومن معه، ومن أعرض فقد قامت عليه الحُجّة، وبرّأ ﷺ الذّمة، وأوصل له الرّسالة.

ونجح ﷺ وهو يُولّي الأمراء على الولايات والسرايا، فيختار الأقوى على الأتقى، إذا كان في ذلك مصلحة، فإن مصلحة الأقوى في رأيه ودهائه وشجاعته تعود بالنّفع للمسلمين، وأما التقي الضّعيف فضعفه على المسلمين وتقواه لنفسه.

ونجح ﷺ وهو يوجّه التّخصصات لأصحابه، ويوزّع الوظائف عليهم بفتح ربّاني، وبفهم نبوي، فأبو بكر الصّديق للخلافة بعده، إشارة وتلميحًا، وعمر بن الخطاب فاروق عبقري للمواقف الفاصلة، وعثمان للحياء والجود، وعلي للقضاء والشّجاعة، ومعاذ بن جبل للفتوى في الحلال والحرام، وزيد بن ثابت عالم الأمة في الفرائض، وأُبي بن كعب سيّد القرّاء في تلاوة كتاب الله وضبطه، وابن عباس في فهم القرآن ومعرفة التّأويل والفقه في الدّين، وحسّان شاعر الدعوة، وبطل القافية، والمنافح بالحرف عن الملّة، وثابت بن قيس بن شَمَّاس للخطابة ودحض شبهات أهل الباطل باللّسان الفصيح، وخالد بن الوليد سيف الله المسلول؛ لكسر لواء الباطل، وسحق بيارق الخيانة والغدر، وقس على ذلك كافة المشارب والتّوجهات والاستعدادات من الصحب الكريم: {قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ} [البقرة: الآية 60].

ونجح ﷺ في التّعامل مع المرأة؛ زوجًا، وأبًا، ومُعلّمًا، ومُربيًا، وقدوةً، فأخرج منهنّ العالمات المؤمنات الصّادقات، القانتات المُربيات، وأعطى كل واحدة منهن حقها وقدرها، سواء كنّ من بناته أو زوجاته أو المُسلمات جميعًا.

ونجح ﷺ في عالم الطّفولة، فوضع آدابًا وأخلاقًا للأطفال، ووجههم بنفسه ﷺ، واقترب منهم، وداعبهم، ومازحهم، واحتضنهم، وألقى لهم كلمات مباركات، بقيت معالم في حياتهم لا ينسونها.

ونجح ﷺ في عالم المال، فأخذه من الحلال، وأنفقه في الحلال، وقسّمه بالعدل والخوف من ذي الجلال، باتزان وحكمة ونظام عجيب، وأتى الوحي بقسمة الصّدقات على ثمانية أصناف: {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [التوبة: الآية 60].

فجعل كل قسم في مكانه، وكل حق في موضعه، وقد صُنِّف في ذلك المصنّفات؛ ككتاب الخراج لأبي يوسف، وكتاب الأموال لأبي عبيد، وكل من كتب في السُنّة عقد أبوابًا لهذا، وذكر هديه ﷺ ونجاحه في المال العام من حيث الزّكاة والصّدقة والغنيمة والهدية وتوزيعها على مستحقيها بعدلٍ وإنصافٍ وأمانة، كلّها يضعها ﷺ في مواضعها، فسبحان من أعطاه هذا الفتح النّبوي، والهداية الرّبّانية، في كل معلم من معالم الحياة، حتى صار ﷺ آية للسّائلين، ومعينًا للمستفيدين، وإمامًا للعابدين، وأسوة للنّاجحين إلى يوم الدّين.

ونجح ﷺ في تحمّل مشاق الحياة ومصاعبها، فمرّ بالفقر، وصارع الجوع والحاجة والمسكنة، فصبر، وتحمّل، وواصل، واستمر.

ونجح ﷺ أيضًا في الانتصار على فتن الدّنيا وزينتها عندما فُتحت له، وهطلت عليه الغنائم، وجمعت له الأموال، من الغزوات والفتوحات، والانتصارات، فكان الأمين على مال الأمة، مثل أمانته على رسالتها، وكان يوزع الغنائم أمام النّاس من إبلها، وبقرها، وغنمها، ودراهمها، وذهبها، وفضتها، وجميع متاعها، ثم يعود إلى بيته خالي الوفاض، طاهر اليد وهو يقول: «**أَعْطُوني رِدَائِي، فَلَوْ كَانَ لِي عَدَدُ هذِهِ العِضَاهِ نَعَماً، لَقَسَمْتُهُ بَيْنَكُمْ، ثُمَّ لا تَجِدُوني بَخِيلاً وَلا كَذَّاباً وَلا جَبَاناً**» [رواه البخاري].

ونجح ﷺ في إقامة الدّولة، فهو قائدها ومؤسسها وبانيها، حيث إنّها ضربت في عهده إلى أطراف الجزيرة العربيّة، ثم واصلت بعده إلى أن اقتحمت جيوشها مستعمرات الباطل، وثكنات الوثنيّة، شرقًا وغربًا، وشمالًا وجنوبًا، إلى أن أتى خلفاء بعده، فوصلوا إلى السّند شرقًا، بل إلى الصّين، وواصلوا غربًا إلى نهر الرّاين، وتعمقوا في شمال آسيا، وفي أدغال أفريقيا، فإذا الدّنيا كلها ترتج بالأذان، والسّجدات الخاشعة في كل مكان، وأجواء البلدان تعطّرت بالقرآن، وإذا الجبال منائر تُرفع فيها: «**لا إله إلا الله، محمد رسول الله**»، وإذا السّاحات والباحات مجالس علم وفقه، ووعظ ودعوة.

ونجح ﷺ في التّعامل مع أصناف البشر، مؤمنهم وكافرهم، مُخلصهم ومنافقهم، وتعامل ﷺ مع الشّيخ الكبير، والطّفل الصّغير، والشّاب الواعد، والرّجل والمرأة، والرّئيس والمرؤوس، والغنيّ والفقير، والعالم والجاهل، وتعامل مع أصناف المُخالفين، من الكفار المشركين، والمُنافقين المندسين، وأهل الكتاب، والأعراب المتذبذبين، والبغاة المحاربين، والفجرة العاصين.

ونجح ﷺ في وسائل التأديب والتّربية، والتّعزير والحدّ، فهذا بالصّلة والتّأليف، وهذا بالستر والإعراض، وهذا بالزّجر والتّهديد، وآخر بالهجر والتّأنيب، وغيره بإقامة الحدّ، كلّها بوحي مُقدّس، وبنبوّة معصومة، على حسب ما قدّره الله وقضاه جلّ في عُلاه.

ومن نجاحه ﷺ: حسن إدارته لبيته، ورعايته لأسرته، فزوجاته كل واحدة منهنّ تروي قصة حياتها مع النّبيّ ﷺ بكل حُبّ وشوق، وبكل لهفة وحنان. كل زوجة من زوجاته تشعر بما يُكنه لها من الحبّ والاعتناء؛ لتمام عدله، وبرّه، وشفقته، ولطفه، ورفقه ﷺ.

فكان ناجحًا ﷺ في حياته الخاصّة، فلا تجد زوجةً أو بنتًا أو عمًّا أو عمةً أو قريبًا أو صاحبًا أو خادمًا أو خازنًا أو رفيقًا إلّا وقد ملكه بالحبّ، وجذبه بالمودّة، وسكن قلبه بأنوار النّبوّة، وعَمّر روحه بإشراق وأشواق الرّسالة، فكلهم مُحبّون، وكلّهم مُغرمون، وكلّهم من أجله فدائيون، وكلّهم في سبيل دعوته متفانون.

بل إنّي أطالعُ في سير كثير من الصّحابة كيف يتحوّل الواحد منهم في يوم أو جلسة أو لحظة من عدوٍ مُبغضٍ يتربّص بالنّبيّ ﷺ الدّوائر، ويريد الغرّة ليقتله، ويريد الفرصة ليفتك به، ثم ما هو إلّا أن يجلس بين يديه ﷺ، ويرى وجهه الوضّاء الزّاهر الباهر، ويسمع كلامه المُبارك، فينقلب مُسلمًا، ويتحوّل مؤمنًا، ويعود مُحِبًا، يُقدّم روحه بين يدي النّبيّ ﷺ، ويصب دمه فداءً لدعوته، ويجود بكل ما يملك لإرضاء هذا النّبيّ الكريم، فتكون أجمل أيامه الأيام التي عاشها مع النّبيّ ﷺ، وأبرك نفقاته النّفقة التي دفعها لنُصرة دينه ﷺ، وأجمل خطواته هي الخطوات التي مشاها في سبيل الله مع نبي الله ﷺ.

ومن نجاحه ﷺ ما تركه من أثر طيب مُبارك في قلوب أصحابه، فكلّهم رضوا عنه، وجميعهم حصلوا على الغنائم الطيبة منه ﷺ، إمّا بعلم خاص، أو دعوة مباركة، أو زيارة ميمونة، أو هدية كريمة، أو حركة جميلة؛ كأن يشبّك أصابعه بأصابعه، أو يضرب على صدره، أو يمسك

بكتفه، أو يرقيه، أو يخصّه بطعام، أو بشراب، أو بلباس، أو يعيّنه في منصب، أو إمارة، أو قيادة سرية، أو إمامة قومه، أو يسند إليه مهمة، أو يخصه بفضيلة، أو يثني عليه أمام النّاس، وهل النّجاح والتّفوق إلّا هذا؟!

ونجح ﷺ في إدارة الوقت، وتوجيه الأُمّة، وتنظيم الجيش، وحفظ الأموال:

فأمّا إدارته ﷺ للوقت: فقد أدار ﷺ الوقت إدارة حكيمة عظيمة، وقام بكل أعماله وواجباته بترتيب وانسيابية، وأعطى نفسه حقّها، والأمة حقّها، وأهله حقّهم، وضيفه حقّه. وأدى رسالته الدّعوية والتّربوية، ووزع الواجبات على الأوقات فلم يترك حقلًا من حقول الخير إلّا أعطاه وقتًا، فصارت حياته كلّها حديقة خصبة مُثمرة بأشجار الفضائل والمحاسن.

بل تجد في تقسيمه ﷺ لوقته العدل والإنصاف فلم يُنقص حقٌّ حقًا، فللصّلاة وقت، ولتلاوة القرآن وقت، وللأسرة وقت، وللزّيارة وقت، إلى غير تلك الأعمال الجليلة في حياته ﷺ، يؤدي كل عمل في وقته بكل هدوء وحُبّ ونشاط وإقبال، بتناسق عجيب بحيث لا تشعر في حياته ﷺ بحالة طوارئ أو ارتباك أو عجلة أو اضطراب.

ولم يسبق في تاريخ الأمّة أنّها عرفت مثل هذا النّظام، وانظر إلى عمل اليوم واللّيلة في حياته ﷺ، والتي أُلِّفَ فيها مصنّفات كما ألّف فيها الحافظ النسائي: (عمل اليوم والليلة) والحافظ ابن السُّني والنّووي وغيرهم، فكان وقته مُنظّمًا مُرتّبًا، فهو قدوة النّاجحين، إلى يوم الدّين.

ونجح ﷺ في توجيهه الأمة في كل شأن من شؤون الحياة، وفي كل حقل من حقول الدّين والدّنيا؛ إمامةً وخطابةً وقيادةً وتربيةً وتعليمًا وتزكيةً، فما ضعف في حقل، وما قلَّ جهده في مجال، بل كلها في مرتبة الكمال، وفي نهاية الجمال، والجلال.

وأمّا تنظيمه ﷺ للجيش: فنجح في إدارة الجيش وتنظيمه، من حيث القيادة وترتيب السّرايا، والمقدمة والمؤخرة، والميمنة والميسرة، والقلب والجناحين، وبعث البعوث، وإرسال سرايا الاستكشاف، وبث العيون، وعَقْد مجلس المشاورة، ونظام الألوية والمعاهدة، وأنظمة الغنائم والتّعامل مع الأسرى، والمبارزة وباب شهداء المعركة؛ إلى غير ذلك من حسن الإدارة للجيش الإسلامي.

لا يُعرف عبر التّاريخ رجل استقامت علاقته مع كل مَن حوله على أتمّ نظام كما حصل للرسول ﷺ، فقد أقام ﷺ علاقة الودّ والتّفاهم والتّعارف مع الرّجال والنّساء، والكبار والصّغار، وأهل الحاضرة وأهل البادية وأغنياء النّاس وفقرائهم، وأقويائهم، وضعفائهم، فأنزل كلّ إنسان منزلته.

وأقام نظام العلاقات في حياته ﷺ بترتيب ربّاني، فتجد علاقته أوّلًا بالخلفاء الرّاشدين الأربعة، ثم علاقته بعد ذلك ببقية العشرة المبشرين بالجنّة، ثم بأهل بدر ولهم مرتبة خاصّة، ثم بأهل بيعة الرّضوان، ثم للمهاجرين منزلة، وللأنصار منزلة، ولأمهات المؤمنين مرتبة، ولأهل البيت فضيلة، ثم للمسلمين أحكام، ولأهل الذّمة أحكام، وللبغاة المحاربين نصوص بيّنة ظاهرة، وللخوارج آيات وأحاديث، وللمعاهدين سنن وقضايا، كل هذا بترتيب إلهي، ووحي ربّاني لا يحصل إلّا لنبي مُرسل من عند الله.

وقد شهد بنجاحه ﷺ أولياؤه وأتباعه وحتى أعداؤه، وقلّ أن يحدث هذا في التّاريخ.

وكفى بالله جلّ في علاه شاهدًا لنبيّه ومُصطفاه، بالنّجاح في تعليمه وتزكيته وتربيته، وهو أصدق القائلين سُبحانه: {لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ} [آل عمران: الآية 164].

فقد زكّى الله منهجه فقال تعالى: {وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [الشورى: الآية 52].

وزكّى خُلقه فقال تعالى: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} [القلم: الآية 4].

وزكّى لسانه فقال تعالى: {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى} [النجم: الآية 3].

وزكّى سمعه فقال تعالى: {وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ} [التوبة: الآية 61].

وزكّى بصره فقال تعالى: {مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى} [النجم: الآية 17].

وزكّى كتابه فقال تعالى: {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ} [الإسراء: الآية 9].

وزكّى شريعته وتبليغه للدين فقال تعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً} [المائدة: الآية 3].

وزكّى أُمّته فقال تعالى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} [آل عمران: الآية 110].

وأقرأ أحيانًا سيرة الصّحابي وقد خرج من الوثنيّة، وقضى كثيرًا من سنواته في مراتع الجاهليّة، وفي مرابض الخرافة، وفي معاهد الشّركيات، وفي مغاني الكُفر بالله، بين الأصنام والأوثان والفواحش والمُنكرات، فما هو إلّا أن يجلس بين يدي معلم الخير ﷺ ويقول: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنّ محمدًا رسول الله»، فيهتزّ وجدانه، وتتناثر كل ذرّة من ذرات الجاهلية، وغبار الشّرك من جسمه، فيخرج طاهرًا مطهرًا، زاكيًا مرضيًّا، فينقلب جنديًا صادقًا، وطالبًا أمينًا، وتلميذًا نجيبًا لرسول الهدى عليه الصّلاة والسّلام، فيصبح عمره مع النّبيّ ﷺ بين سجدةٍ خاشعة، وتسبيحةٍ صادقة، ونفقة متقبّلة، وقولٍ صادق، وسريرةٍ طاهرة، وإيمانٍ عميق، وعقيدةٍ صافية، لما أدركه من بركة الرّسالة، وما شمله من يمن النبوّة، وفيض الحكمة، التي تلقّاها من سيّد المرسلين وخاتم النّبيّين ﷺ.

ومن أعظم أدلة نجاحه ﷺ أنّه نجح في ترك جيلٍ فريدٍ تولّى تربيتَهم بنفسه منذ فجر الدّعوة، ومنذ أن قال: «**يا أيّها الناس قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا**»، إلى أن مات ﷺ غرس في أصحابه الإيمان العميق، والتّضحية المُتناهية، والصّدق الرّاسخ، واليقين الثّابت، فبقوا بعده جبالًا شمّاء في وجه أعاصير الشُّبهات، وأطوادًا منيعة أمام عواصف المحن والفتن، فما ارتدّوا، وما وهنوا، وما ضعفوا، وما استكانوا، بل واصلوا مسيرة الدّعوة، ومسيرة نشر الرّسالة، ومسيرة العطاء، والبذل، والتّضحية، حتى اتسعت دولة الإسلام، وطوت القارات الست، وامتطت البحار والقفار، ودوّى تكبير جيوشها في فجاج الأرض، وأجواء السّماء.

فهل بعد هذا التفرّد من تفرّد؟! وهل بعد هذا النّجاح من نجاح؟! اللّهم شرّفنا بخدمة دعوته، واستعلمنا في نشر سُنّته، واتّخذنا جنودًا لنُصرة رسالته:

المجد فألك والتّوفيقُ والظّفرُ ... تسمو ودونك هذي الشّمس والقمرُ

لك الوسيلة من دون الورى وكذا ... شفاعة الخلق في يوم له خطرُ

كل النّجاحات في الدّنيا إذا وُزنت ... بمجدك الضّخم لا علمٌ ولا خبرُ

والفائزون ولو عَادوا بأوسمةٍ ... فتاجك الوحي والآيات والسّورُ





مُحَمَّدٌ ﷺ مُحْسِنًا

الإحسان هو غاية الإتقان، ونهاية الإيقان، وأعلى درجات العبوديّة، وأرفع مقامات الطّاعة، وهو دليل على النّبل، والاعتراف بالفضل، وليس في البشر أحد ملأ الإحسان حياته، وحركاته، وسكناته كرسول الله ﷺ.

لقد أحسن ﷺ في تضرّعه لمولاه فقرّبه واجتباه، وأحسن إلى القلوب فأسرها بحُبّه، وأحسن إلى النّفوس فكسبها بالشّوق إليه، وأحسن إلى الأرواح فملأها مودةً واتّباعًا.

أحسن للجميع بلا حد، وبذل للكل بلا تردّد، أحسن لمن آذاه، وتفضّل على من منعه، ووصل من قطعه، يُساء إليه فيُحسن، يُسبّ فيكظم، يُنال من عرضه فيصفح، يفيض بالمعروف على من يستحق ومن لا يستحق، أحسن الله إليه فأحسن ﷺ عبادته، وأحسن إلى عباده، تنفيذًا لإرشاد القرآن العظيم: {وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ} [القصص: الآية 77].

فقد أحسن الله منهجه، وأتمّ عليه نعمته، وأكمل له الدّين، وعصمه من كل ذنب، ونقّاه من كل عيب، فكل حسن جميل هو حظه ونصيبه؛ لأن إحسانه إحسان نبوّة، وعلم نافع، وعمل صالح، وسُنّة ثابتة، وخُلق كريم، ونهج قويم.

فأحسن ﷺ بكل أوجه الإحسان؛ أحسن ببسمته الرّائقة الآسرة، وأحسن بخُلُقه اللّطيف، وحلمه الشّريف، وكرمه المُنيف.

وأحسن بماله وما منحه الله من عطايا، وأحسن بعفوه وصفحه، وأحسن بتربيته وتزكيته للقلوب.

فكل أبواب الإحسان قد جمعها وكمّلها وألهمها للأمّة، فقال ﷺ: «**إنَّ الله كَتَبَ الإحْسَانَ علَى كُلِّ شيءٍ**» [رواه مسلم].

وقد تتبّعت مسألة الإحسان في حياته ﷺ فوجدته ما ترك أحدًا من النّاس إلّا وقد أعطاه من الإحسان ما يملأ قلبه سرورًا، وروحه حبورًا، وضميره نورًا.

أحسن ﷺ عبادته لربّه، فكان يعبد الله كأنّه يراه رأي العين، يقينًا، وحُبًّا، وولايةً، وقُربًا، وعلمًا، ومعرفةً، يؤدي العبادة كاملة مُكمّلة في أوقاتها بأركانها، ومُستحباتها، وواجباتها، وسُننها، خالصة لله، ويقول: «**الإحْسَان أن تعبد الله كأنَّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنَّه يراك**» [مُتفق عليه].

وتقول أمّ المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) في «**الصّحيحين**»: «**إنّ النّبي ﷺ صلّى في اللّيل أربعَ رَكَعاتٍ، فلا تَسأَلْ عن حُسنِهِنَّ وطولِهِنَّ**».

يُصلي فكأنّه واقف بين يدي الله عزّ وجل، يسجد فكأنّ روحه تطوف حول عرش الرّحمن.

يُرافقه ﷺ الإحسان على أكمل وجه، في كل طاعة وعبادة، من صلاة، وصوم، وحج، وزكاة، وتلاوة، وذكر، وصدقة، ويقول - بأبي هو وأمي-: «**لا يَدْخُلُ أحَدٌ الجَنَّةَ إلَّا أُرِيَ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ لو أساءَ، لِيَزْدادَ شُكْرًا، ولا يَدْخُلُ النَّارَ أحَدٌ إلَّا أُرِيَ مَقْعَدَهُ مِنَ الجَنَّةِ لو أحْسَنَ، لِيَكونَ عليه حَسْرَةً**» [رواه البخاري].

فكان ﷺ الأعلى درجةً، والأرفع كعبًا في حُسن العبادة، وكيف لا؟ وهو من علّمنا عبادة الله، وخشيته، والإنابة إليه.

وأحسن ﷺ في أعماله ومُعاملاته، لأن الله يقول: {لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً} [الملك: الآية 2].

فأحسننا عملًا هو رسولنا ﷺ، وهو من دلّنا على أحسن الأعمال، والأقوال، والأحوال.

وحثّنا على إتقان العمل والإحسان فيه، فقال ﷺ: «**إنَّ اللهَ تعالى يُحِبُّ مَنَّ العامِلِ إذا عَمِلَ أن يُحْسنَ**» [رواه الطبراني].

وكان ﷺ إذا اقترض شيئًا قضى بأفضل منه، فكانَ لِرَجُلٍ علَى رَسولِ الله ﷺ دَيْنٌ، فجاء فأغلظ القول لرسول الله ﷺ، فَهَمَّ به أصْحَابُهُ، فَقالَ: «**دَعُوهُ، فإنَّ لِصَاحِبِ الحَقِّ مَقَالًا، وقالَ: اشْتَرُوا له سِنًّا، فأعْطُوهَا إيَّاهُ، فَقالوا: إنّا لا نَجِدُ سِنًّا إلّا سِنًّا هي أفْضَلُ مِن سِنِّهِ،** قالَ: **فاشْتَرُوها، فأعْطُوها إيّاهُ، فإنَّ مِن خَيْرِكُمْ أحْسَنَكُمْ قَضاءً**» [مُتفق عليه].

وأحسن ﷺ في أقواله طاعة لقول الحكيم الخبير سُبحانه: {وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً} [البقرة: الآية 83]، فكانت كلماته أحسن الكلمات، وعباراته أطيب العبارات، تصغي لها القلوب فتمتلئ راحة وطمأنينة، وتقع في النّفوس فتغشاها بهجة وسكينة، ويحثّ أمّته ﷺ على الخير من الأعمال، والطيّب الحسن من الأقوال، فيقول: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِالله وَالْيَوْمِ الْآخِرِ؛ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ**» [مُتفق عليه].

وأحسن ﷺ إلى كل من نعم بقُربه، وشرف بصحبته، من أهله وأصحابه وعشيرته وأتباعه إلى يوم الدّين، فكان أعظم ناصح دلّهم على طريق الهداية، وأعظم مُرشد جنّبهم سبيل الغواية، وأعظم هادٍ أخذ بأيديهم إلى الفوز العظيم، ونجّاهم من الخطر الجسيم، وبسببه يدخلون جنّات النّعيم، في جوار ربٍّ كريم، وهذا غاية الإحسان لا إحسان فوقه أبدًا.

أحسن إليهم ببره ورحمته، وأحسن إليهم بعطفه ورفقه، وأحسن إليهم بأجمل الأعمال، وأرقّ الكلمات، وألطف اللّمسات، وأبرك الدّعوات، وحثّهم على مكافأة كل مُحسن ولو بالدّعاء، فقال: «**مَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُونَهُ فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ**» [رواه أبو داود].

وعن عمرو بن أخطب الأنصاري قال: «**استَسقى رسولُ الله ﷺ، فأتَيتُه بإناءٍ فيه ماءٌ، وفيه شَعرةٌ فرَفَعتُها، ثُمَّ ناوَلتُه، فقال: اللهمَّ جَمِّلْه**» [رواه أحمد].

فكان ﷺ خير من امتثل قول الباري سُبحانه: {هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ} [الرحمن: الآية 60].

ومن حُبه ﷺ للإحسان سمّى - كما ورد - أبناء علي وفاطمة (رضي الله عنهم) جميعًا؛ (حَسنًا، وحُسينًا، ومُحسنًا)، فالإحسان طريقته، والحُسن نهجه وسيرته ﷺ.

وقد أتى بدين كلّه حُسْنٌ في القول، كما قال تعالى: {وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ} [فصلت: الآية 33].

وحُسْنٌ في الاستماع، كما قال تعالى: {الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الأَلْبَابِ} [الزمر: الآية 18].

وكان يقول ﷺ: «**إِنَّ خِيَارَكُمْ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلاَقًا**» [مُتفق عليه].

ومن إحسانه ﷺ للأنصار لَمَّا خطب فيهم يَومَ حُنَيْنٍ، فَقالَ: «**يا مَعْشَرَ الأنْصَارِ، أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلَّالًا، فَهَدَاكُمُ اللهُ بي؟ وَمُتَفَرِّقِينَ، فأَلَّفَكُم اللهُ بي؟ وَعَالَةً، فأغْنَاكُمُ اللهُ بي؟ أَلَا تَرْضَوْنَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بالشَّاءِ والبَعِيرِ، وَتَذْهَبُونَ برَسولِ الله ﷺ إلى رِحَالِكُمْ؟ لَوْلَا الهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَءًا مِنَ الأنْصَارِ، ولو سَلَكَ النَّاسُ وَادِيًا وَشِعْبًا، لَسَلَكْتُ وَادِيَ الأنْصَارِ وشِعْبَهَا**» [مُتفق عليه].

ومن عظيم إحسانه ﷺ لأصحابه وأتباعه إلى يوم الدّين ما أفاض عليهم من بركات الوحي المُقدّس، ومن فتوحات الرّسالة المُحمّدية، المُباركة، المُطهّرة، فجذب بذلك قلوبهم وملك نفوسهم، كما قال الشاعر:

أحسِنْ إلى النّاسِ تَستَعبِدْ قُلوبَهُمُ ... فطالَما استعبدَ الإنسانَ إحسانُ

أحسِنْ إذا كانَ إمكانٌ ومَقدِرةٌ ... فلنْ يَدومَ عَلَى الإحسانِ إمكانُ

فإذا كان رسولنا ﷺ هو سيد المُحسنين إلينا، وإمام المُتفضّلين علينا، فهو أحقّ النّاس أن تنجذب إليه قلوبنا، وتشتاق لرؤيته عيونُنا، وتتلهّف لصحبته أرواحُنَا.

وفاض إحسانه ﷺ على غير المُسلمين، فقدّم لهم الدّعوة الطيّبة، والمُعاملة العادلة، والمُجادلة الحسنة، وإقامة الحُجّة.

وعندما هاجر ﷺ إلى المدينة ضرب أجمل الأمثال في حُسن التّعامل مع أهل الكتاب من اليهود، فدعاهم إلى وثيقة التّعايش السّلمي المشترك، والدّفاع عن المدينة، وضمن لهم حقوقهم كاملة، ودعاهم بالتي هي أحسن، وكان معهم بين البرّ والإحسان والحزم وإنفاذ أمر الله مُمتثّلًا قول الباري: {لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ

اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} [الممتحنة: الآية 8]، وقوله تعالى: {وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ} [العنكبوت: الآية 46].

ولمّا قدم وفد نجران من النّصارى إليه ﷺ فأكرمهم، وحيّا مقدمهم، وأنزلهم أحسن منزل، وبيّن لهم الحُجّة والدّليل والبرهان.

ومن إحسانه ﷺ إلى أهل الكتاب أنّه لم يُصادر أموال من وفى بعهده من اليهود، ولم يعتد على ممتلكاتهم، ولم يهضم حقوقهم، حتى إنّه رهن درعه ﷺ في ثلاثين صاعًا من شعير عند يهودي، وكان يشتري ﷺ وأصحابه من اليهود ويبايعونهم بكل عدل وإحسان رُغم سيطرة المسلمين الكاملة على المدينة؛ لأنّه ﷺ بُعث بالعدل والإحسان، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ} [النحل: الآية 90].

ومن أعظم صور إحسانه ﷺ إحسانه للكافر الذي مات مُشركًا وكان له يد عند النّبي فكافأه ﷺ وأحسن إليه حتى بعد موته، وهو المطعم بن عدي فإنّه أجار النّبي ﷺ حين عاد من الطائف وأدخله مكة، فلمّا وقعت غزوة بدر وأَسر المسلمون من المشركين سبعين، وأشار بعض الصّحابة بقتلهم فقال ﷺ: «**لو كانَ المُطْعِمُ بنُ عَدِيٍّ حَيًّا، ثُمَّ كَلَّمَنِي في هَؤُلَاءِ، لَتَرَكْتُهُمْ له**» [رواه البخاري].

ثم أطلقهم عليه الصّلاة والسّلام وعفا عنهم، فانظر إلى حفظه للجميل وإحسانه ﷺ لمن أسدى إليه معروفًا ولو كان مُشركًا.

وأحسن ﷺ إلى الوالدين، وجاء بشريعة البرّ والإحسان التي قرنت حقّ الوالدين بحقّ الله، قال تعالى: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً} [الإسراء: الآية 23].

فكان يدعو ﷺ إلى الإحسان للوالدين، وطاعتهما في غير معصية لله، والدُّعاء لهما، وإكرام صديقهما، وأوجب برهما وشُكرهما؛ لأنّ الله قرن حقّ عبادته وتوحيده وشكره، بحقّ الوالدين، فقال تعالى: {أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ} [لقمان: الآية 14]، وقال تعالى: {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً} [الأنعام: الآية 151].

وقدّم ﷺ الإحسان إلى الوالدين على الجهاد، فلما سأله رجل يريد أن يُجاهد، قال له: «**هلْ مِن وَالِدَيْكَ أَحَدٌ حَيٌّ؟** قالَ: **نَعَمْ، بَلْ كِلَاهُمَا**، قالَ: **فَتَبْتَغِي الأجْرَ مِنَ اللهِ؟** قالَ: **نَعَمْ**، قالَ: **فَارْجِعْ إلى**

وَالِدَيْكَ فأحْسِنْ صُحْبَتَهمُ» [رواه مسلم، والبخاري بمعناه].

وعن عبدالله بن مسعود (رضي الله عنه) قال: «**سَأَلْتُ رَسولَ الله ﷺ أيُّ العَمَلِ أفضَلُ؟**، قال: «**الصَّلاةُ لِوقْتِها**، قالَ: قُلتُ: **ثُمَّ أيٌّ؟**، قالَ: **برُّ الوالِدَيْنِ**، قالَ: قُلتُ: **ثُمَّ أيٌّ؟**، قال: **الجِهادُ في سَبيلِ الله**» [مُتفق عليه].

وجعل ﷺ الأمّ في المحل الأوّل من البرّ والإحسان، فقد جاء رجل يسأله عن أحقّ النّاس بحسن صُحبته، فقال ﷺ: « **أُمُّكَ** قالَ الرجل: **ثُمَّ مَنْ؟** قالَ: **ثُمَّ أُمُّكَ** قالَ: **ثُمَّ مَنْ؟** قالَ: **ثُمَّ أُمُّكَ** قالَ: **ثُمَّ مَنْ؟** قالَ: **ثُمَّ أَبُوكَ**» [مُتفق عليه].

حتى لو كانت الأمّ مُشركة فإنّه ﷺ أمر ببرّها وصلتها والإحسان إليها، فعن أسماء بنت أبي بكر (رضي الله عنها) أنّها جاءت إلى رسول الله تستفتيه في أنْ تصل أمّها وهي مُشركة، فأجابها: «**نعم، صِلِي أمّكِ**» [مُتفق عليه].

فأيّ إحسان فوق هذا الإحسان؟! وأي برٍّ يفوق هذا البرّ؟! حتى في مُخالفة الأمّ لابنتها في المُعتقد يُوصي ﷺ ببرّها، وصلتها، وإكرامها، والإحسان إليها، امتثالًا لقول الباري سبحانه: {وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا} [لقمان: الآية 15].

ومنح ﷺ إحسانه للفقراء والمساكين والأيتام عملًا بقول الله عزّ وجل في مُحكم التّنزيل: {وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ} [النساء: الآية 36]، وقوله تعالى: {فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلاَ تَنْهَرْ} [الضحى: الآية 9- 10].

فكان ﷺ من ألطف النّاس بهم، فقد أحسن إلى أبناء جعفر بن أبي طالب بعد وفاة أبيهم، وأحسن إلى أيتام كانوا في حجره، وأتى بشـرع مُنزّل كلّه إحسان للفقراء والأيتام والمساكين إلى يوم الدّين، وسنّ لهم ﷺ سننًا ثابتة وحقوقًا مُحدّدة حفلت بها عشرات الأحاديث النّبويّة التي تحثّ على حفظ أموالهم، وصيانة حقوقهم، والعطف عليهم، والمسح على رؤوسهم، ومدِّ يد العون لهم، ومنها قوله : «**السَّاعِي علَى الأرْمَلَةِ والمِسْكِينِ، كالْمُجاهِدِ في سَبيلِ الله، أوِ القائِمِ اللَّيْلَ الصَّائِمِ النَّهارَ**» [مُتفق عليه].

ولا يوجد قانون عالمي أو نظام أرضي فرض للفقراء والمساكين حقًّا معلومًا لكن في الدّين الذي بُعث به ﷺ، قال تعالى: {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ} [التوبة: الآية 60].

بل إنّه ﷺ جعل الإحسان إلى الأيتام علاجًا ودواءً يذيب قسوة القلب، فعندما جاءه رجل يشكو قَسْوَةَ قَلْبِهِ، قَالَ لَهُ ﷺ: «**إِنْ أَرَدْتَ أَنْ يَلِينَ قَلْبُكَ فَأَطْعِمِ الْمِسْكِينَ، وَامْسَحْ رَأْسَ الْيَتِيمِ**» [رواه أحمد].

وممّا نُزّل عليه ﷺ في كتاب الله العظيم بالوصاية بالمسكين، واليتيم، والأسير، قوله تعالى: {وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا} [الإنسان: الآية 8].

وأحسن ﷺ إلى الجار كما أمره ربّه: {وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ} [النساء: الآية 36].

وفي الصّحيحين يقول ﷺ: «**ما زالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بالجارِ، حتَّى ظَنَنْتُ أنَّه سَيُوَرِّثُهُ**» [مُتفق عليه].

وقال ﷺ: «**مَن كانَ يُؤْمِنُ باللهِ واليَومِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جارَهُ**» [مُتفق عليه].

أي: يُكرم جاره بالإحسان إليه، ومواساته في مصائبه، وعيادته في مرضه، ومُشاركته أفراحه، وستر عوراته، واحترام خصوصياته، والتبسّم في وجهه، وتحمّل ما يصدر منه، وتقديم العون له.

وحذّر ﷺ من يُسيء إلى جاره فقال: «**لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَن لا يَأْمَنُ جارُهُ بَوائِقَهُ**» [رواه مسلم].

وكان يُوصي ﷺ أبا ذر (رضي الله عنه) ويقول له: «**يا أبا ذَرٍّ إذا طَبَخْتَ مَرَقَةً فأكْثِرْ ماءَها، وتَعاهَدْ جِيرانَكَ**» [رواه مسلم].

وأوصى ﷺ النّساء بالإحسان إلى جاراتهنّ فقال: «**يا نساء المسلمات، لا تَحْقِرَنَّ جارةٌ لجارتها ولو فِرْسِنَ شاةٍ**» [مُتفق عليه].

أي لا تحتقر شيئًا من هدية جارتها ولو كانت بسيطة أو قليلة نفع.

وسألت أمّ المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) رسول الله ﷺ فقالت: «**إنَّ لي جَارَيْنِ، فَإِلَى أيِّهِما أُهْدِي؟** قَالَ: **إلى أقْرِبِهِما مِنْكِ بَابًا**» [رواه البخاري].

بل إنّه ﷺ جعل الإحسان إلى الجار، وشهادة الجار في جاره هي الميزان والمقياس لدرجة إحسان الفرد أو إساءته، ففي حديث رواه الإمام أحمد أنّ رجلًا قال لرسولِ الله ﷺ: «**كيفَ لي أن أعلمَ إذا أحسنتُ وإذا أسأتُ؟** فقال النبيُّ ﷺ: **إذا سمعت جيرانَك يقولونَ: قد أحسنتَ فقد أحسنتَ، وإذا سمعتَهم يقولونَ: قد أسأتَ فقد أسأتَ**».

ومن أجلّ صور إحسانه ﷺ إحسانُه إلى كل من أساء إليه بقول أو بفعل، عملًا بقول اللّطيف الخبير: {وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ} [فصلت: الآية 34].

فكان ﷺ يُقابل بإحسانه كل إساءة، يقابل الجافي القاسي باللّين والرّفق، والعبوس المُتجهّم بالبسمة والبشاشة، والقاطع بالبرّ والصّلة، والذين سبّوه وشتموه أحسن إليهم فصاروا أصحابه المُقربين، والذين أخرجوه من وطنه أحسن إليهم فولّاهم الولايات، وصاروا أمراءه على الأقاليم، والذين قابلوه بالقطيعة والحرمان قابلهم بالبرّ، وتألّفهم بالإحسان، فصاروا كُتّابه وأنصاره حتى توفّاهم الله.

وأحسن ﷺ إلى البشريّة جمعاء فدعا إلى الإخاء الإنسانيّ، والتّكافل الاجتماعيّ، وحفظ النّوع البشريّ، ومُحاربة العُنصريّة والعصبيّة الجاهليّة، وتحريم سفك الدّماء، وإزهاق الأرواح، وسلب الحقوق، وأكل الأموال بالباطل، وانتهاك الأعراض، وسنّ قواعد للعالم في مسألة التّعايش السّلمي، والتّعارف الإنساني، والتّسامح بين بني آدم عملًا ربّه: {يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [الحجرات: الآية 13].

ومن إحسانه ﷺ إلى النّفس البشريّة أيًا كانت هذه النفس؛ مسلمة أو غير مسلمة، ما جاء عنه ﷺ في «الصّحيحين»: أنّه مَرَّتْ به جِنَازَةٌ فَقَامَ، فقِيلَ له: «**إنَّـهَا جِنَـازَةُ يَهُودِيٍّ**، فَقالَ: **أَلَيسَتْ نَفْسًا؟!**»، إنّها إنسانيته الكريمة التي تفيض إحسانًا وبرًّا على العالم، وجعل ﷺ للشّيخ الكبير إحسانًا

وحقًا يُناسب شيخوخته، فعن أَبي موسى (رضي الله عنه) قَالَ: قالَ رسولُ اللَّهَ ﷺ: «**إنَّ مِنْ إجْلالِ الله تَعَالَى: إكْرَامَ ذِي الشَّيْبةِ**» [رواه أبو داود].

وللطفل إحسان ورعاية وحنان، وللبنات الضّعيفات المسكينات حقّ الولاية الحسنة، تقول عائشة أمّ المؤمنين (رضي الله عنها) : «جَاءَتْنِي امْرَأَةٌ معهَا ابْنَتَانِ تَسْأَلُنِي، فَلَمْ تَجِدْ عِندِي غيرَ تَمْرَةٍ واحِدَةٍ، فأعْطَيْتُهَا فَقَسَمَتْهَا بيْنَ ابْنَتَيْهَا، ثُمَّ قَامَتْ فَخَرَجَتْ، فَدَخَلَ النبيُّ ﷺ فَحَدَّثْتُهُ، فَقَالَ: **مَنِ ابْتُلِيَ مِنَ البَنَاتِ بشيءٍ، فأحْسَنَ إلَيْهِنَّ كُنَّ له سِتْرًا مِنَ النَّارِ**» [مُتفق عليه].

وأحسن ﷺ إلى الطّبيعة فجعل للطّريق حقًا، وأمر بإماطة الأذى عنه بل جعل ذلك شُعبة من شُعب الإيمان، وقال: «**لَقَدْ رَأَيْتُ رَجُلًا يَتَقَلَّبُ فِي الجنَّةِ فِي شَجَرَةٍ قَطَعَهَا مِنْ ظَهْرِ الطَّرِيقِ كَانَتْ تُؤْذِي النَّاسَ**» [رواه مسلم].

وجعل لموارد الماء قواعد، منها قوله ﷺ: «**لَا يَغْتَسِلْ أَحَدُكُمْ فِي المَاءِ الدَّائِمِ وَهُوَ جُنُبٌ**». فَقيلَ لأبي هريرة: «**كيفَ يَفْعَلُ؟ قالَ: يَتَنَاوَلُهُ تَنَاوُلًا**». [رواه مسلم].

وقال ﷺ: «**لا يَبُولَنَّ أحَدُكُمْ في الماءِ الدّائِمِ** - الذي لا يَجْرِي -، **ثُمَّ يَغْتَسِلُ فِيهِ**» [مُتفق عليه].

وحثّ ﷺ على المحافظة على الماء وعدم الإسراف فيه كما قال تعالى: {وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ} [الأعراف: الآية 31].

وكذلك جعل للمنافع العامة حدودًا من الحُرمة ليستفيد منها جميع النّاس، ونهى عن إتلاف المحترمات، وإفساد المرافق العامّة، وإهلاك الحرث والنّسل.

وأرسى ﷺ قاعدة عامّة في البرّ والإحسان إلى الطّير والحيوان، بل لكل ذي كبد رطبة، فقال: «**في كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أجْرٌ**» [مُتفق عليه].

حتى في «الهرّة والكلب»، فأخبر ﷺ أنه دخلت امرأة النار في هرّة، ودخل رجل الجنة في كلب.

ويقول ﷺ: «**ما مِن مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا، أَوْ يَزْرَعُ زَرْعًا، فَيَأْكُلُ منه طَيْرٌ أَوْ إنْسَانٌ أَوْ بَهِيمَةٌ؛ إلَّا كانَ له به صَدَقَةٌ**» [مُتفق عليه].

ويقول ﷺ: «**مَن قتَل عصفورًا عبَثًا عجَّ إلى الله يومَ القيامةِ يقولُ: يا ربِّ! إنَّ فلانًا قتَلني عبَثًا، ولم يقتُلْني منفعةً**» [رواه ابن حبان].

وحثّ ﷺ على الإحسان إلى الحيوان بإطعامه والاهتمام به، وعدم تكليفه ما يفوق طاقته، حتى عند ذبحه أمر بالإحسان إليه وإراحته فقال: «**إِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، وَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ**» [رواه مسلم].

وعن أبي الزّبير قال: سَمِعْتُ جَابِرَ بنَ عبدِالله، سُئِلَ عن رُكُوبِ الهَدْيِ، فَقالَ: سَمِعْتُ النبيَّ ﷺ يقولُ: «**ارْكَبْهَا بالمَعروفِ، إذَا أُلْجِتَ إلَيْهَا حتَّى تَجِدَ ظَهْرًا** «أي: مركبًا». [رواه مسلم].

فلله هذا الدّين من دين ما أجمله! ومن شريعة ما أتمّها! ومن رسول ما أبرّه وأحسنه! بإيجاز إنّه جاء بالإحسان للأرض، ومَن على الأرض، بأبي هو وأمي ﷺ:

لقد حَسنتْ بك الأيامُ حتّى	كأنّ لباسَها في ثوبِ عيدِ
وطابتْ في معاليكَ اللّيالي	فصارَ الدّهر في فرحٍ سعيدِ

كلّ المُحسنين عبر التّاريخ كان إحسانهم محدودًا في المكان والزّمان وفي النّاس إلّا هو ﷺ، فكان إحسانه عامًّا شاملًا في الزّمان والمكان والبشر، فما من مُسلمٍ أو مُسلمة إلى يوم الدّين إلّا وصله إحسانه ﷺ في أيّ زمان ومكان.

وكلّ المُحسنين عبر أطوار الزّمن أحسنوا إمّا بعلمهم أو جاههم أو مالهم أو طعامهم إلّا هو ﷺ فإنّه جمع الإحسان بكل صوره، بطيب الكلام، وإفشاء السّلام، وإطعام الطّعام، ونشر الهُدى، وتعليم العلم، والإصلاح بين النّاس، والبرّ والصّلة والقُربى.

وهنا أطرح بين يديك سؤالًا أيّها القارئ الكريم: من هو المُحسن المُتفضّل عبر التّاريخ الذي وصل إحسانه إلى أرواحنا، وعقولنا، وأبداننا، إلّا محمّد ﷺ؟!

لم يصل إلينا إحسان مخلوق كائنًا من كان أعظم من إحسانه ﷺ، فبنبوّته وبرسالته قدّم لنا أعظم معروف وأجلّ عطية.

أحسن إلينا بأن علّمنا من الجهالة، وهدانا بإذن الله من الضّلالة.

أحسن إلينا بأن أخرجنا بإذن الله من الظّلمات إلى النّور، وأرشدنا إلى الصّراط المستقيم.

أحسن إلى عقولنا: بالعلم النّافع، والرّأي السّديد، والإرشاد الرّباني.

وأحسن إلى أرواحنا: بالعبادة والطّمأنينة والسّكينة واليقين.

وأحسن إلى أبداننا: بالطّهارة والنّظافة وحُسن الزّي وجمال السّمت.

نشهد أنّه قد أحسن إلينا ﷺ إحسانًا لم يسبقه أحد من قبل، ولن يلحقه أحد من بعد، وأنّ إحسان آبائنا، وأمهاتنا، وأبنائنا، وعلمائنا، وأصدقائنا إلينا، لا يبلغ عُشر معشار ما قدّمه ﷺ لنا من إحسان، فجزاه الله خير ما جزى نبيًّا عن أُمّته:

قالُوا الهَوى والحبُّ هلْ تصبُو له؟

أم أنتَ في درب الهَوى متجلّدُ؟

قلتُ المحبّة للذي نشرَ الهُدى

فحبيبُ قلبِي فِي الحياةِ محمّدُ

اشققْ فُؤادي تلقَ فيه معاهدًا

مكتوبةً وعَلَى الصّحيفةِ أحْمُدُ

صلّى عليك الله ما برقٌ سَرَى

أو مَاسَ روضٌ أو ترنّم هُدهدُ



مُحَمَّدٌ ﷺ سَعِيْدًا

أسعدُ البشر على الإطلاق، وأشرحهم صدرًا، وأطيبهم حياة؛ هو رسول الهدى ﷺ. ولمّا ألّفتُ كتابي: **(لا تحزن)** كانت أصوله من الكتاب والسُّنة التي بُعث بها رسولنا ﷺ.

وقد أجمع العُقلاء والعُلماء أنّ للسّعادة أسبابًا مَن عَمل بها نالَ راحة البال، واطمئنان النّفس، وطيب العيش، وفاز بالسّلامة والعافية، وكل هذه الأسباب اجتمعت في رسول الله محمد بن عبدالله ﷺ.

وأوّل أسباب سعادته ﷺ الإيمان بالله وعبوديته سُبحانه، والاستسلام لأمره، والانقياد لشرعه، وكلّها أتى بها ﷺ وحقّقها في حياته، ودعا إليها، ففاز بأعلى درجات الإيمان، وأرفع مراتب الإحسان، كما قال عليه الصّلاة والسّلام: «**الإحْسانُ: أنْ تَعْبُدَ الله كَأنَّكَ تَراهُ، فإنْ لَمْ تَكُنْ تَراهُ فإنَّه يَراكَ**» [مُتفق عليه].

فكان له ﷺ من الحياة الطيّبة النّصيب الأوفر والأجر الأعظم كما قال تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [النحل: الآية 97]، فراحة الرّوح السّفر في فضاء التّوحيد، وكلّما عظم اليقين، وصفت النّفس من أوضار الطّين؛ أشرقت وابتهجت بنور الله، وتمّت لها السّعادة والسّرور، والنّور والحبور.

ومن أسباب سعادته ﷺ إيمانه بالقضاء والقدر، وقد جعله ﷺ الرّكن السّادس من أركان الإيمان، فقال: «**الإيمان: أنْ تُؤْمِنَ بالله، ومَلائِكَتِهِ، وكُتُبِهِ، ورُسُلِهِ، والْيَومِ الآخِرِ، وتُؤْمِنَ بالقَدَرِ خَيْرِه وشَرِّهِ**» [رواه مسلم].

وقال ﷺ: «**اسْتَعِنْ بالله وَلا تَعْجَزْ، وإنْ أَصابَكَ شيءٌ فلا تَقُلْ: لو أنِّي فَعَلْتُ كانَ كَذا وَكَذا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ الله وَما شاءَ فَعَلَ**» [رواه مسلم].

فعاش ﷺ راضيًا بما كتب الله عملًا بقول الباري: {قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا} [التوبة: الآية 51].

رضي ﷺ باختيار الله له في كل أمر من سراء وضراء، وشدّة ورخاء، وغنى وفقر، وصحة وسقم، وكان يقول ﷺ: «**عَجَبًا لأَمْرِ المُؤْمِنِ، إنَّ أمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وليسَ ذاكَ لأَحَدٍ إلّا لِلْمُؤْمِنِ، إن أصابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكانَ خَيْرًا له، وإنْ أصابَتْهُ ضَرّاءُ صَبَرَ فَكانَ خَيْرًا له**» [رواه مسلم].

فهو مع الله، وبالله، وعلى الله، وإلى الله، ومع اختيار الله ممتثلًا أمره سبحانه: {وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ} [البقرة: الآية 216].

فمن أراد السّرور فليرضَ بالمقدور، ومن تقلّب مع القدر أمِن من الكدر، ومن رضي بقضاء الله أرضاه، وأزاح عن قلبه كل همٍ أضناه، فادخلْ جنّة الرّضا تسلَمْ وتسعَدْ.

وعاش ﷺ سعيدًا لأنّه قنع بما أعطاه الله، ورضي بما قسم له، ويقول ﷺ: «**ارضَ بما قسمَ الله لَكَ تَكن أغنى النّاسِ**» [رواه التّرمذي].

فكان ﷺ لا يطمع إلى زخرف الدّنيا وملاذها، ولا يُرسل نفسه وراء رغباتها وشهواتها، بل يكتفي بالقليل، ويرضى بالموجود، ولهذا تجد أهل القناعة أهل حياة طيّبة وسعادة، وأمن وسكينة، يقول عليه الصّلاة والسّلام: «**قَدْ أَفْلَحَ مَن أَسْلَمَ، وَرُزِقَ كَفافًا، وَقَنَّعَهُ الله بما آتاهُ**» [رواه مسلم].

ويقول ﷺ: «**مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ، مُعَافًى فِي جَسَدِهِ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا**»[رواه الترمذي].

وعاش ﷺ سعيدًا لأنّه توكّل على ربّه، واعتمد على خالقه، وفوّض أمره إلى مولاه جلّ في عُلاه، عملًا بقوله تعالى: {وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} [التوبة: الآية 51]، وقوله تعالى: {يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [الأنفال: الآية 64] أي كافيك، وقوله تعالى: {أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ

عَبْدَهُ} [الزمر: الآية 36]، فكان ﷺ يكل الأمور إلى الله مع فعل الأسباب، فأدركته كفاية الله، ورعاية الله، وحماية الله.

وعاش ﷺ سعيدًا بصلاته الخاشعة المُطمئنة التي كانت مدده في حياته، وزاده في مسيرته، وطاقته في رحلته إلى مرضاة ربّه، فكلما تزاحمت عليه الأهوال، وترادفت عليه الأعمال الثّقال، قال ﷺ: «**يا بلالُ، أقِمِ الصَّلاةَ، أرِحْنا بها**» [رواه أبو داود]، وكان يقول ﷺ: «**وجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيني في الصَّلاةِ**» [رواه أحمد].

فكانت الصّلاة عزاءه وسلوته، وراحته وسكينته، وأمنه وسرّ سعادته، فالصّلاة جنة الخلود، في عالم الوجود، وهي بارقة الأمل، وومضة الإلهام، ومفتاح السّعادة، ووثيقة التّفاؤل، وديوان الأمن والأمان.

وعاش ﷺ سعيدًا بصبره العظيم الذي هوّن عليه كل صعب، وقرّب إليه كل بعيد، كما قال له ربّه: {وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ} [النحل: الآية 127]، وكان يرى ﷺ أنّ الصّبر أعظم هديّة إلهية، وأجلّ عطيّة ربّانيّة، يقول: «**ما أُعْطِيَ أَحَدٌ مِن عَطاءٍ خَيْرًا وَأَوْسَعُ مِن الصَّبْرِ**» [مُتفق عليه].

فهو ﷺ صاحب الصّبر الجميل الذي لا شكوى فيه، وصاحب الهجر الجميل الذي لا أذى فيه، وصاحب الصّفح الجميل الذي لا عتاب فيه.

وعاش سعيدًا ﷺ بتذكره لنعم ربّه، وشكره عليها، وتحدّثه بها، ولهجه بحمد الله دائمًا وأبدًا عملًا بقوله تعالى: {فَاذْكُرُوا آلاَءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [الأعراف: الآية 69]، وقوله تعالى: {وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ} [آل عمران: الآية 145]، وقوله جلّ اسمه: {وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ} [النمل: الآية 40].

وكان يقول عليه الصّلاة والسّلام: «**الحَمدُ للهِ الَّذي بنِعمتِه تَتمُّ الصّالحاتُ**» [رواه ابن ماجه]. فهو ينوّع ﷺ الحمد والشّكر بأذكار وأدعية تملأ القلب رضًا، وسكينة، وطمأنينة، ففكّرْ واشكرْ، واحسب قائمة النّعم وتذكّر، واجعل الشّكر عادة، وتقرّب به إلى ربّك عبادة، فإنّه طريق الزّيادة، فقدوتك إمام الشّاكرين، وأسوتك خير الذّاكرين ﷺ.

وعاش ﷺ سعيدًا؛ لأنّه لم يقف على أطلال الماضي باكيًا متأسفًا يكتوي بمآسيه، ويتحسّر على مواجعه، بل انطلق على بركة الله يبني يومه، ويُعمّر حاضره، ويستعد لمُستقبله، عملًا بقول الباري تقدّس اسمه: {تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [البقرة: الآية 134]، وقوله تعالى: {عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ} [المائدة: الآية 95].

فليس في سجلّه ﷺ ترداد الأحزان على ما سلف وكان، بل إعمار الوقت، واستثمار اللّحظة الرّاهنة، والعيش في السّاعة الحاصلة.

وعاش ﷺ سعيدًا لأنّه عاش في حدود يومه، فملأه برًّا وإحسانًا وطاعةً ومعروفًا، وكان يقول: «**كُنْ في الدُّنْيا كَأنَّكَ غَرِيبٌ أوْ عابِرُ سَبِيل**» [رواه البخاري].

فهو يعيش ﷺ حاضره، وينجز أعمال يومه، فهو كالمسافر الحازم اليقظ النّبيه الذي أخذ عدّته، واستعد لرحلته، فليس رهينًا للماضي بمآسيه، ولا مُعطّلًا نشاطه وعمله ينتظر المُستقبل وما يحصل فيه، بل اليوم النّازل الحاضر البهيج بإنجازاته، الجميل بهيئاته وإبداعاته، «يومَك، يومَك»! أروع كلمة في سجل السّعادة، وأجمل جُملة في ديوان الحياة.

وعاش ﷺ سعيدًا؛ لأنّه لم يستسلم لنقد الآثمين، ولم ينصت لشتم الناقمين، بل أعرض عنهم، ولم يلتفت لهم، عملًا بقول الباري سُبحانه: {وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً} [المزمل: الآية 10]، وقوله تعالى: {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ} [الحجر: الآية 97- 98].

ولمّا بلّغه ابن مسعود (رضي الله عنه) كلامًا فيه نقد من بعض أهل الغواية قال ﷺ: «**رَحِمَ الله مُوسى، لقَدْ أُوذِيَ بأَكْثَرَ مِن هذا فَصَبَرَ**» [مُتفق عليه].

فكان ﷺ يعفو ويصفح، ولم يتشاغل بسخرية ساخر، ولا بلوم فاجر؛ لأنّ وقته ﷺ أثمن من أن يُصرف في الرّد على التّافهين، وأغلى من أن يذهب في مخاصمة العابثين.

وعاش ﷺ سعيدًا؛ لأنّه قصد وجه الله بعمله، وأخلص لمولاه سعيه، فلم ينتظر شكرًا من أحد، كما قال تعالى: {إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لاَ نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُورًا} [الإنسان: الآية 9].

ولهذا عاش ﷺ مُطمئن القلب، مُنشرح الصّدر، شكر معروفه من شكر، وكفره من كفر، فهو يطلب الثّواب من العزيز الوهّاب، بخلاف من يعمل من أجل النّاس وينتظر شكرهم ومكافأتهم، فإنّه يبقى ممزّق القلب، مُتحسّرًا لكثرة جحودهم، ونكرانهم الجميل، ونسيانهم المعروف، فمن راقب النّاس مات همًّا، ومن قصدهم بعمله امتلأ غمًا، ومن عرف النّاس استراح، فإنّهم لا ينفعون ولا يضرّون، ولا يرفعون ولا يضعون، ولا يُحيُون ولا يُمِيتون، ولا يعزّون ولا يذّلون، كما قال تعالى: {أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ} [النحل: الآية 21].

وعاش ﷺ سعيدًا؛ لأنّه أحسن للنّاس بكل أنواع الإحسان، بالهداية والعلم والجاه، والطّعام والمال، والخُلُق الحسن، فعوّضه ربّه انشراحًا في الصّدر، وراحة في البال جزاءً وفاقًا؛ لأنّ الجزاء من جنس العمل، فمن أراد سعادة الرّوح، وراحة البال، والأمن والاطمئنان، فليُحسن إلى عباد الله بكل أنواع الإحسان.

وعاش ﷺ سعيدًا؛ لأنّه صاحب رسالة وعمل، واجتهاد وتضحية، ليس في حياته فراغ، فهو دائم النّشاط في سبيل الخيرات وأنواع الطّاعات، وهذا من أعظم أسباب سعادته ﷺ، فإنّ العمل المُثمر الجاد النّافع، دواء ناجع، وعلاج نافع، لكل همّ وحزن، بخلاف الفراغ، فإنّه طريق الكدر والغموم والأوهام.

وعاش ﷺ سعيدًا؛ لأنّه قويّ القلب، شجاع النّفس، لا يقلق من المزعجات، ولا يخاف من الأهوال، بخلاف الجبان الرّعديد، الذي يرعبه الوعيد، ويرهبه التّهديد، كما قال الله تعالى عن المنافقين: {يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ} [المنافقون: الآية 4]، فالشّجاع مُنشرح الصدر، هادئ النّفس، ينام قرير العين، فكيف برسولنا ﷺ أشجع الشّجعان، وإمام الأبطال؟! ولهذا كان يدعو ﷺ ربّه فيقول: «**اللهمّ إنّي أعُوذُ بكَ مِنَ البُخْلِ، وأَعُوذُ بكَ مِنَ الجُبْنِ**» [رواه البخاري ومسلم].

فاثبت أُحُد! ولا تخف إلّا من الواحد الأحد.

وعاش سعيدًا ﷺ؛ لأنّه أحسن ظنّه بربّه، فمن ظنّ بالله الخير، وأنّه جواد كريم، رحمان رحيم، وأنّه سوف يرزقه وينصره ويتولاه، ويحفظه ويرعاه، أعطاه الله ما تمنى، وفوق أمنيته كرمًا وجودًا وفضلًا وإحسانًا، قال تعالى - كما في الحديث الصّحيح-: «**أنا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بي**» [مُتفق عليه].

وبالمقابل من ظنّ بالله السّوء، فعليه دائرة السّوء، كما قال الله عن أعدائه: {الظَّآنِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ} [الفتح: الآية 6].

فرسولنا ﷺ أحسن الناس ظنًا بربّه، وأعرفهم بكرمه وفضله وبرّه سُبحانه؛ ولهذا وقع له ما ظنّ، وحقّق الله له ما أراد، فظُنّ بالجليلِ الجميلَ، وانتظر من الكريم العطاء الجزيل.

وعاش ﷺ سعيدًا؛ لأنّه كان ينتظر دائمًا اليسر بعد العسر، والفرج بعد الكرب، ويقول ﷺ: «**واعلَمْ أنَّ في الصَّبرِ على ما تَكرَهُ خَيرًا كَثيرًا، وأنَّ النَّصرَ مع الصَّبرِ، وأنَّ الفَرَجَ مع الكَرْبِ، وأنَّ مع العُسرِ يُسرًا**» [رواه الترمذي].

فهو ﷺ أوثق النّاس صلة بقول الباري سبحانه: {فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا} [الشرح: الآية 5- 6].

وكان ﷺ يُبشّر أصحابه بالنّصر والتّمكين، والفتح والتّيسير، فحياته بُشرى في بُشرى، بهذه النّفس الجميلة يسكب السّعادة في قلوب أصحابه وأتباعه إلى يوم الدّين؛ لأنّه المُتفائل الذي ينظر إلى العاقبة الحميدة، والغد المشرق نظر من يرى الغيب من ستر رقيق، فاللّيل الغاسق يعقبه فجرٌ صادق.

وعاش ﷺ سعيدًا ؛ لأنّه اجتنب كافة أنواع الغضب، إلّا الغضب الشّرعي عندما تُنتهك محارم الله، أو يُعصى الله جلّ في علاه، أمّا غالب أوقاته ﷺ فسرور وانشراح صدر، باسم الثّغر، مُشرق الطّلعة، سمح الخُلُق، طيّب العشرة.

وكان ﷺ يُحذّر من الغضب، كما جاء في «صحيح البخاري»: «**أنَّ رَجُلًا قالَ للنّبيِّ ﷺ: أوْصِنِي**، قالَ: **لا تَغْضَبْ فَرَدَّدَ مِرارًا**، قالَ: **لا تَغْضَبْ**».

لأنّ الغضب يُضيّق الصّدر، ويُعذّب الرّوح، ويُدمّر السّعادة، ويُفسد المزاج، ويُذهب الاستقرار النّفسي، ويُعكّر صفو الحياة، ويمزّق العلاقات الأسريّة والاجتماعية، ويهدم جسور التّواصل والتّراحم، ويقضي على المودّة والمحبّة.

ومن أعظم أسباب سعادته ﷺ ما أفاض الله عليه من العلم النّافع، وهو الوحي المُقدّس كتابًا وسُنَّة.

فإنّ العلم المُبارك يشرح صدر حامله حتى يكون أوسع من الأفق، ويوسّع نظرته للنّاس والحياة، ويملأ قلبه رضًا وأمنًا ويقينًا وسكينة، فكيف بسيّد ولد آدم عليه الصّلاة والسّلام، الذي نهل من علمه علماء الأمّة؟! وكل علم نافع تعلّموه هو ذرة من علمه ﷺ، وقطرة من بحر معرفته.

فمن أراد سعة البال، وراحة الخاطر، وسعادة الرّوح؛ فليطلب العلم النّافع من ميراثه المبارك ﷺ؛ ولهذا أمر الله نبيّه ﷺ بطلب الزّيادة من العلم فقال تعالى: {وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا} [طه: الآية 114].

وعاش ﷺ سعيدًا ؛ لأنّه كان دائم الاستغفار، كثير اللّجأ إلى الله، مع الاستغاثة بربّه وخالقه، والاستعانة والاستعاذة به من كلّ شرٍ وسوء، فكان ﷺ يفزع إلى ربّه في المُلمات، ويستغيث به في الكُربات. تُسافر روحه الطّاهرة في فضاء التّوحيد، وترحل في عالم المُناجاة لملك الملوك، وهو ﷺ الذي علّمنا كلمات الأمن والفَرَج والغوث، مثل: «**حسبنا الله ونعم الوكيل**»، و«**لا حول ولا قوة إلّا بالله**»، و«**لا إله إلّا أنت سبحانك إنّي كنت من الظّالمين**»، و«**أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلّا هو الحيّ القيوم وأتوب إليه**»، وغيرها من الأدعية النّبوية، والأدوية الرّبانية، فلا تجده ﷺ إلّا مُستغيثًا مُستعينًا مُستعيذًا بربّه، وهو ﷺ الأوّاه المُنيب، الذي يدعو السّميع المجيب، يُناجيه ويناديه، ويهتف باسمه المبارك المُقدّس في كل شأن من شؤونه.

ومن أهم أسباب سعادته ﷺ أنسه بالقرآن، فعاش معه وتلاه آناء الليل وأطراف النّهار؛ لأنّ القرآن رفيقه وجليسه وأنيسه، وهو الكتاب المبارك الذي سعد به ﷺ تلاوةً وتدبرًا وعملًا واستشفاءً، وهو الذي أتى به من عند ربّه.

ومنْ يُصاحب القرآن بإعزاز واحتفاء وتقدير وتكريم يُفِض اللهُ عليه من الفتوحات ما لا يخطر بالبال، ولا يدور في الخيال، ومن أعظمها انشراح الصّدر، وطمأنينة القلب، وذهاب الهموم والغموم والأحزان، ولرسولنا ﷺ الحظّ العظيم والنّصيب الأعلى، بل هو الأوّل في ذلك ﷺ.

ومن أعظم أسباب سعادته عليه الصّلاة والسّلام: أن الله طهّر قلبه من الحقد والحسد والبغضاء والشّحناء، وجعله سليمًا زكيًّا قد فاض برّه على النّاس، ووصل عفوه وكرمه وإحسانه إلى القريب والبعيد، فهو صاحب القلب الطيّب النيّر الصّافي، الطّاهر النّقي، فقد جاء في «صحيح مُسلم»: أنّه لما شُقّ صدره ﷺ أُزيلت من قلبه عَلَقة، ثم غُسل بماء زمزم، ومُلئ حكمةً وإيمانًا، فذهب

كل مرض خُلقي من قلبه الطّاهر الزكيّ ﷺ؛ لأنّ هذه الأدواء من الكبر والعجب والحسد والحقد والبغضاء إذا تمكّنت من القلب أتلفته، وأذهبت صفوه ونوره وسكينته وسعادته، والمُعافى من عافاه اللهُ، كما قال تعالى: {وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ} [الحجر: الآية 47].

وعاش ﷺ سعيدًا ؛ لأنّ الله عصمه من المعاصي، وصانه من الذّنوب والخطايا، وهي أكبر ما يُكدّر النّفس، ويُزعج الرّوح، وبسببها يُظلم القلب، ويضيق الصّدر، ولكن رسولنا ﷺ وهو الطّاهر المطهّر المحفوظ بالعناية الربّانيّة من العصيان، المعصوم بالرّعاية الإلهية من مخالفة الواحد الديّان، فكل حياته طاعة، وكل أوقاته عبادة، فأنفاسه طهر وزكاء، وألفاظه وألحاظه عفاف وصفاء، فمن أراد الحياة الطّيبة الرّضيّة فليُقلعْ عن المعاصي، ويهجرِ الذنوب والخطايا، وليجددِ التّوبة دائمًا، ويُكثرْ من الاستغفار.

ومن أعظم أسباب سعادته عليه الصّلاة والسّلام سرعة تعافيه من الصّدمات، وقوّة نهوضه من الأزمات، فهو ﷺ قوي الإرادة، عظيم الهمّة، ثابت الجأش، قوي الإصرار، ماضي العزيمة، لا يعترف بالهزيمة، ولا بالانكسار، بل يواصل المسيرة في صبر واستمرار.

لمّا أُخرج من مكة لم يذهب متأسفًا ينزوي في غرفة، أو يتباكى على ما حصل في زاوية، بل ذهب إلى المدينة فبنى مُجتمعًا ربّانيًا، وأقام دولة إسلامية عادلة.

ولما قُوبل بالإساءة والأذى من أهل الطائف، وأدموا عقبيه لم يستكن ولم يضعف ولم يحبط، بل واصل تحدّيه، وازداد قوّة ومضاءً وثباتًا حتى أظهره الله.

ولمّا غُلب جيشه ﷺ في معركة أحد، وقُتل سبعون من أصحابه، وانخذل المنافقون بثلث جيشه، لم تتحطم عزيمته، ولم تفتر همّته، بل قام وجدّد مسيرته، وشجّع أصحابه، واستمرّ في صُنع نجاحه حتى فتح الله له فتحًا مبينًا، ونصره نصرًا عزيزًا، إلى غير ذلك من الكوارث والنّوازل والأهوال التي اجتازها ﷺ بحول الله وقوّته، وصار بعد كُربته وأزمته أجلّ وأغلى وأعز.

ومن أسباب سعادته عليه الصّلاة والسّلام نظامه العظيم، وجدوله الجميل المتناسق في حفظ وقته، فهو يسير على «برنامج» حكيم منظّم مبارك في عمله، حتى إنّ بعض العلماء ألّف فيه كتابًا تحت عنوان: «عمل اليوم واللّيلة» كالنّسائي، وابن السّني، فيومه وليله مملوآن بالطّاعات، ومختلف

الخيرات، وأنواع العبادات، فالصّلوات الخمس محطّات مدد وطاقة في حياته ﷺ، فهي مرتبة مؤقتة، قال تعالى: {إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا} [النساء: الآية 103].

وهذا الأمر من أعظم أسباب سعادته ﷺ، وانشراح صدره، وبهجة خاطره، بخلاف من عاش مُبعثر الجهود، زُممّق الأوقات، فوضوي العمل، مضطرب الأداء، قلق الجهد، مشتت العزيمة. فرسولنا ﷺ كان ينساب في حياته انسياب الهواء العليل في الرّوض البهيج الباسم، وكان يمضي في يومه وليله كما يمضي النّهر العذب الزّلال بين الحدائق والتلال، بلا انقطاع ولا اندفاع.

ومن أسباب سعادته عليه الصّلاة والسّلام تعامله مع القريب والبعيد برؤية المحاسن، وغض الطّرف عن المعايب، فلا تقع عينه إلّا على الجميل، ولا يذكر إلّا الحسن؛ لأنّ روحه الطّاهرة الشّريفة الزّكيّة ﷺ مفطورة على الطّهر والفضل والبرّ والإحسان، بريئة من الكدر وتتبّع الزّلات، واصطياد العثرات، بل سامية مُشرقة بنور الوحي، تُبصر الخير وتُهيب به وتُشجّع عليه، وتُعرض عن الإثم والنّقص والتّقصير. انظر له مثلًا كما في الحديث الصّحيح لما أتوا برجل شرب الخمر، وأقام عليه الحدّ، فسبّه أحدهم أو لعنه، فقال ﷺ: «**لا تَلْعَنُوهُ! فوالله ما عَلِمْتُ إنَّه يُحِبُّ اللهَ ورَسولَهُ**» [رواه البخاري].

فذكر ﷺ الجانب المُشرق الإيجابي وأشاد به.

ولمّا أراد تنبيه عبدالله بن عمر (رضي الله عنه) على قيام الليل قال: «**نِعْمَ الرَّجُلُ عبدُالله لو كانَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ**» [مُتفق عليه]. فمدحه أولًا، ثم نبّهه ثانيًا.

فمن أراد حياة السّلام والأمن والرّاحة والسّكينة فلينظر إلى الحُسن والجمال والفضل، ولْيغضَّ الطّرف عن النّقص والتّقصير، يَسعَدْ ويُسعِدْ من حوله.

وعاش ﷺ سعيدًا لم يأكل إلّا طيبًا، ولم يشرب إلّا طيّبًا عملًا بقول الباري سبحانه: {يَاأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا} [المؤمنون: الآية 51].

فكان ﷺ أبعد النّاس عن المُحرّم والضّار، وكان بعيدًا عن كل ما يؤذي روحه أو جسمه من طعام أو شراب أو أقوال أو أفعال، فكان يجتنب الشّبع إلى حد التّخمة، والجوع المتلف الذي يسلكه أهل الرّهبانية، ويجتنب السّهر المُنهك للجسم، فكان معتدلًا في كلّ أموره، وسطًا في كل شؤونه،

وهو الذي بُعث ﷺ بالرّسالة الوسط. وإنّ مداراة الجسم وإصلاح المزاج والاعتدال في ذلك هو الأوفق والأجمل للحياة الطيّبة، لا حياة أهل البذخ المترفين، ولا حياة أهل الرّهبانيّة والمتصوّفين، فكانت حياته ﷺ تقوم على الوسطيّة والاعتدال، وعبادته على الحُسن والكمال، وزيّه ولباسه ومظهره على الطُّهرِ والطّيب والجمال.

ومن أسباب سعادته ﷺ أنّه كان أبعد النّاس عن العادات السّيئة؛ ككثرة الكلام واللّغو الذي يُذهب الحسنات، وكثرة الضّحك التي تُقسّي القلب، والغفلة عن ذكر الله أو استماع الزّور والإنصات له، أو كل ما يخدش الحياء ويهدم المروءة، فكان ﷺ العفيف النّزيه، الطّاهر الشّريف، يحرص على كل ما يبهج النّفس ويُنعش الرّوح، من رائحة جميلة زكيّة وطُهر ونظافة، فكان ﷺ كاملًا مكمّلًا، طاهرًا مطهّرا، حسنًا محسنًا ﷺ جميل الظّاهر والباطن، والرّوح والبدن، والسّر والعلانيّة، فهو إمام الطيّبين، وقدوة الطّاهرين، إلى يوم الدّين.

طابت بك الأيامُ يا خير الورى

والدّهرُ أصبح في وجودك عيدَا

أورثتنا عزًّا ومجدًا خالدًا

تاريخنا بهداك صار مجيدَا

وسكبت في أرواحنا نور الهُدى

ووعدتنا عند الإله خلودَا

وكشفت عن أبصارنا حُجب الدُّجى

حتى لبسنَا في الحياة جَديدَا





مُحَمَّدٌ ﷺ قَائِدًا

هو أعظم قائد في تاريخ البشرية على مر الدهر، لأنّه النّبيّ المعصوم من عند الله، لا ينطق عن الهوى، ولا يزيغ، ولا يضل، وطاعته واجبة شرعًا، وهي من طاعة الله كما قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ} [النساء: الآية 59]، وقوله سبحانه: {مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ} [النساء: الآية 80].

إنّ قيادته ﷺ تُدرّس أنّها قيادة رسول كريم قد أيّده الله بالحكمة، وحفظه بالعصمة، قائد يُربّي القادة، وإمام يصنع الروّاد.

لقد أسس ﷺ قواعد الدّولة في أُمّة عربية لم يكن لديها علم إقامة الدّول أو صنع الحضارات كفارس والرّوم واليونان والصّين وغيرها. فهداه الله إلى كل ما يُصلح أمر الدّولة من العدل، والشّورى، والمساواة، وتنظيم الجيش، واستعمال السّفراء، والتّدريب، والمُسابقة، والمُبارزة، والمُناضلة، وركوب الخيل، وفنون الفروسية، وتقسيم الغنائم، وفنون الاستطلاع، والسّيطرة، والحراسة، والمناوبة، والحماية، والرّايات، وأحكام الأسرى، والشّهداء، والجوائز، كل ذلك بأحكام مُفصّلة، وحصّن ﷺ جبهة دولته الداخلية، ولبس لكل حالة لبوسها، وأعطى لكل أمر عدّته، ومن حكمة الله أنّه وُجِد في مجتمعه ﷺ كلّ ألوان الطّيف من المؤمنين، والمشركين، والمنافقين، وأهل الكتاب، والبادية والحاضرة، فعاش كل مقامات السّياسة الشّرعية باقتدار؛ ليكون قدوة لكل من أتى بعده.

وكان ﷺ خير أسوة للمؤمنين، يعمل بما يقول، وإذا أمر بأمر أو نهى عن نهي كان الأوّل في ذلك ﷺ، وكان مع أصحابه في الميدان أوّل المُنفّذين للأوامر، فهو في بدر أوّل المُقاتلين ﷺ، يُسوّي

الصّفوف، ويشجّع المُقاتلين، ويُدير المعركة بنفسه.

وثبت في أحد وحنينٍ مع قلة من أصحابه، ولم يتزحزح من أرض المعركة، حتى نادى في حنينٍ: **أنا النّبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب**.

وفي غزوة الأحزاب لمّا أمر بحفر الخندق بدأ ﷺ يحفر معهم، وينقل التّراب على كتفه الشّريف.

وفي بناء المسجد باشر ﷺ العمل بنفسه، وهكذا في كل موقف يكون الأسوة لهم قولًا وعملًا، وكان لا يأمر بأمر إلّا وهو أوّل العاملين، وإمام السّابقين حتّى في المعركة كان في الصّف الأوّل لابسًا بيضته، حاملًا سلاحه، باذلًا نفسه الشّريفة ودمه الطّاهر ﷺ.

وتميّز ﷺ بالرّفق واللّين، فكان رفيقًا في قوله، رفيقًا في خُلُقه، رفيقًا في عمله، وصح عنه ﷺ أنّه قال: «**اللهمَّ مَن وَلِيَ مِن أَمْرِ أُمَّتي شيئًا فَشَقَّ عليهم، فَاشْقُقْ عليه، وَمَن وَلِيَ مِن أَمْرِ أُمَّتي شيئًا فَرَفَقَ بهِمْ، فَارْفُقْ بهِ**» [رواه مسلم].

وأثنى عليه ربّه في ذلك وقال: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ} [آل عمران: الآية 159].

فهو رفيق فيما يأخذ، رفيق فيما يُعطي، ولذلك تألّفت به القلوب، وأقبلت عليه الأرواح، فكان ﷺ يُقدّم الرّفق على العنف، والإنذار والإعذار على العقوبة، فهو الأوّل في العالم الذي يُقيم الحُجّة ويب المحجّة للمُخالف، فلا يعترف بالقوّة الغاشمة، بل هو صاحب القوة العادلة، فما أوقع عقوبة بأحد حتى استكمل وسائل الإقناع والاستدلال والهداية وإقامة البرهان، حتى مكاتباته للملوك كان طابعها الرّفق، ويرسل ﷺ الرّسل بالحجّة واللين والرّحمة، وإعلان ربّانية الرّسالة، وعالمية الدّعوة، وأن المقصد هداية البشر، وليس طلب المُلك، واحتلال الدّول واستعمار الشّعوب.

ومع لينه ﷺ ورفقه كان أحزم النّاس، إذا اتخذ القرار لا يردّه راد، ولا يثنيه ظرف، حتى ينفذ أمر الله، ولهذا لمّا شاور الناس في غزوة أحد وهو في المسجد، وكان من رأيه أن يبقى في المدينة ويقاتل فيها، وكان هذا الرّأي أسلم وأحزم، ولكن قام كثير من الناس وسألوه الخروج إلى أحد، فلمّا عزم وصمّم على الخروج ولبس لأمته، قالوا: لعلّنا أكرهناك على الخروج يا رسول الله فلو بقينا في

المدينة، أو نحو ذلك، فأبى ﷺ وقال: «**مَا يَنْبَغِي لِنَبِيٍّ أَنْ يَضَعَ أَدَاتَهُ بَعْدَ أَنْ لَبِسَهَا حَتَّى يَحْكُمَ الله بَيْنَهُ وَب عَدُوِّهِ**» [رواه الترمذي].

فكان ﷺ يرسم الخطة ويُشاور، فإذا اتخذ القرار لا يعود ولا ينثني، وكذلك الحزم في تنفيذ الحدود، وإقامة الواجبات، وإعطاء الحقوق، كما صح عنه أنّه قال: «**وَالَّذِي نَفْسِي بيَدِهِ، لو أنَّ فاطِمَةَ بنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ، لَقَطَعْتُ يَدَها**» [مُتفق عليه].

وكان له ﷺ سياسة وطرق شتّى وأساليب متنوعة في تأديب المخالفين والعصاة المذنبين، فمنهم مَن ستر عليه، ومنهم مَن تألّفه، ومنهم مَن هجره، ومنهم مَن أدبّه تعزيرًا، ومنهم مَن حجر عليه، ومنهم مَن غرّمه مالًا، ومنهم مَن أقام عليه الحد جلدًا أو قتلًا، ومنهم مَن استتابه، ومنهم مَن تركه في نفاقه وأعرض عنه، وهكذا بقية الأصناف، فلكل حالة حُكم بديع مُتقن ثابت يجري على سُنن النّبوّة ونور الوحي.

وكان له سياسة مع المؤمنين وهم درجات، وسياسة مع المنافقين وهم دركات، وسنّ أحكامًا للبُغاة والمُحاربين، والخوارج، وأهل الكتاب والمُشركين؛ بحكمة ونظام عادل.

وكان من سياسته ﷺ التّوازن بين حقوق الدّنيا والآخرة، والنّفس والنّاس، والبدن والرّوح على أتمّ وفاق، وأحسن سياق، بلا جور ولا شطط، ولا إفراط ولا تفريط، ولحظ النّفس وقت، وللواجب عليها وقت، فكل منزلة من منازل السّير إلى الله لها عبوديتها في حياته ﷺ، ومراعاة قوة دولته وضعفها، ففي أيام الدّعوة الأولى لم يأمر بالقتال، بل بالكفّ والصّفح والصّبر، وفي الحديبية قدّم الصلح على الحرب، فكل قرار بتدبير من الواحد القهار.

لم يكن هناك أحد أكثر من النّبيّ ﷺ مشورة لأصحابه، مع العلم أنّه نبيّ معصوم عليه الصّلاة والسّلام، ولكن ليعطي غيره دروسًا في ذلك وليتألف قلوب أصحابه حتى يشاركوه الرّأي، ويكون قيامهم بالعمل عن انشراح واقتناع، كما أمره ربّه فقال: {وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ} [آل عمران: الآية 159]، وقال تعالى: {وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ} [الشورى: الآية 38].

فقد شاورهم ﷺ في مكان النّزول يوم بدر، وشاورهم في أُحد، ومن ذلك أخذه بمشورة سلمان الفارسي (رضي الله عنه) يوم الأحزاب حينما أشار عليه بحفر الخندق، وفي مواقف أخرى كثيرة، وهذا من معالم فنّ القيادة التي كتب عنها أساطين هذا التّخصص.

وتميّز ﷺ بفهمه لأصحابه، فكان يضع الرّجل المناسب في المكان المناسب، حتى إنّه صحّ عنه ﷺ أنّ أبا ذر (رضي الله عنه) طلب الإمارة، فقال: «**يا أَبَا ذَرٍّ، إنَّكَ ضَعِيفٌ، وأنّها أَمَانَةٌ، وأنّها يَومَ القِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ، إلَّا مَن أَخَذَهَا بحَقِّهَا، وَأَدَّى الذي عليه فِيهَا**» [رواه مسلم].

وولى ﷺ إمارة الجيوش للأقوياء، فولى خالد بن الوليد ولم يول أبا ذر، وولى عمرو بن العاص ولم يول أبا الدّرداء، ولهذا لمّا أراد ﷺ أن يُرسل إلى أهل اليمن وهم أهل كتاب أرسل لهم عالم الأمة معاذ بن جبل، ولما أتت الوفود تطلب المباراة والمبارزة في الخطابة والشّعر اختار للخطابة بطلها ثابت بن قيس بن شماس، واختار للشّعر رائده وأستاذه حسان بن ثابت، وهكذا في بقية المواقف، فقد كان ﷺ يضع الرّجل المُناسب في المكان المُناسب، ولن تجد صحابيًّا وضعه رسول الله في وظيفة إلّا وهو أنسب النّاس لها، وفتّش في تاريخ أصحابه، فلن تجده ﷺ وضع مُفتيًا مكان أميرٍ، ولا قارئًا مكان قائدٍ، ولا شاعرًا مكان مُفسّرٍ، بل أحكم مُهمات الصّحابة بنور النّبوّة.

وكان ﷺ على معرفة كبيرة بأتباعه فكان يراعي مواهب الناس وقدراتهم، فللفقيه خطاب، وللعاصي خطاب، وللرئيس جواب، وللمرؤوس جواب، وللشيخ نصح يناسبه، وللطفل حديث يستوعيه، وللمرأة درس يليق بها، ولكل فئة ما يُلائمها من حضرة هذا النّبيّ الكريم ﷺ.

وكان من سياسته ﷺ في التّفضيل مراعاة السّابقية والتّضحية والفداء والعطاء، فالعشرة المبشرون بالجنة لهم منزلتهم، وأهل بدر لهم فضلهم، والسّابقون الأوّلون لهم درجتهم، والمهاجرون لهم قدرهم، والأنصار لهم مقامهم، كل شيء بنظام وكل تفضيل أو منحة أو جائزة بترتيب عجيب.

وكان ﷺ يجعل الأعداء درجات حسب القُرب من الحقّ والكتاب المُنزّل، فأهل الكتاب أقرب من المُشركين، والنّصارى أقرب من اليهود، حتى إن الله بشّره بانتصار الرّوم؛ لأنّهم «**أهل كتاب**» على فارس؛ لأنّهم «**مجوس وثنيُّون**».

وكان ﷺ يستعمل وسائل السّلام قبل إعلان الحرب من المفاوضات والتّنازل للمصلحة، وإرسال الرّسل، وعقد الاتّفاقيات، والدّخول في حلف مشترك لدفع ما هو أعظم من الحروب والفتن؛ ولهذا دعا ﷺ إلى المسالمة مع اليهود أوّل وصوله إلى المدينة، وكتب بينه وبينهم كتابًا ليأمن كيدهم، ويكفّ شرّهم، ويتفرّغ لمواجهة المُشركين.

ومن عبقرية قيادته ﷺ تشجيعه وتحفيزه لأصحابه، فكان يستثمر طاقات أصحابه وقدراتهم كل في مجاله، فيثني، ويحفّز، ويُشجع، ليزدادوا تميزًا وعطاءً، وأهداهم ألقابًا عُرفوا بها إلى يوم الدّين، فأثنى على أبي بكر وسمّاه: الصدّيق، وأبو عبيدة أعطاه لقب: أمين الأمة، وابن مسعود: غلامٌ معلَّمٌ، والزبير: حواريُّ الرّسول، ومعاذ: أعلم الأُمّة بالحلال والحرام، وخالد: سيف الله المسلول، فصارت هذه الألقاب أوسمة على صدور هؤلاء الأصحاب الأطهار، تُحفّزهم، وتشجعهم، وتزيدهم همّة ونشاطًا.

وصح عنه ﷺ أنّه قال بعدما عادوا من غزوة الغابة: «**خَيرُ فُرْسانِنا: أبو قَتادةَ، وخَيرُ رَجَّالَتِنا: سَلَمةُ بنُ الأكوَعِ**» [رواه مسلم].

وضرب ﷺ على صدر أبيّ بن كعب (رضي الله عنه) قائلًا: «**لِيَهْنِكَ العلمُ أبا المُنْذِرِ**» [رواه مسلم]. لقد كانت كلماته المُلهمة المُلهبة المُشجّعة عوامل طاقة عجيبة قويّة لأصحابه وللأمة إلى يوم الدّين، كقوله ﷺ: «**أنا وكافِلُ اليَتِيمِ في الجَنَّةِ هَكَذا، وأَشارَ بالسَّبَّابَةِ والوُسْطَى**» [رواه البخاري ومسلم].

وقوله ﷺ: «**مَن سَنَّ في الإسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَعُمِلَ بهَا بَعْدَهُ، كُتِبَ له مِثْلُ أَجْرِ مَن عَمِلَ بهَا، وَلَا يَنْقُصُ مِن أُجُورِهِمْ شيءٌ**» [رواه مسلم].

ومن براعة قيادته ﷺ فهمه لأعدائه ومعرفته بهم، ومن ذلك أنّ مكرز بن حفص أرسلته قريش في صلح الحديبية، فلمّا أقبل ورآه النّبيّ ﷺ قال: «**هَذا مِكْرَزٌ، وهو رَجُلٌ فَاجِرٌ**». [رواه البخاري]، ولمّا جاء سُهَيْلُ بنُ عَمْرٍو، فقالَ النّبيّ ﷺ: «**لقَدْ سَهُلَ لَكُمْ مِن أمْرِكُمْ**» [ذكره البخاري مرسلًا]، فانظر دقّة تمييزه وفحصه عن الرّجال، ومعرفته باختلاف الشّخصيات حتى في صف أعدائه.

ومن أعظم صفاته ﷺ في القيادة أنّه كان قائدًا محبوبًا، وهذه الصّفة من أهم المهارات الفريدة النّادرة في القيادة، فلم يعتمد في قيادته على العنف أو القوة بل على الحبّ والرّحمة، فكان ﷺ أحبّ النّاس إلى أتباعه وأصحابه، غرس فيهم الحبّ فاستماتوا في طاعته، وبذلوا الغالي والرّخيص، والنّفس والنّفيس، في اتّباع أمره واجتناب نهيه، بالحبّ صنع منهم أعظم جيل عرفته البشريّة، وأكرم مُجتمع مرّ بالإنسانيّة.

وعَنْ جَابِرٍ (رضي الله عنه) قَالَ: لَّما اسْتَوَى رَسُولُ الله ﷺ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، قَالَ: «**اجْلِسُوا**»، فَسَمِعَ ذَلِكَ ابْنُ مَسْعُودٍ، فَجَلَسَ عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ، فَرَآهُ رَسُولُ الله ﷺ، فَقَالَ: «**تَعَالَ يَا عَبْدَالله بْنَ مَسْعُودٍ**» [رواه أبو داود]. إنّه الامتثال بكل حبّ.

وفي الصّحيحين أنّ أنس بن مالك (رضي الله عنه) أكل مع النّبيّ ﷺ مَرَقَةً فِيهَا دُبَّاءٌ، وكان رَسولُ الله ﷺ يَأْكُلُ مِن ذلكَ الدُّبَّاءِ وَيُعْجِبُهُ، فَقالَ أَنَسٌ: «**لا أزَالُ أُحِبُّ الدُّبَّاءَ بَعْدَ ما رَأَيْتُ رَسولَ الله ﷺ صَنَعَ ما صَنَعَ**».

حتى المشاركة فيما يحب ﷺ في طعامه، وشرابه، ولباسه، يُحبون كل ما له علاقة بهذا القائد العظيم.

ومن حُسن قيادته ﷺ أنّه ألّف بين القلوب، وكسب الأعداء، فكان يؤاخي بين المسلمين، ويؤلّف بين قلوبهم، ويتحبّب إلى الجميع ويجذب أنفسهم كما قال تعالى: {وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [الأنفال: الآية 63].

فكان يتألّف هذا بطلاقة الوجه، وغيرَه بالكلمة الطّيبة، وآخرَ بالهديّة، ورابعًا بالمال الجزيل، وخامسًا بالإمارة، ونحو ذلك، حتى إنّ كثيرًا من الصّحابة كان يظن في نفسه لكثرة إقبال النّبيّ ﷺ وبشره وحفاوته به أنّه أحب الناس إلى النّبيّ.

وكان له ﷺ بصيرة وحكمة في تأليف القلوب، ورصّ الصّف، وتلافي الأخطاء، وإصلاح العيوب، وسدّ الثغرات، فقد مارس ﷺ هذه القضايا مراسًا عمليًّا ميدانيًّا ربّانيًّا، فقد تعامل مع القائد والجندي، والمعلّم والطالب، والغني والفقير، والخطيب والشّاعر، والسّفير والوافد، والملك والأمير، والتّاجر والأجير، والعامل البسيط، والمؤمن والمنافق، والمسلم والكافر، حتى مع الأعداء كسب بعضهم وحيّد آخرين، مثلما فعل يوم الفتح وكسب ودّ أبي سفيان فقال: «**مَن دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهو آمِنٌ**» [رواه مسلم].

فكان اللّطف منهجه ﷺ حتى انقاد له الصّعب، وسهل له العسير، فإن لم ينفع اللّطف في جذب المُخالف، كسر شوكته بالعفو والصّفح، كما فعل مع اليهود أوّل ما وصل المدينة، وكما فعل مع رأس النّفاق عبدالله بن أُبيّ ابن سَلولَ وغيره، فإن زاد الشّر ولم تنجح الحيل والوسائل حسم مادة الشّر بالقوة والحزم.

ولقد أعطى الله رسوله ﷺ قدرة تحويل الأعداء إلى أصدقاء كما قال تعالى: {عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً} [الممتحنة: الآية 7].

فمدّ ﷺ حبال الرّفق، وجسور المودّة والتّواصل، ولين الجانب، وكريم العشرة، وسمو الخلق حتى تعطّفت عليه القلوب، وانجذبت إليه الأرواح، كما يقول الشاعر:

وأصبح عابدو الأصنام قِدمًا	حُماةَ البيتِ والرّكنِ اليماني

ومن جميل قيادته ﷺ أنّه كان يعفو عن الزّلة، ويتجاوز عن الخطأ لمن كثرت محاسنه، وظهرت محامده، على نهج: «**إذا بلغَ الماءُ قلَّتينِ لم يحمِلِ الخبثَ**» [رواه أبو داود].

وفي «الصّحيحين» أنّ حاطب بن أبي بلتعة الصّحابي الذي شهد بدرًا كاتب المشركين سرًّا؛ يخبرهم أنّ رسول الله ﷺ عازمٌ على فتح مكة، وأنّه أعدّ الجيش في القصة المعروفة، فلمّا أتاه الوحي ودعا حاطب بن أبي بلتعة ليُحاكمه، قال عُمر بن الخطاب (رضي الله عنه): دَعْنِي، يا رَسولَ الله، أَضْرِبْ عُنُقَ هذا المُنافِقِ، قال ﷺ: «**إنَّه قدْ شَهِدَ بَدْرًا، وَما يُدْرِيكَ لَعَلَّ الله اطَّلَعَ على أَهْلِ بَدْرٍ فَقالَ: اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ، فقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ**».

فذرفت عينا عمر، وسامح ﷺ حاطبًا؛ لمواقفه ومحاسنه.

وكذلك عفا ﷺ عن كثير من المنافقين؛ درءًا للفتنة، وتسكينًا للقلوب، وجمعًا للشّمل، فإنّ الصّحابة استأذنوه في قتل رأس المنافقين عبدالله بن أُبي بن سلول، فأبى عليه الصّلاة والسّلام، وقال: «**لَا يتحدَّثُ النَّاسُ أنَّ محمَّدًا يقتُلُ أصحابَهُ**» [مُتفق عليه]، إلى غير تلك من مواقف العفو الجليلة، ومقامات التّسامح الجميلة.

ولأنّ من مميزات القائد النّاجح تحديد الهدف، فإنّه ﷺ من أوّل يوم قد حدد ماذا يريد، وع هدفه ومقصوده، وأخذ يعلن في الناس: «**يا أيُّها الناسُ، قُولوا: لا إلهَ إلا اللهُ، تُفلِحوا**» [رواه أحمد].

فمقصوده معروف للعامّ والخاصّ وهو إخراج النّاس من الظّلمات إلى النّور، وهدايتهم إلى ربّهم حتى يعبدوا الله وحده لا شريك له، ومن سياسته ﷺ إعلان مقاصده الدّعوية للخاصّ والعامّ وأعظمها الدّعوة للإيمان بالله وتعبيد النّاس له، وقطع دابر الوثنيّة، واجتثاث شجرة الجاهليّة، ومع

هذا كان يراعي المواثيق والعهود، ويحترم الاتفاقيات، ويجتنب الغدر ونكث العهود، والخيانة، وقتل السّفراء، وإخلاف الموعد والكذب، فهو إمام الأوفياء وقدوة الصّادقين.

وظهر في قيادته ﷺ عزمه الذي لا يعرف النّكوص، وهمّته التي لا تعرف التّراجع، فكان واثقًا بوعد ربه، يستشرف المستقبل كأنّه يراه رأي العين، ويُبشّر أصحابه بنصر الله، وتأييده جلّ في علاه، وتحقّق كل ما بشّر به ﷺ، ومن قوة توكله على مولاه أنّه لم يركن لأهل الجاه، ولا لأهل المال، وإنّما كان حوله الفقراء والبسطاء والمساكين الذين يريدون الدّين لذات الدّين، ويُضحّون لمبادئهم لا لمطامع أخرى، فغيّر بهم العالم، وفتح بهم العقول قبل المعاقل، وهذا من أعظم أسباب انتصاراته وتميّزه ﷺ في عالم القيادة.

وكان يُعدّ ﷺ لكل مقام ما يناسبه، فلا يقع حادث ولا يطرأ طارئ إلّا وأعدّ ﷺ العُدّة، وتهيّأ، وأخذ بالأسباب، عملًا بقول الباري سُبحانه: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ قُوَّةٍ} [الأنفال: الآية 60].

وقد لام اللهُ تعالى المُنافقين على عدم الإعداد فقال تعالى: {وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ} [التوبة: الآية 46].

فقد تهيّأ ﷺ لغزوة بدر مع العلم أنّها كانت مُباغِتة ومُفاجِئة، وأعدّ العُدّة لغزوة أُحد، وكذلك الهجرة فإنّه أسرّ الأمر بينه وبين صاحبه حتى خرجوا إلى الغار، ثمّ إلى المدينة.

ورتّب الجيش، وتهيّأ في غزوة الخندق ونظّم الصّفوف وفاجأ خصومه من الأحزاب بحفر الخندق، حتى إنّهم اندهشوا لهذه الفكرة التي لم تكن العرب على دراية بها من قبل.

وكذلك في غزوة الفتح جهز جيشًا باسلًا قويًا بقيادات، ورايات، وألوية، وسرايا، وكان أحيانًا إذا أراد غزوةً ورّى بغيرها، حتى يُفهم أنّه يريد مكانًا غير المكان الذي يُريده، مثلما فعل في فتح مكة، فإنّه كان يسأل عن مياه العرب في جهات أخرى حتى يُفهم أنّه يريد تلك الجهات، ويعمّي على العدو مسيره.

فلم يدخل ﷺ معركة إلّا وقد رتّب لها اللّواء، وصاحب اللّواء، والقادة، والسّرايا، والقلب، والميمنة، والميسرة، واستطلع أحوال الأعداء، واستكشف أرض المعركة، وأخذ لكل شيء أُهْبته،

وألبس كل حالة لبوسها، كل ذلك بعد التّوكّل على الله، والأخذ بالأسباب، وبذل الجُهد في الحزم، والعزم، والمضاء، والتقدّم.

ومن صفاته الجليلة ﷺ في القيادة قدرته على حل جميع المُشكلات المُفاجئة والطّارئة بكل سهولة ويُسر، وهذا أصعب ما يواجه القادة عبر التّاريخ؛ لأنّ الأزمات قد تباغتهم وتعصف بهم، وتودي بهم لعواقب وخيمة إن لم يتخذوا القرارات الصّائبة في وقتها دون تأخير أو تردد، لكن الله ميّز عبده ورسوله ﷺ بالحكمة والأناة، والعصمة والسّداد.

فقد ذكر ابن إسحاق في «السّيرة»: أنّ بطون قريش لمّا اختلفوا على من يضع الحجر الأسود مكانه بعد أن أعادوا بناء الكعبة، واحتدم الشّر بينهم إلى درجة التّهيؤ للقتال، فقال أحدهم: سنرضى بحُكم أوّل من يدخل علينا من هذا الباب. فدخل ﷺ ولمّا أطلعوه على المشكلة قال مباشرة: هلمّ إليّ ثوبًا، فأُتي به، فأخذ الحجر الأسود فوضعه فيه بيده، ثم قال: ليأخذ كل واحد بناحية من الثّوب، ثم ارفعوا جميعًا ففعلوا، حتى إذا بلغوا به موضعه وضعه بيده الشّريفة ﷺ.

وكانت تُعرض عليه ﷺ مُشكلات ومُعضلات يومية فيبتّ فيها بكل بساطة وارتياح وهدوء وثقة، فيكون حكمه الأسلم والأعدل والأنجع، وتنتهي كل أزمة إلى عاقبة حميدة، بفضل ما أعطاه الله من بركة النّبوة، وسداد الرّأي، وصواب النّظرة.

وأمّا عن تحكّمه وسيطرته ﷺ في المعارك والغزوات، فقد دُرّس وأُلّف في ذلك المؤلفات، وذكر الخبراء العسكريون هذا الجانب المتميّز من قيادته ﷺ، فكان يتحكّم في الموقع الذي يأتيه، ويسيطر على اتجاهات المعركة، كما حدث في بدر لمّا أخذ ﷺ المكان المناسب في الوادي، وشاور الصّحابة فأشار الحُباب بن المُنذر بأن يجعل النّبيّ ﷺ الماء خلف ظهره، حتى لا يشرب منه كفار قريش.

وفي أُحد سيطر ﷺ على موقع المعركة، وجعل الرّماة في الجبل؛ ليحموا ظهور المسلمين.

وفي غزوة الأحزاب سيطر ﷺ على ساحة القتال، وحفر الخندق؛ ليحمي به المدينة أمام اقتحام خيول المشركين، وكان ﷺ يرسل طلائع الاستطلاع، ويبثّ العيون التي تأتيه بالأخبار، كما أرسل حذيفة بن اليمان (رضي الله عنهما) في الخندق يأتيه بخبر الأحزاب.

ومن تميّز قيادته ﷺ وضعه المال العام مواضعه، فلا يذهب درهم ولا دينار إلّا في مصرفه المعدّ له بحكمة وعدل، وهو الأوّل ﷺ أبد الدّهر الذي لم يَحزْ لنفسه من المال شيئًا، ولم يورّث درهمًا ولا دينارًا، وهو الحريص على طهارة المال العام والخاص من الحرام، فلا ربا ولا غش ولا رشوة ولا قمار ولا ميسر، ولا مال فيه مظلمة، إنّما كل دخله طيّب، ومصرفه طيب، والمال عنده محفوظ لأهله من أمّته بتقسيم شرعيّ نبويّ، لا اضطراب فيه، وهو ينادي بكسب المال الحلال وطلب الرّزق، وهجر الكسل، والاعتماد على النّاس، وترك المسألة.

وكان يُحاسب أهل الفساد المالي، كمن غلَّ من الغنيمة، وهو الأخذ منها قبل قسمتها، كما قال تعالى: {وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} [آل عمران: الآية 161].

وحاسب الرّجل الذي أرسله ليجمع الصّدقات فقال: هذا لكم وهذا أُهدي إليَّ. فغضب ﷺ وقال: «**فهلَّا جَلَسَ في بَيْتِ أبِيهِ وأُمِّهِ، فَيَنْظُرُ أيُهْدَى له أمْ لا؟!**» [مُتفق عليه].

وربما بذل المال لكسر شوكة من تُخشى عداوته، أو لهدايته، كما أعطى المؤلّفة قلوبهم وترك الأنصار.

ومن حكمة الله برسوله ﷺ أنّه عاش مراحل الحياة كلها، وذاقها بحلوها ومرّها من الغنى والفقر، والصّحة والمرض، والنّصر والهزيمة، والعسر واليُسر، والسّرور والحزن، فقام بعبودية كل حالة، وصار قدوة للأمّة، ففي كل موقف يمر بأحدهم يجد قدوته فيها رسول الله ﷺ.

ومن دقّة قيادته ﷺ استعماله كل وسيلة مشروعة لتبليغ رسالته، وهو ما يُسمى في العصر الحديث بـ «السّياسة الإعلامية»، فهو سيّد الخُطباء، وإمام البُلغاء، والأوّل في الكلمة المؤثّرة، دخل ﷺ بخطابته أسواق العرب، وهزّ بها المنابر، وحرّك بها المشاعر، وهو سيّد الواعظين وأبلغهم، وهو صاحب النّصيحة والوصايا الخاصة والعامّة برفق، وقد جنّد معه علماء وفقهاء، وخطباء وشعراء لنشر دعوته في الأرض.

وهو الذي استعمل المُراسلات مع الملوك والأعيان، وتحدّث لكل فئةٍ بأسلوب وطريقة تناسب الحال والمقام، فله خطاب يخص الكبير والصغير، والشّاب والطّفل، والرّجل والمرأة، والمسلم والمشرك، والمنافق والكتابي، والغني والفقير، فقد ألهمه الله ما يصلح كل فرد وفئة، وليست هذه إلّا له ﷺ، واستعمل في الإعلام المحاورة والمشاورة، والبشارة والنّذارة، والتّرغيب والتّرهيب،

والإقناع والبلاغة، والإسهاب والإيجاز، عن طريق الكلمات، والخُطب، والدّروس، والنّدوات، والمواعظ، وضرب الأمثلة والقصص، والتطبيق العملي، والتوضيح بالإشارة والرّسم، واستعمال كل وسيلة مُباحة، مُقنعة، مؤثرة.

واهتم ﷺ بالبيئة فسنّ أحكامًا في استثمار الأرض، وصيانة الأشجار، وعدم تلويث البيئة، والنّهي عن تنجيس الآبار والأنهار والطرقات، والأمر بتنظيف الطّريق، العام وإزالة الأذى، وطهارة الأفنية، وإعطاء الطّريق حقه، واحترام مرور النّاس، كما جاء في «الصّحيحين» أنّه قال: «**إيَّاكُمْ والجُلُوسَ بالطُّرُقاتِ**، فقالوا: **يا رَسولَ الله، ما لنا مِن مَجالِسِنا بُدٌّ نَتَحَدَّثُ فيها.** فقالَ: **إذْ أبَيْتُمْ إلَّا المَجْلِسَ، فأعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ**، قالوا: **وما حَقُّ الطَّرِيقِ يا رَسولَ الله**؟، قالَ: **غَضُّ البَصَرِ، وكَفُّ الأذَى، ورَدُّ السَّلامِ، والأمْرُ بالمَعروفِ، والنَّهْيُ عَنِ المُنْكَرِ**».

وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) أنّ رسول الله ﷺ قال: «**اتَّقُوا اللَّعَّانَيْنِ**» قالوا: **وَما اللَّعَّانَانِ يا رَسُولَ الله**؟، قالَ: «**الذي يَتَخَلَّى(يتغوّط) في طَرِيقِ النَّاسِ، أَوْ في ظِلِّهِمْ**» [رواه مسلم].

وقال ﷺ: «**ما مِن مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا، أَوْ يَزْرَعُ زَرْعًا، فَيَأْكُلُ منه طَيْرٌ أَوْ إنْسَانٌ أَوْ بَهِيمَةٌ؛ إلَّا كانَ له به صَدَقَةٌ**» [مُتفق عليه].

وله ﷺ أحاديث في فضل الغرس والزّرع، والنّهي عن قطع الشّجر المثمر والإفساد في الأرض عمومًا، وله أحاديث في التّعامل مع الكنوز المدفونة، والمعادن الأرضية، وفضل إحياء الأرض الميتة ونظام التملّك.

ومن فنون قيادته، وبراعة ريادته، وتمام سيادته ﷺ، أنّه أخرج قادة، كل واحد منهم قائدٌ للنّاس في فنّه إلى يوم الدّين، فإنّك تجد أبا بكر (رضي الله عنه) قاد الأزمات التي مرّت به باقتدار، وهي خمس مواقف شديدة وعصيّة، كخطبته البارعة يوم وفاة رسول الله ﷺ، والفصل في بيعة الخليفة، وحروب الرّدة، وجمع القرآن، وإنفاذ جيش أسامة.

وتجد عمر (رضي الله عنه) إمامًا لأهل الحزم إلى يوم الدّين، وأُبيّ بن كعب (رضي الله عنه) شيخًا للقرّاء أبد الدّهر، وابن عباس (رضي الله عنهما) أستاذًا للمُفسرين على مدى التّاريخ، وزيد بن ثابت (رضي الله عنه) عالم الفرائض إلى يوم يبعثون، ومعاذ بن جبل (رضي الله عنه) إمام

العلماء في علم الحلال والحرام بقية أيام الدّهر، وكلّهم قد أخذ فنّه وموهبته وميراثه ودربته من مُعلِّم الخير ﷺ.

كان ﷺ قائدًا للدّولة، فدبّرها كأحكم قائد على وجه الأرض، وصارت دولته مضرب المثل في العدل والشّورى، وتنفيذ الأحكام، واحترام حقوق الإنسان، وكفالة كل يتيم وضعيف ومسكين، مع السّعي في حفظ النّوع البشري، وحقن الدّماء، وحفظ الأموال، وصيانة الأعراض، مع حُسن التّواصل الحضاري وجميل التّمدّن. فرسول الله ﷺ ليس مُجرّد مُبلّغ عن الله بالقول، بل هو إمام في القيادة، وقدوة في الرّيادة، قائد مُؤيّد بالوحي، خاض الحروب بنفسه، وأدار المعارك وأشرف عليها، وقاد الأُمّة في باب المال العام، وفي أبواب التّربية، والأبوة العائلية، وفي رعاية مصالح النّاس العامّة والخاصّة.

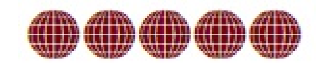
فسُبحان من كمّل سيرته، وطهّر سريرته، وأيّده وسدّده، وألهمه وأرشده، ليكون قدوة للعالمين، وحُجّة على النّاس أجمعين:

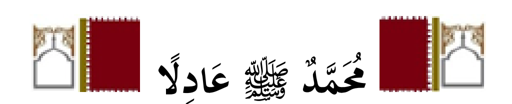
قحطانُ عدنانُ حازوا منك عزَّهُمْ ... بك التشرّفُ للتاريخ لابهِم

ومن عمامتِك البيضاءِ قد لبستْ ... دمشقُ تاجَ سناها غيرَ منثلمِ

رداءُ بغداد من بردَيكَ تنسجهُ ... أيدي رشيدٍ ومأمونٍ ومعتصمِ

وسدرةُ المنتهى أولئك بهجتَها ... على بساطٍ من التبجيل محترمِ





مُحَمَّدٌ ﷺ عَادِلًا

العدل شريعة الأنبياء، ومنهج الأولياء، وخُلُق الأصفياء، وبه قام نظام العالم، وسعادة البشر، واستقرار الدّنيا.

بالعدل يحصل العمران، وتتآلف القلوب، وتتآخى الأرواح، وتخمد الفتن، وتُصان الحرمات، وتُحفظ الحقوق، فلا استقرار للبشر في حياة ناعمة سعيدة إلّا بالعدل، ولهذا قال الله تعالى: {وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ} [النساء: الآية 58]، ونزّه تعالى نفسه عن الظلم فقال: {وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ} [فصلت: الآية 46]، وفي الحديث القُدسي قال تعالى: «**يا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فلا تَظَالَمُوا**» [رواه مسلم].

ورسولنا ﷺ هو أعدل البشريّة، وأعظمهم إنصافًا، فالعدل سمة من سماته، وصفة من صفاته.

هو أعدل النّاس في لحظه ولفظه، وفي أحواله وأقواله.

عادل مع نفسه ومع النّاس، عادل مع العدو والصّديق، عادل مع القريب والبعيد، عادل مع الغنيّ والفقير، عادل مع الكبير والصّغير، عادل مع الرّجل والمرأة؛ لأنّ الوحي المُقدّس المُطهّر الذي حمله ﷺ فيه أمر الله بالعدل كما قال تعالى: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ} [الحديد: الآية 25].

لقد وُلد العدل معه يوم وُلد ﷺ، فكان العدل سجيّته وفطرته، ونهجه في الحياة حتى قبل النّبوة، فقد شهد ﷺ في صباه قبل البعثة حلف الفضول الذي عقده جماعة من قريش لنصرة المظلوم

في دار عبدالله بن جُدْعان.

ولمّا اختلفت قريش على من يضع الحجر الأسود مكانه يوم بنوا الكعبة جعلوه حكمًا بينهم، مع أنّ بني هاشم أسرة من قريش وهم طرف في الخصام، لكن لثقتهم جميعًا في عدله وأمانته ونزاهته ﷺ جعلوه حكمًا مُنصفًا بينهم، وهذا قبل البعثة، فقل لي بالله: كيف يكون بعدما شرّفه الله بالوحي، وألبسه رداء النّبوة، وتوّجهُ بتاج الرّسالة؟!

إنّ من نعم الله الجليلة، ومننه الجزيلة أن بعث للنّاس هذا الإمام العظيم، والنّبي الكريم بعد أن اكتظت الدّنيا ظلمًا وجورًا، ومُلئ المُجتمع فوضويةً وجهلًا، وضاقت الحياة بالظُّلم والجبروت، قال تعالى: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ} [الجمعة: الآية 2].

فجاء ﷺ بالعدل والحريّة والإنصاف والمساواة، ونشر العدل في كل مناحي الحياة، وغرسه في النّفوس، وزرعه في الأرواح، ووزّعه على البشريّة، وحقّق الحريّة، فأعتق النّاس من عبادة العباد إلى عبادة ربّ العباد، وحرّرهم من السّجود للأصنام والأوثان للسّجود للواحد الديّان، وفك عن رقابهم أغلال وآصار الجاهليّة، وعاداتها الباطلة الشّركيّة، وأطلقهم في فضاء الإيمان، وعالم التّوحيد، ودنيا النّور، وبهذا أُمر ﷺ: {وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ} [الشورى: الآية 15].

وأنفذ ﷺ العدالة بكل أشكالها، عدالة بين الرّجال والنّساء فيما عليهم من واجبات وطاعات، وما لهم من أجر وثواب، كما قال تعالى: {فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ} [آل عمران: الآية 195].

والمساواة بين الزّوجات في الحقوق الزّوجية، وبين الأبناء في العطايا والهبات والبرّ والصِّلات، وكذلك المساواة في أخذ الحقوق وإقامة الحدود، وحرمة الدّماء والأموال والأعراض.

والمساواة بين الخصوم أمام القضاء في إبداء الرّأي، والإنصات للدّعوة، وبيان الحُجّة، والقصاص، وإقامة الحدود على الجميع دون أيّ تمييز أو تفرقة بين جنس أو لون، أو عرق أو عقيدة.

فرسول الله ﷺ هو أعدل من حكم بين الناس، وقضى بين البشر، أتى بشريعة وافية تحفظ الحقوق في الدّماء والأموال والأعراض، شريعة فيها نظام التّعزير، ونظام الحدود، ونظام المقاصة، بدقةٍ عالية، وحكمة بالغة. فشريعته ﷺ تقوم على العدل والمساواة.

وإنّ دينًا جعل بلال بن رباح المولى الحبشي (رضي الله عنه) سيّدًا من سادات المُسلمين، وإمامًا من أئمة الدّين، وكذلك عمّار بن ياسر وصُهيبًا الرّومي وسلمان الفارسي رضوان الله عليهم جميعًا؛ لَدِينٌ يقوم على العدل والإنصاف، واحترام حقوق الإنسان، وحفظ مكانة المرء مهما كان عرقه أو نسبه.

فالسِّباق في الإسلام بالتّقوى، والأقدمية بالإنجاز في حقول الخير وأبواب الفضيلة، وليس بالحسب المُجرّد، ولا بالعصبية الجاهليّة، ولا بالعنصريّة القبليّة:

فلا تحسبِ الأنسابَ تنجيكَ من لظًى ... ولو كنتَ من قَيسٍ وعبدِ مدانِ

أبو لهبٍ في النّار وهو ابنُ هاشمٍ ... وسلمانُ في الفردوس من خُرسانِ

يحكم ﷺ في القضية فيكون أعدل من الميزان حُكمًا، ويفصل في الخصومة فيكون أمضى من السّيف حسمًا، ويقول الكلمة فتُصبح قاعدة في ديوان العدل، ويَبِتُّ في المُنازعة فتُصبح مثلًا شرودًا من الإنصاف، فكان العادل في القضيّة، والحاكم بالسّويّة، لا تأخذه في الله لومة لائم، ولا تأخذه هوادة في تطبيق الحدّ على من وجب عليه، ولهذا لا يَشُك في عدله ﷺ إلّا كافر مارق، أو زنديق مُنافق؛ لأنّ الله حكّمه ورضي حُكمه، قال تعالى: {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [النساء: الآية 65].

فمن العدل والحقيقة أن تُحكّم رسول الله ﷺ في نفسك وعبادتك، وآدابك وأخلاقك، ولباسك وطعامك، ويقظتك ومنامك، وكل شأن من شؤون حياتك؛ لأنّه أنصح الأُمّة للأُمة، وأتقى الخليقة وأعلمهم بمرضاة الله، وأبعدهم عن معاصيه جلّ في عُلاه، وهو أرحم بك من أمّك وأبيك، ولو شُك في عدله ﷺ لارتفع العدل من العالم، وانتهى الإنصاف من الدّنيا، وسادت الفوضى والجور والظُّلم بين أبناء البشر، يقول ﷺ: «**وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَعْدِلْ؟**»! [مُتفق عليه].

وصدق بأبي هو وأمي! إذا اتُّهم في عدالته فمن يبقى بعده عاد من حاكمٍ أو قاضٍ أو زعيم؟!

ويُحذّر ﷺ من الظلم فيقول: «**الظُّلْمُ ظُلُماتٌ يَومَ القِيامَةِ**» [مُتفق عليه]، ويُخبر بقول الباري سُبحانه: {أَلاَ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ} [هود: الآية 18]، وقوله جلّ اسمه: {إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} [الشورى: الآية 40]، ويأمر ﷺ مُعاذ بن جبل (رضي الله عنه) بالعدل، ويقول له وهو يُرسله إلى اليمن: «**واتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ، فإنَّ ليسَ بيْنَهُ وبيْنَ الله حِجَابٌ**» [مُتفق عليه].

ومن خشيته ﷺ ومراقبته لربّه في مُراعاة العدل بين النّاس يُنبّه عليهم ويُحذّرهم فيقول لهم: «**إنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إلَيَّ، ولَعَلَّ بَعْضَكُمْ ألْحَنَ بحُجَّتِهِ مِن بَعْضٍ، مَن قَضَيْتُ له بحَقِّ أخِيهِ شيئًا بقَوْلِهِ، فإنَّما أقْطَعُ له قِطْعَةً مِنَ النَّارِ فلا يَأْخُذْهَا**» [مُتفق عليه].

ويقف ﷺ مع المساكين، وينتصر لهم، ويُحذّر من نقصهم حقوقهم، أو بخسهم أشياءهم، فيقول: «**إخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ، جَعَلَهُمُ الله تَحْتَ أيْدِيكُمْ، فمَن كانَ أخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ، فَلْيُطْعِمْهُ ممَّا يَأْكُلُ، ولْيُلْبِسْهُ ممَّا يَلْبَسُ، وتُكَلِّفُوهُمْ ما يَغْلِبُهُمْ، فإنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فأعِينُوهُمْ**» [مُتفق عليه].

لقد وضع ﷺ بشريعته المُقدّسة نظامًا للبشريّة، عاليًا، طاهرًا، نزيهًا، مكتوبًا، مدونًا، يجري على الخاصّ والعام، والظّالم والمظلوم، والغنيّ والفقير، والرّئيس والمرؤوس، بلا مُحاباة، ولا مُصانعة، ولا مُداجاة، ولا مُجاملة، وماذا تنتظر من نبيّ كريم إلّا العدل؟! وهو الذي أخبرنا عن عدل الله يوم العرض الأكبر فقال ﷺ: «**لَتُؤَدُّنَّ الحُقُوقَ إلى أهْلِها يَومَ القِيامَةِ، حتَّى يُقادَ لِلشّاةِ الجَلْحاءِ، مِنَ الشَّاةِ القَرْناءِ**» [رواه مسلم].

فإذا كان هذا عدل الله بين البهائم فكيف عدله بين بني آدم؟!

وإذا كان نبيّ الرّحمة يُخبر عن هذا العدل يوم القيامة، فلا بد أنّه يكون أعدل النّاس، وأخشاهم لربّه، وأكثرهم إنصافًا في الأحكام، وبُعدًا عن ظلم الأنام!.

لقد ربّى ﷺ أصحابه على العدل، وبيّن لهم أجره العظيم، وقيمته الغالية، وأمرهم بتطبيقه في كافة أمور معيشتهم، وعلّمهم أنّه بالموازنة والعدل، وإعطاء كل ذي حق حقه تستقيم الحياة، كما قال في «الصّحيحين» لعبدالله بن عمرو (رضي الله عنهما): «**بلَغَنِي أنَّكَ تَصُومُ النَّهارَ وتَقُومُ اللَّيْلَ، فلا تَفْعَلْ، فإنَّ لِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَظًّا، ولِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَظًّا، وإنَّ لِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَظًّا**»، وعند البخاري والتّرمذي - واللفظ له: «**إنّ لنفسك عليك حقًّا، ولربّك عليك حقًّا، ولضيفك عليك حقًّا، وإنّ لأهلك عليك حقًّا، فأعط كل ذي حق حقه**».

وبشّر ﷺ أهل العدل المُقسطين بالفوز العظيم، والنّجاح والفلاح يوم القيامة، فقال: «**إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ الله عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ، عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ-وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ- الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا**» [رواه مسلم].

وكان ﷺ المثل الأعلى والأسوة العظمى في تنفيذ تلك الوصايا وهذه الأوامر، فنفّذ العدل على نفسه الشّريفة أولًا، فلم يتميّز على أصحابه، ولم يختص عنهم بشيء من الأمور التي توجب المُناصفة والمساواة، بل ربّما سبقهم في تحمّل المتاعب والمصاعب، وآثرهم على نفسه بالمغانم، يقول عبدالله بن مسعود (رضي الله عنه): **كنا يومَ بدرٍ كُلُّ ثلاثةً على بعيرٍ، كان أبو لبابةَ وعليُّ بنُ أبي طالبٍ زميلَى رسولِ الله ﷺ**، قال: **وكانت عقبةُ رسولِ الله ﷺ**، فقالا: **نحن نمْشي عنكَ**. فقال: «**ما أنتما بأقوى منّي ولا أنا بأغنى عن الأجرِ منْكما**» [رواه أحمد].

فانظر إلى هذا العادل العظيم ﷺ حتى في ركوب الرّاحلة كيف يساوي نفسه بأصحابه (رضي الله عنهم)!؟

وفي شدّة غضبه ﷺ لم يحمله الانتقام لنفسه أن ينسى مبدأه في العدل، ومنهجه في الإنصاف، لأنّه معصوم بالنّبوة من أن يثأر لنفسه أو ينتقم لمقامه الشّريف، فعن أبي سعيد الخدري (رضي الله عنه) قال: بَعَثَ عَلِيٌّ (رضي الله عنه)، وَهُوَ بِالْيَمَنِ بِذَهَبَةٍ فِي تُرْبَتِهَا إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَقَسَمَهَا رَسُولُ الله ﷺ بَيْنَ أَرْبَعَةِ نَفَرٍ: الأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ الْحَنْظَلِيُّ، وَعُيَيْنَةُ بْنُ بَدْرٍ الْفَزَارِيُّ، وَعَلْقَمَةُ بْنُ عُلَاثَةَ الْعَامِرِيُّ، ثُمَّ أَحَدُ بَنِي كِلَابٍ، وَزَيْدُ الْخَيْرِ الطَّائِيُّ، ثُمَّ أَحَدُ بَنِي نَبْهَانَ، قَالَ: فَغَضِبَتْ قُرَيْشٌ فَقَالُوا أَتُعْطِي صَنَادِيدَ نَجْدٍ وَتَدَعُنَا؟ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ«**إِنِّي إِنَّمَا فَعَلْتُ ذَلِكَ لأَتَأَلَّفَهُمْ**» فَجَاءَ رَجُلٌ كَثُّ اللِّحْيَةِ، مُشْرِفُ الْوَجْنَتَيْنِ، غَائِرُ الْعَيْنَيْنِ، نَاتِئُ الْجَبِينِ، مَحْلُوقُ الرَّأْسِ، فَقَالَ **اتَّقِ اللهَ يَا مُحَمَّدُ**، قَالَ:فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ «**فَمَنْ يُطِعِ اللهَ إِنْ عَصَيْتُهُ أَيَأْمَنُنِي عَلَى أَهْلِ الأَرْضِ وَلَا تَأْمَنُونِي**» [مُتفق عليه].

فهو العادل في الغضب والرّضا ﷺ، وكانت دعوته دائمًا كما جاء في السُنن: «**اللّهمّ إنّي أسألُك خشيتَك في الغيبِ والشّهادةِ، وكلمةَ العدلِ والحقِّ في الغضبِ والرِّضا**» [رواه النسائي].

بل إنّه ﷺ عرض على أصحابه القصاص من نفسه، وذلك لعظيم عدله وإنصافه، فعندما وقف يوم بدر يُسوّي الصّفوف، وفي يدِه قدحٌ يعدِّلُ به القومَ، فمرَّ بسوادِ بنِ غَزيَّةَ فوكزه في بطنهِ

بالقدحِ وقال: **استوِ يا سوادُ**. فقال: يا رسولَ الله أوجَعْتَني وقد بعثك اللهُ بالحقّ والعدلِ فأقِدْني. قال: فكشف رسولُ الله عن بطنِه وقال: **استقِدْ**، قال: فاعتنقَه فقبَّل بطنهَ، فقال: **ما حملكَ على هذا يا سوادُ**؟ قال: يا رسولَ الله حضَر ما ترى فأردتُ أن يكون آخرُ العهدِ بك أن يمَسَّ جلدي جلدَك، فدعا له رسولُ الله ﷺ بخيرٍ، وقال له: «**استوِ يا سوادُ**» [أوْرَده ابن إسحاق في السّيرة].

سربُ الشّياطينِ لما جئتَنا احترقتْ	ونارُ فارسَ تخبو منكَ فِي ندمِ
وصُفّدَ الظلمُ والأوثانُ قد سقطتْ	ومَاءُ ساوةَ لمّا جئتَ كالحَمَمِ

وانظر لعدله ﷺ حتى مع فلذة كبده، وقرّة عينه، وبهجة روحه، ابنته فاطمة (رضي الله عنها) ، والتي قال عنها: «**هي بَضْعَةٌ مِنّي، يُرِيبُنِي ما أرَابَهَا، ويُؤْذِينِي ما آذَاهَا**». [مُتفق عليه].

ومع ذلك تقول عائشة أمّ المؤمنين (رضي الله عنها) : «إنَّ قُرَيْشًا أهَمَّهُمْ شَأْنُ المَرْأَةِ الَّتي سَرَقَتْ في عَهْدِ النّبيّ ﷺ في غَزْوَةِ الفَتْحِ، فَقالوا: مَن يُكَلِّمُ فِيهَا رَسولَ الله ﷺ؟ فَقالوا: وَمَن يَجْتَرِئُ عليه إلَّا أُسَامَةُ بنُ زَيْدٍ، حِبُّ رَسولِ الله ﷺ، فَأُتِيَ بهَا رَسولُ الله ﷺ فَكَلَّمَهُ فِيهَا أُسَامَةُ بنُ زَيْدٍ، فَتَلَوَّنَ وَجْهُ رَسولِ الله ﷺ، فَقالَ: «**أَتَشْفَعُ في حَدٍّ مِن حُدُودِ الله**؟ فَقالَ له أُسَامَةُ: اسْتَغْفِرْ لي يا رَسولَ الله، فَلَمَّا كانَ العَشِيُّ قَامَ رَسولُ الله ﷺ فَاخْتَطَبَ، فأثْنَى علَى الله بما هو أهْلُهُ، ثُمَّ قالَ: **أمَّا بَعْدُ، فإنَّما أهْلَكَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ أنَّهُمْ كَانُوا إذَا سَرَقَ فِيهِمِ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وإذَا سَرَقَ فِيهِمِ الضَّعِيفُ أقَامُوا عليه الحَدَّ، وإنِّي وَالَّذِي نَفْسِي بيَدِهِ، لو أنَّ فَاطِمَةَ بنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا**» [مُتفق عليه].

بهذا الموقف الصّارم، والقول الحاسم ينهي ﷺ أيّ جدل أو شك في عدالته، بل يقولها قويّة مدويّة: «**لو أنَّ فَاطِمَةَ بنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا**».

وحاشاها أن تسرق (رضي الله عنها) وأرضاها.

والآن ندخل بيته ﷺ لنرى العدالة في أبهى صورها، وأجمل مشاهدها مع أسرته وزوجاته حيث الغيرة الطبيعية، والتّنافس المعروف بين النّساء، ولكنه يتعامل بالعدل في كل موقف، والإنصاف في كل مسألة، فعن أنس بن مالك (رضي الله عنه) قال: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ عِنْدَ بَعْضِ نِسَائِهِ، فَأَرْسَلَتْ إحْدَى أُمَّهَاتِ المُؤْمِنِينَ بصَحْفَةٍ فِيهَا طَعَامٌ، فَضَرَبَتِ الَّتي النَّبِيُّ ﷺ في بَيْتِهَا يَدَ الخَادِمِ، فَسَقَطَتِ الصَّحْفَةُ فَانْفَلَقَتْ، فَجَمَعَ النَّبِيُّ ﷺ فِلَقَ الصَّحْفَةِ، ثُمَّ جَعَلَ يَجْمَعُ فِيهَا الطَّعَامَ الَّذي كَانَ فِي

الصَّحْفَةِ، وَيَقُولُ: «**غَارَتْ أُمُّكُم**. **ثُمَّ حَبَسَ الخَادِمَ حَتَّى أُتِيَ بِصَحْفَةٍ مِنْ عِنْدِ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا، فَدَفَعَ الصَّحْفَةَ الصَّحِيحَةَ إِلَى الَّتِي كُسِرَتْ صَحْفَتُهَا، وَأَمْسَكَ المَكْسُورَةَ فِي بَيْتِ الَّتِي كَسَرَتْ**» [رواه البخاري]، وقد خرّج الترمذي هذا الحديث مختصـرًا، وزاد فيه: فقال النبِيُّ ﷺ: «**طَعَامٌ بِطَعَامٍ، وإِنَاءٌ بِإِنَاءٍ**».

وحتى في أسفاره ﷺ كان العدل بين زوجاته نُصبَ عينيه، فروي أنّه: «**إِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ سَفَرًا، أَقْرَعَ بيْنَ نِسَائِهِ، فأيَّتُهُنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا خَرَجَ بها رسول الله ﷺ**» [مُتفق عليه]. والقرعة هنا لإتمام العدالة، وجبر النّفوس، وتهدئة الخواطر.

ومن تمام عدله ﷺ أنّه اعتذر إلى ربّه فيما لا يقدر عليه من العدل بين نسائه فقال: «**اللَّهمَّ هذا قسمي فيما أملِكُ، فلا تلُمْني فيما تملِكُ ولا أملِكُ**» [رواه أبو داود]، ويعني بذلك ميل القلب من المحبة والمودة لبعض نسائه أكثر من الأخريات، وما يقدر عليه ﷺ من القسمة والنّفقة والبيتوتة، فكان عادلًا تمام العدل في ذلك، أمّا ميل القلب فذلك فوق طاقة البشـر، فانظر لدقّة وَرَعه، وخوفه ﷺ من ربّه، وهذا من كمال عدله، وممّا يدلك على تحرّيه ﷺ العدل بين الزّوجات، وتحذيره من الجور في معاملتهنّ قوله ﷺ: «**إذا كانَ عندَ الرَّجل امرأتانِ، فلم يَعدِلْ بينَهُما جاءَ يومَ القيامةِ وشِقُّهُ ساقطٌ**» [رواه أبو داود].

حتى في مرضه ﷺ كان يتحرّى العدل كما قالت أمّ المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) : «**لَمَّا ثَقُلَ النّبيُّ ﷺ واشْتَدَّ به وجَعُهُ، اسْتَأْذَنَ أزْوَاجَهُ في أنْ يُمَرَّضَ في بَيْتِي، فأذِنَّ له**» [مُتفق عليه].

ولقد وسع عدله ﷺ الأبناء فأوصى بالعدل بينهم، ولا يؤثر أحدهم في العطاء على الآخر لميل القلب إليه أو لكثرة حبّه، فعن النّعمان بن بشير (رضي الله عنهما) قال: «أعطاني أبي عَطِيَةً، فقالتْ عَمرةُ بنتُ رواحَة: لا أَرْضى حتَّى تُشْهِدَ رسولَ الله ﷺ، فأتى رسولَ الله فقالَ: إنِّي أَعْطَيْتُ ابْنِي منْ عَمْرَةَ بنتِ رَوَاحةَ عطيَّةً، فَأَمَرتْني أن أُشْهدكَ يا رسولَ الله، قالَ: «**أعطيتَ سائرَ ولدكَ مثلَ هذا**؟»، قالَ: لا، قال: «**فاتَّقوا اللهَ واعدِلوا بينَ أولادِكُم**»، قال: **فَرَجَعَ فردَّ عَطِيَّتَهُ**» [مُتفق عليه].

ومن روائع قصص عدله ﷺ ما قام به مع زيد بن حارثة (رضي الله عنه) وكان مملوكًا لخديجة (رضي الله عنها) أهدته للنّبي، فتبنّاه رسولُ الله ﷺ، وكان مَن تَبنَّى رجُلًا في الجاهليةِ دَعاه النّاسُ إليه، وورِثَ ميراثَه، فعن عبدالله بن عمر (رضي الله عنهما) قال: ما كُنَّا نَدْعُو زَيْدَ بنَ حَارِثَةَ

إلَّا زَيْدَ بنَ مُحَمَّدٍ حتَّى نَزَلَ في القُرْآنِ: {ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ} [الأحزاب: الآية 5] [مُتفق عليه].

وهنا بلاغة القرآن النّاصعة، ودلالته الرّائعة، في قوله تعالى: {ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ} ، فما فعله رسول الله عدل بلا شك، ولكنّ الله تعالى يُريد عدلًا أعظم وأوسع وأشمل ليكون شريعة للمُسلمين أبد الدّهر، ومنهجًا للمؤمنين مدى الأيام، وهو ألّا يُنسب الابن إلّا لأبيه، حفظًا للنّسب وللميراث.

لقد وثق في عدله ﷺ القريب والبعيد والصّديق والعدو والمُسلم والكافر، يتحاكم إليه أصحابُه ومُحبّوه، ويأتي يطلب عدلَه أعداؤه ومناوئوه، يدلف إليه أهل الكتاب من اليهود والنّصارى يطلبون الإنصاف منه؛ لأنّه مقرّ العدالة، وباب الإنصاف، والمرجعية الكُبرى للمساواة بين البشر.

وأين يوجد العدل إلّا في برده؟!

وأين يحصل الإنصاف إلّا في نفسه الطّاهرة وقلبه الرّحيم؟!

لقد امتثل لأمر ربّه في العدل مع خُصومه وأعدائه من الكفرة والمُشركين، ومع أهل الكتاب النّاكثين، ومع المنافقين المُرتدّين قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [المائدة: الآية 8].

حتى مع أهل البغضاء والشّحناء لا بد من العدل، فكان العدل منه ﷺ مع كل أحد وكل قضية، وفي كل زمان ومكان، وكان يُبيّن دائمًا أنّ العدل محمود لذاته ولو كان من كافر، والظّلم مكروه لذاته ولو كان من مؤمن، وأوجب علينا أن نتقيّد بالعدل حتى مع الكفّار وأهل الكتاب، امتثالًا لأمر الباري سُبحانه: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [النحل: الآية 90].

وفرّق ﷺ بين الأمين والخائن من أهل الكتاب كما قال تعالى: {وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا} [آل عمران: الآية 75].

فانظر كيف أنصف وعدل في حُكمه حتى مع الكفار والأعداء، ولم يحكم عليهم بحكم عام!؟ وامتثل لأمر ربّه: {وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ} [العنكبوت: الآية 46].

فأمر سبحانه بالتّمييز بين الظّالم وغيره، وأرشد إلى طريقة الجدل معهم، فمنهم من ينبغي علينا أن نُجادله بالتي هي أحسن، ومنهم من نُجادله بالتي هي أخشن وهم الظّالمون منهم.

ومن العدل الذي أنزله اللهُ على نبيّه ﷺ التّفريق بين من آذانا في الدّين ومن لم يؤذنا، فقال تعالى: {لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} [الممتحنة: الآية 8].

ولهذا ميّز ﷺ في أحكامه وأقواله وأفعاله بين من حارب الله ورسوله وآذى المؤمنين كعقبة بن أبي معيط وأمثاله، وبين من نصره كالمُطعم بن عدي وأبي البختري وغيرهما.

وإليك هذا المشهد الجميل المُشرق الذي يدل على عدله وإنصافه ﷺ حتى مع الكُفّار والمُشركين. كان صفوان بن أميّة لا يزال على شركه بعد فتح مكة، وكان من تجار السّلاح في ذلك الوقت، فجاءه ﷺ وطلب منه دروعًا يُقاتل بها يوم حنين، فقال له ﷺ: «**يَا صَفْوَانُ، هَلْ عِنْدَكَ مِنْ سِلَاحٍ؟**، قال: **عارية أم غصبًا؟**، قال:لَا، **بَلْ عَارِيَةٌ**، فأعاره ما بين الثّلاثين إلى الأربعين درعًا، وغزَا رسول الله ﷺ حُنينًا، فلمّا هُزِم المُشركون، جُمِعت دروع صفوان، ففَقَد منها أَدْراعًا، فقال رسول الله ﷺ لصفوان: **إِنَّا قَدْ فَقَدْنَا مِنْ أَدْرَاعِكَ أَدْرَاعًا فَهَلْ نَغْرَمُ لَكَ؟**، قال: **لا يا رسول الله؛ لأن في قلبي اليوم ما لم يكن يومئذ**» رواه أبو داود، وقال: «**وكان أعاره قبل أن يُسلم، ثم أسلم**».

وهنا نلاحظ أنّه ﷺ كان مُنتصرًا فاتحًا، لكنّه لم يُرغم صفوان على أخذ الدّروع قهرًا، بل جعلها عارية أي عن طريق التّراضي، وعند فقد بعضها سأله عمّا يرضيه، فكان ﷺ عادلًا في أخذه، مُنصفًا في أدائه.

ويروي لنا عبد الرّحمن بن أبي بكر (رضي الله عنهما) مشهدًا آخر من مشاهد عدله ﷺ، مشهدًا تقف له القلوب إجلالًا والنّفوس تعظيمًا، يقول(رضي الله عنه): «**كُنَّا مع النّبيِّ ﷺ ثَلَاثِينَ ومِئَةً، فَقالَ النّبيُّ ﷺ: هلْ مع أحَدٍ مِنكُم طَعَامٌ؟ فَإِذَا مع رَجُلٍ صَاعٌ مِن طَعَامٍ أوْ نَحْوُهُ، فَعُجِنَ، ثُمَّ جَاءَ رَجُلٌ مُشْرِكٌ مُشْعَانٌّ طَوِيلٌ، بغَنَمٍ يَسُوقُهَا**، فَقالَ النّبيُّ ﷺ: **أَبَيْعٌ أمْ عَطِيَّةٌ**، أوْ قالَ: **هِبَةٌ**، قالَ: ،**لَا**

بَلْ بَيْعٌ، قالَ: **فَاشْتَرَى منه شَاةً فَصُنِعَتْ، فأمَرَ نَبِيُّ الله ﷺ بسَوَادِ البَطْنِ يُشْوَى، وايْمُ الله، ما مِن الثَّلَاثِينَ ومِئَةٍ إلَّا قدْ حَزَّ له حُزَّةً مِن سَوَادِ بَطْنِهَا، إنْ كانَ شَاهِدًا أعْطَاهَا إيَّاهُ، وإنْ كانَ غَائِبًا خَبَأَهَا له، ثُمَّ جَعَلَ فِيهَا قَصْعَتَيْنِ، فأكَلْنَا أجْمَعُونَ وشَبِعْنَا، وفَضَلَ في القَصْعَتَيْنِ، فَحَمَلْتُهُ علَى البَعِيرِ**» [مُتفق عليه].

هذا رسولنا ﷺ وهو القائد، يحوطه أتباعه وأصحابه، وهم نحو مئة وثلاثين رجلًا وقد عضّهم الجوع، فيتعامل مع هذا المُشرك في شراء شاته بالعدل والإنصاف، فلا يُرغمه ولا يغصبه حقّه، وإنّما يطلب الشّاة بثمنها، ويأخذها بحقّها، بكل سماحة ورضا من صاحبها، بغض النّظر عن دينه أو مُعتقده، حتى ولو كان مُشركًا؛ لأن الله جبله على العدل، وطبعه على الإنصاف.

ومن عدله ﷺ مع أعدائه ما رواه ابن عباس (رضي الله عنهما) فقَالَ: «قَدِمَ مُسَيْلِمَةُ الكَذَّابُ علَى عَهْدِ رَسولِ الله ﷺ، فَجَعَلَ يقولُ: إنْ جَعَلَ لي مُحَمَّدٌ الأمْرَ مِن بَعْدِهِ تَبِعْتُهُ، وقَدِمَهَا في بَشَرٍ كَثِيرٍ مِن قَوْمِهِ، فأقْبَلَ إلَيْهِ رَسولُ الله ﷺ ومعهُ ثَابِتُ بنُ قَيْسِ بنِ شَمَّاسٍ، وفي يَدِ رَسولِ الله ﷺ قِطْعَةُ جَرِيدٍ، حتَّى وقَفَ علَى مُسَيْلِمَةَ في أصْحَابِهِ، فَقَالَ: «**لو سَأَلْتَنِي هذِه القِطْعَةَ ما أعْطَيْتُكَهَا، ولَنْ تَعْدُوَ أمْرَ الله فِيكَ، ولَئِنْ أدْبَرْتَ لَيَعْقِرَنَّكَ اللهُ، وإنِّي لَأَرَاكَ الذي أُرِيتُ فِيهِ، ما رَأَيْتُ، وهذا ثَابِتٌ يُجِيبُكَ عَنِّي**» ثُمَّ انْصَرَفَ عنْه، قَالَ ابنُ عَبَّاسٍ: فَسَأَلْتُ عن قَوْلِ رَسولِ الله ﷺ: «**إنَّكَ أُرَى الذي أُرِيتُ فيه ما أرَيْتُ**»، فأخْبَرَنِي أبو هُرَيْرَةَ(رضي الله عنه): أنَّ رَسولَ الله ﷺ قَالَ:«**بَيْنَمَا أنَا نَائِمٌ، رَأَيْتُ في يَدَيَّ سِوَارَيْنِ مِن ذَهَبٍ، فأهَمَّنِي شَأْنُهُمَا، فَأُوحِيَ إلَيَّ في المَنَامِ: أنِ انْفُخْهُمَا، فَنَفَخْتُهُما فَطَارَا، فأوَّلْتُهُما كَذَّابَيْنِ يَخْرُجَانِ بَعْدِي**»[مُتفق عليه]. فَكَانَ أَحَدُهُمَا العنسيَّ، وَالآخَرُ مسيلمةَ الكذّابَ صاحبَ اليمامة.

وتأمّل هنا مُشاهدته ﷺ لإنسان يأبى أن يدخل دينه، ويؤمن برسالته، ثم يرى رُؤيا - ورؤيا الأنبياء حق-، وفيها أنّ هذا الرّجل سوف يدّعي النّبوة، ويعلم ﷺ فداحة الجُرم الذي سوف يرتكبه هذا الكذّاب في الأمّة، والفتنة الشّنعاء الشّعواء التي سوف ينشرها بين الناس جرّاء دعوته الآثمة الكاذبة، وكان ﷺ في مركز قوة معه الدّولة والجيش، وهذا الرّجل الكذّاب الآثم أتى وافدًا في حالة ضعف وقلة، ومع ذلك لم يتّخذ رسول الله أيّ تصرف عقابي ضدّه، ولم يحد من حريته، وهذا لتمام عدله ﷺ، فلم يُرد إصدار حُكمٍ على مُجرّد رؤيا ولو كانت حقًا؛ لأنّه لا بد من دليل ملموس محسوس، وبيّنة حاضرة مُشاهدة بالعين، ولهذا كلّه تركه ﷺ ليعود لأهله وعشيرته في اليمامة بنجد في كلّ سلام وأمان، نعم؛ أنّها النّبوة في أسمى مظاهرها، والرّسالة في أبهى صورها.

وكان ﷺ عادلًا في التّعامل مع الكافرين ومع العُصاة من المؤمنين، فإنّ الله طلب منّا البراءة التّامة من الكفر وأهله، قال تعالى: {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ} [الممتحنة: الآية 4].

ولكن مع عصاة المؤمنين أمرنَا سُبحانه بالبراءة الجزئية، والبُغض على حسب المعصية، فقال تعالى: {وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ} [الشعراء: الآية 215 - 216].

فانظر الفرق بين البراءة من الكفّار، والبراءة الجزئية النّسبية من عصاة المؤمنين، وهذا من العدل والإنصاف، فلم يُخرج ﷺ أهل المعصية من دائرة الإيمان حتى أهل الكبائر منهم، بل تبرّأ من أخطائهم وذنوبهم ومعاصيهم دون أن يتبرّأ منهم ومن إيمانهم.

وإليك مشهدًا آخر لعدله وجمعه ﷺ بين إقامة الحدّ، والرّحمة والعدل والإنصاف حتى مع العُصاة والمُذنبين، فعَنْ عُمَرَ بْنِ الخطاب(رضي الله عنه): «**أنَّ رَجُلًا علَى عَهْدِ النبيِّ ﷺ كانَ اسْمُهُ عَبْدَ اللهِ، وكانَ يُضْحِكُ رَسولَ اللهِ ﷺ، وكانَ النبيُّ قدْ جَلَدَهُ في الشَّرَابِ، فَأُتِيَ به يَوْمًا فأمَرَ به فَجُلِدَ،** فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ القَوْمِ: **اللَّهُمَّ العنْه، مَا أكْثَرَ ما يُؤْتَى بهِ؟** فَقَالَ النبيُّ ﷺ: **لا تَلْعَنُوهُ، فَوَاللهِ ما عَلِمْتُ إنَّه يُحِبُّ اللهَ ورَسولَهُ**» [رواه البخاري]، أدّبه ﷺ بالحُكم الشرعي ليُقيم حدود الله، ثم أقرّ له بحُب الله ورسوله، فليس بالذي ألغى الحدّ وعطّل ما أمر الله به، وليس بالذي أخرجه من دائرة الإيمان وحُب الله ورسوله.

وعدل ﷺ مع أهل العهد والذمّة، كما جاء عند أبي داود أنّ رَسُولِ الله ﷺ قَالَ: «**مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا أَوْ انْتَقَصَهُ، أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ، أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيئًا بغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ فَأَنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**».

فهل هناك عدل أعظم من هذا؟! أن يكون ﷺ يوم القيامة خصمَ من ظلم مُعاهدًا أو ذميًّا مع العلم أنّهم أُخملفون له ولا يعترفون بنبوّته؟!

وفي حديث آخر يؤكد ﷺ على عدم الجور والظُّلم مع أهل العهد والذمّة، فيقول: «**مَن قَتَلَ نَفْسًا مُعاهَدًا لَمْ يَرِحْ رائِحَةَ الجَنَّةِ، وإنَّ رِيحَها لَيُوجَدُ مِن مَسِيرَةِ أرْبَعِينَ عامًا**» [رواه البخاري]، وقال رسول الله ﷺ: «**مَن حَلَفَ على يَمِينٍ، وهو فيها فاجِرٌ، لِيَقْتَطِعَ بها مالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، لَقِيَ اللهَ**

وهو عليه غَضْبانُ». قالَ الأشْعَثُ: فِيَّ واللهِ كانَ ذلكَ، كانَ بَيْنِي وبيْنَ رَجُلٍ مِنَ اليَهُودِ أرْضٌ فَجَحَدنِي، **فَقَدَّمْتُهُ إلى النّبيِّ ﷺ**، فقالَ لي: **ألَكَ بَيِّنَةٌ؟**، قُلتُ: لا، فقالَ لِلْيَهُودِيِّ: **احلِفْ**، قُلتُ: **يا رَسولَ الله، إذًا يَحْلِفَ ويَذْهَبَ بمالِي**، فأنْزَلَ الله تَعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً} [آل عمران: الآية 77]، [مُتفق عليه].

إنّه خِلاف بين صحابيّ مؤمن بالنّبي ﷺ ويهودي مُكذّب له في نبوّته ولا يعترف برسالته، ومع ذلك لم يحمله ﷺ حُبّ الصّحابي ولا بُغض اليهودي على الحيف في الحُكم، أو ظُلم اليهودي، بل بقي ﷺ في موقف العدل يطلب: البيّنة على المدّعي واليمين على من أنكر، بغض النّظر عن مسألة الحُب والبُغض، أو الإيمان والكُفر، فيا له من عدل ما أجمله! ويا له من إنصاف ما أروعه!

وهذه قصة أخرى تفيض منها عدالته ورحمته وجوده وإنصافه ﷺ، فقد روى سهل بن أبي حَثْمَةَ (رضي الله عنه) أَنَّ نَفَرًا مِنْ قَوْمِهِ انْطَلَقُوا إِلَى خيبر، فَتَفَرَّقُوا فِيهَا، وَوَجَدُوا أَحَدَهُمْ قَتِيلًا، وَقَالُوا لِلَّذِي وُجِدَ فِيهِمْ: قَدْ قَتَلْتُمْ صَاحِبَنَا. قَالُوا: مَا قَتَلْنَا وَلا عَلِمْنَا قَاتِلًا. فَانْطَلَقُوا إِلَى النَّبِيِّ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ الله، انْطَلَقْنَا إِلَى خَيْبَرَ فَوَجَدْنَا أَحَدَنَا قَتِيلًا. فَبَدَأَ عَبْدُ الرّحْمَنِ، وَكَانَ أَصْغَرَ الْقَوْمِ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «**كَبِّرِ الْكُبْرَ**»(أي قدّموا في الكلام أكبركم)». فَقَالَ لَهُمْ: «**تَأْتُونَ بِالْبَيِّنَةِ عَلَى مَنْ قَتَلَهُ؟**» قَالُوا: **مَا لَنَا بَيِّنَةٌ!** قَالَ: «**فَيَحْلِفُونَ**». قَالُوا: **لا نَرْضَى بِأَيْمَانِ الْيَهُودِ. فَكَرِهَ رَسُولُ الله ﷺ أَنْ يُبْطِلَ دَمَهُ، فَوَدَاهُ مِئَةً مِنْ إِبِلِ الصَّدَقَةِ**» [مُتفق عليه].

وقعت هذه الحادثة وكان الصُّلح قائمًا مع اليهود كما جاء في «الصحيحين»: «وهي يومئذٍ صُلح»، فالمقتول صحابيّ مُسلم قُتل في أرض اليهود، واليهود آنذاك في حالة هزيمة بعد انتصار النّبي عليهم، والتّهمة موجودة، والشّك لا زال قائمًا فيمن قتله، لكن رسول الله ﷺ لم يذهب مع هوى القلب في حُبّ الصّحابي أو بُغض اليهود، بل عرض الأمر على أولياء القتيل بأن يأتوا ببيّنة واضحة فلم يجدوا، فعرض عليهم يمين اليهود فرفضوا لعلمهم بكذب اليهود، فما كان منه ﷺ بعد هذا كله إلّا أن يدفع الديّة بنفسه ومن بيت مال المسلمين، والقاتل من اليهود والمقتول من المسلمين، فبالله عليكم هل سمعت آذانكم بعدل ورحمة وإنصاف مثل هذا على مرّ الأيام، وتعاقب الأعوام؟!

لو أنّ العدل مُثّل لكان في صورته الجميلة، ومقامه الشّريف ﷺ، فهو الذي ألهمنا أنّ العدل حصن أمان لصاحبه في الدّنيا والآخرة، وأنّ من التزم به فاز برضا الخالق قبل رضا الخليقة.

وألهمنا ﷺ أنّ العدل يقضي على غرور من يظنون أنّهم فوق البشر، وبالعدل نُحقق الأمن والأمان، والسّلامة والاستقرار، ونقضي على الفتن والشّحناء، والفرقة والتّعصّب، ونصل إلى جنات النّعيم، وينال كل إنسان كرامته وعزيمته.

والعدل أساس تنمية المُجتمعات وازدهارها ورخائها، وما سقطت حضارة ولا انهارت دولة، إلّا بسبب الظُلم؛ لأنّ الظُلم مؤذن بخراب العمران، وشؤمه عظيم، ونهايته كارثية، وعواقبه وخيمة، فصلّى الله وسلم على من بُعِثَ بالرّسالة، وحكم بالعدالة، وعلّم من الجهالة، وهدى من الضّلالة.

يا أعدلَ النّاس من حافٍ ومُنتعلِ

وأكرمَ الخلقِ في حِلٍّ ومُرتحلِ

عدلُ النّبوة في برديك منتظمٌ

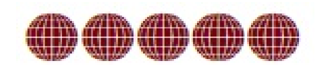
وأنتَ ميزانُ عدلٍ الله للدّولِ

كم ظالمٍ قد طغى حتى إذا ظهرت

شمس النبوّة لم ينبس من الوجلِ

وكم فقيرٍ كسير كنت ناصرَهُ

فِي عِزّ عدلك في زاهٍ من الحُللِ



مُحَمَّدٌ ﷺ دَاعِيًا

هو أوّل الدّعاة، وشيخهم، وإمامهم، وقدوتُهم، وكل داعية لا يمتثل أمره ﷺ، ولا ينتهي عن نهيه، ولا يدعو على طريقته فدعوته باطلة، وأي دعوة تقوم على غير منهجه الشّريف ﷺ فهي إلى انحسار، وانكسار، واندثار؛ ولهذا سلك ﷺ جميع طرق الدّعوة، بل إنّ حياته كلّها دعوة لله، فضحكه وبكاؤه، ورضاه وغضبه، وكلامه وأفعاله، وأخلاقه ومواعظه، وكتبه وفتاويه، وسلمه وحربه، وليله ونهاره، وضربه للأمثال وإيراده للقصص، وزياراته للنّاس، واستقباله للوفود، كلّها دعوة لله.

إنّ أعظم وظيفة له ﷺ أنّه داعية إلى الله، وأشرف عمل قام به في حياته أنّه أقام الحجة على عباد الله، وبلّغ رسالة الله، فقد رفع الله شأن هذا المنصب (منصب الدّعوة إليه)، وأشاد به فقال تعالى: {وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ} [فصلت: الآية 33].

كانت الدّعوة شغله الشّاغل ﷺ، وعمله الأوّل والأخير، دعا إلى الله بأقواله المعصومة المُسدّدة، وأحواله الشّريفة العظيمة، وأفعاله الطّاهرة المؤيّدة بالوحي، كما قال تعالى: {وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [الشورى: الآية 52]، وهو المُرسل بالدّعوة إلى الثقلين: الجن والإنس، وقال له ربّه: {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [يوسف: الآية 108].

فقوله تعالى: (**قُلْ**) دليل على أنّه يُوحى إليه ﷺ، وأنّه يتلقى القرآن من حكيم حميد، وأنّه لا يأخذ الشّريعة من نفسه.

وقوله سبحانه: (**هَذِهِ سَبِيل**)؛ أنّ المنهج واضح، والطّريق معروف.

وقوله تعالى: (أَدْعُو) هذه هي الوظيفة، وهذا هو العمل الدّائم، والمنصب الشّريف المنوط به ﷺ.

وقوله سبحانه: (إِلَى اللهِ) أي الدعوة إلى توحيد الله وعبادته جلّ في عُلاه، وليس إلى نفسه ﷺ أو إلى إمارة أو مُلْك، أو جماعة، أو حزب، أو منظمة، أو مقصد دنيويّ، بل خالصة لوجه الله.

وقوله عزّ وجل: (عَلَى بَصِيرَةٍ) أي على حكمة، وعلم، وتوحيد، ووحي معصوم مقدّس، واتّباع لا ابتداع، وهدى لا ضلال.

وقوله: (أَنَا) فهو الأوّل في هذا الباب وهو المعلم لهذا المنهج، وهو الإمام والقدوة في هذا الطّريق إلى يوم القيامة.

وقوله سبحانه: (وَمَنِ اتَّبَعَنِي) فكل تابع ينال هذا الشّرف، وله موفور الأجر بقدر نصيبه في البذل والعطاء لنشر دعوته ﷺ.

وقوله تعالى: (وَسُبْحَانَ اللهِ) تنزيه للمُرسِل سبحانه، وللمُرسَل ﷺ، وللرّسالة عن الزّيغ والهوى والضّلال، فالكلّ على حقٍ وهدى.

وقوله تعالى: (وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) براءة له ﷺ ولأتباعه الموحّدين من الشّرك الذي هو أعظم ذنب في العالم، ولذلك كان أعظم عمل قام به ﷺ توحيد ربّه والدّعوة إلى عبوديّة خالقه.

وبيّن الله لنبيّه ﷺ طريق الدّعوة فقال تعالى: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [النحل: الآية 125].

(ادْعُ): أي مهمتك دلالة النّاس إلى الصّراط المستقيم، ووظيفتك إرشادهم إلى النّهج القويم.

(إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ): إلى طريقه المُستقيم، الموصل إلى طاعته ورضوانه وجنّته، وليس لمقصد آخر من مقاصد الدنيا.

(بِالْحِكْمَةِ): بوضع الشّيء في موضعه، الكلام المناسب، والفعل المناسب، في الوقت المناسب، فلكل قوم خطاب، ولكل مقام مقال.

(**وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ**): الكلمات السّهلة اللّينة التي لا تكسر قلبًا، ولا تجرح نفسًا.

(**جَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**): بالحوار البنّاء القائم على احترام المحاور، وطلب الحقيقة، وإظهار الحُجّة والبُرهان.

ولم يترك ﷺ موقفًا مُناسبًا إلّا ودعا إلى الله حسب ذاك الموقف، ويُرسل رسائل تصل إلى القلوب مباشرة؛ لأن ذلك أثبت في الذّاكرة، وأوقع أثرًا في النّفس، ومن ذلك ما جاء عن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) أنّ امرأة كانت تبحث عن ولدها بلهفة وشغف، ولمّا وجدته ضمته بقوّة وحنان، فقال ﷺ لأصحابه: «**أَتَرَوْنَ هَذِهِ المَرْأَةَ طارِحَةً وَلَدَهَا في النَّارِ؟** قُلْنَا: **لا وَاللهِ**، فَقَالَ: **لَلهُ أَرْحَمُ بِعِبادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا**» [مُتفق عليه].

ومنها موعظته ﷺ عند القبر، فعن البراء بن عازب (رضي الله عنه) قال: «خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ فِي جِنَازَةِ رَجُلٍ مِنَ الأَنْصَارِ، فَانْتَهَيْنَا إِلَى الْقَبْرِ ولَمَّا يُلْحَدْ (لم ينتهِ حفره)، فَجَلَسَ رَسُولُ الله ﷺ، وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ كَأَنَّمَا عَلَى رُؤوسِنَا الطَّيْرُ، وَفِي يَدِهِ عُودٌ يَنْكُتُ بِهِ فِي الأَرْضِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: **اسْتَعِيذُوا بِالله مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ.. مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، ثم ذكر الحديث الطّويل في وصف عذاب القبر وفتنته**» [رواه أبو داود].

ويقول المستورد بن شداد (رضي الله عنه): كنتُ معَ الرَّكبِ الَّذينَ وقفوا معَ رسولِ الله ﷺ عَلَى السَّخْلَةِ الْمَيِّتَةِ، فقالَ رسولُ الله ﷺ: «**أترونَ هذِه هانت علَى أهلِها حينَ ألقوها؟**، قالوا: من هوانِها ألقوها يا رسولَ الله، قالَ: **الدُّنيا أهونُ علَى الله من هذِه علَى أهلِها**» [رواه الترمذي].

وكان ﷺ إذا أراد أن يُنبّه على خطأ لم يُسم صاحبه، فيقول: «**مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَشْتَرِطُونَ شُرُوطًا لَيْسَتْ فِي كِتَابِ الله؟! مَنِ اشْتَرَطَ شَرْطًا لَيْسَ فِي كِتَابِ الله، فَهْوَ بَاطِلٌ، فَلَيْسَ لَهُ وَإِنِ اشْتَرَط مِئَةَ شَرْطٌ**» [مُتفق عليه].

وربّما لمّح ﷺ في المجلس ليُفهم عنه دون أن يواجه صاحب الخطأ، فحينما استبَّ رجلان عنده ﷺ، واحمرّ وجه أحدهما مغضبًا، قال ﷺ لأصحابه: «**إنّي لأَعْلَمُ كَلِمَةً لو قالَهَا لَذَهَبَ ذَا عنْه ما يَجِد لو قال: أَعُوذُ بالله مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**» [مُتفق عليه].

وبالرّغم من أنّه ﷺ أحبُّ إلى الصّحابة من أنفسهم وأهلهم إلّا أنّه كان يتخوّلهم بالموعظة؛ كي لا يجلب لهم السّآمة والملل، فعن أبي وائل قال: «كانَ عبدُ الله بن مسعود (رضي الله عنه) يُذَكِّرُ النّاسَ في كُلِّ خَمِيسٍ، فقالَ له رَجُلٌ: يا أبا عبدِ الرَّحْمَنِ لَوَدِدْتُ أنَّكَ ذَكَّرْتَنا كُلَّ يَومٍ؟ قالَ: **أمَا إنَّه يَمْنَعُنِي مِن ذلكَ أنِّي أكْرَهُ أنْ أُمِلَّكُمْ، وأنِّي أتَخَوَّلُكُمْ بالمَوْعِظَةِ، كما كانَ النَّبيُّ ﷺ يَتَخَوَّلُنا بها، مَخافَةَ السَّآمَةِ عَلَيْنا**» [مُتفق عليه].

وفي دعوته ﷺ كان يستعمل أسلوب القصص التي تحتوي على عظة وعبرة وفائدة، ويتميّز هذا الأسلوب بتشويق المُتلقي وجذب انتباهه وتحفيزه لأخذ العبرة وتعديل سلوكه للأفضل، فطبيعة النّفس البشريّة تنجذب للقصص، ممّا يؤدي إلى ترسيخ المعاني الإيمانيّة في القلوب، والعقائد الصّحيحة في العقول.

ومن هذه القصص ما ذكره ﷺ كما في «الصحيحين»- عن أصْحاب الغار، وقصَّة اختلاف الملائكة فيمن قتَل مئةَ نفْسٍ ثمَّ تاب بعد ذلك، وقصة الأبْرص والأقْرع والأعْمى التي رواها أبو هريرة (رضي الله عنه) في «الصّحيحين»، ومنها قوله ﷺ: «**لله أفْرَحُ بتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِن رَجُلٍ نَزَلَ مَنْزِلًا وبِهِ مَهْلَكَةٌ، ومعهُ راحِلَتُهُ، عليها طَعامُهُ وشَرابُهُ، فَوَضَعَ رَأْسَهُ فَنامَ نَوْمَةً، فاسْتَيْقَظَ وقدْ ذَهَبَتْ راحِلَتُهُ، حتَّى إذا اشْتَدَّ عليه الحَرُّ والعَطَشُ أوْ ما شاءَ اللهُ،** قالَ: **أرْجِعُ إلى مَكانِي، فَرَجَعَ فَنامَ نَوْمَةً، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ، فإذا راحِلَتُهُ عِنْدَهُ**».

وأوجب الله على رسوله ﷺ أن يبذل طاقته في الدّعوة ولا يكتم شيئًا، فقال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة: الآية 67].

فهل بعد هذا التّهديد من تهديد؟! ووالله وتالله وبالله! لقد بلّغ رسولنا ﷺ الرّسالة أتمّ البلاغ، وأدّى الأمانة أتمّ الأداء.

فكان ﷺ حريصًا تمام الحرص على دعوة النّاس، وتوضيح الرسالة لهم، حتى قال ﷺ: «**لقَد ترَكْتُكُم على مثلِ البَيضاءِ، ليلُها كنَهارِها لا يَزيغُ عنها إلَّا هالِكٌ**» [رواه أحمد].

فما ترك ﷺ أمرًا فيه صلاح للأمة، ولا خيرًا فيه نجاة لها إلّا دلّهم عليه، ولا ترك شرًا أو سوءًا فيه هلاك للأمة إلّا حذرهم منه غاية التّحذير، قال الشّاعر:

بُشرى لنا معشرَ الإسلام إنّ لنا   من العناية ركنًا غير منهزمِ

لمّا دعا الله داعينا لطاعته   بأكرم الرّسل كنّا أكرمَ الأممِ

نزل ﷺ ميدان الدّعوة بكل ما أُوتي من قوة، فدعا في المجامع العامّة، وفي المجالس الخاصّة، وكان ديدنه وكلمته الفريدة الوحيدة التي يرددها ولا يملّ منها: قُولوا: «لا إلهَ إلّا لله، تُفلِحوا» [رواه أحمد].

وفي سبيل هذه الكلمة بذل ﷺ كل ما يُمكن أن يبذله أيّ إنسان في العالم، من الجُهد والعطاء، والتّضحية والفداء، بإخلاص وصدقٍ وتفانٍ، فبذل لِذلك خُطبَه، وحديثَه، وفتاويه، وتفكيره، وماله، ونفسه، حتى في ميدان الجدال، وفي ساحات القتال، مرّة بالبيان والبرهان والقرآن، ومرة بالسّنان عند تطاعن الأقران والتقاء الشّجعان.

وكان ﷺ يستقبل الوفود، ويُقيم المُناظرات، ويستعين بشعراء الدّعوة؛ كحسّان ابن ثابت وعبدالله بن رواحة وكعب بن مالك وغيرهم، والخطباء كثابت بن قيس ابن شمّاس، واستعمل الخطابة والكلمات القصيرة والنّصائح الفردية، وزيارة الأسواق العامة، فأيّ وسيلة لم يطرقها ﷺ؟ وأيّ طريق لم يسلكه؟! وأيّ جهد لم يبذله؟! في سبيل نشر هذه الدّعوة الميمونة المُباركة.

ليس في تاريخ البشريّة على الإطلاق رجل دعا بمراتب الدّعوة وأصنافها وأنواعها وأشكالها؛ كمحمّد ﷺ، فإنّه دعا المُشركين، ودعا أهل الكتاب والمنافقين، ودعا الحاضرة والبادية، ودعا الرّجال والنّساء، ودعا الكبار والصّغار، ودعا الأغنياء والفقراء، وسلك ﷺ سُبل الدّعوة بأنواعها؛ كالدّعوة السّرية والجهريّة، والدّعوة الجماعيّة والفرديّة، وتحدّث إلى الأغنياء بما يجذبهم إلى الدّين، وتكلّم مع الأعراب بما يصلح لهم، ودعا المرأة بما يناسبها، وحاور الطّفل بكلام يفهمه، ووقف عليه الصّلاة والسّلام مقامات الدّعوة، مرّة مُسالمًا، ومرّة مُحاربًا، وأخرى يكتب مُعاهدات، أو يبعث بخطابات، أو يدعو للمفاوضات، أو يرسل رسلًا، أو يدخل في حوار، أو يُلقي موعظة، أو يرتجل خُطبة، أو يرد بفتوى، أو يُجيب بجواب، أو يضرب أمثلة، كُلّها دعوةٌ إلى الله عزّ وجل، ونُصحٌ للأمة.

ذهب ﷺ إلى بلال (رضي الله عنه)، المولى الخادم المسكين الحبشي، مولى أميّة بن خلف، فعرض عليه دعوته، وآمن بلال وعُذّب في ذات الله، وبقي وفيًّا صادقًا حتى أنقذه الله من المشركين،

وصار من أعلام المؤمنين، إلى يوم الدّين، ببركة رسالة سيّد المرسلين، عليه صلوات ربّ العالمين.

وعرض ﷺ دعوته على الشّيوخ، وأولهم: أبوبكر الصّديق، شيخ المكرمات، والمواقف العظيمات، فكان أوّل من أسلم وآمن، ولحقه الشّيخ الثّاني الرّجل العظيم أبو حفص، عمر بن الخطاب، فصارا وزيري رسول الله ﷺ وشيخي الإسلام.

وعرض ﷺ دعوته على الشّباب، فاستجاب له أوّلهم فتى الفتيان، وسيّد الأبطال، وخيرة شباب الأمة أبو الحسن، علي بن أبي طالب، رجل المواقف، وبطل الحروب، ومُصارع الأقران، والفاتك بالشّجعان، وصار منه بمنزلة هارون من موسى عليهما السّلام.

وعرض ﷺ دعوته على خديجة، لمّا عاد من الغار بعد أن أتاه جبريل، وأكرمه الله بالوحي، وقال له جبريل: (**اقرأ**) قال: «**ما أنا بقارئ**» إلى آخر ما قال له، عاد وهو يرتجف من الخوف وقال لخديجة: «**لقد خفت على نفسي**»، فقالت كلمتها المشهورة وقد آمنت وأسلمت: «**والله، لا يُخْزِيكَ الله أبَدًا**» [مُتفق عليه].

فبذلت (رضي الله عنها) كل ما تملك في سبيل نُصرته ﷺ، وآزرته وأعانته وشدّت من أزره.

ودعا ﷺ اليهود إلى الإسلام، وذهب إلى مجالسهم، وأقام الحجّة عليهم، واستدعاهم إلى بيته ﷺ، وحاورهم وأقام لهم البيّنات، وذكر لهم المعجزات، فأسلم منهم عبدالله بن سلام واثنان أو ثلاثة معه، وأَبَى الباقون كبرًا وبغيًا وحسدًا.

وحاور ﷺ النّصارى، ودعاهم إلى دينه، وبيّن لهم المحجّة، وأقام عليهم الحجّة، حتى إنّهم خافوا ولم يباهلوه عليه الصلاة والسلام، وكان ﷺ يعرض تعاليمه ودينه على الأطفال، فأسلم عبدالله بن عباس وهو طفل صغير، وهو الذي قال له ﷺ: «**احفَظِ الله يحفَظْكَ، احفَظِ الله تَجِدْه تجُاهَكَ**» [رواه أحمد].

وقال ﷺ للجارية: «**أيْنَ الله**؟ قالَتْ: **في السَّماءِ**، قالَ: **مَن أنا**؟، قالَتْ: **أنْتَ رَسولُ الله**ِ، قالَ: **أعْتِقْها، فأنّها مُؤْمِنَةٌ**» [رواه مسلم].

وقال ﷺ لعمر بن أبي سلمة وهو طفل صغير يأكل معه، وكانت يد هذا الطفل تطيش في الصَّحْفَةِ: «**يا غُلامُ، سَمِّ الله، وكُلْ بيَمينِكَ،وكُلْ ممّا يَلِيكَ**» [مُتفق عليه].

ومن حرصه ﷺ على دعوة العالمين إرساله الرّسُل للملوك، وكتابة الرّسائل لهم، بألطف العبارات، وأرقّ الكلمات، كرسالته ﷺ إلى هرقل عظيم الرّوم التي جاء فيها: «**بسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِن مُحَمَّدٍ عبدِ الله ورَسولِهِ إلى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ: سَلَامٌ علَى مَنِ اتَّبَعَ الهُدَى، أمَّا بَعْدُ، فإنِّي أدْعُوكَ بدِعَايَةِ الإسْلَامِ، أسْلِمْ تَسْلَمْ، يُؤْتِكَ اللهُ أجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فإنْ تَوَلَّيْتَ فإنَّ عَلَيْكَ إثْمَ الأرِيسِيِّينَ، وَ** {يَاأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} [آل عمران: الآية 64]. [مُتفق عليه]

فانظر كيف دعاه ﷺ ووصفه بالعظمة، وبجّله وألان له القول، وترفق به ليكون أدعى لإسلامه.

لقد كانت قضيّة الدّعوة هي القضية الحاضرة في فؤاده عليه الصّلاة والسّلام، فلمّا أرسل معاذ بن جبل (رضي الله عنه) إلى أهل اليمن قال له: «**إنَّكَ تأْتي قَوْمًا مِن أهْلِ الكِتابِ، فادْعُهُمْ إلى شَهادَةِ أنَّ لا إلَهَ إلّا الله وأنِّي رَسولُ الله**» [رواه البخاري ومسلم].

ولمّا بعث ﷺ علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) قائدًا للجيش يوم خيبر قال له: «**ادْعُهُمْ إلى الإسْلَامِ، وأَخْبِرْهُمْ بما يَجِبُ عليهم مِن حَقِّ الله فِيهِ؛ فَوَالله لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بكَ رَجُلًا واحِدًا، خَيْرٌ لكَ مِن أنْ يَكونَ لكَ حُمْرُ النَّعَمِ**» [مُتفق عليه].

وكان ﷺ يحث على الدّعوة لمنهج الله، ويُبيّن الأجر في ذلك فقال: «**مَن دَلَّ على خَيرٍ، فله مِثْلُ أجرِ فاعِلِه**» [رواه مسلم].

وألهمنا ﷺ أن ندعوَ إلى الله باحترامنا للنّظام والتزامنا بالقيم، ومحافظتنا على الآداب والمبادئ الفاضلة، في كلّ مكان وزمان، فإنّنا بذلك ننال الأجر والمثوبة من ربّ العالمين، فقال ﷺ: «**مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنْ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا**» [رواه مسلم].

وكان عليه الصّلاة والسّلام يدعو أمته وأتباعه إلى يوم الدّين أن يبلّغوا عنه الرّسالة، وينشروا عنه العلم النّافع، باللّطف والقول الجميل والرّفق بالمدعو، وستر العاصي، وجذب المخالف

بألين الطّرق وأرفق السّبل، والتّدرج في الدّعوة، والحكمة في الموعظة، والجدل بالحسنى، فقال ﷺ: «**بَلِّغُوا عَنِّي ولو آيَةً**» [رواه البخاري].

وقال ﷺ: «**نضَّرَ الله امرأً سمِع منّا شيئًا فبلَّغَهُ كما سمعَ، فرُبَّ مُبَلَّغٍ أوعى من سامِعٍ**» [رواه الترمذي].

فلم يكتفِ ﷺ ببلاغ نفسه، بل دعا البقيّة لمُشاركته في هذا التّبليغ، وفي هذه الدّعوة الميمونة المباركة، بل إنّه أشرك أمّته ﷺ في بعثته؛ لأنّه ببركة رسالته صاروا معه في نهجه وفي طريقه، فقال ﷺ: «**إنَّما بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ، ولَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ**» [رواه البخاري].

فانظر إلى لفظة: «**إنّما بُعثتم**» كأنّهم شاركوه في البعثة؛ لأنّهم دخلوا في بركة رسالته، وفي يُمن دعوته فلهم حظ من هذا الشّرف العظيم والأجر الجسيم، وقال ﷺ: «**مَن سَنَّ في الإسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَعُمِلَ بهَا بَعْدَهُ، كُتِبَ له مِثْلُ أَجْرِ مَن عَمِلَ بهَا، ويَنْقُصُ مِن أُجُورِهِمْ شيءٌ، وَمَن سَنَّ في الإسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، فَعُمِلَ بهَا بَعْدَهُ، كُتِبَ عليه مِثْلُ وِزْرِ مَن عَمِلَ بهَا، ويَنْقُصُ مِن أَوْزَارِهِمْ شيءٌ**» [رواه مسلم].

فقل لي بربك: أيّ داعية دعا إلى الله من عهد آدم إلى قيام السّاعة حظي بهذه المقامات المُنيفة، والمواقف الشّـريفة، والصّفات النّبيلة، إلّا رسولنا عليه الصلاة والسّلام؟!

ولك أن تتصور هذا الأجر العظيم، فما دعا داعٍ بعده ﷺ، ولا خطب خطيب، ولا علّم أستاذ، ولا أفتى عالم، ولا تكلّم شيخ، ولا كتب كاتب، ولا ألّف مؤلف، في علوم الإسلام، أو في الدّعوة إلى الله إلّا كان له ﷺ مثل أجور هؤلاء جميعًا؛ لأنّه أوّل من دعا، وأوّل من علّم، وأوّل من هدى ﷺ، فجزاه الله عنّا خير ما جزى نبيًا عن أُمّته.

إنّ الجامعات والمعاهد والأكاديميات تُخرّج العظماء والعباقرة والمبدعين والمخترعين والمكتشفين، أمّا محمد ﷺ فما أخرجه للنّاس إلّا الله وحده، فهو سبحانه الذي تولّى تعليمه، وتربيته وتأديبه، وهدايته وعصمته، وتسديده وتوفيقه.

وإذا كان الله عزّ وجل يقول عن أمته: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ} [آل عمران: الآية 110].

فكيف يكون إمامها ونبيّها؟! فهو خير البشر، وأشرف من خلق الله على الإطلاق، نسأل الله أن يرزقنا حسن اتّباعه، والاقتداء بهديه، والاتساء بسنّته، والثّبات على نهجه، حتى نرد على حوضه ﷺ.

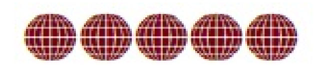
وعند تأمّل ما بذله ﷺ في سبيل الدّعوة، وحرص عليه فإنّك لو اخترت وصفًا له ﷺ مع وصف النّبوة لقلت: كان (**دَاعِيًا إِلَى الله**)، ولذلك يقول له ربه: {يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا} [الأحزاب: الآية 45 - 46].

وقال ﷺ للنّاس في المشهد العظيم يوم عرفة في خطبته التّاريخية الرّبانيّة العظيمة: «**وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي، فَما أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟** قالوا: **نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ، فَقَالَ بإصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ، يَرْفَعُهَا إلى السَّمَاءِ وَيَنْكُتُهَا إلى النَّاسِ: اللهمَّ، اشْهَدْ، اللهمَّ اشْهَدْ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ**» [رواه مسلم].

ونحن نشهد أنّه قد بلّغ رسالة ربّه، وأدّى أمانة مولاه، ونصح الأمّة وكشف الله به الغمّة، فجزاه الله عنّا خير ما جزى نبيًا عن أمّته.

كُن داعيًا إلى الله على نهج رسول الله، بحُسن تعاملك مع الآخرين، وتبليغهم ما تيسّر لك من آية أو حديث بأي وسيلة تجدها، بنصيحة صادقة، بمعاملة حسنة، بإحسان إلى جار، بصلة رحم، بمساعدة محتاج، بوجه طلق، بإغاثة ملهوف، بإماطة أذى عن طريق، بعمل صالح، بأقوالك وأفعالك، لتكن ممّن قال الله عنهم: {وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ} [فصلت: الآية 33].

محمدٌ في فؤاد الغارِ يرتجِفُ	في كفّه المجد والتّاريخ والشّرفُ
مزمّلٌ فِي رداء الوحي جلّلهُ	نورٌ من الله لا صوفٌ ولا خَصَفُ
عليه منّي صلاة الله أبعثُها	إلى رياضِ الهُدى والخَير تزدلِفُ
صلاةُ صَبٍ مُحبٍ والهٍ دَنِفٍ	بذكر سيرته الغرّاء لي شَغَفُ





مُحَمَّدٌ ﷺ زَاهِدًا

سافر ﷺ بروحه من عالم الدّنيا الفانيّة إلى منازل الآخرة الباقيّة، فلم يكن للدّنيا في قلبه الطّاهر أي مكان أو اعتبار، لا يُفكّر فيها قلّت أو كثرت، أقبلت أو أدبرت، فقد أغناه الله بميراث النّبوّة، وأكرمه بتاج الرّسالة، وأعلى قدره بما عنده من كنوز الحكمة، فكان زهدُه ﷺ زهد من علم فناءها، وعرف جفاءها، وسُرعة زوالها، وقلّة زادها، وأنّ ما أعده الله لأوليائه في الآخرة من نعيم مقيم، وأجر عظيم، وخلود دائم، أغلى وأفضل من كل زخارف دار الزّوال والفناء، وكان يقول ﷺ: « **مَا لِي وَلِلدُّنْيَا ؟ مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا**» [رواه الترمذي].

ووعده ربّه فقال له: {وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى} [الضحى: الآية 4] أي أنّ ما أعدّه الله لك في الآخرة أعظم وأكرم ممّا أعده لك في الدّنيا، فما أعظم هذا الوعد من ربّ العالمين، لنبيّه الكريم! وما قيمة الحياة الدّنيا عنده ﷺ؟!

وكيف لا يزهد فيها بعد هذا الوعد؟! ألا يزهد فيها بزخرفها ومتاعها وكلّ ما فيها، والله يُنزّل عليه: {إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ } [الكوثر: الآية 1]؟!

سواءً كان المقصود بالكوثر أنّه الخير الكثير، أو نهر في جنّات النّعيم، فالمعنى أنّ عطاءَه عند الله مُدّخر ومحفوظ في الآخرة، ولهذا لم يلتفت ﷺ إلى الدّنيا؛ لأنّ روحه الطّاهرة الشّريفة الكريمة أرادت بصدق ما عند الله، كما قال ﷺ في سكرات موته: «**بلِ الرفيقَ الأعْلى**» ثَلَاثًا [مُتفق عليه].

تنظر إليه ﷺ وهو إمام المُسلمين، وقائد المؤمنين، وأفضل النّاس أجمعين، فتجده يسكن بيتًا من طين، مُتقارب الأطراف، داني السّقف، وينام على حصير بال، ويبحث عن تمرات تُقيم صُلبه، أحيانًا يلبس إزارًا ورداءً فحسب، وما أكل على مائدة مُرتفعة، وربما أرسل له أصحابه الطّعام لعلمهم أنّ الله صرف قلبه عن غرور الدّنيا ومتاعها الزّائل تهذيبًا لروحه، وحفظًا لدينه، وإكرامًا لنفسه عن أدرانها، يقول ﷺ: **إنَّ أصْدَقَ كَلِمَةٍ قالَها شاعِرٌ كَلِمَةُ لَبِيدٍ:** «**أَلا كُلُّ شيءٍ ما خَلا اللهَ باطِلٌ**» [مُتفق عليه].

مُلهم العالم رسول الله ﷺ هو الأسوة العُظمى في القناعة، والقُدوة الأولى في الإقبال على الآخرة وترك الدّنيا، وعدم الالتفات إليها، أو الفرح بها، أو الحرص على جمعها، فلم يبنِ قصرًا، ولم يدّخر مالًا، ولم يخلّف مزرعةً ولا بُستانًا.

قوله، وفعله، وحاله، جميعها تدعو إلى الزّهد في الدّنيا، والعمل والاستعداد للآخرة، يقول ﷺ: «**قَدْ أَفْلَحَ مَن أَسْلَمَ، وَرُزِقَ كَفَافًا، وَقَنَّعَهُ اللهُ بما آتَاهُ**» [رواه مسلم].

وقد عوّضه الله تعالى عن زهده ﷺ في الدّنيا بوحي كريم، وقرآن عظيم فقال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ * لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ} [الحجرات: الآية 87-88].

والمعنى ما دام آتيناك سورة الفاتحة وهي السّبع المثاني، وآتيناك القرآن العظيم الذي فيه كل كنوز المعارف، وجميع معادن الفتوحات، وكافة أبواب البركات، فلا تُطلق عينيك إلى زخارف الدّنيا الفانِيَة، وإلى مباهجها الفاتِنَة الزّائلة، فالذي عندك أغلى وأعظم ممّا عند الآخرين، فاهنأ بعطاء الله، وافرح بما آتاك الله، كما قيل:

خُذوا كلّ دنياكم واتركُوا	فُؤاديَ حرًا طليقًا غريبًا
فَإنّي أعظمكم ثروةً	وإن خلتموني وحيدًا سليبًا

ومن الزهّاد مَن زهد في المال، ومنهم مَن زهد في المنصب، ومنهم مَن زهد في الجاه، ومنهم مَن زهد في الثّناء، إلى آخر تلك القائمة من مقاصد الدّنيا ومُغرياتها. أمّا مُلهم العالم ﷺ فقد

زهد في هذا كله حالًا، وقولًا، وفعلًا، زهدًا عامًّا شاملًا، كاملًا، وكان يقول: «**لَوْ كانَ لِابْنِ آدَمَ وادٍ مِن ذَهَبٍ، أحَبَّ أنَّ له وادِيًا آخَرَ، ولَنْ يَمْلأَ فاهُ إلَّا التُّرابُ، واللهُ يَتُوبُ على مَن تابَ**» [مُتفق عليه].

فزهد ﷺ في المال، وكان يقول: «**تَعِسَ عبدُ الدِّينَارِ، وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ، وَعَبْدُ الخَمِيصَةِ**» [رواه البخاري].

ويُقسّم ﷺ الأموال على النّاس، ثم لا يحوز منها درهمًا واحدًا، ويوزّع الإبل والبقر والغنم على الأصحاب والأتباع والمؤلّفة قلوبهم، ثم لا يذهب بناقة، ولا بقرة، ولا شاة.

ولمّا قدم أبو عبيدة (رضي الله عنه) بمال من البحرين، وعلمت الأنصار بقدومه اجتمعوا وتبسّم ﷺ حين رآهم، وقال: «**أظنكم قد سمعتم أنّ أبا عبيدة قد جاء بشـيء؟**، قالوا: **أجل يا رسول الله**، قال: **فأبْشِرُوا وأَمِّلُوا ما يَسُرُّكُمْ، فَوَاللهِ لا الفَقْرَ أَخْشَى علَيْكُم، ولَكِنْ أَخَشَى علَيْكُم أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كما بُسِطَتْ علَى مَن كانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كما تَنَافَسُوهَا وتُهْلِكَكُمْ كما أَهْلَكَتْهُمْ**» [مُتفق عليه].

وزهد ﷺ في القصور والدّور، والحدائق الغنّاء والبساتين الفيحاء، فسكن في غرفة من طين، ومات في غرفة من طين، ودُفن في غُرفة من طين، وتصف لنا فراشه ﷺ زوجُه أمّ المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) فتقول: «**كانَ فِرَاشُ رَسولِ اللهِ ﷺ مِن أدَمٍ، وحَشْوُهُ مِن لِيفٍ**» [مُتفق عليه].

وذات يوم دخل عُمر بن الخطاب (رضي الله عنه) على النّبي ﷺ، فوجده عَلَى حَصِيرٍ ما بيْنَهُ وبيْنَهُ شيءٌ، وتَحْتَ رَأْسِهِ وِسَادَةٌ مِن أدَمٍ حَشْوُهَا لِيفٌ، وإنَّ عِنْدَ رِجْلَيْهِ قَرَظًا مَصْبُوبًا، وعِنْدَ رَأْسِهِ أهَبٌ مُعَلَّقَةٌ، فلمّا رأى أثَرَ الحَصِيرِ في جَنْبِهِ ﷺ بَكَى (رضي الله عنه)، فَقالَ ﷺ: **ما يُبْكِيكَ؟**، فَقال عمر: **يا رَسولَ اللهِ إنَّ كِسْرَى وقَيْصَرَ فِيما هُما فِيهِ، وأَنْتَ رَسولُ اللهِ!** فَقالَ ﷺ: **أما تَرْضَى أنْ تَكُونَ لهمُ الدُّنْيَا ولَنَا الآخِرَةُ**» [مُتفق عليه].

ومعنى: «**أدَم**» أي: جِلد، و«**القَرَظ**»: نوع من شجرٍ عظامٍ لها سُوقٌ غِلاظٌ أَمثال شجر الجَوز، و«**مصبوبًا**» أي: ورق القرض كان مجموعًا عند رجليه.

وزهد ﷺ في المنصب فلم يتولّ وزارة، ولا إمارة، ولم يطلب مُلكًا، بل اختار أن يكون عبدًا رسولًا، فعن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: «**جلس جبريلُ إلى النّبيّ ﷺ فنظر إلى السّماءِ، فإذا**

ملَكٌ ينزلُ، فقال له جبريلُ: **إن هذا المَلَك ما نزل منذُ خُلِقَ قبلَ الساعةِ.** فلما نزل قال: **يا محمدُ أرْسَلَني إليك ربُّك، أفَمَلِكًا نبيًّا يجعلك أو عبدًا رسولًا؟**، قال له جبريلُ: **تواضَعْ لربِّك يا محمدُ!**، فقال ﷺ: **لا، بل عبدًا رسولًا**» [رواه أحمد].

وزهد ﷺ في الجاه فلم يتّخذ حشمًا، ولا خدمًا، ولم يكن له موكب، ولم يهتم بالشّارات، ولا المهرجانات، ولا المظاهر الخدّاعة، وإنّما كان متواضعًا، سهلًا، زاهدًا في إغراءات الدّنيا، يأكل كما يأكل الفقراء، ويجلس كما يجلس المساكين، ويدعو ربّه فيقول: «**اللهمَّ لا عَيْشَ إلَّا عَيْشُ الآخِرَة**» [مُتفق عليه].

وزهد ﷺ في المديح والثّناء، فما كان يغرّه بهرج الحديث، ولا زخرف القول، يرفض إطراءه، وينهى عن الغلوّ في مدحه، ويقول: «**لَا تُطْرُونِي، كما أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فإنَّما أنَا عَبْدُهُ، فَقُولوا: عبدُ الله، وَرَسُولُهُ**» [رواه البخاري].

فأيّ زهد أعظم من زهد هذا الإمام المعصوم ﷺ الذي جمع كل صور الزّهد!؟ فكلّ الزّاهدين بعده إنّما توزّعوا قطرة من زهده ﷺ، وتقسّموا ذرة من هذا الخُلُق الشّريف؛ لأنّ زهده تغلّف بعصمة إلهيّة، وصدر عن نبوّة ربّانية، وتمام اليقين أنّ هذه الدّنيا لا تساوي عند الله جناح بعوضة، ولا قطرة ماء.

قال ﷺ: «**والله ما الدُّنْيا في الآخِرَةِ إلَّا مِثْلُ ما يَجْعَلُ أحَدُكُمْ إصْبَعَهُ هذِه - وأَشارَ بالسَّبَّابَةِ - في اليَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بمَ تَرْجِعُ؟**» [رواه مسلم].

لقد عاش ﷺ الحياة الرّبّانية، لا الرّهبانية، ولا الفرعونية، والربّانية هي أخذ القوت وما تيسّر من الدنيا، وترك فضول الأشياء، فكان يقول ﷺ: «**اللهمَّ اجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ قُوتًا**» [مُتفق عليه].

(**قُوتًا**): أي الذي يتقوّت به، ويسدّ رمقه فقط، لا يطلب ولا يطمع في أكثر من ذلك، فلم يكن له خزانة خاصة للطّعام يكتنز فيها الحبوب ويجمع فيها الثّمار، بل كان على قوت يومه الذي يُشاركه فيه النّاس، ولم يكن له مستودع للملابس يجمع فيه ألوانها، وأشكالها، وأصنافها، بل كان يلبس ما وجد من دون تكلّف.

أمّا الرّهبانية: فهي الانقطاع عن اللّذائذ، وتحريم الطيّبات على النّفس.

والفرعونيّة: هي الانغماس في الشّهوات، واللّهث وراء المُغريات.

وهناك زهد عقيم، ومذهب سقيم في التّخلّي عن الدّنيا، وقد رفضه ﷺ، ألا وهو «**زهد البلهاء الدّراويش**» الذين يضيّعون المال بحجّة الزهد، حرصوا على الدّنيا واجتهدوا، فلمّا أعجزتهم زهدوا.

أمّا رسولنا ﷺ فأتته الدّنيا طالبة، وجرت خلفه راغبة، فأخذ منها بقدر ما يسدّ الرّمق، ويقيم الأوَد، واشتغل بالفضائل عن الفُضول، وبالكفاف عن الإسراف، وبالقُوت عن الياقوت، وبطلب العزّ عن جمع الكنز:

وزهدكَ والدّنيا إليكَ فقيرةٌ	وجودك والمعروف في النّاس يُنكرُ
وجاءت لك الدّنيا تميل وتصطفي	وأنتَ من الدّنيا أجلّ وأكبرُ

وكان ﷺ يُوصي بالقناعة، والرّضا بالكفاف فيقول: «**ارضَ بما قسمَ الله لَكَ تَكن أغنى النّاسِ**» [رواه الترمذي بسند حسن].

وقال ﷺ: «**مَن أصبح آمنًا في سِرْبِه، معافًى في جَسدِه، عندَه طعامُ يومِه، فكأنَّما حِيزَتْ لهُ الدُّنيا**» [رواه الترمذي بسند حسن].

ونهى ﷺ عن إضاعة المال، وأمر بحفظه، والاقتصاد في إنفاقه، والتوسّط في بذله. وكان مع زهده ﷺ يأكل الطيّب إذا حضر، ويقول: «**أَيُّها النّاسُ، إنَّ الله طَيّبٌ لا يَقْبَلُ إلَّا طَيّبًا، وإنَّ الله أمَرَ المُؤْمِنِينَ بما أمَرَ به المُرْسَلِينَ**»، فقالَ: {يَاأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا} [المؤمنون: الآية 51]، [رواه مسلم].

وكان ﷺ يُحبّ الطّيب، والمسك، ويلبس الجميل، ويقول: «**إنَّ الله جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمَالَ**» [رواه مسلم].

وكان لا يرد موجودًا، ولا يتكلّف مفقودًا، ولم يكن زهده ﷺ اضطرارًا بل كان اختيارًا، فإنّ الدّنيا عُرضت عليه، وكان بإمكانه ﷺ لو رغب فيها أن يحوز الكنوز المدّخرة، والقناطير المقنطرة.

وأنا أطرح هنا سؤالًا للعالم: أروني عظيمًا أو زعيمًا أو قائدًا جرت الأودية إليه بغنائم الإبل والبقر والغنم، وأتته الكنوز من كل جهة فوزّعها وقسّمها، ثم نام في ليلته تلك على خبز من شعير،

وتوسّد الحصير؟!

عُرضتْ لك الدّنيا بكامل زيّها	في زخرف من حسنها تتبهرجُ
فصدفت عنها زاهدًا متورّعًا	وإلى علا الفردوس روحك تعرجُ
حتّى الجبال الشّم من ذهبٍ أتت	طوعًا إليك وفي مقامك تُسرَجُ
فعففتَ عن كلّ الحطام تكرّمًا	يكفيك وحي في الحياة ومنهجُ

وانظر إليه ﷺ وهو يضع يده على منكب عبدالله بن عمر (رضي الله عنهما) في لمسة كلّها حنان، وإيحاء، وتأثير، وإلهام، ويقول له وهو يختصر مشهد الزّهد في جملة واحدة: «**كُنْ في الدُّنْيَا كَأنَّكَ غَرِيبٌ أوْ عَابِرُ سَبِيلٍ**» [رواه البخاري].

والغريب هو الذي لا يتعلّق بسكنٍ، ولا بأهلٍ، ولا بمالٍ، بل ينتظر الرّحيل في أيّ لحظة، وهذا هو حال المؤمن الصّادق الذي اختصر مشهده ﷺ في كلمة (**غَرِيب**)، وكأنّه يقول: إن لم تستطع أن تكون غريبًا فكن (**عَابِرَ سَبِيلٍ**)، وهو أقلّ درجة، وعابر السّبيل قد يأخذ معه عصا أو بعض الزّاد يُوصله إلى مكانه، وهذا حال المؤمنين الصّادقين الذين يأخذون الدّنيا طريقًا يُوصلهم إلى الآخرة، وسبيلًا إلى رضوان الله في جنّات النّعيم، ويوقنون تمام اليقين أنّها دار ممر لا دار مقر، مُقتدين بإمامهم، ونبيّهم، ومُلهمهم، محمد بن عبدالله.

ومن زهده ﷺ أنّه لم يُورّث درهمًا ولا دينارًا، ولا فضّة ولا ذهبًا، ولا كنوزًا ولا قصورًا، بل ورّث ما هو أفضل من ذلك، وأشرف، وأعظم، وأجلّ، ورّث الرّسالة المُحمّدية الخالدة، ونور الإسلام الهادي.

أمّا عن متاع الدّنيا فقال - بأبي هو وأمّي-: «**لا نُورَث؛ ما ترَكنا صدقةٌ**» [مُتفق عليه].

وتقول أمّ المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) : «**تُوُفِّيَ رَسُولُ الله ﷺ وَمَا فِي رَفِّي مِنْ شَيْءٍ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ إلَّا شَطْرُ شَعِيرٍ**» [مُتفق عليه].

ويقول عمرو بن الحارث (رضي الله عنه): «**ما تَرَكَ رَسولُ الله ﷺ دِينارًا، ولا دِرْهَمًا، ولا عَبْدًا، ولا أمَةً، إلّا بَغْلَتَهُ البَيْضاءَ الَّتي كانَ يَرْكَبُها، وسِلاحَهُ، وأَرْضًا جَعَلَها لِابْنِ السَّبِيلِ صَدَقَةً**»

[رواه البخاري].

وآمل منك أن تتأمّل هذه الحقيقة: بعد موته ﷺ فتح الله على أتباعه الدّنيا، وأُسّست بعد وفاته إلى اليوم أكثر من مئة دولة إسلاميّة، من شرق الصّين إلى غرب أوروبا، على مرّ أربعةَ عشرَ قرنًا من الزّمان، يفتحون الخزائن، ويحصلون على الكنوز، ويُسيّرون الذّهب والفضّة، ويمتلكون الدّور والقصور، وينعمون بالحدائق والأنهار، وإمام هذه الأُمّة، وقُدوتها، ومُعلّمها، والسّبب بعد الله في هذا المُلك، وهذا الغنى، وهذا المجد، هو النّبي المعصوم محمد بن عبدالله ﷺ، ثم يكون أزهد هؤلاء جميعًا، وأقلّهم متاعًا، وأكثرهم سخاءً وبذلًا وعطاءً، فصلّى الله وسلّم عليه دائمًا وأبدًا.

كفاكَ عنْ كلِّ قصرٍ شاهقٍ عمدٍ

بيتٌ من الطينِ أو كهفٌ من العَلمِ

تبنِي الفضائل أبراجًا مشيَّدةً

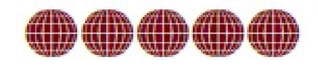
نُصْبَ الخيامِ التي منْ أروعِ الخيمِ

إذا مُلوكُ الوَرَى صَفّوا مَوَائدَهُم

عَلَى شَهِيٍ من الأكْلات وَالأُدمِ

صففتَ مائدةً للرّوح مطعمُهَا

نورٌ مِنَ الوَحْيِ أو عَذْبٌ مِنَ الكلمِ



مُحَمَّدٌ ﷺ وَفِيًّا

أثنى الله عزّ جلَّ على خُلُق الوفاء على رُسله الكِرام، فقال سُبحانه عن إسماعيل (عليه السلام): {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا} [مريم: الآية 54]، وقال عن إبراهيم (عليه السلام): {وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى } [النجم: الآية 37]؛ ولأنّ الوفاء من صفات الأنبياء، وأجلّ أعمال الأولياء، جاء خاتم الرّسل محمّد بن عبدالله ﷺ بالوحي المُقدّس لتثبيت أصل الوفاء، والتّأكيد على احترام العهود والعقود والمواثيق بين النّاس، وتعميق هذا المبدأ في النّفوس، فأرشد المؤمنين لأمر الباري تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ} [المائدة: الآية 1]، وقوله تقدّس اسمه: {وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً} [الإسراء: الآية 34].

وبشّر ﷺ أهل الوفاء بأنّهم من أهل الجنّة كما قال الباري: {وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} [البقرة: الآية 177].

وبشّرهم أيضًا ﷺ أنّهم خالدون في الفردوس الأعلى كما وصفهم الله تعالى فقال عنهم: {وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ} [المؤمنون: الآية 8].

وكان ﷺ ينهى عن الغدر ويقول: «**لِكُلِّ غادِرٍ لِوَاءٌ يَومَ القِيامَةِ يُعْرَفُ بِهِ**» [مُتفق عليه].

واستعاذ ﷺ من الخيانة فقال: «**أعوذُ بِكَ مِنَ الخِيانَةِ فأنّها بئسَتِ البِطَانَةُ**» رواه أبو داود.

وتبرّأ ﷺ من كل خُلق يُنافي الوفاء ويهدم هذا الهيكل الوطيد فقال ﷺ: «**أَرْبَعٌ مَن كُنَّ فيه كانَ مُنَافِقًا، أَوْ كَانَتْ فيه خَصْلَةٌ مِن أَرْبَعَةٍ: كَانَتْ فيه خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حتَّى يَدَعَهَا: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وإذَا**

وَعَدَ أَخْلَفَ، وإذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وإذَا خَاصَمَ فَجَرَ» [مُتفق عليه].

أكرم المُعطين، وأجود المُتفضّلين، هو ربّ العالمين، وحقّه سُبحانه أن يُشكر ولا يُكفر، وبالحمد يُذكر، ورسولنا ﷺ أعظم من وفّى مع ربّه في كل منازل الولاية ومقامات العبودية؛ فكانت حياته ﷺ قصة من الوفاء، وديوانًا من الثّناء، لربّ الأرض والسّماء.

كان ﷺ وافيًّا مع الله بقلبه فأخلص عبوديته لربّه وطهّره بذكر مولاه، وكان وافيًّا بلسانه، فكان دائم التّقديس للعليّ القدير، كثير التّسبيح للطيف الخبير، وافيًا باتّباع أوامره سُبحانه، فلمّا قال له ربّه: {يَاأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً} {} [المزمل: الآية 1- 2]، قام ﷺ حتى تورَّمت قدماه، وَقِيلَ لَهُ: قَدْ غَفَرَ الله لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، فقَال ﷺ: «أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا» [مُتفق عليه].

وأوفى لربه لمّا أمره: {يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ} [المائدة: الآية 67].

فامتثل لأمره خير امتثال، وبلّغ الرّسالة، وأدّى الأمانة، ونصح الأمة، وهدى النّاس إلى الصّـراط المُستقيم، وبيّن لهم دين الله القويم.

فكان ﷺ وافيًا بكل جوارحه، وسخّرها وفاءً لله؛ لأنّه سُبحانه أعطاه عطيّة لم يُعطها أحدًا من العالمين، ومنحه منحة لم يمنحها بشرًا من الأوّلين ولا الآخرين، وهي أن جعله خاتم الأنبياء، وسيّد الأوّلِياء، وأفضل من حملته الغبراء وأظلته السّماء.

ووفى ﷺ مع أمّه فلم يجحد معروفها، ولم ينس جميلها، فعن أبي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) قال: «زَارَ النّبي ﷺ قَبْرَ أُمِّهِ فَبَكَى وَأَبْكَى من حَوْلَه» [رواه مسلم].

ووفّى مع أمّه من الرّضاعة حليمة السّعدية وبرّ بها، كما أخبر أبو الطُّفَيْلِ (رضي الله عنه) فقال: «**إن امْرَأَةً دَنَتْ إلى النّبيّ ﷺ فَبَسَطَ لها رِدَاءَهُ فَجَلَسَتْ عليه، فقلت: من هِيَ؟ فَقَالُوا: هذه أمّه التي أَرْضَعَتْهُ**» [رواه أبو داود].

وأكرم ابنتها الشّيماء أخته من الرّضاعة وأجزل عطيّتها، وعظّم هديتها، وأحسن إلى قومها من هوازن بعد غزوة حنين وفتح الطّائف، فأطلق أسراهم، وأكرم مثواهم. [ذكرها ابن حجر في

«الإصابة»].

ومن صور وفائه لابن عمّه علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) الذي أسلم صغيرًا، وعاصر الدّعوة شابًّا، وبذل روحه فداءً للنّبي ﷺ، وقام المقامات المشهودة، والمواقف المعهودة، شجاعة ودفاعًا عن الملّة، فإنّ رسول الله ﷺ عرف له ذلك، وقال في خيبر: «**لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يُحِبُّهُ اللهُ ورَسولُهُ**» [مُتفق عليه].

وقال لعلي: «**أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بمَنْزِلَةِ هارُونَ مِن مُوسى؟**» [مُتفق عليه]. إلى غير ذلك من الثّناء الجزيل على أمير المؤمنين أبي الحسن(رضي الله عنه).

ووفّى ﷺ لزوجه خديجة (رضي الله عنها) التي واكبت فجر دعوته، وصحبته وقت الإيذاء والمشقة وأيام الحزن، واحتسبت معه، وشدّت من أزره، وقوّت عزيمته، وأسعفته بمالها، ورأيها، وصبرها، فلمّا ماتت حزن عليها حزنًا شديدًا حتّى سُمي ذاك العام بعام الحزن.

وما ترك ﷺ ذكراها، ولا الدّعاء لها، ولا الحنين لأيامها، وقد بشّرها قبل موتها ببشارة الله عن طريق جبريل: «**أن الله يُقرؤها السلام ويُبشّرها ببَيْتٍ مِن قَصَبٍ، لا صَخَبَ فِيهِ، ولَا نَصَبَ**» [مُتفق عليه].

حتى إنّ عائشة أمّ المؤمنين (رضي الله عنها) وهي لم ترَ خديجة، ولم تجتمع بها كانت تغار منها أكثر من نسائه الأخريات؛ لكثرة ما يذكرها، ويُثني عليها، ويبرّ صديقاتها، فعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: «**ما غِرْتُ علَى امْرَأَةٍ ما غِرْتُ علَى خَدِيجَةَ، ولقَدْ ماتت قَبْلَ أنْ يَتَزَوَّجَنِي بثَلَاثِ سِنِينَ، لِما كُنْتُ أسْمَعُهُ يَذْكُرُهَا، ولقَدْ أمَرَهُ رَبُّهُ عَزَّ وَجَلَّ أنْ يُبَشِّرَهَا ببَيْتٍ مِن قَصَبٍ في الجَنَّةِ، وإنْ كانَ لَيَذْبَحُ الشَّاةَ ثُمَّ يُهْدِي إلى خَلَائِلِهَا**» [مُتفق عليه].

وذات يوم استأذنت هالة أخت خديجة، فسمع النّبي ﷺ صوتها فقال: «**اللهمَّ هَالَةُ بنْتُ خُوَيْلِدٍ**» [مُتفق عليه].

حنينًا لخديجة ووفاءً لها، فبقيت ذكرى خديجة معه والحنين لها، والوفاء مُلازم له ﷺ حتى لقيَ ربّه.

ومن وفائه ﷺ لأصحابه أنّه كان يبرّهم، ويصلهم، ويدعو لهم، ويفرح لفرحهم، ويأسى لأساهم، فيعود المريض، ويُشيّع الجنازة، ويُبارك للمتزوج، ويُعطي الفقير، ويُساعد المسكين، ويشفع للمحتاج، فما من أحد منهم إلّا وقد وصلته صورة من صور برّه ووفائه ﷺ.

ومن تمام وفائه ﷺ أنّه كان يعرف المقامات التي وقفها أصحابه، والبذل الذي بذلوه، والأذى الذي تلقوه، فيحفظ لكلٍّ مكانه، ويعرف لكلٍّ ميزانه، فهذا صاحبه الأوّل أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) وأرضاه، كان أوّل من أسلم، وصاحبه الذي هاجر معه باذلًا نفسه وماله؛ لنصرة الإسلام، فكان ﷺ يُقدّمه دائمًا، ويُنوّه بذكره، ويحتفي به ويحفظ له سابقته وأيامه؛ وفاءً ونبلًا وشهامةً، ويقول ﷺ: «**إنَّ أَمَنَّ النّاسِ عَلَيَّ في مالِهِ وَصُحْبَتِهِ أَبُو بَكْرٍ، ولو كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا لاتَّخَذْتُ أَبا بَكْرٍ خَلِيلًا، وَلَكِنْ أُخُوّةُ الإسْلامِ، لا تُبْقَيَنَّ في المَسْجِدِ خَوْخَةٌ إلّا خَوْخَةَ أَبِي بَكْرٍ**» [مُتفق عليه].

والخوخة: هي باب صغير كالنافذة الكبيرة تكون بين بيتين ينصب عليها باب. حتى في مرض موته ﷺ لم ينس الوفاء لأبي بكر فيقول: «**مُروا أبا بَكرٍ فليصلِّ بالنَّاسِ**» [مُتفق عليه].

ووفّى ﷺ مع الأنصار الذين استقبلوه ونصـروه وفدوه بالأموال والأرواح ففاض عليهم بِحبِّه ومدْحِه وثنَائِه، بل جعل ﷺ حُبّ الأنصار من علامات الإيمان فقال: «**حُبُّ الأنْصارِ آيَةُ الإيمانِ، وبُغْضُهُمْ آيَةُ النِّفاقِ**» [مُتفق عليه].

ودعا ﷺ لهم فقال: «**اللهمَّ اغْفِرْ لِلأَنْصارِ، ولأَبْناءِ الأنْصارِ، وأَبْناءِ أبْناءِ الأنْصارِ**» [مُتفق عليه]، وأثنى عليهم فقال: «**الأنْصَارُ شِعَارٌ وَالنَّاسُ دِثَارٌ، وَلَوْلَا الهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنَ الأنْصَارِ، ولو سَلَكَ النَّاسُ وَادِيًا وَشِعْبًا، لَسَلَكْتُ وَادِيَ الأنْصَارِ وَشِعْبَهُمْ**» [مُتفق عليه].

ومن وفائه ﷺ لأصحابه ما حفظه للمُستضعفين الأوّلين الذين تلقوا الضّربات، وتجرّعوا الغصص، ولقوا الألاقي، وذاقوا الشّدائد في سبيل الله؛ كبلال بن رباح الذي جعله ﷺ مؤذّنًا وصاحبًا ومرافقًا، وبشّـره بأنّه سمع دفَّ نعليه في الجنة. وكذلك عمار بن ياسر، وصُهيب بن سنان، وخَبّاب بن الأَرَتّ، وبقيّة المُستضعفين، الصّابرين، المُحتسبين، الثّابتين، على نهج ربّ العالمين.

وهذا عثمان بن مظعون(رضي الله عنه) وقد تُوفي بعدما أُوذِيَ في سبيل الله، فلمَّا ماتت زينبُ ابنةُ رسولِ الله ﷺ قال وهو يُشيّعها:«**الْحَقِي بسَلَفِنا الخيِّر عُثْمانَ بنِ مَظْعونٍ**» [رواه أحمد].

فوفّى ﷺ مع جميع صحابته الكرام رضوان الله عليهم، وأوصى بهم خير وصيّة فقال: «**لا تَسُبُّوا أصْحابِي، فَلو أنَّ أحَدَكُمْ أنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، ما بَلَغَ مُدَّ أحَدِهِمْ، ولا نَصِيفَهُ**» [مُتفق عليه].

غمر ﷺ بوفائه جميع أصحابه، فعاشوا معه في بحبوحة من النّعيم، وفردوس من الأنس، وجنّة من الرّضا، ووجدوا معه كل معاني الأمن والإيمان، والسّلوة والإحسان، فصلاة الله وسلامه عليه ما ارتفع أذان، وتُلي قرآن.

إنّ وفاءه ﷺ صار مضرب الأمثال على مرّ الأجيال، وصرحًا مشيدًا، وخُلُقًا فريدًا، شهد به أعداؤه قبل أصدقائه، فقد أخبر أبو سفيان (رضي الله عنه): أنّه لمّا كان في بلاد الرّوم قبل إسلامه وبعدما وصلت رسالة رسول الله ﷺ إلى هرقل، طلب هرقلٌ مُقابلته لسؤاله عن النّبي ﷺ، وكان ممّا سأل: «**هَلْ يَغْدِرُ؟**»، فقال أبو سفيان: لا، فقال هرقل في نهاية حِواره مع أبي سفيان: وَسَأَلْتُكَ: **هَلْ يَغْدِرُ؟ فَزَعَمْتَ أَنَّهُ لا يَغْدِرُ، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ لا تَغْدِرُ**. [مُتفق عليه]

وهذه كانت شهادة أبي سفيان قبل أن يُسلم بوفاء النّبي ﷺ، وقد شهد بوفائه ﷺ جميع أعدائه الذين أبرموا معه العهود والعقود والمواثيق سواء كانوا مع أهل الكتاب أو المشركين أو المعاهدين، فما نقض عهدًا، ولا خان ميثاقًا، ولا أخلف وعدًا، مهما كانت الظّروف أو اشتدت الأزمات، بل إنّه أخبر ﷺ بأنّ الله تعالى خصم لكل خائن وغادر يوم القيامة، قال تعالى في الحديث القدسي العظيم: «**ثَلاثَةٌ أنا خَصْمُهُمْ يَومَ القِيامَةِ: رَجُلٌ أعْطَى بي ثُمَّ غَدَرَ، ورَجُلٌ باعَ حُرًّا فأكَلَ ثَمَنَهُ، ورَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أجِيرًا فاسْتَوْفَى منه ولَمْ يُعْطِ أجْرَهُ**» [رواه البخاري].

وكان يتبرّأ ﷺ من أهل الغدر والخيانة فيقول: «**مَن قَتَلَ مُعاهَدًا لَمْ يَرِحْ رائِحَةَ الجَنَّةِ، وإنَّ رِيحَها تُوجَدُ مِن مَسِيرَةِ أرْبَعِينَ عامًا**» [رواه البخاري].

فكان ينهى ﷺ عن الغدر والخيانة والفجور والكذب؛ قولًا وفعلًا وحالًا، ويغرس الوفاء في نفوس أصحابه، ويوصيهم به حتى مع أعدائهم، فكان إذا أرسل سريّة وقف يودّعهم بأجلّ وصيّة في الوفاء فيقول: «**لا تَغْدِرُوا**» [رواه مسلم].

وهذه الوصية لم تكن مُقتصرة على التّعامل بين المسلمين فقط، بل هي للتّعامل مع الأعداء الذين حاربوهم وآذوهم، وكادوا لهم المكائد، فما أجمل وما أسمى هذا الوفاء النّبوي الشّريف! الذي لم يقتصر على أصحابه ومُحبيه، ولم ينته عند حدود عشيرته وتابعيه، بل تعدى ذلك ووصل إلى من

حاربه وعاداه، يقول حذيفة بن اليمان(رضي الله عنه): «**مَا مَنَعَنِي أَنْ أَشْهَدَ بَدْرًا إِلَّا أَنِّي خَرَجْتُ أَنَا وَأَبِي حُسَيْلٍ، قَالَ: فَأَخَذَنَا كُفَّارُ قُرَيْشٍ، قَالُوا: إِنَّكُمْ تُرِيدُونَ مُحَمَّدًا، فَقُلْنَا: مَا نُرِيدُهُ، مَا نُرِيدُ إِلَّا الْمَدِينَةَ، فَأَخَذُوا مِنَّا عَهْدَ اللهِ وَمِيثَاقَهُ لَنَنْصَرِفَنَّ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَلَا نُقَاتِلُ مَعَهُ، فَأَتَيْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَأَخْبَرْنَاهُ**، فَقَالَ: **انْصَرِفَا، نَفِي لَهُمْ بِعَهْدِهِمْ، وَنَسْتَعِينُ اللهَ عَلَيْهِمْ**» [رواه مسلم].

وقد وفّى ﷺ مع بعض المشركين ولم ينس لهم مواقفهم الإيجابية المُشرّفة معه، ومنهم أبو البختري بن هشام، الذي عارض قريشًا، ودافع عن النّبي ﷺ وأصحابه، وسعى في نقض الصّحيفة الجائرة الظالمة، فوفّى له ﷺ ورد له الجميل والمعروف في معركة بدر كما روى ابن إسحاق بسنده إلى ابن عباس (رضي الله عنهما) فقال ﷺ: «**إنّي قد عرفت أنّ رجلًا من بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا كُرهًا، لا حاجة لهم بقتالنا، فمَن لَقي مِنكُم أحدًا من بني هاشم فلا يقتله، ومن لقي أبا البختري بن هشام فلا يقتله، ومن لقي العباس بن عبد المطلب فلا يقتله؛ فإنّه إنّما أخرج مستكرهًا**».

وكذلك وفّى ﷺ للمطعم بن عدي الذي أجاره وأدخله مكة لمّا عاد من الطّائف، وقد آذاه المشركون، ثم مات المُطْعِم بن عدي مُشركًا، فلمّا أتت معركة بدر وأَسرَ ﷺ سبعين من المشركين قال: «**لَوْ كَانَ الْمُطْعِمُ بْنُ عَدِيٍّ حَيًّا، ثُمَّ كَلَّمَنِي فِي هَؤُلَاءِ، لَتَرَكْتُهُمْ لَهُ**» [رواه البخاري].

ووفّى ﷺ للنّجاشي ملك الحبشة الذي استقبل الصّحابة في الهجرة الأولى والثّانية، وآواهم وأكرمهم، ثم أسلم (رضي الله عنه)، فلما جاء رسول الله ﷺ خبر وفاته قال للصّحابة كما في الصّحيحين: «**إِنَّ أَخًا لَكُمْ قَدْ مَاتَ، فَقُومُوا فَصَلُّوا عَلَيْهِ (يَعْنِي النَّجَاشِيَ)، فصلّى عليه صلاة الغائب ودعا له**».

ومن وفائه ﷺ أنّه قبل إجارة المُسلم للمشرك، فإنّ أم هانئ بنت أبي طالب (رضي الله عنها) أجارت مُشركًا يوم فتح مكة، فقالت: قُلتُ: يا رسول الله، زَعَمَ ابنُ أُمّي (تقصد أخاها علي بن أبي طالب (رضي الله عنه))، أنَّه قَاتِلٌ رجلًا قد أجرتُه: فلان ابن هبيرة؛ فقال رسول الله: «**قَدْ أَجَرْنَا مَنْ أَجَرْتِ يَا أُمَّ هَانِئٍ**» [مُتفق عليه].

فهذه امرأة، وأجارت مُشركًا فوفّى ﷺ لها بجوارها وقبل ضمانها ونفّذ وعدها، فكان ﷺ آية في الوفاء وحفظ العهد، ومن أين يُتعلم الوفاء إلّا منه!؟ ومن أين تؤخذ المراجل والمروءات إلّا من

أخلاقه وصفاته!؟ ومن أين يُعرف النّبل والشّهامة إلا من نفسه الشّريفة وطبعه الجليل وسجاياه الحميدة ﷺ!؟

ومن وفائه ﷺ حنينه إلى وطنه، فعند فراقه لمكة بكى ونظر إليها وقال: «**والله إنَّكِ لخَيرُ أرضِ الله، وأحَبُّ أرضِ الله إلى الله، ولولا أنِّي أُخرِجْتُ منكِ ما خَرَجْتُ**» [رواه أحمد والترمذي].

فكان حنينه إلى وطنه، وشوقه إلى ملاعب الصّبا، ومعاهد الفتوة، ومغاني الشّباب يثير فيه الاشتياق إلى مكة دائمًا، حتى إنّه ورد في (دلائل النّبوة) أنّ أصيل الهذلي زار النّبي ﷺ في المدينة فسأله عن مكة، فأخبره أنّه قد نبت الإذخر أو نحو ذلك، فدمعت عيناه ﷺ، والحنين للوطن يدل على الوفاء وحفظ العهد.

وقد آن لقلمي أن يقف، ولمداده أن يجفّ، فأنا عاجز أن أصف وفاء سيد الأنبياء، ولكن لعلّ وابل الدّمع السّخي يُوفّي ما بقي من حق هذا النّبي الأمّي، مع الصّلاة العطرة، وَالسَّلَام المُطهّر على جنابه الشّريف.

فمهما خطب الخُطباء، ونظم الشُّعراء، وتكلّم الفُصحاء، فسيظل إمام الأوفياء، فوق القصائد العصماء، والخطب الغرّاء.

ماذا يقول الأوفياء إذا رَأوا

صفحات مجدك في السّجل الخالدِ

يستغفرون الله من تقصيرهم

يا خير مولودٍ وأكرمَ والدِ

حتّى الوفاءُ لمكةٍ سجّلتهُ

يوم الفِراق بدمع صبٍ واجدِ

بل صُغت في ذكرى خديجة قصّةً

حبّرتها بدموع جفنٍ ساهدِ





مُحَمَّدٌ ﷺ صَادِقًا

الصّدق من أنبل الأخلاق التي يتّصف بها الإنسان؛ ولهذا أثنى الله على الصّدق وأهله فقال سبحانه: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} [التوبة: الآية 119]، ووصف أنبياءه بالصّدق وشرّفهم بذلك فقال تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا} [مريم: الآية 41]، وقال عن إسماعيل (عليه السلام): {إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا} [مريم: الآية 54]، وقال عن يوسف (عليه السلام): {يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ} [يوسف: الآية 46]، وعلّم محمّدًا عليه الصّلاة والسّلام هذا الدّعاء فقال تعالى: {وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ} [الإسراء: الآية 80].

فالصّدق من أعظم دعائم الإيمان، ولذلك لا يتم إيمان مؤمن حتى يُصدّق بالله ربًّا، ويُصدّق بمحمد نبيًّا، ويُصدّق بالإسلام دينًا، ورسولنا ﷺ هو الصّادق المُصدّق، وهو إمام الصّادقين إلى يوم الدّين، ولو كان الصّدق شخصًا لكان هو ﷺ، فأنفاسه وحروفه وكلماته تقطر صدقًا.

جاء ﷺ بالصّدق من عند ربّه، فهو صادق النّظرات والعبارات، وصادق الأقوال والأفعال، وصادق الأحكام والأخبار، فكلامه صدق وسُنّته صدق، ورضاه صدق وغضبه صدق، ومدخله صدق ومخرجه صدق، وضحكه صدق وبكاؤه صدق، ويقظته صدق ومنامه صدق، صادق مع ربّه، صادق مع نفسه، صادق مع أهله، صادق مع أعدائه، صادق مع النّاس:

سُبحانَ من جعل المهابة بردَه	في صمتهِ ووقارِهِ وحيائهِ
هذا الذي شهد الزّمان بصدقهِ	حتى شهود الصّدق من أعدائهِ

ويكفيه صدقًا ﷺ أنّه أخبر عن الله بعلم الغيب، وائتمنه الله على الرّسالة، فأدّاها للأُمّة كاملةً تامةً، لم يُنقص حرفًا ولم يزد حرفًا، وبلّغ الأمانة عن ربّه أتمّ البلاغ، فكلُّ قوله وعمله وحاله مَبْنِيٌّ على الصّدق، فهو صادق في حربه وسلمه، وبيعه وشرائه، وعقوده وعهوده، وخُطبه ورسائله، وفتاويه وقصصه، وقوله ونقله، وروايته ودرايته.

أقام الله لسانه، وسدّد لفظه، وأصلح نُطقه وقوّم حديثه، فهو الصّادق المصدوق الذي لم يُحفظ له غلطة، ولم تُنقل عنه كذبة، ولم يُخالف ظاهره باطنه، بل كان صادقًا حتى في إشارات عينيه، فلمّا أُتي إليه ﷺ برجل مُهدر دمه قال أصحابه: ألا أشرت لنا بعينك في قتله؟! فقال ﷺ: « **لا يَنبغي لِنبيٍّ أنْ تَكُونَ لهُ خَائِنَةُ الأَعْيُنِ**» [رواه أبو داود].

شهد بصدقه ﷺ زوجُه خديجة (رضي الله عنها) ، أعرف النّاس به، فقد ظفرت بعشرته ليل نهار؛ ولهذا لمّا قال لها بعدما نزل عليه الوحي: «**إنّي قد خشيت عَلَى نفسي؛ قالت: كَلَّا، أبْشِرْ، فَوَالله لا يُخْزِيكَ الله أبَدًا، إنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وتَصْدُقُ الحَدِيثَ......**» [مُتفق عليه].

فلمّا خاف ﷺ على نفسه بعدما شاهد هذا العارض الذي حصل له في غار حراء أثبتت له خديجة أنّه لا يصيبه سوء لأنّه جُبل على مكارم الأخلاق ومعالي الأمور، ومن أعظمها الصّدق، فالصّادق لا يعثر، وأقسمت (رضي الله عنها) وهي بارّة في يمينها، صادقة في قسمها، أنّ الله لا يخزيه أبدًا، والدّليل ما ذكرته من صفات جليلة، وخلال جميلة، ومنها صدقه ﷺ.

وعُرف ﷺ في قريش قبل بعثته بالصّادق الأمين، ووقف في أوّل أيام بعثته على الصّفا يُنادي بطون قريش ويقول: «أرَأَيْتُمْ لَوْ أخْبَرْتُكُمْ أنَّ خَيْلًا تَخْرُجُ بِسَفْحِ هذا الجَبَلِ، أكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟»، **قَالُوا:** «ما جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِبًا» [مُتفق عليه].

يا لهذه الشّهادة الصّادقة المدوّية بصدق هذا النّبي الكريم! قالوها بالإجماع بعد أن عاش بينهم أربعين سنة، وعرفوا سيرته قبل النّبوة، وشهدوا صدقه في قوله وفعله، وحلّه وترحاله، وبيعه وشرائه، وغضبه ورضاه.

ومنذ أن بعثه الله إلى أن توفاه لم يستطع أحد من أعدائه سواء كان من المشركين أو المنافقين أو أهل الكتاب أن يعثر على كذبة واحدة له ﷺ، ولا سقطة واحدة، ولا هفوة واحدة، ولا عثرة واحدة، وحاولوا أن يقتنصوا عليه أي عيب فلم يجدوا أبدًا، فلمّا سأل هرقل ملك الرّوم أبا

سفيان فقال له: «**هل كنتم تتَّهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟**، قال أبو سفيان: **لا**، فقال هرقل: «**لَمْ يَكُنْ لِيَدَعَ الكَذِبَ علَى النَّاس، ثُمَّ يَذْهَبَ فَيَكْذِب علَى الله**» [مُتفق عليه].

وكان أبو سفيان (رضي الله عنه) في تلك الفترة عدوًّا للرسول ﷺ، وفي حالة حرب معه، ومع ذلك لم يصف النّبي بالكذب، بل أثبت له الصّدق رغم عداوته له، وهرقل وهو نصراني استنبط من هذا أن من أعظم علامات نبوته ﷺ الصّدق، وأنّه يستحيل أن يترك الكذب على النّاس ويكذب على الله ربّ العالمين.

ويقول عبدالله بن سلام (رضي الله عنه): لمّا أتى النّبي ﷺ إلى المدينة: «**فجئتُ في النَّاسِ لأنظرَ فلمَّا تبيّنتُّ وجْهه ﷺ عرفتُ أنَّ وجْهَهُ ليسَ بوجْهِ كذَّابٍ**» [رواه الترمذي].

وفي الصّحيحين: أنّ الشّمس كُسفت في اليوم الذي مات فيه ابنه إبراهيم، فقال النّاس: كسفت الشّمس لموت إبراهيم، فَخَطَبَ النَّاسَ وقال ﷺ: «**إنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ مِن آيَاتِ الله، وإنَّهُما لا يَنْخَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ، وَلَا لِحَيَاتِهِ**» [مُتفق عليه].

انظر إلى الصّدق والتجرّد والوضوح والتّواضع! ولو كان غيره ﷺ من أهل الدّنيا لأخذها فرصة، وعدّها مناسبة، وركب الموجة، وقال: نعم، صدقتم فيما قلتم، وأصبتم فيما رأيتم، ليزداد مجدًا دُنيويًا، وبهرجًا وشهرةً زائفةً، لكنّها النّبوة في أجمل صورها، وأبهى مشاهدها.

ويكفي عن شهادة النّاس أجمعين، بصدق سيّد المرسلين، شهادة ربّ العالمين، فقال تعالى: {لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ} [الفتح: الآية 27].

حتى رؤياه ﷺ في المنام صادقة، فكيف روايته في اليقظة؟! قال تعالى: {وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} [الزمر: الآية 33].

فالذي جاء بالصّدق هو رسول الهدى ﷺ، والصّدق هو كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والذي صدّق به هم أتباعه ﷺ الذين يؤمنون به إلى يوم القيامة.

لم يعرف ﷺ الكذب في حياته جادًّا أو مازحًا، فقد كان يمزح ولا يقول إلّا حقًّا، كما روي عنه أنّه ﷺ قال: «**إنِّي لَأَمْزَحُ وَلَا أَقُولُ إلَّا حَقًّا**» [رواه الطّبراني].

ومن صدقه ﷺ في الدّعابة أنَّ رجلًا أتاه فقال له: يا رسولَ الله، احمِلْني، قال النّبيُّ: «**إنَّا حَامِلُوكَ عَلَى وَلَدِ نَاقَةٍ**، قال: **وما أصنع بولدِ الناقةِ؟**، فقال النّبيُّ ﷺ: **وَهَلْ تَلِدُ الْإِبِلَ إِلَّا النُّوقُ؟!**» [رواه أبو داود].

وقد نهى ﷺ عن الكذب حتى في المزاح فقال: «**وَيْلٌ لِلَّذِي يُحَدِّثُ بِالْحَدِيثِ لِيُضْحِكَ بِهِ الْقَوْمَ فَيَكْذِبُ، وَيْلٌ لَهُ**» [رواه أبو داود].

عصمه اللهُ من الكذب في غضبه ورضاه، في غضبه يوم تختل موازين الرّجال وتتغ النّفوس، وتذهب العقول إلى الحيل يبقى ﷺ صادقًا ثابتًا على الحق.

وفي وقت الرّضا يوم السّرور، ويوم تمرح الأرواح في أساليب التّساهل والتّسامح في الحديث، يبقى ﷺ مع صِدقة لا يحيد أُنملة، فعن عبدالله بن عمرو (رضي الله عنهما) قال: كنت أكتُبُ كل شيء أسمَعُه من رسول الله ﷺ أريد حفظَه، فنهَتْني قريشٌ وقالوا: أتكتب كلَّ شيء تسمعه ورسولُ الله ﷺ بَشَرٌ يَتكلَّمُ في الغضبِ والرِّضا ؟! فأمسكتُ عن الكتاب، فذكرتُ ذلك لرسول الله ﷺ فأومأ بأصبعِهِ إلى فِيه فقال: «**اكْتُبْ، فَوَالَّذِي نَفْسي بيَدِه مَا يَخْرُجُ مِنْهُ إلّا حَقٌّ**» [رواه أحمد].

وكان ﷺ صادقًا في سِلمِه وحربه، في زمن الأمن والسّلم يوم يُسهب الكثير في المُبالغات، وترخيص المنقولات، وحشد الرّوايات، كان ﷺ يلتزم بالصّدق، ويقف مع الحقّ، بلا زيادة ولا نقص، ولا وكس ولا شطط.

وكان صادقًا في حربه يوم يبحث الخصم عن النّكاية في خصمه، ويلتمس العدوّ الإضرار بعدوه، ويُستعان بالزّور والبهتان، كان هذا الإمام المعصوم لا يقول إلّا الحق، ولا ينطق إلّا بالصدق، مع أنّ الحرب يُباح فيها مُخادعة العدوّ كما صحّ عنه ﷺ أنّه قال: «**الحرب خُدْعة**» [مُتفق عليه].

ومع ذلك لم يكذب ﷺ في أيّ حرب من حروبه، صدق مع أعدائه كما صدق مع أحبابه؛ لأنّه بُعث بشعار: {وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً} [الأنعام: الآية 115].

كان ﷺ صادقًا في الأخبار، عادلًا في الأحكام، وقد روى ابن هشام وابن كثير في السّيرة النّبوية أنّ رسول الله ﷺ لقي طليعة للمشركين وهو في سفرٍ مع أصحابه، فقال المشركون: **ممّن**

أنتم؟ فقال النّبي ﷺ: «**نحن من ماء**»، فنظر بعضهم إلى بعض! **فقالوا: أحياء اليمن كثيرة، لعلّهم منهم، وانصرفوا**، والله تعالى قال: {وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ} [الأنبياء: الآية 30]، وقال سبحانه: {فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ} [الطارق: الآية 5- 6]، وقد صدق ﷺ في هذا القول، وهذا ما يُسمّى بالتّعريض، وفي التّعريض مندوحة عن الكذب، وقد جمع في هذا بين الصّدق وبين المحافظة على أسرار الدّولة في مواجهة أعدائها.

ولقد ربّى ﷺ جيلًا صادقًا لا يقول إلّا الحق، ولا ينطق إلّا بالصّدق، فقد سطّر أصحابه رضوان الله عليهم أروع القصص في الصّدق، يُعرض أحدهم على السّيف فلا يُبدّل ولا يُغير، فيُقتل على الصّدق، ويلقى الله صادقًا، «فهذا خبيب بن عدي (رضي الله عنه) -كما في البخاري-رُفع على الخشبة ليصلب وأراد منه المشركون أن يقول غير الحق فأبى إلّا أن يموت صادقًا كما علّمه وألهمه نبيّه ﷺ، وذهب إلى ربّه شهيدًا» [رواه البخاري].

وهذا جعفر بن أبي طالب (رضي الله عنه) وهو لاجئ عند النّجاشي ملك الحبشة، ومعه بعض الصّحابة رضوان الله عليهم، فيقول مبعوث قريش للنّجاشي ليثير غضبه عليهم، ويُعيدهم إلى المشركين في مكة: «**أيّها الملك: إنّهم يقولون في عيسى قولًا عظيمًا، إنّهم يقولون: إنّه عبد!**» [رواه ابن إسحاق في «السيرة»]. وهذا في ظنّه مخالف لمعتقد النّجاشي، فاستدعاهم وسألهم عن الأمر، ومع صعوبة المشهد وشدّة الأزمة وهول الموقف إلّا أنّهم التزموا بالصّدق الذي علّمهم إيّاه نبيّ الله ﷺ، وقالوا الحقّ وإن كان خلاف ما يعتقد هذا الملك، كما أتى به القرآن، ولم يُغيّروا، ولم يُبدّلوا مُراعاة للمقام، ولم يرهبوا الموقف، ولم يتخلّوا عن مبدئهم وصدقهم.

وقد دعا ﷺ المؤمنين إلى الصّدق في كل أقوالهم وأفعالهم فقال: «**عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ؛ فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقًا، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ؛ فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا**» [مُتفق عليه].

وخاطب ﷺ أمّته يدعوهم إلى الصدق فقال: «**اضْمَنُوا لِي سِتًّا مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَضْمَنُ لَكُمُ الْجَنَّةَ؛ اصْدُقُوا إِذَا حَدَّثْتُمْ، وَأَوْفُوا إِذَا وَعَدْتُمْ، وَأَدُّوا إِذَا اؤْتُمِنْتُمْ، وَاحْفَظُوا فُرُوجَكُمْ، وَغُضُّوا أَبْصَارَكُمْ، وَكُفُّوا أَيْدِيَكُمْ**» [رواه أحمد].

وقال ﷺ: «**إنَّ الصِدْقَ طُمَأْنِينَةٌ، وَإِنَّ الْكَذِبَ رِيبَةٌ**» [رواه أحمد].

بل نبّه ﷺ على التزام الصّدق حتى في أدقّ الأمور والمُعاملات الأُسريّة، فعن عبدالله بن عامر (رضي الله عنه) قال: «**دعتْني أُمّي يومًا ورسولُ الله ﷺ قاعدٌ في بيتِنا**، فقالتْ: **ها تعالَ أُعطيكَ**، فقال لها رسولُ الله ﷺ: **وما أردتِ أنْ تعطيهِ؟**، قالتْ: **أُعطيهِ تمرًا**، فقال لها رسولُ الله ﷺ: **أما إنّكِ لو لمْ تُعطهِ شيئًا كُتبتْ عليكِ كَذِبةٌ**» [رواه أبو داود].

وأخبر ﷺ أنّ حصول البركة في البيع والشّراء، ومع الكذب تُمحق البركة، فقَالَ ﷺ: «**الْبَيّعَانِ بالخِيارِ ما لَمْ يَتَفرَّقَا، فَإنْ صدَقَا وَبَيَّنَا بُورِكَ لهما في بَيْعِهِما، وَإِنْ كَتَما وكَذَبا مُحِقَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِما**» [مُتفق عليه].

وقال ﷺ: «**مَن كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النّارِ**» [مُتفق عليه].

فالكذب عليه ﷺ ليس كالكذب على غيره، لأنّه نبي معصوم والافتراء عليه ﷺ افتراء على الشّريعة وقدح في الوحي.

وكان ﷺ يحكم للنّاس على حسب ما ظهر له منهم، ويكل سرائرهم ونياتهم إلى الله؛ لأنّه سُبحانه الأعلم بما تحويه النّيات، فليس للحاكم إلّا ما ظهر له.

أمّا الغيب فعند الله جلّ في علاه، فعن أمّ سلمة أمّ المؤمنين (رضي الله عنها) أنّ رَسُولِ الله ﷺ، سَمِعَ خُصُومَةً بِبابِ حُجْرَتِهِ فَخَرَجَ إلَيْهِمْ، فَقالَ: «**إنَّما أنا بَشَرٌ، وإنَّه يَأْتِينِي الخَصْمُ، فَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أنْ يَكونَ أبْلَغَ مِن بَعْضٍ، فأحْسِبُ أنَّهُ صادِقٌ فأقْضِي له بذلكَ، فمَن قَضَيْتُ له بحَقِّ مُسْلِمٍ، فإنَّما هي قِطْعَةٌ مِنَ النّارِ، فَلْيَأْخُذْها أوْ لِيَتْرُكْها**» [مُتفق عليه].

ودلّنا ﷺ على أنّ النّية الصّادقة هي مدار الأعمال ويحاسب الله الإنسان بها، وبها ينجو أو يهلك، فقال ﷺ: «**مَن سَأَلَ الله الشَّهادَةَ بصِدْقٍ، بَلَّغَهُ الله مَنازِلَ الشُّهَداءِ، وإنْ ماتَ على فِراشِهِ**»[رواه مسلم].

وفي الأخير-وبعد أن أبحرنا في هذا الباب مع صدقه ﷺ - أسألك سؤالًا:

هل تعتقد أنّ هناك في العالم أصدق من مُحمد بن عبدالله ﷺ الذي اصطفاه الله لتبليغ وحيه للعالمين، ومن أوّل شروط الوحي الصّدق؟!

إذًا فاعتقد اعتقادًا جازمًا أنّه ﷺ أصدق وأبرّ مَنْ خلق الله.

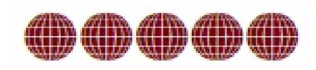
فصلّى الله وسلّم على إمام الصّادقين، وقدوة المُخلصين، إلى يوم الدين.

الصّدق تاجك يا مَنْ نورُ طلعتهِ

أبهى من الشّمس بل أسنى من القمرِ

تجري حروفكَ صدقًا ناصعًا ألقًا

وحيٌ من الله من آيٍ ومن سورِ





الأمانة قاعدة أصيلة من قواعد المُثل العليا والصّفات النّبيلة في الشّريعة الإسلاميّة، وخُلق عظيم وأساس قويم من أسس الرّسالة المُحمديّة.

والأمانة أعمّ وأشمل من حفظ المال فقط، بل تشمل الأقوال، والأعمال، والمعتقدات، والأخلاق.

ومن أجلّ صفات الأنبياء عليهم السّلام صفة الأمانة، فكان كلّ نبيّ يقول لقومه: {إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ} [الشعراء: الآية 143].

ومن أعظم شروط الولاية الأمانة، كما قال العزيز ليوسف (عليه السلام): {إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ} [يوسف: الآية 54].

ونبيّ الله هود (عليه السلام) يُقدّم نفسه لقومه فيقول: {أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ} [الأعراف: الآية 68].

وقيل في وصف موسى (عليه السلام): {يَاأَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ} [القصص: الآية 26].

وأشهر من عُرف بالأمانة هو سيّد ولد آدم رسولنا محمد بن عبدالله ﷺ، فقد اشتهر بصفة الأمانة قبل أن يُشرّفه الله بالنبوّة وبعدها، فعرفت عنه قُريش صدق أمانته، وصار مضرب المثل في هذه الصّفة الجليلة، حتى إنّ بطون قُريش لمّا اختصمت وتنازعتْ على وضع الحجر الأسود مكانه،

اتفقوا على أن يُحكّموا أوّل من يدخل عليهم الحرم، فلمّا أبصروا النّبي ﷺ قالوا: هذا الأمين، هذا محمد، رضينا به حكمًا، فقال ﷺ: «**هَلُمَّ إليَّ ثَوّبًا، فأُتِيَ به، فأخَذَ الرُّكنَ يعني الحَجَرَ الأسودَ فوضَعَه فيه بيدِه،** ثمَّ قال: **لِتَأخُذْ كلُّ قَبيلةٍ بناحِيةٍ مِنَ الثَّوبِ، ثمَّ ارفَعُوه جميعًا، ففَعَلوا، حتَّى إذا بَلَغُوا به موضِعَه وضَعَه هو بيدِه ﷺ، ثمَّ بَنى عليه**». [رواه ابن هشام في «السيرة»].

وكانت أمانته ﷺ من أسباب زواج خديجة (رضي الله عنها) منه، فقد استأمنته في تجارتها إلى الشّام بعدما استفاض خبر أمانته ﷺ، هذا وهو في عصر الجاهليّة، فقل لي بربّك: كيف يكون بعد أن بعثه الله نبيًّا للعالمين، ورسو للأميين؟!

وأمّا بعد بعثته ﷺ فقد شهد بأمانته العدوّ قبل الصّديق، فهذا هرقل في حواره مع أبي سفيان (رضي الله عنه) قال: «**وَسَأَلْتُكَ: هلْ يَغْدِرُ؟ فَزَعَمْتَ أنَّهُ لا يَغْدِرُ، وَكَذلكَ الرُّسُلُ لا تَغْدِرُ**» [مُتفق عليه].

فكان عليه الصّلاة والسّلام مضرب المثل في أداء الأمانات، وحفظ الودائع للنّاس حتى في أصعب الظّروف وأشدّ الأزمات، وبعد أذية قريش له حرص ﷺ على أداء الأمانات والودائع، فعند هجرته من مكة إلى المدينة كلّف علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) بأن يؤدّي ما عنده مِن ودائع وأمانات إلى أهلها.

ولمّا بعث عليٌّ بن أبي طالب (رضي الله عنه) بقطعة ذهب إلى رسول الله فقسّمها ﷺ على أربعة من وجهاء النّاس الذين أسلموا متأخرين تأليفًا لهم، وشك بعض المنافقين في هذه القسمة واعترض، وهنا خاطب ﷺ أُمّته بدليل قاطع وبرهان ساطع وسؤال يُوجهه لذوي العقول فقال ﷺ: «**أَلَا تَأْمَنُونِي وأَنا أمِينُ مَنْ في السَّماءِ، يَأْتِينِي خَبَرُ السَّماءِ صَباحًا ومَساءً**» [مُتفق عليه].

والمعنى: ألا ترضون بأمانتي وقد استأمنني الله على تبليغ رسالته للبشر؟!

وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) أنّه قال ﷺ: «**واللهِ إنِّي لأَنْقَلِبُ إلى أهْلِي فأجِدُ التَّمْرَةَ ساقِطَةً علَى فِراشِي، أوْ في بَيْتِي، فأرْفَعُها لِآكُلَها، ثُمَّ أخْشَى أنْ تَكُونَ صَدَقَةً-أوْ مِنَ الصَّدَقَةِ- فَأُلْقِيهَا**» [مُتفق عليه].

ومن أجمل صور أمانته ﷺ وأعظمها أثرًا الأمانة الكبرى التي أُلقيت على عاتقه، وهي أمانة الرّسالة، التي حملها بصدق، وأدّاها بحق، وتحمّل في سبيلها كل أذى، ولقي في تبليغها كل مشقّة، بلّغها أحسن البلاغ، وأدّاها بأجمل ما تؤدَّى به الأمانات، وأجلّ ما تُبلّغ به الرّسالات، لقد بلّغها ﷺ بالسّنان واللّسان، والحُجّة والبيان، والدليل والبُرهان، وبذل في سبيل تبليغها ﷺ روحه ودمه، ووقته، وماله وجهده، وليله ونهاره، فلم يهدأ له بال، ولم يرتح له حال، حتى بلّغها للعالمين، كما قال في خطبة الوداع: «أيها الناس: **قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ ما لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إنِ اعْتَصَمْتُمْ به، كِتَابُ الله، وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي، فَما أَنْتُمْ قَائِلُونَ**؟، قالوا: **نَشْهَدُ أنَّكَ قدْ بَلَّغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ**، فَقالَ بإِصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ يَرْفَعُهَا إلى السَّمَاءِ وَيَنْكُتُهَا إلى النَّاسِ: **اللهمَّ اشْهَدْ، اللهمَّ اشْهَدْ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ**» [رواه مسلم].

ونحن نشهد بعد أربعة عشر قرنًا مع الشّاهدين أنّه ﷺ صدق في تبليغها، ووفّى في أدائها، فجزاه الله عنّا خير ما جزى نبيًّا عن أمته، جزاء ما جاهد وبذل، وضحى وأعطى، ويكفيه ﷺ أنّ الله قد توّجهُ بهذا التّاج يوم الجمع الأكبر والمؤتمر الأعظم على صعيد عرفة فقال سبحانه: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً} [المائدة: الآية 3].

أدّى ﷺ أمانة حفظ الجوارح، ثم دعا الأُمّة لهذه التّزكية، بحفظ كل جارحة من الجوارح، ومُراقبة الله عزّ وجل في العقل والقلب، والسّمع والبصر، واليد والرّجل، وكل أعضاء الجسم، فقَالَ ﷺ: «**إنَّ الله كَتَبَ على ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزِّنا، أَدْرَكَ ذلكَ لا مَحالَةَ؛ فَزِنا العَيْنِ النَّظَرُ، وَزِنا اللِّسانِ النُّطْقُ، والنَّفْسُ تَمَنّى وَتَشْتَهِي، والْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذلكَ، أَوْ يُكَذِّبُهُ**» [مُتفق عليه].

وكانت الأمانة تحكم كل لفظ وكل لحظ، وكلّ حركة من حركاته ﷺ، فكان المُطَهّر المُزكَّى، الأمين في نفسه وفي كل عضو من أعضائه.

ومن عظيم أمانته ﷺ أنّه بلّغ الوحي المُنزّل عليه كاملًا، حتى ما جاء في شؤونه الخاصة وأسراره التي كان يُخفيها ولا يُريد أن يُظهرها للنّاس، ولكن لمّا نزل الوحي في شأنها أعلنها ﷺ إعلانًا بيّنًا للأمّة، ويشهد أنس (رضي الله عنه) بذلك فيقول: لو كانَ رَسولُ الله ﷺ كاتِمًا شيئًا لَكَتَمَ هذِه، قالَ: فَكانَتْ زَيْنَبُ تَفْخَرُ على أَزْواجِ النَّبيِّ ﷺ تَقُولُ: «زَوَّجَكُنَّ أهالِيكُنَّ، وزَوَّجَنِي الله تَعالى مِن فَوْقِ سَبْعِ سَمَاواتٍ».

وعَنْ ثابِتٍ - الراوي عن أنس (رضي الله عنه) -: {وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ} [الأحزاب: الآية 37]؛ نَزَلَتْ في شَأْنِ زَيْنَبَ وزَيْدِ بنِ حارِثَةَ [رواه البخاري].

وبلّغ ﷺ العتاب الموحى إليه في شأن عبدالله بن أمّ مكتوم (رضي الله عنه) لمّا قال له ربّه: {عَبَسَ وَتَوَلَّى} . فقام ﷺ وتلا السّورة على النّاس على الرّغم من أنّه المُعاتب فيها ﷺ بسبب اجتهاده يوم أعرض عن الأعمى.

وأيضًا عاتبه ربّه عزّ وجل لمّا قبل ﷺ عُذر المُنافقين الذين استأذنوه في التخلف عن غزوة تبوك، فقام عليه الصّلاة والسّلام، وأعلن هذا العتب الإلهي، وتلا على النّاس قول الباري سبحانه: {عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ} [التوبة: الآية 43]، ولم يكتم حرفًا، ولم يُحرّف الكلم عن مواضعه، بل قالها بصدق وأمانة ووضوح.

ويُخفي ﷺ سرًّا أُسريًا بينه وبين أهله، ولكن يأتي الوحي بكشف القصّة وتوضيح الأمر وإزالة اللّبس، ويخاطبه ربّه فيقول سبحانه: {وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ} [التحريم: الآية 3]، فيقف عليه الصّلاة والسّلام تاليًا الآيات أمام النّاس لتتلوها الأمة إلى يوم الدّين، حتى خلجات قلبه ﷺ، وميل طبعه، وأسرار ضميره التي يكتمها عن جلسائه، أظهرها الوحي كما قال تعالى: {ولَوْلاَ أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً} [الإسراء: الآية 74]. فيقوم ﷺ ويُعلنها للبشريّة جمعاء بلا تردد.

وإن لم يكن هذا أداء الأمانة، فما هو أداؤها إذا؟! وهل في العالم أحد غير النّبي ﷺ يسبّه أعداؤه، ويتفننون في شتمه، ويُنوّعون أساليب القدح في شخصه الكريم، ويتهمونه بأنّه كاهن، ومجنون، وساحر، ومُفترٍ على الله، ويخترع الأقوال، ويؤلّف الأكاذيب - صانه اللهُ من ذلك كلّه - ثم يأتي الوحي بذكر هذا السّباب وتلك الشّتائم، فيقرؤها ﷺ في صلاته، ويذكرها في تلاوته، مُبلّغًا عن الله بصدق، ومؤديًا لأمانة الوحي بحق، يُبلّغ رسالة ربّه بأتمّ بيان دون أن يُنقص منها كلمة أو يلوي جُملة، أو يُحرّف عبارة، فتلا على الناس قول الله تعالى: {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ} [النحل: الآية 103]، وقوله سبحانه: {وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً} [الفرقان: الآية 5]، وقوله تعالى: {وَيَقُولُونَ أَإِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ} [الصافات: الآية 36].

وإنّنا بعاداتنا البشريّة وطبيعتنا الإنسانيّة نكتم ونستر كل نقص وعيب، وكل سبٍّ يُوجّه إلينا، وكل شتم نُقصد به من الأعداء، وفي المُقابل نُظهر المديح، ونُعلن الإنجازات، ونفخر بالثّناء الذي يُهدى إلينا من الآخرين، لكنّه ﷺ يتغلّب على طبيعته البشريّة فيُبلّغ كل ما أوحي إليه من ربّه سواءً كان ثناءً أو عتابًا، أو ما يقوله عنه أعداؤه، ويفتري عنه خصومه، على حدٍّ سواء من البيان والتّبليغ.

ومن صور أمانته ﷺ حفظه للودائع والحقوق، وحثّه على ذلك بقوله وفعله، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) أنّه ﷺ قَالَ: «**مَنْ أَخَذَ أَمْوَالَ النَّاسِ يُرِيدُ أَدَاءَهَا؛ أَدَّى اللهُ عَنْهُ، وَمَنْ أَخَذَ يُرِيدُ إِتْلَافَهَا؛ أَتْلَفَهُ اللهُ**» [رواه البخاري]. وقال ﷺ: «**أدِّ الأمانةَ إلى منِ ائتمنَكَ، ولا تَخُن مَن خانَكَ**» [رواه أبو داود].

ويكفي في عظيم أمانته ﷺ في باب المال أنّه وهو إمام الأمّة، وحاكم الدّولة مات ولم يترك لورثته درهمًا ولا دينارًا، كما قال عليه الصّلاة والسّلام: «**لا نُورَث؛ ما ترَكنا صدقةٌ**» [مُتفق عليه].

فأيّ أمانة أعظم من هذه الأمانة في حفظ مال الأمّة، وعدم أخذ شيء منه ولو درهمًا واحدًا؟!

وعلّمنا ﷺ الأمانة في البيع والشّراء، وأخبر بأنّ المؤمن لا يغش ولا يخون، فعَنْ أبي هريرة (رضي الله عنه)، أنَّ رَسولَ الله ﷺ مَرَّ على صُبْرَةِ طَعامٍ فأدْخَلَ يَدَهُ فيها، فَنالَتْ أصابِعُهُ بَلَلًا، فقالَ: **ما هذا يا صاحِبَ الطَّعامِ؟**، قالَ: **أصابَتْهُ السَّماءُ يا رَسولَ الله**، قالَ: «**أفَلا جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعامِ كَيْ يَراهُ النّاسُ، مَن غَشَّ فليسَ مِنّي**» [رواه مسلم].

وأخبر ﷺ أنّ الله تعالى يقول في الحديث القدسي: «**أنا ثالثُ الشَّريكَيْنِ ما لم يخُنْ أحَدُهما صاحبَهُ، فإذا خانَه خرَجْتُ مِن بينِهما**» [رواه أبو داود].

وقَالَ ﷺ: «**ثَلاثَةٌ أنا خَصْمُهُمْ يَومَ القِيامَةِ: رَجُلٌ أعْطَى بي ثُمَّ غَدَرَ، ورَجُلٌ باعَ حُرًّا فأكَلَ ثَمَنَهُ، ورَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أجِيرًا فاسْتَوْفَى منه ولم يُعطِه أجرَه**» [رواه البخاري].

فغرس ﷺ في أصحابه وأتباعه مراقبة الله تعالى، وأداء الأمانة حتى في أدق الأمور كما قال تعالى: {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} [الزلزلة: الآية 7- 8].

ودعا ﷺ لتحمّل الأمانة في العمل، وفي باب المسؤولية أيًّا كانت هذه المسؤولية، سواءً مسؤولية عامة؛ من إمارة أو وزارة، أو مسؤولية خاصة كالأعمال والوظائف الأخرى.

بل جعل ﷺ كل شأن من شؤون الحياة أمانة يُسأل عنها الإنسان يوم القيامة فقال عليه الصّلاة والسّلام: «**كُلُّكُمْ رَاعٍ فَمَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِه، فَالْأَمِيرُ الَّذِي عَلَى النَّاسِ رَاعٍ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُمْ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى بَيْتِ بَعْلِهَا وَوَلَدِهِ، وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْهُمْ، وَالْعَبْدُ رَاعٍ عَلَى مَالِ سَيِّدِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُ، أَلَا فَكُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ**» [مُتفق عليه].

وقال ﷺ: «**مَا مِنْ عَبْدٍ اسْتَرْعَاهُ اللهُ رَعِيَّةً، فَلَمْ يَحُطْهَا بِنَصِيحَةٍ، إلّا لَمْ يَجِدْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ**» [مُتفق عليه].

وقد أنكر ﷺ حتى على من تأوّل في المال العام كما جاء عن أبي حُميد السّاعدي (رضي الله عنه) أنّه قال: **اسْتَعْمَلَ رَسولُ الله ﷺ رَجُلًا على صَدَقاتِ بَنِي سُلَيْمٍ، يُدْعى ابْنَ اللُّتْبِيَّةِ، فَلَمّا جاءَ حاسَبَهُ**، قالَ: **هذا مالُكُمْ، وَهذا هَدِيَّةٌ**، فَقالَ رَسولُ الله ﷺ: **فَهَلَّا جَلَسْتَ في بَيْتِ أبِيكَ وأُمِّكَ، حتَّى تَأْتِيَكَ هَدِيَّتُكَ إنْ كُنْتَ صادِقًا**» [مُتفق عليه].

وكان يُبيّن ﷺ أنّ المنصب مغْرَم لا مغنم، وأنّ الوظيفة مسؤولية وأمانة، فقال لأبي ذر: «**يا أَبا ذَرٍّ، إنَّكَ ضَعِيفٌ، وأنّها أَمانَةُ، وأنّها يومَ القِيامَةِ خِزْيٌ وَنَدامَةٌ، إلّا مَن أَخَذَها بحَقِّها، وَأَدّى الذي عليه فِيها**» [رواه مسلم].

لقد جعل ﷺ الأمانة مسؤولية في كل عمل وكل باب من أبواب الحياة، فقال عليه الصّلاة والسّلام: «**إنَّ الله يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُتْقِنَهُ**» [رواه البيهقي في شعب الإيمان].

وعلّمنا ﷺ بسيرته وشريعته أنّ الكل سوف يقف أمام الله عزّ وجل ويُسأل عن أمانته ومسؤوليته، وقرن ﷺ بين الإيمان والأمانة وكأنّها عقد واحد فقال ﷺ: «**لا إيمانَ لِمَن لا أمانةَ له، ولا دِينَ لِمَن لاعهدَ له**» [رواه أحمد].

وحثّ ﷺ على أمانة الكلمة، وأخبر بأنّ الإنسان يُسأل عنها يوم القيامة، فقَالَ: «**إِذَا حَدَّثَ الرَّجُلُ الرَّجُلَ بِالْحَدِيثِ، ثُمَّ الْتَفَتَ، فَهِيَ أَمَانَةٌ**» [رواه أبو داود].

وقال ﷺ: «**إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ الله، لَا يُلْقِي لَها بَالًا، يَرْفَعُهُ اللهُ بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ الله، لَا يُلْقِي لَها بَالًا، يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ**» [رواه البخاري].

وأخبر ﷺ بخطورة اللّسان، وأنّه قد يجرّ على صاحبه عواقب وخيمة إن لم يقم عليه بحقّ الأمانة، فلا يتكلم إلّا بالحق ممّا يُرضي الله عزّ وجل. وعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ (رضي الله عنه) أنّ النّبي ﷺ قال: «**ألا أخبُرك بمَلَاكِ ذلِكَ كلِّهِ؟**، قُلتُ: **بلى يا نبي الله**، قال: **فأخذَ بِلِسانِهِ** وقالَ: **كُفَّ عليكَ هذا**، فقُلتُ: **يا نبيَّ الله، وإنّا لمؤاخَذونَ بما نتَكَلَّمُ بِهِ؟!**، فقالَ: **ثَكِلَتكَ أمُّكَ يا معاذُ! وَهَل يَكُبُّ النّاسَ في النّارِ على وجوهِهِم -أو على مَناخرِهِم- إلّا حَصائدُ ألسنتِهِم**» [رواه أحمد].

ومن صور أمانة الكلمة أمانة الشّهادة ومُراقبة الله عزّ وجل فيها، كما قال تعالى: {إِلاَّ مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [الزخرف: الآية 86].

وعن أنس بن مالك (رضي الله عنه) قال: ذَكَرَ رَسولُ الله ﷺ الكَبَائِرَ، أوْ سُئِلَ عَنِ الكَبَائِرِ فَقالَ: «**الشِّرْكُ بالله، وقَتْلُ النَّفْسِ، وعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ، فَقالَ: ألَا أُنَبِّئُكُمْ بأَكْبَرِ الكَبَائِرِ؟ قالَ: قَوْلُ الزُّورِ**» [مُتفق عليه].

ومن مشاهد أمانة الكلمة أيضًا التي أكّد عليها النّبي ﷺ حفظ الأسرار الزّوجية والأمور الخاصّة التي تجري بين الزّوج وزوجته، كما قال ﷺ: «**إنَّ مِن أَعْظَمِ الأمَانَةِ عِنْدَ الله يَومَ القِيَامَةِ، الرَّجُلَ يُفْضِي إلى امْرَأَتِهِ، وَتُفْضِي إلَيْهِ، ثُمَّ يَنْشُرُ سِرَّهَا**» [رواه مسلم].

لقد كانت قضية الأمانة ماثلة في خطابهِ ﷺ، فكان يدعو إليها بالوحي كتابًا وسنّة، ويُربّي أُمّته عليها في كل مواطن الحياة، مُمتثلًا أمر ربّه جلّ اسمه: {فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ} [البقرة: الآية 283].

ويبلّغنا ﷺ قول الباري سبحانه: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا} [النساء: الآية 58]، ويُحذّرنا وينهانا عن الخيانة عملًا بقول الله تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [الأنفال: الآية 27].

وأنّ الخيانة مسلك مشين وخلق رديء كما قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْخَائِنِينَ} [الأنفال: الآية 58].

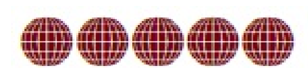
بل إنّه ﷺ أخبر بأنّ الخيانة ركن من أركان النّفاق، وأنّ المؤمن لا يخون أبدًا، فقال ﷺ: «**آيَةُ المُنافِقِ ثَلاثٌ: إذا حَدَّثَ كَذَبَ، وإذا وَعَدَ أَخْلَفَ، وإذا اؤْتُمِنَ خانَ**» [مُتفق عليه].

وقال ﷺ: «**أَرْبَعٌ مَن كُنَّ فيه كانَ مُنافِقًا خالِصًا، ومَن كانَتْ فيه خَصْلَةٌ منهنَّ كانَتْ فيه خَصْلَةٌ مِنَ النِّفاقِ حتّى يَدَعَها: إذا اؤْتُمِنَ خانَ، وإذا حَدَّثَ كَذَبَ، وإذا عاهَدَ غَدَرَ، وإذا خاصَمَ فَجَرَ**» [مُتفق عليه].

بل إنّ من علامات السّاعة ضياعَ الأمانة، كما قال ﷺ لمن سأله عن الساعة: «**فَإِذا ضُيِّعَتِ الأمانَةُ فانْتَظِرِ السّاعَةَ**» [رواه البخاري].

وبشّر اللهُ تعالى المؤمنين الذين يُحافظون على الأمانات، ويؤدون الحقوق، بالفردوس الأعلى في جنّات النّعيم، كما قال سُبحانه: {وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُولَئِكَ * هُمُ * الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [المؤمنون: الآية 8- 11].

تاجُ الأمانة فوق رأسك يلمع	وعلى جبينك شمسُ حقٍّ تسطعُ
صُنت الرّسالة مُخلصًا لأدائها	والله يشهد والخلائق تسمعُ



مُحَمَّدٌ ﷺ شُجَاعًا

الشّجاعة من أنبل خصال الرّجال، وأشرف صفات الأبطال، وللأنبياء عليهم السّلام من الشّجاعة أعلاها وأكملها، وأتمّها وأشملها، وأشجعهم سيّدهم وخاتمهم محمّد بن عبدالله ﷺ، فكان أشجع النّاس قلبًا، كالطّود لا يتزعزع ولا يتزلزل، ولا يخاف التّهديد والوعيد، ولا تُرهبه المواقف والأزمات، ولا تهزّه الحوادث والمُلمّات، فوّض أمره لربّه، وتوكّل على مولاه، وأناب إليه، ورضي بحكمه، واكتفى بنصره، ووثق بوعده.

شُجاع ﷺ منذ طفولته وصباه، حتّى أرسله ربّه واصطفاه.

شارك قبل النّبوة وهو لم يبلغ الخامسة عشرة من عمره مع أعمامه في «**حرب الْفِجَار**»، وكان يبيت وحده قبل النّبوة في «**غار حراء**» في الظّلام الدّامس، والأرض الموحشة، ورأس الجبل الوعر.

وأيّ شجاعة أعظم من أن يقوم فرد أمام أُمّة، ورجل أمام شعب**!؟** ثم يواجه الدّنيا بأسرها، وتُعلن ضده الحرب الضّروس، والمعارك الحامية، وليس معه جندي يُرافقه، ولا جيش يسنده، ولا حراسة تحميه، وإنّما يذهب إلى مجامع النّاس بقلب مفتوح، وصدر مشروح، فيدخل الأسواق، ويذهب إلى مكان الأصنام، ويرتقي المنابر ليُعلن دعوته جهارًا نهارًا، بكل شجاعة وإقدام، ويواجه الخطوب والكروب ثم لا يعرف الهزيمة، ولا النّكوص، ولا الانكسار.

وقف ﷺ أمام صناديد الجاهليّة وحيدًا، وثبت أمام جبابرة الوثنية فريدًا، وفي اللّحظة التي وقف فيها ﷺ على الصّفا وقال للنّاس: « **قُولوا: لا إلهَ إلّا اللهُ تُفلِحوا**»، كانت هناك قلوب حاقدة،

وسيوف مسلولة، ورماح مُشرعة، ومع هذا كله وقف صامدًا، كالطّود الشّامخ لا يهتز، ولا ينحني، ولا ينكسر.

خاض المعارك بنفسه عليه الصّلاة والسّلام، وباشر القتال بشخصه الكريم، وعرّض روحه للمنايا، وقدّم نفسه للموت، غير هائب ولا خائف، ولم يفر من معركة قط، وما تراجع خطوة واحدة.

وساعة يُحمَى الوطيس، وتُشرع السّيوف، وتُمتشق الرّماح، وتهوي الرّؤوس، ويدور كأس المنايا على النّفوس، في تلك اللّحظة يكون ﷺ أقرب أصحابه من الخطر، يحتمون به أحيانًا وهو صامد مُجاهد، لا يكترث لعدو ولو كثر عدده، ولا يأبه لخصم ولو قويَ بأسه، بل كان يُعدّل الصّفوف، ويُشجّع المُقاتلين، ويتقدّم الكتائب، برز ﷺ يوم بدر وقاد المعركة بنفسه، وخاض غمار الموت بروحه الشّريفة، وكان أوّل مَن يهبُّ عند سماع المنادي.

وتكالبت عليه الأحزاب من كل مكان يوم الخندق، وضاق الأمر، وحلّ الكرب، وبلغت القلوب الحناجر، وزُلزل المؤمنون زلزالًا شديدًا، فقام ﷺ يُصلّي ويدعو ويستغيث مولاه حتى نصره جلّ في علاه، وردّ كيد عدوه، وأخزى خصومه، وأرسل عليهم ريحًا وجنودًا، وباؤوا بالخُسران والهوان.

قال الشّاعر:

تَأَخَّرتُ أَستَبقي الحَياةَ فَلَم أَجِد	لِنَفسي حَياةً مِثلَ أَن أَتَقَدَّمَا
فَلَسنا علىَ الأَعقابِ تَدمى كُلومُنا	وَلَكِن علَى أَقدامِنا تقطُرُ الدِّمَا

ولا يبلغ مبلغه ﷺ في ثبات الجأش وقوة القلب مخلوق، فهو الشّجاع الفريد، والصّنديد الوحيد الذي كملت فيه صفات الشّجاعة، وتمّت فيه سجايا الإقدام وقوة البأس، وهو القائل: «**والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! وَدِدْتُ أَنِّي أُقاتِلُ في سَبيلِ اللهِ فَأُقْتَلُ، ثُمَّ أُحْيا ثُمَّ أُقْتَلُ، ثُمَّ أُحْيا ثُمَّ أُقْتَلُ**» [مُتفق عليه].

ومن مواقف شجاعته ﷺ في المعارك موقفه يوم حُنين، فقد فرّ كثير من الصّحابة من مواجهة العدوّ بعدما أُمطروا بالنبل من الرّماة، وبقي ﷺ وحده ليس معه إلّا نفر قليل من أصحابه، ونزل من بغلته، وأقبل على جيش العدو وحيدًا، وقد أخذ حفنة من التّراب في يده ونثرها في

وجوههم وهو يقول: «**شاهت الوجوه**». [رواه مُسلم]. ثم أخذ يُردّد: «**أنا النّبيُّ لا كَذِبْ، أنا ابنُ عبدِ المُطَّلِبْ**» [مُتفق عليه].

ولم يزل ﷺ مُتقدّمًا في نحور الأعداء، ويُنادي في الصّحابة ويقول: «**إليَّ عباد الله**»، حتى رجعوا رضوان الله عليهم، وأنزل الله تعالى قوله: {فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لاَ تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ} [النساء: الآية 84].

فللّه ما أشجعه ﷺ في مواقف تطير فيها الأحلام، وتعمى فيها البصائر!

يخوض بحر المنايا وهو مبتسمٌ ... ويصدم الهول إعصارًا بإعصارِ

ويبرق النّصر دومًا فوق هامته ... بين العوالي بأتباع وأنصارِ

ويوم أُحد شُجّ عليه الصّلاة والسّلام في وجهه، وكُسرت رباعيته، وقُتل الكثير من أصحابه، فما وهن ولا ضعف، بل كان أمضى من السّيف حسمًا، وثبت في هذا الموقف العصيب وبقي رغم جراحه يُقاتل ويُدافع مُتقدّمًا والرّماح مُشرعة أمام عينيه، والسّهام مُوجَّهة إلى جنبيْه، وما زال يُلهب الحماسة في أصحابه، ويشدّ من أزرهم، ويُقوّي من عزائمهم، ممّا خفّف عليهم مرارة الهزيمة، وهوّن عليهم ألم المُصيبة، فعن البراء (رضي الله عنه) قال: «**كُنّا والله إذا احْمَرَّ البَأْسُ نَتَّقِي به، وإنَّ الشُّجاعَ مِنّا لَلَّذِي يُحاذِي به، يَعْنِي النّبيَّ ﷺ**» [مُتفق عليه].

ويقول أمير المؤمنين علي بن طالب(رضي الله عنه): «**كُنَّا إِذَا حَمِيَ الْبَأْسُ وَلَقِيَ الْقَوْمُ الْقَوْمَ اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ الله ﷺ، فَلَا يَكُونُ أَحَدٌ مِنَّا أَدْنَى إِلَى الْقَوْمِ مِنْهُ**» [رواه أحمد].

ويقول أنس: «**كانَ النّبيُّ ﷺ أحْسَنَ النّاسِ، وأَجْوَدَ النّاسِ، وأَشْجَعَ النّاسِ، ولقَدْ فَزِعَ أهْلُ المَدِينَةِ ذاتَ لَيْلَةٍ، فانْطَلَقَ النّاسُ قِبَلَ الصَّوْتِ، فاسْتَقْبَلَهُمُ النّبيُّ ﷺ قدْ سَبَقَ النّاسَ إلى الصَّوْتِ، وهو يقولُ: لَنْ تُراعُوا لَنْ تُراعُوا. وهو على فَرَسٍ لأبِي طَلْحَةَ عُرْيٍ ما عليه سَرْجٌ، في عُنُقِهِ سَيْفٌ**» [مُتفق عليه].

وشارك ﷺ في حفر الخندق مع أصحابه وكان أكثرهم نشاطًا، وقوةً، وتأثيرًا، حتى إنّ الصّخرة لما عرضت لهم، وشقّ عليهم كَسْرُها، بادر ﷺ وفلقها بالمعول، وشاركهم في بناء المسجد، وكان ينقل معهم الطّين.

ولمّا حجّ وأتى البيت أمر الصّحابة أن يرملوا؛ ليُظهر القوّة أمام قريش ويُظهر عظمة الإسلام، فرمل بنشاط ثلاثة أشواط، ثمّ سعى ﷺ بين الصّفا والمروة حتى إنّ إزاره كان يلتف على ركبتيه من قوة سعيه.

وكان ﷺ قويًّا في مشيه، إذا مشى كأنّه يتحدّر من صبب أي: «**ينزل من علو**».

ربّما يمشي وأصحابه يجرون بعده جريًا؛ لقوة حركته، ونشاطه ﷺ.

وكان ﷺ قويّ الجسم، تام الصّحة، مُتكامل الأعضاء، موفور النّشاط، قيل: إنّه أُعطي قوّة ثلاثين رجلًا، وورد عنه ﷺ في قوته أنّه سابق وناضل وصارع، وهذه أنواع رياضة فيها صحّة بدن، واستعمال قوة، والقيام بعبادته، ونشر دعوته على أكمل وجه.

وكان ﷺ قويًّا في أمر الله حتى إنّه إذا أمر أصحابه بأمر فيه سماحة وفيه يُسر قالوا: وأين نحن من رسول الله الذي غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر!؟ فيزيدون في العبادة، فيغضب ﷺ ويقول: «**إنَّ أتْقاكُمْ وأَعْلَمَكُمْ باللهِ أنا**» [رواه البخاري]. ويقول ﷺ: «**مَن رَغِبَ عن سُنَّتي فليسَ مِنِّي**» [مُتفق عليه].

فكانت قوّته عادلة، وشجاعته صارمة حازمة، لا ظُلم فيها ولا تهور، لأنّه مؤيّد بالعناية الرّبانية، محفوظ بالرّعاية الإلهية، معه عصمة النّبوة، في كل منزل ينزله، وكل عمل يعمله، وكل تصرف يتصرّفه، فمثلًا لمّا حاصر ﷺ حصن الطّائف علم أنّ الطّعام الذي داخل الحصن يكفي أهله سنة كاملة، وهذا معناه أنه سيتعطّل هو وأصحابه عن المصالح العامّة والخاصّة، وسوف تبقى المدينة المنورة عاصمة الإسلام نهبًا مُشاعًا، فقرّر ﷺ بكل حزم وشجاعة أن يُنهي الحصار؛ لأنّ المصلحة تقوم على هذا، ويعود ﷺ ليُتابع بناء دولته وهداية أُمّته، وهذا غاية الرّشد وتمام السّداد، فصلّى الله وسلّم عليه ما أشجعه في الإقدام والإحجام، في الحرب والسّلم، وفي الخوف والأمان!

ودعا ﷺ في رسالته إلى القوة لا إلى الضّعف، والنّصر لا الهزيمة، والنّشاط لا الكسل، والرّيادة لا العجز، والنّجاح لا الفشل، وهذا هو الذي حقّقه ﷺ، حتى صارت سيرته في الرّيادة والقيادة والقوة والشّجاعة تُدرّس في العالم، وأصبح الأوّل حتى عند غير المُسلمين في مصنّفاتهم ومؤلفاتهم بشهادة عظمائهم وعباقرتهم عبر التاريخ:

وقفت وحدك والأيّام كالحة	والموت يخطب بين السيف والعُنقِ
فكنت أشجع خلق الله كلّهمِ	تلقى المنايا بلا خوفٍ ولا قلقِ
كالدّهر في همٍم والبحر في كرمٍ	والبدر في شفقٍ والفجر في ألقِ
مع الملائكِ والأصحاب تقدمهم	وأنت فيهم مكان النّون في الحدقِ

وقد قُرنت شجاعته ﷺ بالرّحمة لأنّها كانت في سبيل الله؛ لتكون كلمة الله هي العليا، فلم يضرب بيده إلّا في سبيل الله، كما قالت عائشة (رضي الله عنها) : «**ما ضَرَبَ رَسولُ الله ﷺ شيئًا قَطُّ بيَدِهِ، وَلا امْرَأَةً، وَلا خادِمًا، إلّا أَنْ يُجاهِدَ في سَبيلِ الله، وَما نِيلَ منه شيءٌ قَطُّ، فَيَنْتَقِمَ مِن صاحِبِهِ، إلّا أَنْ يُنْتَهَكَ شيءٌ مِن مَحارِمِ الله، فَيَنْتَقِمَ لله عَزَّ وَجَلَّ**» [رواه مسلم].

إنّ شجاعته ﷺ قامت على المُثل العُليا، والمبادئ السّامية، والقيم الأخلاقية العالية، وليست لمجرّد الجبروت أو الاستيلاء أو الانتقام، لأنّه لم يفعل فعلًا، ولم يُقرّر قرارًا إلّا بوحي من الله، فالنّبوة تحكمه، والعصمة تصونه.

وحثّ ﷺ أُمّته على الشّجاعة، ودلّهم على الاستعاذة من العجز والكسل والجُبن والبُخل، وكان يدعو ربّه ويقول: «**اللهمَّ إنّي أعُوذُ بكَ مِنَ العَجْزِ والكَسَلِ، والجُبْنِ والبُخْلِ**» [مُتفق عليه].

لأنّ البُخل والجُبن بينهما توافق، فالبُخل شح بالمال، والجبن شح بالنّفس.

وقد حيّا ﷺ الشّجعان ورحب بهم، وأشاد بشجاعة علي بن أبي طالب، والزّبير ابن العوّام، وخالد بن الوليد، وأبي قتادة، وأبي طلحة، وأبي دجانة، وأمثالهم من الشّجعان رضوان الله عليهم، وشجّع ﷺ الرّماة، فصح عنه أنّه كان يقول لسعد ابن أبي وقاص: «**ارْمِ فَداكَ أبِي وأُمِّي**» [مُتفق عليه].

وعن عقبة بن عامر (رضي الله عنه) قال: سَمِعْتُ رَسولَ الله ﷺ وَهو على المِنْبَرِ يقولُ: «**وَأَعِدُّوا لهمْ ما اسْتَطَعْتُمْ مِن قُوَّةٍ، أَلا إنَّ القُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلا إنَّ القُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلا إنَّ القُوَّةَ الرَّمْيُ**». [رواه مسلم].

وروى أبو داود عن عائشةَ (رضي الله عنها) أنّها قالت: **كنت معَ النَّبيّ ﷺ في سفرٍ فسابقتُهُ فسبقتُهُ على رجليَّ، فلمّا حَملتُ اللَّحمَ سابقتُهُ فسبقَني**، فقالَ: «**هذِهِ بتلكَ السَّبقةِ**».

وأشرف ﷺ على سباق الخيل المضمّرة وغير المضمّرة، ولتمام قوته ﷺ، وقوة عزيمته، وكمال همّته، كان يدعو إلى الاهتمام بالصّحة، ومراعاة الأطعمة النّافعة، والأدوية المفيدة، فدعوته ربّانية، لا رهبانية.

فلقد أتى ﷺ لجمال وكمال الحياة، وللنّجاة والفوز في الآخرة، ولهذا قال ﷺ:«**المُؤْمِنُ القَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إلى الله مِن المُؤْمِنِ الضَّعِيفِ**» [رواه مسلم].

فالشّجاعة والقوة قيمتان من قيم الإسلام العظيمة؛ لأنّهما من أركان الرّيادة، ومن أصول النّجاح في الدّنيا والآخرة، ولهذا يقول الله سبحانه وتعالى: {يَايَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ} [مريم: الآية 12]، وهو حُسن الأخذ والإقبال باهتمام واعتناء، ويقول جلّ في عُلاه: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ قُوَّةٍ} [الأنفال: الآية 60].

إنّ القوة العادلة تحفظ الكيان، وتُعين الإنسان، وتصون الحُرمات، وتُدافع عن المكاسب، وتنصر الحقّ، وتدمغ الباطل:

أُثني عَلَى مَنْ؟! أتدري مَنْ أبجّلهُ ؟

أمَا علمتَ بمَن أهديتُه كلِمِي

في أشجعِ النّاس قلبًا غيرَ منتقمٍ

وأصدقِ الخلقِ طُرًّا غيرَ متّهمِ

أبهى من البدرِ في ليلِ التّمامِ هدىً

أسخى من البحرِ بل أرسى من العلمِ

أصفى من الشّمسِ في نطقٍ وموعظةٍ

أمضى من السّيفِ في حُكْم وفي حِكَمِ





مُحَمَّدٌ ﷺ مُتَوَاضِعًا

أطلّ محمد ﷺ على الكون بهُداه، كما يُطل القمر على الدّنيا بمُحيّاه، ففاض على الجميع بتواضعه وخَفْضِ جناحه، ولينِ جانبه للمؤمنين، امتثالًا لأمر خالقه: {وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [الشعراء: الآية 215].

فكان التّواضع سجيّته لم يتكلّفه أو يتصنّعه خلاف الكثير من البشـر.

يتواضع ﷺ في أكله وشربه، ولباسه، ومشيه، ويدعو للتّواضع بكلامه، وأفعاله، فيقول: «**إِنَّ الله أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، ولَا يَبْغِيَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ**» [رواه مسلم].

ويحثّ أصحابه على التّواضع فيقول: «**مَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لله إِلَّا رَفَعَهُ الله**» [رواه مسلم].

وكان ﷺ ينهى عن الكبر، ويبغض أهله ويقول: «**يُحْشَرُ المُتكبِّرونَ يومَ القيامَةِ أَمثالَ الذَّرِّ في صورِ النّاسِ، يَعلوهُم كلُّ شيءٍ مِنَ الصَّغارِ حتّى يَدخُلوا سِجنًا في جَهنَّم يُقال له: بولَسُ، فتَعلوهُم نارُ الأَنيارِ، يُسقَونَ مِن طينَةِ الخَبالِ عُصارة أهلِ النّارِ**» [رواه أحمد].

فما أشنع الصّورة! وما أبشع المشهد! الذي وصف به النّبي ﷺ المُتكبرين ليُنفّر عباد الله عن هذا الخُلُق الذميم، وهذا الوصف السّخيم، ليكونوا عبادًا مُخبتين، متواضعين، لرّب العالمين.

وقال ﷺ: «**لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ**» [رواه مسلم]، ويروي ﷺ عن ربّه أنّه سُبحانه قال: «**الكبرياءُ ردائي، والعظمةُ إزاري، فمَن نازَعني واحدًا منهما ألقيتُه في النّار**» [رواه أبو داود].

ومفهوم الحديث أنّ من تكبّر فقد نازع الله صفة من صفاته، لأنّ الكبرياء والعظمة له وحده سُبحانه وتعالى، أمّا الإنسان المخلوق الضّعيف فعليه أن يتمسكن ويتواضع للملك الجبّار الواحد القهّار.

وقال ﷺ: «**أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ الجَنَّةِ؟! كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَعِّفٍ، لو أقْسَمَ على الله لَأَبَرَّهُ. ألَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النّارِ؟! كُلُّ عُتُلٍّ، جَوّاظٍ مُسْتَكْبِرٍ**» [مُتفق عليه].

والمقصود بقوله: «**عُتُلّ**»: أي الجافي شديد الخصومة بالباطل، و«**جَوّاظٍ**»: هو من يجمع المال ويمنعه عن الآخرين، وقيل أيضًا: إنّه الضخم الذي يختال في مشيه، و«**المُسْتَكْبِر**»: هوَ المُتَعالِي على خَلْقِ الله تعالى.

وفي هذا الحديث بيّن ﷺ أنّ صفة من يدخل الجنّة اللّيِّنة قلوبهم، الرّقيقة أرواحهم، المُنكسرون لربّهم، المستكينون لجلاله، المتواضعون لعباده، يقول الشاعر:

أُثني يا صاحِ إنّ الكبر خلق سيّئ	هيهات يوجد في سوى الجهلاءِ
فاخفض جناحك للأنامِ تفز بهم	إنّ التّواضع شيمةُ الحكماءِ
لو أُعجب القمر المنير بنفسه	لرأيته يهوي إلى الغبراءِ

وكان تواضعه ﷺ تواضع مَن عرف ربّه مهابةً، واستحيا منه وعظّمه وقدّره حقّ قدره، وعرف حقارة الجاه والمال والمنصب، فسافرت روحه إلى الله، وهاجرت نفسه إلى الدّار الآخرة، فما عاد يعجبه شيء مما يعجب أهل الدّنيا، وصار عبدًا لرّبه بحق، يجلس مع أصحابه فكأنه واحد منهم، ليس له مجلس أو مكان يُميّزه عمّن حوله.

يأتي الغريب الذي لا يعرفه، فلا يستطيع أن يُميّزه بين أصحابه ﷺ، فيسأل: «**أَيُّكم مُحَمَّدٌ؟! والنبيُّ ﷺ مُتَّكِئٌ بين ظَهْرَانِيهِم**» [رواه البخاري].

عاش ﷺ التّواضع مع أصحابه فشاركهم التّعب والنّصب، والمشقة والجوع والظمأ، بل أكل بعدما أكلوا، وشرب بعدما شربوا، ويقول: «**سَاقِي القَوْمِ آخِرُهُمْ شُرْبًا**» [رواه مسلم]. ويسأله أصحابه (رضي الله عنهم) فيقولون له: «**كَأَنَّكَ رَعَيْتَ الغَنَمَ؟!، فيقول ﷺ: نَعَمْ، وَهلْ مِن نَبِيٍّ إلّا وَقَدْ رَعاها**» [مُتفق عليه].

بكل سهولة وصدق وتواضع يعترف ﷺ أنّه رعى الغنم، وهو أكرم الخلق على الله، ولو كان غيره من أهل الدّنيا لصعب عليه الاعتراف بهذه الحقيقة، أو تردد في قولها، فيا لسمو نفسه وإخباته لربّه!

ومن تواضعه ﷺ أنّه كان إذا مرّ على الصبيان سلّم عليهم بلُطف، وأقبل عليهم بتواضع، كما رُوي عن أنس (رضي الله عنه) **أَنَّهُ مَرَّ عَلَى صِبْيَانٍ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ**، وقال: «**كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَفْعَلُهُ**» [مُتفق عليه].

وكان ﷺ يَزُورُ الْأَنْصَارَ، وَيُسَلِّمُ عَلَى صِبْيَانِهِمْ، وَيَمْسَحُ رُؤُوسَهُمْ. [رواه ابن حبّان].

بل إنّه ﷺ كان يُداعب الأطفال ويُمازحهم، ويأتي الصّبي ومعه عصفوره الصغير الذي يُحبّه ويُداعبه ولا يكاد يُفارقه، فيقابله النّبي ﷺ بالتّرحاب والبشاشة والتّواضع، ويناديه بكنيته، ويسأله عن حال عصفوره، فيقول: «**يا أبا عُمَير** (كنية ذلك الطفل الصغير)، **مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ**» (العصفور الصّغير الذي كان يلعب به الصّبي) [مُتفق عليه].

ولمّا مات هذا العصفور قامَ النّبي ﷺ بمواساته والتّخفيف عنه، ولم يتركه حتى تبسّم ونسي همّه وحزنه.

وكان ﷺ يكره المدح، وينهى عن إطرائه ويقول: «**لا تُطْرُونِي، كما أَطْرَتِ النَّصارى ابْنَ مَرْيَمَ، فإنَّما أَنا عَبْدُهُ، فَقُولوا: عبدُ الله، وَرَسُولُهُ**» [رواه البخاري].

وكان ﷺ ينهى أن يقام له أو يوقف على رأسه، فعن أنس بن مالك (رضي الله عنه) قال: «**لم يكن شخصٌ أحبَّ إليهم من رسولِ الله ﷺ وكانوا إذا رأوه لم يقوموا لِما يعلمون من كراهيتِه لذلك**» [رواه الترمذي].

فكان من هديه ﷺ أنّه لا يحبّ المظاهر، ولا مشاهد الكبر والخيلاء، بل يتواضع غاية التّواضع، حتى القيام الذي هو أبسط الحقوق للوافد لا يرضاه ﷺ ليكون مضرب المثل في التّواضع؛ لأنه إمام الأمّة، والنّبي الأسوة ﷺ.

وكان ﷺ يجلس حيثما انتهى به المجلس، ويختلط بالنّاس كأنّه أحدهم، ويجيب الدّعوة ويقول: «**لَوْ دُعِيتُ إلى ذِراعٍ أوْ كُراعٍ لَأَجَبْتُ**» [رواه البخاري].

وعَنْ أَنَسِ بنِ مَالِكٍ (رضي الله عنه): أنَّ جَدَّتَهُ مُلَيْكَةَ دَعَتْ رَسولَ الله ﷺ لِطَعَامٍ صَنَعَتْهُ، فأكَلَ منه، ثُمَّ قالَ: «**قُومُوا فَأُصَلِّيَ لَكُمْ**، قالَ أَنَسٌ (رضي الله عنه): **فَقُمْتُ إلى حَصِيرٍ لنَا قَدِ اسْوَدَّ مِن طُولِ ما لُبِسَ، فَنَضَحْتُهُ بمَاءٍ،** فَقَامَ عليه رَسولُ الله ﷺ **وَصَفَفْتُ أَنَا وَالْيَتِيمُ وَرَاءَهُ، وَالْعَجُوزُ مِن وَرَائِنَا، فَصَلَّى لَنَا رَسولُ الله ﷺ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ انْصَرَفَ**». [مُتفق عليه].

ومع أنّه ﷺ سيد الأنبياء وخاتمهم إلّا أنّه تواضع وكره تفضيله عليهم، فقال: «**لا تُخَيِّرُونِي على مُوسى**» [مُتفق عليه].

وجَاءَ إليه ﷺ رَجُلٌ فَقالَ: «**يا خَيْرَ البَرِيَّةِ! فَقالَ رَسولُ الله ﷺ: ذَاكَ إبْرَاهِيمُ عليه السَّلَامُ**» [رواه مسلم].

وعن أنس بن مالك: أنَّ رجلًا قالَ: يا مُحمَّدُ يا سيِّدَنا وابنَ سيِّدِنا، وخيرَنا وابنَ خيرِنا. فَقالَ رسولُ الله ﷺ: «**يا أيُّها النّاسُ، عليكُم بقولِكُم، ولا يستَهْوِيَنَّكمُ الشَّيطانُ، أَنا مُحمَّدُ بنُ عبدِ الله، عبدُ الله ورسولُهُ، والله ما أحبُّ أن ترفَعوني فوقَ منزلَتي الَّتي أنزلَني الله عزَّ وجلَّ**» [رواه أحمد].

يتواضع ﷺ للمؤمنين، فيزور المريض، ويعطف على المسكين، ويصل البائس، ويواسي المُستضعفين، ويُداعب الأطفال، ويُمازح الأهل، ويُكلّم الأَمَة، ويجلس على التّراب، وينام على الثّرى، ويفترش الرّمل، ويتوسّد الحصير.

قد رضي عن ربّه، فما طمع في شهرة أو منزلة أو مطلب أرضي أو مقصد دنيويّ.

يُكلم الناس بلطف، ويخاطب الغريب بود، ويتألّف الخلق، ويتبسّم في وجوه أصحابه.

وعن أبي مسعود عقبة بن عمرو (رضي الله عنه) قال: «**أتى النّبيَّ ﷺ رجلٌ فكلَّمه، فجعل ترعَدُ فرائصُه!، فقالَ لَهُ : هوِّن عليكَ ، فإنّي لستُ بملِكٍ ، إنَّما أنا ابنُ امرأةٍ تأكُلُ القَديدَ**» [رواه ابن ماجه].

وقل لي بربّك! هل مرّ بك عبر تاريخ الزّعماء والمشاهير والعظماء والقادة من يقول مثل هذه الكلمة؟! بل إنّ قائل هذه الكلمة هو أحبّ العباد إلى الله، وأكرمهم وأجلّهم عند مولاه، ومع ذلك يقول بكل أريحية، وكل تواضع ونفس رضيّة: «أنا ابنُ امرأةٍ تأكُلُ القديدَ»، وصدق بأبي هو وأمي،

نعم هو ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة، ولكنّه صاحب الحوض المورود، والمقام المحمود، واللّواء المعقود، والشّفاعة الكبرى، وهو إمام الأنبياء، وخاتم المرسلين ﷺ.

وخُذ من تواضعه ﷺ ما تشاء، وطالع من كرم نفسه، وسخاوة طبعه، ولطيف معشره، ما أردت أن تُطالع، وعش معي لحظة قيام الإمام الأعظم والنّبي الأكرم ﷺ، فيحمل المعول ويحفر مع أصحابه، والغبار يتناثر على رأسه، وهو يشارك بوجدانه وجسمه في الحفر، وينقل التّراب على كتفه الشريف.

وعش معي لحظة تفقّده ﷺ لجارية فقيرة كسيرة كانت تكنس المسجد فيُخبَر بموتها فيذهب إلى قبرها في الحال ليُصلّي عليها.

وعش معي لحظة جوعه ﷺ جوعًا شديدًا يظهر على قسمات وجهه فيُقَدَّم له خُبز الشّعير الجاف الحاف اليابس فيأبى إلّا أن يُشاركه الفقراء والمساكين، فيجلس معهم على الأرض، ويقدم لهم الخبز بنفسه.

وعش معي لحظة أن يتلوّى ﷺ من الجوع فيُهدى له لبن فيتذكّر الفقراء من أهل الصّفة، فيدعوهم إلى بيته، ويسقيهم اللّبن واحدًا واحدًا، ويشرب هو آخرهم.

يُشارك ﷺ الخادم في اللّقمة، ويُقاسمه الكسرة، ويجلس معه على البساط البالي، ويمازحه ويضاحكه، بل من هؤلاء المساكين البسطاء من اتّخذه ابنًا قبل نسخ ذلك، ومنهم من اتّخذه حبيبًا خاصًا، ومستشارًا أمينًا.

وكان يُحبّ المساكين، وألغى ﷺ الفروق الطبقية التي تُميّز الإنسان عن أخيه الإنسان، فلا فضل لعربي على أعجمي، ولا أبيض على أسود إلّا بالتقوى، مؤذنه حبشي، ومستشاره فارسي، وصديقه رومي، قال ﷺ: «**يَا أَيُّهَا النّاسُ أَلَا إنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ، ولَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيّ، ولَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، ولَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ؛ إلَّا بِالتَّقْوَى**» [رواه أحمد].

ومن تواضعه ﷺ أنّه لم يكن له طعام خاص يحوزه لنفسه ويستأثر به على أصحابه، بل كان طعامه من جنس طعامهم يوضع على مائدة واحدة ويشاركه الجميع، وربما كان طعامه معهم الملح

والشّعير ورديء التّمر، فلا يتأفّف ﷺ، ولا يتذمّر، بل يتناول ذلك برحابة صدر وبشاشة وحمد وشكر لله تعالى، بل قال ﷺ: «**إذا سَقَطَتْ مِن أحَدِكُمُ اللُّقْمَةُ، فَلْيُمِطْ ما كانَ بها مِن أذًى، ثُمَّ لِيَأْكُلْها، ولا يَدَعْها لِلشَّيْطانِ، فإذا فَرَغَ فَلْيَلْعَقْ أصابِعَهُ، فإنَّه لا يَدْرِي في أيِّ طَعامِهِ تَكُونُ البَرَكَةُ**» [رواه مسلم].

إنّ هذا التّوجيه النّبوي الشّريف درس لكل مُتكبّر مُتجبّر يتأفّف ويتعالى على أكل الطعام إذا سقط في الأرض بطرًا وكبرًا، فيا لهذا النّبي العظيم! ما أكثر شكره لربّه! وما أعظم معرفته بنعمة مولاه! أنّها النبوّة في أجمل صورها، وأبهى مشاهدها، يقول الشاعر:

مَلأَى السَّنَابِلِ تَنْحَنِي بِتَوَاضُعٍ — والفَارِغَاتُ رُؤُوسُهُنّ شَوامِخُ

ومن تواضعه ﷺ كانت الخادمة من خادمات المدينة تأتي إليه -بأبي هو وأمي، وهو سيد ولد آدم وخاتم الأنبياء- فتأخذ بيده، ويذهب معها إلى حيث شاءت، كما جاء عن أنس بن مالك (رضي الله عنه) أنّه قال:«**إنْ كانَتِ الأمَةُ مِن إماءِ أهْلِ المَدِينَةِ، لَتَأْخُذُ بيَدِ رَسولِ الله ﷺ فَتَنْطَلِقُ به حَيْثُ شاءَتْ**» [رواه البخاري].

هل وقفتم بقلوبكم مع هذا المشهد؟!هل حضرت أرواحكم هذا المقام وصورتموه في أذهانكم؟!

وعنه أيضًا أنَّ امْرَأَةً كانَ في عَقْلِها شيءٌ، فَقالَتْ: «**يا رَسولَ الله، إنَّ لي إلَيْكَ حاجَةً**، فَقالَ: **يا أُمَّ فُلانٍ! انْظُرِي أيَّ السِّكَكِ شِئْتِ، حتّى أَقْضِيَ لَكِ حاجَتَكِ. فَخَلا معها في بَعْضِ الطُّرُقِ، حتّى فَرَغَتْ مِن حاجَتِها**» [رواه مسلم].

بهذا التّواضع والسّهولة واليسر يقف ﷺ مع امرأة ليست تامّة العقل، وتطلب منه ﷺ موعدًا تحدده هي، ومكانًا تختاره هي، وبرغم انشغاله ﷺ بأمور الأمّة وأعباء الرّسالة يُلبّي طلبها، ويأتي إليها في نفس المكان والوقت التي حددته، ويستمع إليها بإنصات، ويقضي حاجتها بكل تواضع ورأفة.

وعن عبدالله بن أبي أوفى (رضي الله عنهما) قال: «**كانَ رسولُ الله ﷺ يُكْثِرُ الذِّكرَ، ويُقِلُّ اللَّغوَ، ويطيلُ الصَّلاةَ، ويقصِّرُ الخطبةَ، ولا يأنَفُ أن يمشيَ معَ الأرمَلةِ والمسكينِ، فيَقْضِيَ لَهُ**

الحاجةَ» [رواه النسائي].

وفي مشهد آخر مهيب، وفي محفل رهيب؛ قام ﷺ يخطب على منبره، يعظ النّاس ويرشدهم، وإذا بالحسن بن علي وفاطمة (رضي الله عنهم)، يدخل المسجد وعليه قميص طويل يتعثّر فيه، فيقطع خُطبته ﷺ، وينزل ويذهب ليحمل الحسن معه ويضعه بجانبه.

وتحضره صلاة الفريضة وهو ﷺ إمام المسلمين في الصّلاة وفي الحياة، فلمّا حانت الإقامة دخل المسجد وهو يحمل أمامة بنت ابنته زينب، وهي طفلة صغيرة على كتفه، وكبّر وصلّى بالنّاس، فكان كلّما سجد وضعها، وكلّما قام رفعها.

وكان ﷺ يحمل الأطفال بحُبّ، ويضمّهم بحنان، ويُداعبهم بلطف، ويُعلّمهم برفق. يزور العجوز في بيتها، ويأكل طعامها، ويتحدّث معها، ويدخل البشر عليها؛ حتى يملأ بيتها سعادة وأنسًا.

يجلس مع المساكين والضعفاء والخدم، فيأكل معهم خبز الشّعير على بساط واحد، ويتحدث لهم كأنّه واحد منهم، فيعيشون أجمل لحظات العمر، وأسعد دقائق الزّمن.

يحمل حاجة أهله، ويخصف نعله، ويرقع ثوبه، ويكنس بيته، ويحلب شاته، فلمّا سأل رَجُلٌ أم المؤمنين عائِشةَ (رضي الله عنها) : «**هل كان رَسولُ الله ﷺ يَعمَلُ في بَيتِهِ شَيئًا؟ قالت: نَعَمْ، كان رَسولُ الله ﷺ يَخصِفُ نَعلَهُ، ويَخيطُ ثَوبَه، ويَعمَلُ في بَيتِه كما يَعمَلُ أحَدُكم في بَيتِه**» [رواه أحمد].

وكان ﷺ يُقرّب الطّعام لضيفه، ويُرحّب بزوّاره، ويسأل عن أخبارهم. ويُردف على الرّاحلة، فعن أسامة بن زيد (رضي الله عنهما): «**أنَّ رَسولَ الله ﷺ رَكِبَ علَى حِمَارٍ علَى قَطِيفَةٍ فَدَكِيَّةٍ، وأَرْدَفَ أُسَامَةَ بنَ زَيْدٍ ورَاءَهُ**» [مُتفق عليه].

وعن عبدالله بن عباس (رضي الله عنهما) قال: «**أَرْدَفَ رَسولُ الله ﷺ الفَضْلَ بنَ عَبّاسٍ يَومَ النَّحْرِ خَلْفَهُ على عَجُزِ راحِلَتِهِ**» [مُتفق عليه].

وكان ﷺ يلبس الصّوف، ويأكل الشّعير، وربما مشى حافيًا، ونام في المسجد.

يعاون الضّعيف، ويتفقد السّرية، ويكون في آخرهم فيساعد المحتاج، ويرافق الوحيد منهم، ويقف مع المرضى يمرّضهم، ومع الجرحى يداويهم، ومع الجوعى يطعمهم، ومع الجهّال يعلمهم،

ومع العُصاة يُرشدهم، ومع الجنود يُشجّعهم، ومع الأيتام يكفلهم، ومع المُشرّدين يؤويهم، ومع المنكوبين يواسيهم.

إنّه الوالد الحاني للجميع، والأب الرّحيم بالكل، والقائد العادل للأمّة، والأسوة الحسنة للإنسانية.

يقول عثمان بن عفان (رضي الله عنه): «**إنّا والله قد صَحِبنا رَسولَ الله ﷺ في السَّفرِ والحضَرِ، وكانَ يعودُ مَرضانا، ويتّبعُ جَنائزَنا، ويغزو معَنا، ويُواسينا بالقليلِ والكثيرِ**» [رواه أحمد].

وأرسى ﷺ بتواضعه قاعدة تبقى إلى يوم الدّين، وبلّغ أعظم رسالة في التّواضع من ربّ العالمين، وهي: أنّ كُل شيء ارتفع من الدّنيا أو علا أو خدع النّاس ببريقه وزخرفه فإنّ له نهاية، كما قال تعالى: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [القصص: الآية 88].

وعن أنس بن مالك (رضي الله عنه)قال: كانَتْ ناقَةٌ لِرَسولِ الله ﷺ تُسَمّى: العَضْباءَ، وكانَتْ لا تُسْبَقُ، فَجاءَ أعْرابِيٌّ على قَعُودٍ له فَسَبَقَها، فاشْتَدَّ ذلكَ على المُسْلِمِينَ، وقالوا: سُبِقَتِ العَضْباءُ! فقالَ رَسولُ الله ﷺ: «**إنَّ حَقًّا على الله أنْ لا يَرْفَعَ شيئًا مِنَ الدُّنْيا إلّا وضَعَهُ**» [رواه البخاري].

لقد اختصر ﷺ هذا المشهد كلّه بكلمته: «**إنَّ حَقًّا على الله أنْ لا يَرْفَعَ شيئًا مِنَ الدُّنْيا إلّا وضَعَهُ**»، فنهاية كل مشهد دنيوي تراه، وكل منظر يجذبك؛ إلى الفناء، ويبقى ما كان لله عزّ وجل، كما قيل :

ألا كُلُّ شيءٍ ما خلَا الله باطِلُ   وكلُّ نعيمٍ لا مَحالةَ زائِلُ

وبلَّغنا ﷺ عن ربّه قوله سُبحانه: {وَعِبَادُ الرَّحْمَانِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمًا} [الفرقان: الآية 63].

فأدب المشي والوقار والتّواضع من هديه ﷺ الذي علمه ربّه، وعلّمه ﷺ لأمته.

وبلّغنا ﷺ عن ربّه أجمل خطاب وأجل نصيحة، فقال تعالى: {إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً} [الإسراء: الآية 37].

ومن شريف الأدب وكريم التّوجيه ما بلغنا ﷺ عن ربّه قوله تعالى عن لقمان وهو يعظ ابنه: {وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ} [لقمان: الآية 19].

فهي التّربية الإيمانية والتّوجيه النّبوي بالتواضع لله في الهيئة والمشي والكلام وسائر التّصرفات.

وأقول عن نفسي: إنّني تمر بي مواقف يدركني فيها الضّعف البشري فتدعوني نفسي لطلب التّصدّر والبروز في مناسبات، فأتذكر تواضعه ﷺ على سمو قدره الشّريف، وعلو مجده المنيف، فألوم نفسي وأنا أصغر قدرًا من أصغر خدّامه ﷺ، أتذكّره ﷺ وهو يخالط الضّعفاء، ويأكل مع الفقراء، ويُشارك العمال عملهم، متواضعًا في عظمته، سهلًا في هيبته.

كُلّما رأيت يتيمًا تذكّرت اليتيم الأوّل أبا الأيتام ﷺ، وكُلّما أبصرت مسكينًا طاف بذهني أرحم النّاس بالمساكين ﷺ، وكُلّما مرّ بي موقف أو مُناسبة مع أصحابي فيها ما يدعو إلى التّواضع والبساطة تذكرناه ﷺ.

أذكر ذات يوم ركبنا سيارة قديمة، وكأنّ بعضنا وجد غضاضة، فقلنا: سيد ولد آدم ﷺ ركب حمارًا، فإن خرجنا البرّ أو سافرنا إلى الصّحراء ولم نجد فراشًا وجلسنا على الرّمل قُلنا: أكرم الخلق ﷺ جلس وأكل ونام على التّراب، وإذا كان في الطعام قِلّة أو لم يكن فاخرًا كما نريد قُلنا: خاتم الأنبياء ﷺ أكل خبز الشّعير ورديء التمر، فهو معنا ﷺ بتواضعه؛ لأنّه يرشدنا وكأنّه واقف على رؤوسنا يُعلّمنا ويُربّينا، وكُلّما حاولت النّفس أن تتكبّر، وأن تطغى ذكّرناها بتواضع خليل الله، وصفوته من خلقه، محمد بن عبدالله، فصلّى الله وسلّم عليه ما تحرّك بذكره اللّسان، وسارت بأخباره الرّكبان، وردّد حديثه الإنس والجانّ.

جلّ من بوّأكَ المجد المُنيفْ	وحباك النّبل والسّمت الشّريفْ
فتواضعت عفافًا وتُقى	ليتيمٍ وفقيرٍ وضعيفْ
رحمةٌ أنتم من الله عَلَى	عالمِ الدُّنيا وما كنت العنيفْ
فعليك الله صلّى كُلّما	هتف الوُرقُ على الغصن اللّطيفْ







مُحَمَّدٌ ﷺ ضَاحِكًا

مَن يقرأ هديَه ﷺ في الضّحك والتبسّم يجد أنّ ضحكتهُ آسرةٌ حانيّة، وبسمته تُدخِل اللُّطف على القلوب، والأُنس على الأرواح، حتى إنّ الصّحابة رضوان الله عليهم كانوا يعيشون أجمل لحظات حياتهم وهم يُشاهدون تلك الإشراقة على مُحيّاه ﷺ، وينقلونها لنا وهم في غاية السّرور والانشراح والانبساط، فتبسّمه ﷺ يختلف عن تبسّم غيره، فعند تبسّمه يُقرّر العُلماء أنّه رضيَ الشّيء فصار شريعة، وأحَبَّ المشهد فصار مقبولًا، وأقرَّ الأمر الذي تبسّم من أجله فصار نافذًا، فتبسّمه ﷺ عبادة وشريعة، لأنّه مُؤيّد، مُسدّد، معصومٌ، مُرسل من عند الله.

وحثّ ﷺ على التّبسّم، وأخبر أنّه من أنواع المعروف، فعن أبي ذرٍّ (رضي الله عنه)، قال: قال لي النَّبي ﷺ: «**لا تحْقِرَنَّ من المعرُوفِ شيْئًا، ولوْ أنْ تلْقى أخاكَ بوجْهٍ طلْقٍ**» [رواه مسلم].

وأخبر ﷺ أنّ الابتسامة صدقة يُؤجر عليها المُسلم، فقال: «**تبسُّمُكَ في وجْهِ أخيكَ لَكَ صدقةٌ**» [رواه الترمذي].

وجميع من لقي رسول الله ﷺ ونظر إلى وجهه الشّريف المُشرق البشوش، وتبسّمه الصّادق النّابع من قلبه الطاهر، عَلِم وأَقرَّ بأنّ وجهه ليس بوجه كذّاب ولا مفتر فالابتسامة سنّة من سُنن الأنبياء التي تدلّ على صفاء سريرتهم، وطيب نفوسهم، ورسوخ إيمانهم، وصفاء عقيدتهم، ونقاء أرواحهم.

مِنْ نورِ وجهكَ تَستَضِيءُ الأنجمُ	والفَجرُ يُشرِقُ مِنْ نداكَ ويبسمُ
حتّى كأنّ البدر أُعطِيَ لمعةً	مِن حُسنكَ البَاهِي وَحُسنكَ أعظمُ

ومن مواقف تبسّمه ﷺ ما رواه جرير بن عبدالله البجلي (رضي الله عنه)، قال: «**ما رَآنِي رَسولُ الله ﷺ إلّا تَبَسَّمَ في وَجْهِي**» [مُتفق عليه].

ويفتخر جرير بهذا العطاء ويفرح بهذا السّخاء، وكانت هذه البسمة الوارفة الدّافئة الصّادقة أجلّ عند جرير من كل الذّكريات، وأسمى من كلّ الأمنيات، يبتسم النّبيّ ﷺ في وجه جرير فيملأ روحَه برًا وحنانًا ولطفًا، ويُشبِع قلبه سماحةً ورحمةً وودًّا.

وأمّا ضحكه ﷺ فهو اللّقطة التّاريخية النّبوية التي يسعد بها كل مؤمن ومؤمنة ويعيشها الصّحابة بأرواحهم ووجدانهم، وينقلونها لنا فيقولون: «**ضَحكَ حتَّى بَدتْ نَواجِذُه**»، و«**افترّ عن مثل البَرَد**»، و«**ضحك عن مثل اللّؤلؤ**»، ثم يذكرون لماذا ضحك، ويضحكون لضحكه، ويستأنسون لأُنْسِه.

فضحكته ﷺ كانت الضّحكة السارّة الجميلة الرّائعة.

كان يُرشد بمزاحه، ويُربّي بتبسّمه، ويُدخل السّرور بضحكه، فطُرفته دعوة، وضحكته رسالة، ولمزاحه مقاصد، ولضحكه أسرار؛ لأنّه معصوم في جِدّه ومزاحه، وفي ضحكه وبُكائه.

ورسول الله ﷺ في ضحكه ومزاحه ودعابته وسطٌ بين من جفّ خُلُقه، ويبس طبعه، وتجهّم مُحيّاه، وعبس بوجهه، وبين من أكثر من الضّحك، واستهتر في المزاح، وأدمن الدّعابة والخفّة.

فكان ﷺ يضحك في بعض المناسبات حتى تبدو نواجذه، ولكنّه لا يستغرق في الضّحك حتى يهتزّ جسمه أو يتمايل، أو تبدو لهواته وهي: (أقصى الفم)، فعن عائشة أمّ المؤمنين (رضي الله عنها) قالت: «**ما رَأَيْتُ النبيَّ ﷺ مُسْتَجْمِعًا قَطُّ ضاحِكًا، حتّى أرى منه لَهواتِهِ، إنَّما كانَ يَتَبَسَّمُ**» [مُتفق عليه].

وقد ورد عنه ﷺ أنّه مازح بعض أصحابه حينما قال له: يَا رَسُولَ الله، احْمِلْنِي، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إنَّا حَامِلُوكَ على وَلَدِ نَاقَةٍ**» قَالَ: **وَمَا أَصْنَعُ بِوَلَدِ النَّاقَةِ؟** فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**وَهَلْ تَلِدُ الإبلُ إلّا النوقَ**». «**أي أنّ الجمل أصلًا ولدُ ناقة**» [رواه أحمد].

ومازح ﷺ أنسًا (رضي الله عنه) فقال له: «**يا ذا الأذنين**» [رواه أبو داود].

فكان ﷺ يمزح ولا يقول إلّا حقًّا.

وضحكَ ﷺ في مقام التّشريع بإظهار سماحة الدّين ويُسر الملّة، فعن أبي هريرة (رضي الله عنه): أَتى رَجُلٌ النّبيَّ ﷺ فَقالَ: «**هَلَكْتُ، وقَعْتُ على أهْلِي في رَمَضانَ**، قالَ: **أعْتِقْ رَقَبَةً**، قالَ: **ليسَ لي**، قالَ: **فَصُمْ شَهْرَيْنِ مُتَتابِعيْنِ**، قالَ: **لا أسْتَطِيعُ**، قالَ: **فأطْعِمْ سِتّينَ مِسْكِينًا**، قالَ: **لا أجِدُ، فَأُتِيَ بعَرَقٍ فيه تَمْرٌ**، فَقالَ: **أيْنَ السّائِلُ؟ تَصَدَّقْ بها**، قالَ: **على أفْقَرَ مِنّي، واللهِ ما بيْنَ لابَتَيْها أهْلُ بَيْتٍ أفْقَرُ مِنّا، فَضَحِكَ النّبيُّ ﷺ حتّى بَدَتْ نَواجِذُهُ**، قالَ: **فأنتُمْ إذًا**» [مُتفق عليه].

وضحك ﷺ تعجّبًا، فعن سعد بن أبي وقاص (رضي الله عنه)، قال: «**اسْتَأْذَنَ عُمَرُ على رَسولِ الله ﷺ، وَعِنْدَهُ نِساءٌ مِن قُرَيْشٍ يُكَلِّمْنَهُ وَيَسْتَكْثِرْنَهُ، عالِيَةً أَصْواتُهُنَّ، فَلَمّا اسْتَأْذَنَ عُمَرُ قُمْنَ يَبْتَدِرْنَ الحِجابَ، فأذِنَ له رَسولُ الله ﷺ، وَرَسولُ الله ﷺ يَضْحَكُ**، فَقالَ عُمَرُ: أَضْحَكَ الله سِنَّكَ، يا رَسولَ الله! فَقالَ رَسولُ الله ﷺ: **عَجِبْتُ مِن هَؤُلاءِ اللّاتي كُنَّ عِندِي، فَلَمّا سَمِعْنَ صَوْتَكَ ابْتَدَرْنَ الحِجابَ**» [مُتفق عليه].

وضحكَ ﷺ إقرارًا للمسألة، وتصديقًا للكلام، فعن عبدالله بن مسعود (رضي الله عنه) قال: «جاءَ رَجُلٌ مِن أهْلِ الكِتابِ إلى النّبيِّ ﷺ فَقالَ: **يا أبا القاسِمِ، إنَّ الله يُمْسِكُ السَّمَاواتِ على إصْبَعٍ، والأرَضِينَ على إصْبَعٍ، والشَّجَرَ والثَّرى على إصْبَعٍ، والخَلائِقَ على إصْبَعٍ**، ثُمَّ يقولُ: **أنا المَلِكُ، أنا المَلِكُ. فَرَأَيْتُ النّبيَّ ﷺ ضَحِكَ حتّى بَدَتْ نَواجِذُهُ، ثُمَّ قَرَأَ**: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ} [الزمر: الآية 67]، [مُتفق عليه].

وعن أبي سعيد الخدري (رضي الله عنه) أن النبي ﷺ قال: «**تَكُونُ الأرْضُ يومَ القِيامَةِ خُبْزَةً واحِدَةً، يَتَكَفَّؤُها الجَبّارُ بيَدِهِ كما يَكْفَأُ أحَدُكُمْ خُبْزَتَهُ في السَّفَرِ، نُزُلًا لأهْلِ الجَنَّةِ**. فأتى رَجُلٌ مِنَ اليَهُودِ فقالَ: **بارَكَ الرَّحْمَنُ عَلَيْكَ يا أبا القاسِمِ، ألا أُخْبِرُكَ بنُزُلِ أهْلِ الجَنَّةِ يومَ القِيامَةِ؟** قالَ: **بلى**، قالَ: **تَكُونُ الأرْضُ خُبْزَةً واحِدَةً...** كما قالَ النبيُّ ﷺ، **فَنَظَرَ النّبيُّ ﷺ إلَيْنا، ثُمَّ ضَحِكَ حتّى بَدَتْ نَواجِذُهُ**» [مُتفق عليه].

حتى مواقف الرّحمة في الآخرة يذكرها لنا ﷺ ببشرٍ وسرورٍ وضحك، قال ﷺ: «**إنّي لأَعْلَمُ آخِرَ أهْلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنْها، وآخِرَ أهْلِ الجَنَّةِ دُخُولًا الجَنَّةَ، رَجُلٌ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ حَبْوًا**، فيَقولُ الله تَبارَكَ وتَعالَى له: **اذْهَبْ فادْخُلِ الجَنَّةَ، فَيَأْتِيها فيُخَيَّلُ إلَيْهِ أنَّها مَلْأَى، فَيَرْجِعُ فيَقولُ: يا رَبِّ، وجَدْتُها**

مَلْأَى، فيَقولُ اللهُ تَبارَكَ وتَعالَى له: **اذْهَبْ فادْخُلِ الجَنَّةَ**، قالَ: **فَيَأْتِيها، فيُخَيَّلُ إلَيْهِ أنَّها مَلْأَى**، فَيَرْجِعُ فيَقولُ: **يا رَبِّ، وجَدْتُها مَلْأَى**، فيَقولُ اللهُ له: **اذْهَبْ فادْخُلِ الجَنَّةَ، فإنَّ لكَ مِثْلَ الدُّنْيا وعَشَرَةَ أمْثالِها، أوْ إنَّ لكَ عَشَرَةَ أمْثالِ الدُّنْيا**، قالَ: **فيَقولُ: أتَسْخَرُ بي، أوْ أتَضْحَكُ بي، وأَنْتَ المَلِكُ؟** قالَ: **لقَدْ رَأَيْتُ رَسولَ الله ﷺ ضَحِكَ حتَّى بَدَتْ نَواجِذُهُ.** قالَ: فَكانَ يُقالُ: **ذاكَ أدْنَى أهْلِ الجَنَّةِ مَنْزِلَةً**» [مُتفق عليه].

وضحكَ ﷺ لبعض الأمور العجيبة الغريبة، وبيّن ما فيها من أحكام شرعيّة، فعن جابر بن عبدالله (رضي الله عنه)، قال: «جاءَ رَجُلٌ إلى النّبيِّ ﷺ فَقالَ: **يا رَسولَ الله، رَأَيْتُ في المَنامِ كَأنَّ رَأْسِي قُطِعَ**، قالَ: **فَضَحِكَ النّبيُّ ﷺ**، وَقالَ: **إذا لَعِبَ الشَّيْطانُ بأَحَدِكُمْ في مَنامِهِ، فلا يُحَدِّثْ به النّاسَ**». [رواه مسلم].

وضحكَ ﷺ من مزاح ودعابة بعض الأعراب، فعن أبي هريرة(رضي الله عنه): «**أنَّ النَّبيَّ ﷺ كانَ يَوْمًا يُحَدِّثُ، وعِنْدَهُ رَجُلٌ مِن أهْلِ البَادِيَةِ: أنَّ رَجُلًا مِن أهْلِ الجَنَّةِ اسْتَأْذَنَ رَبَّهُ في الزَّرْعِ، فَقَالَ له: أَلَسْتَ فِيما شِئْتَ؟ قَالَ: بَلَى، ولَكِنِّي أُحِبُّ أنْ أزْرَعَ، قَالَ: فَبَذَرَ، فَبَادَرَ الطَّرْفَ نَبَاتُهُ واسْتِوَاؤُهُ واسْتِحْصَادُهُ، فَكانَ أمْثَالَ الجِبَالِ**، فيَقولُ اللهُ: **دُونَكَ يا ابْنَ آدَمَ؛ فإنَّه لا يُشْبِعُكَ شَيءٌ. فَقَالَ الأعْرَابِيُّ: واللهِ لا تَجِدُهُ إلَّا قُرَشِيًّا أوْ أنْصَارِيًّا؛ فإنَّهُمْ أصْحَابُ زَرْعٍ، وأَمَّا نَحْنُ فَلَسْنَا بأَصْحَابِ زَرْعٍ. فَضَحِكَ النَّبيُّ ﷺ**» [رواه البخاري].

وضحكَ ﷺ للضّعف البشريّ الذي يَعرض للناس مهما كان فيهم من خير وصلاح، فعن عبدالله بن عمر (رضي الله عنه)، قال: «**لَمَّا حَاصَرَ رَسولُ الله ﷺ الطَّائِفَ، فَلَمْ يَنَلْ منهمْ شيئًا**، قالَ: **إنَّا قَافِلُونَ إنْ شَاءَ اللهُ.** فَثَقُلَ عليهم، وقالوا: **نَذْهَبُ ولَا نَفْتَحُهُ!** وقالَ مَرَّةً: **نَقْفُلُ.** فَقالَ: **اغْدُوا علَى القِتَالِ. فَغَدَوْا فأصَابَهُمْ جِرَاحٌ**، فَقالَ: **إنَّا قَافِلُونَ غَدًا إنْ شَاءَ اللهُ.** فأعْجَبَهُمْ، **فَضَحِكَ النَّبيُّ ﷺ**» [رواه البخاري ومسلم].

وضحك ﷺ من سرعة ملل النّاس، وقلّة صبرهم، فعن أنس بن مالك (رضي الله عنه) قال: «**أنَّ رَجُلًا جَاءَ إلى النبيِّ ﷺيَومَ الجُمُعَةِ، وهو يَخْطُبُ بالمَدِينَةِ**، فَقالَ: **قَحَطَ المَطَرُ، فَاسْتَسْقِ رَبَّكَ. فَنَظَرَ إلى السَّمَاءِ وما نَرَى مِن سَحَابٍ، فَاسْتَسْقَى، فَنَشَأَ السَّحَابُ بَعْضُهُ إلى بَعْضٍ، ثُمَّ مُطِرُوا حتَّى سَالَتْ مَثَاعِبُ المَدِينَةِ، فَما زَالَتْ إلى الجُمُعَةِ المُقْبِلَةِ ما تُقْلِعُ، ثُمَّ قَامَ ذلكَ الرَّجُلُ أوْ غَيْرُهُ، والنبيُّ ﷺ يَخْطُبُ**، فَقالَ: **غَرِقْنَا، فَادْعُ رَبَّكَ يَحْبِسْهَا عَنَّا، فَضَحِكَ ثُمَّ** قالَ: **اللَّهُمَّ حَوالَيْنَا ولَا عَلَيْنَا**؛ **مَرَّتَيْنِ أوْ**

ثَلَاثًا، فَجَعَلَ السَّحَابُ يَتَصَدَّعُ عَنِ المَدِينَةِ يَمِينًا وشِمَالًا، يُمْطَرُ ما حَوَالَيْنَا ولَا يُمْطِرُ منها شيءٌ، يُرِيهِمُ اللهُ كَرَامَةَ نَبِيِّهِ ﷺ وإجَابَةَ دَعْوَتِهِ». [مُتفق عليه].

وتبسّم ﷺ من حُسن جواب أحد أصحابه وموافقته للحق في اختياره سورة الفاتحة لتكون رُقيةً، فعن أبي سعيد الخدري (رضي الله عنه) قال: «**إنَّ ناسًا مِن أَصْحابِ رَسولِ الله ﷺ كانُوا في سَفَرٍ، فَمَرُّوا بحَيٍّ مِن أَحْياءِ العَرَبِ، فاسْتَضافُوهُمْ فَلَمْ يُضِيفُوهُمْ**، فَقالوا لهمْ: **هلْ فِيكُمْ راقٍ؟ فإنَّ سَيِّدَ الحَيِّ لَدِيغٌ، أَوْ مُصابٌ**، فَقالَ رَجُلٌ منهمْ: **نَعَمْ، فأتاهُ فَرَقاهُ بفاتِحَةِ الكِتابِ، فَبَرَأَ الرَّجُلُ، فَأُعْطِيَ قَطِيعًا مِن غَنَمٍ، فأبى أَنْ يَقْبَلَها**، وَقالَ: **حتّى أَذْكُرَ ذلكَ للنَّبيِّ ﷺ**، فأتى النَّبيَّ ﷺ فَذَكَرَ ذلكَ له، فَقالَ: **يا رَسولَ الله، والله ما رَقَيْتُ إلّا بفاتِحَةِ الكِتابِ**، فَتَبَسَّمَ ﷺ وَقالَ: **وَما أَدْراكَ أنّها رُقْيَةٌ؟! ثُمَّ قالَ: خُذُوا منهمْ**» [مُتفق عليه].

كان مِزَاحه ﷺ تأليفًا للقلوب، وتبسّمه أُنسًا للأرواح، وضحكه بلسمًا للنفوس، بل كلّ مزحة مكتوبة في دواوين الحديث على أنّها سُنّة، وكل بسمة نقلها الرّواة على أنّها أثر وخُلُق من أخلاقه الشريفة، يبتسم بوجه أبهى من الشّمس، وجبين أزهى من البدر، ومُحيّا أجمل من الفجر، وفمٍ أطهر من الماء الزّلال، وبشاشة أندى من الغيث، وخُلُق أرقّ من النّسيم.

يمزح ولا يقول إلّا حقًّا، فيكون مزحه على أرواح أصحابه أهنأ من قطرات الماء على الكبد الصّادي، وألطف من يد الوالد الحاني على رأس ابنه الوديع، يمازحهم فتنشط أرواحهم وتنشرح صدورهم، وتنطلق أسارير وجوههم، فلا والله لا يريدون الدّنيا كلها في مقابل جلسة واحدة من جلساته، ولا والله لا يرغبون في القناطير المقنطرة من الذهب والفضة في مقابل كلمة حانية وادعة مشرقة من كلماته.

فسبحان مَن رفع قدره حتى صار ضحكه يُحفظ في بطون الأسفار! كأنّه أعجب قصة من قصص العبر والعِظات، وتبارك من شرّف منزلته حتى جعل مزحه يرويه الثّقات عن الثّقات كأنّه فريضة قائمة.

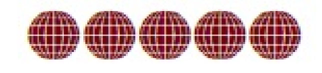
اللهم صلِّ وسلِّم على من جعلتَ تبسّمه وضحكه من أمور الشّريعة، ومسائل الملّة، تُكتب في العبادات، وتُسجّل في الطاعات.

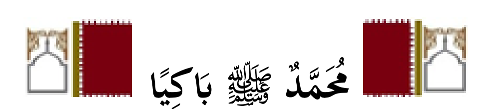
ضَحِكَتْ بك الأَيّامُ يَا عَلَمَ الْهُدَى ... وَاسْتَبْشَرَتْ بِقُدُومِكَ الْأَعْوَامُ

وَتَوَقَّفَ التَّارِيخُ عِنْدَكَ مُذْعِنًا ... تُمْلِي عَلَيْهِ وَصَحْبُكَ الأَقْلامُ

اضْحَكْ لِأَنَّكَ جِئْتَ بُشْرَى لِلْوَرَى ... فِي رَاحَتَيْكَ السِّلْمُ وَالإِسْلامُ

اضْحَكْ فَبَعْثَتُكَ الصُّعُودُ وَفَجْرُهَا ... مِيلادُ جِيلٍ مَا عَلَيْهِ ظَلامُ





مُحَمَّدٌ ﷺ بَاكِيًا

البكاء فضيلة عند رؤية التّقصير، أو الخوفِ من سوءِ المصير، وهو مَحْمدة إذا تذكّر العبد ربّه وخاف ذنبه، ودليل على تقوى القلب، وسموّ النّفس، وطُهْر الضّمير، ورقّة العاطفة.

وقد نوّه تعالى بصفة البُكاء عند رسله الأبرار فقال: {وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَانِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا} [مريم: الآية 58]، ووصف أولياءه الصّالحين بقوله: {وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا} [الإسراء: الآية 109]، ولامَ أعداءه على القسوة والغلظة فقال تعالى: {أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ * وَتَضْحَكُونَ وَلاَ تَبْكُونَ } [النجم: الآية 59 - 60]، وأثنى على قوم فقال تعالى: {وَإِذَا سَمِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ} [المائدة: الآية 83].

وسيّد الخاشعين لرّب العالمين، وإمامُ الخَلقِ يومَ الدّين، هو خاتم المرسلين ﷺ، فقد كان نديّ الجفن، سريع العبرة، سخيّ الدّمع، رقيق القلب، جيّاش العاطفة، مشبوب الحشا، تنطلق دمعته في صدق وطُهر، ويفيض نشيجه في قُنوت وإخباتٍ، ويترك بكاؤه في قلوب أصحابه آثارًا من التّربية والاقتداء والصّلاح ما لا تتركه الخطب البليغة، والمواعظ المؤثرة؛ لأنّ البكاء دليل على خشوع القلب وصفاء الرّوح، وهو أعظم مشهد إنسانيّ للعطف والرّحمة، وكان رسولنا ﷺ أرقّ النّاس قلبًا، وأنقاهم روحًا، وأطهرهم نفسًا، وكانت عيناه تفيضان بصادق الدّموع عند المواقف المؤثّرة، **ومن تلك المواقف:**



بكاؤه ﷺ في الصلاة:

كان ﷺ يبكي في الصّلاة حين مناجاته لخالقه ومولاه، وقد سافرتْ روحه تطوف حول عرش الرّحمن، خشوعًا وإخباتًا، ودعاءً وتضرعًا، فعن عبدالله بن الشّخير (رضي الله عنه) قال: «**رأيْتُ رسولَ الله ﷺ يُصلّى وفي صدرِهِ أزيزٌ كأزيزِ المرجلِ منَ البكاءِ**» [رواه أحمد]، و(**أزيز المرجلِ**) هو صوتُ غَلَيان القِدْر.

وبكى ﷺ في صلاة الكسوف خوفًا على أُمّته من نزول العذاب؛ كما جاء في حديث عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو (رضي الله عنهما) قَالَ: «كُسِفَتِ الشَّمْسُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ الله ﷺ، فَصَلَّى فأَطَالَ الْقِيَامَ، ثُمَّ رَكَعَ فَأَطَالَ الرُّكُوعَ، ثُمَّ رَفَعَ فَأَطَالَ، **وأحسبه قال: فِي السُّجُودِ نَحْوَ ذَلِكَ، وَجَعَلَ يَبْكِي فِي سُجُودِهِ وَيَنْفُخُ** وَيَقُولُ: **رَبِّ لَم تَعِدْ هَذَا وَأَنَا أَسْتَغْفِرُكَ، رَبِّ لَمْ تَعِدْ هَذَا وَأَنَا فِيهِمْ**» [رواه أحمد].

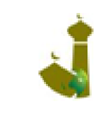
وبكى النّبيّ ﷺ في صلاته ليلة غزوة بدر؛ كما جاء في حديث عَلِيٍّ(رضي الله عنه) قَالَ: «**مَا كَانَ فِينَا فَارِسٌ يَوْمَ بَدْرٍ غيرَ المِقدادِ، وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا وَمَا فِينَا إِلَّا نَائِمٌ، إِلَّا رَسُولَ الله ﷺ تَحْتَ شَجَرَةٍ يصلِّي وَيَبْكِي حَتَّى أَصْبَحَ**» [رواه أحمد].



بكاؤه ﷺ عند سماع القرآن وتلاوته:

كانت دموعه ﷺ تسيل كثيرًا عند تلاوته للقرآن أو سماعه، ويتأثّر ويعيش بوجدانه كلّ كلمة من هذا الذّكر الحكيم، فقد بكى ﷺ عند تلاوة القرآن كما جاء عن عبدالله بن عمرو بن العاص (رضي الله عنهما): «**أنَّ النّبيَّ ﷺ تَلا قَوْلَ الله عزَّ وجلَّ في إبْراهِيمَ:** {رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي} [إبراهيم: الآية 36]، وقالَ عِيسَى عليه السّلام: {إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [المائدة: الآية 118]، فَرَفَعَ يَدَيْهِ وقالَ: **اللهمَّ أُمَّتي أُمَّتِي، وبَكَى**» [رواه مسلم].

وكان ﷺ يبكي عند سماع القرآن، كما جاء عن عبدالله بن مسعود (رضي الله عنه) أنّ النّبيّ ﷺ قال له: «**اقْرَأْ عَلَيَّ**، قالَ: قُلتُ: **أقْرَأُ عَلَيْكَ وعَلَيْكَ أُنْزِلَ؟!**، قالَ: **إنِّي أشْتَهِي أنْ أسْمعهُ مِن غيرِي،** قالَ: **فَقَرَأْتُ النِّساءَ حتّى إذا بَلَغْتُ:** {فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا} [النساء: الآية 41]، قالَ لِي: **كُفَّ - أوْ أمْسِكْ - فَرَأَيْتُ عَيْنَيْهِ تَذْرِفانِ**» [مُتفق عليه].



بكاؤه ﷺ عند القبر:

بكى ﷺ وهو يودّع الأحباب، ويواريهم التّراب، ويضعهم في الحفرة التي تنتهي فيها بهرجة الدّنيا الفانية وزخارفها، الحفرة التي هي آخر منازل الدّنيا، وأوّل منازل الآخرة، أنّها القبر، تسيل دموعه ويهتزّ كيانه ﷺ على فراق الأعزّاء على روحه، والقريبين من قلبه، بعد حياة مِلؤها المحبّة والوفاء، والإخلاص والصّفاء، فعن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: «**زارَ النّبيُّ ﷺ قَبْرَ أُمّهِ، فَبَكى وَأَبْكى مَن حَوْلَهُ**» [رواه مسلم].

ويحضر ﷺ جنازة ابنته أمّ كلثوم، ويجلس على القبر وتذرف عيناه من هول المنظر، وتذكُّر العاقبة، والتفكّر في ذاك المصير، وأصحابه يشاهدون هذا المشهد المؤثر المُعبّر منه ﷺ ويبكون لبكائه، فعن أنس بن مالك (رضي الله عنه) قال: «**شَهِدْنا بِنْتًا لِرَسولِ الله ﷺ، ورَسولُ الله ﷺ جالِسٌ على القَبْرِ فَرَأَيْتُ عَيْنَيْهِ تَدْمعانِ**» [رواه البخاري].

وعن أنس بن مالك (رضي الله عنه) قال: «**دَخَلْنَا مع رَسولِ الله ﷺ علَى أَبِي سَيْفٍ القَيْنِ، وكانَ ظِئْرًا لِإِبْرَاهِيمَ عليه السَّلَامُ، فأخَذَ رَسولُ الله ﷺ إبْرَاهِيمَ، فَقَبَّلَهُ، وشَمَّهُ، ثُمَّ دَخَلْنَا عليه بَعْدَ ذلكَ وإبْرَاهِيمُ يَجُودُ بنَفْسِهِ، فَجَعَلَتْ عَيْنَا رَسولِ الله ﷺ تَذْرِفَانِ،** فَقالَ له عبدُ الرَّحْمَنِ بنُ عَوْفٍ (رضي الله عنه): **وأَنْتَ يا رَسولَ الله؟ فَقالَ: يا ابْنَ عَوْفٍ إنَّهَا رَحْمَةٌ، ثُمَّ أَتْبَعَهَا بأُخْرَى**، فَقالَ ﷺ: **إنَّ العَيْنَ تَدْمَعُ، والقَلْبَ يَحْزَنُ، ولَا نَقُولُ إلَّا ما يَرْضَى رَبُّنَا، وإنَّا بفِرَاقِكَ يا إبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ**» [مُتفق عليه].

فلم يكن بكاؤه ﷺ بكاءَ تسخّط أو اعتراض على القدر.



بكاؤه ﷺ عند استشهاد أصحابه:

بكى ﷺ على شهداء مؤتة (رضي الله عنهم)؛ كما جاء في حديث أَنَسٍ(رضي الله عنه): «**إنَّ النَّبِيَّ ﷺ: نَعَى جَعْفَرًا وَزَيْدًا وابْنَ رَواحَةَ قَبْلَ أَنْ يَجِيءَ خَبَرُهُمْ وَعَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ**» [رواه البخاري].

وبكى ﷺ وفاضت دموعه وشهق لمّا شاهد عمّه حمزة بن عبدالمطلب سيد الشهداء وأسد الله في أرضه شهيدًا، كما رُوي في «مستدرك الحكم» أنَّه ﷺ لمّا رأى حمزةَ قتيلًا بكى، فلمّا رأى ما مُثِّلَ

بهِ شهَقَ، وهنا يقول شاعر الإسلام حسان بن ثابت:

بَكَت عَيني وَحَقَّ لَهَا بُكاها	وَما يُغني البُكاءُ وَلا العَويلُ
عَلَى أَسَدِ الإِلَهِ غَداةَ قالوا	أَحَمزَةُ ذَلِكَ الرَجُلُ القَتيلُ
أُصيبَ المُسلِمونَ بِهِ جَميعًا	هُناكَ وَقَد أُصيبَ بِهِ الرَسولُ
أَبا يَعلى لَكَ الأَركانُ هُدَّت	وَأَنتَ الماجِدُ البَرُّ الوَصولُ
عَلَيكَ سَلامُ رَبِّكَ في جِنانٍ	مُخالِطُها نَعيمٌ لا يَزولُ

وكان يرقّ قلبُه الطّاهر ﷺ، وتسيل دموعُ عينيه الشّريفتين، عطفًا وحزنًا على ما يصيب أصحابه من أمراض أو أذى، فبكى ﷺ عندما زار سعد بن عبادة (رضي الله عنه) وقد اشتد مرضُه، فعن عبدالله بن عمر (رضي الله عنهما) قال: «اشْتَكى سَعْدُ بنُ عُبادَةَ شَكْوى له، فأتاهُ النّبيُّ ﷺ يَعُودُهُ مع عبدِالرَّحْمَنِ بنِ عَوْفٍ، وسَعْدِ بنِ أَبِي وقّاصٍ، وعَبْدِاللَّه بنِ مَسْعُودٍ (رضي الله عنهم)، فَلَمّا دَخَلَ عليه فَوَجَدَهُ في غاشِيَةِ أَهْلِهِ، فَقالَ: **قدْ قَضى؟**، قالوا: **لا يا رَسولَ الله، فَبَكى النبيُّ ﷺ، فَلَمّا رَأى القَوْمُ بُكاءَ النّبيِّ ﷺ بَكَوْا**» [مُتفق عليه].

وبكى حين زار حفيده (**ابن بنته زينب**)، وكان في مرض الموت، فعن أسامة ابن زيد (رضي الله عنه) قال: «**قَامَ النّبيُّ ﷺ وقَامَ معهُ سَعْدُ بنُ عُبَادَةَ، ومُعَاذُ بنُ جَبَلٍ، فَدُفِعَ الصَّبِيُّ إلَيْهِ ونَفْسُهُ تَقَعْقَعُ كَأنّها في شَنٍّ، فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ**، فَقالَ له سَعْدٌ: **يا رَسولَ الله، ما هذا؟**، قالَ: **هذِه رَحْمَةٌ جَعَلَهَا الله في قُلُوبِ عِبَادِهِ، وإنَّما يَرْحَمُ الله مِن عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ**» [مُتفق عليه].

ولم يملك ﷺ عينيه من البكاء حين دخل على عثمان بن مظعون بعد موته، فقبّله وسالت دموعه ﷺ رحمةً وشفقة، تقول عائشة (رضي الله عنها) : «**رأيتُ رسولَ الله ﷺ يُقبّلُ عُثمانَ بنَ مَظعونٍ وَهوَ مَيّتٌ، حتَّى رأيتُ الدُّموعَ تسيلُ**» [رواه أبو داود].

وأخبر ﷺ بفضل البكاء من خشية الله، فذكر من السّبعة الذين يظلهم اللهُ في ظلّه يوم لا ظِلّ إلّا ظلُّه: «**... ورَجُلٌ ذَكَرَ الله خالِيًا، فَفاضَتْ عَيْناهُ ...**» [متفق عليه].

وصحّ عنه ﷺ أنّه قال: «**عينان لا تمسّهما النار أبدًا: عين بكت وجلًا من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله**» [رواه الترمذي].

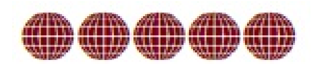
فالبكاء المشروع المحمود هو ما كان من خوف الله عزّ وجل، وتذكّر الرّجوع إليه، والوقوف بين يديه، والتّفكّر في آياته الشّرعية والكونيّة.

والبكاء دليل على الوفاء، وهو من أفضل أعمال الأولياء، خاصة إنْ كان ندمًا على معصية، أو عندَ فَواتِ طاعة، أو كان وجلًا من عذابٍ، ورحمةً لمُصابٍ، ورقّةً عند موعظةٍ، وخشيةً عند تفكّر.

ولا يُحمد البكاء على الدّنيا، فهي أقل وأرخص من أن يُبكى عليها، فليست أهلًا لذلك، ولهذا لم يكن ﷺ بالهَلوع الجَزوع الذي يأسف على فَوات الحظوظ الدّنيوية، ويجزع على ذهاب المكاسب الدّنيّة، ولم يكن بالفرِحِ البَطِرِ القاسي الذي لا تُؤثِّر فيه المواقف، ولا تحرّكه الأزمات، بل كان بكاؤه وندمه وأسفه طاعةً لله، وعبادة له، وخوفًا منه، ومرضاة له جلّ في عُلاه، وليس كبكاء أهل الدّنيا الذين يبكون على فَواتِ حظوظهم منها، وذهاب نصيبهم من مغرياتها وشهواتها، وإنّما قلبه مُعلّق بربّه؛ لأنّ بكاءه نتجَ عن عِظَمِ معرفته بمولاه، وقربه من خالقه، وصدق خشوعه ﷺ.

لقد كان أصحابه ﷺ ينظرون إليه على المنبر ودموعه تذرف، ونشيجه يتعالى، ولصدره أزيز، ولصوته هزيم فيتحوّل المسجد إلى بكاءٍ ودموعٍ، ووجلٍ وخشوعٍ، كلٌ يُنكّس رأسه، ويترك التّعبير لعينيه أمام هذا المشهد الذي لا تمحوه الأيام، ولا تُنسيه اللّيالي.

يا الله! محمّد رسول الله يقف هكذا باكيًا أمام النّاس، هكذا تسحّ دموعه وتتساقط على وجنتيه، وهو أعرف النّاس بالله، وأدراهم بالوحي، وأعلمهم بالمصير! يبكي من قلب مِلؤُه الخوف من الله، ومن نفس عمرَهَا حبّ الله، فتكاد دمُوعه تتحدث للنّاس، ويكاد بكاؤه أن يكون أبلغ من كلّ موعظة، وأفصح من كلّ كلمة، فصلّى الله وسلم على أصدق الأمة دموعًا، وأعظمهم خشوعًا، وصلّى الله وسلم على أبرّ من ذرفت عيناه، وفقنا الله لاتّباع هُداه، والسّير على خُطاه.





مُحَمَّدٌ ﷺ فَصِيْحًا

شرْحُ الرّسالة السّماوية، وتوضيح السُّنة النّبوية، وتبليغ الملّة المُقّدسة، مُهمّة عظيمة تحتاج إلى فصاحة باهرة، وبلاغة خلّابة، وبيان جذّاب، وعرض جميلٍ رائق، ولهذا أمر الله نبيّه المُصطفى ﷺ بالبلاغة في القول والموعظة، فقال له: {وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا} [النساء: الآية 63].

فكان من مهماته العظيمة عليه الصّلاة والسّلام بيان الرّسالة للنّاس كافّة، كما قال تعالى: {وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ} [النحل: الآية 64].

ولأهمّية الفصاحة، ومكانة البيان والبلاغة، أرسل الله تعالى مع موسى أخاه هارون عليهما السّلام؛ لأنّ هارون أفصح من موسى لسانًا، وأقوى بيانًا، كما قال: {وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِي رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ} [القصص: الآية 34].

وهذا دليل على أهمّية البلاغة، ومكانة الفصاحة التي كان العربُ روّادَها، وأعظمَ الأمم نبوغًا فيها.

فرسولُنا محمد ﷺ أتَى بالمعجزة الباهرة، والحُجّة القاطعة، فكان أفصح مَن تكلّم بلغة الضّاد، وأبلغَ مَن وصّل رسالة الله إلى العباد، فقد وهبه الله تعالى جمال العبارة، وأسْرَ الكلمة، ورونق الجُملة، وحُسن مخارجِ الحروف، وإعجاز اللّفظ، وإشراق الدّيباجة، فكانت فصاحته وبلاغته ﷺ من أجلّ دلائل نبوّته، وأوضح علامات عظمته، وأبرز مظاهر رسالته، فهو صاحب أفصحِ لسان مُبين، وأظهر منطقٍ مُستقيم، وأصدق الكلمات وأبلغ العبارات.

زكّى الله تعالى كلامه ومنطقه وحديثه فقال سُبحانه: {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى} [النجم: الآية 3- 4]، وقال سُبحانه: {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ * عَرَبِيٍّ * مُبِينٍ *} [الشعراء: الآية 193 - 195].

فكلامه ﷺ هو السّحر الحلال، والعذب الزّلال، يملأ القلوب بهجةً وجمالًا، ويُبهر الأرواح رونقًا وفخامةً، سدادٌ في القول، وإشراقٌ في العبارة، وجمالٌ في الألفاظ، إذا أسهب أطاب وأعجب، وإذا أوجز أعجز.

يمدّ ﷺ الحديث وقت المدّ، فلا ملالة ولا سآمة، ويختصر وقت الاختصار فلا إغماض ولا إخلال، حاضر الحُجّة، قوي البُرهان، مُقنع الدليل، يجد السامع لكلامه حلاوة وطلاوة، ويشعر المُتلقي لحديثه بأُنسٍ وسعادة.

فهو ﷺ الذي برّ الخُطباء، وأعجز البُلغاء، وأسكت الفُصحاء، وأدهش الشّعراء؛ لأنّه مُلهَم بالنّبوّة، مُسدّد بالرّسالة، محفوظ بالعصمة، مُحاط بالعناية، فكُل كلمة يقولها شريعة، وكُل لفظة يتلفّظ بها دين، وكُل حديثٍ يتفوّه به طاعة، كما قال الشاعر:

فَما عَرَفَ البَلاغَةَ ذُو بَيانٍ   إِذا لَم يَتَّخِذكَ لَهُ كِتابًا

فقد جعل ﷺ للفصاحة ديوانًا، وللبلاغة بُستانًا، فهو سيد من نطق فأفصح، ومن تكلّم فأوضح، تُدَرّس كلماته في الجوامع تدريسًا، وتُعَلّم في دواوين العُلماء تعليمًا وتحفيظًا، ليس في عباراته همز أو غمز أو لمز أو تبذّل أو سقوط، بل رُقيّ وسموّ وإبداع وإمتاع.

فمن يقرأُ كلامه ﷺ ويتدبّره حقّ التدبّر يبقى أسيرًا لهذا النّمط المُرتّب الجميل، الغالي النّفيس.

وإنّك لتُميّز قوله ﷺ بين أقوال آلاف الزّعماء، والعظماء، والعباقرة، والمُبدعين، والشّعراء، والحُكماء، والأدباء، وتتأكد أن محمد بن عبدالله ﷺ قد قال هذا الحديث، وأنّه صاحب هذه الرّوائع الفريدة، والدُّرر المجيدة، والجمل السّديدة؛ لأنّه ﷺ المُتفرّد في العالم الذي لا تشبع الأرواح الطاهرة من حديثه الشّجي، ولا تُروى النفوس الزّكية من معين كلامه العذب.

إنّ حديثه الماتع ﷺ يُدرّس في الجامعات، وتُحَضر فيه الرّسائل والدّراسات، وتُصَنَّف في إعجازه وإيجازه المصنّفات، فصارت كلّ كلمة من كلماته عليه الصّلاة والسّلام مثلًا شرودًا في

الصّدق والتأثير، وصار السّطر الواحد من كلامه ﷺ منهج حياة، ودستور أخلاق، وعظة كافية شافية، ودرسًا بليغًا من العلم النافع.

ومن المُتعارف عليه أنّ الفصاحة والبلاغة كثيرًا ما تؤدي بأصحابها إلى الوقوع في المُبالغات، وتكلّف العبارات، والخروج بالكلمات عن الموضوعيّة والصّدق، حتى إنّ العرب كانوا يقولون: «**أعذب الشّعر أكذبه**»، لكنّ النّبي المُختار، إمام الأبرار كان في فصاحته وبلاغته صادقًا قولًا وفعلًا، فلم تُحفظ له في الكلام سقطة، ولم تُذكر له في الحديث غلطة، حتى في مزاحه ﷺ كان يتحرّى الصّدق وعدم الخروج عن الموضوعيّة، قال ﷺ: «**...ثُمَّ لا تَجِدُونِي بَخِيلًا، ولَا كَذُوبًا، ولَا جَبَانًا**» [رواه البخاري].

ونهى ﷺ عن السّجع المتكلّف، والكلام المُتعسّف، فقال لمن سجع بالزّور والبهتان: «**إنَّما هذا مِن إخْوانِ الكُهّانِ**» مِن أَجْلِ سَجْعِهِ الذي سَجَعَ. [مُتفق عليه]

وكذلك كان ﷺ بعيدًا عن التّنطعِ في العبارات، والتشدّق في الكلمات، فلم يستخدم الألفاظ الصّعبة الغريبة التي يَستعصي على النّاس فهمها، فيحتاجون إلى معاجم لتفسيرها، بل كانت كلماته سهلة بسيطة واضحة، قال تعالى {قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ} [ص: الآية 86].

ونهى ﷺ عن التّعمق في الحديث، وذمَّ المتشدقين المتكبّرين، فعن جابر (رضي الله عنه) أنّ رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ مِن أحبِّكم إليَّ وأقربِكُم منِّي مجلسًا يومَ القيامةِ أحاسنَكُم أخلاقًا. وإنَّ أبغضَكُم إليَّ وأبعدَكُم منِّي يومَ القيامةِ الثَّرثارونَ والمتشدِّقونَ والمتفَيهِقونَ**» [رواه الترمذي].

فاليُسر منهجه، والسّهولة طريقته، والسّماحة ملّته، في المقال، والأفعال، والأحوال.

ورغم أُميّته ﷺ إلّا أنّه كان إذا ارتجل أتى بكلام يفيض بلاغةً وفصاحةً، وبراعةً ونصاعةً، ونداوةً وطلاوةً، وهو لم يحمل قلمًا، ولم يخطّ حرفًا، لكنه يبهر أساطين البلاغة، ويدوّخ أساتذة البيان، ويُذهل عمالقة الفصاحة، ويُفحم روّاد اللّغة، ويقومُ في الجموع الهادرة، ويدْلِف في أسواق العرب العامرة، ويفاجئ الجموع في المنتديات والأماكن العامة، فيرقى ثم يخطب فلا تسمع إلّا همسًا، كل الآذان صاغية، والقلوب واعية، والأبصار شاخصة لهذا الإمام العظيم، والنّبي الكريم ﷺ.

ومن الذي يشبع من كلامه - بأبي هو وأمي ﷺ - وقد ملك مقاليد الإبداع في اللّفظ والمعنى، واستولى على مملكة البيان نطقًا وأداءً، فكان الصّحابة رضوان الله عليهم يجلسون أمامه في جنّةٍ من المُتعة الرّوحية، وفي روضة من المواهب القُدسيّة، وهم يستمعون لبركات الكلمات النّبوية، فسُبحان من علّمه هذا بدون علم سابق! قال تعالى: {مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [الشورى: الآية 52].

فرسول الله ﷺ سيد الإقناع، وإمام الحُجّة النّاصعة، وأمير البيان الأخّاذ المُوحي.

ومن براعة أقواله، وفصاحة ألفاظه، ونصاعة بيانه، ما ابتكره ﷺ من الجُمل التي لم يسبق أن قيلت قبله، وإنّما افتتحها افتتاحًا، كقوله ﷺ: «**لا يُلْدَغُ المُؤْمِنُ مِن جُحْرٍ واحِدٍ مَرَّتَيْنِ**» [مُتفق عليه]، وقوله ﷺ: «**هذا حين حَمِيَ الوَطِيسُ**» [رواه مسلم]. ومعنى (حمي الوَطِيس) أي: (اشتدّت الحرب)، فكما أنّه ﷺ فتح برسالته القلوب والعقول، فقد فتح بفصاحته المقول والمنقول.

ومن بلاغته ﷺ التّلويح لا التّصريح، حتى لا تكون النّصيحة فضيحة، فكان عليه الصّلاة والسّلام يستعمل ألطف العبارات، وأجمل الكلمات في التّنبيه على خطأ المخطئ، وذنب المذنب، مثلما فعل مع أحد وُلاته حين قبل الهديّة أثناء عمله مُخالفًا لسُنّته، فوقف ﷺ وخطب في الناس، وقال: «**إنِّي أسْتَعْمِلُ الرَّجُلَ مِنكُم على العَمَلِ ممّا ولّانِي الله، فَيَأْتي فيَقولُ: هذا مالُكُمْ وهذا هَدِيَّةٌ أُهْدِيَتْ لِي، أفلا جَلَسَ في بَيْتِ أبِيهِ وأُمِّهِ حتّى تَأْتِيَهُ هَدِيَّتُهُ**» [مُتفق عليه].

فلم يوجّه ﷺ الخطاب للشخص المُخطئ مباشرة، بل تكلّم بصيغة العموم، وهكذا كانت طريقته وبلاغته في إنكار الأخطاء على النّاس.

ولقد أُلّفت في بلاغة كلامه وفصاحته ﷺ مؤلفات، وغاص العلماء في بحور عباراته، واستخرجوا لآلئ حديثه، وجواهر ألفاظه ﷺ، وأفردوا ذلك بالتّصنيف، وجمعوا فيها التآليف؛ لأن الله رزقه حُسن البيان، حتى أسمع الإنس والجان، وأنصت له الثّقلان.

وأدعوك الآن أن تدخل معي في مجلسه المبارك، مُستمعًا مُنصتًا لجلال عباراته، وجمال إشاراته، وكمال كلماته، لينشرح صدرك، ويرتاح بالك، وتُسافر روحك إلى عالم الخلود، وتذهب عنك الوساوس والشّكوك، والهموم والغموم، لأنّك مع المعصوم ﷺ، وأسوق لك بعض النّماذج من فصاحته وبلاغته وبيانه عليه الصّلاة والسّلام في أحاديث دُرّست في المساجد، وفي الجامعات،

وعلى المنابر، وفي مجامع الناس، منها قوله ﷺ: «**الطُّهُورُ شَطْرُ الإيمانِ والحمْدُ للهِ تَملأُ الميزانَ، وسُبْحانَ الله والحمدُ للهِ تَمْلَآنِ -أَوْ تَمْلأُ- ما بين السَّمَاواتِ والأرْضِ، والصَّلاةُ نُورٌ، والصَّدَقَةُ بُرْهانٌ، والصبرُ ضِياءٌ، والْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ، أوْ عَلَيْكَ، كُلُّ النّاسِ يَغْدُو فَبايِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُها، أوْ مُوبِقُها**» [رواه مسلم].

فانظر إلى كل فاصلة من هذه الكلمات كأنّها درّة في عقد، وكأنّها جوهرة في تاج، كل كلمة تُدرّس، وتُشرح، وتُعلَّم، لما فيها من أسرارٍ وحكمٍ ومعانٍ، وكل جملة أخذت قضيةً ومسارًا غير الجملة الأخرى، لكنّه ﷺ جمعها في تناسق، فلا تشعر باختلاف، ولا تضاد، ولا تعارض، ولا ثِقل، ولا استيحاش.

وانظر إلى هذا الحديث المؤثّر المُشجي، قال ﷺ: «**احفَظِ اللهَ يَحفَظْكَ، احفَظِ اللهَ تَجِدْه أَمامَكَ، تَعَرَّف إلى اللهِ في الرَّخاءِ يَعرِفْك في الشِّدَّةِ، وإذا سأَلتَ فاسأَلِ اللهَ، وإذا استعَنتَ فاستَعِنْ باللهِ، قد جَفَّ القَلَمُ بما هو كائِنٌ، فلو أنَّ الخَلقَ كُلَّهم جَميعًا أرادوا أنْ يَنفَعوكَ بِشَيءٍ لم يَكتُبه اللهُ عليكَ؛ لم يَقدِروا عليه، وإنْ أرادُوا أنْ يَضُرُّوك بِشَيءٍ لم يَكتُبْه اللهُ عليكَ؛ لم يَقدِروا عليه، واعلَمْ أنَّ في الصَّبرِ على ما تَكرَهُ خَيرًا كَثيرًا، وأنَّ النَّصرَ مع الصَّبرِ، وأنَّ الفَرَجَ مع الكَرْبِ، وأنَّ مع العُسرِ يُسرًا**» [رواه أحمد والترمذي].

آمل أن تصغي بقلبك، وأن تُعيد قراءة هذا الحديث مرة أخرى حتى تعيه، ويستقر في أعماق روحك، ويسري إلى نياط قلبك؛ إنّه كلام معصوم يتّصف بالحكمة والبيان.

وأمّا براعة القول فقد بلغ فيها ﷺ المكان الأعلى، والمحل الأسمى، وكان خطابُه يأخذ بالألباب، وحديثُه يسري إلى الأرواح، وكلامُه فائقٌ مُشرقٌ يدخل إلى القلوب دون أيّ استئذان، فقد آتاه الله جوامع الكلم، وبدائع الحكم، فإن كانت العرب أفصح الأمم، فإنّ النّبي الأكرم أفصحها لسانًا، وأوضحها بيانًا، وأقواها برهانًا.

آتاه الله فصاحة عظيمة، وبلاغة فائقة، وميّزه وخصّه سُبحانه عن الأنبياء جميعًا بجوامع الكَلِم، فكان يتكلّم ﷺ الكلام القليل المُبارك، فيجمع المعاني الغزيرة الكثيرة الوفيرة في يُسر من القول، وسهولة من اللفظ، مع نصاعة في العبارة، ولطف في الإشارة.

وقد أخبرنا ﷺ بهذه الموهبة الربّانية فقال: «**بُعِثْتُ بجَوامِعِ الكَلِمِ**» [مُتفق عليه].

فكان ﷺ إذا تكلّم أعطى المقام حقّه، فليس في إيجازه إخلال، ولا في تطويله إملال، بل يُفصّل القول على المقام تفصيل الثّوب على الجسم، بلا زيادة ولا نقصان.

كلامه ﷺ يجذب الأرواح، ويأسر القلوب، وتنصت له الآذان، وتشرئب له الأعناق، ينثر كلماته كالدّر المنضود، واللؤلؤ المنظوم، له إشراق وبهاء، ورونق وصفاء، يفهمه الحاضر والباد، والصغير والكبير، والعالِم والعامي.

وقد وصفت أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) كلامه فقالت: «**ما كان رسولُ الله ﷺ يَسرُدُ سَرْدَكم هذا، ولكنّه كان يتكلَّمُ بكلامٍ بَيِّن فَصْل يحفظُه من جلَس إليه**» [رواه الترمذي] وقالت (رضي الله عنها) : «**إنَّ النبيَّ ﷺ، كانَ يُحَدِّثُ حَدِيثًا لو عَدَّهُ العادُّ لَأَحْصَاهُ**» [مُتفق عليه].

بل إنّ بعض كلماته ﷺ ألّف فيها الحافظ بن ناصر الدمشقي مُجلّدًا كاملًا، كحديث: «**كَلِمَتانِ خَفِيفَتانِ علَى اللِّسانِ، ثَقِيلَتانِ في المِيزانِ، حَبِيبَتانِ إلى الرَّحْمَنِ، سُبْحانَ اللهِ وبِحَمْدِهِ، سُبْحانَ اللهِ العَظِيمِ**» [مُتفق عليه].

فأخرج من الحديث كلّ معنى بليغ، وكل درّة ثمينة، وكل كنز نفيس، وأتى بالغرائب والعجائب، والشّوارد والفرائد، وبسط القول مُعلقًا على هذا الحديث النّبوي، مستشهدًا بشهادات أساطين البيان، وروّاد البلاغة.

وقد ألّف أحد العلماء كتابًا كاملًا في «سيّد الاستغفار»، والذي جمع من أسرار البلاغة، وأنوار القداسة، وفتوحات النّبوة، ما لا يدور في الخيال، ولا يخطر في البال؟

وإنّك لتقرأ السّطر من حديثه ﷺ فإذا هو قاعدة كُلّية في الحياة، يكفيك عن مُجلداتٍ من كلام النّاس، وإنّك لتطالع الكلمة من كلماته ﷺ فتقف أمامها مشدوهًا مذهولًا مأسورًا، إن كان عندك حُبّ للبيان وعشق للفصاحة، وأين يُوجد البيان إلّا في كلامه، وأين يُوجد الإشراق والإبهار والإعجاب والرّوعة إلّا في حديثه ﷺ؟!

فانظر مثلًا إلى قوله ﷺ: «**اتَّقِ الله حَيْث كُنْتَ، وأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحسنةَ تَمْحُهَا، وخَالقِ النَّاسَ بخُلُقٍ حَسَنٍ**» [رواه الترمذي].

هذا الحديث شرحه بعض العلماء في أكثر من خمسين صفحة، استغرق كلّ الوصايا التي يُمكن أن يقولها آلاف العلماء، وآلاف الشّعراء، وآلاف الحُكماء في سطر واحد.

هذا الحديث الوجيز القصير قاعدة كلية في الأخلاق، فهو خطبة كافية، وموعظة شافية: «**اتق الله حيثما كنت**» رسالة نبوية معصومة لقلب كل مسلم ومسلمة.

وقوله ﷺ: «**وأتبع السيئة الحسنة تمحها**»، إرشادٌ نبويّ كريم فيه من الإيجاز والإعجاز ما يفوق الوصف.

وقوله ﷺ: «**وخالق النّاس بخلق حسن**» كلمة مُباركة شافية في علم الأخلاق والتّعامل مع الناس.

وعن سفيان بن عبدالله الثّقفي (رضي الله عنه): قُلتُ: **يا رَسولَ الله، قُلْ لي في الإسْلامِ قَوْلًا لا أسْأَلُ عنْه أحَدًا بَعْدَكَ**، قالَ: «**قُلْ:** «**آمَنْتُ بالله، ثم اسْتَقِم**» [رواه مسلم].

جاء هذا الحديث النّبوي في جملة واحدة، واستوعب كل أمور الدّين، وجمع مسائل الملّة، ولم يترك شاردة ولا واردة في الرّسالة المُحمّدية إلّا شملها.

ومنها: قوله ﷺ: «**البِرُّ حُسنُ الخُلُقِ، والإثْمُ مَا حَاكَ فِي نَفْسِكَ وَكرِهْتَ أنْ يطَّلِعَ عَلَيهِ النَّاسُ**» [رواه مسلم].

فمن بلاغته ﷺ النّاصعة وفصاحته الباهرة أنّه في هذا الحديث عرّف «**حُسنَ الخُلُق**» بلفظ وجيز يجمع كل المحاسن، وعرّف «**الإثم**» بتعريف يجمع كل الآثام في سطر واحد.

وأسألك بالله: لو عُرض هذا السؤال على غير النّبي المعصوم ﷺ أفصح مَن تَكلّم وقيل له: ما البر؟ وما الإثم؟ فهل يهتدي لهذا الجواب البليغ الموجز الفصيح الجامع الشّامل؟! كلّا وربي! لا يهتدي لذلك إلّا محمد ﷺ.

وانظر لقوله ﷺ لمّا سأله عُقبة بن عامر (رضي الله عنه): **ما النّجاة؟**، فقال له ﷺ: «**أمسِكْ عليكَ لسانَكَ، وليسعْكَ بيتُك، وابكِ على خطيئتِكَ**» [رواه الترمذي].

شرح هذا الحديث بعض العلماء في درس كامل، وآخرون في عشرات الصّفحات، وقد قاله ﷺ على البديهة، فهو وحي يُوحى إليه، لم يُحضّر له، ولم يُكِدّ ذهنه في استخراج درره، وإنّما جرى سليقة من فمه الطّاهر، وعلى لسانه الطّيب المُبارك.

هذه الفواصل الثّلاث هي التي تُنجي الإنسان من غضب الدّيان، وتُوصله إلى رضوان الرّحمن، فقوله: «**كفَّ عليك لسانك**»، أوجَز لفظ في أدب اللّسان وتعلم الصّمت على الإطلاق.

وقوله ﷺ: «**وليسعك بيتك**»، تحمل معاني العزلة عن الشّر، والخلوة بكل نافع مفيد.

وقوله ﷺ: «**وابك على خطيئتك**»، فيها الانكسار، والأسف، والنّدم على الذّنب، والتّوبة من المعصية، وزجر النّفوس عن الغيّ، وكفّ النّاس عن الآثام، فصلى الله وسلم عليه ما أبلغ قيله! وما أحسن تفصيله!

إن الحديث عن كلماته الموجزة المعجزة الباهرة يحتاج لمجلدات، ونكتفي بذكر بعضها باختصار كقوله ﷺ: «**الدِّينُ النَّصِيحَةُ. قُلْنا: لِمَنْ؟ قالَ: لله ولِكِتابِهِ ولِرَسولِهِ ولأَئِمَّةِ المُسْلِمِ وعامَّتِهِمْ**» [رواه مسلم].

وقوله ﷺ: «**الظُّلْمُ ظُلُماتٌ يَومَ القِيامَةِ**» [مُتفق عليه].

وقوله ﷺ: «**النّاسُ مَعادِنُ**» [مُتفق عليه].

وقوله ﷺ: «**دَعْ ما يَرِيبُكَ، إلى ما لا يَرِيبُكَ؛ فإنَّ الصِدّقَ طُمَأنينةٌ، وإنَّ الكَذِبَ ريبةٌ**» [رواه أحمد].

وقوله ﷺ: «**المُستشارُ مُؤتمنٌ**» [رواه أبو داود].

وقوله ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيّات**» [مُتفق عليه].

وقوله ﷺ: «**لا يُؤْمِنُ أحَدُكُمْ، حتّى يُحِبَّ لأخِيهِ ما يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**» [مُتفق عليه].

وقوله ﷺ: «**كُلُّكُمْ راعٍ، وكُلُّكُمْ مَسْؤولٌ عن رَعِيَّتِهِ**» [مُتفق عليه].

إلى غير ذلك من كلماته العطرة الجامعة الكافية الشّافية ﷺ.

واسمع لحبّات الدّر التي تناثرت من فمه الشّريف ﷺ:

عن أنس بن مالك(رضي الله عنه): «**أنَّ النّبيَّ ﷺ كانَ فِي سَفَرٍ، وكانَ غُلامٌ يَحْدُو بهِنَّ يُقالُ له: أنْجَشَةُ**، فَقالَ النّبيُّ ﷺ: **رُوَيْدَكَ يا أنْجَشَةُ سَوْقَكَ بالقَوارِيرِ**» [مُتفق عليه].

ويقول لسلمة بن الأكوع (رضي الله عنه) بعد أن طارد بعض المنتهبين: «**مَلَكْتَ فأسْجِحْ**» [مُتفق عليه]، يعني: «قدرت عليهم فاعف عنهم».

ويقول ﷺ في الرّد على من أشار إليه من الصّحابة بقتل رأس المنافقين عبدالله ابن أُبيّ بن سلول: «**لا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أصْحَابَهُ**» [مُتفق عليه].

ويقول ﷺ يوم حُنين وقد فرّ كثير من النّاس، وثبت هو ﷺ: «**أنا النَّبيُّ لا كَذِبْ، أنا ابنُ عبدِ المُطَّلِبْ**» [مُتفق عليه].

ويكتب ﷺ رسالة إلى هرقل فيقول فيها: «**أسلِمْ تسلَمْ**» [مُتفق عليه].

فأعمل ذهنك في هاتين الكلمتين تجدها حَوَت كل ما يُمكن أن يُقال في هذا الباب، فسُبحان من أعطاه جوامع الكلم!.

وانظر إلى وصيّته ﷺ لمعاذ (رضي الله عنه) وهو يشير إلى لسانه ويقول: «**كُفّ عليك هذا**»! هذه العبارة وحدها تكفي عن آلاف المحاضرات، وآلاف الخُطب، وآلاف الرّسائل.

ويقول ﷺ عن فضل الجود والعطاء وذمّ مسألة النّاس: «**اليد العُليا خيرٌ من اليد السُّفلى**» [مُتفق عليه].

انتهى الكلام عند هذا، فلا شرح ولا مزيد فوق هذا الرّقي البياني، والإقناع اللّفظي.

والآن ارجع البصر كرتين إلى هذا الكلام النّافذ المؤثر الحارّ الصّادق المنبعث من الضّمير الحيّ، المنسكب من القلب الطّاهر وكأنّه زخّات الغيث على الأرض الجدباء، أو تدفق النّهر العذْب الزّلال البارد على الصّحراء.

لقد رزق الله نبيّه عليه الصّلاة والسّلام البيان في أبهى حُلله، وأجمل صوره، وفتح عليه بفيض ربّاني من الحديث المُبهر المعجز.

انظر لهذا الحديث المليء بالقواعد الكليّة في الشّريعة مع حُسن التّرتيب، وقوة الإقناع، وجمال العرض، وضرب المثل، في بلاغة تسلب الأرواح، وتسبي القلوب، فعن النعمان بن بشير (رضي الله عنه) قال: «سَمِعْتُ رَسولَ الله ﷺ يقولُ: **إنَّ الحَلالَ بَيّنٌ، وإنَّ الحَرامَ بَيّنٌ، وبيْنَهُما مُشْتَبِهاتٌ لا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النّاسِ، فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهاتِ استبرَأ لِدِينِهِ، وعِرْضِهِ، ومَن وقَعَ في الشُّبُهاتِ وقَعَ في الحَرامِ، كالرّاعِي يَرْعى حَوْلَ الحِمى، يُوشِكُ أنْ يَرْتَعَ فِيهِ، ألا وإنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمَى، ألا وإنَّ حِمَى الله مَحارِمُهُ، ألا وإنَّ في الجَسَدِ مُضْغَةً، إذا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وإذا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، ألا وهي القَلْبُ**» [مُتفق عليه].

ما هذا الكلام الذي يُذعن له الفكر، ويبهج الخاطر، حتى صار هذا الحديث قاعدة كليّة من قواعد الدّين؟! وهو من الأربعين النّووية، وأصل من أصول الشّريعة في أسطر معدودة.

وانظر إلى بلاغته وفصاحته في دُعائه ﷺ، وحُسن تنسيقه، وجمال ترتيبه، وبديع تقسيماته، وروعة إشراقاته، كقوله ﷺ: «**اللهمَّ إنِّي أعُوذُ بكَ مِنَ الَهمّ والحَزَنِ، والعَجْزِ والكَسَلِ، والبُخْلِ، والجُبْنِ، وضَلَعِ الدَّيْنِ، وغَلَبَةِ الرِّجالِ**» [مُتفق عليه].

بالله عليكم! هل يستطيع أي زعيم، أو كاتب، أو خطيب، أو شاعر، أن يقول مثل هذا الدّعاء المُعجز، المُفحم، المُبارك، المُؤثر؟!

لقد جمع هذا الحديث كل أسباب السّعادة الدّنيوية والأخرويّة، فسبحان من بالحق أنطقه، وأعانه على إبلاغ الرّسالة بأجمل بيان وصدّقه!.

ويقول عليه الصّلاة والسّلام في دعاء اللّيل كما جاء في «صحيح مسلم»: «**اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرَائِيلَ، وَمِيكَائِيلَ، وإسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأرْضِ، عَالِمَ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بيْنَ عِبَادِكَ فِيما كَانُوا فيه يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِما اخْتُلِفَ فيه مِنَ الحَقِّ بإذْنِكَ، إنَّكَ تَهْدِي مَن تَشَاءُ إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**».

ما هذه النّصاعة، والبراعة، والفصاحة، والبلاغة في دعائه لربّه؟! هنا تجد مع جمال الكلمة وحُسن العبارة قمة الطّاعة وذرّوة العبوديّة لله ربّ العالمين.

ولا أنسى في عمري أحد العلماء وهو يحدثنا في مجلسٍ عن بلاغته ﷺ وفصاحته، ثم يسوق لنا دعاءه ﷺ في اللّيل كما جاء في «الصّحيحين»: «**اللَّهُمَّ لكَ الحَمْدُ أنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ والأرْضِ، ولَكَ الحَمْدُ أنْتَ قَيِّمُ السَّمَوَاتِ والأرْضِ، ولَكَ الحَمْدُ أنْتَ رَبُّ السَّمَوَاتِ والأرْضِ ومَن فِيهِنَّ، أنْتَ الحَقُّ، ووَعْدُكَ الحَقُّ، وقَوْلُكَ الحَقُّ، ولِقَاؤُكَ الحَقُّ، والجَنَّةُ حَقٌّ، والنَّارُ حَقٌّ، والسَّاعَةُ حَقٌّ، اللَّهُمَّ لكَ أسْلَمْتُ، وبِكَ آمَنْتُ، وعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وإلَيْكَ أنَبْتُ، وبِكَ خَاصَمْتُ، وإلَيْكَ حَاكَمْتُ، فَاغْفِرْ لي ما قَدَّمْتُ وأخَّرْتُ، وأسْرَرْتُ وأعْلَنْتُ، أنْتَ إلَهِي لا إلَهَ إلَّا أنْتَ**».

وإليك الحديث الذي رواه البخاري، وهو دليل لفظي بذاته على نبوّة سيد ولد آدم ﷺ، اسمع، وأنصت، واقرأ: «**اللهمَّ أَنْتَ رَبِّي، لا إِلَه إلّا أَنْتَ، خَلَقْتَني وأَنَا عَبْدُكَ، وأَنَا على عهْدِكَ ووعْدِكَ ما اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ ما صنَعْتُ، أَبوءُ لَكَ بِنِعْمتِكَ علَيَ، وأَبُوءُ بذَنْبِي فَاغْفِرْ لي، فَإِنَّهُ لا يغْفِرُ الذُّنُوبِ إِلَّا أَنْتَ**».

وأنا أتركك لتتأمل الفقرات والفواصل، وتعيد وتبدي في كل كلمة، وتسأل نفسك: هل يقول هذا شخص عادي مهما بلغ في البلاغة، وامتلك من الفصاحة؟

وكان إذا صعد ﷺ المنابر تكلم بداهةً بما أذهل الجمهور، واستمال الجموع، وأنصتت له القبائل، وكان ﷺ قبل أن يتكلم طويلَ الصّمت ممّا أكسبه جلالة ومهابة، وحلاوة ونجابة، فلا يتكلم حتى تشتاق لحديثه الأرواح، وتشخص إلى شخصه الأبصار، وقد صانه الله من طريقة الثّرثارين والمكثرين، فكان ذا منطق نبويّ معصوم، ذا حديث بنور الرّسالة مرسوم.

كلامه شريعة، وقوله وحي، وحديثه سُنّة مُطهّرة، كل لفظة من ألفاظه درّة في عقد الملّة المحمدية، وكل جملة من جمله لؤلؤة في تاج النّبوة الخالدة، لا يوجد في حديثه ﷺ مُعاظلة في الألفاظ، ولا هزال في المعنى، ولا نفرة، ولا اضطراب، فهو مُتميّز الحدود، حسن السّبك، قوي الدّلالة، ظاهر البرهان، ليس فيه عجز ولا تقصير، ولا وهن ولا ضعف.

إنّه أعظم بيانٍ تكلّم به بشر، وكان ﷺ إذا خطب ملأ الزّمان والمكان والإنسان إقناعًا، وإعجابًا، وإيمانًا، وإذا تكلّم على المنبر علا صوته، واشتدّ غضبه، واحمرّت عيناه، كأنّه مُنذر جيش

يقول: صبّحكم ومسّاكم.

وانظر إلى الخطبة التّاريخية العالميّة الرّبانية التي ألقاها ﷺ في يوم عرفة في حجة الوداع، خطبة ما دوّى في الأرض مثلها، وما سُمِع في العالم ما يشبهها، تكلّم عن توحيد الباري جلَّ في عُلاه، وعن العدل والمساواة والإخاء، وفضل التّقوى، وحقوق الإنسان، وحقوق المرأة، والمال العام، وحفظ الدّماء والأموال والأعراض، ثم استشهد النّاس وقال: «**قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ ما لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إنِ اعْتَصَمْتُمْ به، كِتَابُ الله، وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي، فَما أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟** قالوا: **نَشْهَدُ أنَّكَ قدْ بَلَّغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ، فَقالَ بإصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ، يَرْفَعُهَا إلى السَّمَاءِ وَيَنْكُتُهَا إلى النَّاسِ: اللهمَّ اشْهَدْ، اللهمَّ اشْهَدْ**» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ. [رواه مسلم]. بصوت يُجلجل في الفضاء، ويصعد إلى السّماء، ويهزّ الأرجاء، فيرتجف المكان، ويقف الزّمان، وينبهرالإنسان.

وجاء في «صحيح مُسلم» عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قال: إنَّ «**ضِمادًا**» قَدِمَ مَكَّةَ، وَكانَ مِن أَزْدِ شَنُوءَةَ، وَكانَ يَرْقِي مِن هذِه الرِّيحِ، فَسَمِعَ سُفَهاءَ مِن أَهْلِ مَكَّةَ يقولونَ: إنَّ مُحَمَّدًا مَجْنُونٌ، فَقالَ: **لو أَنِّي رَأَيْتُ هذا الرَّجُلَ، لَعَلَّ الله يَشْفِيهِ على يَدَيَّ**، قالَ: **فَلَقِيَهُ**، فَقالَ: **يا مُحَمَّدُ، أَنِّي أَرْقِي مِن هذِه الرِّيحِ، وإنَّ الله يَشْفِي على يَدَيَّ مَن شاءَ، فَهلْ لَكَ؟**، فَقالَ رَسولُ الله ﷺ: **إنَّ الحَمْدَ لله، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ، مَن يَهْدِهِ الله فلا مُضِلَّ له، وَمَن يُضْلِلْ فلا هادِيَ له، وَأَشْهَدُ أَنْ لا إلَهَ إلّا الله، وَحْدَهُ لا شَرِيكَ له، وَأنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسولُهُ، أَمّا بَعْدُ،** قالَ: فَقالَ: **أَعِدْ عَلَيَّ كَلِماتِكَ هَؤُلاءِ، فأعادَهُنَّ عليه رَسولُ الله ﷺ، ثَلاثَ مَرّاتٍ**، قالَ: فَقالَ: **لقَدْ سَمِعْتُ قَوْلَ الكَهَنَةِ، وَقَوْلَ السَّحَرَةِ، وَقَوْلَ الشُّعَراءِ، فَما سَمِعْتُ مِثْلَ كَلِماتِكَ هَؤُلاءِ، وَلَقَدْ بَلَغْنَ ناعُوسَ البَحْرِ**، قالَ: فَقالَ: **هاتِ يَدَكَ أُبايِعْكَ على الإسْلامِ**، قالَ: **فَبايَعَهُ**» .

فانظر إلى ضماد الأزدي جاء ليُعالج النّبي ﷺ من الجنون على حدّ زعمه، وما هي إلّا كلمات نبويّة مُباركات، طيّبات، طاهرات، تطرق أذنه، فيتحوّل من كافر إلى مؤمن، ومن غاوٍ إلى راشد، ومن ضال إلى مُهتد.

وهل عرف العالم افتتاحية في الخطابة كهذه الافتتاحية المُعجزة، المُتناسقة، المؤثّرة، التي تحمل كل معاني التّقديس لله، والحمد والشّكر والثّناء، في ترتيب عجيب، وفي أسلوب غريب، وفي انتظام جميل؟! فصلى الله وسلم عليه، ما أدمغ كلامه! وما أعذب حديثه! وما أحسن قوله!.

سُبحان من كسا كلام نبيّه المعصوم ﷺ جلباب القبول، وسكب فيه من الحلاوة والطّلاوة ما يسبي العقول، فكأنه زخّات الغيث المدرار، أو عقود اللؤلؤ على صدور الأبكار، قوة إقناع، وبراعة إمتاع، يقطف لك ثمار الخُطب، كقطف الزرّاع ألذ الرُّطب.

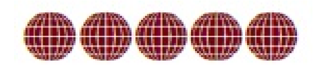
وممّا يُجمّل قوله ﷺ ويُحلّيه، ويُطهّره ويُزكّيه؛ الصّدق البيّنُ الواضح وضوح الشّمس في رابعة النّهار، والإخلاص المُتدفّق من فمه الشّريف تدفّق الأنهار.

وإنّني أدعو في هذا الفصل القائمين على المدارس والجامعات والمعاهد في بلاد الإسلام إلى الاهتمام بالميراث المُقدّس من تركته ﷺ، وحديثه الشّريف، وسُنّته المُطهّرة، ليثقفوا الجيل، ويدرّبوا الأبناء والبنات على تفهّم كلامه ﷺ، والتمتع بألفاظه الشّريفة المُنيفة؛ لأن قراءة حديثه عبادة، ومُطالعة ألفاظه طاعة، ومُتابعة قوله سُنّة، والاقتداء به نجاة، والتعلّق بميراثه فوز كبير.

فصلى الله وسلّم صلاةً وسلامًا كاملين دائمين على من أفحم بحديثه الشُعراء والحُكماء والبلغاء والفصحاء، والخاصة والعامة، والصّغار والكبار، فهو صاحب البلاغة الآسرة، والفصاحة الباهرة، والسُنّة العاطرة.

كلي خجل وأنا أمدح بلاغة النّبيّ المعصوم ﷺ، وكلي حياء وأنا أشيد بفصاحة هذا الإمام العظيم، ولكن حسبي أنّي خادم في بلاط مجده، وعامل بسيط في ديوان عظمته، تتعطّر حروفي بمسك عطره، وتتطهر كلماتي بغيث قطره، وتتشرّف عباراتي بطيب ذكره.

وأنَا الذي بحروفِهِ وحديثِهِ	أكسُو حَديثِي بهجةً وجمالا
من عطر أنفاس الحبيب بلاغتي	وبطيبها ألبستها سربالا
فكأنّه جمع النّجوم قلائدًا	صاغ الكواكب بالبيان مَقالا
تهتزّ أعوادُ المنابر هيبة	والجذع حنّ من البيان ومالا





مُحَمَّدٌ ﷺ زَوْجًا

رسولُنا ﷺ هو الأسوة الحسنة، والقدوة المباركة للمؤمنين والمؤمنات في كلّ أحوالهم، ولا بد للقدوة أن يُمارس الحياة الطبيعيّة التي يُمارسها النّاس، وأن يعيش أدوارها وأطوارها، ومنها الزّواج كما قال تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً} [الرعد: الآية 38].

فتزوّج عليه الصّلاة والسّلام، وأنجب، وتعامل مع زوجاته بالبرّ والإكرام، والعدل والاحترام، وحُسن الرّعاية، وجميل الولاية، ليكون أسوةً للعالمين، وقدوةً للنّاس أجمعين، فكان البار الواصل عليه الصّلاة والسّلام، وكان لزواجه حِكم عظيمة، وأسرار جليلة، لتكون سيرته ﷺ آية للسائلين، وطريقًا واضحًا للسالكين؛ ولأن حياته الزّوجية ﷺ كانت امتثالًا لقول الباري سُبحانه: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً} [الروم: الآية 21].

تزوّج ﷺ أولى زوجاته خديجة (رضي الله عنها) وهو في الخامسة والعشرين وهي في الأربعين، وكانت ثيّبًا تعمل في التّجارة، وكانت الحصيفة، والعاقلة، والسّديدة، والمشيرة، والمُجاهدة، والصابرة، والمُحتسبة، والوفية.

أسلمت أوّل النّساء، ووقفت معه ﷺ حتى أرسل الله جبريل، فبلّغها عن ربّها السّلام، وبشّرها ببيت في الجنّة من قصب؛ لا صَخب فيه ولا نصَبَ، فعن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: «**أتى جبريلُ النّبيَّ ﷺ فقال: يا رسولَ الله، هذه خديجةُ قد أَتَتْ، معها إناءٌ فيه إدامٌ أو طعامٌ أو شرابٌ، فإذا هي أَتَتْكَ فاقرَأْ عليها السلامَ مِن ربِّها ومنِّي، وبشِّرْهَا ببيتٍ في الجنةِ مِن قَصَبٍ؛ لا صَخَبَ فيه ولا نصبَ**» [مُتفق عليه].

ولمّا ماتت (رضي الله عنها) عاش ﷺ الحزن كُلّه، حتى سُمّي عامُ وفاتها بعام الحزن، ثم تزوج سودة بنت زمعة وهي من السابقات إلى الإسلام وصديقة خديجة، ثم تزوّج من عائشة (رضي الله عنها) الشّابة الذّكيّة الفطنة التي صارت فقيهةً مُفتيةً للأُمّة، وعاش معها أجمل الحياة، ثم تزوج ﷺ من عدّة زوجات وكلّهنّ ثيّبات إلّا عائشة، فكانت البكر الوحيدة بين زوجاته، وذلك لحكمة تبليغ الدّين للأُمّة، وبيان الأحكام الخاصة بالأسرة المسلمة؛ لأن حياته الخاصّة الشّخصية لا تطّلع عليها إلّا نساؤه، ولا بد لهذه الحياة الخاصّة أن تعيَها الأمة، وأن تصل إلى كافّة النّاس، ولا يكون ذلك إلّا عن طريق النّساء.

ورغم التزاماته ﷺ الكثيرة، ومشاغله العديدة، إلّا أنّ ذلك كلّه لم يحُلْ بينه وبين حرصه على حقوق زوجاته، فكان أفضلَ زوجٍ في التّاريخ.

زوجٌ عادلٌ رفيق، وَفيٌّ رحيم، لطيفٌ كريم، يحرص على إظهار حبّه لزوجاته رضي الله عنهنّ، ويُصرّح بذلك.

وقصص حُبّه ﷺ لزوجاته كثيرة، ومنها حُبّه لأمّ المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) ، فعن أَبِي عُثْمَانَ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ بَعَثَ عَمْرَو بْنَ العَاصِ عَلَى جَيْشِ ذَاتِ السَّلاسِلِ، قَالَ: **فَأَتَيْتُهُ فَقُلْتُ:** أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟، قَالَ: «**عَائِشَةُ**»، قُلْتُ: **مِنَ الرِّجَالِ؟**، قَالَ: «**أَبُوهَا**»، قُلْتُ: **ثُمَّ مَنْ؟**، قَالَ: «**عُمَرُ**»، **فَعَدَّ رِجَالًا، فَسَكَتُّ مَخَافَةَ أَنْ يَجْعَلَنِي فِي آخِرِهِمْ.** [مُتفق عليه]

وروى ابن حبّان أن رسول الله ﷺ قال لعائشة (رضي الله عنها) : «**أمَا ترضيْنَ أنْ تكوني زوجتي في الدُّنيا والآخِرةِ؟، قُلْتُ: بلى والله، قال: فأنتِ زوجتي في الدُّنيا والآخِرةِ**».

وكان يقول عليه الصّلاة والسّلام عن خديجة: «**إنّي قدْ رُزِقْتُ حُبَّهَا**» [رواه مسلم].

وكان ﷺ إذا دخل على زوجاته دخل ضحّاكًا بسّامًا مُشرق الوجه، يملأ بيوتهنّ أنسًا وسرورًا، فيسلّم عليهنّ عند دخوله ويدعو لهنّ بالخير، ومن ذلك ما رواه ابن عباس (رضي الله عنهما)، قال: «**كان رسولُ الله ﷺ إذا صلَّى الصُّبحَ جلَس في مُصلَّاه وجلَس النَّاسُ حولَه حتَّى تطلُعَ الشَّمسُ، ثمَّ دخَل على نِسائِه امرأةً امرأةً يُسلِّمُ عليهنَّ ويدعو لهنَّ فإذا كان يومُ إحداهُنَّ جلَس عندَها**» [رواه الطبراني].

وكان ﷺ يُمازحهنّ ويُدخل البهجة والسّرور على قلوبهنّ، ويستمع لحاجاتهنّ وشكواهنّ، ويصبر ويحلم ولا يؤذي إحداهنّ بكلمة أو بنظرة، ولا ينتقص من قدرهنّ، بل يمدحهنّ ويثني عليهنّ، ويُنصت لكلامهنّ تمام الإنصات، ويتبادل معهنّ السّمر والحديث والقصص الجميلة التي تحمل الموعظة والحكمة والفائدة.

تقول عائشة (رضي الله عنها) كما جاء في «الصحيحين»: «**كُنْتُ أغْتَسِلُ أنَا ورَسولُ اللهِ ﷺ مِن إنَاءٍ بَيْنِي وبيْنَهُ واحِدٍ، فيُبَادِرُنِي حتَّى أقُولَ: دَعْ لِي، دَعْ لِي**».

فانظر لحُسن عشرته ﷺ، ولُطفه، وتواضعه، وكريم أخلاقه، ونُبله، وكرمه، مع أهله، حتى في الغُسل مُشاركة ومُلاطفة.

وتقول (رضي الله عنها) : «**كان نبيُّ الله ﷺ يستاكُ فيُعطيني السواكَ لأغسلَه، فأبدأُ به فأستاكُ، ثم أغسلُه وأدفعُه إليه**» [رواه أبو داود].

وتقول أيضًا (رضي الله عنها) : «**كنتُ أشرب وأنا حائض، ثمَّ أناوله النَّبي ﷺ، فيضع فاه على موضع فِيَّ فيشرب، وأتعرَّق العَرْقَ وأنا حائض، ثم أناوله النَّبي ﷺ، فيضع فاه على موضع فِيَّ**» [رواه مسلم]. والعَرْقَ هو: العظم الذي عليه بقية من لحم.

فتعامله ﷺ مع عائشة وهي حائض بهذا القرب والأنس وحُسن العشرة يدلّ على كمال خُلقه وحُسن رعايته ﷺ.

ومن صور مُداعبته ومُضاحكته لزوجاته ما ذكرته عائشة (رضي الله عنها) فقالت: «قدِم رسولُ الله ﷺ، من غزوةِ تبوكٍ - أو خيبرٍ - وفي سهوتِها سترٌ، فهَبَّتْ ريحٌ، فكَشَفَتْ ناحيةَ السِّتْرِ، عن بناتٍ لعائشةَ - لُعَبٍ - فقال: **ما هذا يا عائشةُ**؟، قالت: **بناتي!** ورأى بينَهُنَّ فرسًا له جَناحانِ مِن رِقاعٍ، فقال: **ما هذا الذي أرى وَسَطَهُنَّ**؟، قالت: **فَرَسٌ**. قال: **وما هذا الذي عليه**؟، قالت: **جَناحان**. قال: **فرسٌ له جَناحانِ**؟، قالت: **أما سَمِعْتَ أنّ لسليمانَ خيلًا لها أجنحةٌ**؟، قالت: **فضَحِكَ حتى رَأَيْتُ نواجذَه!**» [رواه أبو داود].

وانظر إلى هذا النّبي الكريم والإمام العظيم، لم تشغله أمور الأُمة وشؤون الدّولة عن التّلطف حتى في لعبة عائشة وسؤاله لها بأريحية ونفس رضيَّة.

ولم يمنعه ﷺ حُبّ خديجة أن يُحب عائشة، ولا حُب عائشة أن يُحب سواها، ولكن لكل زوجة من زوجاته رضوان الله عليهنّ قدر في المحبّة.

أمّا في العدل الذي يقدر عليه من نفقة، وكسوة، وسُكنى، وبيتوتة، وزيارة، فلم تشعر إحداهُن بأيّ ظلم أو نقص من حقوقها مثقال ذرة، بل تمتّعنّ جميعهنّ بعدله، ورحمته، وحُبّه، وعطفه، لأنّه سيّد العادلين، وإمام المُنصفين.

فكان ﷺ يعدل بينهنّ في كل شيء مهما دقّ أو صغر، ومع ذلك يعتذر إلى ربّه إن ميّز إحداهنّ في الحبّ؛ لأنّ الحبّ من أعمال القلوب التي لا يتحكّم فيها الإنسان، ولذلك قال ﷺ: «**اللَّهمَّ هذا قَسْمي فيما أملِكُ، فلا تلُمني فيما تملِكُ ولا أملِكُ**» [رواه الخمسة].

ولم يُميّز واحدة على الأخرى بهديّة أو عطيّة، تقول أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) : «**كانَ رسولُ اللهِ ﷺ لا يفضِّلُ بعضَنا على بعضٍ في القَسْمِ، من مُكثِهِ عِندنا، وَكانَ قلَّ يومٌ إلَّا وَهوَ يطوفُ علينا جميعًا، فيدنو مِن كلِّ امرأةٍ من غيرِ مَسيسٍ، حتَّى يبلغَ إلى الَّتي هوَ يومُها فيبيتُ عندَها**» [رواه أبو داود].

وعند سفره ﷺ كان يقرع بين نسائه، ويصطحب من يخرج سهمها في سفرته، ومن حرصه على العدل حتى وهو في مرض موته لم تطب نفسه ﷺ بالبقاء عند عائشة إلّا بعد أن أذنت له زوجاته بذلك، تقول عائشة (رضي الله عنها) : «**إنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ كانَ يَسْأَلُ في مَرَضِهِ الذي ماتَ فِيهِ: أيْنَ أنا غَدًا؟ أيْنَ أنا غَدًا؟ يُرِيدُ يَومَ عائِشَةَ، فأذِنَ له أزْواجُهُ يَكونُ حَيْثُ شاءَ، فَكانَ في بَيْتِ عائِشَةَ حتّى ماتَ عِنْدَها**» [مُتفق عليه].فكان عدله سجيّة لا كلفة فيه.

وحذَّر ﷺ من الميل إلى إحدى الزّوجات على حساب الأخرى فقال: «**مَن كانَت له امرأتانِ، فمالَ إلى إحداهما جاءَ يومَ القيامةِ وشِقُّه مائل**» [رواه أبو داود].

وكان ﷺ المُعلّم الأسوة بأفعاله قبل أقواله، فلم يكن صخّابًا، ولا غضوبًا، ولا شرسًا، حماه الله من ذلك وصانه، ولم يكن فظًّا غليظًا بل زكّاه ربّه، فقال سُبحانه: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: الآية 159].

فهو الأسوة الحسنة، والمثل الأعلى في كل خُلُق نبيل شريف، ومن ذلك خدمته لأهله، وحُسن مُعاشرتهم، والقُرب منهم.

ولمّا سُئلت عائشة (رضي الله عنها) : ما كان النّبي ﷺ يصنع في بيته؟ فقالت: **كانَ يَكونُ في مِهْنَةِ أهْلِهِ -تَعْنِي خِدْمَةَ أهْلِهِ- فَإِذا حَضَرَتِ الصَّلاةُ خَرَجَ إلى الصَّلاةِ**. [رواه البخاري]، وفي رواية أخرى: «**كان بشرًا من البشرِ؛ يَفْلِي ثَوْبَهُ، ويَحْلِبُ شاتَهُ، ويَخْدُمُ نَفْسَهُ**». وفي رواية: «**كان يَخيطُ ثوبَهُ، ويخصِفُ نعلَه، ويعملُ ما يعملُ الرّجالُ في بيوتِهم**» [رواه أحمد وابن حبّان].

كان ﷺ زوجًا رفيقًا، لطيفًا، حليمًا، رحيمًا، يدعو لحُسن العشرة ولين التّعامل، فيقول ﷺ كما جاء في حديث سعد بن أبي وقاص(رضي الله عنه): «**إنَّكَ مَهْما أنْفَقْتَ مِن نَفَقَةٍ، فأنّها صَدَقَةٌ، حتّى اللُّقْمَةُ الَّتي تَرْفَعُها إلى فِي امْرَأَتِكَ**» [مُتفق عليه].

أي أنّه لو وضع الرّجل لقمة في فم زوجته لكان هذا من البرّ الذي يُؤجر عليه، ومن الصّدقة التي تُكتب له.

ولم يضرب ﷺ طيلة عشرته مع زوجاته واحدة منهنّ، ولم يُحقّرها ولم يشتمها، بل كان الزّوج الرّفيق الرّقيق، الرّحيم الحليم، فعن عائشة (رضي الله عنها) قالت: «**ما ضَرَبَ رَسولُ الله ﷺ شيئًا قَطُّ بيَدِهِ، ولا امْرَأَةً، وَلا خادِمًا، إلّا أَنْ يُجاهِدَ في سَبيلِ الله، وَما نِيلَ منه شيءٌ قَطُّ، فَيَنْتَقِمَ مِن صاحِبِهِ، إلّا أَنْ يُنْتَهَكَ شيءٌ مِن مَحارِمِ الله، فَيَنْتَقِمَ لله عَزَّ وَجَلَّ**» [رواه مسلم].

وكان ﷺ يغض الطّرف عن المُعاتبة، ويصبر على الغيرة حين تبدر من إحدى زوجاته، فلمّا غارت عائشة (رضي الله عنها) صبرَ وكظم وتبسّم، وقال لضيوفه بكل لطف وسكينة: «**غارَتْ أُمُّكُمْ**» [رواه البخاري].

وكان ﷺ إذا مرضت إحدى زوجاته يجلس ليُمرّضها، ويتلطّف بها، ويسألها عن حالها، ويَظهر عليه التوجّع لما أصابها حتى يكشف الله ما بها، حتى إنّ عائشة (رضي الله عنها) حينما حاضت في الحجِّ دخل عليها ﷺ وهي تَبكي، فقال: «**ما لَكِ؟! أنُفِسْتِ؟**»، قالتْ: **نعمْ**، قال: «**إنَّ هذا أمرٌ كتَبه اللهُ على بناتِ آدَمَ، فاقضي ما يَقضي الحاجُّ، غيرَ ألّا تَطوفي بالبيتِ**» [مُتفق عليه].

وأرسلها ﷺ لتعتمر مع أخيها عبدالرحمن إلى التّنعيم، وانتظرها ليجبر خاطرها ويشرح صدرها، وتعود بعمرة مع حجّها، فما أكرمه من زوج! وما ألطف هذه العشرة من عشرة! وما أجمل هذا الخُلُق من خُلُق!.

وروى النّسائي عن أمّ المؤمنين صفيَّة (رضي الله عنها) : «**أنّها كَانَتْ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ فِي سَفَرٍ، وَكَانَ ذَلِكَ يَوْمَهَا، فَأَبْطَأَتْ فِي الْمَسِيرِ، فَاسْتَقْبَلَهَا رَسُولُ الله ﷺ وَهِيَ تَبْكِي وتقول: حَمَلْتَنِي عَلَى بَعِيرٍ بَطِيءٍ، فَجَعَلَ رَسُولُ الله ﷺ يَمْسَحُ بِيَدَيْهِ عَيْنَيْهَا ويُسْكِتُهَا..**».

فجزاه الله خير ما جزى نبيًّا عن أمّته، ما أرحمه! وما ألطفه! وما أرقّه! وما أعذب عشرته!.

وعن أنس (رضي الله عنه) قال: «**خَرَجْنا إلى المَدِينَةِ فَرَأَيْتُ رَسولَ الله ﷺ يُحَوِّي لَها وراءَهُ بعَباءَةٍ، ثُمَّ يَجْلِسُ عِنْدَ بَعِيرِهِ، فَيَضَعُ رُكْبَتَهُ، فَتَضَعُ صَفِيَّةُ رِجْلَها على رُكْبَتِهِ حتّى تَرْكَبَ**» [مُتفق عليه].

فتصوّر هذا الفعل من رسول الله ﷺ! كيف كان يمسك البعير، ويعين زوجه حتى تركب؟!

ولهذا الموقف مثال في عصرنا الحديث، وهو أن يقوم الإنسان أمام النّاس فيفتح باب السّيارة لزوجته، ويُعينها ويجمع ملابسها حتى تجلس مطمئنةً، فبالله من يفعل هذا الآن أمام ملأٍ من النّاس؟! ولكن رسول الهُدى ﷺ أمام الجيش يُعين صفية ويُركّبها على البعير لُطفًا وحُسن عشرة.

وكان ﷺ يَجْبر خواطر نسائه، ويراعي مشاعرهنّ، ويحرص على ألّا يكسر قلب واحدة منهنّ، كما ورد عنه ﷺ في الصّحيح: «**رفقًا بالقوارير!**».

وتقول عائشة (رضي الله عنها) : إنّ رسول الله ﷺ كان يقول لها: «**إنِّي لَأَعْلَمُ إذا كُنْتِ عَنِّي راضِيَةً، وإذا كُنْتِ عَلَيَّ غَضْبى!**، قالَتْ: فَقُلتُ: **مِن أيْنَ تَعْرِفُ ذلكَ؟**، فقالَ: **أمّا إذا كُنْتِ عَنِّي راضِيَةً، فإنَّكِ تَقُولِينَ: لا ورَبِّ مُحَمَّدٍ، وإذا كُنْتِ عَلَيَّ غَضْبى، قُلْتِ: لا ورَبِّ إبْراهِيمَ. قالَتْ: قُلتُ: أجَلْ، واللهِ يا رَسولَ الله، ما أهْجُرُ إلّا اسْمَكَ**» [مُتفق عليه].

وقد حفظ رسول الله ﷺ للمرأة مكانتها ومنزلتها، وأعلنَ إكرامها، ومن صور هذا الإكرام مشورته ﷺ لنسائه، فقد شاور أمّ سلمة (رضي الله عنها) يوم الحديبية، فكانت مشورتها بركةً وخيرًا

عميمًا للمسلمين، فقد أشارت عليه فقالت: «**يا نَبِيَّ الله، أتُحِبُّ ذلكَ؟! اخْرُجْ ثُمَّ لا تُكَلِّمْ أحَدًا منهمْ كَلِمَةً، حتَّى تَنْحَرَ بُدْنَكَ، وتَدْعُوَ حَالِقَكَ فَيَحْلِقَكَ**» [رواه البخاري].

فلمّا فعل ذلك ﷺ قام الصّحابة مُسرعين وامتثلوا أمره ﷺ بعد أن تأخّروا، وذلك لِما أصابهم من الهمّ والحزن يوم الحديبيّة لمّا ظنّوا أنّ شروط الصّلح مُجحفة بهم.

وهل هناك أعظم ممّا رواه أبو داود في تكريم المرأة؟! فعن عائشة (رضي الله عنها) قالت: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ النِّساءَ شقائقُ الرِّجالِ**».

فكان من هديه ﷺ اليُسر مع أهله، والسّهولة في الخطاب، والتّعامل والعشرة الحسنة، كما قال جابر بن عبدالله (رضي الله عنهما): «**كانَ رَسولُ الله ﷺ رَجلًا سَهْلًا، إذا هَوِيَتِ الشَّيْءَ**-يعني عائشة(رضي الله عنها) **- تابَعَها عليه**» [رواه مسلم].

وقد ضرب رسول الله ﷺ أروع الأمثلة في الوفاء مع زوجاته، ومن أجمل صور هذا الوفاء وفاؤه لخديجة (رضي الله عنها) ، الّتي صحبته أيّام الشدّة، وليالي البعثة، يوم الكرب الشّديد، ويوم الأذى المُرّ من كفّار قريش، فكان ﷺ يذكرها، ويدعو لها، ويحنّ لأيامها، وإذا أُتي بالشّيء يقول: «**اذْهَبُوا بهِ إلى فُلانةَ، فإنَّها كانَتْ صَدِيقَةَ خديجةَ، اذهبُو إلى بيتِ فلانةَ فإنَّها كانَتْ تُحبُّ خديجةَ**» [كما روى ذلك البُخاري في الأدب المفرد].

فيا لعظمة هذه النّفس الكبيرة الطاهرة النّبويّة الشّريفة التي عُمرت بالصّفاء، والنّقاء، والوفاء! وكان يُوصي ﷺ أصحابه فيقول كما جاء عند الترمذي وابن حبّان: «**أكملُ المؤمنين إيمانًا أحسنُهم خُلقًا، وخيارُكم خيارُكم لنسائهم**»، وقال ﷺ: «**أ واسْتَوْصُوا بالنساءِ خيرًا، فإنّما هُنَّ عَوَانٌ عندَكم**» أي أسيرات، وقال ﷺ: «**خَيرُكُمْ خَيرُكُمْ لأهلِهِ، وأنا خَيرُكُمْ لأهلِي**».

ومما يدلّ على حُسن عشرته لأهله، ولُطفه بزوجاته، أنّ أعظمَ أُمنية لكلّ زوجة من زوجاته أن يُطِلَّ عليها بطلعته البهيّة زائرًا، وأن يدخل بيتها حبيبًا.

يقول الشاعر:

قال لي المحبوبُ لمَّا زرتُهُ: ... منْ ببابي قلتُ بالبابِ أنا

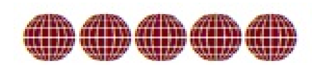
قال لي: أخطأت تعريف الهوى ... حينما فرَّقت فيه بيْنَنَا

ومضى عامٌ فلمَّا جئتُهُ	أطرُقُ الباب عليه مُوهِنا
قال لي: منْ أنتَ؟ قلتُ: أنْظُرْ فما	ثمَّ إلَّا أنتَ بالبابِ هُنا
قال لي: أحسنتَ تعريفَ الهَوى	وعَرَفْتَ الحُبَّ فادخُلْ يَا أنَا

وقد دعا ﷺ إلى جَبر خاطر المرأة، وغض الطّرف عن تقصيرها، والنّظر إلى الجوانب المشرقة في عشرتها، فقال: «**لا يَفْرَكْ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً، إنْ كَرِهَ منها خُلُقًا رَضِيَ منها آخَرَ**» [رواه مسلم].

وبهذا تدوم العشرة، وتستمر الحياة الزّوجية، ويصلح الحال؛ لأن طبيعة الحياة الزّوجية مُتقلّبة، تمرّ أحيانًا بأيام جميلة، وأخرى تتخللها المرارة والأسى.

فعلى الإنسان الواعي العاقل المتّزن المؤمن أن يلزم أمرًا واحدًا في مواجهة مشكلات الحياة الزّوجية، ألا وهو تقوى ربّ العالمين، واتّباع هدي سيّد المرسلين ﷺ، الذي كان تعامله مع زوجاته أرقى، وأرفق، وأرقّ التّعامل على الإطلاق.



مُحَمَّدٌ ﷺ أَبًــا

رسول الله ﷺ هو والد المؤمنين، وأبو المسلمين، كما ذُكر في قراءة أُبي بن كعب (رضي الله عنه): (**النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَهُوَ أَبٌ لَهُمْ**). وعند أبي داود قال ﷺ: «**إنَّما أَنا لَكُم بمنزلةِ الوالدِ**».

فهو للأُمة الوالد الرّبّاني، والأب الرّوحاني، والإمام القدوة لكل جيل، والنّبي الأسوة لكل فاضل ونبيل، وهو مصدر الحنان والإلهام، ومنبع الجود والإكرام، عليه الصّلاة والسّلام، على تعاقب الأعوام، ومرور الأيام.

أمّا الأبوّة المنفية في قوله تعالى: {مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ} [الأحزاب: الآية 40].

فالمقصود بها أبوة النّسب، ولقد تزوّج ﷺ وأنجب وعاش أبًا لأسرته الشّريفة كما قال تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً} [الرعد: الآية 38].

فرُزق ﷺ البنين والبنات وماتوا جميعًا في حياته إلّا فاطمة (رضي الله عنها) ، فكان أكرم أب في العالم، وأرأف وأحنّ والد في الدّنيا، رُغم ما كان سائدًا من اعتقادات لدى الجاهليّة الجهلاء، والوثنيّة الشّوهاء، من وأد البنات أحياء، والفرح والبُشرى إن كان المولود ذكرًا، والحُزن والأسى إن كان أنثى، كما قال تعالى: {وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ} [النحل: الآية 58].

أمّا هو ﷺ فكان أوّل من أكرم البنات، وفرح واستبشر بميلادهنّ، وآنسهنّ، ولاطفهنّ، وأكرم عيشتهنّ، وكان نعم الأب الحاني ببناته، والوالد الرّفيق بأسرته، الودود إليهم، المُتلطّف معهم.

ومن لطيف أبوّته ﷺ وحُسن تربيته اختياره لأبنائه وبناته أجمل الأسماء، على الرّغم من أنّ الأسماء الغريبة المتوحشة كانت هي السائدة في المجتمع، فسمّى ﷺ: القاسم، وعبدالله، وإبراهيم، وزينب، ورقيّة، وأمّ كلثوم، وفاطمة. ولمّا وُلد لفاطمة ولدها الأوّل سمّاه: الحسن، وسمّى الثّاني: الحُسين، وسمّى الثّالث: مُحسنًا، لأنّه لا يختار إلّا الأحسن، ولا ينتقي إلّا الأجمل ﷺ.

ولأنّ الزّواج من حكمة الله وآياته في خلقه كما قال تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [الروم: الآية 21].

كان ﷺ أوّل من امتثل لهذا، واهتم بزواج بناته، وتيسير مهورهن، واختيار الزّوج الكُفء لهنّ.

فزوّج زينب (رضي الله عنها) من أبي العاص بن الرّبيع (رضي الله عنه) وهو ابن خالتها هالة بنت خويلد، وكان من رجال مكة المعدودين عقلًا، وأمانة، وقد أثنى عليه النّبي ﷺ فقال: «**حدَّثَني فَصَدَقَنِي، ووَعَدنِي فَوَفَى لي**» [مُتفق عليه].

لأنّه وعد النّبي أن يعود إلى مكة، بعد غزوة بدر، ويبعث إليه بزينب ابنته، فصدق فيما وعد، ووفّى بما قال، ومن لطيف إسلامه (رضي الله عنه) وصدقه أنّه لمّا عاد من الشّام استجار بزينب فأجارته عند النّبي وقبل ﷺ شفاعتها، وأعادها له بالعقد الأوّل بعد إسلامه، فانظر حرصه ﷺ على سعادة ابنته، وجمع الشّمل، وعَمَارة البيوت، وجبر القلوب.

وأمّا رُقيّة (رضي الله عنها) فقد اختار لها ﷺ أمير المؤمنين الخليفة الرّاشد الجواد الحيي عثمان بن عفان (رضي الله عنه)، فلما تُوفّيت زوّجه ﷺ بأختها أمّ كلثوم، ولذلك سُمي عثمان: (**ذا النّورين**)؛ لأنّه تزوّج بابنتي رسول الله ﷺ، ولم يُعرف في التّاريخ رجل تزوّج ابنتي نبي إلّا عثمان بن عفان(رضي الله عنه).

وأمّا فاطمة (رضي الله عنها) فقد زوّجها ﷺ من أمير المؤمنين أبي الحسن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)، أوّل من أسلم من الشّباب، ومنزلته من النّبي كمنزلة هارون من موسى، وكانت أحبّ بناته إليه ﷺ، وهي الوحيدة التي بقيت بعد وفاته.

ومن حقك أن تعجب لهذا الأب العظيم والنّبي الكريم على كثرة أعماله وجليل أشغاله من أعباء الدّعوة، ومُهمّات تبليغ الرّسالة، إلّا أنه تعاهد بناته بالزّيارة بعد زواجهنّ، فحرص كل الحرص على زيارة ابنته فاطمة، فإن لم يزرها زارته، ولم تكن زيارة عادية، بل باحتفاء وترحيب وإكرام، فيُقبّل جبينها كلّما زارته، ويُجلسها مكانه، وتُقبّل جبينه كلما زارها وتُجلسه مكانها، ويُقبل عليها وتُقبل عليه، كما صحّ عن أمّ المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) قالت: «**ما رأيتُ أحدًا أَشْبَهَ سَمْتًا ودَلًّا وهَدْيًا برسولِ الله في قيامِها وقعودِها من فاطمةَ بنتِ رسولِ الله** ﷺ، قالت: **وكانت إذا دَخَلَتْ على النّبيّ** ﷺ **قام إليها فقَبَّلَها وأَجْلَسَها في مَجْلِسِهِ وكان النبيُّ** ﷺ **إذا دخل عليها قامت من مَجْلِسِها فقَبَّلَتْهُ وأَجْلَسَتْهُ في مَجْلِسِها**» [رواه أبو داود].

فمن منّا يفعل هذا مع أبنائه مع قلّة أعمالنا وأشغالنا واهتماماتنا بجانب أعماله وأشغاله واهتماماته ﷺ؟!

ومَنْ مِن الزّعماء أو الرّؤساء أو القادة يجمع الناس ويقف على المنبر ليقول لهم عن ابنته فاطمة: «**إنما هي بَضْعَةٌ مِنّي، يُرِيبُنِي مَا أَرَابَهَا، وَيُؤْذِينِي مَا آذَاهَا**» [مُتفق عليه]، أي: قطعة من قلبه، وهذا غاية الشّفقة والرّحمة والحنان من هذا النّبي الكريم، والأب العظيم لابنته.

إنّ مشاعره ﷺ تجاه بناته مُلئت بالاحترام والتّوقير، والحبّ والرّحمة، يفرح لفرحهنّ، ويحزن لحزنهنّ، وأحيانًا يخصهنّ ببعض الأسرار لزيادة الاعتناء والاحتفاء. فقد خص فاطمة بحديث وسر، كما قالت عائشة (رضي الله عنها) : «**أَقْبَلَتْ فَاطِمَةُ تَمْشِي كَأَنَّ مِشْيَتَهَا مَشْيُ النَّبيِّ** ﷺ، فَقالَ النَّبيُّ ﷺ: **مَرْحَبًا بابْنَتي**، ثُمَّ أجْلَسَهَا عن يَمِينِهِ، أوْ عن شِمَالِهِ، ثُمَّ أسَرَّ إلَيْهَا حَدِيثًا فَبَكَتْ، فَقُلتُ لَهَا: **لِمَ تَبْكِينَ؟ ثُمَّ أسَرَّ إلَيْهَا حَدِيثًا فَضَحِكَتْ**، فَقُلتُ: ما رَأَيْتُ كَاليَومِ فَرَحًا أقْرَبَ مِن حُزْنٍ، فَسَأَلْتُهَا عَمَّا قالَ، فَقالَتْ: **ما كُنْتُ لِأُفْشِيَ سِرَّ رَسولِ الله** ﷺ، حتَّى قُبِضَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فَسَأَلْتُهَا، فَقالَتْ: **أسَرَّ إلَيَّ: إنَّ جِبْرِيلَ كانَ يُعَارِضُنِي القُرْآنَ كُلَّ سَنَةٍ مَرَّةً، وإنَّه عَارَضَنِي العَامَ مَرَّتَيْنِ، ولَا أُرَاهُ إلَّا حَضَرَ أجَلِي، وإنَّكِ أوَّلُ أهْلِ بَيْتي لَحَاقًا بي.** فَبَكَيْتُ، فَقالَ: **أَمَا تَرْضَيْنَ أنْ تَكُونِي**

سَيِّدَةَ نِسَاءِ أهْلِ الجَنَّةِ -أوْ نِسَاءِ المُؤْمِنِينَ؟ فَضَحِكْتُ لذلكَ» [مُتفق عليه]، في جلسة واحدة يُحييها ﷺ بـ «**التّرحيب**»، ويُخاطبها بـ«**ابنتي**»، ويُجلسها بـ«**القرب** منه»، ويُفضي لها بـ«**الحديث**»، ويُتحفها بـ«**البشارة**».

وكان ﷺ لا يبخل على بناته بالمال، بل يعينهن على حسب القُدرة، واستدلّ العُلماء بقوله ﷺ: «**يَا فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّد، سَلِينِي ما شِئْتِ مِن مَالِي، لا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ الله شيئًا**» [مُتفق عليه].

وفي قوله: «**سَلِينِي ما شِئْتِ مِن مَالِي**» أعظم رسالة في كرمه مع بناته ﷺ.

حتّى في أصعب المواقف لم ينس ﷺ زيارة بناته والسّؤال عنهنّ، والحفاوة بهنّ وكريم رعايتهنّ، فلمّا خرج لبدر في مُحاربة كفار قريش ترك مع ابنته رقية زوجها عُثمان بن عفان يُمرّضها، وأعطاه سهمًا، من مغانم بدر، وأجره على الله.

وحينما ذهبت إليه فاطمة تشكو التّعب، وما تلقى في يدها من الرّحى، وتسأله خادمًا فلم تجده في بيته، فأخبرت أمّ المؤمنين عائشة بذلك، ولمّا عاد ﷺ أخبرته عائشة، فذهب الأب الحنون والوالد الرّحيم والنّبي الكريم ﷺ مُباشرة إلى ابنته فاطمة دون تأخير أو تسويف للسّؤال عنها والاطمئنان عليها، ويصف لنا هذا المشهد زوجها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) فيقول: «**فَجَاءَنَاﷺ وقدْ أخَذْنَا مَضَاجِعَنَا، فَذَهَبْنَا نَقُومُ، فَقالَ: علَى مَكَانِكُما فَجَاءَ فَقَعَدَ بَيْنِي وبيْنَهَا، حتَّى وجَدْتُ بَرْدَ قَدَمَيْهِ علَى بَطْنِي،** فَقالَ: **ألَا أدُلُّكُما علَى خَيْرٍ ممَّا سَأَلْتُمَا؟ إذَا أخَذْتُما مَضَاجِعَكُما-أوْ أوَيْتُما إلى فِرَاشِكُما-فَسَبِّحَا ثَلَاثًا وثَلَاثِينَ، واحْمَدَا ثَلَاثًا وثَلَاثِينَ، وكَبِّرَا أرْبَعًا وثَلَاثِينَ، فَهو خَيْرٌ لَكُما مِن خَادِمٍ**» [مُتفق عليه].

فلم يجد ﷺ خادمًا فعوّضها بأعظم من ذلك، وهو ذكر الله عند النّوم بهذه الصّيغة الواردة، وجمع ﷺ بين الشّفقة والرّحمة، والدّلالة على الخير، والبرّ بابنته وزوجها.

ومن شفقة فاطمة على أبيها وبرّها به، ما قامت به لمّا جُرح ﷺ يوم أحد، فكَانَتْ تَغْسِلُ الدَّمَ، وَكانَ عَلِيُّ بنُ أَبِي طالِبٍ يَسْكُبُ عَلَيْها بالمِجَنِّ، فَلَمّا رَأَتْ فاطِمَةُ أنَّ الماءَ لا يَزِيدُ الدَّمَ إلّا كَثْرَةً، «**أَخَذَتْ قِطْعَةَ حَصِيرٍ فأحْرَقَتْهُ حتّى صارَ رَمادًا، ثُمَّ أَلْصَقَتْهُ بالجُرْحِ، فاسْتَمْسَكَ الدَّمُ**» [مُتفق عليه].

ووصل برّه ولطفه ﷺ بأحفاده الحسن والحسين أبناء علي وفاطمة، وكذلك أمامة بنت زينب وأبي العاص (رضي الله عنهم) جميعًا، يقول بُريدة(رضي الله عنه): «**كان رسولُ الله يخطُبُنا إذ جاء الحَسَنُ والحُسَيْنُ عليهما قميصانِ أحمرانِ يمشيانِ ويعثُرانِ، فنزَل رسولُ الله ﷺ مِن المِنبرِ فحمَلهما فوضَعهما بَيْنَ يدَيْهِ**» [رواه الخمسة].

فدعا ﷺ بقوله وفعله إلى العطف والبرّ والحنان بالأبناء والبنات، ونهى عن الجفاء والغلظة معهم، فعن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: «**قَبَّلَ رَسولُ اللهِ ﷺ الحَسَنَ بنَ عَلِيٍّ وعِنْدَهُ الأقْرَعُ بنُ حَابِسٍ التَّمِيمِيُّ جَالِسًا، فَقَالَ الأقْرَعُ: إنَّ لي عَشَرَةً مِنَ الوَلَدِ ما قَبَّلْتُ منهمْ أحَدًا، فَنَظَرَ إلَيْهِ رَسولُ اللهِ** ﷺ ثُمَّ قَالَ: **مَن لا يَرْحَمُ لا يُرْحَمُ**» [مُتفق عليه].

وذات يوم أَخَذَ الحَسَنُ بنُ عَلِيٍّ (رضي الله عنهما)، تَمْرَةً مِن تَمْرِ الصَّدَقَةِ، فَجَعَلَهَا في فِيهِ، فَقالَ النّبيُّ ﷺ: «**كِخْ كِخْ، لِيَطْرَحَهَا،** ثُمَّ قالَ: **أما شَعَرْتَ أنَّا لا نَأْكُلُ الصَّدَقَةَ**» [مُتفق عليه].

فمع برّه ورحمته ﷺ بسبطه وقف عند الأمر الشّرعي، وأبى أن يأكل من الصّدقة لأنّها لا تحل لأهل البيت.

وعن عبدالله بن عباس (رضي الله عنهما) أنّ النّبي ﷺ كانَ يُعَوِّذُ الحَسَنَ والحُسَيْنَ، ويقولُ: **إنَّ أَباكُما كانَ يُعَوِّذُ بها إسْماعِيلَ وإسْحاقَ: أَعُوذُ بكَلِماتِ الله التّامَّةِ، مِن كُلِّ شيطانٍ وهامَّةٍ، ومِنْ كُلِّ عَيْنٍ لامَّةٍ**» [رواه البخاري]، «**الهامَّةُ**»: كُلُّ ذاتِ سُمٍّ يَقْتُلُ، و«**العَيْن اللَامَّة**»: أَيُّ عَيْنٍ تُصِيبُ بِسُوءٍ.

حتّى في الصّلاة المفروضة كان يصطحب ﷺ بعض أحفاده رحمة بهم وشفقة عليهم، فعن شداد بن الهاد اللّيثي (رضي الله عنه) قال: «**خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي إِحْدَى صَلَاتَي العَشِيِّ وَهُوَ حَامِلٌ حَسَنًا أَوْ حُسَيْنًا، فَتَقَدَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَوَضَعَهُ، ثمَّ كبَّرَ للصلاةِ، فصلَّى، فَسَجَدَ بينَ ظَهْرانَيْ صلاتِهِ سَجْدةً أطالَها، فَرَفَعْتُ رَأْسِي وَإِذَا الصَّبِيُّ على ظَهْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ سَاجِدٌ، فَرَجَعْتُ إلى سُجُودِي، فلمَّا قضَى رَسُولُ اللهِ ﷺ الصَّلَاةَ قَالَ النَّاسُ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّكَ سَجَدْتَ بينَ ظَهرانَي صلاتِك سَجْدَةً أَطَلْتَهَا حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ قَدْ حَدَثَ أَمْرٌ، أَوْ أَنَّهُ يُوحَى إِلَيْكَ، قَالَ: كُلُّ ذَٰلِكَ لَم يَكُنْ، وَلَكِنَّ ابْنِي ارتحَلني، فَكَرِهْتُ أَنْ أُعَجِّلَهُ حَتَّى يقضيَ حَاجَتَهُ**»[رواه أحمد].

ولم يخصّ ﷺ بحُبه وبرّه البنين دون البنات، فقد وصل حُبّه وحنانه لحفيدته أمامة بنت زينب وأَبِي الْعَاصِ (رضي الله عنهم)، يقول أبو قَتَادَةَ الْأَنْصَارِيُّ (رضي الله عنه): «**رَأَيْتُ النبيَّ ﷺ يَؤُمُّ النَّاسَ، وأُمَامَةُ بنْتُ أبِي العَاصِ- وهي ابْنَةُ زَيْنَبَ بنْتُ النبيِّ ﷺ علَى عَاتِقِهِ، فَإِذَا رَكَعَ وضَعَهَا، وإذَا رَفَعَ مِنَ السُّجُودِ أعَادَهَا**» [مُتفق عليه].

ووصل عطف أبوّته ﷺ للأطفال كافة، ذكورًا وإناثًا، من أبنائه وبناته وأحفاده وأطفال الجيران وغير الجيران، فكان أبًا للجميع، يستقبله الأطفال في كلّ مرة يدخل فيها المدينة فيحتضنهم، ويُقبّلهم، ويُردفهم معه على دابته، فعن أنس (رضي الله عنه) قال: «**مَا رَأَيْتُ أَحَدًا كَانَ أَرْحَمَ بِالْعِيَالِ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ**» [رواه مسلم].

وعن جابر بن سَمُرة (رضي الله عنه) قال: صَلَّيْتُ مع رَسولِ الله ﷺ صَلَاةَ الأُولَى، ثُمَّ خَرَجَ إلى أَهْلِهِ وَخَرَجْتُ معهُ فَاسْتَقْبَلَهُ وِلْدَانٌ، فَجَعَلَ يَمْسَحُ خَدَّيْ أَحَدِهِمْ وَاحِدًا وَاحِدًا، قالَ: «**وَأَمَّا أَنَا فَمَسَحَ خَدِّي**، قالَ: **فَوَجَدْتُ لِيَدِهِ بَرْدًا، أَوْ رِيحًا كَأَنَّمَا أَخْرَجَها مِنْ جُؤْنَةِ عَطَّارٍ**» [رواه مسلم].

وعن عائشة (رضي الله عنها) : «**أنَّ رَسولَ الله ﷺ كان يُؤْتى بالصِّبْيانِ فَيَدْعُو لهمْ**» [مُتفق عليه]، وقال أبو موسى الأشعري(رضي الله عنه): «**وُلِدَ لي غُلامٌ فَأتيْتُ بهِ النبيَّ ﷺ فَسَمَّاهُ إبراهيمَ، فَحَنَّكَهُ بِتَمْرَةٍ، ودعا لهُ بالبَرَكَةِ**» [مُتفق عليه].

ويُواصل الأب الرّحيم ﷺ لطفه وبرّه ببناته حتى بعد وفاتهنّ، فقد قام على غسلهنّ، وتكفينهنّ، والصّلاة عليهنّ، ودفنهنّ، وكان يقف على قبورهنّ ويدعو لهنّ، فعَنْ أُمِّ عَطِيّةَ الأَنْصَارِيَّةِ (رضي الله عنها) قَالَتْ: دَخَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ الله ﷺ حِينَ تُوُفِّيَتِ ابْنَتُهُ، فَقَالَ: «**اغْسِلْنَهَا ثَلَاثًا، أَوْ خَمْسًا أَوْ أَكْثَرَ مِن ذلكَ، إنْ رَأَيْتُنَّ ذَلِكَ بمَاءٍ وسِدْرٍ، واجْعَلْنَ في الآخرةِ كافُورًا، أو شيئًا منْ كَافُورٍ، فَإِذَا فَرَغْتُنَّ فآذِنَّنِي**»، فَلَمَّا فَرَغْنَا آذَنَّاهُ فَأَعْطَانَا حِقْوَهُ – أي: إزاره - فَقَالَ: «**أَشْعِرْنَهَا إِيَّاهُ**» [مُتفق عليه]. و«**أشعرنها**»: من الإشعار، وهو إلباس الثّوب الذي يلي بشرة الإنسان، ويُسمَّى شعارًا؛ لأنّه يلامس شعر الجسد، وابنته هي: «**زينب**»، كما جاء في رواية مسلم، وكان يقف ﷺ على قبرهنّ ويدعو لهنّ مثلما فعل مع ابنته رقيّة (رضي الله عنها) لمّا عاد ﷺ من بدر وقد ماتت، فخرج إلى بقيع الغرقد، ووقف على قبرها يدعو لها بالرّحمة والغفران.

وهنا درس لمن ابتلاه الله بفقد أبنائه أو بناته أن يتذكّر أنّ الإمام المعصوم أكرم الخلق على الله قد فقد جميع بناته وأولاده قبل وفاته إلّا فاطمة.

وكان من سُنته أنّه عند وفاة ابنه أو ابنته يحزن الحزن الطّبيعي، وتذرف عيناه ﷺ، يقول أنس بن مالك (رضي الله عنه) في خبر وفاة أمّ كلثوم (رضي الله عنها) : «**شهدنا بنتًا لرسول الله ﷺ ورسول الله ﷺ جالسٌ على القبر، فَرَأَيْتُ عَيْنَيْهِ تَدْمعانِ**» [رواه البخاري].

وهذه دموع رحمة وشفقة وليست دموع تسخط أو اعتراض على قضاء الله وقدره.

وبكى ﷺ على الكبار من أبنائه وعلى الصّغار، ففي حديث أنس (رضي الله عنه) قال: «**دَخَلْنَا مع رَسولِ الله ﷺ علَى أَبِي سَيْفٍ القَيْنِ، وكانَ ظِئْرًا لإِبْرَاهِيمَ عليه السَّلَامُ، فأخَذَ رَسولُ الله ﷺ إبْرَاهِيمَ، فَقَبَّلَهُ، وشَمَّهُ، ثُمَّ دَخَلْنَا عليه بَعْدَ ذلكَ وإبْرَاهِيمُ يَجُودُ بنَفْسِهِ، فَجَعَلَتْ عَيْنَا رَسولِ الله ﷺ تَذْرِفَانِ**، فَقالَ له عبدُ الرَّحْمَنِ بنُ عَوْفٍ (رضي الله عنه): **وأَنْتَ يا رَسولَ الله؟** فَقالَ: **يا ابْنَ عَوْفٍ إنَّهَا رَحْمَةٌ**، ثُمَّ أَتْبَعَهَا بأُخْرَى، فَقالَ ﷺ: **إنَّ العَيْنَ تَدْمَعُ، والقَلْبَ يَحْزَنُ، ولَا نَقُولُ إلَّا ما يَرْضَى رَبُّنَا، وإنَّا بفِرَاقِكَ يا إبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ**» [مُتفق عليه].

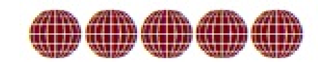
وفاضت شفقته ورحمته ﷺ وحزنه على أحفاده الصّغار، فعن أسامة بن زيد (رضي الله عنهما) قال: «كُنَّا عِنْدَ النبيِّ ﷺإذْ جَاءَهُ رَسولُ إحْدَى بَنَاتِهِ، يَدْعُوهُ إلى ابْنِهَا في المَوْتِ، فَقالَ النبيُّ ﷺ: **ارْجِعْ إلَيْهَا فأخْبِرْهَا أنَّ لله ما أخَذَ وله ما أعْطَى، وكُلُّ شيءٍ عِنْدَهُ بأَجَلٍ مُسَمًّى، فَمُرْهَا فَلْتَصْبِرْ ولْتَحْتَسِبْ**، فأعَادَتِ الرَّسُولَ أنَّهَا قدْ أقْسَمَتْ لَتَأْتِيَنَّهَا، فَقَامَ النبيُّ ﷺوقَامَ معهُ سَعْدُ بنُ عُبَادَةَ، ومُعَاذُ بنُ جَبَلٍ، فَدُفِعَ الصَّبِيُّ إلَيْهِ ونَفْسُهُ تَقَعْقَعُ كَأنَّهَا في شَنٍّ، فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ، فَقالَ له سَعْدٌ: **يا رَسولَ الله، ما هذا؟** قالَ: **هذِه رَحْمَةٌ جَعَلَهَا اللهُ في قُلُوبِ عِبَادِهِ، وإنَّما يَرْحَمُ اللهُ مِن عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ**» [مُتفق عليه].

في زحمة أشغاله، وكثرة أعماله، يعتذر لابنته بلطف في عدم الحضور عند وفاة ابنها، فتقسم عليه لمنزلتها عنده، وعلمها وتأكّدها من جميل رحمته وعظم رفقه، فيقوم مُسرعًا، ويجبر كسرها، ويتلطّف بخاطرها، ويحضر المشهد، وتسيل دموعه شفقة ورحمة بحفيده ﷺ.

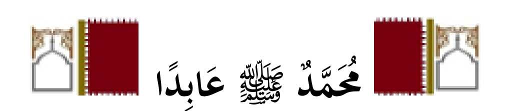
إنّ ما زرعه الله من عاطفة في الآباء لأبنائهم وبناتهم هو أمر فطري في الإنسان، لكن لم يُحقّق الكمال البشريّ فيه إلّا رسولنا ﷺ؛ لأنّ أبوته أبوة نبوية، ورحمة إلهية، لم تقتصر على بناته وأبنائه الذين من صلبه فقط، بل وصلت لكل أبناء وبنات الأُمّة، فقد وسعهم ببرّه، وحباهم بلُطفه،

ورعاهم بحنانه، وما نُقل لنا من سيرة أبوته يُعدّ مفخرة للبشريّة إلى يوم الدّين، وشرف للإنسانية إلى يوم يبعثون، فلا زال برّه بأبنائه وبناته من أمّته باقيًا إلى قيام السّاعة؛ لأنّ كل طفل في العالم يفتق لسانه بلا إله إلّا الله محمد رسول الله، أو يُصلي أو يصوم، أو يحجّ أو يتصدّق؛ فإنّما هو بفضل الله، ثم ببر هذا النّبي الكريم المعصوم، وهو ﷺ الذي ألهم الآباء البرّ والرّحمة ببناتهم وأبنائهم والشّفقة عليهم، وحسن تربيتهم، وجميل رعايتهم، والنّبع الذي يرتوون مِنه حُبًّا وحنانًا، والنّور الذي أضاء حياتهم عد وبرًّا، بوصايا ثابتة وسُنن صحيحة باقيةٍ حتى يرث الله الأرض والسّماوات:

أسبلتُ في حبِّ الرّسولِ عُيوني	شوقًا إليه وما قضيتُ ديوني
يا أهل (طيبة) ما قضيتُ مآربي	في روضةِ الحرم الشّريفِ شُجُوني
لكن سأغسل بالصّلاة مدامعي	صلّوا على خير الورى المأمونِ
ما غابَ عن بالي وكيف يغيب مَنْ	كحّلتُ من ذِكرى هُداه جفون







مُحَمَّدٌ ﷺ عَابِدًا

أعظم النّاس عبادة لله هو رسول الله ﷺ، فهو أتقى الخليقة لربّه، وأكثرهم طاعة وعبودية لمولاه، ومفهوم العبادة أوسع ممّا يتصوره الكثيرُ من النّاس الذين يحصرون العبادة في الصّلاة والزّكاة والصّيام والحج والعمرة ونحوها، ولا شك أنّ هذه من أصول العبادات، وأركان الطّاعات، ولكن كل الحياة في مفهوم الكتاب والسنة عبادة، قال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات: الآية 56].

فالعبادة هي كل ما يُحبّه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال، الظّاهرة والخفيّة، وتشمل أركان الإسلام، وأركان الإيمان، وركن الإحسان، وأعمال القلوب، والبر، والصّلة، وحُسن الخُلُق، والكرم، والإيثار، والتواضع، والأمر بالمعروف، والنّهي عن المُنكر، ونفع النّاس، وكفّ الأذى عنهم، والرّحمة بهم، وبالحيوان والطّيور أيضًا، كل ذلك عبادة، وما يدخل في إصلاح البيئة من إماطة الأذى، وإصلاح الطُرق، وإزالة ما يؤذي النّاس في مجالسهم وطرقاتهم عبادة.

وإمام العابدين هو رسول ربّ العالمين ﷺ، فهو من علّم الأمة كيف تعبد ربّها، وهو الذي عبّد الناس لمولاهم وخالقهم، وأي عبادة لا تأتي من طريقه ولم يُعلّمها هو فهي باطلة ومردودة كما قال ﷺ: «**مَن عَمِلَ عَملًا ليسَ عليه أمْرُنا فَهو رَدٌّ**» [مُتفق عليه]، فهو ﷺ الذي علّمنا جميع العبادات من صلاة، وصيام، وحج، وزكاة، وأدعية، وأذكار، وكل شأن من شؤون العبادة، وكان ﷺ يقول: «**صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أصلِّي**» [رواه البخاري]، ويقول ﷺ: «**لِتَأْخُذُوا مَناسِكَكُمْ**» [رواه مسلم]، ويقول ﷺ: «**أَما وَالله، إنّي لأَتْقَاكُمْ لله، وَأَخْشَاكُمْ له**» [رواه مسلم].

فكانت حياته ﷺ كلها عبادة: صلاته، وصيامه، وصدقته، وحجّه، وعُمرته، ودعوته، بل نومه ويقظته، وطعامه وشرابه، وأنفاسه، ولحظاته، ونظراته، وعباراته.

فهو الذي علّم الخلق عبادة الخالق، ودلّ العباد على عبادة المعبود.

وكان ﷺ يُخبر النّاس حتى في مُباحاتهم ولذائذهم أنّهم إذا قصدوا بها طاعة ربّهم تحولت بتلك النّية الصالحة لعبادة، فقال ﷺ: «**وإنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بهَا وجْهَ الله إلَّا أُجِرْتَ، حتَّى ما تَجْعَلُ في فِي امْرَأَتِكَ**» [مُتفق عليه]، أي ما تطعمه امرأتك يُعدّ مع النيّة عبادة.

وجاء في «**صحيح مسلم**» عن أبي ذر الغفاري (رضي الله عنه) أنَّ نَاسًا مِن أَصْحَابِ النبيِّ ﷺ قالوا للنبيِّ: «**يا رَسولَ الله، ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بالأُجُورِ، يُصَلُّونَ كما نُصلِّي، وَيَصُومُونَ كما نَصُومُ، وَيَتَصَدَّقُونَ بفُضُولِ أَمْوَالِهِمْ.** قالَ: **أَوَليسَ قدْ جَعَلَ الله لَكُمْ ما تَصَّدَّقُونَ؟ إنَّ بكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةً، وَأَمْرٌ بالمَعروفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عن مُنْكَرٍ صَدَقَةٌ، وفي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ.** قالوا: **يا رَسولَ الله، أَيَأتي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكونُ له فِيهَا أَجْرٌ؟**، قالَ: **أَرَأَيْتُمْ لو وَضَعَهَا في حَرَامٍ أَكانَ عليه فِيهَا وِزْرٌ؟ فَكَذلكَ إذَا وَضَعَهَا في الحَلَالِ كانَ له أَجْرٌ**»، فجماع الرّجل لزوجته إذا قصد به إعفاف نفسه وإعفافها كان صدقة.

فانظر لاتساع مفهوم العبادة في حياته ﷺ، حيث كانت دعوته تقوم على التّوازن والشّمول في حياة الإنسان فيقول ﷺ: «**إنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، ولِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، ولِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فأعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ**» [رواه البخاري].

وفتح ﷺ أبواب الحياة كلها، فجعلها عبادة لله، فكان نظره عبرًا، وصمته تفكرًا، وحديثه تذكرًا، فالفكر والنّظر واللّسان والجوارح كلها في عبادة ربّ العالمين. وعبادة التفكّر هي عبادة الأنبياء، وسلوة الأتقياء، وسبيل الاهتداء، والكون هو الكتاب المفتوح، والعالم المشروح لآيات الله البيّنات، نقرأ فيه أحرف الصّمدانية، وعبارات الوحدانيّة.

ولقد غلط الملاحدة غلطًا بيّنًا في فصل هذا الكون عن الله عزّ وجل، فهم يتحدثون عن المادة التي تراها العين، ونسوا الخالق الحكيم المصور لا إله إلّا هو، ولا ربّ سواه.

ومن يقرأ سيرة نبيّنا ﷺ وقد أتى بالآيات البيّنات التي تربط الإنسان بالكون وخالقه، فالدّلالات في الكتاب المسطور تقودك إلى حقيقة الكون المنظور، قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ} [النور: الآية 41]، فالتفكّر عبادة أمرنا الله تعالى بها جلّ في علاه، قال سُبحانه: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآَيَاتٍ لِأُولِي الأَلْبَابِ} [آل عمران: الآية 190] وكان عليه الصّلاة والسّلام يجعل من نظره اعتبارًا، فهو سيّد المُتدبرين والمُتفكرين، بل هو الذي علّم الأمّة عبودية التّفكر في آلاء الله، وفي خلق الله، وفي آيات الله، والقرآن العظيم الذي أتى به ﷺ، وبلّغه الأُمّة؛ كلُّه دعوة إلى التأمل في الكون، والتفكّر في جلال العظمة، وفي أحرف القدرة، وأسطر صُنْع الباري سبحانه.

والقرآن ينادينا إلى تكرار النّظر في ملكوت الله من حولنا: {قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ} [يونس: الآية 101]، ويقول سبحانه: {وَكَأَيِّن مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ} [يوسف: الآية 105].

بل القرآن ينادي بالتدبّر، والتفكّر، والاعتبار، وأخذ الدّروس في السّماء، والأرض، والشّمس، والقمر، والنّجوم والجبال، والكواكب والتّلال، والحدائق الغنّاء، والبساتين الفيحاء، والبحار والأنهار، والثمار والأشجار، فكان ﷺ يعيش هذه العبودية بقلبه، وروحه، مُسافرًا ومُقيمًا، حالًا ومُرتحلًا، وكان يجمع ﷺ بين كتابين: الكتاب المنظور في الكون، والكتاب المسطور في القرآن، الكتاب المفتوح في آيات الله المعروضة في خلقه، والكتاب المشروح في القرآن العظيم.

وتتعدد هذه العبادة منه في أجمل الصّور إلى أن تصل إلى نفع الإنسان، ونفع الحيوان والطّيور والحشرات، ففي «الصّحيحين» عن أبي هريرة (رضي الله عنه) أنَّ رَسولَ الله ﷺ قالَ: «**بَيْنا رَجُلٌ يَمْشِي، فاشْتَدَّ عليه العَطَشُ، فَنَزَلَ بئْرًا، فَشَرِبَ مِنْها، ثُمَّ خَرَجَ فإذا هو بكَلْبٍ يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرى مِنَ العَطَشِ، فقالَ: لقَدْ بَلَغَ هذا مِثْلُ الذي بَلَغَ بي، فَملأَ خُفَّهُ، ثُمَّ أمْسَكَهُ بفِيهِ، ثُمَّ رَقِيَ، فَسَقى الكَلْبَ، فَشَكَرَ الله له، فَغَفَرَ له،** قالوا: يا رَسولَ الله، **وإنَّ لنا في البَهائِمِ أجْرًا؟**، قالَ: **في كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أجْرٌ**» [مُتفق عليه].

فكل ما يقوم به المسلم من إحسان إلى البهائم والعجماوات حتى النّمل والنّحل والطيور فيه أجر ومثوبة.

ومنهجه ﷺ في العبادة يجمعه قول الله تعالى: {قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الأنعام: الآية 162]، فهل أبقت هذه الآية من صور العبادات ومشاهد الطاعات شيئًا؟!

إنّ رسولنا ﷺ يسير على هدي ربّاني في يومه وليلته، وقد أُلفت كُتبٌ ومجلدات في عباداته اليوميّة النهارية واللّيليّة، فقد كانت كل حركة من حركاته ﷺ، وكل سكنةٍ، وكل لحظةٍ، وكل لفظةٍ تصدر منه عبادة.

وعبادته لربّه تقوم على الإخلاص لخالقه ومولاه، والاقتصاد، والتّوازن، والاعتدال، والمداومة، فكان ﷺ سيد المُخلصين، وإمام المُخبتين والمتبتلين، وكان يلزم الاقتصاد والوسط في عبادته، فلا إفراط ولا تفريط، وكان يقول ﷺ: «**إيّاكُم والغُلُوَّ**» [رواه أحمد]، وقال ﷺ: «**إنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، ولَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أحَدٌ إلَّا غَلَبَهُ**» [رواه البخاري].

وكان أحبّ العمل إليه ﷺ ما داوم عليه صاحبه وإن قلّ، وكان ﷺ إذا عمل عملًا داوم عليه، وكان يعيش التّوازن في عبادته ﷺ، وفي حياته عمومًا، فلا يخل بحق على حساب حق، فللصلاة وقت، وللقرآن خلوة، وللتهجّد زمان، وللأهل حقٌّ، وللمُسلمين نصيبٌ، فحياته ﷺ حديقة غنّاء من العبادة لربّه ومولاه، كاملة مُكمّلة، تامة مُتممة، فتجد فيها الصّلاة الخاشعة، والتّلاوة المتدبّرة، والذّكر الحاضر، والموعظة البليغة، والدّرس النافع، والصّدقة المُتقبّلة، والبرّ والصّلة، والجهاد في سبيل الله، وتعليم الجاهل، والأمر بالمعروف والنّهي عن المُنكر، وإقامة العدل بين النّاس، ورفع المظالم، والرّحمة بالمساكين والأيتام والفقراء والأرامل، وتجهيز الجيوش، وحفظ المال العام، ورعاية مصالح العباد، وبناء الدّولة الإسلاميّة، إلى غير ذلك من حقول الحياة المختلفة.

ولقد حوّل ﷺ الحياة كلّها إلى عبادة لله، فكل خطوة من خطواته، وكلمة من كلماته، وإشارة من إشاراته، وعبارة من عباراته، عبادة لمولاه وطاعة لخالقه، حتى مزاحه ﷺ مع الأطفال، ومُداعبته لأهله، ومُلاطفته لأصحابه، عبادة لمولاه، يحتسب أجرها وبرّها عند الله؛ لأنه عليه الصّلاة والسّلام معصوم لا ينطق عن الهوى، ولا يتصرّف تصرفَ بشرٍ عاديٍّ، بل إمامٍ مرسلٍ

معصومٍ بالنّبوة، مجتبى من الله، مختار لهداية النّاس، فعن أنس بن مالك (رضي الله عنه) قال: «**جَاءَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ إلى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ يسأَلون عن عبادةِ النَّبيِّ ﷺ فلمَّا أُخبِرُوا كأنَّهم تقالُّوها** فقالوا: **وأينَ نحنُ مِن النَّبيِّ ﷺ؟! قد غُفِر له ما تقدَّم مِن ذنبِه وما تأخَّر؟!** قال أحدُهم: **أمَّا أنا فإنِّي أُصلِّي اللَّيلَ أبدًا** وقال الآخَرُ: **أنا أصومُ الدَّهرَ ولا أُفطِرُ** وقال الآخَرُ: **أنا أعتزِلُ النِّساءَ ولا أتزوَّجُ أبدًا،** فجاء رسولُ الله ﷺ فقال: **أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلتُمْ كَذَا وكَذَا؟ أمَا واللهِ إنِّي لأخشاكم للهِ وأتقاكم له وأَتْقَاكُمْ له، لَكِنِّي أصُومُ وأُفْطِرُ وأُصلِّي وأرقُدُ وأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فمَن رَغِبَ عن سُنَّتي فليسَ مِنِّي**» [مُتفق عليه].

صوّر لنا رسول الله ﷺ أنّ الحياة كُلّها سجدة لله، حتى ما نتلذذ ونتنعم به في حياتنا جعله عبادة لله، فأكلنا للطّعام اللذيذ، وشُربنا للماء البارد، ولباسنا للثّوب الجديد الجميل، ونومنا الهاني، كلها بالنيّة تتحوّل إلى طاعة، وكأنّنا في صلاة دائمة لربّ لعالمين، وهذه هي هداية النّبوّة، وبركة الرّسالة التي أكرمنا الله بها عن طريق نبيّه المصطفى، وخليله المُجتبى محمد بن عبدالله ﷺ.

وإذا ظنّ الإنسان أنّ عبادته فقط في صلاته، وصيامه، وحجّه، فإنّه صاحب فهم قاصر للعبادة؛ لأنه حدّها بحد قليل، وقصرها على صور محدودة، بل الصّحيح أنّ حياة المُسلم والمُسلمة من أوّلها لآخرها، في ليلها ونهارها، وسرّها وعلانيتها، وسرّائها وضرّائها، وشدّتها ورخائها، مع النيّة الصادقة عبادة لله عزّ وجل، وطاعة له تبارك اسمه وتعالى قدره، ففي «**الصحيحين**» أنّه ﷺ كان إذَا صَلَّى قَامَ حتَّى تَفَطَّرَ رِجْلَاهُ، قالَتْ عَائِشَةُ: «**يا رَسولَ الله، أَتَصْنَعُ هذا، وَقَدْ غُفِرَ لكَ ما تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ؟!**، فَقالَ: **يا عَائِشَةُ أَفلا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا**».

لقد أمر الله نبيّه ﷺ بمناجاته ليلًا ويتلذذ بمناجاة مولَاه وخالقِه، فقال له سبحانه: {وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا} [الإسراء: الآية 79]، فكما يقوم مُتبتلًا في ليله مُتشرّفًا بعبادة مولاه يشرّفه الله على رؤوس الخلائق بأن يقيمه المقام المحمود مقام الشّفاعة الكُبرى.

ويقول له ربه: {وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ} [العلق: الآية 19]، وفي هاتين الكلمتين يطوف الخيال البشري إذ إنهما تجمعان كل معاني الولاية والإخبات والتّذلل والخضوع من سيّد ولد آدم ﷺ لله ربّ العالمين.

فبالسجود وهو مُنخفض يعلو مرتفعًا إلى مولاه وخالقه، ويقول له سبحانه: {وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ} [الحجر: الآية 99]، إنّه اتّصال مباشر، واستمرار في العبادة حتى النّهاية، ليس هناك فراغ، ولذلك يقول تعالى: {فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ } [الشرح: الآية 8]، إذا فرغت من أعمالك وأشغالك ومهام الدّعوة فانصب واتعب في عبادة ربّك ومولاك.

ويخاطبه ربّه وخالقه قائلًا: {وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً} [المزمل: الآية 8]، أي: انقطع إليه انقطاعًا عامًّا وخاصًا، تبتّل بقلبك وجوارحك، وسرك وعلانيتك، فكان يقوم ﷺ مُتبتّلًا لربّه، مُنطرحًا له بالسّجود، كما حكت عائشة (رضي الله عنها) وقد مرت عليه ﷺ وهو ساجد مخبت يبكي في سجوده، فتضع كفها في الظلام على قدميه وهما منصوبتان وقد سافرت روحه - بأبي هو وأمي ﷺ - إلى مولاه وخالقه ويقول في سجوده: «**اللهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ**» [رواه مسلم].

فبالله إذا كان هذا هو سيد ولد آدم المعصوم الذي غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، يقول هذا التّضرع وهذا التّذلل، وهذا الخضوع لربّه، فماذا علينا نحن سوى التأسي به.

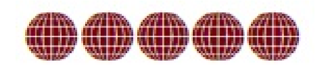
وفي «صحيح مسلم» عن عائشة (رضي الله عنها) أنّه كان ﷺ إذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ افْتَتَحَ صَلَاتَهُ: «**اللهُمَّ! رَبَّ جَبْرَائِيلَ، وَمِيكَائِيلَ، وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**».ولا تدري ممَّ تعجب؟! هل من طول صلاته ﷺ؟! أم من إخباته، وخشوعه، وانكساره لمولاه؟ أم من حُسن كلامه، وبليغ دعائه، وجميل عبادته لمولاه وربه وخالقه؟!

وعن أنسٍ (رضي الله عنه) قال: «**كانَ رَسولُ الله ﷺ يُفْطِرُ مِنَ الشَّهْرِ حتّى نَظُنَّ أَنْ لا يَصُومَ منه، ويَصُومُ حتّى نَظُنَّ أَنْ لا يُفْطِرَ منه شيئًا، وكانَ لا تَشاءُ أَنْ تَراهُ مِنَ اللَّيْلِ مُصَلِّيًا إلّا رَأَيْتَهُ، ولا نائِمًا إلّا رَأَيْتَهُ**» [رواه البخاري، ومسلم مختصرًا].

فيا أيها العالم، والأمير، والوزير، والمهندس، والطبيب، والجندي، والفلّاح، والإعلامي، والخيّاط، والنجّار، والكاتب، والشاعر! أنتم في عبادة متى ما نويتم الخير وقصدتم ما عند الله، فهنيئًا لكم بالأجر، وقُرّة عين لكم بالمثوبة، وتذكروا قول نبيكم المختار ﷺ: «**إنَّما الأعْمالُ بالنِّيّاتِ، وإنَّما لِكُلِّ امْرِئٍ ما نَوى**» متفق عليه، والزموا سُنّته ﷺ بلا إفراط ولا تفريط، ولا غلو ولا جفاء، فإنّه لا

فلاح ولا نجاح إلّا في اتباع هديه ولزوم سُنّته، والاقتصاد في السّنة خير من الاجتهاد في البدعة، «اتَبعوا ولا تَبتدعوا فقدْ كُفيتُمْ»، وخير الاتّباع هو اتّباع سيد المرسلين، وإمام العابدين، ﷺ في الأولين، وﷺ في الآخرين، وﷺ إلى يوم الدّين.

ماذا أقول وأنت أكرمُ من سجدْ	وأبرُّ من عرف الإلهَ ومن عبدْ
علّمتنا أنّ الحياة بأسرها	تسبيحةٌ لله في طول الأمدْ
سافرتَ بالأرواح في ملكوته	سُبحانه فالنفسُ تهتفُ يا صمدْ
في كل موقع ذرةٍ من خلقهِ	نتلو معاني (قل هو الله أحدْ)





مُحَمَّدٌ ﷺ مُصَلّيًا

كانت الصّلاة في حياة النّبي ﷺ حاضرة ماثلة أمام عينيه، يحثّه الوحي عليها دائمًا، ويُذكّره بها ربّه في كل آنٍ، في أوقات الشّدة والرّخاء، وفي السرّاء والضرّاء، يقول سبحانه: {وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ} [هود: الآية 114]، وذلك في أوقات مُحدّدة، ومواعيد قائمة، يلتقي فيها النّبي الكريم بربّه الرّحمن الرّحيم؛ ليناجيه، ويتزوّد من معارفه، ويذوق حلاوة عبادته وطاعته، قال تعالى: {أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا} [الإسراء: الآية 78].

فالصّلاة محطات خمس على مدار اللّيل والنّهار، كُلّما فترت النّفس أو خملت أو كسلت أو ابتعدت؛ جاءت الصّلاة بفيضها الإلهي، وغيثها الرّباني، لتواصل النّفسُ رحلتها إلى مولاها، وتستمر في سفرها إلى بارئها، يقول رب العالمين لنبيّه ﷺ: {إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا} [النساء: الآية 103]، فهي معلومة في أوقاتها بإلزام إلهيّ، وواجب ربّاني.

وأوحى الله إلى موسى عليه السّلام: {إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي} [طه: الآية 14]، فجاءت الصّلاة بعد التّوحيد مُباشرة.

وقد مدح الله نبيه إسماعيل فقال عنه: {وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا} [مريم: الآية 55].

وكان رسولنا ﷺ يراقب دخول الوقت مراقبة المُستهام العاشق التائق لقدوم حبيبه، ولحظة التواصل بخالقه جلّ في عُلاه، فصارت صلاته ﷺ جنته في دُنياه. ومن اهتمامه ﷺ بالصّلاة بيّن حُكم

من نسيها، وحُكم صلاة بعيد الدّار عن المسجد، وحُكم صلاة المريض وأهل الأعذار، ليكون المُسلم عارفًا بأحكام هذه الفريضة التي تتكرر عليه في اليوم والليلة خمس مرات، قَالَ ﷺ: «**مَن نَسِيَ صَلاةً فَلْيُصَلِّها إذا ذَكَرَها، لا كَفّارَةَ لَها إلّا ذلكَ**» [متفق عليه].

فالصّلاة لا تسقط مع النّسيان ولكنها حاضرة في حياة الإنسان؛ لأنّها الطّاقة التي لا تنتهي، والمعين الّذي لا ينضب، والزّاد إلى يوم المعاد.

وحين سأل رجلٌ النّبيَّ ﷺ: هل يجد له رخصة في الصّلاة في المنزل لبُعد داره عن المسجد؟ فقال ﷺ: «**هل تَسمعُ: حيَّ على الصَّلاةِ حيَّ على الفلاحِ؟** قالَ: **نعَم. قالَ: فحيَّ هلًا. ولم يُرخِّص لَهُ**» [رَوَاهُ أبو داود النسائي].

فأمر ﷺ كل مُسلم أن يُجيب داعي الله؛ لأن ارتفاع الأذان معناه الإعلان بوجوب الإقبال على الواحد الديّان، وكأنّه يقول: اترك أشغالك وأعمالك، وتعال إلى أكرم الأكرمين، وأرحم الراحمين سُبحانه.

وقد يسّر ﷺ على المريض صلاته لِيؤديها على الحالة التي يستطيع، يقول عمران بن الحصين(رضي الله عنه): «**كانَتْ بِي بَواسِيرُ، فَسَأَلْتُ النّبيَّ ﷺ عَنِ الصَّلاةِ،** فَقالَ: **صَلِّ قائِمًا، فإنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقاعِدًا، فإنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعلَى جَنْبٍ**» [رواه البخاري].

فالصّلاة لا تسقط في أيّ زمان ولا أيّ مكان، ولا تسقط بأيّ حال من الأحوال؛ لأنّها العبادة التي تُصاحب المُسلم حضرًا وسفرًا، وحِلًّا وترحالًا، وليلًا ونهارًا.

وكان ﷺ إذا قام للصلاة استقبل القبلة ورفع يديه حذو أذنيه وكأنّها تحية لملك الملوك سبحانه وتعالى؛ ليستفتح صلاته بهذا الإجلال ويقول: «**الله أكبر**»، واختيار «**اللهُ أكبر**» سواء في أوّل الأذان أو في أوّل الصلاة له مقصد عظيم، وهو التّذكير بعظمة الله وعلو شأنه عزّ وجل، وأنّه سبحانه المقدّم على كل شيء في الدنيا، وأنّه أكبر من كلّ ما يشغلنا عن عبادته تقدّس اسمه، فكأنّ المصلي يقول: الله أكبر من الأهل والمال والولد، بل من الدّنيا وما فيها.

ثم يضمّ ﷺ يده اليمنى على اليسرى فوق صدره، وهي ضمّة العبد المسكين المنكسر الخائف الوجل بين يدي ملك الملوك، وكأنّها وقفة الأسير الذي لا يملك حولًا ولا قوة في موقف الخوف

والوجل، ووضع اليدين على الصّدر فيه السّكون والخشوع والخضوع للواحد القهّار.

وكان يأتي ﷺ بدعاء الاستفتاح وهو كالمقدمة وكالتوطئة لمناجاة الله عزّ وجل، ثم يقرأ ﷺ سورة الفاتحة وهي «**الصّلاة**» كما سمّاها ربّنا عزّ وجل في الحديث القدسي الذي [رواه مسلم] عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ: يقول الله تعالى: «قَسَمْتُ الصَّلاةَ بَيْنِي وبيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، ولِعَبْدِي ما سَأَلَ، فإذا قالَ العَبْدُ: **{الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}** ، قالَ الله تَعالى: حَمِدَنِي عَبْدِي، وإذا قالَ: **{الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ}** ، قالَ اللهُ تَعالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وإذا قالَ: **{مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ }** ، قالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي-وقالَ مَرَّةً: فَوَّضَ إلَيَّ عَبْدِي ـ فإذا قالَ: **{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}** قالَ: هذا بَيْنِي وبيْنَ عَبْدِي، ولِعَبْدِي ما سَأَلَ، فإذا قالَ: **{اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ}** قالَ: هذا لِعَبْدِي ولِعَبْدِي ما سَأَلَ».

ولعل السّبب في افتتاح الصّلاة بسورة الفاتحة أنّها أعظم سورة في القرآن، وأنّها الكافية والشّافية وأمّ القرآن، وهي ذكر ودعاء وتلاوة ورقية، وفيها الثّناء والحمد والتّمجيد لله وسؤاله جلّ في علاه، والاعتراف بألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته إلى غير تلك المعاني الجليلة.

يقرأ ﷺ بعد الفاتحة ما تيسّر من القرآن، ثم يقول: «**الله أكبر**»، راكعًا، والتّكبير ملازم للرّكوع والسّجود وحركات الصّلاة؛ لأن فيه تعظيمًا للربّ جلّ في عُلاه، فإذا ركع كانت هيئته ﷺ هيئة العبد المُنكسر لربّه؛ ولهذا حسن أن يقول ﷺ في الركوع: «**سبحان ربي العظيم**».

فانظر كيف عظّم ربّه في الرّكوع؛ لأنّه لما انكسر وانحنى تذكر عظمة الله، فأشاد بهذه العظمة وقدّس الله بها، ولهذا يقول ﷺ: «**فأمّا الرُّكُوعُ فَعَظِّمُوا فيه الرَّبَّ عزَّ وجلَّ**» [رواه مسلم].

ثم يرفع ﷺ من الرّكوع ويقول: «**سَمِعَ الله لِمَن حَمِدَهُ، رَبَّنا وَلَكَ الحَمْدُ**»، إلى آخر الدّعاء، فهو موقف يستحق فيه الرّب الحمد جلّ في علاه، فهو الذي هدى عبده لهذه المناجاة وعلّمه هذه الصّلاة، ويرفع يديه إذا رفع من الرّكوع، وهي تدخل في معنى التّحية والإجلال لله ربّ العالمين.

بعد الرّفع من الرّكوع يخرّ ساجدًا ويقول: «**الله أكبر**»، وهيئة السّجود أعظم صورة يظهر فيها إكرام الله للإنسان، فترفعه عند مولاه وتدنيه منه؛ ولذلك أُمر الملائكة بالسّجود لآدم لكرامته على الله، قال ﷺ: «**أَمّا السُّجُودُ فاجْتَهِدُوا في الدُّعاءِ، فَقَمِنٌ أنْ يُسْتَجابَ لَكُمْ**» [رواه مسلم]، أي: (حَرِيّ وجدير أن يُجاب دعاؤكم)، وهيئة السّجود على الأرض، ووضع الوجه بما فيه الجبهة

والأنف واليدان والركبتان والقدمان فيها من المسكنة والضعف والاستكانة والخشوع والخضوع والانكسار لله ما يفوق الوصف؛ فلمّا كان العبد في حال انخفاض وهَوِيٍّ إلى الأسفل ناسب أن يقول: «**سُبْحانَ رَبِّيَ الأعْلى**» فالعلو لله، والعظمة له سبحانه، والانحدار والضّعف والهزال والانكسار للعبد، ثم يقول: «**الله أكبر**» رافعًا من السّجود، ويقول بين السجدتين: «**اللهمَّ اغْفِرْ لِي، وَارْحَمْنِي، وَعَافِنِي، وَاهْدِنِي، وَارْزُقْنِي**» [رواه أبو داود].

وفي التشهد يقرأ التحيّات بصيغتها المشروعة المعهودة، واضعًا يديه على ركبتيه مُشيرًا بسبّابته اليمنى يحركها إشارة لوحدانية الله، وإفراده بالعبوديّة جلّ في علاه في جلسة مسكنة وانكسار وخضوع واستسلام وانقياد لأمر الله، جلوس عبد بائس فقير مستكين متضرّع أمام ملك الملوك يرجو رحمته، ويخاف عذابه.

ثم يختم ﷺ صلاته بـ: «**السّلام عليكم**» مرتين لأنّها تحية الانصراف، وكأنّه يودع تلك الفريضة العظيمة، ويلقي السّلام على الحضور من الملائكة والمؤمنين الذين شاركوه في الصّلاة، فيا له من ختام ما أجمله! ختامه مسك، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

وكان ﷺ يقول بعد السلام مباشرة: «**أستغفر الله، أستغفر الله، أستغفر الله**» [رواه مُسلم]، وإنّما بدأ بالاستغفار ليعلن الانكسار أمام الملك الجبار، وكأنّه يعتذر من أيّ تقصير في الصّلاة، أو كأنّ لسان الحال يقول: مهما أحسنا في صلاتنا أو خشعنا فيها فإنّنا مقصرون نستغفرك من التقصير حتّى في الطاعات، ثم يأتي بالأدعية التي تُقال بعد الصّلاة، والتي لكل منها سرٌّ ومقصود ومناسبة.

إنّ صلاته ﷺ هي الصّلاة الخاشعة التي تُزيل الهموم، وتُذهب الغموم، وتطرد الأحزان، وتكشف الكربات.

وهي الشّارحة للصدر، والمُطهرة للذّنب، فعَنْ أَبِي هُرَيرَةَ (رضي الله عنه) قَالَ: «**أنَّ رَسولَ الله ﷺ دَخَلَ المَسْجِدَ فَدَخَلَ رَجُلٌ، فَصلَّى، فَسَلَّمَ عَلَى النبيِّ ﷺ**، فَرَدَّ وقالَ: **ارْجِعْ فَصلِّ، فإنَّكَ لَمْ تُصَلِّ، فَرَجَعَ يُصَلِّي كما صلَّى،** ثُمَّ جَاءَ، فَسَلَّمَ علَى النبيِّ ﷺ، فَقالَ: **ارْجِعْ فَصلِّ، فإنَّكَ لَمْ تُصَلِّ ثَلَاثًا،** فَقالَ: **والذي بَعَثَكَ بالحَقِّ ما أُحْسِنُ غَيْرَهُ، فَعَلِّمْنِي؟**، فَقالَ: **إذَا قُمْتَ إلى الصَّلَاةِ فَكَبِّرْ، ثُمَّ اقْرَأْ ما تَيَسَّرَ معكَ مِنَ القُرْآنِ، ثُمَّ ارْكَعْ حتَّى تَطْمَئِنَّ رَاكِعًا، ثُمَّ ارْفَعْ حتَّى تَعْدِلَ قَائِمًا، ثُمَّ اسْجُدْ حتَّى تَطْمَئِنَّ سَاجِدًا، ثُمَّ ارْفَعْ حتَّى تَطْمَئِنَّ جَالِسًا، وافْعَلْ ذلكَ في صَلَاتِكَ كُلِّهَا**» [مُتفق عليه].

ومَن يطالع سيرة الحبيب ﷺ يجد في الصّلاة سرًّا عجيبًا، فهي انقطاع عن المشاغل والمُلهيات والمزعجات في الحياة الدّنيا، وتبتّل للحيّ القيوم، وهي راحة للمُتّقين، وأُنس للمُفلحين، ولا يُحافظ عليها إلّا من عمّر الله قلبه بالإيمان، وشرح صدره للإسلام، ولهذا لا تجد مُخلًّا بالصلاة إلّا وقد اختلت أحواله، وفسدت أعماله، ورذلت أقواله.

وبالمُقابل لا تجد من حافظ عليها بخشوعها وآدابها وسننها إلّا وقد أسعده ربّه، ورضيَ عنه مولاه، وتسهلّت أموره، وتيسّرت أرزاقه، ونال مطلوبه، وظفر بمرغوبه، فهو من فلاح إلى فلاح، ومن نجاح بعد نجاح، لأنّه أخذ برأس الحبل، وعمود الدّين، وناصية الملة، قال تعالى: {وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاَةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لاَ نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى} [طه: الآية 132].

وخطاب الله لرسوله ﷺ هو خطاب لكل مسلم ومسلمة إلى يوم الدّين، فمن أقام الصّلاة وحافظ عليها وصبر على أدائها بحقوقها ضمن الله له رزقًا حلالًا وعاقبة حميدة، وهل بعد هذا المطلب من مطلب؟! وبعد هذه الأمنية من أمنية؟!

لقد علّمنا ﷺ أنّ الصّلاة تجتمع فيها كل معاني ومقاصد الإسلام بأسره، بل إنّ دلالات أركان الإسلام موجودة في الصّلاة:

ففيها أنواع الأذكار من التّكبير والتّحميد والتّسبيح والتّهليل والاستغفار والصّلاة على النّبي ﷺ، وأنواع التّقديس والمناجاة وتلاوة القرآن، والدّعاء بأنواعه.

وفيها معنى الاستسلام والوحدانية والانقياد لأمر الله وتحقيق الإيمان.

وفيها القيام، والرّكوع، والسّجود، والجلوس.

وفيها معنى الصّيام، فإنّه يَحرم الأكل والشرب في الصّلاة حتى تنتهي.

وفيها معنى الحج فإنّه يستقبل بقلبه البيت، وتطوف روحه حول العرش وكأنّه يطوف بالكعبة.

وفيها معنى الصّدقة؛ لأن التّسبيح والتّحميد والتّهليل والتّكبير صدقات يُتصدق بها كما قال ﷺ: «**كُلُّ تَسْبِيحةٍ صدقَةٌ، وكُلُّ تَحمِيدةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ، وكُلُّ تَكْبِيرةٍ صدقَةٌ**» [رواه

مسلم].

وفيها معنى الجهاد فقد ضحّى بوقته، وضحى بذهنه، وضحى بروحه، وهو يقف في محراب ذي العرش العظيم وقد أسلم روحه لخالقه، ومال بقلبه نحو مولاه.

وفيها معنى الزّهد فإنّه انقطع عن العالم، وترك الأهل والمال، وودّع المنصب والوظيفة، وأتى إلى ربّه مُقبلًا بقلبه، مُعرضًا عن الدّنيا وما فيها.

وفي الصّلاة معنى الإخلاص؛ لأنّ فيها مناجاة بين العبد وربّه، وأسرار لا يطّلع عليها إلّا الله سبحانه؛ كالطّهارة والوضوء فإنّه لولا مراقبة الله لصلّى بدونهما، وقد يصلي وحده لا يراه إلّا الله، ويصلي في اللّيل الدّامس حيث لا يطلع على حالته إلَّا ربه ومولاه.

وفي الصّلاة معنى الإيمان، فإنّ من حافظ على الصّلاة لا بد أن يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره.

وفيها معنى الإحسان وهو أن تعبد الله كأنّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنّه يراك، وأعظم مُعين على ذلك «الصلاة».

واستمع لقوله ﷺ: «**وجُعِلَت قُرَّةُ عَيني في الصَّلاةِ**» [رواه أحمد]. وقِفْ طويلًا عند هذه الجملة الآسرة، الأخّاذة، المؤثّرة منه ﷺ عن الصّلاة، وكررها واستشعرها تجدها اختصرت المشهد كلّه؛ لأنّها عبارة تدل على مدى ما كان يعيشه ﷺ من لذّة وشوق ومُتعة، وهو في صلاته بين يدي مولاه يُناجيه، ويستغفره ويستهديه.

«**وجُعِلَت قُرَّةُ عَيني في الصَّلاةِ**» [صحيح النسائي] فحسب دون غيرها، فلم يقلها في ابن أو بنت، أو زوجة أو صديق، أو مال أو دنيا، إنّما في الصّلاة فقط.

«**وجُعِلَت قُرَّةُ عَيني في الصَّلاةِ**» لما تَحمله من شعور داخلي، وحنين روحي، وأثر نفسي، فلا تقرّ عينه، ولا تهدأ روحه، ولا يستقر فؤاده، ولا ينشرح صدره، إلّا بالصّلاة.

«**وجُعِلَت قُرَّةُ عَيني في الصَّلاةِ**»، لك أن تسافر مع هذه العبارة، وتتأملها بكل ما أوتيت من فهم وإدراك لتعلم أنّ الصّلاة في حياة المسلم مدد من اليقين، وغوث من الفتوحات، ومعين لا ينضب

من البركات، ونهر دافق صاف عذب من الإشراق والطمأنينة والسّكينة؛ لأنّ الصّلاة تجمع كل مقاصد الإسلام ومعانيه، فقرّة عين للمصلّين، وطُوبى للساجدين، وهنيئًا للمتبتلين الطّائعين.

صلاتي لربّي زادُ قلبي وقوتي وطوقُ نجاتي في المصائب والكَرْبِ

أُزيح بها عنّي الهموم وأنحني جلالًا لربّ الكون يغفر لي ذنبي

هي الأُنس والإيمان والفأل والرّضا وطاقة روحي في المسيرة والدّربِ

وقُرّة عين المصطفى ونعيمهُ وجنّته في عالم الشّحّ والجدبِ

لقد علّمنا ﷺ أنّ الصّلاة تهذيب للنفس، وردع لها عن خطرات إبليس، وخطوات الشيطان ووساوسه، ولهذا قال تعالى عنها: {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ} [العنكبوت: الآية 45]، فأنّها إذا صُليت بخضوع وخشوع كانت زاجرة للنفس عن هواها، وحامية للقلب عن الضّلال والغواية، ومحصّنة للجوارح عن الفواحش والمنكرات.

في الصّلاة تدريب على النّظام والانضباط، لما اشتملت عليه من التّرتيب والتّناسق العجيب لا يمكن أن يتهيأ بحال إلّا بوحي من الله، فمنذ أن يدخل الإنسان في صلاته لا يجوز له أن يلتفت يمنة ولا يسرة، ولا يعبث في صلاته، ولا يفكر في غير ما يقرأ، ولا يلغو ولا يتكلم بكلام خارج الصّلاة، ولا يأكل ولا يشرب، ولا يضحك ولا يستهزئ، وإنّما قنوط وخشوع، وعكوف للقلب على ما يحبه الله، وإقبال بالنّفس على ذكر الله ومناجاته وجميل خطابه ولطيف سؤاله جلّ في عُلاه.

والصّلاة مُرتّبة للأوقات، ومُنظّمة لشؤون الحياة، يقول ابن مسعود (رضي الله عنه): سألتُ رَسُول الله ﷺ: أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ؟، قَالَ: «**الصَّلَاةُ لِوَقْتِهَا**» قَالَ: **قُلْتُ ثُمَّ أيٌّ؟**، قَالَ: «**بِرُّ الْوَالِدَيْنِ**» قَالَ: قُلْتُ: **ثُمَّ أَيٌّ؟**، قَالَ: «**الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ الله**» [مُتفق عليه]، فانظر إلى تقديمه ﷺ «**الصَّلَاةُ لِوَقْتِهَا**» في أوّل الأعمال، فهي مُقدمة الطّاعات، وأجلّ العبادات، وأفضل القُربات، وقرّة عينٍ لمن حافظ عليها في وقتها.

وعن عبدالله ابن عمر (رضي الله عنهما) قال: قال رَسُول الله ﷺ: «**بُنِيَ الإسْلامُ على خَمْسٍ: شَهادَةِ أنْ لا إلَهَ إلّا الله وأنَّ مُحَمَّدًا رَسولُ الله، وإقامِ الصَّلاةِ، وإيتاءِ الزَّكاةِ، والحَجِّ، وصَوْمِ**

رَمَضانَ» [مُتفق عليه]، فالصّلاة عمود الإسلام، وهي التّالية للتّوحيد مباشرة، وهي التي تُصاحب الإنسان ليلًا ونهارًا، حضرًا وسفرًا، صحةً ومرضًا، لا ينفك عنها مُسلم ولا مسلمة إلّا بعُذر شرعي.

وعلّمنا ﷺ أنّ الصّلاة نور في الحياة، ونور في القبر، ونور على الصّراط، وهي برهان صدق العبد في إيمانه، وهي دليله على خلوصه من النّفاق ونجاته من الكفر، وهي حبل السّلامة، وطوق النّجاة، وقارب الأمان، والمكفرة للسيئات، كما قال ﷺ لمن ارتكب حدًّا: «**هَلْ حَضَرْتَ الصَّلَاةَ مَعَنَا؟**» قَالَ: **نَعَمْ**، قَالَ ﷺ: «**قَدْ غُفِرَ لَكَ**» [مُتفق عليه]، وهي التي تغسل الخطايا، وتمسح الذّنوب، وتساقط المعاصي، كما وصفها رسولنا ﷺ في صورة رائعة جميلة آسرة حيث يقول ﷺ: «**أَرَأَيْتُمْ لو أنَّ نَهْرًا ببابِ أَحدِكُمْ يَغْتَسِلُ منه كُلَّ يومٍ خَمْسَ مَرّاتٍ، هلْ يَبْقى مِن دَرَنِهِ شيءٌ؟**، قالوا: **لا يَبْقى مِن دَرَنِهِ شيءٌ**، قالَ: **فَذلكَ مَثَلُ الصَّلَواتِ الخَمْسِ، يَمْحُو الله بهِنَّ الخَطايا**» [مُتفق عليه]، بهذا المثل الجميل الرائع المؤثّر المصور لنفع الصّلاة وفائدتها يُقدّم لنا ﷺ درسًا عظيمًا عن أثر الصّلاة في حياة المُسلم، أنّها كالنّهر العذب، الصّافي، الزّلال، الذي ينغمس فيه الإنسان كل يوم خمس مرات فيزيل أوساخه، ويُذهب أدرانه ليخرج طيّبًا، نظيفًا، طاهرًا من ذنوبه وخطاياه.

وبشّرنا ﷺ أنّ الصّلاة قُرة عين الموحّدين، وبهجة نفس العابدين، وكهف الأمان لكل خائف، وسفينة النّجاة لكل مُذنب، وهي الطّهارة والكفّارة والإنارة، قَالَ ﷺ: «**الصَّلَواتُ الخَمْسُ، والجُمْعَةُ إلى الجُمْعَةِ، وَرَمَضانُ إلى رَمَضانَ، مُكَفِّراتٌ ما بيْنَهُنَّ إذا اجْتَنَبَ الكَبائِرَ**» [رواه مسلم].

وأخبرنا ﷺ أنّ كثرة السّجود ترفع درجات العبد عند الله، فقال ﷺ: «**عَلَيْكَ بكَثْرَةِ السُّجُودِ لله، فإنَّكَ لا تَسْجُدُ لله سَجْدَةً، إلّا رَفَعَكَ الله بها دَرَجَةً، وحطَ عَنْكَ بها خَطِيئَةً**» [رواه مسلم]، وقال ﷺ: «**لَا يَتَوَضَّأُ رَجُلٌ مُسْلِمٌ فيُحْسِنُ الوُضُوءَ فيُصَلِّي صَلاةً إلّا غَفَرَ الله له ما بيْنَهُ وبيْنَ الصَّلاةِ الَّتي تَلِيها**» [مُتفق عليه].

لقد بشرنا الحبيب ﷺ أن الخطوات إلى المسجد ترفع الدّرجات وتحط الخطايا، فقال ﷺ: «**مَن تَطَهَّرَ في بَيْتِهِ، ثُمَّ مَشَى إلى بَيْتٍ مِن بُيُوتِ الله لِيَقْضِيَ فَرِيضَةً مِن فَرَائِضِ الله، كَانَتْ خَطْوَتَاهُ إحْدَاهُما تَحُطُّ خَطِيئَةً، وَالأُخْرَى تَرْفَعُ دَرَجَةً**» [رواه مسلم].

وبشّرنا ﷺ بعظيم أجر الصّلاة، وما فيها من طهارات وكفّارات فقال ﷺ: «**ما مِن امْرِئٍ مُسْلِمٍ تَحْضُرُهُ صَلاةٌ مَكْتُوبَةٌ فيُحْسِنُ وُضُوءَها وخُشُوعَها ورُكُوعَها، إلَّا كانَتْ كَفّارَةً لِما قَبْلَها مِنَ**

الذُّنُوبِ ما لَمْ يُؤْتِ كَبِيرَةً، وذلكَ الدَّهْرَ كُلَّهُ» [رواه مسلم]، وفيه بيان أنّ الطّهور والصّلاة من أعظم الكفّارات، وأجل العبادات، فمن حرص على الوضوء والصّلاة كفّر الله ذنوبه، وطهّر أردانه، ورفع درجته.

وبشّرنا ﷺ أنّ من ثمار الصّلاة وكثرة السّجود الفوز بمرافقته ﷺ في الجنّة، فعن ربيعة بن كعب الأسلمي (رضي الله عنه) قال: «**كُنْتُ أبِيتُ مع رَسولِ اللهِ ﷺ فأتَيْتُهُ بوَضُوئِهِ وحَاجَتِهِ** فَقالَ لِي: سَلْ فَقُلتُ: **أسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ في الجَنَّةِ.** قالَ: **أوْ غيرَ ذلكَ** قُلتُ: **هو ذَاكَ.** قالَ: **فأعِنِّي علَى نَفْسِكَ بكَثْرَةِ السُّجُودِ** » [رواه مسلم].

وبشّرنا ﷺ أنّ الضّيافة تُعدّ في الجنّة لكل مُصل يذهب إلى المسجد ويعود منه، فقال ﷺ: «**مَن غَدا إلى المَسْجِدِ وراحَ، أعَدَّ اللهُ له نُزُلَهُ مِنَ الجَنَّةِ كُلَّما غَدا أوْ راحَ**» [مُتفق عليه].

وبشّرنا ﷺ بأنّ من حافظ على صلاة الفجر حفظه الله، فقَالَ ﷺ: «**مَنْ صَلَّى صَلاةَ الصُّبحِ فَهُوَ فِي ذِمَّةِ الله**» [رواه مسلم].

فمن أراد أن يحفظه الله ويتولّاه فليُحافظ على الصّلاة، خاصة صلاة الفجر في وقتها، فأنّها من الحصون الحصينة، والحروز القويّة المتينة.

وبشّرنا ﷺ أنّ من حافظ على صلاة الفجر والعصر فاز بالجنة، فقَالَ ﷺ: «**مَن صَلّى البَرْدَيْنِ دَخَل الجَنَّةَ**» [مُتفق عليه]، و«**البردان**» هما الفجر والعصر، وإنّما أكّد عليهما ﷺ لأنّهما يأتيان في وقت كسل وخمول وراحة.

وبشرنا ﷺ أنّ الصّلاة تمحو الخطايا، وترفع الدرجات، فقال ﷺ: «**أَلا أدُلُّكُمْ علَى ما يَمْحُو اللهُ به الخَطايا، ويَرْفَعُ به الدَّرَجاتِ؟ قالُوا بَلَى يا رَسولَ الله،** قالَ: **إسْباغُ الوُضُوءِ علَى المَكارِهِ، وكَثْرَةُ الخُطا إلى المَساجِدِ، وانْتِظارُ الصَّلاةِ بَعْدَ الصَّلاةِ، فَذَلِكُمُ الرِّباطُ، فَذَلِكُمُ الرِّباطُ**» [رواه مسلم].

فالصّلاة هي الكنز الذي لا ينتهي، والحبل الذي لا ينقطع، والحصن الذي لا ينهدم، أنّها برّ الأمان، وساحل النّجاة، ولذّة الرّوح؛ ولهذا وقف ﷺ أمام عواصف الدُّنيا، ومكائد الأعداء، وتآمر الأحزاب، وتكالب الخصوم، بقوة يقينه، وعظيم إيمانه، وفزعه إلى الصّلاة في كل كربٍ وخطبٍ.

وأخبرنا ﷺ أنّ الصّلاة عهد وميثاق، والتزام ومبدأ، وعقد إيمانيّ بين العبد وبين ربّه، فقال: «**بيْنَ الرَّجُلِ وبيْنَ الشِّرْكِ والْكُفْرِ تَرْكُ الصَّلاةِ**» [رواه مسلم].

فالصّلاة شعار الدّين، وعلامة الإسلام، والحاجز بين الإيمان والكُفر، وهي الفارقة بين المُوحّدين والمُلحدين، وعلامة إيمان الإنسان ودليل إسلامه، وبُرهان تصديقه برسالة ربّه، فعن بُريدة (رضي الله عنه) عن النّبي ﷺ قال: «**العَهْدُ الَّذي بينَنا وبينَهُمُ الصَّلاةُ، فمَن ترَكَها فقد كفرَ**» [رواه الترمذي]. وفي هذا الحديث - كما قال بعض المُفسرين - أن العهد الذي بين الله وبين العبد هو الصلاة كما قال تعالى: {لاَ يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَانِ عَهْدًا} [مريم: الآية 87]، فمن حافظ على الصلاة بعد التوحيد، فقد أتى بالعهد والميثاق، وأحضر الدّليل والبرهان، على صحة الإيمان، ومن حافظ عليها كانت له نورًا، ونجاةً، وبُرهانًا يوم القيامة، كما قَالَ ﷺ: «**من حافظ على الصّلاةِ كانت له نورًا وبرهانًا ونجاةً يومَ القيامةِ، ومن لم يحافظْ عليها لم يكنْ له نورٌ ولا برهانٌ ولا نجاةٌ، وكان يومَ القيامةِ مع فرعونَ وهامانَ وقارونَ وأُبَيِّ بنِ خلَفٍ**» [رواه أحمد]. وعن معاذ بن جبل (رضي الله عنه) قال: بَعَثَنِي رَسولُ الله ﷺ فقالَ: «**إنَّكَ تَأْتي قَوْمًا مِن أهْلِ الكِتابِ، فادْعُهُمْ إلى شَهادَةِ أنَّ لا إلَهَ إلَّا اللهُ وأَنِّي رَسولُ الله، فإنْ هُمْ أطاعُوا لذلكَ، فأعْلِمْهُمْ أنَّ اللهَ افْتَرَضَ عليهم خَمْسَ صَلَواتٍ في كُلِّ يَومٍ ولَيْلَةٍ**» [رواه البخاري ومسلم].

فانظر كيف رتّب ﷺ الأعمال؟ وكيف تدرّج في التّعليم؟ وكيف بدأ بالأهم فالمُهم؟ وقد سنّ الصّلاة بعد الشهادتين لعظمهما في الإسلام، وأحيانًا تنفرد الشّهادتان في كثير من الأحاديث؛ لأن التّوحيد والصّلاة ملازمان للمسلم والمسلمة في كل وقت وآن، وكل مكان وزمان، كما قال تعالى: {الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ دَائِمُونَ} [المعارج: الآية 23].

وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قال رَسُول الله ﷺ: «**إنَّ أوّلَ ما يُحاسَبُ به العبدُ يومَ القيامةِ من عملِه صلاتُه، فإن صَلُحَتْ فقد أَفْلَحَ وأَنْجَح، وإن فَسَدَتْ فقد خاب وخَسِرَ، فإن انْتَقَص من فريضتهِ شيء، قال الرّبُّ عزّ وجلّ: انْظُروا! هل لعَبْدِي من تَطَوُّعٍ؟ فيُكَمّلُ بها ما انتَقَص من الفريضةِ، ثم يكونُ سائرُ عملِه على ذلك**» [رواه الترمذي]. وهذا الحديث يدلك على أن مَن نجح في الحفاظ على صلاته، فقد أفلح عند ربّه، ونجا من الهلاك، وسلم من العقوبة، ونال الحظوة عند مولاه، والجنّة عند خالقه، وسكن بصلاته دار السلام، وجاور بها الملك العلّام، فطوبى للمُصلّين، وهنيئًا لهم، جعلنا الله وإياكم ممّن داومَ عليها، وحفظها حتى يلقى ربّه.

وعلّمنا ﷺ أنّ الصلاة صلة بين العبد ومولاه، وهي أكبر عون على دفع المعضلات، وكشف الكُربات، ولهذا كان ﷺ لا يذهب حزنه ولا غمّه ولا كربه إلّا بالصّلاة، كما قال تعالى: {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ} [البقرة: الآية 45].

وكانت الصّلاة قُرّة عينه ﷺ، وراحة روحه، وبهجة خاطره، إليها يسكن بعد متاعب الحياة، وإذا حَزَبَهُ أمر أو حضره كرب قال: «**يا بِلالُ، أرِحْنا بالصَّلاةِ**» [رواه أحمد]. فيدخل ﷺ في صلاته فينسى الدّنيا بما فيها، وينقطع عن العالم بما فيه، وهو ساكن، خاشع، مُتبتّل، يُناجي ربّه، ويلتجئ إلى إلهه وبارئه، يدعوه ويرتجيه، مُخبت القلب، مُطمئن النّفس، ساكن الأعضاء، خاشع الرّوح، مُطرقًا، مُتدبّرًا، مُتأمّلًا، مُتفكّرًا، قد دخل في محراب العبودية، ورهن نفسه بين يدي خالقه، فقل لي بربّك: هل في العالم أحد أخشى منه لربّه، أو أعلم منه بمولاه؟!

«**يا بِلالُ، أرِحْنا بالصَّلاةِ**»، إنّ هذه العبارة للنّبي ﷺ استوقفتني مُتأمّلًا، وهزّتني مُتفكرًا، فقد كان يقولها ﷺ إذا اشتدّ به خطب، أو صعب عليه أمر.

وكان ﷺ يجلس أحيانًا مع أهله وأصحابه وأحبابه لكنه يتوق لوقت الصّلاة ويحن لموعدها فينادي: «**يا بِلالُ، أرِحْنا بالصَّلاةِ**»، وكأن الحياة كلّها تعب، حتى مَسرّاتها، ومُبهجاتها، وجمالياتها، لا راحة فيها، إلّا في الصلاة، وكأنّ الحياة عناءٌ ودموعٌ وبكاءٌ لكن جملة «**أرِحْنا بالصَّلاةِ**» تنهي المشقّة، وتقضي على التّعب، وتُنسي الأسى، وتبدد الهموم والغموم، يقول الشاعر:

وقل لِبلال العزم من قلبِ صادق | أرحنَا بها إن كنت حقًّا مُصليَا
توضّأْ بماء التّوبة اليوم مُخلصًا | به تَرْقَ أبواب الجنان الثّمانيَا

أي إنسان في هذه الحياة ليس في دفتر اهتماماته «**أرِحْنا بالصَّلاةِ**»، فلن يعيش سعيدًا، مهما جمع من المال والدّور، وملك من الحدائق والقصور، وأحرز من المناصب، وترقّى في المراتب، فإنّه سوف يبقى مُفلسًا من السّكينة، فقيرًا من الطمأنينة، صفرًا من السعادة، مُحطّمًا في إرادته، فاشلًا في حياته، مُنتكسًا في أفكاره؛ لأنّه لا يملك طاقةَ ووقودَ وكنزَ: «**أرِحْنا بالصَّلاةِ**».

ما أصعب الحياة! وما أشقها! وما أتعبها! إذا لم يكن فيها محطة «**أرِحْنا بالصَّلاةِ**». إنّ الحياة الدّنيا كصحراء جرداء، مليئة بالأحزان، والآهات، والغصص، إذا لم يكن فيها بستان «**أرِحْنا**

بالصَّلاةِ».

فهيّا بنا لنقتدي برسولنا وحبيبنا ﷺ في كل يوم خمس مرات فيقول كل منّا لقلبه: «**أرِحْنا بالصَّلاةِ**».

وحتى في سكرات موته ﷺ كان يتوق ويشتاق لموعد الصّلاة، يتلفّت ويسأل بحنان، ولهفة، وشوق للقاء مولاه، في صلاة خاشعة مُتبتّلة، تُسافر فيها روحه إلى الملأ الأعلى، وتصعد في ملكوت السّماوات والأرض، وتسبح في معارج القبول، وتطير في آفاق القداسة والطُهر، وتسجد في محراب ملك الملوك جبّار السّماوات والأرض، أرحم الرّاحمين وأكرم الأكرمين.

عن عَائِشَةَ (رضي الله عنها) قالت: «ثَقُلَ النبيُّ ﷺ فَقَالَ: **أَصَلَّى النَّاسُ؟** قُلْنَا: **لَا، هُمْ يَنْتَظِرُونَكَ**، قَالَ: **ضَعُوا لي مَاءً في المِخْضَبِ.** قَالَتْ: **فَفَعَلْنَا، فَاغْتَسَلَ، فَذَهَبَ لِيَنُوءَ فَأُغْمِيَ عليه، ثُمَّ أفَاقَ**، فَقَالَ ﷺ: **أَصَلَّى النَّاسُ؟** قُلْنَا: **لَا، هُمْ يَنْتَظِرُونَكَ يا رَسولَ الله**، قَالَ: **ضَعُوا لي مَاءً في المِخْضَبِ.** قَالَتْ: **فَقَعَدَ فَاغْتَسَلَ، ثُمَّ ذَهَبَ لِيَنُوءَ فَأُغْمِيَ عليه، ثُمَّ أفَاقَ**، فَقَالَ: **أَصَلَّى النَّاسُ؟** قُلْنَا: **لَا، هُمْ يَنْتَظِرُونَكَ يا رَسولَ الله**، فَقَالَ: **ضَعُوا لي مَاءً في المِخْضَبِ، فَقَعَدَ، فَاغْتَسَلَ، ثُمَّ ذَهَبَ لِيَنُوءَ فَأُغْمِيَ عليه**، ثُمَّ أفَاقَ فَقَالَ: **أَصَلَّى النَّاسُ؟** فَقُلْنَا: **لَا، هُمْ يَنْتَظِرُونَكَ يا رَسولَ الله، والنَّاسُ عُكُوفٌ في المَسْجِدِ، يَنْتَظِرُونَ النبيَّ عليه السَّلَامُ لِصَلَاةِ العِشَاءِ الآخِرَةِ، فأرْسَلَ النبيُّ ﷺ إلى أبِي بَكْرٍ بأَنْ يُصَلِّيَ بالنَّاسِ...** فَصَلَّى أبو بَكْرٍ تِلكَ الأيَّامَ، ثُمَّ إنَّ النبيَّ ﷺ وجَدَ مِن نَفْسِهِ خِفَّةً، فَخَرَجَ بيْنَ رَجُلَيْنِ -أحَدُهُما العَبَّاسُ- لِصَلَاةِ الظُّهْرِ وأَبُو بَكْرٍ يُصَلِّي بالنَّاسِ، فَلَمَّا رَآهُ أبو بَكْرٍ ذَهَبَ لِيَتَأَخَّرَ، فأوْمَأَ إلَيْهِ النبيُّ ﷺ بأَنْ لا يَتَأَخَّرَ، قَالَ: **أجْلِسَانِي إلى جَنْبِهِ، فأجْلَسَاهُ إلى جَنْبِ أبِي بَكْرٍ، قَالَ: فَجَعَلَ أبو بَكْرٍ يُصَلِّي وهو يَأْتَمُّ بصَلَاةِ النبيِّ ﷺ، والنَّاسُ بصَلَاةِ أبِي بَكْرٍ، والنبيُّ ﷺقَاعِدٌ**» [مُتفق عليه]. وفي رواية للبخاري: أن عَائِشَةَ (رضي الله عنها) إنّما حدثت بهذا الحديث لمّا تذاكروا عندها المُواظَبَةِ عَلَى الصَّلَاةِ وَالتَّعْظِيمَ لَهَا، أرادت أن تُبيّن قدر الصّلاة عند النّبي ﷺ حتى في شدّة مرضه.

وكانت الصّلاة آخر وصاياه ﷺ وهو يرتحل من الدّنيا، فعن أنس بن مالك (رضي الله عنه) قال: «كانت عامَّةُ وَصيَّةِ رسولِ الله ﷺ حين حضَرةَ الموتُ: «**الصلاةَ وما ملَكَتْ أيمانُكم، الصلاةَ وما ملَكَتْ أيمانُكم، حتى جعَلَ رسولُ الله ﷺ يُغَرغِرُ بها صَدرُه، وما يَكادُ يَفيضُ بها لِسانُه**» [رواه أحمد]. فهل بعد هذا الاهتمام من اهتمام؟! وهل بعد هذه النّصيحة من نصيحة؟!

مسكين الذي لا يُصلّي، لقد انقطعت روحه عن مصدر القوة والمدد، والعون والسّداد، وانفصل عن منبع العزّة والغنى، والشّرف والإسعاد، وانفصمت حباله فأصبح في مهوى الفقر الرّوحي، والضعف النّفسي، وصار يعيش الإفلاس، والإحباط، والانهيار الداخلي، وضيق الصّدر، تائهًا في عالم الضّياع ودنيا النّسيان والإهمال؛ لأنّه لم يذق حلاوة مناجاة الباري، ولم تطف روحه حول العرش، ولم تسبح نفسه في ملكوت السماوات والأرض.

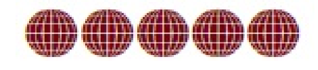
إنّ الصّلاة أعظم طاقة إيجابية في الدّنيا؛ لأنّها نهر الرّضا والإلهام، وروضة اليقين والفأل، وجامعة الإنجاز والامتياز، وليُبشّر من يُحافظ عليها بأنّ الله لن يُضيّعه، ولن يُخزيه أبدًا، فهو بعناية الله محفوظ، وبعين رعايته مُحاط، وفي دار ولايته ساكن، {رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ} [إبراهيم: الآية 40].

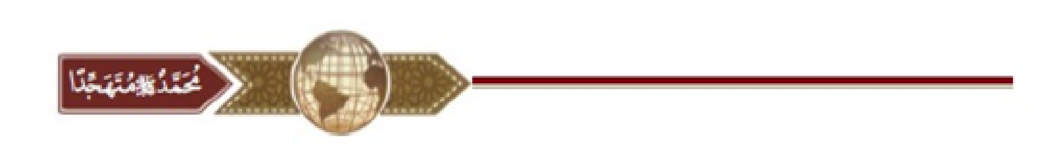
عليك صلاة ربّك كل حين
وتسليم من الرّب الأجلّ

تقول إذا دهاك الكرب يومًا
«أرحنا بالصلاة» فقُم نُصلِّ

فتدخل في رياض الأنس حُبًّا
وتسعد بالتّحلّي والتّجلي

تُناجي الواحد الديّان شوقًا
فترقى الرّوح في أعلى مَحلِّ





مُحَمَّدٌ ﷺ مُتَهَجِّدًا

رسولنا ﷺ مُنذ فجر دعوته، وإشراق رسالته حريصٌ على قيام اللّيل حضرًا وسفرًا، ممتثلًا أمر ربّه سبحانه وتعالى: {يَاأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً} [المزمل: الآية 1- 2]، فيقف بين يدي الله، باكيًا، مُتبتلًا، ساكنًا، خاشعًا، وقد سافرت نفسه إلى العالم العلوي، وعبرت روحه السّبع الشّداد نحو خالقه، يُصلّي ويُناجي ربّه، ويدعو مولاه.

يقرأ أحيانًا في الرّكعة الواحدة سورة البقرة، والنّساء، وآل عمران، (حسب ترتيب مصحف عبدالله بن مسعود راوي الحديث)، ويركع نحوًا من ذلك، ويرفع قريبًا من ذلك، ويسجد قريبًا من ذلك؛ لأنّ ربّه جلّ في علاه يقول له: {وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا} [الإسراء: الآية 79]، أي تهجّد بكتاب الله، واتله آناء اللّيل، عسى أن يثيبك الله على هذا القيام في الدّنيا، قيامًا محمودًا يوم العرض الأكبر، وهو قيام الشّفاعة الكبرى، القيام الذي يحمدك فيه الأولون والآخرون، ويغبطك فيه النّاس أجمعون، مقام الشّرف والمجد والسؤدد؛ لأن الجزاء من جنس العمل.

فكان ﷺ يقوم اللّيل الطّويل في خشوع وانقطاع إلى مولاه، وتبتّل إلى خالقه، وسجود كلّه نجوى وشكوى للعزيز الغفّار، وعبودية وانكسار للواحد القهّار، وانطراح على عتبات العبوديّة، مُستميحًا المواهب الربّانية، سائلًا العطايا الإلهية، مُعبّرًا عن مشاعره ﷺ، وما تكتنزه نفسه الشّريفة الطّاهرة من حُب لمولاه، ومن شوق لمناجاة خالقه جلّ في عُلاه، كما يقول عبدالله بن رواحة (رضي الله عنه):

وَفِينَا رَسُولُ الله يَتْلُو كِتَابَهُ ... إِذَا انْشَقَّ مَعْرُوفٌ مِنَ الفَجْرِ سَاطِعُ

أَرَانَا الْهُدَى بَعْدَ العَمَى فَقُلُوبُنَا   بِهِ مُوقِنَاتٌ أَنَّ مَا قَالَ وَاقِعُ

يَبِيتُ يُجَافِي جَنْبَهُ عَنْ فِرَاشِهِ   إِذَا اسْتَثْقَلَتْ بِالْمُشْرِكِينَ المَضَاجِعُ

كان قيام اللّيل قُرّةَ عينه ﷺ، وبهجة نفسه، وسلوةَ روحه، وعزاءَه بعد يوم طويل ملؤه البذل والعطاء والتّضحية؛ ولهذا كان له ﷺ قوْمتانِ: الأولى: قومة للتزوّد من الطّاعة، وطلب المدد للدّعوة، وهي قيام اللّيل، كما قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً} [المزمل: الآية 1- 2].

والثانية: قومة للدّعوة وتبليغ الرّسالة بعد أخذ العدّة والمدد والقوة من قيام اللّيل، كما قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ} [المدثر: الآية 1- 2].

فقيامه في اللّيل للعبادة والخلوة بربّه، وقيامه في النّهار لنشر رسالة الله وتبليغ دينه، فصلّى الله وسلم عليه ما أطيب ليله ونهاره!.

واستحضرْ بقلبك هذه الصّورة الفريدة الجميلة التي ترويها لنا أمّ المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) لمّا فقدت النّبي ﷺ من فراشه، فقامت تلتمسه فوجدته مُنطرحًا ساجدًا ناصبًا قدميه يدعو الله في سجوده، ويقول: «**اللهمَّ أعوذُ برِضاكَ مِنْ سَخَطِكَ ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ ، وَأُعوذُ بِكَ مِنْكَ لَا أُحْصَي ثَنَاءً علَيْكَ ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ**» [رواه مسلم]، يتهجّد ﷺ وهو في غاية الاستغراق، والانقطاع، إلى ربّه جلّ في عُلاه.

وتصف (رضي الله عنها) قيامه ﷺ فتقول: «**يُصَلِّي أربعًا، فلا تسْأَلْ عن حُسْنِهِنَّ وطُولِهِنَّ، ثمَّ يصَلِّي أربعًا، فلا تسْأَلْ عن حُسْنِهِنَّ وطُولِهِنَّ، ثمَّ يصَلِّي ثلاثًا**» [مُتفق عليه]. وسُئلت (رضي الله عنها) : «**كيف كانت قراءة النّبي ﷺ باللّيل؟ أكانَ يُسِرُّ بالقراءةِ أم يَجهَرُ؟**، قالتْ: **كلَّ ذلكَ كان يَفعَلُ، رُبَّما أسَرَّ، ورُبَّما جهَرَ**» [رواه الخمسة]، وقالت (رضي الله عنها) : «**كانَ ﷺ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ حتّى تَتَفَطَّرَ قَدَماهُ**» [مُتفق عليه].

وعند الطبراني في «الأوسط» قال رسولُ الله ﷺ: «**واعلَم أنَّ شرَفَ المؤمنِ قيامُ اللَّيلِ، وعزَّهُ استغناؤُهُ عنِ النّاسِ**»، فإنّ هذا القيام مدد روحي، وطاقة نفسيّة قوية يُعين الله بها العبد على أمور النّهار.

وكان يتزوّد ﷺ بقيام اللّيل لمواجهة متاعب الحياة كما فعل في ليلة بدر، يقول عليٌّ بن أبي طالب (رضي الله عنه): «**ما كان فِينَا فَارِسٌ يوم بَدْرٍ غَيْرُ المِقْدَادِ، وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا وما فِينَا إلّا نَائِمٌ، إلّا رَسُولَ الله ﷺ تَحْتَ شَجَرَةٍ يصلي ويبكي حتى أَصْبَحَ**» [رواه أحمد].

لقد كان قيام اللّيل زاده ﷺ في حلِّه وترحاله، وكان جلسةً رُوحيّة ربّانية يملأ بها نفسه سرورًا وعبوديّة وإخباتًا لربّه، حيث يُناجي وقتها مولاه ويدعوه ويتبتّل إليه ويثني عليه ويُسبّحه ويحمده ويُكبّره ويستغفره مُمتثلًا أمره سبحانه: {وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً} [الإنسان: الآية 26]، بعيدًا عن أعين النّاس، وتشويش العامة، وصخب البشر، وضوضاء النّهار.

فإذا سكن الليل، وأقبل بظلامه، وغطّى العالم بعباءته، توجّه ﷺ إلى مصلاه، متوضئًا، طاهرًا، ليُسْلِم روحه إلى مولاه، فتعرج في درجات العبوديّة، فيجد عليه الصلاة والسلام من السّكينة والأمن النّفسي، وانشراح الصّدر، وهدوء البال، وسعادة الرّوح، ما يفوق الوصف وما لا يصل إليه الخيال.

حتى إنّ النّشاط والقوة التي يجدها ﷺ في نهاره كانت بسبب قيام اللّيل، فللّه كم من ليلة أظلمت عليه ﷺ شق ظلامها بدعواته الصّاعدة نحو عرش الرحمن!

ولله كم من ليلة غطّت الكون بعباءتها السّوداء أنار دياجيها بتلاواته ودعواته وتبتّلاته إلى ربّه تقدّست أسماؤه!.

إذا ما تسلّى العاشقون بلهوهم	بوصلِ فلانٍ أو بهجر فلانِ
جعلت حديثي في الدّجى ذكر خالقي	فيهتزّ في دُنيا السّجود كياني
تُسافر روحي في الوجود طليقةً	يطوف بجنّات الخلود جناني
فأنسى همومي في الحياة وأرتقي	ويلهج في مدح المليك لساني

وكان ﷺ يبدأ تهجُّده بركعتين خفيفتين كما قالت عَائِشَةُ (رضي الله عنها) : «**كان رسول الله ﷺ إذا قام من اللّيْلِ لِيُصَلِّيَ افْتَتَحَ صَلاتَهُ بِرَكْعَتَيْنِ خَفِيفَتَيْنِ**» [رواه مسلم].

وتأمّل قول حذيفة (رضي الله عنه) حين يصف تهجّد النّبي ﷺ فيقول: «**صَلَّيْتُ مع النّبيِّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَافْتَتَحَ البَقَرَةَ، فَقُلتُ: يَرْكَعُ عِنْدَ المِئَةِ، ثُمَّ مَضَى، فَقُلتُ: يُصَلِّي بهَا في رَكْعَةٍ، فَمَضَى،** فَقُلتُ: **يَرْكَعُ بهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ النِّسَاءَ، فَقَرَأَهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ آلَ عِمْرَانَ، فَقَرَأَهَا، يَقْرَأُ مُتَرَسِّلًا، إذَا مَرَّ بآيَةٍ فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحَ، وإذَا مَرَّ بسُؤَالٍ سَأَلَ، وإذَا مَرَّ بتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ، ثُمَّ رَكَعَ، فَجَعَلَ يقولُ: سُبْحَانَ رَبِّيَ العَظِيمِ، فَكانَ رُكُوعُهُ نَحْوًا مِن قِيَامِهِ،** ثُمَّ قالَ: **سَمِعَ اللَّهُ لِمَن حَمِدَهُ، رَبَّنَا ولَكَ الحَمْدُ،** ثُمَّ قَامَ طَوِيلًا قَرِيبًا ممَّا رَكَعَ، ثُمَّ سَجَدَ، فَقالَ: **سُبْحَانَ رَبِّيَ الأعْلَى، فَكانَ سُجُودُهُ قَرِيبًا مِن قِيَامِهِ**» [رواه مسلم].

هذه ركعة واحدة فقط من صلاته في اللّيل عليه الصّلاة والسّلام، فسُبحان من أعانه على قيام اللّيل الطويل! مع أعباء الرّسالة، ومُقابلة النّاس، والمنافحة عن الدّين، ومناظرة الخصوم، والقيام بشؤون البيت والأمة، والعناية بأبواب البرّ والإحسان والإصلاح التي بلغ فيها أرقى المقامات، وأجلّ الدّرجات بأبي هو وأمي ﷺ.

وعن عائشة (رضي الله عنها) قالت: «**كانَ النّبي ﷺ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ تِسْعَ رَكَعَاتٍ فِيهِنَّ الوِتْرُ، وَكانَ يُصَلِّي لَيْلًا طَوِيلًا قَائِمًا، وَلَيْلًا طَوِيلًا قَاعِدًا، وَكانَ إذَا قَرَأَ وَهو قَائِمٌ رَكَعَ وَسَجَدَ وَهو قَائِمٌ، وإذَا قَرَأَ قَاعِدًا رَكَعَ وَسَجَدَ وَهو قَاعِدٌ، وَكانَ إذَا طَلَعَ الفَجْرُ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ**» [رواه مسلم].

فانظر كيف نوّع ﷺ في العبادة؛ ليكون أدعى للنّشاط ولطرد الملل، وكان إذا تهجّد من اللّيل حمد الله حمدًا كثيرًا، وأثنى عليه بأنواع الثّناء، ومجّده بأسمى ألفاظ التّمجيد، فكان يقول: «**اللَّهُمَّ لكَ الحَمْدُ أنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ والأرْضِ، ولَكَ الحَمْدُ أنْتَ قَيِّمُ السَّمَوَاتِ والأرْضِ، ولَكَ الحَمْدُ أنْتَ رَبُّ السَّمَوَاتِ والأرْضِ ومَن فِيهِنَّ، أنْتَ الحَقُّ، ووَعْدُكَ الحَقُّ، وقَوْلُكَ الحَقُّ، ولِقَاؤُكَ الحَقُّ، والجَنَّةُ حَقٌّ، والنَّارُ حَقٌّ، والنَّبِيُّونَ حَقٌّ، والسَّاعَةُ حَقٌّ، اللَّهُمَّ لكَ أسْلَمْتُ، وبِكَ آمَنْتُ، وعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وإلَيْكَ أنَبْتُ، وبِكَ خَاصَمْتُ، وإلَيْكَ حَاكَمْتُ، فَاغْفِرْ لي ما قَدَّمْتُ وما أخَّرْتُ، وما أسْرَرْتُ وما أعْلَنْتُ، أنْتَ إلَهِي لا إلَهَ إلَّا أنْتَ**» [مُتفق عليه].

هذا وهو الذي غفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر ﷺ، وهو إمام الأبرار، وصفوة الأخيار، والنّبي المختار - عليه الصّلاة والسّلام - ما تعاقب اللّيل والنّهار.

وكان عليه الصّلاة والسّلام يحث أصحابه على قيام اللّيل ويُبيّن لهم فضائله، ويقول: «**أَفْضَلُ الصَّلاةِ بَعْدَ الصَّلاةِ المَكْتُوبَةِ؛ الصَّلاةُ في جَوْفِ اللَّيْلِ**» [رواه مسلم]؛ لأنّها تأتي بعد الخلود للراحة،

وبعد الاستسلام للنّوم، فلا ينبعث في تلك السّاعة إلّا مؤمن صادق الإيمان، كما قال رب العالمين، عن أوليائه المُتّقين، وأوّلهم وإمامهم وسيّدهم إلى يوم الدين، مُحمد ﷺ: {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا} [السجدة: الآية 16].

وبشّر ﷺ المتهجدين باللّيل فقال: «**مَن تَعارَّ مِنَ اللَّيْلِ** (أي: استيقظ)، فَقالَ: **لا إلَهَ إلَّا اللهُ وحْدَهُ لا شَرِيكَ له، له المُلْكُ وله الحَمْدُ، وهو على كُلِّ شيءٍ قَدِيرٌ، الحَمْدُ للهِ، وسُبْحانَ اللهِ، ولا إلَهَ إلَّا اللهُ، واللهُ أكْبَرُ، ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلَّا باللهِ، ثُمَّ قالَ: اللهُمَّ اغْفِرْ لِي، أوْ دَعا؛ اسْتُجِيبَ له، فإنْ تَوَضَّأَ وصَلَّى قُبِلَتْ صَلَاتُهُ**» [رواه البخاري].

وكان ﷺ يكثر من الاستغفار في تهجّده، كما قال تعالى: {كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالأَسْحَارِ * هُمْ * يَسْتَغْفِرُونَ *} [الذاريات: الآية 17 - 18]، فهو إمام المستغفرين، وقدوة العابدين، وأسوة المتهجدين. وفي «الصّحيحين» أنّه ﷺ طَرَق عليَّ بن أبي طالب وفاطمة ليلًا فقال: «**أَلا تُصَلِّيانِ؟**».

فانظر إلى حرصه ﷺ على ابنته وصهره (رضي الله عنهما) ليقوما ويتهجدا ويُصليا صلاة اللّيل لما فيها من عظيم البركة والأجر والمثوبة.

وأوصى ﷺ الرّجل والمرأة أن يعين كل منهما صاحبه على قيام اللّيل، وهو من التّعاون على البرّ والتقوى، فقال ﷺ: «**رحِمَ اللهُ رجُلًا قام مِن الليلِ فصلَّى، وأيقَظَ امرأتَه فصلَّتْ، فإنْ أبَتْ نضَحَ في وَجهِها الماءَ، رحِمَ اللهُ امرأةً قامتْ مِن الليلِ فصلَّتْ، وأيقَظتْ زَوجَها، فإنْ أبَى نضَحتْ في وَجهِه الماءَ**» [رواه أبو داود]، ورش الرّجل وجه زوجته لتستيقظ لقيام اللّيل هو من باب التّعاون على البرّ والتّقوى، وهذا النّضح يكون بلُطف، وليس بعنف.

وكان ﷺ يحث على قيام اللّيل بصورة بليغة فيقول: «**يَعْقِدُ الشَّيْطَانُ علَى قَافِيَةِ رَأْسِ أَحَدِكُمْ إذَا هو نَامَ ثَلَاثَ عُقَدٍ يَضْرِبُ كُلَّ عُقْدَةٍ: عَلَيْكَ لَيْلٌ طَوِيلٌ، فَارْقُدْ. فَإِنِ اسْتَيْقَظَ فَذَكَرَ اللهَ، انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فإنْ تَوَضَّأَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فإنْ صَلَّى انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فأصْبَحَ نَشِيطًا طَيِّبَ النَّفْسِ وإلَّا أَصْبَحَ خَبِيثَ النَّفْسِ كَسْلَانَ**» [مُتفق عليه].

فهل بعد هذه الصّورة المُشرقة المُعبّرة المُؤثرة من توضيح أو شرح لفضل قيام اللّيل؟! إنّ المُسلم وهو في أكثر حالاته كسلًا إذا قرأ هذا الحديث وكرّره، يجد في نفسه من الهمّة والنّشاط ما

يدعوه إلى أن يقوم الليل.

وكان ﷺ يحذّر من التّهاون في قيام اللّيل أو تركه، ومن ذلك قوله ﷺ لعبدالله ابن عمرو بن العاص (رضي الله عنهما): «**يا عَبْدَالله، لا تَكُنْ مِثْل فُلانٍ كانَ يَقُومُ اللَّيْلَ فَتَرَكَ قِيامَ اللَّيْلِ**» [مُتفق عليه]؛ لأن عبدالله بن عمرو بن العاص من العلماء، فنبّهه ﷺ إلى فضل قيام الليل.

وجعل ﷺ قيام اللّيل من أفضل الخصال النّبيلة التي يُمدح بها الإنسان فقال: «**نِعْمَ الرَّجلُ عبدُ الله لَو كانَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ!**» [مُتفق عليه].

وأخبر ﷺ بفضل قيام اللّيل ولو بالقليل فقال: «**إذا أيقظَ الرَّجلُ أَهلَهُ منَ اللَّيلِ فصلَّيا أو صلّى رَكعتينِ جميعًا كُتبا في الذّاكرينَ والذّاكراتِ**» [رواه أبو داود].

وحث ﷺ على توخي ساعة الاستجابة في صلاة اللّيل والحرص عليها، فقال: «**إنّ في اللّيلة لساعةً لا يُوافقها رجلٌ مسلمٌ، يسأل اللهَ خيرًا من أمر الدّنيا والآخرة، إلّا أعطاه اللهُ إياه، وذلك كلَّ ليلة**» [رواه مسلم].

وفي حديث صحيح رواه التّرمذي والنسائي قال ﷺ: «**أقربُ ما يكونُ الربُّ من العبدِ في جوفِ اللّيلِ الآخرِ، فإنِ استطعتَ أن تكونَ ممَّن يذكرُ اللهَ في تلكَ الساعةِ فكنْ**». وقد أخبر ﷺ بوقت النزول الإلهي في الثلث الأخير فقال: «**يَنْزِلُ الله إلى السَّماءِ الدُّنْيا كُلَّ لَيْلَةٍ حِينَ يَمْضِي ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخر، فيَقولُ: أنا المَلِكُ، أنا المَلِكُ، مَن ذا الذي يَدْعُونِي فأسْتَجِيبَ له!؟ مَن ذا الذي يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ!؟ مَن ذا الذي يَسْتَغْفِرنِي فأغْفِرَ له!؟ فلا يَزالُ كَذلكَ حتّى يُضِيءَ الفَجْرُ**» [مُتفق عليه].

وقال ﷺ: «**أَفْشُوا السَّلامَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصِلُوا الْأَرْحَامَ، وَصَلُّوا وَالنَّاسُ نِيَامٌ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ**» [رواه أحمد]، فهذا فيه مع بذل السّلام للعالم، وإطعام الطعام، العبادة الخاصّة بالمسلم في ليله؛ لأنّ هذه الخلوة الرّبانية هي أصدق ما يكون في العبودية، حيث لا يراه إلّا الله.

فكان رسولنا ﷺ يجد راحته وأنسه في قيام اللّيل، والشّوق لمناجاة ربه، وتعفير الوجه الشّريف لمرضاة خالقه وإلهه، والتّذلل والتّلذّذ بالإخبات لملك الملوك، لا إله إلا هو.

ومن تلاميذ مدرسة النبوّة، وأعلام جامعة الرّسالة المُحمّدية، الإمام عبدالله بن المُبارك حيث يقول عن قيام اللّيل:

إِذَا مَا الَّليلُ أظلَمَ كَابَدُوه	فيسفرُ عنهمُ وهمُ ركوعُ
أطَارَ الخَوفُ نومَهُمُ فَقَامُوا	وَأهلُ الأمنِ فِي الدّنَيا هُجُوعُ
لهُم تحتَ الظَّلامِ وَهُمْ سُجُودٌ	أنِينٌ مِنهُ تَنفرِجُ الضُّلُوعُ
وَخُرسٌ بالنَّهارِ لِطُولِ صمتٍ	عليهِم منْ سكينتهمْ خشوعُ

وقد أثنى الله سبحانه تعالى على القانت في تهجّده، فقال عزّ وجل: {أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ} [الزمر: الآية 9].

فانظر كيف قرن تعالى قيام اللّيل بالعلم؛ لأنّ العلم النّافع هو الذي يحملك على التهجّد والعبودية لله ربّ العالمين تقدّس اسمه.

ومن فضائل التّهجد والأجور المُترتبة على هذا العمل الجليل التي بيّنها لنا رسولنا ﷺ قوله: «**عَلَيْكُمْ بِقِيَامِ اللَّيْلِ، فَإِنَّهُ دَأْبُ الصَّالِحِينَ قَبْلَكُمْ، وَهُوَ قُرْبَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ، وَمَكْفَرَةٌ لِلسَّيِّئَاتِ، وَمَنْهَاةٌ لِلإِثْمِ**» [رواه الترمذي].

وكان ﷺ يطيل القيام بالقراءة، ويطيل الرّكوع بالتّسبيح، ويطيل الرّفع بالحمد والثّناء، ويطيل السّجود بالتّسبيح والدّعاء، فلله تلك الحياة! حياة العبوديّة والإنابة والخشوع والخضوع للواحد القهّار.

لقد حثنا ﷺ أن نكون حال قيام اللّيل في يقظة وانتباه لا في حالة نعاس أو فتور فقال ﷺ: «**إذا نَعَسَ أحَدُكُمْ في الصَّلاةِ فَلْيَرْقُدْ حتَّى يَذْهَبَ عنْه النَّوْمُ، فإنَّ أحَدَكُمْ إذا صَلَّى وهو ناعِسٌ لَعَلَّهُ يَذْهَبُ يَسْتَغْفِرُ، فَيَسُبُّ نَفْسَهُ**» [مُتفق عليه].

وبيّن ﷺ أنّ من غلبه النّوم والتّعب فلم يَعد يفهم ما يقرأ من القرآن فعليه الاسترخاء والنّوم حتى ينشط: «**إذا قَامَ أَحدُكُمْ مِنَ اللَّيْلِ فَاستعجمَ القُرآنُ عَلَى لِسَانِه، فَلَم يَدْرِ مَا يقُولُ، فَلْيضْطَجِعْ**» [رواه مسلم].

إنّ أجمل هيئة للمُسلم هي هيئة السّجود لله ربّ العالمين، فكيف إذا كان السّجود في صلاة اللّيل خاليًا بربّه؛ لا يشاهده بشر، ولا يراه أحد، إلّا الواحد الأحد، وروحه تسبح في عالم الملكوت وهو ساجد، وتطوف حول العرش بالدّعاء والإخبات والتّضرع والسّؤال والاستغفار والإلحاح والاعتراف بالذّنب. فإذا أردت أن تقترب من الإله المعبود فبادر بالسّجود، كما قال تعالى: {وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ}، وإذا أردت أن تعلو فانخفض ساجدًا، وإذا أردت أن ترتفع فاهبط ومرّغ أنفك بالتّراب خضوعًا للملك الوهّاب، تُفتّح لك الأبواب، وتَنال موفور الثّواب، وتنجو من العذاب.

قُلت عن تهجّده ﷺ:

وقوفكَ فِي المحراب تبكي وتخشعُ

وعيناكَ من فرطِ المحبّة تدمعُ

تُثير شُجون النّفس تعصف بالحشَا

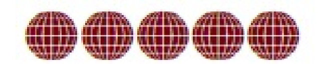
وتَطرقُ أسماع الوجود وتقرعُ

سجودكَ يا خير البريّة قصةٌ

من الصّدق والتّسليم تُروى وتُسْمَعُ

فرُوحكَ في جوّ الصّلاة طليقةٌ

تُسافر والدّمع السّخي يُشيّعُ





مُحَمَّدٌ ﷺ مُتَصَدِّقًا

أوّل المُتصدقين، وإمام الباذلين، وسيّد المُنفقين، هو رسول ربّ العالمين، محمد بن عبدالله ﷺ، وهو أوّل من امتثل لأمر خالقه حين قال تعالى: {لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ} [البقرة: الآية 177].

وشجّع ﷺ النّفوس على البذل والعطاء، فقال: «**الصَّدَقةُ تُطفئ الخطيئةَ كما يُطفئُ الماءُ النّارَ**» [رواه الترمذي]، وجَاءَ إليه رَجُلٌ فَقالَ: «**يا رَسولَ الله، أَيُّ الصَّدَقَةِ أَعْظَمُ أَجْرًا؟**، قالَ: **أَنْ تَصَدَّقَ وأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ تَخْشَى الفَقْرَ، وتَأْمُلُ الغِنَى، ولَا تُمْهِلُ حتَّى إذَا بَلَغَتِ الحُلْقُومَ، قُلْتَ: لِفُلَانٍ كَذَا، ولِفُلَانٍ كَذَا وقدْ كانَ لِفُلَانٍ**» [مُتفق عليه].

ودعا ﷺ إلى الصّدقة وحثّ عليها، وأخبر أنّها من أعظم العبادات، وأجلّ القربات، ونبّه على عظم أجرها في خطبه، ومواعظه، ودروسه، حتى النّساء دعاهنّ ﷺ إلى الصّدقة، وأخبر بأنّها كفّارة، فقال: «يا مَعْشَرَ النِّساءِ، تَصَدَّقْنَ» [مُتفق عليه].

بل إنّه ﷺ جعل أنواع المعروف مهما قلّت من الصدقة، فقال: «**تبسُّمُكَ في وجْهِ أخيكَ لَكَ صدقةٌ، وأمرُكَ بالمعروفِ ونَهيُكَ عنِ المنْكرِ صدقةٌ، وإرشادُكَ الرَّجلَ في أرضِ الضَّلالِ لَكَ صدقةٌ، وبصرُكَ للرَّجلِ الرَّديءِ البصرِ لَكَ صدقةٌ، وإماطتُكَ الحجرَ والشَّوْكَ والعظمَ عنِ الطَّريقِ لَكَ صدقةٌ، وإفراغُكَ من دلوِكَ في دلوِ أخيكَ لَكَ صدقةٌ**» [رواه الترمذي].

لقد جعل ﷺ كل حياة المؤمن صدقة، وكل تصرّف طيّب وعمل مبرور صدقة مُتقبّلة عند الله عزّ وجل، فالإصلاح بين الناس لك صدقة؛ لأنّك أطفأت نار الخصام، فجزاؤك ثواب الملك العلّام، ومساعدتك لرجل يركب دابته أو سيارته صدقة؛ لأنّك عاونته وساعدته ووقفت معه ليؤدي مهام يومه، وتلفّظك بالعبارة الجميلة لك صدقة، وكأنَّ حروفَ حديثك الحسن ذهبٌ تنثره على الفقراء، فأجر الكلام كأجر المال عند ذي الجلال، وخطواتك إلى بيت الله صدقات مُتقبّلة عند ملك الملوك، وكأنّ كلَّ خطوة دينارٌ تُنفقه على مسكين، وإزالتك الأذى عن الطّريق، وإزاحة كل ما يؤذي النّاس لك صدقة، وقس على ذلك كل ما تقوم به من نفقات على أهلك، وصلة لأقاربك، ورحمة بالفقراء، ولُطفٍ بالمساكين، وبشاشة للوافد، وبسمة راضية للزائر، لأنّك لله، ومن الله، وإلى الله، فتصدّق بروحك، وفكرك، وقلمك، وعلمك، ومالك، ووقتك، ليقبلك الله في عباده الصّالحين، عن أبي هريرة (رضي الله عنه) أنّ رسول الله ﷺ قال: «**كلُّ سُلامَى من النّاسِ عليه صدقةٌ، كلَّ يومٍ تطلُعُ فيه الشمسُ؛ يعدلُ بينَ الاثنينِ صدقةٌ، ويعينُ الرّجلَ على دابتِه فيحملُ عليها، أو يرفعُ عليها متاعَه صدقةٌ، والكلمةُ الطيبةُ صدقةٌ، وكلُّ خطوةٍ يخطُوها إلى الصلاةِ صدقةٌ، ويميطُ الأذَى عن الطريقِ صدقةٌ**» [مُتفق عليه].

فانظر إلى هذا التّوجيه النّبوي الكريم، وكيف جعل ﷺ النّفقة على الأهل من أعظم الصّدقات، وأبرّ القُربات، لتدرك عظمة هذا النّبي الكريم في توجيهه للأمة، وفي ترتيب الأولويات في حياة المسلم. قال ﷺ: «**دِينارٌ أنْفَقْتَهُ في سَبيلِ الله، ودِينارٌ أنْفَقْتَهُ في رَقَبَةٍ، ودِينارٌ تَصَدَّقْتَ به علَى مِسْكِينٍ، ودِينارٌ أنْفَقْتَهُ علَى أهْلِكَ، أعْظَمُها أجْرًا الذي أنْفَقْتَهُ علَى أهْلِكَ**» [رواه مسلم]. فكان عليه الصّلاة والسّلام يبدأ أهله ببره، وصدقته.

ويقول سعد بن أبي وقاص(رضي الله عنه): «**جَاءَنَا رَسولُ الله يَعُودُنِي مِن وجَعٍ اشْتَدَّ بي، زَمَنَ حَجَّةِ الوَدَاعِ،** فَقُلتُ: **بَلَغَ بي ما تَرَى، وأَنَا ذُو مَالٍ، ولَا يَرِثُنِي إلَّا ابْنَةٌ لِي، أفَأَتَصَدَّقُ بثُلُثَيْ مَالِي؟** قَالَ: **لا**، قُلتُ: **بالشَّطْرِ؟** قَالَ: **لا**، قُلتُ: **الثُّلُثُ؟** قَالَ: **الثُّلُثُ كَثِيرٌ، أنْ تَدَعَ ورَثَتَكَ أغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِن أنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ، ولَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بهَا وجْهَ الله إلَّا أُجِرْتَ عَلَيْهَا، حتَّى ما تَجْعَلُ في فِي امْرَأَتِكَ**» [مُتفق عليه].

فانظر إلى حكمته ومنهجه الشّرعي المعتدل، فلم يأمر ﷺ سعدًا (رضي الله عنه) بإنفاق ماله كلّه، بل أوصاه بالاعتدال والوسطيّة، ولم ينس ﷺ الورثة، بل نبّه سعدًا على أمر هام وخطير وهو

ألّا يصل الحال بورثته إلى سؤال الناس بعد أن يُذهب مالهم في الصّدقة، فإنّ من أعظم الصّدقات النّفقة على الأهل والأقارب، فأعطاه ﷺ مجالًا للبرّ والصّدقة، وأمره أن يبقي عليه أكثر ماله لورثته.

ولقد بشّرنا ﷺ، بفضائل كثيرة، ومنافع عديدة للصّدقة، ومنها أنّها تُضاعف لصاحبها أضعافًا كثيرةً كما بلغنا ﷺ عن ربّ العالمين صورة الصّدقة التي تطبع في الذاكرة مشهد الخضرة والنّماء والسّنابل وهي تتمايل مكتنزة بالحبوب، قال تعالى: {مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [البقرة: الآية 261].

فانظر إلى هذا المثل الجميل الرائع: أرض صمّاء، بكماء، جامدة، تلقي فيها حبة، فتنبت الحبّة سبع سنابل، في كل سنبلة مئة حبة، فكيف بمن يتعامل مع أكرم الأكرمين، وأرحم الراحمين، وأجود الأجودين؟! كيف يُضاعف صدقتك إلى أن تبلغ سبع مئة ضعف إلى أضعاف كثيرة جودًا وكرمًا منه سبحانه وتعالى؟! وانظر إلى سُنبلة القمح، وجمالها، وحُسنها، وهي تنحني أمامك كأنّها تشكر خالقها ومولاها لما حمّلها من الخير، ولتُذكّرك بصدقتك يوم تتصدّق، وإنفاقك يوم تُنفق.

وعلّمنا ﷺ أنّ الصّدقة إقراض لله، قرضًا مُضاعفًا عنده جلّ في علاه، وهو سبحانه الغني الحميد، كما قال تعالى: {إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَناً يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ} [الحديد: الآية 18]، وقال تعالى: {مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [البقرة: الآية 245].

وتصوّر أنّك إذا تصدّقت فقد أقرضت غنيًّا كريمًا، هو الذي رزقك المال كلّه، ويعوّضك أضعافه، ولهذا قرن الله الصدقة المُتقبّلة بتلاوة القرآن، وإقام الصّلاة، فقال سُبحانه: {إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ * لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ} [فاطر: الآية 29 - 30].

فانظر إلى مسألتين في الصّدقة هنا، وهما قوله سبحانه: {مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ} فالفضل فضله والرّزق رزقه، وقوله سبحانه: {سِرًّا وَعَلاَنِيَةً} ، فهو حثٌّ على أن تتصدّق في كل وقت وكل آنٍ بالقليل والكثير، وفي السرّ والعلن.

وقال رسول الله ﷺ: «**لا حَسَدَ إلَّا في اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتاهُ اللهُ القُرْآنَ فَهو يَقُومُ به آناءَ اللَّيْلِ، وآناءَ النَّهارِ، ورَجُلٌ آتاهُ اللهُ مالًا، فَهو يُنْفِقُهُ آناءَ اللَّيْلِ، وآناءَ النَّهارِ**» [مُتفق عليه].

وقال ﷺ: «**مَن تَصَدَّقَ بعَدْلِ تَمْرَةٍ مِن كَسْبٍ طَيِّبٍ، ولَا يَقْبَلُ الله إلَّا الطَّيِّبَ، وإنَّ الله يَتَقَبَّلُهَا بيَمِينِهِ، ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهِ، كما يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ، حتَّى تَكُونَ مِثْلَ الجَبَلِ**» [مُتفق عليه].

في هذا الحديث صورتان: صورة التّمرة في الضآلة والقلّة، وصورة الجبل في العظمة والكثرة، فالإنسان يعطي القليل والله يُثيبه بالكثير.

ولم يترك ﷺ للإنسان فسحة في ترك الصّدقة، وفتح له أبوابًا كثيرة إلى درجة أنّه إذا كفّ أذاه عن النّاس كتب الله له أجر صدقة، فقال ﷺ: «**علَى كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ. قالوا: فإنْ لَم يَجِدْ؟ قالَ: فَيَعْمَلُ بيَدَيْهِ فَيَنْفَعُ نَفْسَهُ ويَتَصَدَّقُ.** قالوا: **فإنْ لَمْ يَسْتَطِعْ أوْ لَمْ يَفْعَلْ؟ قالَ: فيُعِينُ ذا الحاجَةِ المَلْهُوفَ.** قالوا: **فإنْ لَمْ يَفْعَلْ**؟، قالَ: **فَيَأْمُرُ بالخَيْرِ** أوْ قالَ: **بالمَعروفِ**، قالَ: **فإنْ لَمْ يَفْعَلْ**؟، قالَ: **فيُمْسِكُ عَنِ الشَّرِّ فإنَّه له صَدَقَةٌ**» [مُتفق عليه]، ومعنى الحديث: افعل الخير مهما قلّ، فإن لم تستطع فكفّ عن الشرّ مهما قلّ.

وقال ﷺ: «**الصَّدَقَةُ بُرْهانٌ**» [رواه مسلم]، أي: دليل على قوة إيمان صاحبها؛ لأنّه لا يبذل المال إلّا من آمن بالله عزّ وجل، وصدّق بوعده ووعيده، وتيقن أنّ هناك جزاءً وثوابًا عند الله في الآخرة، فبذلَ المال لما يرجو من الثّواب عند ذي الجلال.

وأخبر ﷺ أنّ المُتصدق الذي يبذل ماله وينفقه لوجه الله الكريم هو من أولياء الله تعالى ومن أهل الجنّة، فقال ﷺ: «**أَهْلُ الجنَّةِ ثَلاثَةٌ: ذُو سُلْطانٍ مُقْسِطٌ مُتَصَدِّقٌ مُوَفَّقٌ**» [رواه مسلم]؛ لأن المتصدّق متيقّن من أن هناك عوضًا وخلفًا من أكرم الأكرمين، ينتظره يوم الدّين، فمن صدق إيمانه، وصح يقينه، زاد عطاؤه في هذه الدّنيا.

وبشّر ﷺ صاحب الصّدقة بأنّه ينعم بظل الله يوم القيامة، يوم لا ظل إلّا ظله سبحانه، فقال عليه الصّلاة والسّلام: «**سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ الله يَومَ القِيامَةِ في ظِلِّهِ، يَومَ لا ظِلَّ إلّا ظِلُّهُ ...**» وذكر منهم: «**وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فأخْفاها حتّى لا تَعْلَمَ شِمالُهُ ما صَنَعَتْ يَمِينُهُ**» [مُتفق عليه]. وقال ﷺ: «**كلُّ امرئٍ في ظلِّ صدقتِهِ حتّى يفصلَ بينَ النّاسِ**» [رواه أحمد]، فيا لها من بُشرى للمُتصدّقين! ويا له من أجر للمُنفقين الباذلين! بشّر به خير المرسلين، وخاتم النبيين.

وبشّرنا رسولنا أنَّ الله عزّ وجل يخلف على المتصدّق، فقال ﷺ: «**قالَ الله عزَّ وجلَّ: أنْفِقْ أُنْفِقْ عَلَيْكَ**» [مُتفق عليه]، وهذا ضمان من الله بالعوض، وانظر إلى هذا الضّمان أتى من الله مباشرة في حديث قدسي، ولم يأت فقط من رسول الله ﷺ؛ لأن الخلف على الصّدقة وعد موثّق من أرحم الرّاحمين وأكرم الأكرمين.

وأرشدنا ﷺ إلى أنّ الصّدقة سبب لنماء المال، وزيادة البركة، وعموم الخيرات، وعْدٌ من ربّ الأرض والسّماوات، كما قال تعالى: {الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [البقرة: الآية 268]، فهذا وعد أكيد، من الحميد المجيد، بزيادة الخير لمن تصدّق، والبركة لمن أنفق، فتجد المنفق والمتصدق ينفق القليل، ولكن يبارك له فيه بصلاح ذريته، وصحة جسمه، واستقامة أحواله وأموره.

جربوا الصّدقة امتثالًا لرب العالمين، واقتداء بسيد المتصدّقين، وإمام المنفقين، فلن تخسروا أبدًا، بل ستجدون الظّفر والأجر، والنّماء والبركة في حياتكم؛ لأنّ الصّدقة طُهرة للمال، وسعة في الرّزق، وانشراح في الصّدر، وزيادة في الثّواب، وإرضاء للرّب.

علّمنا ﷺ أنّ الصدقة تُطفئ غضب الرّب، وتدفع ميتة السوء، فالمال الذي ينفقه المتصدّق يدافع الله به عن المُتصدّق، ويقيه من الأزمات والعثرات والنّكبات، فعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنّ الصّدقة لتُطْفِئ غضَب الربّ، وتدفع ميتة السُّوء**» [رواه الترمذي].

وأخبر ﷺ أنّ الصدقة طريق لغفران الذّنوب، وتكفير السّيئات، كما قال تعالى: {إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} [البقرة: الآية 271].

وانظر إلى هذه الآية الباهرة المباركة التي يحث فيها ربّ العالمين على الصّدقة، ويأمر أن تكون من أطيب ما يكون؛ لأنّ الله طيب لا يقبل إلّا طيّبًا، قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَلاَ تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ} [البقرة: الآية 267].

فكما أنّك لا تختار لحبيبك في الدّنيا إلّا أفضل الهدايا، وأجمل الهبات، وأحسن الأعطيات، فبالله عليك إذا كان ذو الجلال والإكرام هو الذي يتقبّل هذه الهدية، ويأخذ هذا القرض منك؛ فكيف لا

تسعى أن يكون من أجود ما يكون من مالك؟! سواء كان نقدًا، أو ثمارًا، أو غير ذلك من الخيرات، وبيّن سُبحانه وتعالى أنّه لو أُهدي إليك خبيث من المتاع ورديء من السلعة فلن تقبل ذلك، إلّا أن تُغمض عينيك وتُجامل وتغض الطّرف، فكيف بمن يتعامل مع الجواد، الكريم، المُتعالي؟!، وانظر كيف ختم الآية بلفتة عجيبة، وقفلة شائقة مؤثرة: {وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ} ، فهو (**غَنِيٌّ**) عن من تولى وأعرض، فعنده خزائن السّماوات والأرض، و(**حَمِيدٌ**) أي يحمد ويشكر لمن أقبل وأعطى، فإن أقبلت فأبشر بالحمد والشّكر والثّواب الجزيل، وإن أدبرت فالله غنيّ عني وعنك وعن البشريّة جمعاء.

وبيّن ﷺ أنّ الصّدقة دواء ناجع للأمراض، وأنّها شفاء بإذن الله، وأنّها طريق للعافية، فقال ﷺ: «**داووا مرضاكم بالصدقة**»، [حسّنه الألباني في صحيح الجامع]، وبيّن أيضًا أنّ الصّدقةَ حجابٌ من النّار، وسترٌ من العذاب، ووقايةٌ من غضب الباري جلّ في علاه، فقال ﷺ: «**مَنِ اسْتَطَاعَ مِنكُم أنْ يَسْتَتِرَ مِنَ النّارِ ولو بشِقِّ تَمْرَةٍ، فَلْيَفْعَلْ**» وفي رواية: «**اتقوا النّار ولو بشق تمرة**» [مُتفق عليه]. فدعا ﷺ إلى البذل ولو بالقليل، وأخبر بأن هذا العطاء وهذه الصدقة ستار واق من عذاب الله وغضبه.

فهل يتأخر مسلم في سبب نجاته إذا كان سبب هذه النّجاة شيء بسيط يستطيعه، ككسرة خبز، أو شربة ماء، أو حفنة تمر، أو كلمة طيبة، أو بسمة رائقة؟!

وبشّرنا ﷺ بأنّ الصّدقة عمل مستمر أجره حتى بعد الوفاة، فقال: «**إذا ماتَ الإنْسانُ انْقَطَعَ عنْه عَمَلُهُ إلّا مِن ثَلاثَةٍ: إلّا مِن صَدَقَةٍ جارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صالِحٍ يَدْعُو له**» [رواه مسلم].

فانظر إلى استمرار آثار الصّدقة حتى بعد وفاة صاحبها، الصّيام والصّلاة والحج، وكثير من العبادات تنقطع إلّا الصّدقة فأنّها تبقى تدرّ على صاحبها، وتُمطر عليه شآبيب الرّضوان والرّحمة حتى بعد موته.

ومن صور هذه الصّدقة التي أخبر بها نبيّنا المعصوم ﷺ الصّدقة الجارية كالتصدّق ببناء المساجد حيث إنّ كل من صلّى فيها، وتعبّد وذكر الله وتلا كتابه، كان لصاحب المسجد وبانيه مثل أجورهم، وكذلك التّصدق بالعلم النافع الذي يُتعلم، من تأليف كتاب، أو تعليم طلّاب يتوارثون علمه

بعده، كل ذلك من الصّدقات الجارية المتقبلة عند الله، حتى الولد الصّالح يدخل في عموم الصّدقة؛ لأنّه من كسب أبيه ووارث والده، وسبب في صدقات جارية ودعاء موصول لوالده بعد وفاته، ولهذا أقول: من خصائص الصّدقة أنّها دائمة مستمرة حتى بعد الموت الذي تنقطع به الأعمال والآجال.

ومن أجمل بشارات سيّد البريات ﷺ، ومن الحفاوة بأهل الصدقة والاعتناء بهم أنّ الله خصص لهم بابًا من أبواب الجنّة، كما قال ﷺ: «**مَن كانَ مِن أهْلِ الصَّدَقَةِ، دُعِيَ مِن بابِ الصَّدَقَةِ**» [مُتفق عليه]، فلهم مدخل خاص للتكريم، وباب معروف لهم يدخلون منه جزاءً وفاقًا على بذلهم وصدقتهم في الحياة الدّنيا، فهنيئًا للمُتصدّقين، وطوبى للباذلين.

لقد دعا ﷺ للصدقة بفعله، فكان المُتصدّق الأوّل، وبذل علمه ﷺ من ميراث نبوّته على الكبير والصّغير، والرّجل والمرأة، وصدقة العلم المحمدي أفضل صدقة في العالم، فكان يُعلّم، ويُفتي، ويُدرّس، ليله ونهاره، حلّه وترحاله.

وتصدّق ﷺ بطعامه فكان أجود الناس في ضيافته، يكرم ويرحب بالجميع، حتى أكل على مائدته المسلم والمُشرك، والمنافق، واليهودي، والرّجل والمرأة، والغني والفقير، والشيخ الكبير والطّفل الصّغير، وتصدّق بنومه ﷺ فكان يسامر الوافد، ويؤانس الضّيف، كما قيل:

مُتَيَّمٌ بالنَّدَى لو قَالَ سائلُهُ ... هَبْ لي جميعَ كَرَى عَيْنَيْكَ لم يَنَمِ

وتصدّق ﷺ بمتاع الدّنيا من إبل وغنم وخيل وثياب وطعام، لا يمسك شيئًا، بل كانت يده مُرسلة بالخير أشدّ من الريح إرسالًا وسرعة، فلم يبق عنده ذهب ولا فضة، ولا طعام ولا لباس، إلّا وأنفقه وتصدّق منه، وعن عائشة (رضي الله عنها) ، **أَنَّهُمْ ذَبَحُوا شَاةً**، فقالَ النَّبِيُّ ﷺ: **مَا بَقِيَ مِنها؟**، قالت: **مَا بَقِيَ مِنها إلّا كَتِفُهَا**، قَالَ: «**بَقِي كُلُّهَا غَيرَ كَتِفِهَا**» [رواه الترمذي].

وتصدّق ﷺ بأخلاقه، ففاض على الأُمّة بحِلمه، وكرمه، وسماحته، ويُسره، فكأنه يُعطي الأرواح عطاءً، لأنها تبتهج برؤيته، وتسعد بالعيش معه، لعظيم سماحته، وجليل لطفه، وكبير رحمته، كما وصفه ربّه تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ} [الأنبياء: الآية 107]، والتصدّق بالحِلم، والعفو، والصّفح، والمسامحة، واللّطف، قد يكون أعظم من التّصدّق بالمال.

وتصدّق ﷺ **بجاهه الشّريف،** ومنصبه المنيف، فشفع في حقن الدّماء، وحفظ الأنفس، وصيانة الأعراض، وهي من أعظم صدقاته عليه الصّلاة والسّلام.

و**تصدّق** ﷺ **بوقته** فجعله لله في عبادة ربّه، وإصلاح الأمة وهدايتها، يُعلّم هذا، ويُفتي هذا، ويُربّي هذا، وينصح هذا، ويتألف هذا، ويجبر خاطر هذا، ويعزّي هذا، ويواسي هذا، ويُبارك لهذا، فوقته ما بين مُشاركة، ومُباركة، وتعاون، وإصلاح، وتعليم، وتزكيّة، وتربيّة، وجهاد، وأمر بمعروف، ونهي عن مُنكر، وهل هناك أعظم من هذه الصدقة؟!، أنّها أعظم من التصدّق بقناطير الذّهب والفضة، وكنوز اللآلئ والجواهر.

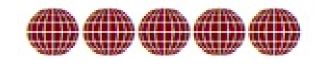
بل إنّه ﷺ كان يُعطي وينفق ويتصدق بطيب نفس، وانشراح خاطر، وسرور وجه، ويسعد بذلك وكأنّه هو المستفيد والمنتفع بهذا العطاء، رُغم أنّه هو المُتصدق والمُعطي ﷺ:

أنت الذي بذل الحياة رخيصةً ... ونشرت كلّ فضيلة في الناسِ

أسْخَى من الغيث العميم إذا هَمَى ... يسقي البسيطة روضها والقاسِي

لا زال جودُكَ للقيامةِ واكِفًا ... أنت المُقدَّم في النّدى والباسِ

سُبحان من جمع المكارم كلّها ... في شخص أحمد طيّب الأغراسِ



مُحَمَّدٌ ﷺ صَائِمًا

كان رسول الله ﷺ والصّحابة من بعده رضوان الله عليهم يحتفون حفاوة كبيرة بشهر الصّيام، شهر رمضان المبارك، وكان ﷺ يُبشّر أصحابه فيقول: «**إذَا جاءَ رَمَضانُ فُتِّحَتْ أبْوابُ الجَنَّةِ، وغُلِّقَتْ أبْوابُ النَّارِ، وصُفِّدَتِ الشَّياطِينُ**»[مُتفق عليه]، وكان من هديه ﷺ أنّه لا يبدأ صوم رمضان إلّا بِرُؤيةٍ مُحَقَّقةٍ، أو بشهادةِ شاهدٍ، فَإِنْ لم يَكُنْ أكملَ عِدَّةَ شعبان ثلاثينَ.

وأخبر ﷺ أنّ الصّيام من أركان الإسلام الخمس، فقال: «**بُنِيَ الإسْلامُ على خَمْسٍ، شَهادَةِ أنْ لا إلَهَ إلّا الله وأنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ ورَسولُهُ، وإقامِ الصَّلاةِ، وإيتاءِ الزَّكاةِ، وحَجِّ البَيْتِ، وصَوْمِ رَمَضانَ**» [مُتفق عليه].

وفي صيام الفريضة كان ﷺ يُبيّت النيّة من اللّيل قبل طلوع الفجر كما روت عنه أمّ المؤمنين حفصة (رضي الله عنها) : «**من لم يبيّتِ الصِّيامَ منَ اللَّيلِ فلا صيامَ لَه**» [رواه أبو داود]، وهذا في صيام الفريضة وليس النّافلة، وكان ﷺ يُبيّت النّية في القلب ولم يرد عنه أنّه تلفّظ بها.

وحرص ﷺ على أن يتسحّر، وحثّ أصحابه على ذلك فقال: «**تَسَحَّرُوا فإنَّ في السَّحُورِ بَرَكَةً**» [مُتفق عليه]؛ لأنّ في السّحور إعانةً للصّائم على صومه، وشُكرًا لله على نعمه. وفيه مُخالفة لأهل الكتاب كما قال ﷺ: «**فَصْلُ ما بيْنَ صِيامِنا وَصِيامِ أَهْلِ الكِتابِ، أَكْلَةُ السَّحَرِ**» [رواه مسلم]؛ لأنّ وقت السّحر وقت دعاءٍ واستغفار وذكر لله، وهو في الثّلث الأخير من الليل، حين النزول الإلهي، إذ يقول ربّ العزّة والجلال في الحديث القدسي: «**مَن يَدْعُونِي فأسْتَجِيبَ له؟! من يَسْأَلُنِي**

فَأُعْطِيَهُ؟! مَن يَسْتَغْفِرنِي فأغْفِرَ له؟!» [مُتفق عليه]، ويقول تعالى: {وَبِالأَسْحَارِ * هُمْ * يَسْتَغْفِرُونَ *} [الذاريات: الآية 18]، وقال عزّ وجل: {وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ} [آل عمران: الآية 17].

وكان يفصل ﷺ بين السّحور وأذان الفجر بمقدار قراءة خمسين آية، كما أخبر زيد بن ثابت(رضي الله عنه): «**أنَّهُمْ تَسَحَّرُوا مع النّبيِّ ﷺ، ثُمَّ قامُوا إلى الصَّلاةِ، قيل: كَمْ بيْنَهُما؟، قال: قَدْرُ خَمْسِينَ أوْ سِتِّينَ. يَعْنِي آيَةً**» [رواه البخاري].

فتصوّر هذا الجواب الفصيح، الناضج، المؤثر، حيث حسب (رضي الله عنه) الأوقات بالآيات، وما ذلك إلّا لصفاء تلك القلوب الطّاهرة، وسفرها إلى بارئها، وتعلّقها بمولاها، ثم يذهب ﷺ إلى المسجد لصلاة الفجر، حيث ينتظر أصحابه هذا الإمام العظيم والمعلم الكريم ﷺ، فيصلي بهم صلاة الفجر بعد أداء الركعتين التي يقول عنهما: «**رَكْعَتَا الفَجْرِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَما فِيهَا**» [رواه مسلم]، فيؤمهم في صلاة الفجر بعد ليل من العبادة، والذّكر والاستغفار مُستقبلين يومًا من الصّيام، للملك العلّام فيتلو عليهم من قرآن الفجر: {وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا} [الإسراء: الآية 78].

ومن هديه ﷺ في الصّيام أنّه كان يحافظ على المضمضة والاستنشاق وهو صائم، ومنع من المُبالغة في ذلك فقال: «**أسبغِ الوضوءَ، وخلِّلْ بينَ الأصابعِ، وبالغ في الاستنشاقِ إلّا أن تكونَ صائما**» [رواه أبو داود].

وكان ﷺ يحرص على السّواك حتى وهو صائم ويقول: «**لَوْلا أنْ أشُقَّ على أُمَّتِي، لأَمَرْتُهُمْ بالسِّواكِ عِنْدَ كُلِّ صَلاةٍ**» [مُتفق عليه]، فالسّواك للصائم وغير الصائم عند الوضوء والصّلاة، وفي كل الأوقات قبل الزّوال وبعده.

وكان يُدركه ﷺ الفجر وهو جنب فيغتسل ويصوم، فعن عائشة (رضي الله عنها) : «**أن رَسولُ الله ﷺ كان يُدْرِكُهُ الفَجْرُ في رَمَضانَ وَهو جُنُبٌ، مِن غيرِ حُلُمٍ فَيَغْتَسِلُ وَيَصُوم**» [مُتفق عليه].

وذكر ﷺ آداب الصّيام وسُننه ومستحباته، ومكروهاته، ونواقضه في أحاديث كثيرة وقصص شائقة حتى بيّن للنّاس البيان الشّافي الكافي.

أمّا إفطاره ﷺ فكان يُفطر قبل أن يُصلّي المغرب على تمرات، فإن لم يجد حسا حسوات من ماء، فعن أنسِ بنِ مالِكٍ (رضي الله عنه) قالَ: «**كانَ النَّبيُّ ﷺ يُفطرُ قبلَ أن يصلِّيَ على رُطَباتٍ، فإن لم تَكُن رُطَباتٌ فتُمَيْراتٌ، فإن لم تَكُن تُمَيْراتٌ، حَسا حسَواتٍ مِن ماءٍ**» [رواه أبو داود].

وكان ﷺ يُعجّل الفطر عند غروب الشّمس ويقول: «**إذا غابَتِ الشَّمْسُ مِن ها هُنا، وَجاءَ اللَّيْلُ مِن ها هُنا، فقَدْ أَفْطَرَ الصّائِمُ**» [مُتفق عليه]، ويتحقق ذلك بعد غروب قرص الشّمس مباشرة، وحثّ ﷺ على التّعجيل بالفطر فقال: «**قال اللهُ عزّ وجل: إن أَحَبَّ عبادِي إِلَيَّ أَعْجَلُهُم فِطْرًا**» [رواه التّرمذي]، وقال ﷺ: «**لا يَزالُ النّاسُ بخَيْرٍ ما عَجَّلُوا الفِطْرَ**» [مُتفق عليه].

وكان ﷺ يحثّ على الدّعاء عند الإفطار ويقول: «**إنّ للصائم عند فِطْرِه لدعوةً ما تُرَدّ**» [رواه ابن ماجه]، وكان ﷺ يقول عند إفطاره: «**ذَهَبَ الظَّمَأُ، وابْتَلَّتِ العُرُوقُ، وَثَبَتَ الأَجْرُ إِنْ شَاءَ اللهُ**» [رواه أبو داود].

وفي رمضان كان يعْظُم جُوده ﷺ ويزداد كرمه، فعن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال: «**كانَ رَسولُ الله ﷺ أجْوَدَ النّاسِ، وكانَ أجْوَدَ ما يَكونُ في رَمَضانَ حِينَ يَلْقاهُ جِبْرِيلُ، وكانَ يَلْقاهُ في كُلِّ لَيْلَةٍ مِن رَمَضانَ فيُدارِسُهُ القُرْآنَ، فَلَرَسولُ الله ﷺ أجْوَدُ بالخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ المُرْسَلَةِ**» [مُتفق عليه]

فانظر إلى قوله: «**وكانَ يَلْقاهُ في كُلِّ لَيْلَةٍ مِن رَمَضانَ فيُدارِسُهُ القُرْآنَ**»، فيه فضل مدارسة القرآن في رمضان وتلاوته في اللّيل أفضل من النّهار، وأن تلاوته مع الغير أكثر نفعًا.

ونجد في هديه ﷺ في صيام رمضان ملمحًا جميلًا يقوم على أربع مسارات، وهي: مسار الصّيام حيث إنّه يُهذّب الرّوح ويُصفّي الجسم، ومسار مُدارسة القرآن مع جبريل حيث إنّه يرتقي بالرّوح وينير العقل، ومسار الصّدقة وكثرة الجود حيث أنّها تشرح الخاطر وتبهج النّفس، ومسار الاعتكاف وفيه خلوة مع الباري، واعتزال عن فضول المُباحات، والانصراف إلى قضاء الأوقات في أجلّ الطاعات.

وقد حثّ ﷺ على صيام النّوافل والإكثار من الصّيام دون إدخال مشقة على النّفس، فعن أبي سعيد الخدري (رضي الله عنه) أنّ النبي ﷺ قال: «**مَن صامَ يَوْمًا في سَبيلِ الله، باعَدَ الله وَجْهَهُ عَنِ النّارِ سَبْعِينَ خَرِيفًا**» [مُتفق عليه]، فكان يصوم الأيام الفاضلة كيوم عرفة ويوم عاشوراء وهما من

الأوقات المُحبّة، قال عنها ﷺ: «**صِيامُ يَومِ عَرَفَةَ، أَحْتَسِبُ على الله أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ الَّتي قَبْلَهُ، والسَّنَةَ الَّتي بَعْدَهُ، وَصِيامُ يَومِ عاشُوراءَ، أَحْتَسِبُ على الله أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ الَّتي قَبْلَهُ**» [رواه مسلم].

وكان يُكثر من صيام شهر شعبان، فعن عَائِشَةَ (رضي الله عنها) ، قَالَتْ: «**كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَصُومُ حَتَّى نَقُولَ: لَا يُفْطِرُ، وَيُفْطِرُ حَتَّى نَقُولَ: لَا يَصُومُ، فَمَا رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ اسْتَكْمَلَ صِيَامَ شَهْرٍ إِلّا رَمَضَانَ، وَمَا رَأَيْتُه أَكْثَرَ صِيَامًا مِنْهُ فِي شَعْبَانَ**» [مُتفق عليه].

وقال ﷺ: «**إِذَا كَانَ النِّصْفُ مِنْ شَعْبَانَ فَأَمْسِكُوا عَنِ الصَّوْمِ حَتَّى يَكُونَ رَمَضَانُ**» [رواه أحمد]، ولهذا يُستحب أن يفطر الإنسان قبل رمضان أيامًا ليفصل بين صيام النّافلة وصيام الفريضة.

وكان ﷺ يصوم الأيام البيض ويحثّ على صيامها، فعن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: أَوْصَانِي خَلِيلِيﷺ بثَلَاثٍ، ومنها: «**صِيَامِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِن كُلِّ شَهْرٍ**» [مُتفق عليه].

وكان ﷺ يصوم يومي الاثنين والخميس؛ لأن الأعمال تُرفع فيهما فيقول: «**إنهما يومان تُعرضُ فيهما الأعمالُ على ربِّ العالمين فأُحِبُّ أن يُعرَض عملي وأنا صائمٌ**» [رواه النّسائي]، وعن عائشة (رضي الله عنها) أنَّ النَّبيَّ ﷺ كانَ يَتحرّى صيامَ الاثنينِ والخَميسِ. [رواه التّرمذي]، وقال ﷺ عن يوم الاثنين: «**ذاكَ يَوْمٌ وُلِدْتُ فِيهِ**» [رواه مسلم].

ومن يُطالع هدي النّبي ﷺ في صيام النّوافل يجد المنهج القويم المعتدل المتوازن، فليس بالذي يدع صيام النّوافل كما يفعل كثير من الناس، وليس بالذي ينهمك في كثرة الصّيام حتى يضعف جسمه عن كثير من الطاعات، بل كان يوازن بين هذا وذاك، ويعتدل في تلبية المطالب الدّينية والدّنيوية، فعن أنس (رضي الله عنه) قال: «**كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يُفْطِرُ مِنَ الشَّهْرِ حَتَّى نَظُنَّ أَنْ لَا يَصُومَ مِنْهُ، وَيَصُومُ حَتَّى نَظُنَّ أَنْ لَا يُفْطِرَ مِنْهُ شَيْئًا**» [رواه البخاري ومسلم].

وربما عقد النيّة ﷺ في صيام النّافلة في أثناء النّهار، تقول عائشة (رضي الله عنها) : «**دَخَلَ عَلَيَّ النّبيُّ ﷺ ذاتَ يَومٍ**، فَقالَ: **هلْ عِنْدَكُمْ شيءٌ**؟ فَقُلْنا: **لا**، قالَ: **فإنِّي إذَنْ صائِمٌ، ثُمَّ أَتانا يَوْمًا آخَرَ**، فَقُلْنا: **يا رَسولَ الله، أُهْدِيَ لَنا حَيْسٌ**. فَقالَ: **أَرِينِيهِ، فَلقَدْ أَصْبَحْتُ صائِمًا فأكَلَ**» [رواه مسلم].

ونهى ﷺ عن صيام الدّهر كله، لتبقى حياة المسلم في دائرة الاعتدال والتوسّط والتّوازن الذي نزل به كتاب الله، وأتت به سنّة نبيّه ﷺ، ونهى كذلك عن الوصال في الصّيام، وهو أن يصوم

الإنسان يومين أو أكثر دون أن يفطر بينهما ليلًا، فعن أبي هريرة (رضي الله عنه)، عن النّبي ﷺ قال: «**نَهى رَسولُ الله ﷺ عَنِ الوِصالِ، فَقالَ رَجُلٌ مِنَ المُسْلِمِينَ: فإنَّكَ يا رَسولَ الله، تُواصِلُ**، قالَ رَسولُ الله ﷺ: **وَأَيُّكُمْ مِثْلِي؟ إنِّي أَبِيتُ يُطْعِمُنِي رَبِّي وَيَسْقِينِي**» [مُتفق عليه].

ويقول بعض العلماء في هذا، ليس طعامًا ولا شرابًا حسيًّا: لأنّه لو كان الطّعام والشّراب المعروف لما كان صائمًا بأبي هو وأمي ﷺ! ولكنّه طعام وشراب من نوع آخر من الحكمة والمعارف الربّانية، والمذاقات الوجدانية، واللّطائف الإلهية، التي تُشبع روحه، وتُرضي فؤاده ﷺ. وقد أنكر على عبدالله بن عمرو (رضي الله عنهما) مواصلة الصيام، وقال له: «**قُمْ ونَمْ، وصُمْ وأَفْطِرْ، فإنَّ لِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حقًّا، وإنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وإنَّ لِضيفك عَلَيْكَ حَقًّا، وإنَّ لِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا**» [مُتفق عليه].

وأخبر ﷺ أنّ من أعدل الصّيام صيام داود عليه السّلام لمن أراد أن يكثر من صيام النّافلة فقال ﷺ: «**كانَ يَصُومُ يَوْمًا، وَيُفْطِرُ يَوْمًا**» [مُتفق عليه].

لقد علّمنا رسولنا ﷺ أنّ الصّيام مدرسة لتدريب النَّفس على ترك الشّهوات والمغريات، فلا يُحوَّل شهر رمضان إلى شهر لهوٍ ولعب، وإنّما شهر صبر وجد واجتهاد، قَالَ ﷺ: «**والصِّيَامُ جُنَّةٌ، وَإِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ فَلا يَرْفُثْ وَلا يَصْخَبْ، فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ، فَلْيَقُلْ إِنِّي امْرُؤٌ صَائِمٌ**» [مُتفق عليه]، وقال ﷺ: «**الصِّيَامُ نِصْفُ الصَّبْرِ**» [رواه أحمد].

فمن خلال الصّيام صبر على الجوع والعطش وسائر الملذّات والشّهوات ممّا يعين على تحمّل متاعب الحياة، وليس هناك أفضل من الصّيام في تعلّم الصّبر والاحتمال كما قال ﷺ: «**الصِّيامُ جُنَّةٌ**» [مُتفق عليه]، فهو حصن حصين للمؤمن من المعاصي في الدّنيا، ومن العذاب في الآخرة. وبالصّيام يصل الإنسان إلى مراتب الصّابرين كما قال ﷺ: «**ومَن يتصبَّرْ يُصبِّره الله، وما أُعطي أحدٌ عطاءً خيرًا وأوْسَع مِن الصّبر**» [مُتفق عليه].

ومن أسرار الصّيام الجليلة التي أرشدنا إليها رسولنا ﷺ تحقيق معنى العبوديّة والانقياد لله ربّ العالمين، واستسلام الإنسان وخضوعه لمولاه، وطاعته لربّه، بترك طعامه وشرابه وشهوته وقتًا من النّهار.

والصّيام أكبر مُعين على ترك الحرام، واجتناب الآثام، وتَقوى الملك العلّام، تحقيقًا لقول الباري سبحانه: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [البقرة: الآية 183]، فالصّيام من أعظم أسباب التّقوى؛ لأنه يُنقّي الرّوح، ويُصفّي النّفس من ملاذها، ويخرجها من شهواتها الأرضيّة، فتصعد في سلّم الكمال.

وعلّمنا ﷺ بصيامه الأمانة وحفظ العهد؛ لأنّ الصّيام سر بين الصّائم وربّه، فقد يخلو الإنسان بين الجدران، ويختبئ بين الحيطان، فلا يردعه عن الأكل والشّراب ومزاولة اللذة إلّا الخوف من الرّحمن، وبالصّيام يُدافع الشّيطان؛ لأنّه يجري في الدّم، والدمّ يتولّد من الطعام والشّراب فإذا امتنع الصّائم من طعامه وشرابه ضيّق مجرى الشّيطان، فقلّ ضرره، وكُسر شرّه.

والصّيام يعُين على كفّ النّفس عن الشّهوات كشهوة الغريزة الجنسيّة؛ لأنّها لو لم تُنظّم وتُضبط دمّرت صاحبها، وأوقعته في الإثم، ولهذا قال ﷺ: «**يا مَعْشَرَ الشَّبابِ! مَنِ اسْتَطاعَ مِنْكُمُ الباءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فإنَّه أَغَضُّ لِلْبَصَرِ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَن لَمْ يَسْتَطِعْ فَعليه بالصَّوْمِ، فإنَّه له وِجاءٌ**» [مُتفق عليه].

وألهمنا رسولنا ﷺ أنّ الصّيام عن الطّعام والشّراب لفترة زمنيّة محددة طريق إلى الصّحة فقال: «**مَا ملأَ آدميٌّ وعاءً شرًّا مِنْ بَطنٍ، بِحَسْبِ ابنِ آدمَ أُكُلَاتٌ يُقِمْنَ صُلبَهُ، فإنْ كانَ لا محالةَ، فثُلُثٌ لطعامِهِ، وثلثٌ لشرابِهِ، وثلثٌ لنَفَسِهِ**» [رواه التّرمذي].

وأثبتت ذلك الدّراسات العلميّة حيث قال أحد كبار الأطباء: «**إنَّ كثيرين مِن النّاس يَحفِرون قبورَهم بأسنانهم**»؛ لأنّ كثرة إدخال الطعام على الطعام، وتكاثف الشّحوم والدّهون في الأجسام، يُنهك البدن، ويقضي على الصّحة، كما قال تعالى: {وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ} [الأعراف: الآية 31].

وعلّمنا ﷺ أنّ الصّوم لا يتم إلّا بكفّ اللّسان وسائر الجوارح عن المعاصي والآثام فقال: «**مَن لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ والعَمَلَ به؛ فليسَ لله حاجَةٌ في أنْ يَدَعَ طَعامَهُ وشَرابَهُ**» [رواه البخاري].

ونهى ﷺ عن الرّفث وهو الكلام الفاحش، فقال: «**إذا أَصْبَحَ أَحَدُكُمْ يَوْمًا صائِمًا، فلا يَرْفُثْ وَلا يَجْهلْ، فَإنِ امْرُؤٌ شاتَمَهُ، أَوْ قاتَلَهُ، فَلْيَقُلْ: إنِّي صائِمٌ، إنِّي صائِمٌ**» [مُتفق عليه].

وبيّن ﷺ أن المقصود من الصّيام تهذيب النّفس وإقامتها على أمر الله، وليس المقصود منه الجوع والعطش، بل ما يترتب على ذلك من كسر النّفس عن الشّهوة وتطويعها لأمر الله عزّ وجل؛ ولهذا أخبرنا ﷺ أنّ من الصّائمين من ليس له أجر في صيامه فقال: «**رُبَّ صائمٍ ليس لهُ من صيامِهِ إلا الجوعُ**» [رواه النسائي] .

لأن الصّيام مدرسة روحيّة، وتربية إيمانيّة فيها تأهيل للنّفس، وإخضاعها لمرضاة الله، وتعويدها الانتهاء عن الذّنوب والخطايا.

ومن أسرار الصّيام التي أخبرنا بها نبيّنا ﷺ أنّه يُعرّف الإنسان بنعمة الله عليه في طعامه وشرابه وملذاته التي يُحرم منها ساعات من اليوم فيشعر بجوع الجائعين، وظمأ الظامئين، وبؤس البائسين، الذين لا يجدون طعامًا ولا شرابًا في أكثر الأوقات، فيواسيهم، ويجود عليهم بما أنعم الله عليه، وحينها يُجدد شكره لمُسدي النّعمة سبحانه؛ ولذلك كان رسول الله ﷺ يدعو النّاس إلى تفطير الصائمين وإطعام المساكين، فيقول: «**مَنْ فَطَّرَ صَائمًا، كانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِهِ غَيْرَ أَنَّهُ يَنْقُصُ مِنْ أجْرِ الصَّائمِ شيئًا**» [رواه الترمذي].

وعَنْ أُمِّ عمَارَةَ الأَنْصارِيَّةِ (رضي الله عنها) : «**أنَّ النبيَّ ﷺ دخَلَ عَلَيْها، فقدَّمَتْ إِلَيْهِ طَعَامًا،** فَقالَ: **كُلي**، فَقالَت: **إنِّي صائمةٌ**، فقالَ رسولُ الله ﷺ: **إنَّ الصَّائمَ تُصلِّي عَلَيْهِ المَلائِكَةُ إذا أُكِلَ عِنْدَهُ حتَّى يفْرَغُوا**، وَرُبَّما قَالَ: **حَتَّى يَشْبَعُوا**» [رواهُ الترمذيّ].

وعَنْ أَنسٍ (رضي الله عنه): أَنَّ النبيَّ ﷺ جَاءَ إلى سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ (رضي الله عنه)، فَجَاءَ بِخُبْزٍ وَزَيْتٍ فَأَكَلَ، ثُمَّ قالَ النّبيُّ ﷺ: «**أَفْطَرَ عِندكُمْ الصَّائمونَ، وأَكَلَ طَعَامَكُمْ الأَبْرَارُ، وَصَلَّتْ عَلَيْكُمُ المَلائِكَةُ**». [رواهُ أبُو داود].

وقد بيّن ﷺ بقوله وفعله وحاله ثمرات الصّيام للمؤمنين، وبشّرهم بأعظم بشارة اختص بها الصّيام من بين العبادات كما قال ﷺ: «**قالَ الله عَزّ وَجَلَّ: كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ له، إلَّا الصِّيَامَ، فإنَّه لي وأَنَا أجْزِي به، والصِّيَامُ جُنَّةٌ، وإذَا كانَ يَوْمُ صَوْمِ أحَدِكُمْ فلا يَرْفُثْ ولَا يَصْخَبْ، فإنْ سَابَّهُ أحَدٌ أوْ قَاتَلَهُ، فَلْيَقُلْ إنِّي امْرُؤٌ صَائِمٌ والذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بيَدِهِ، لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أطْيَبُ عِنْدَ الله مِن رِيح المِسْكِ. وَلِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ يَفْرَحُهُمَا: إذَا أفْطَرَ فَرِحَ بفِطْرِهِ، وإذَا لَقِيَ رَبَّهُ فَرِحَ بصَوْمِهِ**» [مُتفق عليه]، فقوله ﷺ «**إلَّا الصِّيَامَ، فإنَّه لي**» يدل دلالة واضحة على أن الصّيام سرٌّ بين العبد وبين ربّه لا

يطلع عليه إلا الله بخلاف كثيرٍ من العبادات الظاهرة كالصلاة والزكاة والحج، فقد يخلو الإنسان بنفسه بعيدًا عن الأنظار، فيأكل ويشرب دون علم أحد من النّاس سوى الملك العلّام.

وبشّر ﷺ الصّائمين بجوائز غالية خصّهم الله بها، منها: قبول الدّعاء، فقد قال ﷺ: «**ثلاثة لا تُرَدّ دَعوتهم**» وذَكَر منهم: «**الصائم حَتَّى يُفْطِر**» [رواه أحمد]، وهذا يعني أنّ الصّيام مِن أسباب إجابة الدّعاء، وعن عَبْدِالله بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ (رضي الله عنهما) قال: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِنَّ لِلصَّائِمِ عِنْدَ فِطْرِهِ لَدَعْوَةً مَا تُرَدُّ**» [رواه ابن ماجه]، فالصّائم مُنكسر القلب، والله عند المُنكسرة قلوبهم، وقد جاع الصّائم وظمئ وتعب في مرضاة ربّه، وحينها تخشع نفسه، ويرق قلبه وتنكسر روحه، فيكون قريبًا من مولاه وخالقه.

والدّعاء وقت أداء العبادة من أسباب الإجابة خاصة إذا كان في الفريضة، فصيام الفريضة أعظم أجرًا من النّافلة، وهو أحرى بإجابة دعوة الدّاعي، وفي أثناء العبوديّة ومزاولة الطّاعة يقترب القلب من الرّب؛ ولهذا حثّنا عليه الصّلاة والسّلام أن ندعو ربّنا ونحن صائمون.

وانظر لهذه اللّفتة العجيبة، واللّطيفة النّادرة الباهرة منه ﷺ، وهي بُشرى تُزفّ للصّائمين في قوله ﷺ: «**لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ يَفْرَحُهُمَا: إِذَا أَفْطَرَ فَرِحَ بفطره، وإِذَا لَقِيَ رَبَّهُ فَرِحَ بصَوْمِهِ**». [مُتفق عليه]، فهناك لحظة فرح، وساعة انتصار عند الإفطار لا يجدها إلّا الصّائم الصّادق، يفرح لأنّ الله أعانه على الصّوم، ويفرح أن أمهله سُبحانه يومًا آخر ليصوم لمولاه، ويفرح لأنّه جاع وظمئ لمرضاة خالقه ورازقه، ويفرح برزق ربّه من الطّعام والشّراب، ويفرح الفرحة الكبرى إذا لقي ربّه، إذ أطاعه جلّ في علاه، فما أجملها من نفحات ربّانية!، وما أعظمها من مواهب إلهية!.

وورد عنه ﷺ ثلاثة أحاديث عن شهر الصيام، (شهر رمضان المبارك)، كل حديث منها خير من الدّنيا وما فيها، وكلّها في «الصّحيحين»، فعن أبي هريرة (رضي الله عنه): أن النبي ﷺ قال: «**مَن قَامَ رَمَضَانَ إيمَانًا واحْتِسَابًا، غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِهِ**»، وقال ﷺ: «**من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غُفر له ما تقدّم من ذنبه**»، وقال: «**من قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا غُفر له ما تقدّم من ذنبه**»

فبالله أيّ أجر أعظمُ من هذا؟! وهل وقفت أمام هذه الأحاديث الثّلاثة موقف المُعتبر، المُتعظ، المُتدبّر، المسرور بنعمة الله وعطائه، والسّعيد بهذه البُشرى العظيمة، وهذه الهديّة الجليلة من أصدق

مَن نَطق، وأتقى مَن تَكلّم ﷺ؟!

وبشّر ﷺ الصّائمين بأنّ ربّ العالمين خصّهم بباب من أبواب الجنة لا يدخل منه غيرهم، يُسمى باب الريّان، كما جاء عن سهل بن سعد الساعدي أنّ النّبي ﷺ قال: «**إنَّ في الجَنَّةِ بابًا يُقالُ له: الرَّيّانُ، يَدْخُلُ منه الصَّائِمُونَ يومَ القِيامَةِ، لا يَدْخُلُ منه أحَدٌ غَيْرُهُمْ، يُقالُ: أيْنَ الصّائِمُونَ؟ فَيَقُومُونَ، لا يَدْخُلُ منه أحَدٌ غَيْرُهُمْ، فَإِذا دَخَلُوا أُغْلِقَ فَلَمْ يَدْخُلْ منه أحَدٌ**» [مُتفق عليه]، فانظر إلى اشتقاق الاسم من الرّواء؛ لأنّهم عطشوا في الدنيا، وظمئوا من أجل رضا ربّهم، وطاعة مولاهم، فعوّضهم بريٍّ في الجنّة حتى أُطلق الرّيُّ على الباب، فصار من المبالغة اسمه «**الرَّيّان**»، يدخل منه الصّائمون الذين عُرفوا بكثرة الصّيام من فرائض ونوافل، ولهذا كان عليه الصّلاة والسّلام يحثّ النّاس على الصّيام لما فيه من منافع دنيوية، وأجور أخرويّة، ويذكّرهم دائمًا بما أعدّ الله لهم من تكريم، ومن نعيم مقيم:

لك الله أنت البدر في كل موسمٍ

ستبقى مدى الأيام خير مُعلّمِ

ومن قبل صوم الشّهر قد كنت صائمًا

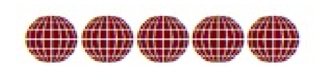
مدى الدّهر عن زورٍ ولهوٍ ومأثمِ

وصُمت عن الدّنيا الدّنيّةِ راغبًا

بفطرٍ عظيمٍ في مقامٍ مُكرّمِ

وفي رمضان العفو تُذكَر بالرّضَا

يُحييكَ عند الفطر مليارُ مُسلمِ



محمد ﷺ حَاجًا

حجّةً واحدةً، وكانت في العام العاشر من الهجرة، فحضر المُهاجرون والأنصار، وأهل الحاضرة والبادية، في جَمْعٍ قِيلَ: إنّه قارب مئة وعشرين ألفًا، وخرج النّبي ﷺ مِن المدينة نهارًا بعد الظّهر بعد أنْ صلَّى الظهرَ بها أربعًا، وصلَّى العصر بذي الحُليفة ركعتين، وأحرم ﷺ من ميقات ذي الحُليفة فتجرّد من ملابسه، واغتسل وارتدى الإحرام، وهو رداء وإزار أبيضان نظيفان؛ لأن من مقاصد الإحرام تجرّدَ المُسلم من ملهيات الدّنيا وملذّاتها، والدخول في نُسك العبادة.

ثم ركب ﷺ حتى استوت به راحلتُه على البيداءِ فحمدَ اللهَ، وسبَّح وكبَّر، ثم أهلَّ بحجٍ وعُمرة، إذْ إنَّ الحاجَّ يترك متاع الدّنيا وترفها وزينتها، فأشبهت هيئته مَن لبس كفنه الأبيض مفارقًا الدّنيا مقبلًا على مولاه، وهيئة المسكين الضعيف الذّليل الرّاجي لغفران ربّه عزّ وجل، وفيه استحضارُ موقف الحشر حين يجمع الله تعالى الخلق جميعًا، وكل منهم مشغول بنفسه.

ومن مقاصد لبس الإحرام المساواةُ بين المسلمين، والتّعبير عن الوحدة والتّآلف بين الجميع، رئيسًا ومَرؤوسًا، غنيًّا وفقيرًا، لباسهم واحد، وربّهم واحد، ونبيّهم واحد، وكتابهم واحد، بلون البياض الواحد، فألُ صفاء القلوب ونقائها من الحقد والبغضاء، والحسد والشّحناء.

وكان إحرامه ﷺ مثل إحرام بلال بن رباح، وسلمان الفارسي، وصهيب الرّومي، وعمّار بن ياسر، وبقية صحابته الكرام رضوان الله عليهم، سواءً بسواء، اللّباس واحد، والقيمة واحدة، والشعار واحد.

هذا هو دين الإسلام، دين العدل والمساواة؛ ليعلم كلّ مسلم أنّه لا يحقّ له الافتخار على غيره مهما ارتفع منصبه وبلغ جاهه، فالعبرة بتقوى الله وإخلاص العبادة له وحده جلّ في عُلاه، وليس بالألوان، ولا بالأنساب، ولا بالأموال، كما قال تعالى: {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ} [الحجرات: الآية 13].

وقد أهلّ ﷺ بالتّلبية، وهي توحيد مُطلق لربّ العالمين، يُخالف بها تلبية المُشركين فقال: «**لَبَّيْكَ اللهمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ، إنَّ الْحَمْدَ والنِّعْمَةَ لكَ والمُلْكَ، لا شَرِيكَ لَكَ**»

وكان يرفع صوته ﷺ بالتّلبية؛ لأنّها إعلان التّوحيد؛ وليحرّك بها المشاعر، ويهزّ بها النّفوس. ويقول ﷺ لأصحابه: «**أَتَانِي جِبْرِيلُ، فَأَمَرنِي أَنْ آمُرَ أَصْحَابِي أَنْ يَرْفَعُوا أصْواتَهم بِالإِهْلَالِ وَالتَّلْبِيَةِ**» [رواه أبو داود]. وقال جابر بن عبدالله (رضي الله عنه) قال: «**قَدِمْنا مع النَّبيِّ ﷺ ونحنُ نصْرخُ بالحجِّ صُرَاخًا**» [رواه مسلم].

إنّ في تلبيته عليه الصّلاة والسّلام بهذه الجملة العظيمة: «**لَبَّيْكَ اللهمَّ لَبَّيْكَ**» انقيادًا لله سبحانه وتعالى، وإجابةً بعد إجابة، وإعلانًا من العبد أنّه مقيم على طاعة الله، مُقبلٌ بروح الإخلاص والتّجرّد والتّوحيد لخالقه ومولاه، وفي التّلبية أيضًا معاني الحُبّ، فإنّ الحبيب يُجيب نداء حبيبه، ويُسرع إلى تلبية دعوته بشوق ولهفة، وفي التّلبية إفراد الله بالألوهية والعبودية جلّ في علاه.

«**لَبَّيْكَ لا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ**» في التّلبية إرغام للمُشركين، ودحض لمقولتهم المزوّرة، وإفكهم وكذبهم وافترائهم، فقد أشركوا بالله آلهة أخرى، فنزّه النّبي ﷺ ربّه عن كل شريك ونديد، وأعلن أنّه وحده سبحانه المُستحق للعبادة، المُتفرّد بالألوهية، لا إله إلّا هو، ولا ربّ سواه.

وانظر لقوله ﷺ في التلبية: «**إنَّ الْحَمْدَ وَالنَّعْمَةَ لَكَ وَا لْمُلْكَ، لا شَرِيكَ لَكَ**» فالحمد الذي هو شكر لله على النّعم، هو نعمة من الله سبحانه للعبد حيث وفّقه لها، والنّعمة التي منحها الله عباده هي منه، وله، وإليه تعود جلّ في علاه، والمُلك كله، مُلك الدّنيا والآخرة، أوّله وآخره، للواحد الأحد، لا شريك له جلّ في عُلاه.

ولمّا قدم ﷺ إلى مكة دخل المسجد الحرام، فلمّا حاذى الحجرَ الأسودَ، استلمَه ﷺ؛ ليُعلّم النّاس أنَّ الحجرَ يُستلَمُ ويُقبَّلُ تعبُّدًا وتعظيمًا ومحبّةً لله عزّ وجل، واتّباعًا للنبيِّ ﷺ، لا تبرُّكًا ولا استشفاءً

كما يتوهّم بعضُ النّاس، ثم جعلَ البيتَ عن يسارِه، وطافَ ﷺ على قدميه بالبيت سبعةَ أشواط، ودعا، وكبّر، وقبّل، وبكى، وصلّى بعد الطّواف.

ومن أسرار الطّواف أنّه طواف العبد ببيت سيده طلبًا لضيافته، ورفادته، ومغفرته، ورحمته، وإظهارًا لدوام الحاجة إليه، فالمسكين الضّعيف إذا دار حول قصر الملك الكريم -ولله المثل الأعلى- كان ذلك أدعى لتلبية حاجته وطلبه لشدّة مسكنته وكثرة تِرداده، فاجتمع في هذا المكان رحمة الرّحمن، وطُهر المكان، وبركة الزّمان، وطواف أشرف إنسانٍ عليه الصّلاة والسّلام، وكان من دعائه ﷺ في الطّواف بين الرّكن اليماني والحجر الأسود: {رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} [البقرة: الآية 201] [رواه أبو داود].

ولمّا انتهى ﷺ من سبعة أشواط وهي وتر؛ لأن الله وتر يُحب الوتر، أتى إلى مقام إبراهيم، وقرأ قول الباري سُبحانه: {وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى} [البقرة: الآية 125]، اقتداءً بأبيه الخليل إبراهيم عليه السّلام، وإحياءً لسنّته، ثم صلى ركعتين، وقرأ فيهما سورتي (**البراءة، والإخلاص**)، ففي الرّكعة الأولى قرأ بعد الفاتحة سورة (**الكافرون**) وفيها التبرؤ من الشّرك وأهله، وفي الرّكعة الثانية قرأ سورة (الإخلاص) وفيها إثبات الوحدانية لله عزّ وجل.

ثم مضى ﷺ إلى المسعى، فبدأ بالصّفا كما جاء في «**صحيح مسلم**» عن جَابِر(رضي الله عنه) قال: «**ثُمَّ خَرَجَ مِنَ البَابِ إلى الصَّفَا، فَلَمَّا دَنَا مِنَ الصَّفَا قَرَأَ:** {إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ}(رضي الله عنهما) [البقرة: الآية 158]، **وقال: أَبْدَأُ بما بَدَأَ اللهُ به فَبَدَأَ بالصَّفَا، فَرَقِيَ عليه، حتَّى رَأَى البَيْتَ فَاسْتَقْبَلَ القِبْلَةَ، فَوَحَّدَ اللهَ وَكَبَّرَهُ، وَقالَ: لا إلَهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ له، له المُلْكُ، وَلَهُ الحَمْدُ، وَهو علَى كُلِّ شيءٍ قَدِيرٌ، لا إلَهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ، أَنْجَزَ وَعْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَهَزَمَ الأحْزَابَ وَحْدَهُ، ثُمَّ دَعَا بيْنَ ذلكَ، قالَ: مِثْلَ هذا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ نَزَلَ إلى المَرْوَةِ، حتَّى إذَا انْصَبَّتْ قَدَمَاهُ في بَطْنِ الوَادِي سَعَى، حتَّى إذَا صَعِدَتَا مَشَى، حتَّى أَتَى المَرْوَةَ، فَفَعَلَ علَى المَرْوَةِ كما فَعَلَ علَى الصَّفَا**».

وكان يرمل ﷺ بين العلمين في نفس المكان الذي رملت فيه هاجر أمّ إسماعيل عليهما السّلام، والتي يقتدي بها ويسَعَى بسعيها الحجّاجُ والمُعتمرون إلى يوم الدين.

وفي سعيه ﷺ استحضار لقصة هاجر وهي تبحث عن الماء بصبر، وتوكل على الله، وجدٍّ، ومثابرة، فسعى ﷺ كما سعت، وهرول كما هرولت، إقامة لشعائر الدّين، وامتثالًا لأمر الله تعالى، وإحياء لروح المثابرة عند هاجر عليها السّلام، فديننا يجمع بين السّبب والتّوكل على الله عزّ وجل، كما قال ﷺ لصاحب النّاقة: «**اعقِلها وتوكّلْ**» [رواه الترمذي]، فأكمل ﷺ سبعة أشواط يُعد ذهابه شوطًا ورجوعه شوطًا.

وفي سعيه ﷺ بين الصّفا والمروة إشارة إلى بذل الجهد والسّعي في مرضاة وامتثال أمر ذي الجلال بلا جدال، والتّشمير والهمّة والهرولة إلى مراقي الصّعود في سلم العبوديّة، وسلم الرّيادة الدينيّة والدنيويّة، وأن يسعى الإنسان في مرضاة ربّه بجوارحه، وأن يكدّ، وأن يجدّ، وأن يجتهد، قال تعالى: {وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ} [الواقعة: الآية 10].

ثم جاء خير يوم طلعت عليه الشّمس يوم عرفة، فوقف ﷺ بالنّاس الموقف العظيم في عرفة، وأعلن العبودية لله ظاهرًا وباطنًا، وخطب بالنّاس خطبةً عظيمةً ما سمع النّاس بمثلها، خطبةً شملت القضايا العالمية التي تهم الإنسان على مرّ الأيام، وتتابع الأعوام إلى أن يرث الله الأرض وما عليها في آخر الزمان، فتكلّم ﷺ عن مسألة التّوحيد والإيمان بالله تعالى، وأنّها القضية الكبرى، وتحدّث عن حقوق الإنسان، وعن المساواة بين البشر، وأنّه لا فضل لعربيّ على أعجمي، ولا أبيض على أسود إلّا بالتقوى، وأنّ النّاس أمام العدالة سواسيّة.

وتكلّم ﷺ عن المال العام، وحرّم الرّبا، وتحدّث عن حقوق المرأة والدّفاع عنها، والوصيّة بكتاب الله، وحفظ الدّماء والأعراض، فقال ﷺ كما جاء في «صحيح مسلم»: «**إنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ حَرَامٌ علَيْكُم، كَحُرْمَةِ يَومِكُمْ هذا في شَهْرِكُمْ هذا، في بَلَدِكُمْ هذا، أَلَا كُلُّ شيءٍ مِن أَمْرِ الجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمَيَّ مَوْضُوعٌ، وَدِمَاءُ الجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعَةٌ، ...، وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ ما لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إنِ اعْتَصَمْتُمْ به، كِتَابُ الله، وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي، فَما أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟**، قالوا: **نَشْهَدُ أنَّكَ قدْ بَلَّغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ، فَقالَ بإصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ يَرْفَعُهَا إلى السَّمَاءِ، وَيَنْكُتُهَا إلى النَّاسِ: اللهمَّ اشْهَدْ، اللهمَّ اشْهَدْ**» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثم دعا ﷺ ربّه وتمسْكن وتذلّل، وأكثر من التّضرع والخشية والإنابة بكلمات مؤثرّة من الدّعاء تنصدع لها القلوب، وتخشع لها النّفوس، وتدمع لها العيون.

ولِربنا الكريم في يوم عرفة هدايا ثمينة، ومواقف عظيمة يُذكّر بها الحبيب ﷺ أمّته، ومنها:

عتق الرّقاب يوم عرفة: فقد قال ﷺ في ذلك: «**ما مِن يَومٍ أَكْثَرَ مِن أَنْ يُعْتِقَ الله فيه عَبْدًا مِنَ النَّارِ، مِن يَومِ عَرَفَة، وإنَّه لَيَدْنُو، ثُمَّ يُبَاهِي بهِمِ المَلَائِكَةَ، فيَقولُ: ما أَرَادَ هَؤُلَاءِ؟اشهَدوا ملائكتي أني قد غفرتُ لهم**» [رواه مسلم].

وأخبر ﷺ عن أفضل ذكرٍ يوم عرفة، فقال ﷺ كما ورد عند الترمذي: «**خيرُ الدُّعاءِ دعاءُ يومِ عرفةَ، وخيرُ ما قلتُ أَنا والنَّبيُّونَ من قبلي :لا إلَهَ إلّا الله وحدَهُ لا شريكَ لَهُ، لَهُ الملكُ، ولَهُ الحمدُ، وَهوَ على كلِّ شَيءٍ قديرٌ**».

ومن الهدايا الرّبانية في هذا اليوم العظيم صوم يوم عرفة لغير الحاج، كما صحّ عنه ﷺ عند مسلم أنّه قال: «**صِيامُ يَومِ عَرَفَةَ، أَحْتَسِبُ على الله أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ الَّتي قَبْلَهُ، والسَّنَةَ الَّتي بَعْدَهُ**».

أمّا الحاج فلا يصوم يوم عرفة اقتداءً بالنّبي ﷺ، فقد أفطر ﷺ يوم عرفة ليتقوّى على أعمال الحج، وفي «**الصّحيحين**» أنّ النّاس اختلفوا يوم عرفة: هل النّبي ﷺ صائم أم لا؟ فأرسلت أمّ الفضل بنت الحارث (رضي الله عنها) إليه ﷺ بقَدَحِ لَبَنٍ وهو واقف على بعيره فشربه، فتبيّن من ذلك أنّ السُّنة للحاج يوم عرفة أن يُفطر ليكون أنشط له في أداء النسُك.

ثمّ أفاض ﷺ إلى مزدلفة وعليه السّكينة والوقار، وهو يُخاطب الجموع قائلًا: «**أيُّها النّاسُ علَيْكُم بالسَّكِينَةِ**» [رواه البخاري]، تنبيهًا على أنّ هذا الدّين دين رفق وسكينة، وسماحة وهدوء، وأنّ فيه تربيةً على التّواصل والتّعاون بين النّاس، وليس على التّدافع والتّقاطع، وصلّى المغرب والعشاء جمعًا وقصرًا كما جاء عن جابر بن عبدالله (رضي الله عنهما) أنه ﷺ **أَتَى مُزْدَلِفَةَ، فَصَلَّى بهَا المَغْرِبَ وَالْعِشَاءَ بأَذَانٍ وَاحِدٍ وإقَامَتيْنِ، وَلَمَّ يُسَبِّحْ بيْنَهُما شيئًا، ثُمَّ اضْطَجَعَ رَسولُ الله ﷺ حتَّى طَلَعَ الفَجْرُ، وَصلَّى الفَجْرَ، حِ تَبيَّنَ له الصُّبْحُ، بأَذَانٍ وإقَامَةٍ، ثُمَّ رَكِبَ القَصْوَاءَ، حتَّى أَتَى المَشْعَرَ الحَرَامَ، فَاسْتَقْبَلَ القِبْلَةَ، فَدَعَاهُ وَكَبَّرَهُ وَهَلَّلَهُ وَوَحَّدَهُ.** [رواه مسلم].

وقد ارتاح ﷺ في مزدلفة؛ لأنّ أمامه في اليوم التّالي عملٌ كثير في الحج من الرّمي والحلق والذّبح والطّواف، ثم أمر ﷺ أن يُلتقط له حصى الرّمي فلُقِطتْ لهُ سبعُ حصَياتٍ مثل حصَى الخذْفِ، فجعلَ ينفضهنَّ في كفِّهِ ويقولُ: «**أمثالَ هؤلاءِ فارموا**»، ثمَّ قالَ: «**يا أيُّها النَّاسُ إيَّاكم والغلوَّ في الدِّينِ! فإنَّما أهلكَ من كانَ قبلَكم الغلوُّ في الدِّينِ**»، [رواه النسائي]، فذمّ ﷺ الغلوّ في كل عمل، وهو تجاوز الحدّ؛ لأن الدّين يُبنى على اليُسر، والاعتدال، والوسطّية، بلا إفراط ولا تفريط.

ولمّا وصل ﷺ إلى منى بدأ برمي الجمرات، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ (رضي الله عنهما) : «**أَنَّ النَّبِي ﷺ أَرْدَفَ الْفَضْلَ، فَأَخْبَرَ الْفَضْلُ أَنَّهُ لَم يَزَلْ يُلَبِّي حَتَّى رَمَى الْجَمْرَةَ**» [مُتفق عليه]. وعَن ابن مسعود (رضي الله عنه): «**أَنَّهُ انْتَهَى إِلَى الْجَمْرَةِ الْكُبْرَى فجَعَلَ الْبَيْتَ عَنْ يَسَارِهِ، وَمِنًى عَنْ يَمِينِهِ، وَرَمَى بِسَبْعٍ، وَقَالَ: هَكَذَا رَمَى الَّذِي أُنْزِلَتْ عَلَيْهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ ﷺ**» [مُتفق عليه].

وجاء في الرمي أيام التشريق بعد يوم النحر عَنِ ابْنِ عُمَرَ(رضي الله عنهما) : «**أنَّه كانَ يَرْمِي الجَمْرَةَ الدُّنْيَا بسَبْعِ حَصَيَاتٍ، يُكَبِّرُ على إثْرِ كُلِّ حَصَاةٍ، ثُمَّ يَتَقَدَّمُ حتَّى يُسْهِلَ، فَيَقُومَ مُسْتَقْبِلَ القِبْلَةِ، فَيَقُومُ طَوِيلًا، ويَدْعُو ويَرْفَعُ يَدَيْهِ، ثُمَّ يَرْمِي الوُسْطَى، ثُمَّ يَأْخُذُ ذَاتَ الشِّمَالِ فَيَسْتَهِلُ، ويقومُ مُسْتَقْبِلَ القِبْلَةِ، فَيَقُومُ طَوِيلًا، ويَدْعُو ويَرْفَعُ يَدَيْهِ، ويقومُ طَوِيلًا، ثُمَّ يَرْمِي جَمْرَةَ ذَاتِ العَقَبَةِ مِن بَطْنِ الوَادِي (الجمرة الكبرى)، ولَا يَقِفُ عِنْدَهَا، ثُمَّ يَنْصَرِفُ، فيَقولُ: هَكَذَا رَأَيْتُ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَفْعَلُهُ**» [رواه البخاري].

ومن مقاصد رمي الجمار إعلان التّبرؤ من الشّيطان الرّجيم، وتلبيسه، ونزغاته، ووسوسته، والبراءة منه ومن أتباعه، وفي ذكر التّكبير عند كل رمية حصاة الاعتراف أنّه لا قدرة لنا على مواجهة الشّيطان والانتصار عليه إلّا بُقدرة الكبير المُتعالي سبحانه، فعلى كلّ من حجّ ورمى الجمار أن يرميَ الشّيطان من عمله وأخلاقه وحياته، وأن يحاربه وأتْباعه باتّباع سُنَّة النّبي الكريم عليه الصّلاة والسّلام.

ثم حلَقَ ﷺ رأسه، ودعا للمحلِّقين ثلاثًا، وللمقصَّرين مرة واحدة تفاؤلًا أن تتساقط ذنوبهم وخطاياهم مع شعرهم، ووزّع شعره المبارك على أصحابه، وتقاسموا هذا الشّعر الطّاهر المُبارك، وليس هذا إلّا له ﷺ؛ لما جعل الله فيه من بركة النّبوة.

وكان النّاس يسألونه ﷺ فيجيب الجميع، فعن عبدالله بن عمرو (رضي الله عنهما) : «**أنَّهُ شَهِدَ النّبيَّ ﷺ يَخْطُبُ يومَ النَّحْرِ، فَقَامَ إلَيْهِ رَجُلٌ** فَقَالَ: **كُنْتُ أحْسِبُ أنَّ كَذَا قَبْلَ كَذَا**، ثُمَّ قَامَ آخَرُ فَقَالَ: **كُنْتُ أحْسِبُ أنَّ كَذَا قَبْلَ كَذَا، حَلَقْتُ قَبْلَ أنْ أنْحَرَ، نَحَرْتُ قَبْلَ أنْ أرْمِيَ، وأَشْبَاهَ ذلكَ**، فَقَالَ النبيُّ ﷺ: **افْعَلْ ولَا حَرَجَ لهنَّ كُلِّهِنَّ، فَما سُئِلَ يَومَئذٍ عن شيءٍ إلّا قَالَ: افْعَلْ ولَا حَرَجَ**» [مُتفق عليه].

فلّله هذا الدّين ما أسهله وألطفه! ولله ذاك النّبي المجتبى، والرّسول المصطفى ﷺ ما أيسر سُنّته! وما أجمل سيرته! وما أرحمه بأمّته!

وَعَنِ البَرَاءِ بنِ عَازِبٍ (رضي الله عنه) قَالَ: خَطَبَنَا النَّبيُّ ﷺ يَومَ النَّحرِ فقَالَ: «**إنَّ أَوَّلَ مَا نَبدأُ بِهِ في يَومِنَا هَذَا أَنْ نُصَلِّيَ، ثُمَّ نَرْجِعَ، فَنَنْحَرَ فمَن فَعَلَ ذلكَ فقَدْ أصَابَ سُنَّتَنَا، ومَن ذَبَحَ قَبْلَ أنْ يُصَلِّيَ، فإنَّما هو لَحْمٌ عَجَّلَهُ لأهْلِهِ ليسَ مِنَ النُّسُكِ في شيءٍ**» [مُتَّفَقٌ عَلَيهِ]، وَقَالَ ﷺ: «**إنَّ أَعظَمَ الأَيَّامِ عِندَ الله يَومُ النَّحرِ، ثم يَومُ القَرِّ**» [رَوَاهُ أَبُو دَاوُد]. ويوم (القرّ) هو اليوم الحادي عشر من أيام ذي الحجة، وهو اليوم الذي يعقب يوم النّحر، وأوّل أيام التشريق، وسُمّي يوم القرّ بذلك؛ لأنّ الحجاج يقرّون فيه؛ أي يستقرون في منى بعد أدائهم طواف الإفاضة والنّحر، وَقَالَ عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ: «**يَومُ عَرَفَةَ وَيَومُ النَّحرِ وَأَيَّامُ التَّشرِيقِ عِيدُنَا أَهلَ الإسلامِ، وَهِيَ أَيَّامُ أَكلٍ وَشُربٍ**» [رواه أَبُو دَاوُدَ].

ودعا ﷺ النّاس وحثّهم أن يأخذوا عنه مناسك الحج، فعن جابر بن عبدالله (رضي الله عنهما) قال: «**رَأَيْتُ النّبيَّ ﷺ يَرْمِي على راحِلَتِهِ يَومَ النَّحْرِ**، ويقولُ: «**لِتَأْخُذُوا عَنِّي مناسِكَكُمْ ، فإنِّي لَا أَدْرِي لَعَلِّي لَا أَحُجُّ بعدَ حجتي هذِهِ**» [رواه مسلم].

ونحر ﷺ مئة ناقة يوم النحر فداءً لأبيه إسماعيل، واقتداءً بأبيه إمام الموحدين، خليل الرحمن، إبراهيم عليهم السلام، وامتثالًا لقول الباري عزّ وجل: {فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ} [الكوثر: الآية 2]، ولقوله تعالى: {قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الأنعام: الآية 162]، والنّسُك هنا هو الذّبح تقرّبًا لله عزّ وجل، وفي هذا النّحر توسعة على النّفس والأهل، وعلى الفقراء والمساكين، وإظهار الاستبشار بنعمة الله عزّ وجل، والاعتراف بها، كما قال تعالى: {وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ} [الضحى: الآية 11]

فعلّمنا نبيّنا ﷺ أنّ في النّحر تطبيقًا فعليًا ميدانيًا لما أخبر الله به في كتابه، وقبول هديته سبحانه في خلق الأنعام، فأنّها خُلقت للطعام والانتفاع، قال تعالى عن هذه النعم {فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ} [الحج: الآية 36 - 37].

والذّبح إنّما يكون لوجه الله تعالى، وفي ذلك مُخالفة للمُشركين الذين كانوا يذبحون للأنصاب والأصنام، وصح عنه ﷺ أنه قال: «**لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ**» [رواه مسلم].

فذبح ﷺ تقرّبًا لله، وابتغاءَ مرضاة الله، وشكرًا لنعمة الله، وإظهارًا لشعائر الدّين، ومخالفة المشركين، ولم يُعرف أحد في التّاريخ أكرم منه ﷺ، فقد نحر هديه مئة بدنة، باشر ﷺ منها ثلاثًا

وستين إشارة إلى أنّ عمرَه ثلاثٌ وستون سنة، وأكمل علي (رضي الله عنه) باقي المئة.

ومن اللّطائف التي رواها أبو داود وابن ماجه وذكرها ابن تيمية الجدّ في كتاب «**المُنتقى**» أن الإبل كانت تتسابق إليه ﷺ أيّها ينحر أولًا، فسُبحان مَن حبّب حتى الحيوان البهيم في النّبي الكريم، والرّسول العظيم عليه من الله الصّلاة والتّسليم! وبعد نحرها وزّع ﷺ لحمها على النّاس فأكلوا منها، وتصدقوا وتزوّدوا، فهو السّابق في الجود والكرم. ويكفيه تزكية ربّه له من فوق سبع سماوات حيث قال سبحانه: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} [القلم: الآية 4].

وتَفْعَلُهُ فَيَحْسُنُ مِنْكَ ذَاكَ	وَيَقْبُحُ مِن سِوَاكَ الفعل عِندي

وأيام الحج للحاج أيام عيد وأكل وشُرب، فقد صح عنه ﷺ أنّه قال: «**يوم عرفة ويوم النّحر وأيام التّشريق عيدنا أهل الإسلام وهي أيام أكلٍ وشرب**» [رواه أبو داود]، والمقصود أنّ الحاج يُفطر فيها ليتفرّغ للعبادة، ويؤدي النُسك بقوة، وألّا يضعف أيام الحج، لأنّها أيام جُهد ومشقّة، فللّه ما أيسر هذا الدّين! وما أعظم سماحته!، ولقد علّمنا ﷺ أنّ الحج أعظم مؤتمر عالَمي وحضاري يجتمع فيه الملايينُ من البشر، باختلاف لهجاتهم، وألوانهم، ولغاتهم.

ومن المواقف العظيمة والمشاهد الكريمة في حجة ﷺ، والتي نقلها العلماء، وأنصت لها الحكماء، ووعاها الخطباء أنّه خطب يوم النّحر ﷺ خطبة عظيمة ما سمع الناس بمثلها، وهي ميثاق شرف عالمي في حفظ الدماء والأعراض والأموال، وهي رسالة للبشرية، وموعظة للإنسانيّة، فقد هزّ ﷺ الموقف، وألهب الجمعَ، وقد خشع الجميع وخضعوا، كلّهم آذان مُنصتة، وقلوب صاغية، وعقول متفكّرة، يُناديهم ﷺ فيقول كما جاء في الحديث الصّحيح عن أبي بكرة (رضي الله عنه): «**أيُّ شَهْرٍ هذا؟**، قُلْنا: **الله ورَسولُهُ أعْلَمُ**، فَسَكَتَ حتّى ظَنَنّا أنَّه سَيُسَمِّيهِ بغيرِ اسْمِهِ، قالَ: **أليسَ ذُو الحِجَّةِ؟**، قُلْنا: **بَلَى**، قالَ: **فأيُّ بَلَدٍ هذا؟**، قُلْنا: **الله ورَسولُهُ أعْلَمُ**، فَسَكَتَ حتّى ظَنَنّا أنَّه سَيُسَمِّيهِ بغيرِ اسْمِهِ، قالَ: **أليسَ البَلْدَةَ؟!**، قُلْنا: **بَلَى**، قالَ: **فأيُّ يَومٍ هذا؟** قُلْنا: **الله ورَسولُهُ أعْلَمُ**، فَسَكَتَ حتّى ظَنَنّا أنَّه سَيُسَمِّيهِ بغيرِ اسْمِهِ، قالَ: **أليسَ يَومَ النَّحْرِ؟!**، قُلْنا: **بَلَى**، قالَ: **فإنَّ دِماءَكُمْ وأَمْوالَكُمْ وأَعْراضَكُمْ علَيْكُم حَرامٌ، كَحُرْمَةِ يَومِكُمْ هذا، في بَلَدِكُمْ هذا، في شَهْرِكُمْ هذا، وستَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ، فَسَيَسْأَلُكُمْ عن أعْمالِكُمْ، ألا فلا تَرْجِعُوا بَعْدِي كفارًا، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقابَ بَعْضٍ، ألا لِيُبَلِّغِ الشاهِدُ الغائِبَ، فَلَعَلَّ بَعْضَ مَن يُبَلَّغُهُ أنْ يَكونَ أوْعى له مِن بَعْضِ مَن سَمِعَهُ**» [مُتفق عليه].

فصارت هذه الخطبة البليغة الموجزة المعبرة المؤثرة الآسرة ميثاقًا عالميًّا وحجّة على الناس أجمعين في حفظ الدّماء إلّا بحق شرعيّ، كما تضمنت صيانة الأموال والأعراض، وهذه شريعته المُباركة، وسيرته العطرة في حفظ الأرواح والدّماء والأموال وسلامة الإنسان، وصيانته والحفاظ على حقوقه،ولك أن تقارن بين المشهد السّابق وحال البشرية قبل مبعثه ﷺ من سفك الدّماء، ونهب الأموال، وانتهاك الأعراض، وإهدار الحقوق في حياة كأنّها حياة البهائم كما قال تعالى: {أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً} [الفرقان: الآية 44].

وبعدمَا رمى وحلَقَ ونحرَ ﷺ ذهب إلى مكة، فطاف ببيت الله العتيق طواف الإفاضة، وشرب من ماء زمزم، ثم عاد إلى منى، فمكث أيام التّشريق، ولم يصم ﷺ تلك الأيام، بل كان مُفطرًا، وكان يقول: «**أيامُ التشريقِ أيامُ أكلٍ وشربٍ**» [رواه مسلم].

وورد أنّه ﷺ كان يخطب في كل يوم من أيام التّشريق في منى، وكان يرمي الجمرات بعد الزّوال عليه الصّلاة والسّلام، يرمي كل جمرة بسبع حصيات، ولم يتعجّل ﷺ فهو سيّد المُتّقين، كما قال تعالى: {فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى} [البقرة: الآية 203].

ثم ارتحل ﷺ فطاف طواف الوداع بعد رحلة جميلة، رائعة، ربّانية، كلها عبادة للواحد الأحد الفرد الصّمد، وبشّر نبيّنا الحجيج، فقال ﷺ: «**مَن حَجَّ لله فَلَمْ يَرْفُثْ، ولَمْ يَفْسُقْ، رَجَعَ كَيَومِ ولَدَتْهُ أُمُّهُ**» [مُتفق عليه].

وقد شعَر المسلمون أنّ أجله ﷺ قد دنا لمّا نزلت عليه يوم عرفة تلك الآية العظيمة المُحكمة: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً} [المائدة: الآية 3]، وكأنّه يودّعهم الوداع الأخير، وسُميت هذه الحجة بـ «حجّة الوداع»، حيث ودّع ﷺ المؤمنين والمؤمنات، وقال لهم كلمة مُشجية، مؤثّرة، مُبكية: «**لعلّي لا ألقاكم بعدَ عامي هذا**»، فبكى الجمع، وحنّت القلوب، واهتزّت الأرواح، ثم قال كلمته البارعة الرائعة: « **أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّكُمْ مَسْئُولُونَ عَنِّي، فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟** فارتفعت الأصوات من كل حدبٍ ومن كلّ صوبٍ، ومن كل سهلٍ ومن كل رابية، من الشُعث والغُبر يهتفون: «**نَشْهَد أَنَّك قَدْ بَلَّغْت وَأَدَّيْت وَنَصَحْت**»،فَجَعَلَ ﷺ يَرْفَع سبابته إِلَى السَّمَاء وَيُنَكِّسهَا عَلَيْهِمْ وَيَقُول: «**اَللَّهُمَّ اِشْهَدْ، اَللَّهُمَّ اِشْهَدْ، اَللَّهُمَّ اِشْهَدْ**»، فاهتز المكان، والزمان، والإنسان،

ووقف التاريخ ليشهد، وصارت هذه الكلمة عبر الأيام تدوي في الأمصار والأقطار، وتعبر القفار والبحار، مُعلنةً صدق النّبي ﷺ، قال تعالى: {فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ} [البقرة: الآية 200].

فعاد ﷺ من حجّه وقد كمُلَ الدّين، وتمتّ النّعمة، وقامت الشّريعة، وانتصر الإسلام، ورسخ الإيمان، وعمّ التّوحيد، وزُهق الباطل، ودُمغ الشّرك، وسُحقت الوثنيّة، ورُفع لواء العدل، وعمّ الأمن، وانتشر السّلام، وأُلغيت شعارات الجاهلية، ومذاهب الوثنيّة، والعنصريّة القبليّة، وانطلقت كتائب التّوحيد بعد ذلك مُشرّقة ومُغرّبة، تنشر كلمة الحق، كلمة الإسلام والسّلام، كلمة العدل والمساواة، كلمة الفوز بالجنَّة والنّجاة من النّار، كلمة: «**لا إلهَ إلَّا اللهُ محمَّدٌ رسولُ اللهِ**»، قال سبحانه: {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ} [الصف: الآية 9].

أسأل الله الحيّ القيّوم، ذا الجلال والإكرام، أن يجزيه عنّا خير ما جزى نبيًّا عن أُمّته، وأن يُبلّغه منّا الصّلاة والسّلام، الزّكيين الطّاهرين، الدّائمين إلى يوم الدّين.

قفْ في الحياةِ مُصليّا ومُسلّما

لأجلِّ مَن لبّى النّداءَ وأحرمَا

بالبيت طاف وقبل ذلك روحه

طافت بعرش الله في ذاك الحمَى

وسعى وكل حياته سعي إلى

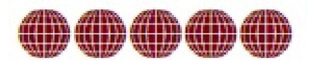
مرضاة خالقهِ مُجدًّا مُقْدِمًا

وأتى لينحرَ هديه فتسابقت

إبلٌ إليه تكاد تهديه الدّمَا

وكأنّما عرفات تعرف وجهَه

والله باهى بالحجيج وكرّمَا





محمد ﷺ تاليًا

كان من أجلّ أعماله ﷺ تلاوة القرآن ممتثلًا أمر ربّه تعالى: {وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ} [النمل: الآية 92]، وقوله سُبحانه: {اتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ} [العنكبوت: الآية 45]، فكانت قراءته ﷺ للقرآن تلاوةً لآياته، واهتداءً بهديه، واتّباعًا لتعاليمه، ودعوةً إليه، كما قال ربّ العالمين: {لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ} [آل عمران: الآية 146]، وأوّل ما نزل عليه ﷺ من القرآن قول الباري سبحانه: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ} [العلق: الآية 1]، فكان يقرأ ﷺ القرآن قراءة مُتدبّر، مُتأمّل، خاشع، مُتبتّل، مُنقطع إلى هذا الكتاب العظيم بقلبه ومشاعره، وأمره الله سبحانه فقال: {يَاأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً * نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً} [المزمل: الآية 1-4]، فامتثل ﷺ أمر ربّ العالمين.

وكان ﷺيتلو القرآن قائمًا وقاعدًا وعلى جنبه، يقرؤه في الفريضة والنّافلة، ويقرؤه وحده، ويقرؤه على النّاس، يعظ به، يقصّ به، يفسّره، يستنبط منه؛ لأنّ القرآن هو المرجعية الكُبرى له ﷺ، فدروسه، ومواعظه، وخطبه، وفتاويه، وقضاياه، وقصصه، كُلّها من القرآن، وكان يُحسّن صوته ﷺ بالقرآن ويقول: «**ليسَ مِنَّا مَن لَمْ يَتَغَنَّ بالقرْآنِ**» [رواه البخاري].

ويقول البراء بن عازب(رضي الله عنه): «سَمِعْتُ النبيَّ ﷺ يَقْرَأُ في العِشاءِ: {وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ} [التين: الآية 1]، **فَما سَمِعْتُ أحَدًا أحْسَنَ صَوْتًا أوْ قِراءَةً منه**» [مُتفق عليه]، ففي الحديث ندبٌ لتحسين الصّوت بالقرآن والتّغنّي به، وأنّ الصّحابة كانوا يجدون لذّةً في سماع تلاوته ﷺ.

وسمع ﷺ أبا موسى الأشعريّ (رضي الله عنه) يتلو في اللّيل، وقد أُوتي صوتًا جميلًا حسنًا عذبًا، فأنصت له ﷺ، وفي الصّباح قال له: «**يا أبا مُوسى، لقَدْ أُوتِيتَ مِزْمارًا مِن مَزامِيرِ آلِ داوُدَ**» [مُتفق عليه].

ويصف عوف بن مالك (رضي الله عنه) تلاوة النّبي ﷺ فيقول: «**قُمتُ معَ رسولِ الله ﷺ ليلةً، فقامَ فقرأَ سورةَ البقرةِ، لا يمرُّ بآيةِ رحمةٍ إلّا وقفَ فَسألَ، ولا يمرُّ بآيةِ عَذابٍ إلّا وقَفَ فتعوَّذَ**» [رواه أبو داود].

فكان ﷺ يتلذّذ بتلاوة القرآن، ويعيش معه بقلبه، ويحثّ على تلاوته وتدبّره ويقول: «**اقْرَؤُوا القُرْآنَ فإنَّه يَأْتي يَومَ القِيامَةِ شَفِيعًا لأَصْحابِهِ، اقْرَؤُوا الزَّهْراوَيْنِ: البَقَرَةَ وآلَ عِمْرانَ، فإنَّهُما تَأْتِيانِ يَومَ القِيامَةِ كَأنَّهُما غَمامَتانِ، أوْ كَأنَّهُما غَيايَتانِ، أوْ كَأنَّهُما فِرْقانِ مِن طَيْرٍ صَوافَّ، تُحاجّانِ عن أصْحابِهِما، اقْرَؤُوا سُورَةَ البَقَرَةِ، فإنَّ أخْذَها بَرَكَةٌ، وتَرْكَها حَسْرَةٌ، ولا تَسْتَطِيعُها البَطَلَةُ**» [رواه مسلم]، فانظر إلى حُسن وصفه ﷺ لبركة القرآن وآثاره وعاقبته المحمودة في الدّنيا والآخرة.

وتقول أمّ المؤمنين حفصة (رضي الله عنها) : «كانَ النّبي ﷺ يَقْرَأُ بِالسُّورَةِ فيُرَتِّلُها حتّى تَكُونَ أَطْوَلَ مِن أَطْوَلَ منها» [رواه مسلم]، فكانت قراءته ﷺ بترتيل وتمعّن وتدبّر، وليست هذًّا ولا هذرمة. وتقول أمّ سلمة أمّ المؤمنين (رضي الله عنها) : «كانَ رسولُ الله ﷺ يقطِّعُ قراءتَهُ يقرأ: (**الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعالَمِينَ**)، ثمَّ يقفُ، (**الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**) ثمَّ يقفُ، وَكانَ يقرؤها: (**مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ**) [رواه أبو داود].

إنّ هذه التّلاوة النّبوية المتأنية هي الطّريق إلى التّدبّر والتّفكّر في معاني هذا الكتاب العظيم.

وكان له ﷺ حزبٌ من القرآن يقرؤه كلّ يوم لِعظم تعلّقه بكتاب الله، وحبّه له، وشوقه لتلاوته، وروي عنه أنّه تأخر ﷺ عن وفد ثقيف فقالوا له: «**يا رسول الله لبثت عنّا اللّيلة أكثر ممّا كنت تلبث؛** فقال: **نعم طرأ عليّ حزبي من القرآن فكرهت أن أخرج من المسجد حتّى أقضيه**» [رواه أبو داود].

كان يعيش عليه الصّلاة والسّلام مع القرآن في حالة خشوعٍ وخضوعٍ، وتقرُّبٍ وانقياد، ورغبةٍ ورهبةٍ، وخوف ورجاء، وحُبٍ وإجلالٍ، وتعظيم وتقديس، كما قال تعالى واصفًا كتابه العظيم: {اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ}

[الزمر: الآية 23]، فكان القرآن أنيسه وجليسه ﷺ وربيع قلبه، ومائدته، وقرّة عينه، معه ليلًا ونهارًا، حِلًا وترحالًا، يقرؤه وهو راكب على دابّته، كما قال عبدالله بن مُغفل(رضي الله عنه): «**رَأَيْتُ رَسولَ الله ﷺ يومَ فَتْحِ مَكَّةَ على ناقَتِهِ، وهو يَقْرَأُ سُورَةَ الفَتْحِ**» [مُتفق عليه].

وقد ضمن الله تعالى لنبيّه ﷺ أن يُعينه على حفظ القرآن وعلى بيانه للنّاس، فقال تعالى: {لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ} [القيامة: الآية 16 - 19].

وكان ﷺ إذا أقبل رمضان عظم اهتمامه بالقرآن كما قال عبدالله بن عباس (رضي الله عنهما) : «**كانَ جِبْرِيلُ يَلْقَاهُ في كُلِّ لَيْلَةٍ مِن رَمَضَانَ، فيُدَارِسُهُ القُرْآنَ**» [رواه البخاري ومسلم]، وسُئلت أمّ المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) : **كيفَ كانت قراءتُهُ؟ أكانَ يُسِرُّ بالقراءةِ أم يَجهَرُ؟**، **قالَت:كلُّ ذلِك كانَ يفعَلُ، قد كانَ ربَّما أسرَّ، وربَّما جَهَرَ**» [رواه أبو داود]، فكان ﷺ مُيسّرًا حتى في تلاوته، فربّما جهر إذا وجد نشاطًا لذلك، وربّما أسرّ مراعاة للحال.

وكان ﷺ يحثّ المسلمين على تلاوة القرآن وتدبّره، وينهى عن هجره، ويقول: «**تَعاهَدُوا القُرْآنَ، فَوالذي نَفْسِي بيَدِهِ وَهل أشَدُّ تَفَصِّيًا** (أي: تَفَلُّتًا) **مِنَ الإبِلِ في عُقُلِها**» [مُتفق عليه].

ويحثّ ﷺ على التّزود من التّلاوة، ويُخبر أنّ بكل حرف حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، فيقول ﷺ: «**مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ الله فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لَا أَقُولُ: (الم) حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ، وَلَامٌ حَرْفٌ، وَمِيمٌ حَرْفٌ**» [رواه الترمذي].

وقال ﷺ: «**خَيْرُكُمْ مَن تَعَلَّمَ القُرْآنَ وعَلَّمَه**» [رواه البخاري]، وهذه أعظم شهادة لحملة القرآن يُشرّفهم بها أصدق البشر، رسول الهدى ﷺ.

وقال عليه الصّلاة والسّلام: «**إنَّ الله يَرْفَعُ بهذا الكِتَابِ أَقْوامًا، وَيَضَعُ به آخَرِينَ**» [رواه مسلم]، ليس هناك إلّا الارتفاع أو الاتّضاع، إمّا أن يُعملَ بالقرآن ويُتّبع فهناك العزّة والرّفعة، وإمّا أن يُعرض عنه ويُهمل فهي الذلّة والمهانة.

وكان يُكرّم ﷺ أهل القرآن، ويوقّرهم، ويُشرّفهم، ويُقرّبهم منه، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ (رضي الله عنه)قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إنَّ لله أَهْلِينَ مِنَ النَّاسِ، قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، مَنْ هُمْ؟، قَالَ: «هُمْ أَهْلُ**

الْقُرْآنِ، أَهْلُ الله وَخَاصَّتُهُ» [رواه أحمد].

وكان ﷺ يقدّم أهل القرآن ويقول: «**يؤمُّ القومَ أقروُهم لكتابِ الله**» [رواه مسلم].

ولمّا عُرض عليه ﷺ شُهداء أُحد سأل: **أيّهم أكثر أخذًا للقرآن؟** فكان يُقدّم الأكثر حفظًا للقرآن تجاه القبلة، فعن جابر بن عبدالله (رضي الله عنهما) : «**أنَّ رَسولَ الله ﷺ كانَ يَجْمَعُ بيْنَ الرَّجُل مِن قَتْلى أُحُدٍ في ثَوْبٍ واحِدٍ**، ثُمَّ يقولُ: **أيُّهُمْ أكْثَرُ أخْذًا لِلْقُرْآنِ؟ فَإِذا أُشِيرَ له إلى أحَدٍ قَدَّمَهُ في اللَّحْدِ**» [رواه البخاري].

وبشّر ﷺ أنّ الله يكرّم أهل القرآن في جناته ويرفع منزلتهم، فقال: «**يُقالُ لصاحِبِ القرآنِ اقرأ وارتَقِ ورتِّل كما كنتَ ترتِّلُ في الدُّنيا، فإنَّ منزلَكَ عندَ آخرِ آيةٍ تقرؤُها**» [رواه أبو داود].

ونوّه ﷺ بشرف أهل القرآن، فعن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: «**بعث رسولُ الله ﷺ بَعْثًا، وهم ذو عَددٍ فاستقرأهم، فاستقرأ كلَّ رجلٍ منهم ما معه من القرآنِ، فأتى على رجلٍ منهم من أَحدثِهم سِنًّا**، فقال: **ما معك يا فلانُ؟!**، قال: **معي كذا وكذا، وسورةُ البقرةِ**، قال: **أمعك سورةُ البقرةِ؟!**، فقال: **نعم**، قال: **فاذهبْ، فأنت أميرُهم**» [رواه الترمذي].

وأخبر ﷺ أنّ التّنافس الشّريف والمسابقة الجليلة إنّما تكون في كتاب الله تلاوة وعملًا، وهي التي يغبط عليها صاحبها، فقال ﷺ: «**لا حَسَدَ إلّا في اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتاهُ الله القُرْآنَ فَهو يَتْلُوهُ آناءَ اللَّيْلِ وآناءَ النَّهارِ، ورَجُلٌ آتاهُ الله مالًا فَهو يُنْفِقُهُ آناءَ اللَّيْلِ وآناءَ النَّهارِ**» [مُتفق عليه].

وحثّ ﷺ على بذل الجهد في إجادة تلاوة القرآن على الوجه الذي يرضي الله عزّ وجل، فقال: «**الْماهِرُ بالقُرْآنِ مع السَّفَرَةِ الكِرامِ البَرَرةِ، والذي يَقْرَأُ القُرْآنَ ويَتَتَعْتَعُ فِيهِ، وهو عليه شاقٌّ، له أجْران**» [مُتفق عليه].

وبشّرنا ﷺ بقول الباري سبحانه: {قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدىً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ} [النحل: الآية 102]، وذكر سبحانه هذه المنّة العظيمة في نزول الكتاب العظيم على النّبي الكريم فقال تعالى: {أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [العنكبوت: الآية 51].

لقد كان خُلُقه ﷺ القرآن، كما وصفته أمّ المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) فقالت: «**إنَّ خُلُقَ نَبِيِّ الله ﷺ كانَ القُرْآنَ**» [رواه مسلم]، فتمثّل القرآن في شخصه الكريم ﷺ، وائتمر بأوامر القرآن، وانتهى عن نواهي القرآن، وتأدّب بآداب القرآن، وتخلّق بأخلاق القرآن.

كل خصلة جميلة في القرآن هي من آدابه وأخلاقه ﷺ، فكان القرآن الحاكم على حياته، وتصرفاته، ولحظاته، وحركاته، وسكناته.

لقد أحلّ ﷺ حلال القرآن، وحرّم حرامه، وعمل بمُحكمه، وآمن بمتشابهه، وصدّق وعده ووعيده، وبكى عند زواجره، واستبشر ببشائره، وأنس بقربه، وسعد بتلاوته، فكان القرآن ربيع قلبه، وقرّة عينه، ولذة روحه، يتكلم بالقرآن، ويحكم بالقرآن، ويعظ بالقرآن، ويقص بالقرآن، ويفتي بالقرآن؛ لأنّه كلام الله المُعجز المعصوم الذي قال عنه ربّ العزة والجلال: {لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} [فصلت: الآية 42].

ولم يكن ﷺ له سوى كتاب واحد في صدره هو: «القرآن»، ليس عنده مكتبة، ولا مصنّفات، ولا مجلّدات، ولا مؤلّفات، ولا رسائل، إنّما هذا الكتاب المُعجز المُقدّس المُبارك، ولذلك قام ﷺ بحقوق عبودية القرآن كلّها، فهو يتلوه حقّ تلاوته على الوجه الذي يحبّه الله، ويتدبّره حق تدبّره على ما يرضي ربّه تعالى، ويعلّمه النّاس كما أمره الله بذلك، ويدعو إليه، ويستشفي به، ويُحكّمه في حياته وحياة الأُمّة، كما قال تعالى: {لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} [المائدة: الآية 49].

لقد أدّى النّبي ﷺ حقوق القرآن كاملة مُكمّلة، فكان القرآن الكريم الكتاب الوحيد مع النّبي ﷺ ومع أصحابه يوم فتحوا العقول، والقلوب، والأسماع، والأبصار، والأمصار، لقد دكّوا عروش كسرى وقيصر بالقرآن، وفتحوا كنوز فارس والرّوم بالقرآن، وأسّسوا أعظم حضارة للإنسان بالقرآن، ونشروا العدل في العالم بالقرآن، وحرروا بالقرآن البشريّة من رقّ الوثنيّة وظلمة الجاهليّة.

ومن أعظم وصاياه ﷺ لأمته وصيته بالقرآن، قال طلحة بن مصرف: سَأَلْتُ عَبْدَ الله بنَ أبِي أوْفَى (رضي الله عنهما) : «**آوْصَى النّبيُّ ﷺ؟**، فقالَ: **لا**، فَقُلْتُ: **كيفَ كُتِبَ علَى النَّاسِ الوَصِيَّةُ وأُمِرُوا بها ولَمْ يُوصِ؟**، قالَ: **أوْصَى بكِتابِ الله**» [مُتفق عليه].

ودعا ﷺ للتّمسك بكتاب الله والاعتصام به؛ لأنّه سفينة النّجاة وقارب الأمن فقال: «**أنا تارِكٌ فيكم ثَقَليْنِ، أَوَّلُهما كتابُ الله، فيه الهُدى والنّورُ، فخُذُوا بكتابِ الله، واستَمْسِكوا به**» [رواه مسلم]، وقال تعالى: {يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِيناً * فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا} [النساء: الآية 174].

وبيّن ﷺ أنّ كتاب الله والعمل به والتّمسك به هو المخرج من الفتنة إذا حلّت بالأمة كما في حديث حذيفة (رضي الله عنه) حين أخبره رسول الله ﷺ بما سيحدث من اختلافٍ وفرقة بعده، فقال حذيفة: «**يا رسول الله! فما تأمرُني إن أدركتُ ذلك؟، قال: يا حذيفةُ تعلَّمْ كتابَ الله، واتَّبعْ ما فيه. (ثلاثَ مراتٍ)**» [رواه أبو داود].

أيّها المؤمنون! عليكم بكتاب الله عزّ وجل تلاوةً، وحفظًا، وتدبّرًا، وعملًا، واستشفاءً به، وتحاكمًا إليه، أدّوا حقوقه ليُخرج لكم كنوزه، وينثر لكم جواهره، ويفتح لكم بإذن الله أبواب الخير والسّعادة، والأمن والسّلام، والتّوفيق والنّجاح، ارتحلوا مع القرآن، واجعلوه جليسكم وأنيسكم، رتّلوه في صلواتكم، وتهجّدوا به، وتغنّوا بآياته، وقفوا عند روائعه، وامتثلوا أمره، واجتنبوا نهيه، يُحصّنكم الله به من كل داء، ويحفظكم به من كلّ بلاء.

وتذكّروا أنّ لكم بكل حرفٍ عشر حسنات، وأنّكم تُناجون ربّكم بهذا الكلام المُبارك، وما تُعُبِّدَ لله بأفضل من قراءة كلامه والعمل به.

جعلنا الله وإيّاكم ممّن تلا القرآن حقّ تلاوته، وتدبّره حقّ تدبّره، وعمل به حقّ عمله، وجعله شفيعًا لنا يوم العرض، وشاهدًا لنا لا علينا، ويسّر به حسابنا، ويمّن به كتابنا، وغفر به ذنوبنا، وأصلح به عيوبنا، وأنار به قلوبنا، وأعاننا وإياكم على ذكره، وشكره، وحُسن عبادته، وصلّى الله وسلّم وبارك على مَنْ بعثه الله بالقرآن، ورزقنا جواره في جنّات الرّضوان.

سمعتك يا قرآن واللّيل واجم

سريت تهزّ الكون سبحان من أسرَى

فتحنَا بك الدّنيا فأشرقَ نورها

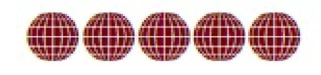
وسرنا على الأفلاك نملؤها ذكرا

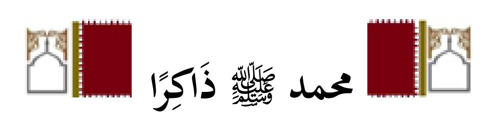
فسبحان من أوحى إلى خير خلقه

ومفتاح علم المصطفى كان في(إِقرَا)

تلَا في الدّجى آياتهِ متدبرًا

وقام به في النّاس يملؤهم طُهرَا





محمد ﷺ ذَاكِرًا

يُذكّرك كُلّ شيء في شمائله الطّاهرة، وسيرته العطرة، وأقواله وأفعاله ﷺ بذكر الله تعالى، فمَن رآه ذكر الله؛ لأنّه رسول الله، وخليل الله.

وهو أفضل الذّاكرين إلى يوم الدّين، وأعرف النّاس بربّه، وأعلمهم بمولاه، فكان ذكرُه ذكرَ مُحبٍّ عارفٍ، مُخبتٍ مُنيبٍ.

وهو الذي أتى بالذّكر، ونزل عليه، وهو أوّل العاملين به، والمُبلّغين له. وهو صاحب المحل الأسمى والدّرجة العُليا في ذكر الله تعالى.

أتى ﷺ بتعاليم الذّكر، وعلّم الأمة كيف يذكرون الله فيسبحون ويحمدون ويكبرون ويهللون ويدعون، وكل ذاكر إلى يوم القيامة فإمامه رسول الهُدى ﷺ.

ذكر ﷺ ربّه بقلبه، فكان أطهر قلب ينبعث منه تقديس الباري، وذكر خالقه بروحه فكانت أنقى روح تنطلق منها التّسبيحات المُباركات، وذكر مولاه بلسانه فكان أبرّ لسان وأصدق لسان تلفّظ بتسبيح الواحد الدّيان.

وماذا عساي أن أقول هنا؟ وبأي قلم أكتب؟ وبأي يدٍ أخطّ؟ وبأي فكر أملي؟! تتوقف هنا عباراتي، وتتلعثم كلماتي، لعظمة مشهده ﷺ وهو ذاكر لربّه، بعدما طالعتُ نصوص الوحي كتابًا وسنة، وقرأتُ هديه في الأدعية والأذكار، باستمرار اللّيل والنّهار، في الإقامة والأسفار.

فهو الذي علّم أمّته ذكر خالقهم، وحبّب إليهم الاسم الأعظم (الله)، فصار أطهر اسم تتلفّظ به الأفواه، وأقدس كلمة تدور على الألسنة، وأشرف عبارة تهتزّ لها القلوب.

كانت صلاته ﷺ وصيامه، وصدقته، وحجه، وتلاوته، وصمته ونطقه، وسرّه وعلانيته، ولحظه ولفظه، وقيامه وقعوده، ويقظته ونومه، وطعامه وشرابه، وخطبه ومواعظه، وأمره ونهيه، وكلّ شأن من شؤون حياته ذكرٌ لله تعالى، بل كل عبارة تلفّظ بها، أو جملة قالها، أو حرف نطق به فإنّما هو تقديس لمولاه، أو تسبيح لخالقه، أو حمد للمُنعم سبحانه، أو تكبير وتعظيم له جلّ شأنه، أو دلالة على طاعته، أو دعوة إلى توحيده وإرشاد إلى دينه، أو تحذير من معصيته، أو ترغيب في جنته، أو ترهيب من ناره.

فصار كلّ حديثه ﷺ ذكرًا لله، وكلّ كلامه تسبيحًا لمولاه، تقول أمّ المؤمنين عَائِشَةَ (رضي الله عنها) : «**كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَذْكُرُ الله عَلَى كُلِّ أَحْيَانِهِ**» [رواه مسلم]، فكان ﷺ يذكر الله دائمًا وأبدًا، قائمًا، وقاعدًا، وعلى جنبه، في كل زمان ومكان:

ذكرَ الإلهَ فصدّقته دموعهُ	وقيامهُ وسجودهُ وركوعهُ
أنفاسه ذكرٌ وهمسُ أنينهِ	تهتزُّ من خوف العظيمِ ضلوعهُ

وكان لذكره ﷺ صورٌ كثيرة سنعيش معها في هذا الفصل، ومنها:




تسبيحه ﷺ:

التّسبيح هو تقديس الله تبارك وتعالى وتنزيهه عن كلّ ما لا يليق به جلّ في علاه، فمعنى: «**سبحان الله**»، أي: أُنزّه الله وأُقدّسه عن كلّ شريك أو نديد أو صاحبة أو ولد أو أيّ وصف لا يليق بذاته المُقدّسة.

وصحّ عنه ﷺ أنّه سبّح ربّه بصيغ عديدة منها قوله: «**سبحان الله**»، و«**سبحان الله وبحمده**»، و«**سبحان الله العظيم وبحمده**»، و«**سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم**»، و«**سُبْحانَ الله وَبِحَمْدِهِ، عَدَدَ خَلْقِهِ، وَرِضا نَفْسِهِ، وَزِنَةَ عَرْشِهِ، وَمِدادَ كَلِماتِهِ**» [رواه مسلم]، إلى غير ذلك من صيغ التّسبيح وأنواعه.

وأمّا أجور التّسبيح فقد بشّرنا بها ﷺ، وذكرها في أحاديث كثيرة، ومن يُطالع هذه الأجور، ويقرأ هذا الثّواب تزداد عزيمته، وتقوى همّته على كثرة التّسبيح، فعن سعد ابن أبي وقاص (رضي الله عنه) قال: كُنَّا عِنْدَ رَسولِ الله ﷺ، فَقالَ: «**أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكْسِبَ، كُلَّ يومٍ أَلْفَ حَسَنَةٍ؟** فَسَأَلَهُ سَائِلٌ مِن جُلَسَائِهِ: **كيفَ يَكْسِبُ أَحَدُنَا أَلْفَ حَسَنَةٍ؟** قالَ: **يُسَبِّحُ مِئَةَ تَسْبِيحَةٍ، فيُكْتَبُ له أَلْفُ حَسَنَةٍ، أَوْ يُحَطُّ عنْه أَلْفُ خَطِيئَةٍ**» [رواه مسلم].

وفي «**الصّحيحين**» عنه ﷺ أنّه قال: «**مَن قالَ: سُبْحانَ الله وَبِحَمْدِهِ، في يَومٍ مِئَةَ مَرَّةٍ حُطَّتْ خَطاياهُ ولو كانَتْ مِثْلَ زَبَدِ البَحْرِ**»، وفي التّرمذي عنه ﷺ أنّه قال: «**مَن قالَ: سُبحانَ الله العظيمِ وبحمدِهِ، غُرِسَت لَهُ نَخلةٌ في الجنَّةِ**»، وقال ﷺ: «**كَلِمَتانِ خَفِيفَتانِ علَى اللِّسانِ، ثَقِيلَتانِ في المِيزانِ، حَبِيبَتانِ إلى الرَّحْمَنِ، سُبْحانَ الله وبِحَمْدِهِ، سُبْحانَ الله العَظِيمِ**» [مُتفق عليه]، وعن جويرية بنت الحارث (رضي الله عنها) أنَّ **النبيَّ ﷺ خَرَجَ مِن عِندِهَا بُكْرَةً حِينَ صَلَّى الصُّبْحَ، وَهي في مَسْجِدِهَا، ثُمَّ رَجَعَ بَعْدَ أَنْ أَضْحَى، وَهي جَالِسَةٌ**، فَقالَ: «**ما زِلْتِ على الحالِ الَّتي فارَقْتُكِ عَلَيْها؟**، قالَتْ: نَعَمْ، قالَ النبيُّ ﷺ: **لقَدْ قُلتُ بَعْدَكِ أَرْبَعَ كَلِماتٍ، ثَلاثَ مَرّاتٍ، لو وُزِنَتْ بما قُلْتِ مُنْذُ اليَومِ لَوَزَنَتْهُنَّ**: «**سُبْحانَ الله وَبِحَمْدِهِ، عَدَدَ خَلْقِهِ، وَرِضا نَفْسِهِ، وَزِنَةَ عَرْشِهِ، وَمِدادَ كَلِماتِهِ**» [رواه مسلم].

«**سبحان الله**» هي أوّل الكلمات الأربع، لأنّ التّخلية قبل التّحلية، والتّنزيه قبل المدح، فتُقدّم «سُبحان الله»، ثم يأتي بعدها الحمد ليُضاف النّفي والإثبات فيُنفى عن الله عزّ وجل كل نقص، ويُثبت له كلّ كمال؛ ولذلك قُرن التّسبيح والتّحميد بسبحان الله وبحمده، وقُرنت أحيانا بـ«**سُبْحانَ الله وبِحَمْدِهِ، سُبْحانَ الله العَظِيمِ**».

وأكثر كلمة وردت في الكتاب والسُّنة هي كلمة التسبيح، وردت بالماضي: «**سَبَّح**»، والمُضارع: «**يُسبّح**»، والأمر: «**سَبِّح**»، والمصدر: «**تسبيح**» و«**سُبْحَانَ**»، ولم يرد في أيّ نوع من أنواع الذّكر ما ورد في التّسبيح، بل أخبر ﷺ أنّ الكون كلّه يُسبّح كما قال الله تعالى: {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا} [الإسراء: الآية 44]، فالكائنات كلّها تُسبّح باريها، والكون كلّه يُسبّح خالقه، وقد روى مُسلم عن أبي ذر أنَّ رَسُولَ الله ﷺ سُئِلَ :**أَيُّ الكَلامِ أَفْضَلُ؟**، قالَ: **ما اصْطَفَى الله لَمِلائِكَتِهِ، أَوْ لِعِبادِهِ: «سُبْحانَ الله وَبِحَمْدِهِ»**.

وأخبرنا ﷺ أنّ كلّ مخلوق يُسبّح كما قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَآَفَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ} [النور: الآية 41]، فلكل كائن صلاة تخصّه، الله أعلم بها جلّ في علاه.

وقد روى أحمد في «**مسنده**»، والنسائي في «**الكبرى**» أنّ نوحًا عليه السلام قال لابنه: «**أوصيك بسبحانَ الله وبحمدِه، فأنّها صلاةُ الخلقِ، وبهما يُرزقُ الخلقُ**»، {وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا} [الإسراء: الآية 44]. وأعظم عمل للملائكة هو التّسبيح، قال تعالى: {يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لاَ يَفْتُرُونَ} [الأنبياء: الآية 20]، وقال سبحانه: {وَتَرَى الْمَلاَئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ} [الزمر: الآية 75]، فذكر سبحانه أجلّ عباداتهم، وأعظم طاعاتهم، وتوسّلوا له سُبحانه بأعظم عمل يعملونه، وأجلّ طاعة يتقربون بها إليه، كما قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ} [البقرة: الآية 30].

وأخبرنا ﷺ أنّ ربّ العالمين نزّه نفسه سُبحانه في مواطن كثيرة، فقال تعالى: {سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} [القصص: الآية 68]، فعند ذكر اتخاذ النّديد أو الشّريك أو إضافة الصّاحبة لله أو الولد، أو وصفٍ لا يليق به تقدّس وتبارك يُذكر التّنزيه والتسبيح، فكأنّ المُسبّح يقول: أُنزّهك يا ربّي وأُقدّسك عن هذه جميعًا وأُثبت لك صفات الكمال، والجمال، والجلال.



مواطن تسبيحه ﷺ:

كان رسولُ الله ﷺ إذا استفتح الصَّلاةَ قال: «**سُبحانَك اللهمَّ وبحَمْدِك، وتبارَك اسمُك، وتعالى جَدُّك، ولا إلهَ غَيرُك**» [رواه أبو داود]، وإذا مرّ بآية فيها تسبيح سبّح ﷺ، مثل قوله تعالى: (**سَبِّح**) أو (**سَبَّح**) أو (**يُسَبِّح**) وفي ركوعه يقول: «**سبحان ربي العظيم**»، وفي سجوده يقول: «**سُبحان ربّي الأعلى**»، ويُسبّح أدبار الصّلوات فيقول: «**سبحان الله**» **ثلاثًا وثلاثين مرة**، وكان يقول ﷺ في ركوعه وسجوده: «**سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ رَبُّ المَلائِكَةِ والرُّوحِ**» [رواه مسلم].

فانظر كيف جمع ﷺ بين التّنزيه وبين الثّناء والمدح، ليكون التسبيح كاملًا، فنزّه الله تعالى وقدّسه وأثبت له تمام القدسيّة، وهي الطّهارة والعظمة والرّبوبية ومُنتهى القدرة والتّدبير.

وقال ﷺ في لفظ آخر: «**سبحانَ ذي الجبروتِ والملَكوتِ والْكبرياءِ والعظمةِ**» [رواه النسائي]، فنزّه الله عمّا لا يليق به، وأثبت له الجبروت؛ وهو تمام القوة والسّلطان، وأثبت له الملكوت؛ وهو عزّة المُلك وعظيم الولاية، وأثبت له الكبرياء؛ وهو علو الشّأن والعظمة.

وكان عليه الصّلاة والسّلام يحرص على التّسبيح في نهاية المجلس ويقول: «**من جلس في مجلسٍ فكثُرَ فيه لَغطُه فقال قبل أن يقومَ من مجلسِه ذلك: سبحانك اللهمَّ وبحمدك أشهدُ أن لا إله إلّا أنت أستغفرُك وأتوبُ إليك؛ إلّا غُفِرَ له ما كان في مجلسِه ذلك**» [رواه الترمذي].

وعند ضيق الصّدر، وترادف الهمّ، وحصول الكرب؛ أرشد الله نبيّه إلى التّسبيح، فقال تعالى: {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ} [الحجر: الآية 97 - 98]، وقال سبحانه: {فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ} [ق: الآية 39 - 40].

فالتّسبيح من أنفع الأدوية لإزالة الهموم والغموم وذهاب الأحزان. يقول تعالى عن نبيّه يونس عليه السلام: {فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ} [الصافات: الآية 143 - 144]، فبالتّسبيح نجّاه الله، وبالتّسبيح أنقذه الله، وبالتّسبيح رضي الله عنه، كان من المُسبحين في الرّخاء فحفظه الله في الشّدة؛ ولما وقع في الكرب سبّح ربّه، فمدّ له حبل النّجاة واستنقذه من الهلاك.

وكان ﷺ إذا هبط في سفره من جبل أو مكان عال سبّح، كما جاء في الصّحيح عن جابر (رضي الله عنه) قال: «**كُنَّا إذَا صَعِدْنَا كَبَّرْنَا، وإذَا نزلنا سَبَّحْنَا**» [رواه البخاري]. والمقصود أنّهم كانوا إذا صعدوا الجبال كبّروا الله؛ لأنّهم إذا ارتفعوا ذكروا العلو والارتفاع فناسب أن يُمجّدوا الله بأنّ له الرّفعة والمجد سبحانه حتى يتواضع من يرتفع على الجبل، وإذا هبطوا تذكّروا الانخفاض والدّنو ونزّهوا الله عن ذلك وأثبتوا له الرّفعة والمجد سُبحانه.

وأمر الله تعالى نبيّه عليه الصّلاة والسّلام بالتّسبيح عند ذكر ما لا يليق، كما سأل المشركون أن يكون النّبي مَلَكًا من عند الله وليس بشرًا، فقال تعالى: {قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلاَّ بَشَرًا رَسُولاً} [الإسراء: الآية 93]، وكان يُسبّح ﷺ عند التعجّب والأمر المُفرح، فيقول: «**سبحان الله**»! وفي رواية: «**الله أكبر**».

وكان ﷺ إذا رأى آيةً عظيمة سبّح كما في حديث أمّ سلمة أنّه قال: «**سُبْحانَ الله، ماذا أُنْزِلَ اللَّيْلَةَ مِنَ الفِتَنِ!؟ وماذا فُتِحَ مِنَ الخَزائِنِ، أيْقِظُوا صَواحِباتِ الحُجَرِ، فَرُبَّ كاسِيَةٍ في الدُّنْيا عارِيَةٍ في الآخِرَةِ**» [رواه البخاري]؛ ولهذا أتى التّسبيح في القرآن في مواطن، منها عند ذكر المعجزة، مثل معجزة الإسراء والمعراج؛ لأنّها مُبهرة للعقول، فقال تعالى: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى} [الإسراء: الآية 1]، وأتى في نفي كلّ وصف لا يليق بالله فقال سبحانه: {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ} [الصافات: الآية 180]، وكان يُسبّح ﷺ بهذه الآيات من آخر سورة آل عمران إذا نظر في الأفق متفكرًا متأملًا في الكون، وفي بديع الصّنع وجلال القدرة، ويقول: {رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} [آل عمران: الآية 191].

وعند ركوبه للدّابة كان يُسبّح ﷺ ويقول: «**سُبْحانَ الذي سَخَّرَ لَنا هذا، وَما كُنّا له مُقْرِنِينَ**» [رواه مسلم].

وبعد أن ينتهي من وتره ﷺ كان يُسبح الله، ويقول: «**سُبحانَ الملِكِ القدُّوسِ!**» ثلاثَ مرّاتٍ. [رواه أبو داود].

وكان أكثر تسبيحه ﷺ في الصّباح والمساء، وعند الشّروق والغروب كما قال تعالى: {فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ} [الروم: الآية 17].

والظّاهر مقصود التّسبيح هنا أنّ في إقبال النّهار وإدبار اللّيل جلال عظمة الباري، وبديع صنعه حيث يُقبل الضّوء ويُدبر الظّلام، ثم يُدبر الضّوء ويُقبل الظلام، في مشهد مُدهش عجيب يدل على عظمة الخالق جلّ في علاه.

وصحّ عنه ﷺ أنّه أرشد إلى قول: «**سبحان الله وبحمده**» مئة مرة في الصباح، ومئة مرة في المساء، وقبل نومه يقول: «**سُبحان الله**» ثلاثًا وثلاثين مرة، مع باقي أذكار النّوم.

إذا سبّحت الله أسقط عنك الذّنوب، وطهّرك من العيوب، لأنّك بتسبيحك له تنزهه عن النّقائص، وتنفي عنه المعايب، والجزاء من جنس العمل، فكما قدّست ذاته يُطهّر ذاتك من الخطايا، حتى في جنات النّعيم - وقد رُفع قلم التّكليف عن العباد - يبقى التّسبيح مع أولياء الله في دار الخلد،

ولو لم يكن إلّا هذا شرفًا للذاكرين لكفى به شرفًا، وأيُّ شرف! قال تعالى: {دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ} [يونس: الآية 10].

تسبيح خالقهِ يطوفُ ببالهِ	وبقولهِ وبحالهِ وفعالهِ
سُبحانك اللّهمَ عِطرُ حديثهِ	مدحًا لخالقهِ وحُسن جلالهِ



تحميده ﷺ:

ومعنى «**الحمد لله**»: أُثني على الله بآلائه، وأشكره على إحسانه ونَعمائه، وقد علّمنا رسولنا ﷺ صيغًا في الحمد منها: «**الحمد لله**»، و«**الحمد لله رب العالمين**»، و«**الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مُباركًا فيه**»، و«**يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك**»، و«**الحمدُ لله عددَ ما خلق، الحمدُ لله مِلْءَ ما خلق، الحمدُ لله عددَ ما في السماواتِ وما في الأرضِ، الحمدُ لله عددَ ما أحصى كتابُه، والحمدُ لله عدَدَ كلِّ شيءٍ، والحمدُ لله مِلْءُ كلِّ شيءٍ**»، وغيرها من صيغ الحمد الكثيرة التي كان يقولها ﷺ.

وقد ذكر ﷺ أجورًا كثيرة على الحمد، ومنها ما جاء في «صحيح مُسلم» أنّه قال: «**والْحَمْدُ لله تَمْلأُ المِيزانَ**»، وصحّ عنه عليه الصّلاة والسّلام أنّه قال: «**أفضلُ الدُّعاءِ الحمدُ لله**» [رواه ابن حبّان].

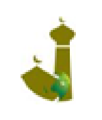
وقرن ﷺ رضا الله بحمد العبد، فقال: «**إنَّ اللهَ لَيَرْضَى عَنِ العَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الأكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا، أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا**» [رواه مسلم].

وسرّ الحمد أنّه يأتي في أحد أمرين:

إمّا عند ذكر جلال الله وأسمائه وصفاته وعظمته وعلوّ شأنه، فيُحمد على الأسماء الحسنى والصفات العُلى، أو يأتي الحمد على ذكر النّعم الجزيلة والآيات الجليلة منه جلّ في علاه، فهو محمود على الإحسان، ومحمود على عظيم الشّأن.

وقد ذُكر حمد الله في مواطن كثيرة من القرآن، فحُمد سبحانه على إنزال الوحي الذي هو رحمة للعالمين، فقال تعالى في أوّل سورة الفاتحة: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} ، وحُمد على إبداع

خلق السماوات والأرض، فقال سبحانه: {الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ} [فاطر: الآية 1]، وحُمد على بركة القرآن فقال تعالى: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى} [الكهف: الآية 1]،، وحُمد سبحانه أن سخر الفُلك لعباده فقال لنبيّه نوح عليه السّلام: {فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} [المؤمنون: الآية 28]، وذكر سبحانه وتعالى حمد نبييْهِ داود وسليمان عليهما السّلام على العلم والتّفضيل على النّاس، فقال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالاَ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ} [النمل: الآية 15].



مواطن تحميده ﷺ:

سنّ لنا رسولنا ﷺ حمد الله عند الانتهاء من الطعام والشّراب؛ لأنّها نعمة يُشكر عليها الله جلّ في عُلاه، فعن أبي أمامة الباهلي(رضي الله عنه): «**أنَّ النبيَّ ﷺ كانَ إذَا رَفَعَ مَائِدَتَهُ، قالَ: الحَمْدُ لله كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ، غيرَ مَكْفِيٍّ ومُوَدَّعٍ ومُسْتَغْنًى عنْه رَبَّنَا**» [رواه البخاري].

وعند الاستيقاظ من النّوم يُسنّ حمد الله؛ لأنّ إعادة الرّوح إلى النائم من النّعم الجليلة التي يُحمد عليها المُنعم سبحانه، وهبة الحياة ليوم جديد نعمة من الله لا بد أن يُشكر عليها سُبحانه، فعن أبي ذر الغفاري(رضي الله عنه) قال: كانَ النبيُّ ﷺ إذا أخَذَ مَضْجَعَهُ مِنَ اللَّيْلِ، قالَ: «**اللهمَّ باسْمِكَ أمُوتُ وأَحْيا**»، فإذا اسْتَيْقَظَ، قالَ: «**الحَمْدُ لله الذي أحْيانا بَعْدَ ما أماتَنا وإلَيْهِ النُّشُورُ**» [رواه البخاري].

وعند انتباه النّائم في اللّيل عليه أن يحمد ربّه، ففي «صحيح البخاري» عن عبادة ابن الصامت (رضي الله عنه) قال: قال النّبيُّ ﷺ: «**مَن تَعارَّ** «أي: **استيقظ**» **مِنَ اللَّيْلِ، فَقالَ: لا إلَهَ إلَّا اللهُ وحْدَهُ لا شَرِيكَ له، له المُلْكُ وله الحَمْدُ، وهو علَى كُلِّ شيءٍ قَدِيرٌ، الحَمْدُ لِلَّهِ، وسُبْحَانَ اللهِ، ولَا إلَهَ إلَّا اللهُ، واللهُ أَكْبَرُ، ولَا حَوْلَ ولَا قُوَّةَ إلَّا باللهِ، ثُمَّ قالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، أوْ دَعَا؛ اسْتُجِيبَ له، فإنْ تَوَضَّأَ وصَلَّى قُبِلَتْ صَلَاتُهُ**».

ومن تعارّ اللّيل للعبادَةْ	عند البخاري جاء عن عُبَادَةْ
فيه دعاءٌ من رسول اللهِ	يغفر ذنبًا فاستفقْ يَا لاهِي

وكان ﷺ يحمد الواهب المُعطي عند لبس الثّوب؛ لأنّه جلّ في عُلاه الذي سهّل هذا اللّباس، وهيأ هذا الكساء، لستر العورة والتجمّل، فعن معاذ بن أنس الجهني(رضي الله عنه) قال: قال النبيُّ ﷺ: «**مَنْ لبِسَ ثوبًا فقال: الحمدُ لله الّذي كسَانِي هذا الثوب ورزَقَنِيهِ من غيرِ حولٍ مِنّي ولا قُوَّةٍ؛ غُفِرَ لهُ ما تقدَّمَ من ذنْبِهِ ومَا تأخَرَّ**» [رواه ابو داود].

ويأتي حمد الله تعالى بعد كل صلاة مع الأذكار الأخرى؛ لأنّ الإعانة على الطّاعات ـ ومنها أداء الصّلوات ـ من أجل النّعم التي يُحمد الله عليها، فعن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قال النبيُّ ﷺ: «**من سبَّحَ الله في دُبُرِ كلِّ صلاةٍ ثلاثًا وثلاثينَ، وحمدَ الله ثلاثًا وثلاثينَ، وكبَّرَ الله ثلاثًا وثلاثينَ، فتلكَ تسعةٌ وتسعونَ، وقالَ تمامَ المئةِ: لا إلهَ إلّا الله وحدَهُ لا شريكَ لهُ، لهُ الملكُ ولهُ الحمدُ وهوَ على كلِّ شيءٍ قدير؛ غفرت خطاياهُ وإن كانت مثلَ زَبَدِ البحرِ**» [رواه مسلم].

وكان ﷺ يحمد ربّه عند العطاس؛ لأنّ العطاس علامة العافية كما قال الأطباء، فجاء حمد الله هنا ليناسب هذه النّعمة، وقال ﷺ: «**إذا عَطَسَ أحَدُكُمْ فَلْيَقُلْ: الحَمْدُ لله**» [رواه البخاري].

وسنّ ﷺ حمد الله عند رؤية المُبتلى وأهل الأوجاع والمصائب؛ ليشكر المؤمن ربّه على أنْ سلّمه من هذا البلاء، مع مراعاة ألّا يُسمع المُبتلى، فعن أبي هريرة(رضي الله عنه) قال: قال النّبيُّ ﷺ: «**من رأى مُبتلًى فقال: الحمدُ لله الَّذي عافاني ممّا ابتلَاكَ بِهِ وفضَّلني على كثيرٍ ممَّن خلقَ تفضيلًا؛ لم يصبْهُ ذلِكَ البلاءُ**» [رواه الترمذي].

وإذا تذكّر العبد النّعمة أو رآها فعليه أن يحمد ربّه، وهذا مذهب عباد الله المفلحين، قال تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ} [إبراهيم: الآية 39]، وقال الله تعالى: {وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} [النمل: الآية 93]، وقال تعالى: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ} [لقمان: الآية 25]، وقال جلّ اسمه: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ} [الأنعام: الآية 1] إلى آخر تلك الآيات العظيمة.

وجاء حمد الله عند تدبّر وتأمّل أسماء الله الحُسنى وصفاته العلى عزّ وجل، فأنّها من أعظم المواضع التي يُحمد الله تعالى عليها، قال سبحانه: {الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ

الْمَلاَئِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [فاطر: الآية 1]، وقال تعالى: {هُوَ الْحَيُّ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [غافر: الآية 65].

وكان ﷺ يبدأ خطبه بالحمد وليس بغيره من الأذكار الأخرى، كالتّسبيح أو التّكبير أو التّهليل؛ لأنّ العلم من أعظم النّعم، ووعظ النّاس ونصحهم من فضل الله تعالى، واجتماع النّاس في هذه المشاهد تُذكر فيه نعم الله، ويُحمد عليها جلّ في علاه، فعند مشاهد الخير ومجامع الفضل يُثنى على الله بما هو أهله تباركت أسماؤه.

ومن المواضع العظيمة للحمد: حمده سبحانه عند دخول الجنّة، جعلنا الله وإياكم من أهلها، فقد أخبر الله تعالى أنّ أولياءه إذا دخلوا الجنّة حمدوه جلّ في علاه على ما سهّل لهم من طاعةٍ، وأثابهم من نعيم، وغفر لهم من ذنوب، وأسعدهم في دار الكرامة، وأذهب عنهم الحزن، قال تعالى: {وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلاَ أَنْ هَدَانَا اللَّهُ} [الأعراف: الآية 43]، وقال تعالى: {وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ} [فاطر: الآية 34]، وقد أخبرنا ﷺ كما عند أحمد والترمذي أنّ في الجنّة بيتًا يُسمّى: بيت الحمد، بناه اللهُ لمَن حمده على المصائب.

إنّ من أسمى المنازل حمد المولى وشكره، ولا يَحمد الله من لا يرضى بمواهبه وأحكامه، وصنعه وتدبيره، وأخذه وعطائه، فالحامد أنعم النّاس بالًا، وأحسنهم حالًا، فلا تستصغر نعم الله عليك فيسلبها منك، فكّر في جسمك من رأسك إلى قدميك، ترَ عطايا المُنعم سُبحانه في كل ذرّة من جسمك، فوظّفها في الخير، واحمد ربّك الذي أعطاك وحباك، وكرّر: «**الحمد لله**»، الحمد لله المُتكفّل بالأقوات، المرجوّ في الأزمات، المطلوب عند كشف الكُربات، الحمد لله دائم الفضل والإحسان، جزيل الخير والامتنان، حكيم الخَلق والإتقان، الحمد لله على مرِّ الساعات، وفي كل الأوقات، وطيلة اللّحظات:

وفي كلّ حالٍ يحمد اللهَ رَبَّهُ ... عَلَى شِدّة من دهرِهِ وليانِ

يُرتّل أحْلَى الحمد فِي كلّ سَاعةٍ ... بأيّ زَمَانٍ أو بأيّ مَكانِ



تهليله ﷺ:

التّهليل هو تاج الأذكار، وأفضلها، وأعظمها أجرًا، وأشرفها على الإطلاق، وهو المقصود من رسالته ﷺ التي أرسله الله بها، رسالة التّوحيد، رسالة: «**لا إله إلّا الله**».

وسرّ هذه الكلمة أنّها دعوة الأنبياء جميعًا عليهم السّلام، ومعناها: لا معبود بحق إلّا الله، ففيها نفي وإثبات، نفي في قوله: «**لا إله**»، وإثبات في قوله: «**إلّا الله**».

كانت هذه الكلمة على طرف لسانه ﷺ، يقولها ويدعو إليها بقوله وفعله، وخطبه ومواعظه، وأوّل كلمة قالها لمشركي قريش: «**قولوا: لا إله إلّا الله تُفلحوا**»، فجعل ﷺ السّعادة والفلاح والنّجاح مع هذه الكلمة وهذا الذّكر الخالد الباقي الطّيب.

قد ذكر العلماء في هذه الكلمة أوصافًا لم تجتمع في كلمة غيرها من كلمات الذّكر والدّعاء، كقولهم: أنّها كلمة التّقوى، وكلمة التوحيد، والمنجية، والخاتمة، والطّيبة، والباقية، وكلمة الإخلاص، وكلمة الإيمان، ودعوة الرّسل، ومفتاح الجنّة، والبراءة من الشّرك، والخلوص من النّفاق... إلى غير ذلك.

وورد في حديثه ﷺ صيغ عديدة للتهليل منها: «**لا إله إلّا الله**»، و«**لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير**».

وقد رتّب ﷺ على التّهليل من الأجور العظيمة ما لا يوجد في غيره، منها:

عن جابر (رضي الله عنه) قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**أَفْضَلُ الذِّكْرِ لَا إِلَهَ إِلَّا الله**» [رواه الترمذي].

وفي الصّحيحين قال ﷺ: «**مَن قالَ: لا إلَهَ إلَّا اللهُ، وحْدَهُ لا شَرِيكَ له، له المُلْكُ وله الحَمْدُ، وهو علَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ، في يَومٍ مِئَةَ مَرَّةٍ؛ كانَتْ له عَدْلَ عَشْرِ رِقابٍ، وكُتِبَتْ له مِئَةُ حَسَنَةٍ، ومُحِيَتْ عنْه مِئَةُ سَيِّئَةٍ، وكانَتْ له حِرْزًا مِنَ الشَّيْطانِ يَومَهُ ذلكَ حتَّى يُمْسِيَ، ولَمْ يَأْتِ أحَدٌ بأَفْضَلَ ممَّا جاءَ به، إلَّا أحَدٌ عَمِلَ أكْثَرَ مِن ذلكَ**».

وعن سعد بن أبي وقاص (رضي الله عنه) قال: جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إلى رَسولِ الله ﷺ، فَقالَ: عَلِّمْنِي كَلَامًا أَقُولُهُ، قالَ: «**قُلْ: لا إلَهَ إلّا الله وَحْدَهُ لا شَرِيكَ له**» [رواه مسلم]، وهي أيضًا سبب في شفاعة النّبي ﷺ لقائلها يوم القيامة، كما صحّ عنه ﷺ أنّه قال: «**أسْعَدُ النّاسِ بشَفَاعَتي يَومَ القِيَامَةِ، مَن قالَ: لا إلَهَ إلّا الله،خَالِصًا مِن قَلْبِهِ**» [رواه البخاري].

وأخبر ﷺ أنّها سبب في غفران الذنوب ومحو الخطايا، فقال: «**مَن قالَ حِينَ يَسْمَعُ المُؤَذِّنَ: أشْهَدُ أنْ لا إلَهَ إلَّا اللهُ وحْدَهُ لا شَرِيكَ له، وأنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ ورَسولُهُ، رَضِيتُ بالله رَبًّا وبِمُحَمَّدٍ رَسولًا، وبالإسْلَامِ دِينًا، غُفِرَ له ذَنْبُهُ**» [رواه مسلم].

وأرشد ﷺ أنّ «**لا إله إلّا الله**» عقيدة، وعمل، وأخلاق، ودعوة، وتحكيم، وأنّها أفضل الإيمان، فقال ﷺ: «**الإيمانُ بضْعٌ وسَبْعُونَ، أوْ بضْعٌ وسِتُّونَ، شُعْبَةً، فأفْضَلُها قَوْلُ: لا إلَهَ إلّا الله، وأَدْناها إماطَةُ الأذَى عَنِ الطَّرِيقِ**» [رواه مسلم].

ودلّ ﷺ على أنّها سبب في تجديد الإيمان فقال: «**جدِّدوا إيمانَكُم. قالوا: يا رسولَ الله وَكَيفَ نجدِّدُ إيمانَنا؟ قالَ: أَكْثِروا مِن قَولِ: لا إلَهَ إلّا الله**» [رواه أحمد].

وبشّر ﷺ أنّ «**لا إله إلّا الله**» تُحرّم وجه قائلها على النّار، فقال: «**مَن كان آخِرُ كَلامِه :لا إله إلّا الله، وَجَبَتْ له الجنَّةُ**» [رواه أبو داود]، وقال ﷺ: «**إنَّ الله قدْ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَن قالَ: لا إلَهَ إلّاَ لله، يَبْتَغِي بذلكَ وجْهَ الله**» [مُتفق عليه]، وعن عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**مَنْ قَالَ: أشْهَدُ أنْ لا إلَهَ إلَّا اللهُ وحْدَهُ لا شَرِيكَ له، وأنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ ورَسولُهُ، وأنَّ عِيسَى عبدُ الله، وابنُ أَمَتِهِ، وكَلِمَتُهُ أَلْقاها إلى مَرْيَمَ ورُوحٌ منه، وأنَّ الجَنَّةَ حَقٌّ، وأنَّ النَّارَ حَقٌّ، أدْخَلَهُ اللهُ مِن أيِّ أبْوابِ الجَنَّةِ الثَّمانِيَةِ شاءَ**» [مُتفق عليه].



مواطن تهليله ﷺ:

صحّ عنه ﷺ أنّه كان يُلقّن من أراد الدّخول في الإسلام: «**لا إله إلّا الله، وأنّ محمدًا رسول الله**»، وفي الصّحيحين أنّه قال لعليٍّ (رضي الله عنه) لمّا أرسله لليهود: «**ادْعُهُمْ إلى لا إله إلّا الله، وأنّي رسول الله،، فَوَالله لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بكَ رَجُلًا خَيْرٌ لكَ مِن أنْ يَكونَ لكَ حُمْرُ النَّعَمِ**».

وبعد الانتهاء من الوضوء، كما جاء عن عُقبة بن عامر (رضي الله عنه) أنّ النّبي ﷺ قال: «**ما مِنكُم مِن أحَدٍ يَتَوَضَّأُ فيُبْلِغُ-أوْ فيُسْبِغُ- الْوَضُوءَ ثُمَّ يقولُ: أشْهَدُ أنْ لا إلَهَ إلَّا اللهُ وحْدَهُ لا شَرِيكَ له وأَشْهَدُ أنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ ورَسولُهُ؛ إلَّا فُتِحَتْ له أبْوابُ الجَنَّةِ الثَّمانِيَةُ يَدْخُلُ مِن أيِّها شاءَ**» [رواه مسلم].

وعند استيقاظه من نومه في اللّيل، فعن عبادة بن الصّامت (رضي الله عنه) أنّ النّبي ﷺ قال: «**مَنْ تَعَارَّ مِنَ اللَّيْلِ فَقَالَ: لا إلَهَ إلَّا اللهُ وحْدَهُ لا شَرِيكَ له، له المُلْكُ وله الحَمْدُ، وهو علَى كُلِّ شيءٍ قَديرٌ، الحَمْدُ لِلَّهِ، وسُبْحَانَ اللهِ، ولَا إلَهَ إلَّا اللهُ، واللهُ أكْبَرُ، ولَا حَوْلَ ولَا قُوَّةَ إلَّا باللهِ، ثُمَّ قالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، أوْ دَعَا؛ اسْتُجِيبَ له، فإنْ تَوَضَّأَ وصَلَّى قُبِلَتْ صَلَاتُهُ**» [رواه البخاري].

وفي أذكار الصّباح والمساء صحّ عنه ﷺ أنّه قال: «**مَن قال حين يصبحُ أو يمسي: اللهمَّ إني أصبحتُ أُشهدكَ وأشهدُ حملةَ عرشِك وملائكتَك وجميعَ خلقِك أنّك أنت اللهُ لا إله إلا أنت، وأنَّ محمدًا عبدُك ورسولُك؛ أعتقَ اللهُ ربعَه من النَّارِ، فمن قالها مرَّتيَنِ أعتق اللهُ نصفَه، ومن قالها ثلاثًا أعتق اللهُ ثلاثةَ أرباعِه، فإن قالها أربعًا أعتقَه اللهُ من النَّارِ**» [رواه أبو داود].

وعند التّشهد في الصّلاة، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ (رضي الله عنهما) أَنَّهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُعَلِّمُنَا التَّشَهُّدَ كَمَا يُعَلِّمُنَا السُّورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ، فَكَانَ يَقُولُ: «**التَّحِيَّاتُ المُبَارَكَاتُ، الصَّلَوَاتُ الطَّيِّبَاتُ لِلهِ، السَّلَامُ عَلَيْكَ أيُّها النبيُّ ورَحْمَةُ اللهِ وبَرَكَاتُهُ، السَّلَامُ عَلَيْنَا وعلَى عِبَادِ اللهِ الصَّالِحِينَ، أشْهَدُ أنْ لا إلَهَ إلَّا اللهُ، وأَشْهَدُ أنَّ مُحَمَّدًا رَسولُ اللهِ**» [رواه مُسلم].

وبعد السّلام من الصّلاة، كَانَ يَقُولُ ﷺ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ: «**لا إلَهَ إلَّا اللهُ وحْدَهُ لا شَرِيكَ له، له المُلْكُ وله الحَمْدُ، وهو علَى كُلِّ شيءٍ قَديرٌ**» [مُتفق عليه].

وعند رجوعه من غزو أو حج أو عمرة، صحّ عنه ﷺ أنّه إذَا قَفَلَ مِن غَزْوٍ أوْ حَجٍّ أوْ عُمْرَةٍ، كان يقولُ: «**لا إله إلّا الله وحْدَهُ لا شَرِيكَ له، له المُلْكُ وله الحَمْدُ، وهو علَى كُلِّ شيءٍ قَدِيرٌ**» [مُتفق عليه].

وعند الكرب كان ﷺ يُهلل ويقول: «**لا إله إلّا الله العَظِيمُ الحَلِيمُ، لا إله إلّا الله رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ، لا إله إلّا الله رَبُّ السَّمَاواتِ ورَبُّ الأرْضِ، ورَبُّ العَرْشِ الكَرِيمِ**» [مُتفق عليه].

وصحّ عنه ﷺ أنّه قال:«**دعوَةُ ذي النُّونِ إذ دعا بِها وَهوَ في بَطنِ الحوتِ: لا إلهَ إلَّا أنتَ، سبحانَكَ إنِّي كُنتُ منَ الظَّالمينَ لم يَدعُ بِها رجلٌ مسلمٌ في شيءٍ قطُّ، إلَّا استجابَ اللهُ لَهُ**» [رواه الترمذي].

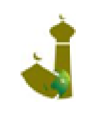
وعند احتضار الميت، أوصى النّبي ﷺ بتلقين الميت بها فقال: «**لَقِّنُوا مَوْتاكُمْ: لا إله إلّا الله**» [رواه مُسلم].

اجعل «**لا إله إلّا الله**» مشروعك في الحياة، وقضيتك الكبرى، آمن بها، وردّدها، واعتقدها، واعمل بمقتضاها، وانشرها، فهي أصدق كلمة، وأجمل عبارة، وأقوى لفظ، وأعظم حجة، وأنبل رسالة.

فادع إليها، وتزوّد منها، فأنّها تحرق جبال الذّنوب، وتُخرجك من الظّلمات إلى النّور، ومن الهمّ إلى السّرور، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن النّار إلى الجنان.

روحهُ تهتفُ بالتّهليل حُبًّا ... مُفردًا بالمدحِ والتقديسِ ربًّا

إنّ أغلى ثَروةٍ يملكُها ... كِلْمةُ التّوحيدِ كمْ تَعمُرُ قلبًا



تكبيره ﷺ:

يتذكر رسولنا ﷺ عظمةَ ربّه وجبروتَه وكبرياءَه، وعظيم سلطانه، وقوة قهره، وعزّتَه؛ فتنبعث من قلبه: «**الله أكبر**» صادقة قويّة، مع أنفاسه الطّاهرة، الله أكبر من الكون وما فيه، الله أكبر في ملكوته وجبروته، الله أكبر في ذاته المُقدّسة وأسمائه الحُسنى وصفاته العُلى.

وعلّمنا رسولنا ﷺ أنّ من مقاصد «**الله أكبر**» أن نأتي بضعفنا إلى قوته، وبفقرنا إلى غناه، وبذلّتنا إلى عزّته، وبذنوبنا إلى رحمته، فهو الأكبر سبحانه، يجبر كسرنا، ويقيل عثرتنا، ويغفر زلّتنا.

وممّا أُوحي إلى رسول الله ﷺ من القرآن اقتران اسم الله العظيم «**العلي**» باسمه الأجل «**الكبير**»، وفي ذلك سرّ عظيم إذ يقول تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ} [الحج: الآية 62]، وقال تقدّس اسمه: {ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ

كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ} [غافر: الآية 12]، فهو كبير في علوّه، عليٌّ في عظمة شأنه، فمن جبروته سبحانه أنّ له العلوّ المُطلق، والعظمة التي لا نهاية لها، وكمال العزّة وتمام القهر، يحكم لا معقّب لحكمه ولا رادّ لقضائه، ذلّت له الجباه، وخضعت له الرّقاب، وتصاغر لكبريائه كلّ كبير.

وعلمنا نبيّنا ﷺ أنّ من أسرار «**الله أكبر**» أنّها قاهرة للشّيطان، قاصمة لظهر إبليس، وما سمعها إلّا تصاغر وتضاءل، وخنس واختفى؛ لأنّ ذكر الكبير جلّ في علاه يقصم ظهر عدوّه.

وقد عظّم الله شأن نفسه، وأمر نبيّه ﷺ وأتباعه إلى يوم الدّين فقال سبحانه: {وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ} [المدثر: الآية 3]، وقال تعالى: {وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا} [الإسراء: الآية 111] أي تكبيرًا مُتصلًا كثيرًا عظيمًا، فبتكبيره سبحانه يَهزم العدو، ويَغلب الخصم، ويُذهب الكروب، ويُزيح الخطوب؛ لأنّك التجأت إلى الكبير المُتعال ورددت «**الله أكبر**»، فالله أكبر من همومك، والله أكبر من أحزانك، والله أكبر من شدائدك، فالتجئ إليه، وتوكّل عليه، وفوّض أمرك إليه، وكرر دائمًا وأبدًا: «**الله أكبر**»، ليكفيك الكبير المُتعال، فعطاؤه كبير، وخيره كثير، وإليه المصير.

والتّكبير مسنون في المواضع الهامة، والمجامع العامة، زمانًا ومكانًا وحالًا، مشروع في الأعياد واللقاءات، وعند النّصر والفتوحات استشعارًا لعظمة من قدّر هذا التقدير، وأنزل هذا الوحي، ونصر هذا النّبي، وقهر الأعداء، وأتمّ النّعمة، وأكمل الشّريعة، فهو ذكرٌ مسنون عند كل أمر مهول، وعند كل خبر مُفْرِح، شكرًا لله على النّعماء، وبراءةً ممّا نَسب إليه الأعداء.



مواطن تكبيره ﷺ:

كان ﷺ يُكبّر عند افتتاح الصّلاة؛ لأنّ في ذلك شعورًا بأنّ من أقبلتَ عليه أكبر من كلّ شيء تركته، ومن تُصَلِّي له أكبر من الدّنيا وما فيها فلا تتشاغل بغيره.

وسنّ ﷺ التّكبير في الأذان والإقامة لإعلام الناس بعظمة الله وجبروته ليقبلوا إلى بيته وعبادته، وسَنّ ﷺ التّكبير عند كل خفض ورفع، في الرّكوع والسّجود، ليتذكر المُصلي عظمة وكبرياء من يصلي له.

وكان ﷺ يحث على الإكثار من الأعمال الصالحة في العشر الأوائل من ذي الحجة ومنها التّكبير؛ لأنّ العشر من ذي الحجة يجتمع فيها الحجيج، وتظهر فيها معالم عظمة الإسلام فتُذكّر بجبروت الكبير المُتعال، فحسُن أن يُكبّر فيها، وكان يقول ﷺ: «**ما أَهَلَّ مُهِلٌّ قَطُّ إلّا بُشِّر، ولا كبَّرَ مُكَبِّرٌ قَطُّ، إلّا بُشِّرَ**»، قيل: **يا رسول الله بالجنَّة؟**، قال: «**نعم**» [رواه الطبراني].

وقد صح عنه عليه الصّلاة والسّلام أنّه قال: «**ما من أيّامٍ أعظَمُ عندَ الله ولا أحَبُّ إليه العَمَلُ فيهِنَّ من هذه الأيّامِ العَشْرِ، فأكْثِروا فيهِنَّ من التَّهْليلِ والتَّكْبيرِ والتَّحْميدِ**» [رواه أحمد].

ويُسنّ التّكبير عند رمي الجمرات، وعند الصّعود من منى إلى عرفات، وعند الطّواف وغيرها من مواطن التّكبير في مشاعر الحج؛ لأنّ فيها هيبة الحجيج واجتماعهم، وهو ذكر مناسب للحال.

وكان ﷺ يُكثر من التّكبير أيام عيد الفطر وعيد الأضحى، فالعيد مظهر من مظاهر الجلال والجمال للإسلام والمسلمين، فناسب تكبير الباري سبحانه صاحب العظمة، وصاحب هداية العباد، فكبّروه وشكروه على إرشادهم وهدايتهم جلّ في علاه، قال تعالى: {وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ} [البقرة: الآية 185]، فكان يكبّر ﷺ في العيد ويقول: «**الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلّا الله، والله أكبر، الله أكبر، ولله الحمد**»، وورد: «**الله أكبر كبيرًا، والحمد لله كثيرًا، وسُبحان الله بُكرةً وأصيل**»، وجاء عن عَمرِو بنِ شُعَيبٍ، عن أبيه، عن جَدِّه: «**أنَّ النَّبيَّ ﷺ كبَّر في عيدٍ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ تَكبيرةً، سبعًا في الأولَى، وخمسًا في الآخرة، ولم يُصلِّ قَبلَها ولا بَعدَها**» [رواه أحمد].

وعند ركوب الدّابة وعند السّفر كان ﷺ يُكبّر، كما صحّ عنه أنّه كان إذا استوَى على ظهر الدابَّة قال: «**الحَمدُ لله**»، ثم قال: « **سُبْحَانَ الذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنينَ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ**»، ثم قال: «**الحَمدُ لله، الحَمدُ لله، الحَمدُ لله، الله أَكْبَرُ، الله أَكْبَرُ، الله أَكْبَرُ**» ثم قال: «**سُبحانَكَ إنّي ظَلَمْتُ نَفْسي، فاغفِرْ لي، إنَّه لا يَغفِرُ الذنوبَ إلَّا أنتَ**» [رواه أبو داود]؛ لأن ركوب الدّابة قد يُشعر الرّاكب بالزّهو، فتذكّره بأنّ الأكبر والأعظم والأعلى هو الله يُوجب عليه أن يتمَسْكن، وأن يتواضع، ويكبّر خالقه سبحانه.

وكان ﷺ إذا علا شرفًا «أي: مكانًا مرتفعًا» كبّر ربّه، وكان يُوصي بذلك الصّحابة رضوان الله عليهم. والسّر في ذلك أنّ الإنسان إذا ارتفع على جبل أو هضبة قد تجرّه نفسه للعُجب فأُمر أن

يُكبّر ربّه في تلك اللّحظات؛ لأنّ العظمةَ والعزةَ والجلالَ والكمالَ له وحده سبحانه، وكان النّبي ﷺ يُوصِي المُسافرَ فيقول له: «**عليك بتقوَى الله، والتّكبير على كل شرَف**» [رواه الترمذي]، وعند كل ذبحٍ كان ﷺ يُكبّر الله، يقول أنس (رضي الله عنه): «**ضَحَّى رسول الله ﷺ بكبشين أملحين أقرنين. وقال: «باسم الله، والله أكبر**» [مُتفق عليه].

والتّكبير هنا فيه إخلاص العبودية لله؛ لأن المشركين كانوا يذبحون لغير الله، أمّا رسول الله ﷺ فكان يذبح لله، وينحر لله، ممتثلًا لأمر الله جلّ في علاه: {فَصَلِّ * لِرَّبِكَ * وَانْحَرْ *} [الكوثر: الآية 2]. وكبّر الله لعظم هذا المشهد.

وكان التكبير شعار مجلسه ﷺ عند الأخبار السارة والبشارات المُفرحة، فعن أبي سعيد الخدري (رضي الله عنه) أنّ النّبي ﷺ قال: «**إنّي لأَرْجُو أنْ تَكُونُوا رُبُعَ أهْلِ الجَنَّةِ. فَكَبَّرْنا**، ثُمَّ قالَ: **ثُلُثَ أهْلِ الجَنَّةِ. فَكَبَّرْنا**، ثُمَّ قالَ: **شَطْرَ أهْلِ الجَنَّةِ. فَكَبَّرْنا**» [مُتفق عليه]. فمواضع الفرح والبشارة يُشرع فيها التّكبير.

وفي صلاة الاستسقاء كان ﷺ يُكبر، فقد روى الدارقطني من حديث ابن عباس (رضي الله عنهما) : «**أنّه يكبر فيها سبعًا وخمسًا كالعيد**»، وقد ذكر ابن عبد البر عن ابن عباس أنّ التكبير في الاستسقاء كالتّكبير في العيد.

ومن السُنَّة النّبوية المطهّرة التّكبير في الصّلاة على الميت أربع تكبيرات، كما صح عنه ﷺ؛ لأنّ الموت فيه رسالة ودليل على فناء الإنسان وبقاء الواحد الديّان، فناسب هنا تكبيره سبحانه.

وحثّ رسولنا ﷺ على الإكثار من التّكبير؛ لأنّه يملأ ما بين السماوات والأرض، فقد ورد في الحديث النّبوي: «**التَّسبِيحُ نصِفُ المِيزانِ، والحمدُ لله يَملؤُهُ، والتَّكبِيرُ يَملأُ ما بين السّماءِ والأرضِ**» [رواه الترمذي]. وبالتّكبير تُفتح أبواب السماوات، فعن عبدالله بن عمر (رضي الله عنهما) ، قال: «**بيْنَمَا نَحْنُ نُصَلِّي مع رَسولِ الله ﷺ إذْ قالَ رَجُلٌ مِنَ القَوْمِ: الله أكبرُ كَبِيرًا، والحمدُ لله كَثِيرًا، وَسُبْحانَ الله بُكْرَةً وَأَصِيلًا**، فَقالَ رسول الله ﷺ: **مَنِ القائِلُ كَلِمَةَ كَذا وَكَذا؟**، قالَ رَجُلٌ مِنَ القَوْمِ: **أَنا، يا رَسولَ الله**، قالَ: **عَجِبْت لَها، فُتِحَتْ لَها أَبْوابُ السَّماءِ**». قالَ ابنُ عُمَرَ: «**فَما تَرَكْتُهُنَّ مُنْذُ سَمِعْتُ رَسولَ الله ﷺ يقولُ ذلكَ**». [رواه مسلم].

الله أكبر كلّما تبلّج صباح وأسفر، وكلما نوّر روض وأزهر، وكلّما تراكم غيث وأمطر، الله أكبر تكسَّرت بها آمالُ الأكاسرة، وتقصّرت بها أعمار القياصرة، ورغمت بها أنوف الجبابرة.

اللهُ أكبرُ كلُّ همّ يَنْجلي	عن قلبِ كلِّ مكبّرٍ ومهَلّلِ
هِيَ تاجُ هَاماتِ الكلام وإنَّها	لأجلُّ لفظٍ في الكتابِ المُنزَلِ



ذكره ﷺ للكلمات الأربع: «سُبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر».

ميّز الله تعالى هذه الكلمات الأربع بفضائل جميلة، وخصال جليلة، ودعا رسوله ﷺ إلى قولها، وبيّان فضلها وذكر الثّواب الجزيل لمن قالها، والأجر العظيم لمن أكثر منها.

ومن يتأمل هذه الكلمات الأربع يجد أنّها جمعت مقاصد الدّين، وأهداف الملّة، ورسائل الشّريعة فإن «**سبحان الله**»، تنزيه لله جلّ في عُلاه، ويدخل في ذلك تنزيه رسوله ﷺ وتنزيه شريعته، و«**الحمد لله**» إثباتٌ للكمال والشّكر والثّناء له تقدّست أسماؤه، و«**لا إله إلّا الله**» اعتراف بالوحدانيّة لله تعالى والدّعوة إلى عبوديته، و«**الله أكبر**» إثبات العظمة والعزّة والكبرياء له وحده.

فالكلمات الأربع وافية في بابها، شافية في مضمونها، عظيمة في قدرها، وأسوق إليك ما ورد فيها من خصائص وفضائل علّ النّفوس مع تردادها تطير شوقًا، وعلّ الأرواح مع تكرارها تُسافر فرحًا إلى جنّات النّعيم في جوار رب كريم.



الكلمات الأربع أحبّ الكلام إلى الله:

أخبر ﷺ أنّ الكلمات الأربع هي أحبّ الكلام إلى الله، فعن سمرة بن جندب (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَحَبُّ الكَلامِ إلى الله أرْبَعٌ: سُبْحانَ الله، والْحَمْدُ لله، ولا إلَهَ إلَّا الله، والله أكْبَرُ؛ لا يَضُرُّكَ بأَيِّهِنَّ بَدَأْتَ** [رواه مُسلم]، فإذا كانت هذه الكلمات أحبّ الكلام إلى الله، فعلينا أن نُعطّر بها أنفاس الحياة.



الكلمات الأربع أحبّ إلى النّبي ﷺ ممّا طلعت عليه الشّمس:

أخبر ﷺ أنّ هذه الكلمات الأربع أحبّ إليه ممّا طلعت عليه الشّمس، أي أحبّ إليه من الدّنيا كلّها، بزخرفها، وزينتها، وكنوزها، وقناطيرها المُقنطرة من الذّهب والفضة، فعن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ لِأَنْ أَقُولَ: «**سُبْحَانَ الله، وَالْحَمْدُ لله، وَلَا إِلَهَ إِلَّا الله، وَالله أَكْبَرُ، أَحَبُّ إِلَيَّ ممَّا طَلَعَتْ عليه الشَّمْسُ**» [رواه مُسلم].



الكلمات الأربع مُكفّرات للذّنوب:

ومن الأجور العظيمة لهذه الكلمات الأربع أنّها مُكفّرات للذّنوب، فعن عبدالله ابن عمرو بن العاص (رضي الله عنهما) قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما علَى الأرضِ رجلٌ يقولُ: لا إلَهَ إلَّا الله، والله أَكْبرُ، وسُبحانَ الله، والحمدُ لله، ولا حَولَ ولا قوَّةَ إلَّا بالله، إلَّا كَفَّرت عنهُ مِن ذنوبِهِ وإن كانَت مثلَ زبدِ البحرِ**» [رواه أحمد].

وعن أنس بن مالك (رضي الله عنه) أن النبيَّ ﷺ مرّ بشجرةٍ يابسةِ الورقِ فضربها بعصاهُ فتناثر الورقُ فقال: «**إنَّ ـ الحمدُ لله، وسبحانَ الله ـ، ولا إله إلّا الله، والله أَكْبرُ لتُساقط ذنوبَ العبدِ كما تساقطُ ورقُ هذه الشّجرة**» [رواه الترمذي].



الكلمات الأربع غراس الجنّة:

كانت الكلمات الأربع أجمل هدية من خليل الرحمن إبراهيم عليه وعلى رسولنا وجميع الأنبياء الصّلاة والسّلام، فعن عبدالله بن مسعود (رضي الله عنه) عن النّبي ﷺ أنّه قال: «**لَقِيتُ إبراهيمَ ليلةَ أُسْرِيَ بي، فقال: «يا مُحَمَّدُ ! أَقْرِئْ أمتَك مِنِّي السلامَ، وأَخْبِرْهم أن الجنةَ طَيِّبَةُ التُّرْبَةِ، عَذْبَةُ الماءِ، وأنها قِيعانٌ، وأن غِرَاسَها: سبحان الله، والحمدُ لله، ولا إله إلا اللهُ، واللهُ أكبرُ**» [رواه الترمذي].

جنّتك تنتظرك فاغرس فيها ما استطعت لتجني ثمرها، وتتفيأ ظلالها.



الكلمات الأربع تعدل الصّدقة بالمال:

وبشّر رسول الله ﷺ بأنّ الكلمات الأربع تعدل لقائلها الصّدقة بالمال، فعن أبي ذرٍّ (رضي الله عنه) أنَّ نَاسًا مِن أَصْحَابِ النبيّ ﷺ قالوا: يا رَسولَ الله، **ذَهَبَ أهْلُ الدُّثُورِ بالأُجورِ، يُصَلُّونَ كما نُصلِّي، وَيَصُومُونَ كما نَصُومُ، وَيَتَصَدَّقُونَ بفُضُولِ أَمْوَالِهِمْ!،** قالَ: **أَوَليس قدْ جَعَلَ الله لَكُمْ ما تَصَّدَّقُونَ؟، إنَّ بكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةً**» [رواه مسلم]، فإذا عجزت عن إنفاق المال، فجُد على نفسك وتصدّق بهذه الكلمات المُباركات الطّاهرات.



الكلمات الأربع تُجزئ عن قراءة القرآن:

ومن فضائلهن أنّها تقوم مقام القرآن لمن عجز عن حفظ شيء منه كما أخبر ﷺ، فعن ابن أبي أوفى-(رضي الله عنهما) - قال: جاء رجُلٌ إلى النَّبيِّ ﷺ فقال: يا رسولَ الله إنِّي لا أستطيعُ أنْ أتعلَّمَ القُرآنَ فعلِّمْني ما يُجزِئُني مِن القُرآنِ، قال: « **قُلْ: سُبحانَ الله، والحَمدُ لله، ولا إلهَ إلَّا الله، واللهُ أكبَرُ، ولا حَولَ ولا قُوَّةَ إلَّا بالله**» [رواه والنّسائي].

فهذه الكلمات من الوحي المُبارك المُنزّل على نبيّنا ﷺ.



قائل الكلمات الأربع من أفضل عباد الله وأعلاهم درجة:

ومن فضائل الكلمات الأربع التي أخبرنا بها ﷺ أنّ من قضى عمره في قولها وتكرارها صار من أفضل عباد الله وأعظمهم درجة عنده، قال ﷺ: «**ليس أحدٌ أفضلَ عندَ الله مِنْ مؤمنٍ يُعمَّرُ في الإسلامِ لتسبيحِه وتكبيرِه وتهليلِه**». [رواه أحمد].



يُذكر قائل الكلمات الأربع عند عرش الرّحمن:

وأخبر ﷺ أن الكلمات الأربع سبب في ذكر قائلها في الملأ الأعلى حول العرش العظيم عرش الرّحمن الرّحيم، فعن النّعمان بن بشير (رضي الله عنه) أنّ النّبي ﷺ قال: «**إنَّ ممَّا تذكرونَ من جلالِ اللهِ التسبيحَ والتهليلَ والتحميدَ ينعطِفْنَ حولَ العرشِ لهنَّ دويٌّ كدويِّ النحلِ، تُذكِّرُ بصاحبِها. أمَا يُحبُّ أحدُكم أن يكونَ لهـ-أو لا يزالَ لهـ- من يُذكِّرُ به**» [رواه أحمد].

فإذا أردت الشّرف والرّفعة والمجد فأكثر من هذه الأربع لتُذكر عند ملك الملوك سُبحانه.



الكلمات التي اصطفاها الله لعباده الصّالحين:

وقد اصطفى الله هذه الكلمات الأربع للمصطفين من عباده، واختارها للموفّقين من أتباع رسوله ﷺ، فعن أبي هريرة وأبي سعيد (رضي الله عنهما) أنّ رسول ﷺ قال: «**إِنَّ اللهَ اصْطَفَى من الْكَلامِ أَرْبَعًا: سُبْحانَ اللهِ، وَالحَمدُ للهِ، وَلا إِلَهَ إِلا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ**، ثُمَّ قالَ: من قَال: **سُبْحانَ اللهِ كُتِبَ لَهُ عِشْرُونَ حَسَنَةً، وَحُطَّ عنهُ عِشْرُونَ سَيِّئَةً**، ومن قَال: **اللهُ أَكْبَرُ فَمِثْلُ ذَلِكَ**، ومن قَال: **لا إِلَهَ إِلا اللهُ فَمِثْلُ ذَلِكَ، ومن قال: الحَمدُ للهِ رَبِّ الْعالَمينَ من قِبَلِ نَفْسِهِ كُتِبَت لَهُ بِها ثَلاثونَ حَسَنَةً، وَحُطَّ عنهُ ثَلاثونَ سَيِّئَةً**» [رواه أحمد].



الكلمات الأربع وقاية وحجاب من النّار:

وأخبر ﷺ من فضائل الكلمات الأربع أنّها تقي قائلها من النّار، ومن غضب الجبار، فعن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ: «**خُذُوا جُنَّتَكُمْ**» قَالُوا: **يَا رَسُولَ اللهِ، أَمِنْ عَدُوٍّ قَدْ حَضَرَ؟** قَالَ:**لَا، جُنَّتُكُم مِنَ النَّارِ، قُولوا: سُبحانَ اللهِ، والحمدُ للهِ، ولا إلهَ إلَّا اللهُ، واللهُ أكبرُ؛ فَإِنَّهُنَّ يأتِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُجَنِّبَاتٍ وَمُعَقِّبَاتٍ، وَهُنَّ الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحاتُ**» [رواه النّسائي]، والباقيات هي التي تبقى ذخرًا عند الله، ويدوم أجرها يوم القيامة، ولا ينقطع ثوابها، قال سُبحانه: {وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً} [الكهف: الآية 46].



الكلمات الأربع ثقيلات في ميزان الرّحمن:

ومن فضائلهنّ أنّهنّ ثقيلات في الميزان العظيم، ميزان ملك الملوك سُبحانه، فعن أبي سَلمى (رضي الله عنه) قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**بَخٍ بَخٍ - وأشار بيدِه بخَمْسٍ - ما أثقَلَهنَّ في الميزانِ! سُبحانَ اللهِ، والحمدُ للهِ، ولا إله إلّا اللهِ، واللهُ أكبَرُ**» [رواه النّسائي]. و«**بَخٍ بَخٍ**»: هي كلمة استحسان تُقال عند الإعجاب بشّيء، فاملأ ميزان ربّك بتسبيحه، وتحميده، وتهليله، وتكبيره.



الكلمات الأربع يترتب عليها جوائز ثمينة وأجور عظيمة:

جوائز عظيمة وأجور جسيمة تحصل عليها في دقائق معدودة بتكرار هذه الكلمات المباركات الطيبات الطاهرات، عن أمّ هانئ بنت أبي طالب (رضي الله عنها) قالت: «مرَّ بي ذات يومٍ رسولُ الله ﷺ، فقلتُ: يا رسولَ الله قد كَبِرتُ وضعفتُ (أو كما قالت) فمرني بعملٍ أعملُه وأنا جالسةٌ. قال: **سبّحي اللهَ مئةَ تسبيحةٍ فأنّها تعدلُ لك مئةَ رقبةٍ تعتقينها من ولدِ إسماعيلَ، واحمدي اللهَ مئةَ تحميدةٍ فأنّها تعدلُ لكِ مئةَ فرسٍ مسرُجةٍ مُلجمةٍ تحملين عليها في سبيلِ الله، وكبري اللهَ مئةَ تكبيرةٍ فأنّها تعدلُ لكِ مئةَ بدنةٍ مُقلدةٍ متقبلةٍ، وهلّلي اللهَ مئةَ تهليلةٍ تملأُ ما بين السّماءِ والأرضِ، ولا يرفعُ يومئذٍ لأحدٍ مثلُ عملك إلّا أنْ يأتيَ بمثلِ ما أتيتِ**» [رواه أحمد]، فهل من مُبادر وهل من مثابر!؟

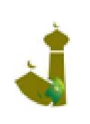


حوقلته ﷺ:

أعظم المتوكلين والمفوّضين أمرهم إلى الله هو مُلهم العالم ﷺ، فقد آوى إلى ركن شديد، وهو الحميد المجيد، واستمد حوله وقوته من حول الله وقوته، فنصره وأيّده وجعل العاقبة له.

كان ﷺ يكثر من قول: «**لا حول ولا قوة إلّا بالله**»؛ لأنّها كلمة التّفويض والتّسليم، وجُملة الثّقة بالرّحمن الرّحيم، وعبارة تملأ الوجود توحيدًا ويقينًا ورغبة فيما عند الله، وثقة به سبحانه.

ومعناها لا إرادة، ولا قدرة، ولا تأييد، ولا نصر، ولا فَرَج، ولا عون، ولا كفاية، ولا طاقة، إلّا بالله العظيم، وليس لنا من الأمر شيء، وأنّ الأمر كُلّه يُدبَّر ويُصرَّف من الله وحده، ونحن عباد مُستسلمون، صاغرون، ضعفاء، مساكين، تحت قوّته، وقدرته، وجبروته، نطلب عونه وحده سبحانه، وقد سنّ ﷺ قولها في مناسبات ومقامات منها:



عند قول المؤذن: «حيّ على الصّلاة»، و«حيّ على الفلاح»:

فإنّه يُستحب لمن سمعها أن يقول: «**لا حول ولا قوة إلّا بالله**»، لأنّ فيها نداء للاستنهاض وللدّعوة وطلب الحضور لبيت الله، فناسب طلب المدد والعون من الله بقول: «**لا حول ولا قوة إلّا**

بالله».



وعند الخوف من العين والحسد:

فشُرع للمؤمن إذا رأى نعمته أو داره أو مزرعته أو رأى مثله غيره أن يقول: ما شاء الله لا قوة إلا بالله، كما ذكر سبحانه وتعالى: {وَلَوْلاَ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالاً وَوَلَدًا} [الكهف: الآية 39].



وعند الخروج من المنزل:

فأنّها سبب لهداية من قالها وكفايته ووقايته من الشّيطان الرّجيم، فعن أنس (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا خرج الرّجلُ من بيتِهِ فقال: بِسْمِ الله، توكلتُ على الله، لا حولَ ولا قوةَ إلا بالله. قال: يُقالُ حِينَئِذٍ: هُدِيتَ وكُفِيتَ ووُقِيتَ، فتَتَنَحَّى له الشياطينُ**» [رواه النّسائي].



وعند الاستيقاظ من النّوم في أثناء اللّيل:

وإنّما ذكر ﷺ هذه الكلمة عند الاستيقاظ من النّوم في أثناء اللّيل؛ لأنّها تمد المُستيقظ بطاقة وقوّة، ولا يكون ذلك إلّا بالاستعانة بالله وحده جلّ في عُلاه؛ لأن هذا الوقت هو وقت راحة وكسل، كما جاء في حديث عبادة بن الصّامت، وهو حديث صحيح رواه البخاري.



وأخبر ﷺ أنّها كنز من كنوز الجنّة:

والكنز هو الشيء النّفيس الغالي المُدّخر المُقتنى، فعن أبي موسى الأشعري (رضي الله عنه) قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**ألّا أَدُلُّكَ علَى كَنْزٍ مِن كُنُوزِ الجَنَّةِ؟**» **فَقُلْتُ: بَلَى، فَقالَ:** «**لا حَوْلَ وقُوَّةَ إلّا بالله**» [مُتفق عليه].

وهي أيضًا كفّارة للذّنوب مع الكلمات الأربع، فقد روى الإمام أحمد عن عبدالله بن عمرو (رضي الله عنهما) قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما علَى الأرضِ رجلٌ يقولُ: لا إلَهَ إلَّا الله، والله أَكْبرُ،**

وسُبحانَ اللهِ، والحمدُ للهِ، ولا حَولَ ولا قوَّةَ إلَّا باللهِ، إلَّا كَفَّرت عنهُ مِن ذنوبِهِ وإن كانَت مثلَ زبدِ البحرِ».

وهي باب من أبواب الجنّة، فعن قيس بن سعد (رضي الله عنه) أنّ النّبي ﷺ قال: «**ألا أدلُّكَ على بابٍ من أبوابِ الجنَّةِ!؟** قلتُ: بلى، قالَ: **لا حولَ ولا قوَّةَ إلّا باللهِ**» [رواه الترمذي].

وهذه الكلمة لها أثر قويّ في مدد أهل الأعمال الشّاقة، وتُقال عند الخوف ومواقف الكرب والأهوال، فقد رُوي عن حَبيب بن مَسلَمة أنّه كان يقولها هو وجيشه إذا لقوا عدوًا، أو فتحوا حصنًا، ويرددون: «**لا حول ولا قوة إلّا بالله**»، فيغنمون، ويسلمون، وينتصرون. [رواه ابن أبي الدنيا في الفَرَج بعد الشدّة].

وجاء في الأثر أنّ الملائكة لما أُمروا بحمل العرش، قالوا: يا ربنا كيف نحمل عرشك وعليه عظمتك وجلالك؟ فقال: قولوا: **لا حول ولا قوة إلّا بالله العلي العظيم**، فلما قالوها حملوه.

ومن ثمارها أنّ الله يُصدّق قائلها، فعن أبي هريرة (رضي الله عنه) أنّ النّبي ﷺ قال: «من قال: «**لا إلَهَ إلَّا اللهُ ولا حولَ ولا قوَّةَ إلَّا باللهِ، قالَ اللهُ: لا إلَهَ إلَّا أنا، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلَّا بي، وَكانَ يقولُ: مَن قالَها في مرضِهِ ثمَّ ماتَ لم تَطعمهُ النَّارُ**» [رواه الترمذي]، فقد جعل ﷺ كلمة «**لا حول ولا قوة إلّا بالله**» عدّته في الشّدائد، وذخره في النّوائب؛ لأنّه يطلب العون والمدد والقوة ممنّ يملكها وحده سبحانه وتعالى، فلْتكن عدتك في مصاعب الحياة، وفي أزمات الأيام.

«**لا حول ولا قوة إلّا بالله**» كلمة الاستسلام للواحد القّهار، والثّقة بالعزيز الغفّار، والتّوكّل على من يملك السّمع والأبصار، ردّدها بقلبك قبل لسانك، فهي رحلتك في ملكوت الله من عالم الأرض الفاني، القصير، الفقير، الزائل، إلى عالم الجبروت حيث القوّة، والعزّة، والنُصرة، والرّزق، والتأييد، «**لا حول ولا قوة إلّا بالله**»، بها تُفتح الأقفال، ويَصلح الحال، ويُشرح البال، ويرضى ذو الجلال.

«**لا حول ولا قوة إلّا بالله**» قولها توفيقٌ من الله، وأن تُحضر قلبك عند نُطقها فتحٌ من الله، وأن تعمل بمُقتضاها في حياتك عطاءٌ من الله، فقلها وأبشر بما يسرّك من رحمة الله العظيمة، وعطاياه الجسيمة:

لَا حولَ إلّا حَولهُ سُبحانَهُ — وهُوَ القويّ إليه يَرْكُنُ أحمَدُ

هزمَ الخصومَ بِهَا ودَكّ قِلاعَهمْ — وبِهَا يرُدُّ العادياتِ ويصْمَدُ



استعاذته ﷺ:

الاستعاذة بالله هي الالتجاء إليه والتّحصن والاستجارة به جلّ في علاه، وطلب الغوث منه والنّجاة من كل ما يخيف المستعيذ في أمر دينه أو دنياه.

«**أعوذ بالله**»، كلمة من أعظم الكلمات، وأجلّ العبارات؛ لأن فيها طلب عون الله ونصره وحفظه من شياطين الإنس والجن، ومن كلّ ما يُخاف منه؛ فهو سُبحانه إله كل شيء، والقادر على كل شيء، وفي الحديث القُدسي يقول تعالى: (**وإنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، ولَئِنِ اسْتَعاذَنِي**) [رواه البخاري].

وكان مُلهم العالم محمد بن عبدالله نبيّ الله ورسوله ﷺ يستعيذ بالله، ويلجأ إليه، ويتحصّن به، في كل أحواله، وأوقاته، وأموره، ولهذا قدّس ﷺ الاستعاذة بالله، وعظّم أمرها فقال: «**مِنِ استعاذَ بالله فأَعِيذُوهُ**» [رواه أبو داود].

يَا ربِ أنت المُستعانُ شِعارهُ — فِي كلِّ كَربٍ نَازلٍ ودثارهُ

يعتزُّ بالرّحمنِ جلّ جلالهُ — حتى تَحقّق نَصرُهُ وفَخارهُ



مواطن استعاذته ﷺ:

قبل تلاوة القرآن: كان ﷺ يستعيذ قبل أن يبدأ تلاوة كتاب الله عملًا بقوله سبحانه: {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ} [النحل: الآية 98]؛ ولأن تلاوة القرآن من أجلّ النّعم، فعدو الإنسان الشّيطان الرجيم يريد صرفه وإشغاله عن التدبّر والتّلذذ بهذه النّعمة، ولأنّ في القرآن أعظم هداية، والشّيطان صاحب غواية فهو يريد صرف القارئ عن الاهتداء بنور القرآن، وأمر ﷺ من وجد لمّة الشيطان أن يتعوذ بالله من الشّيطان الرّجيم، ثم قَرَأَ: {الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ} [البقرة: الآية 268]، وأمر ﷺ عقبة بن عامر(رضي الله عنه) أن يستعيذ بسورة الفلق

وسورة الناس، [كما رواه النّسائي]. وأمر عبدالله بن خُبيب(رضي الله عنه) أن يستعيذ إذا أصبح بالمعوذات ثلاثًا، وإذا أمسى ثلاثًا: «**قل أعوذ برب الفلق**»، و«**قل أعوذ برب الناس**» كما [رواه أحمد].

عند الغضب: عندما يغضب الإنسان تعمى بصيرته، وتُصمّ أُذناه، ويُحجب الرّشد عن عقله، ويُشعل الشّيطان في فؤاده نار الغضب؛ لأنّه خُلق من نار، فأمر ﷺ بالالتجاء إلى الله والاستعاذة به في هذه الحالة.

فالاستعاذة كالماء البارد الذي يُطفئ هذه النّار، فتُصبح الرّوح بردًا وسلامًا، فعن سُلَيْمَانَ بن صُرَدٍ(رضي الله عنه) قال: «**كُنْتُ جَالِسًا مع النبيّ ﷺ وَرَجُلَانِ يَسْتَبَّانِ، فأحَدُهُما احْمَرَّ وجْهُهُ، وانْتَفَخَتْ أوْدَاجُهُ**، فقال النّبي ﷺ: «**إنِّي لَأَعْلَمُ كَلِمَةً لو قالَهَا ذَهَبَ عنْه ما يَجِدُ**، لو قالَ: **أعُوذُ باللَّه مِنَ الشَّيْطَانِ، ذَهَبَ عنْه ما يَجِدُ**»، فَقَالُوا له: إنَّ النّبي ﷺ قال: «**تَعَوَّذْ بِالله من الشَّيْطَانِ**». [مُتفق عليه].

عند الصلاة: كان ﷺ يستعيذ من الشّيطان الرّجيم عند الصّلاة لأنّه يريد أن يُحصّن روحه في كنف الله، والشّيطان من عداوته يريد أن يصرف القلب عن السّجود في محراب الرّب، وعن أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ(رضي الله عنه)، قَالَ: **كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ بِاللَّيْلِ كبَّرَ**، ثُمَّ يَقُولُ: «**سُبْحَانَكَ اللهمَّ وَبِحَمْدِكَ، وَتَبَارَكَ اسْمُكَ، وَتَعَالَى جَدُّكَ، وَلَا إلهَ غَيْرُكَ**»، ثُمَّ يَقُولُ: «**الله أَكْبَرُ كَبِيرًا**»، ثُمَّ يَقُولُ: «**أَعُوذُ بِالله السَّمِيعِ العَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، مِنْ هَمْزِهِ وَنَفْخِهِ وَنَفْثِهِ**». [رواه أحمد].

وكذلك حثّ ﷺ على الاستعاذة عند ورود الوساوس في الصّلاة، فالصّلاة قرّة عيون الموحدين، وهي مناجاة المؤمن لربّه في محراب العبودية، فيريد الشيطان أن يقطع هذا الحبل الممدود من المناجاة والودّ بين العبد وربّه، فعن عُثْمَانَ بنَ أَبِي العَاصِ(رضي الله عنه) أنّه أَتَى النّبيَّ ﷺ فَقالَ له: **يا رَسولَ الله، إنَّ الشَّيْطَانَ قدْ حَالَ بَيْنِي وبيْنَ صَلَاتي وَقِرَاءتيَ يَلْبِسُهَا** عَلَيَّ، فَقالَ رَسولُ الله ﷺ: «**ذَاكَ شيطَانٌ يُقَالُ له: خَنْزَبٌ، فَإِذَا أَحْسَسْتَهُ فَتَعَوَّذْ بالله منه، وَاتْفِلْ علَى يَسَارِكَ ثَلَاثًا**، قالَ: **فَفَعَلْتُ ذلكَ فأذْهَبَهُ الله عَنِّي**» [رواه مسلم].

عند دخول الخلاء: لأنّ الخلاء بيت الشّيطان ودار إبليس؛ ولذا سنّ ﷺ التعوّذ بالله من شرّه ومكره قبل دخول الخلاء، فعن أنس(رضي الله عنه) قال: كان النّبي ﷺ إذا دخل الْخَلَاءَ قال: «**اللَّهُمَّ إنّي أعُوذُ بكَ مِنَ الخُبُثِ والخَبَائِثِ**» [مُتفق عليه].

عند نهيق الحمير ونباح الكلاب: سنّ لنا ﷺ التعوذ عند نباح الكلاب لنجاستها، وشؤمها، وكذلك عند نهيق الحمير لنكارة أصواتها وبشاعته، فعن أبي هريرة (رضي الله عنه) أنّ النّبي ﷺ قال: «**إذا سَمِعْتُمْ نَهِيقَ الحِمارِ فَتَعَوَّذُوا بالله مِنَ الشَّيْطانِ، فإنَّه رَأى شيطانًا**» [مُتفق عليه].

عند الأرق والفزع: وحينما تقر عين المؤمن بالنّوم، وتهدأ نفسه، ويرتاح جسده، يأبى الشّيطان إلّا أن يُزعجه في نومه ويُشوّش عليه راحته، فشُرع أن نستعيذ منه باللّجوء إلى الله، فقال ﷺ: «**الرُّؤْيا الصّالِحَةُ مِنَ الله، والحُلُمُ مِنَ الشَّيْطانِ، فإذا حَلُمَ أحَدُكُمْ حُلُمًا يَخافُهُ فَلْيَبْصُقْ عن يَسارِهِ، ولْيَتَعَوَّذْ بالله مِن شَرّها، فأنّها لا تَضُرُّهُ**» [مُتفق عليه].

عند وسوسة الشّيطان وتشكيكه: قال أبو هريرةَ (رضي الله عنه): قال رسولُ الله ﷺ: «**يأتي الشيطانُ أحدَكم فيقول: من خَلَقَ كذا؟ من خَلقَ كذا؟ حتى يقول: من خَلقَ ربَّك؟ فإذا بلَغَهُ فَليَسْتَعِذْ بالله ولْيَنْتَهِ**» [مُتفق عليه]، وقوله ﷺ: «**فَليَسْتَعِذْ بالله ولْيَنْتَهِ**»، أي عن الاستمرار في تحديث النّفس بهذه الوساوس التي أملاها الشّيطان؛ لأنّ مقصود الشّيطان إفساد عقيدة المؤمن وتشكيكه في ربّه جلّ في علاه، فأُمر حينها أن يلتجئ إلى ربّه ليقطع عنه تلبيس إبليس، وقال تعالى: {وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ} [المؤمنون: الآية 97 - 98].

ومن صَدَق في الالتجاء إلى الله، وأخلص العبوديّة له، وصحَّح توحيده، حماه اللهُ ووقاه وحفظه ورعاه، قال سُبحانه: {إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} [النحل: الآية 99].

عند الرّقية: وكان ﷺ يُعيذ مَن رقاه من الشّيطان الرّجيم، كما عوّذ ﷺ الحَسَنَ والحُسَيْنَ، وقال: «**إنَّ أَباكُما كانَ يُعَوِّذُ بها إسْماعِيلَ وإسْحاقَ: أَعُوذُ بكَلِماتِ الله التّامَّةِ، مِن كُلِّ شيطانٍ وهامَّةٍ، ومِنْ كُلِّ عيْنٍ لامَّةٍ**» [رواه البخاري]. والهامَّة بتشديد الميم: هي كل ذات سم يقتل كالحيّة وغيرها، وأما العين اللّامَّةُ بتشديد الميم: فهي التي تصيب كل ما نظرت إليه بسوء، فاستعاذ ﷺ من هذه الثّلاث؛ لأنّها مصدر الشّر والأذى، ولا يُحصّن منها إلّا الله وحده، وعَنْ عُثْمَانَ بْنِ أَبِي الْعَاصِ

(رضي الله عنه) أَنَّهُ شَكَا إِلَى رَسُولِ الله ﷺ وَجَعًا يَجِدُهُ فِي جَسَدِهِ مُنْذُ أَسْلَمَ، فَقَالَ لَهُ ﷺ: «**ضَعْ يَدَكَ عَلَى اَلَّذِي تَأَلَّمَ مِنْ جَسَدِكَ، وَقُلْ: بِسْمِ الله، ثَلَاثًا، وَقُلْ سَبْعَ مَرَّاتٍ: أَعُوذُ بِالله وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَاذِرُ**» [رواه مسلم].

ومن أعظم الحصون التي يتحصّن بها المُسلم من كل شر وبلاء سورة الفلق وسورة النّاس، فقد دعا ﷺ إليها بفعله وقوله، وكان يرقي بها نفسه إذا مرض، ويقرؤها ثلاثًا ثلاثًا عند نومه، وعند أدبار الصّلوات، وفي الصّباح والمساء؛ لأنّها جمعت أجلّ حصن وأعظم وقاية من كلّ شرّ وضرر، فعن أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) : «**أنَّ رَسولَ الله ﷺ كانَ إذا اشْتَكَى يَقْرَأُ علَى نَفْسِهِ بالمُعَوِّذاتِ ويَنْفُثُ، فَلَمَّا اشْتَدَّ وجَعُهُ كُنْتُ أقْرَأُ عليه وأَمْسَحُ بيَدِهِ رَجاءَ بَرَكَتِها**». [مُتفق عليه].

عند النّزول بمكان جديد: لا أمان في أي مكان إلّا بحماية الرّحمن، يقول ﷺ: «**مَنْ نَزَلَ مَنْزِلاً، ثُمَّ قَالَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ الله التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، لَم يَضُرَّهُ شَيْءٌ، حَتَّىٰ يَرْتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذٰلِكَ**» [رواه مُسلم].

عند الصّباح والمساء وعند النّوم: ألهم ﷺ أُمّته وسنّ لهم إذا أصبحوا، وإذا أمسوا، وإذا أخذوا مضاجعهم أن يستعيذوا بالله من أن يكونوا مصدرًا للشّر، أو ممّن يقع عليهم هذا الشّر، لينعموا بحفظ الله في ليلهم ونهارهم، وصباحهم ومسائهم، وهذا الحديث حصن حصين لمَن أحضر قلبه عند قوله، وهو أجمل هديّة من رسول الهدى لأحبّ إنسان لديه «أبو بكر الصّديق (رضي الله عنه)» عندما سأله فقَالَ: «**يَارَسُولَ الله مُرْنِي بشيءٍ أَقُولُهُ إِذَا أَصْبَحْتُ وَإِذَا أَمْسَيْتُ.** قَالَ ﷺ: قُلْ: **اللهمَّ عَالِمَ الغَيْبِ وَالشّهَادَةِ، فَاطِرَ السَّمَاواتِ والأَرْضِ، رَبَّ كُلِّ شَيءٍ وَمَلِيكَهُ، أَشْهَدُ أَن إله إلّا أَنْتَ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ نَفْسِي وَمِنْ الشَّيطَانِ وشِرْكِهِ وأن أَقْتَرفَ على نَفْسِي سُوْءًا أو أَجرَهُ على مُسْلِم. قَالَ: قُلْهُ إِذَا أَصْبَحْتَ، وَإِذَا أَمْسَيْتَ، وإِذَا أَخَذْتَ مَضْجَعَكَ**» [رواه أحمد]. وكان رسول الله ﷺ إذا أوَى إلى فراشِه قال: «**أعوذُ بك من شرِّ كل شيءٍ أنت آخِذٌ بناصيتِه**» [رواه مسلم].

عند الجماع: ومن حرصه ﷺ على أمته أنّه حثّ الزّوج بالتّعوذ من الشّيطان عند اللقاء، ليبارك الله لهما في الذّريّة المُحصّنة من كيد إبليس، فقال: «**لو أنَّ أحدَكم إذا أتَى أهلَه قال: بسمِ الله، اللّهم جنِّبنا الشّيطان، وجنِّب الشّيطان ما رزقتَنا، فقُضِيَ بينهما ولدٌ لم يضُرَّهُ شيطانٌ أبدًا**» [مُتفق عليه].

عند الشّعور بالهموم والأحزان: إذا بحثنا في قاموس الشّقاء وديوان التّعاسة فلن نجد قائمة تشمل كل أصول المعاناة والأزمات، وأسباب الكدر والتّعاسة، وأسس ضيق الصّدر وشتات الأمر، كهذه الوصفة التي ذكرها ﷺ واستعاذ منها، فكان يقول - كما في «الصّحيحين»-: «**اللهمَّ إنّي أعُوذُ بكَ مِنَ الَهمِّ والحَزَنِ، والعَجْزِ والكَسَلِ، والبُخْلِ والجُبْنِ، وضَلَعِ الدَّيْنِ، وغَلَبَةِ الرِّجَالِ**».

فاستعاذ من الهمّ الحاضر والمستقبلي، والحزن على مآسي الماضي، والعجز الذي يكسر الهمّة فيصيب صاحبها بالفشل، والكسل الذي يهدم البدن فيعود صاحبه مُحبطًا مترهلًا، والبخل الذي يحمل الإنسان على إمساك ماله ومعروفه، والجبن الذي يُحدث أزمة في القلب فيُشتت الخوف بسببه الرّوح، وضلع الدّين لأنّه همّ بالليل وذل بالنّهار، وغلبة الرّجال لأنّها تكسر الإنسان فيعيش مقهورًا مظلومًا، فمن استعاذ بربّه ونجا من هذه الثّمانية عاش السّعادة والأمل، والحياة الطّيبة، والعزّة والكرامة، فسُبحان من ألهم رسوله جوامع الكلم، وأفاض عليه من حُسن البيان ما يخلب الألباب.

عند الخوف من الضّلالة: وكان ﷺ يستعيذ من الضّلالة والانحراف عن منهج الله، فكان يقول: «**اللهمَّ إنِّي أَعُوذُ بعِزَّتِكَ، لا إلَهَ إلَّا أنْتَ، أَنْ تُضِلَّنِي**» [مُتفق عليه]. فإذا كان إمام المهتدين يدعو بهذا الدّعاء، فكيف بحالنا نحن؟!

وكان يستعيذ ﷺ من ثلاث، وهي أصول البلايا وأسس الشّدائد، فقال: «**اللَّهمَّ إنّي أعوذُ بكَ مِن الكُفرِ، والفَقرِ، وعَذابِ القبرِ**» [رواه النّسائي]. فانظر ما أوجز اللّفظ! وما أعظم الدلالة!.

ومن هديه ﷺ أنّه كان إذا خرجَ من بيته توجّه بالاستعاذة إلى الله؛ لأن الإنسان مُعرّض في طريقة إلى أزمات ونغزات وفتن وأشرار، فعن أمّ سلمة (رضي الله عنها) قالت: «**ما خرج النبيُّ ﷺ من بيتي قَطُّ إلّا رفع طَرْفَه إلى السّماءِ** فقال: **اللهم أعوذُ بك أن أَضِلَّ أو أُضَلَّ، أو أَزِلَّ أو أُزَلَّ، أو أَظْلِمَ أو أُظْلَمَ، أو أَجْهَلَ أو يُجْهَلَ عَلَيَّ**» [رواه أبو داود]، ومن أسرار الحديث أنّه استعاذ ﷺ من ضلال النّفس وضلال الغير؛ حتى لا يقع منه خطأ أو يقع عليه.

من شرّ الجوارح: إذا أُهملت الأعضاء بغير هُدى من الله ضلّت وانحرفت وجرّت على صاحبها الويلات، فكان ﷺ يستعيذ من شرورها فيقول: «**اللهمَّ إنِّي أعوذُ بك من شرِّ سمعي ، ومن شرِّ بصري ، ومن شرِّ لساني ، ومن شرِّ قلبي ، ومن شرِّ مَنِيِّي**» [رواه أبو داود].

واستعاذ ﷺ من أمور تُصاحب الإنسان في حياته، فقال: «**اللهمَّ إنِّي أَعُوذُ بكَ مِن عِلْمٍ لا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لا يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لا تَشْبَعُ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لا يُسْتَجابُ لَها**» [رواه مسلم]. فإنّ العلم غير النّافع يجر إلى الضّلالة، والقلب غير الخاشع يوقع في الهلاك، والنفس التي لا تشبع تُنزل صاحبها منازل الطّمع، والدّعاء الذي لا يُسمع هو المحجوب بمعاصي صاحبه.

من الظلم: فالظّلم سبب في هلاك الحرث والنّسل وانتشار الفساد في العالم، وقد استعاذ ﷺ منه، كما صح عنه أنّه كان إذا سافرَ يتعوَّذُ من دعوة المظلُوم، وكان يقول ﷺ: «**اللّهم إنَّي أعوذُ بك من الفقرِ والقلَّةِ والذَّلةِ، وأعوذُ بك من أنْ أظلِمَ أو أُظلَمُ**» [رواه أبو داود].

من سوء الخُلُق: لا أعلم تاجًا أشرف من تاج الخُلُق الحسن، ولا وسامًا على الصّدر أجمل منه، فقد أتى رسولنا ﷺ بالخلق الجميل كلّه، حتى وصفه الله بذلك وامتدحه فقال سُبحانه: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} [القلم: الآية 4]، وحثّ أمّته على الاستعاذة من سوء الخُلُق؛ لأنّه من أسوأ الصّفات وأقبح الشّمائل، فكان يقول ﷺ: «**اللَّهمَّ إنَّي أعوذُ بِكَ من منكراتِ الأَخلاقِ والأعمالِ والأَهْواءِ**» [رواه الترمذي]. وكان يقول ﷺ: «**اللهمَّ إنَّي أَعُوذُ بكَ مِن شَرِّ ما عَمِلْتُ، وَمِنْ شَرِّ ما لَمْ أَعْمَلْ**» [رواه مُسلم].

من تقلّب أحوال الدّنيا: لا يستقيم للدّنيا حال، فهي تتقلّب بك بين سرّاء وضرّاء، وشدّة ورخاء، فصحّ عنه ﷺ أنّه قال: « **اللَّهُمَّ إنِّي أَعُوذُ بكَ مِن زَوَالِ نِعْمَتِكَ، وَتَحَوُّلِ عَافِيَتِكَ، وَفُجَاءَةِ نِقْمَتِكَ، وَجَمِيعِ سَخَطِكَ**» [رواه مسلم]، فطلب ﷺ من ربّه استمرار العافية ودوام الخير والبركة، واستعاذ به من تحوّل الحال، واستعاذ ﷺ من أربع تجتمعُ فيها مكاره الدّنيا والآخرة، وأنّ السّلامة منها أصل الأمن والعافية والبركة، فصحّ عنه ﷺ أنّه كان يتعوّذ مِن: «**جَهدِ البلاءِ، ودَرَكِ الشَّقاءِ، وسوءِ القَضاءِ، وشَماتَةِ الأعْداءِ**» [مُتفق عليه].

وكذلك الغنى والفقر، فهما بابان إمّا إلى الخير وإما إلى الشّر، أو إلى النّجاة أو الهلاك، ولذلك صحّ عنه ﷺ أنّه كان يقول: «**اللهمَّ إنّي أعُوذُ بكَ مِن عَذابِ النّارِ، وفِتْنَةِ النّارِ، وفِتْنَةِ القَبْرِ وعَذابِ القَبْرِ، وشَرِّ فِتْنَةِ الغِنى، وشَرِّ فِتْنَةِ الفَقْرِ**» [مُتفق عليه].

تغيّر أحوال الطقس والبيئة: لقد استعاذ ﷺ من تغيّر أحوال الطقس والبيئة، فكان إذا هبّت الرّيح قال: «**اللهمَّ إنِّي أَسْأَلُك خَيْرَها، وَخَيْر ما فِيها، وَخَيْر ما أُرْسِلَتْ به، وَأَعُوذُ بكَ مِن شَرِّها،**

وشَرِّ ما فِيها، وشَرِّ ما أُرْسِلَتْ به» [رواه مُسلم].

وإذا أبصر غمامة في السّماء قال: «**اللَّهمَّ إنّي أعوذُ بِكَ من شرِّها، فإن مُطِرَ قالَ: اللَّهمَّ صيِّبًا هَنيئًا**» [رواه أبو داود].

وكان إذا رأى سحابًا قال: «**اللهم إنّا نعوذُ بك من شرِّ ما أُرسِل به**» [رواه ابن ماجه وأصله عند مُسلم]، وهنا يُلحظ الاحتياط والحذر من كل الظّواهر، والالتجاء إلى الله تعالى، فإنّ الإنسان لا يدري ما خُبئ له فيها، هل هو خير أم شر**!؟**

من سوء الجار: وقد استعاذ ﷺ من جار السوء؛ لأنّ الجار يطّلع على الأسرار، ويعرف الأخبار، وهو أقرب النّاس إلى جاره فإذا تحوّل إلى الأذى كان أضرّ شيء عليه، ولذلك قال ﷺ: «**تعوَّذوا بالله من جارِ السُّوءِ في دارِ المُقامِ، فإنَّ جارَ البادية يتحولُ عنك**» [رواه النسائي].

من الفتن: إنّ للفتن أشكالًا، وصورًا، وأحوالًا، وقد تخفى حتى على أذكياء العالم، ولذلك أمرنا رسولُنا ﷺ كما جاء في «صحيح مسلم» فقال: «**تَعَوَّذُوا باللهِ مِنَ الفِتَنِ، ما ظَهَرَ منها وَما بَطَنَ**».

ولو ظنّ الإنسان أنّه على صواب فعليه أن يستعيذ بالله لأنّه لا يدري بعواقب الأمور.

ومن الفتن التي وجّه ﷺ بالتّعوذ منها فتنة الدّنيا؛ فأنّها تتبرج بزخرفها؛ وتخدع القلوب بغرورها، فكان يدعو ﷺ ويقول: «**وأعوذُ بك من فتنةِ الدّنيا**» [رواه البخاري]، وقال أيضًا: «**اللهمَّ إنّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ المَسِيحِ الدَّجَّالِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ المَحْيَا، وَفِتْنَةِ المَمَاتِ، اللهمَّ إنّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ الْمَأْثَمِ وَالْمَغْرَمِ**، فَقَالَ لَهُ قَائِلٌ: **ما أَكْثَرَ ما تَسْتَعِيذُ مِنَ المَغْرَمِ!، فَقَالَ: إنّ الرَّجُلَ إذَا غَرِمَ حَدَّثَ فَكَذَبَ**» [مُتفق عليه].

ومن مصاعب الحياة: فهي تُشتِّت القلب عن ذكر الله، وعن طاعته، ومنها السّفر لما فيه من مُفارقة للأهل والأوطان، فيُصبح مشغولًا في الغالب عن العبادة وذكر الله، فشرع ﷺ الاستعاذة فيه فكان يقول: «**اللهمَّ إنّي أَعُوذُ بكَ مِن وَعْثاءِ السفرِ، وَكَآبَةِ المَنْظَرِ، وَسُوءِ المُنْقَلَبِ في المالِ والأهْلِ**» [رواه مسلم].

واحتمال وجود الفتن والشّرور في الأبناء والزّوجات والخدم والأموال وارد في الكتاب والسّنة، قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ} [التغابن: الآية 14]، ولهذا تعوّذ ﷺ من شرّ الزّوجة والخادم، فقال: «**إذا تزوَّجَ أحدُكمُ امرأةً أو اشتَرى خادِمًا فليقلِ: اللَّهمَّ إنِّي أسألُكَ خيرَها وخيرَ ما جبلتَها عليهِ، وأعوذُ بِكَ من شرِّها ومن شرِّ ما جبلتَها عليهِ**» [رواه أبو داود].

ومن غضب الله وعذابه: غاية مطلُوبِهِ عليه الصّلاة والسّلام، ومنتهى أمنياته أن يرضى الله عنه، لأنّه عرفه فأحبّه فخاف غضبه وسخطه وعقابه جلّ في علاه، ولذلك كان يستعيذ به سبحانه فيقول: «**اللَّهُمَّ أعُوذُ بِرِضَاكَ مِن سَخَطِكَ، وبِمُعَافَاتِكَ مِن عُقُوبَتِكَ، وأَعُوذُ بكَ مِنْكَ لا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أنْتَ كما أثْنَيْتَ علَى نَفْسِكَ**» [رواه مُسلم]. وهنا أبلغ الكلام، وأوجزه، وأفصحه، فمقدّر الأقدار هو الله وحده، فهو الذي قدّر الرّضا عمّن يرضى عنه، والغضب لمن يغضب عليه، فكل القضاء يعود إليه سُبحانه، لا يخرج شيء عن حُكمه، فمَن فرّ من غضبه إنّما فرّ إليه، ومَن ذهب يطلب رضاه إنّما ذهب إليه، فكلّها من الله، وعلى الله، وإلى الله، وبالله، فاختصرها رسول الله في كلمةٍ مُوجزة مُعجزة: «**وأعوذ بكَ منكَ**»، وهذا قبس من مشكاة النّبوّة، ونور من شمس الرّسالة.

أَعاذكَ اللهُ يَا خيرَ النبيّينَا	دُنيَاكَ عَمَّرهَا اللهُ والدِّينَا
إذَا دَعوتَ إلهَ الكونِ فِي خَطرٍ	لبّى نِداكَ وقالَ الدّهرُ: آمينَا

ومدح ﷺ الذّاكرين، وبلّغنا عن ربّ العالمين عشر رسائل في الذّكر:

الرّسالة الأولى: بشّرنا ﷺ بأربع جوائز لمن اجتمع لذكر الله تعالى، فقال ﷺ: «**لا يَقْعُدُ قَوْمٌ يَذْكُرُونَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ إلّا حَفَّتْهُمُ المَلائِكَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَنَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ**» [رواه مسلم].

الرّسالة الثّانية: حياةُ الإنسان كلُّها ذكرٌ لله في يقظته ومنامه، وليله ونهاره، وحلّه وترحاله، وكل حالاته، امتثالًا لأمر الباري سُبحانه: {الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ} [آل عمران: الآية 191].

الرّسالة الثالثة: أنّ الإعراض عن ذكر الله يُورث ضنك المعيشة، وكدر الخاطر، وضيق الصّدر، كما قال تعالى: {وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى} [طه: الآية 124]، أمّا من أراد السّكينة والاطمئنان والرّاحة فعليه بذكر الله، فبذكره سُبحانه تحلو الحياة، وبذكره تأمن وتسعد، وبذكره يهدأ خاطرك، ويطمئن قلبك، كما قال سُبحانه: {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} [الرعد: الآية 28].

الرّسالة الرّابعة: اختر أيّ نوع من الذّكر فجزاؤك من جنس ما ذكرت، يَقُولُ اللهُ سبحانه وتَعَالَى - في الحديث القدسي-: «**أنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأنَا مَعَهُ إذَا ذَكَرنِي، فَإِنْ ذَكَرنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وإنْ ذَكَرَنِي في مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ في مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ، وإنْ تَقَرَّبَ إلَيَّ بشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إلَيْهِ ذِرَاعًا، وإنْ تَقَرَّبَ إلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إلَيْهِ باعًا، وإنْ أتانِي يَمْشِي أتَيْتُهُ هَرْوَلَةً**» [مُتفق عليه].

الرّسالة الخامسة: لم يَرد في القرآن الكريم طلب الإكثار من الطاعات إلّا في الذكر: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ * بُكْرَةً * وَأَصِيلاً * * هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلاَئِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا * تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلاَمٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا} [الأحزاب: الآية: 41 - 44]، كل هذه الجوائز الثّمينة، والأعطيات الجسيمة، والمواهب العظيمة للذّاكرين الله كثيرًا والذّاكرات، قال تعالى: {وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا} [الأحزاب: الآية 35].

الرّسالة السّادسة: أخبرنا ﷺ أنّ الذّاكرين هم السّابقون من العباد، فقال ﷺ: «**سَبَقَ المُفَرِّدُونَ**. قَالُوا: **وَمَا المُفَرِّدُونَ يَا رَسُولَ اللهِ!؟**، قَالَ: **الذَّاكِرُونَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتُ**» [رواه مسلم].

الرّسالة السّابعة: أنّ مَن ذَكر الله، ذَكره الله جلّ في عُلاه، كما قال تعالى: {فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ} [البقرة: الآية 152]، ما أجملها من بشارة! نذكره نحن العباد الضّعفاء المساكين المذنبون المخطئون، فيذكرنا سبحانه وهو الغنيّ القويّ، الحيّ القيوم، ذو الجلال والإكرام.

الرّسالة الثّامنة: أنّ الذّاكر كالحيّ، والغافل كالميت، فقال رسول الله ﷺ: «**مَثَلُ الذي يَذْكُرُ رَبَّهُ والذي لا يَذْكُرُ رَبَّهُ، مَثَلُ الحَيِّ والمَيِّتِ**» [مُتفق عليه].

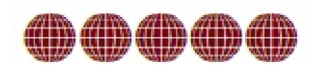
الرّسالة التّاسعة: دلّنا ﷺ على أرفع الأعمال وأفضل الطّاعات أَلَا وهو ذكر الله، فقال ﷺ: «**أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بخَيرِ أعمالِكُمْ، وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ، وخيرٌ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذهَب**

وَالوَرِقِ«أي: الفضة»، **وخيرٌ لكم مِن أنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُم، فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ؟ "** قَالُوا: **بَلَى،** قَالَ: **ذِكْرُ الله تَعَالى»** [رواه الترمذي]. وأرفع درجات الذكر ما وافق فيه القلبُ اللّسانَ، كما جاء في حديث السّبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلّا ظله، وذكر منهم: «**وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ**» [مُتفق عليه].

الرّسالة العاشرة: ومن هداياه ﷺ أنّه بيّن لنا أنّ العمل الذي يمكن أن نداوم عليه ليلًا ونهارًا مع السّهولة واليسر هو الذّكر، فعن عبدالله بن بُسْر (رضي الله عنه) قال: لمّا شكا الرّجل حاله، قال: يا رسول الله! إنّ شعائر الإسلام قد كثرت عليَّ فأخبرني بأمر أتشبَّثُ بِه «أي: أتمسك به»، قال ﷺ: «**لا يَزالُ لسانُكَ رَطبًا من ذِكْرِ الله**» [رواه الترمذي].

لقد كانت حياته كلّها ﷺ ذكرًا للواحد الديّان، في كل زمان ومكان، وذكر الله ليس مُجرد التّسبيح أدبار الصّلوات، أو أذكار الصّباح والمساء، أو أذكار النّوم، أو غير ذلك من الأذكار اليومية فقط، وبلا شك فإنّ هذه الأذكار من أعظم الأعمال، وأجلّ الطّاعات، ولكن لا يُقتصر عليها، ولا يُظن أنّها وحدها كافية، بل هي نوع من أنواع ذكر الله، وصنف من أصنافه؛ لأنّ حياة المسلم كلّها ذكر لمولاه حتى يلقاه، فصلاته وصيامه، وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، ومواعظه، وكلماته، وتعاملاته وبيعه وشراؤه كلّها ذكر لله؛ لأن المقصود أن تكون الحياة كلّها لله جلّ في عُلاه، قال تعالى: {قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الأنعام: الآية 162].

صَلاةٌ مِن الرّحمن كلّ أوانِ	مضمَّخةٌ بالمسكِ والنّفلانِ
عَلَى خَيرِ خَلقِ الله أكرمِ مُرسلٍ	سَنا نُورِه يُهدى به الثّقلانِ
إذا مَا تسلّى العاشقونَ وأُسعدوا	بِذكرِ فُلانٍ أو حَديثِ فُلانِ
تُعاودِنِي ذكراه في كلّ سَاعةٍ	عَلَى نبضِ قلبٍ دائمِ الخَفقانِ



محمد ﷺ مُسَافِرًا

في السّفر والتّنقل بين الأمصار والدّيار يجد الإنسان من عجائب الواحد القهّار ما يُدهش العقول والأبصار؛ لأنّ الإنسان يطّلع في سفره على دقائق صُنع الباري، ويُشاهد عجائب قدرته، وينعم بجميل ما أودع في الكون جلّ في علاه، ولهذا يقول تعالى: {وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ} [الذاريات: الآية 20].

وأمر سُبحانه بالسّير في الأرض للتدبّر وأخذ الموعظة، فقال تعالى: {قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ} {عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ} [الأنعام: الآية 11].

وكانت أسفار النّبي ﷺ كلّها طاعة لربّه، إمّا حجًا أو عُمرةً أو جهادًا في سبيل الله، وقد سنّ ﷺ سُننًا في الأسفار علّمها أمّته، فكان يحرص ﷺ على أن يقضي ديونه قبل سفره، ويردّ ما عنده من أمانات وودائع إلى أصحابها، ولذلك تخلّف علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)عن النّبي في يوم هجرته؛ ليرد الودائع والأمانات التي وضعها كفّار قريش عند الصّادق الأمين ﷺ.

فانظر كيف استأمنوه على الأموال، ولم يستأمنوه على رسالة ذي الجلال، وصدّقوه في أمور دنيويّة، وكذّبوه في آيات ربّانية، فياله من تناقض عجيب، واختلاف غريب!.

وقبل أن يُسافر ﷺ من مكة إلى المدينة أحضر أبو بكر الصّديق (رضي الله عنه) راحلة للنّبي فسأله ﷺ وقال: «**بِالثَّمَنِ**» [رواه البخاري]، أي أنّه لا بد أن يشتريها، ولم يأخذها مجانًا؛ ليكون عمله كلّه خالصًا لوجه الله ومرضاته، ولا يأخذ منّةً من أحد مهما قرب حتى من أبي بكر الصّديق، وهو صاحب البذل والعطاء (رضي الله عنه) وأرضاه، ولكنّه التّجرّد في أوّل الطّريق لوجه الله خالصًا:

فيَا شوقُ سافر بي إلى أرض يثربٍ ... نداوي جراحاتِ الفُؤاد المعذَّبِ

وصلِّ على من شرّف الله ذكرَه ... صلاةً بدمع العين تُهدى إلى النّبي

وكان ﷺ إذا همّ بالسّفر ودّع أصحابه وقال لأحدهم: «**أَستَودِعكَ اللهَ الذي لا تضِيعُ ودَائِعهُ**» [رواه ابن ماجه]، وكان يُفضّل ﷺ السّفر يوم الخميس إن تيسّر ذلك، كما قال كعب بن مالك (رضي الله عنه): «**لَقَلَّما كانَ رَسولُ الله ﷺ يَخْرُجُ، إذا خَرَجَ في سَفَرٍ إلّا يَومَ الخَمِيسِ**» [رواه البخاري]، وقبل سفره ﷺ كان يقرع بين نسائه إذا أراد أن يصطحب إحداهنّ معه كما قالت عائشة (رضي الله عنها) : «**كانَ رَسولُ الله ﷺ إذَا أَرَادَ سَفَرًا أَقْرَعَ بيْنَ نِسَائِهِ، فأيَّتُهُنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا خَرَجَ بهَا معهُ**» [مُتفق عليه]. وإذا خرج من بيته قال ﷺ: «**بسمِ الله، توكلْتُ على الله، اللهمَّ إنّا نَعُوذُ بِكَ أنْ نَزِلَّ، أوْ نَضِلَّ، أوْ نَظْلِمَ أوْ نُظْلَمَ، أوْ نَجْهَلَ أوْ يُجْهَلَ عَلَيْنا**» [رواه أبو داود].

وإذَا اسْتَوَى ﷺ علَى بَعِيرِهِ خَارِجًا إلى سَفَرٍ، كَبَّرَ ثَلَاثًا، ثُمَّ قالَ: «**سُبْحَانَ الذي سَخَّرَ لَنَا هذا، وَما كُنَا له مُقْرِنِينَ، وإنَّا إلى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ. اللهمَّ إنَّا نَسْأَلُكَ في سَفَرِنَا هذا البِرَّ وَالتَّقْوَى، وَمِنَ العَمَلِ ما تَرْضَى .اللهمَّ هَوِّنْ عَلَيْنَا سَفَرَنَا هذا، وَاطْوِ عَنَا بُعْدَهُ. اللهمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ في السَّفَرِ، وَالْخَلِيفَةُ في الأهْلِ. اللهمَّ إنِّي أَعُوذُ بكَ مِن وَعْثَاءِ السَّفَرِ، وَكَآبَةِ المَنْظَرِ، وَسُوءِ الْمُنْقَلَبِ في المَالِ وَالأهْلِ**» [رواه مسلم].

ومن هديه ﷺ في سفره أنّه كان إذا صعد مُرتفعًا كبّر، وإذا هبط من جبل أو مكان عال سبّح، كما جاء عن جابر (رضي الله عنه) قال: «**كُنّا إذا صَعِدْنا كَبَّرْنا، وإذا نَزَلْنا سَبَّحْنا**» [رواه البخاري]؛ لأنّ من يصعد يشعر بارتفاع شأنه فعليه أن يتذكّر أن الله أكبر، ومن هبط سهلًا أو واديًا يتذكّر النّزول والانخفاض فعليه أن يُنزّه الله تعالى ويُقدّسه عن كل دنوٍّ؛ لأنّه الأعلى جلّ في عُلاه، ولذلك وُضعت الصّلاة على هذا المقصود، فكل رفع تكبير، وكل ركوع أو سجود تسبيح.

وسنّ ﷺ في السفر رُخصًا جليلة منها:

«**التّيمم**»، كما قال تعالى: {وَإِنْ كُنْتُمْ} {مَرْضَى أَوْ} {عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنْ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ} {وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [المائدة: الآية 6].

و «**قصر الصّلاة وجمعها في السّفر**»، كما قال أنس بن مالك (رضي الله عنه): «**خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَى مَكَّةَ فَكَانَ يُصلِّي رَكْعَتَيْنِ رَكْعَتَيْنِ حَتَّى رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ**» [مُتفق عليه]. وقال ابن عمر (رضي الله عنهما) : «**صَحِبْتُ رَسُولَ الله ﷺ فَكَانَ لَا يَزِيدُ فِي السَّفَرِ عَلَى رَكْعَتَيْنِ، وَأَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ كَذَلِكَ**، {» [مُتفق عليه]. وعن معاذ بن جبل(رضي الله عنه) قال: «**خَرَجْنَا مع رَسولِ اللهِ ﷺ عَامَ غَزْوَةِ تَبُوكَ، فَكَانَ يَجْمَعُ الصَّلَاةَ، فَصَلَّى الظُّهْرَ وَالْعَصْرَ جَمِيعًا، وَالْمَغْرِبَ وَالْعِشَاءَ جَمِيعًا، حتَّى إذَا كانَ يَوْمًا أَخَّرَ الصَّلَاةَ، ثُمَّ خَرَجَ فَصَلَّى الظُّهْرَ وَالْعَصْرَ جَمِيعًا، ثُمَّ دَخَلَ، ثُمَّ خَرَجَ بَعْدَ ذلكَ، فَصَلَّى المَغْرِبَ وَالْعِشَاءَ جَمِيعًا**» [رواه مسلم].

وهذه الأحاديث وغيرها تدل على أنّه ﷺ لم يُتمّ الصّلاة الرّباعية في السّفر، وإنّما كان يقصرها تخفيفًا على الأمّة، وأخذًا بهذه الرّخصة كما قال ﷺ: «**إِنَّ الله يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى رُخَصُهُ، كما يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى عزائِمُهُ**». وفي روايةٍ: «**كما يَكرَهُ أَنْ تُؤْتَى معاصِيهِ**» [رواه ابن حبّان].

وربما جمع ﷺ بين الظّهر والعصر، وبين المغرب والعشاء، ويصلي الفجر في وقتها تخفيفًا على أمّته وتيسيرًا على أتباعه إلى يوم القيامة.

ولم يصح عنه ﷺ أنّه تنفّل قبل الصّلاة في السّفر أو بعدها، وما دام أنّه قصر الفريضة فمن باب أولى ألّا يأتي بالّنافلة يُسرًا ورحمة بالنّاس، وكان لا يدع سُنّة الفجر والوتر حضرًا ولا سفرًا.

ومن يُسره ﷺ في السّفر أنّه كان يُصلّي النّافلة على الراحلة، فعن ابن عمر (رضي الله عنهما) قال:«**كانَ النّبيُّ يُصَلِّي في السَّفَرِ علَى رَاحِلَتِهِ، حَيْثُ تَوَجَّهَتْ به يُومِئُ إيمَاءً صَلَاةَ اللَّيْلِ، إلَّا الفَرَائِضَ ويُوتِرُ علَى رَاحِلَتِهِ**» [مُتفق عليه].

وإذَا كانَ ﷺ في سَفَرٍ فَعَرَّسَ بلَيْلٍ «أي: نزل آخر اللّيل»، **اضْطَجَعَ علَى يَمِينِهِ، وإذَا عَرَّسَ قُبَيْلَ الصُّبْحِ نَصَبَ ذِرَاعَهُ، وَوَضَعَ رَأْسَهُ علَى كَفِّهِ.** [رواه مسلم]. وقال أهل العلم: إن سبب نصب ذراعه كي لا يستغرق في النّوم فتذهب عليه صلاة الفجر.

وكان يُفطر ﷺ إذا سافر في رمضان كما قال تعالى: {فَمَنْ كَانَ} {مِنْكُمْ} {مَرِيضًا أَوْ} {عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ} [البقرة: الآية 184]، وعن أنس (رضي الله عنه) قال: «**كُنَّا نُسَافِرُ معَ النّبيِّ ﷺ فَلَمْ يَعِبِ الصَّائِمُ علَى المُفْطِرِ، والالمُفْطِرُ علَى الصَّائِمِ**» [مُتفق عليه].

وأمّا نافلة الصيام فربما صام ﷺ في السفر لقول أبي الدرداء: «**خَرَجْنَا مع النبيِّ ﷺ في بَعْضِ أسْفَارِهِ في يَومٍ حَارٍّ حتَّى يَضَعَ الرَّجُلُ يَدَهُ علَى رَأْسِهِ مِن شِدَّةِ الحَرِّ، وما فِينَا صَائِمٌ إلَّا ما كانَ مِنَ النبيِّ ﷺ، وابْنِ رَوَاحَةَ**» [مُتفق عليه].

ومن الرّخص التي سنّها ﷺ في السفر: «**المسحُ على الخفين**»، تخفيفًا على المُسافر ورحمة به، فعن جَرِير بن عبدالله البَجَلِيّ (رضي الله عنه) قال: «**رَأَيْتُ رَسولَ الله ﷺ بالَ، ثُمَّ تَوَضَّأَ ومَسَحَ علَى خُفَّيْهِ**» [مُتفق عليه]. وعن المغيرة بن شعبة (رضي الله عنه) قال: «**كُنْتُ مع النّبيِّ ﷺ في سَفَرٍ، فأهْوَيْتُ لأنْزِعَ خُفَّيْهِ، فَقالَ: دَعْهُمَا، فإنِّي أدْخَلْتُهُما طَاهِرَتَيْنِ، فَمَسَحَ عليهما**» [مُتفق عليه]. وَعَنْ صَفْوَانَ بْنِ عَسَّالٍ(رضي الله عنه) قَالَ: «أَمَرَنَا (**يَعْنِي: النَّبِيَّ ﷺ**) **أَنْ نَمْسَحَ عَلَى الْخُفَّيْنِ إذَا نَحْنُ أَدْخَلْنَاهُمَا عَلَى طُهْرٍ ث ثَلَاثًا إذَا سَافَرْنَا، وَيَوْمًا وَلَيْلَةً إذَا أَقَمْنَا، وَلَا نَخْلَعَهُمَا مِنْ غَائِطٍ وَلَا بَوْلٍ وَلَا نَوْمٍ، وَلَا نَخْلَعَهُمَا إلّا مِنْ جَنَابَةٍ**» [رواه أحمد].

بل إنّه ﷺ بشّر فوق هذه الرّخص الجليلة أنّ كل مُسافر يُكتب له أجر ما كان يعمل من أعمال صالحة في حال إقامته فضلًا من الله ونعمة، فقال ﷺ: «**إذَا مَرِضَ العَبْدُ، أوْ سَافَرَ كُتِبَ له مِثْلُ ما كانَ يَعْمَلُ مُقِيمًا صَحِيحًا**» [رواه البخاري].

وكان يوصي ﷺ أصحابه في السّفر فيقول: «**إذَا نَزَلَ أَحَدُكُمْ مَنْزِلًا، فَلْيَقُلْ: أَعُوذُ بكَلِمَاتِ الله التَّامَّاتِ مِن شَرِّ ما خَلَقَ، فإنَّه لا يَضُرُّهُ شيءٌ حتَّى يَرْتَحِلَ منه**» [رواه مسلم]، وقال أيضًا: «**إذا سافَرْتُمْ في الخِصْبِ، فأعْطُوا الإبلَ حَظَّها مِنَ الأرْضِ، وإذا سافَرْتُمْ في السَّنَةِ، فأسْرِعُوا عليها السَّيْرَ، وإذا عَرَّسْتُمْ باللَّيْلِ، فاجْتَنِبُوا الطَّرِيقَ، فأنَّها مَأْوَى الهَوامِّ باللَّيْلِ**» [رواه مسلم]، وفي هذا الحديث إرشاد للمسافر حيث دعاه ﷺ إلى التّمهل وقت الخصب إذا كانت الأرض مُخضرّة لترعى الإبل وغيرها من البهائم، أمّا إذا كانت الأرض جدباء فالإسراع أفضل تخفيفًا عليها من طول الجوع والعطش، ثم أرشد ﷺ عند النزول بالليل إلى اجتناب النّوم بالطّريق؛ لأنّها ممّر الدّواب المؤذية.

وكان ينهى ﷺ عن المرور على مواطن الأقوام الذين عُذّبوا إلّا لأخذ العبرة والعظة، فقد مرّ ﷺ بديار ثمود فقال لأصحابه: «**لا تَدْخُلُوا مَسَاكِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أنْفُسَهُمْ، أنْ يُصِيبَكُمْ ما أصَابَهُمْ، إلَّا أنْ تَكُونُوا بَاكِينَ**»، ثُمَّ قَنَّعَ رَأْسَهُ وأَسْرَعَ السَّيْرَ حتَّى أجَازَ الوَادِيَ. [مُتفق عليه]. فانظر كيف جمع ﷺ بين الحيطة والحذر، وبين الاتعاظ والاعتبار!؟

وعن أبي هريرة(رضي الله عنه) قال: كان رسول الله ﷺ إذا كان في سَفَرٍ فأسْحَرَ يقول: «**سَمَّع سامعٌ بحمد الله، وحُسْنِ بلائِهِ علينا، ربَّنا صاحِبْنا، وأفْضِل عَلَيْنا، عائذًا بالله من النَّار**» [رواه مسلم]، فجمع ﷺ في هذا الدّعاء بين الشّكر على النّعماء، والثّناء، والتّعوّذ من البلاء، في وقت الاستجابة وهو ساعة السّحر.

وفي سفره ﷺ لم يتميّز عن أصحابه في شيء، بل كان يسير معهم، ويتعاقب معهم على بعير واحد يركب نوبة، وصاحبه نوبة، ويدعو إلى الإيثار كما صحّ عنه عند مسلم أنّه قال: «**مَن كانَ معهُ فَضْلُ ظَهْرٍ فَلْيَعُدْ به علَى مَن لا ظَهْرَ له، وَمَن كانَ له فَضْلٌ مِن زَادٍ فَلْيَعُدْ به علَى مَن لا زَادَ له**».

وربما خدمه في أسفاره بعض شباب الصّحابة، فعَنْ أنَسِ بْنِ مَالِكٍ (رضي الله عنه)قالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ لأبِي طَلْحَةَ: «**الْتَمِسْ لِي غُلامًا مِنْ غِلْمَانِكُمْ يَخْدُمُنِي، فَخَرَجَ بِي أبُو طَلْحَةَ يُرْدِفُنِي وَرَاءَهُ، فَكُنْتُ أخْدُمُ رَسُولَ الله كُلَّمَا نَزَلَ**» [مُتفق عليه]. وفي هذا خدمة العالم والوالي وكبير القدر وصاحب الحاجة، وأنّ هذا ليس من الكبر في شيء، بل هو من التّعاون على البرّ والتّقوى.

بل إنّه ﷺ بشّر من يقوم على خدمة الآخرين بالأجر والمثوبة، فعَنْ أنَسٍ (رضي الله عنه)قَالَ: «**كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي السَّفَرِ، فَمِنَّا الصَّائِمُ وَمِنَّا المُفْطِرُ، قَالَ: فَنَزَلْنَا مَنْزِلًا فِي يَوْمٍ حَارٍّ، أكْثَرُنَا ظِلًّا صَاحِبُ الكِسَاءِ، وَمِنَّا مَنْ يَتَّقِي الشَّمْسَ بِيَدِهِ، قال: فَسَقَطَ الصُّوَّامُ، وَقَامَ المُفْطِرُونَ، فَضَرَبُوا الأبْنِيَةَ وَسَقَوُا الرِّكَابَ، فَقَالَ ﷺ: ذَهَبَ المُفْطِرُونَ اليَوْمَ بِالأجْرِ**» [مُتفق عليه].

ودعا ﷺ أصحابه في السّفر إلى جمع الشّمل، وعدم التفرّق، فعَنْ أَبِي ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيِّ (رضي الله عنه) قَالَ: «**كَانَ النَّاسُ إذَا نَزَلَ رَسُولُ الله مَنْزِلًا فَعَسْكَرَ تَفَرَّقُوا عَنْهُ فِي الشِّعَابِ وَالأَوْدِيَةِ، فَقَامَ فيهم**، فَقَالَ: **إنَّمَا تَفَرُّقُكُمْ فِي الشِّعَابِ وَالأَوْدِيَةِ إنَّمَا ذَلِكُمْ مِنَ الشَّيْطَانِ**، قَالَ: **فَكَانُوا بَعْدَ ذَلِكَ إذَا نَزَلُوا انْضَمَّ بَعْضُهُمْ إلَى بَعْضٍ حَتَّى إنَّكَ لَتَقُولُ: لَوْ بَسَطْتُ عَلَيْهِمْ كِسَاءً لَعَمَّهُمْ، أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ**» [رواه أبو داود]، وذلك؛ لأن في الاجتماع بركة وقوة.

وكان ﷺ ينهى المسافر أن يسير وحده ليلًا فقال: «**لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ ما في الوَحْدَةِ ما أعْلَمُ، ما سارَ راكِبٌ بلَيْلٍ وحْدَه**» [رواه البخاري]؛ لأنّ الشّيطان أقدر على أذية الإنسان إذا كان وحده. أمّا اجتماع المؤمنين فهو عصمة ونجاة.

وكان ﷺ يأمر الجماعة في السّفر أن يُؤمِّروا أحدهم فقال ﷺ: «**إذا خرَج ثلاثةٌ في سَفَرٍ فليُؤمِّروا أحَدَهم**» [رواه أبو داود]، وذلك حتى لا يقع بينهم خلاف وفرقة.

وعلّمنا رسولنا ﷺ أنّ المُسافر إذا انتهى من سفره وقضى غرضه فعليه أن لا يُطيل المكث وإنّما يعود لأهله، فقال: «**السَّفَرُ قِطْعَةٌ مِنَ العَذابِ، يَمْنَعُ أحَدَكُمْ نَوْمَهُ وطَعامَهُ، فإذا قَضَى نَهْمَتَهُ مِن وجْهِهِ فَلْيُعَجِّلْ إلى أهْلِهِ**» [مُتفق عليه].

وسنّ ﷺ للمُسافر أن لا يقدم على أهله ليلًا أو فجأة، فعن جابر بن عبدالله (رضي الله عنهما) قال: «**نَهَى رَسولُ اللهِ ﷺ أَنْ يَطْرُقَ الرَّجُلُ أَهْلَهُ لَيْلًا يَتَخَوَّنُهُمْ، أَوْ يَلْتَمِسُ عَثَرَاتِهِمْ**» [مُتفق عليه]، وقال ﷺ: «**إِذَا قَدِمَ أَحَدُكُمْ لَيْلًا، فلا يَأْتِيَنَّ أَهْلَهُ طُرُوقًا، حتَّى تَسْتَحِدَّ المُغِيبَةُ، وَتَمْتَشِطَ الشَّعِثَةُ**» [مُتفق عليه]. وعن أنس بن مالك (رضي الله عنه) قال: «**كانَ النّبيُّ ﷺ لا يَطْرُقُ أهْلَهُ، وكانَ لا يَدْخُلُ إلَّا غُدْوَةً أوْ عَشِيَّةً**» [مُتفق عليه]، وهذا من حُسن العلاقة بين الزّوجين، وكريم العشرة، وحفظ الخصوصيات، فكان من السُّنة إذا أطال الرّجل السّفر عن أهله ألّا يأتيهم إلّا في وقت تنبّه واستعداد منهم، وإخبار لهم قبل ذلك، وهذا بأسلوب العصر أن يتصل بهم عبر الجوال، أو يُعطيهم خبرًا حتى يكونوا على أتمّ الاستعداد لاستقباله لتدوم العشرة والمحبّة والمودّة.

وكان إذا عاد ﷺ من سفره، واقترب من مدينته كرّر هذا الذكر: «آيبون تائبون، عابدون لربنا حامدون»، فعن أنس بن مالك (رضي الله عنه) قال: أَقْبَلْنَا مع النّبيِّ ﷺ، أَنَا **وَأَبُو طَلْحَةَ، وَصَفِيَّةُ رَدِيفَتُهُ علَى نَاقَتِهِ، حتَّى إذَا كُنَّا بظَهْرِ المَدِينَةِ،** قالَ: «**آيِبُونَ تَائِبُونَ عَابِدُونَ لِرَبِّنَا حَامِدُونَ**»، **فَلَمْ يَزَلْ يقولُ ذلكَ حتَّى قَدِمْنَا المَدِينَةَ**» [مُتفق عليه]. وعن عبدالله بن عمر (رضي الله عنهما) أنَّ رَسولَ الله ﷺ كانَ إذَا قَفَلَ مِن غَزْوٍ أوْ حَجٍّ أوْ عُمْرَةٍ، يُكَبِّرُ علَى كُلِّ شَرَفٍ مِنَ الأرْضِ ثَلَاثَ تَكْبِيرَاتٍ، ثُمَّ يقولُ: «**لا إلَهَ إلّا الله وحْدَهُ لا شَرِيكَ له، له المُلْكُ وله الحَمْدُ، وهو علَى كُلِّ شيءٍ قَدِيرٌ، آيِبُونَ تَائِبُونَ عَابِدُونَ سَاجِدُونَ لِرَبِّنَا حَامِدُونَ، صَدَقَ الله وعْدَهُ، ونَصَرَ عَبْدَهُ، وهَزَمَ الأحْزَابَ وحْدَهُ**» [مُتفق عليه]. فكان ﷺ يبدأ سفره بذكر الله وينهيه بذكرالله، وفي قوله: «**آيبون تائبون**» مناسبة بين عودة المسافر من سفره إلى أهله وعودة المُذنب إلى ربّه.

وعند دخوله ﷺ إلى المدينة كان يبدأ بالمسجد فيصلِّي ركعتين قبل أن يذهب إلى بيته، فعن جابر بن عبدالله (رضي الله عنهما) قال: «**اشترى منِّي رسول الله بعيرًا، فلمَّا قَدِم المدينة أَمَرني أنْ**

آتي المسجدَ فأصلِّي ركعتين» [مُتفق عليه]، وكان يبدأ بالمسجد تبرّكًا وتيمّنًا لتكون الطّاعة أوّل عمل يقوم به المسافر بعد عودته، وكان يستقبله الأطفال ﷺ فيحضنهم ويُقبّلهم لكمال شفقته وعظيم رحمته، فعن عبدالله بن جعفر (رضي الله عنهما) قال: «**كانَ رَسولُ الله ﷺ إذَا قَدِمَ مِن سَفَرٍ تُلُقِّيَ بصِبْيَانِ أَهْلِ بَيْتِهِ،** قالَ: **وإنَّه قَدِمَ مِن سَفَرٍ فَسُبِقَ بي إلَيْهِ، فَحَمَلَنِي بيْنَ يَدَيْهِ، ثُمَّ جِيءَ بأَحَدِ ابْنَيْ فَاطِمَةَ، فأرْدَفَهُ خَلْفَهُ،** قالَ: **فَأُدْخِلْنَا المَدِينَةَ، ثَلَاثَةًعلَى دَابَّةٍ**» [رواه مُسلم]، فكان يتلقاه الأطفال استبشارًا بقدومه؛ لأنّه أب الكل، ووالد الجميع ﷺ.

وكان ﷺ يُعانق القادم إذا أطال في سفره أحيانًا، كما قالت أمّ المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) : «**قدم زيد بن حارثة المدينة ورسول الله ﷺ في بيتي، فأتاه، فقرع الباب، فقام إليه رسول الله يجرّ ثوبه، فاعتنقه وقبّله**» [رواه الترمذي]. وورد عنِ ابنِ عباسٍ (رضي الله عنهما) «**أنَّ جعفرَ بنَ أبي طالبٍ** (رضي الله عنه) **لمَّا قدِم مِنَ الحبشةِ تلقاه النّبيُّ ﷺ، واعتنقه، وقبَّل ما بينَ عينيهِ**» [رواه الطبراني].

والآن دعوني أبثّ بعض شجوني وبعض ذكرياتي عن سفره ﷺ: فكم من مرّة سافرت بين مكة والمدينة فأتذكر سفره ﷺ، ورغم أنّني أسافر بسيارة مُكيّفة معي ما لذّ وطاب من الطعام والشّراب، ومعي من يخدمني، وملابسي جديدة أنتقل من مطعم لمطعم، ومن فندق إلى فندق، لكنني أقول في نفسي: بأبي أنت وأمي يا رسول الله! سافرت يا أكرم الخلق على شظف من العيش، وشدّة جوع وفراق أهل، وبُعد عن وطن، وتهديد من أعداء، وتكالب من خصوم، تصهرك الشّمس على الرّمضاء، وينهشك الجوع، ويشويك الظّمأ، لكنّك بقيت صامدًا صابرًا مُحتسبًا حتى أدّيت رسالة الله، ونشرت نور الله، وفتحت القلوب بلا إله إلّا الله، أسأل الباري جلّ في عُلاه، أن يُصلي ويُسلّم عليك عدد ما صلّى عليك المُصلّون، وعدد ما غفل عن ذكرك الغافلون:

أنت الذي سافرت عبر حياتنا

في كل قلبٍ ساكنٌ ومُقيمُ

الأرض تفخرُ إن مررت بساحها

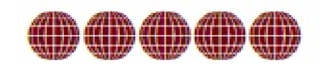
والرّوضُ يُعشبُ بهجةً ويهيمُ

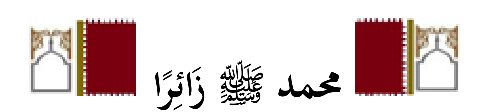
طُوبى لدَارٍ قد مشيت برَبعها

يسعى لها التشريفُ والتكريمُ

صلّى عليك الله ما ارتحل الورى

ولك التّحايا مسْكها التّسليمُ





قامت زيارات النّبي المُصطفى ﷺ على مقاصد شرعيّة نبيلة، من توثيق للعلاقات في المجتمع، ومد جسور المودّة بين النّاس، وإحكام اللّحمة بين الأصحاب، وتعزيز صلة الرّحم بين الأقارب، فكانت زياراته تندى بالنّصيحة والإرشاد، والتّعزية والمواساة، والمُلاطفة والمؤانسة.

لقد تعطّرت كل سكّة من سكك المدينة بذكرى جميلة منه، وتطيّب كل فناء بحكاية مُشجيّة له، وسعدت كل دار بقصة مؤثرة معه.

زار ﷺ الأقارب والأصحاب، والكبار والصّغار، والرّجال والنّساء، والمُؤمنين والمُنافقين، والمُسلمين والمُشركين، وفي كل زيارة من زياراته شريعة تُؤسَّس، ودرس يُستفاد، وحكمة تُؤْثَر، وكلّ خطوة من خطواته نور من الرّحمن الرّحيم، وكل كلمة يقولها هديٌ إلى صراط الله المستقيم.

ومن زياراته ﷺ لأقاربه، زيارته لأقرب خلق الله له، وأحبّ النّاس إليه، فاطمة (رضي الله عنها) ، فخرج مرّة في الظّهيرة، مع وهج الشّمس، وشدّة الحرّ إلى بيتها زائرًا، فتعطّر طريق بيتها بخطوات أقدامه الشريفة، ثم وقف عند بابها مُناديًا بكل هدوء وسكينة: «**أَثَمَّ لُكَعُ؟ أَثَمَّ لُكَعُ؟**»!، يقصد سبطه الطّفل الصّغير(**الحسن**) (رضي الله عنه)، ولم يناد عليًّا ولا فاطمة (رضي الله عنهما) ، وإنّما توجّه بالنّداء لطفلٍ صغيرٍ في البيت، ثم جلس ينتظره بفناء البيت وفي حرارة الشّمس حتى تُهيئه أمه، وتُغسّله وتُلبسه.

ينتظر وهو قائد الأُمة، وسيّد العالمين، وخاتم النّبيين، ينتظر طفلًا صغيرًا يُقارب الرّابعة من العمر ليُعانقه، ويُمازحه، ويُداعبه، ويملأه حنانًا وحُبًّا، وما هذا إلّا لعظيم شفقته وحنانه، وجلال

رحمته ووصاله. فعن أبي هريرة(رضي الله عنه) قال: «**خَرَجْتُ مع رَسولِ الله ﷺ في طَائِفَةٍ مِنَ النَّهارِ، لا يُكَلِّمُنِي وَلَا أُكَلِّمُهُ، حتَّى جَاءَ سُوقَ بَنِي قَيْنُقَاعَ، ثُمَّ انْصَرَفَ، حتَّى أَتَى خِبَاءَ فَاطِمَةَ فَقالَ: أَثَمَّ لُكَعُ؟ أَثَمَّ لُكَعُ؟ يَعْنِي حَسَنًا فَظَنَنَّا أنَّهُ إنَّما تَحْبِسُهُ أُمُّهُ لأَنْ تُغَسِّلَهُ وَتُلْبِسَهُ سِخَابًا، فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ جَاءَ يَسْعَى، حتَّى اعْتَنَقَ كُلُّ وَاحِدٍ منهما صَاحِبَهُ**، فَقالَ رَسولُ الله ﷺ: **اللَّهُمَّ إنِّي أُحِبُّهُ، فأحِبَّهُ وَأَحْبِبْ مَن يُحِبُّهُ**»! [مُتفق عليه].

وكذلك تعاهد ﷺ أمّ أيمن بالزّيارة، وهي حاضنته التي كفلته بعد موت أمّه، وأشرفت على تربيته في طفولته، وكانت (رضي الله عنها) مولاة حبشية أعتقها ﷺ فيما بعد، وكان يُعاملها مُعاملة الأمّ، وتُعامله مُعاملة الابن، يحرص على زيارتها دائمًا رغم مهامه الكُبرى، ومشاغله العُظمى.

وذات يوم وفي لفتة عجيبة، دخل عليها ﷺ زائرًا، فقدّمت له إناءً فيه شراب كما تُقدّم الأمّ لابنها، فكأنّ النّبي ما اشتهاه أو كان صائمًا فاعتذر منها بلُطف، فأخذت تُعاتبه، وتلومه، وهذا كلّه والنّبي ﷺ ملتزم الصّمت لم يقل شيئًا، وهي تواصل عتبها وأنس (رضي الله عنه) يلاحظ هذا المشهد ويصفه لنا، فيقول: «**انْطَلَقَ رَسُولُ الله ﷺ إلى أُمِّ أَيْمَنَ، فَانْطَلَقْتُ معهُ، فَنَاوَلَتْهُ إنَاءً فيه شَرَابٌ**، قالَ: **فلا أَدْرِي أَصَادَفَتْهُ صَائِمًا، أَوْ لَمْ يُرِدْهُ، فَجَعَلَتْ تَصْخَبُ عليه وَتَذَمَّرُ عليه**» [رواه مسلم]، فيا له من خلق عظيم لهذا النّبي الكريم، والزّائر الرّحيم! الذي تعامل مع هذه المولاة الحاضنة (رضي الله عنها) كما يتعامل مع أمّه، في وقت كانت عادة العرب التّعامل مع أمثال أمّ أيمن المولاة (رضي الله عنها) بالتّهميش والتّحقير كسائر الخدم الذين لم يكن لهم قيمة، ولا مكانة آنذاك، واستمر ﷺ يرعاها بزياراته، حتى إنّ أبا بكر كان يُحافظ على زيارتها بعد وفاة النّبيّ ﷺ، ويقول لعُمر (رضي الله عنهما) : «**انْطَلِقْ بنا إلى أُمِّ أَيْمَنَ نَزُورُها، كما كانَ رَسُولُ الله ﷺ يَزُورُها**» [رواه مسلم].

وتفقّد ﷺ أصحابه بالزّيارة، فكان يُعمّر بيوتهم بعبق سيرته، ويُطيّب قلوبهم بعطر هديه وطيب ذكراه، لأنّه معهم في صلاتهم، وذكرهم، وتلاوتهم، ومع ذلك يدخل بيوتهم زائرًا فتكون أسعد لحظات حياتهم، وأبرك ساعات عمرهم.

يزور الصّحابي فتكون زيارته ﷺ تاريخًا لهذا الصّحابي وأهل بيته، وذكرى جميلة لا تُنسى أبد الدّهر، وسنقف مع ذكريات ومشاهد لهذه الزّيارات، ومنها:

زيارته ﷺ لسعد بن عبادة سيّد الخزرج (رضي الله عنه)، حيث انطلق فاقترب من باب بيته، وكان ﷺ لا يُواجه باب من يزوره، بل يقف ذات اليمين أو ذات الشّمال؛ وكان ﷺ يُسلّم ويستأذن ثلاثًا، فإمّا أُذن له، وإمّا رجع، كما قال ﷺ: «**الاسْتِئْذَان ثَلَاثٌ، فإِنْ أُذِنَ لَكَ، وإِلَّا فَارْجِعْ**» [رواه مسلم]. وعن أبي سعيدٍ الخُدْرِيُّ قال: «**خَرَجْنا مع النَّبِيّ ﷺ وهوَ يُرِيدُ سَعْدَ بنَ عُبادَةَ حتى أَتَاهُ، فَسَلَّمَ فلمْ يُؤْذَنْ لهُ، ثُمَّ سَلَّمَ الثَّانِيَةَ ثُمَّ الثَّالِثَةَ فلمْ يُؤْذَنْ لهُ، فقال: قَضَيْنا ما عَلَيْنا، ثُمَّ رجعَ.** فأدركَهُ سَعْدٌ فقال: **يا رسولَ اللهِ! والذي بعثَكَ بِالحَقِّ ما سَلَّمْتَ من مَرَّةٍ إلَّا وأنا أَسْمَعُ وأَرُدُّ عليكَ، ولكنْ أَحْبَبْتُ أنْ تُكْثِرَ مِنَ السّلامِ عليَّ وعلى أهلِ بَيْتي**» [رواه أحمد والبخاري في الأدب المفرد].

وعلّم ﷺ أصحابه أدب الاستئذان، ومن ذلك ذكر اسم المستأذن عند الزّيارة، وعدم الاكتفاء بقول: «**أنا**»، فعن جابرٍ (رضي الله عنه) قَالَ: «**أتَيتُ النّبيَّ ﷺ فَدَقَقْتُ البَابَ**، فقال: **مَن هذا؟**، فَقُلتُ: **أَنَا**، فَقَالَ: **أنَا! أنَا!** كأَنَّهُ كَرِهَهَا» [مُتفق عليه]. وفي «الصّحيحين» أيضًا عن أبي موسى الأشعري(رضي الله عنه) أنّه لمّا جلس النّبي ﷺ في البستان وجاء أبو بكر فاستأذن، فقال أبو موسى: **من هذا؟**، قال: **أبو بكر**، ثم جاء عمر (رضي الله عنه) **فاستأذن** فقال: **من؟**، فقال: **عمر، ثم عثمان كذلك**».

وزار ﷺ أبا طلحة وأمّ سُليم (أمّ أنس بن مالك)(، ويروي لنا أنس هذه الزّيارة الجميلة التي تركت أثرها في نفوسهم جميعًا، الصّغير قبل الكبير، فيقول(رضي الله عنه) كما في «الصحيحين»: كان رسول الله ﷺ يدخل علينا ولي أخ صغير يُكنى: (**أبا عُمير**)، وكان له (**نغر**) يلعب به، أي: (**طائر صغير**)، فمات هذا الطّائر، ودخل عليه النّبي ﷺ ذات يوم فرآه حزينًا، فقال: **ما شأنه؟**، قالوا: مات نغره، فقال: «**يا أَبَا عُمَيْرٍ، ما فَعَلَ النُّغَيْرُ!؟**» [مُتفق عليه]. وهنا واقترب ﷺ من هذا الطّفل الصّغير، وشعر بحزنه وتكدّر خاطره، فسأل عن السّبب، فأخبروه بأنّ طائره الصّغير قد مات، فتفاعل معه ﷺ بكل كيانه، وقال له: «**يا أبا عُمير، ما فعل النّغير؟**»، وعاش معه أجواء هذه المُصيبة، وتباسط وتنزّل إلى نفس اهتمامات هذا الطّفل الصّغير الذي شعر أنّ موت طائره من أعظم مصائب الدّنيا! فواساه ﷺ وعزّاه، وجلس مُنصتًا له بكل اهتمام، وهو يُحدّثه عن كيفية موت طائره وحكاياته معه، فكانت زيارته وسؤاله لهذا الطّفل بلسمًا شافيًا، ودواءً ناجعًا، لما ألمّ به من مُصيبة، وما شعر به من حزن. إنّ السّائل في هذا المشهد هو رسول ربّ العالمين، وخاتم المُرسلين،

يسأل من؟! يسأل طفلًا يُقارب الثّالثة من العمر، يسأله عن ماذا؟! يسأله عن طائره الذي كان يلعب به ومات، بكل حفاوة واهتمام، ولطف وإكرام.

وهنا تقف الأرواح إج لهذا الزّائر الرّحيم والنّبي الكريم ﷺ، وهنا تشهد القلوب وتُدرك معنى قول الباري سبحانه: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ} [الأنبياء: الآية 107].

ولقد جمع ابن القاص الشّافعي ستين فائدة من هذا الحديث، وزاد عليها الحافظ ابن حجر حتى بلّغها قُرابة السّبعين وحبّرها في «فتح الباري». ومنها زيارة الإمام لأفراد رعيّته، والسؤال عن أحوالهم، ومُحادثة الناس على قدر عقولهم، ومواساة المُصاب ولو كان طفلًا، وتفقّد العالم لطلّابه وزيارتهم، وكسب قلوب الجميع، وجبر خواطر النّاس كافة، إلى غير ذلك من الفوائد.

ولم تقتصر زياراته ﷺ على أقاربه وأصحابه فقط، بل كان يُجيب كل دعوة تُوجّه إليه، سواءً كانت من فقير أو غني، أو كبير أو صغير، أو خادم أو عامل، ولم يتكبّر، ولم يتأخر، وإنما يقبل، ويُجيب، ويبادر، بكل لُطف، وتواضع، وسرور، ويقول: «**لَوْ دُعِيتُ إلى كُراعٍ لَأَجَبْتُ، ولو أُهْدِيَ إلَيَّ كُراعٌ لَقَبِلْتُ**» [رواه البخاري].

تدعوه عجوز لطعام صنعته فيجيب ﷺ وينطلق إليها زائرًا، وهي مُليكة (جدة أنس بن مالك)، فتحضر له طعامًا متواضعًا، وكان معه أنس وغلام آخر فأكل ﷺ ثُمَّ قالَ: «**قُومُوا فَلْأُصَلِّ لَكُمْ!**»، قالَ أنَسٌ: «**فَقُمْتُ إلى حَصِيرٍ لَنَا، قَدِ اسْوَدَّ مِن طُولِ ما لُبِسَ، فَنَضَحْتُهُ بمَاءٍ، فَقَامَ رَسولُ الله ﷺ، وصَفَفْتُ واليَتِيمُ ورَاءَهُ، والعَجُوزُ مِن ورَائِنَا، فَصَلَّى لَنَا رَسولُ الله ﷺ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ انْصَرَفَ**» [مُتفق عليه]. فلم يتأفف ﷺ، ولم يتضجّر، ولم يتأخر في تلبية دعوة هذه العجوز، بل أدخل عليها المسرّة، ونوّر بيتها بالصّلاة، وعلّم مَن حضر سُنّة الجماعة في صلاة النّافلة، وص بهم صلاة الضّحى، وأقام أنس والغلام خلفه، ثم مُليكة وحدها خلفهما، وهي السُّنة في وقوف المرأة خلف صفّ الجماعة، فجمع ﷺ عدة مكرمات في هذه الزّيارة الشّريفة.

وعن أنس بن مالك (رضي الله عنه): «**أنَّ جَارًا لِرَسولِ الله ﷺ فَارِسِيًّا كانَ طَيِّبَ المَرَقِ، فَصَنَعَ لِرَسولِ الله ﷺ، ثُمَّ جَاءَ يَدْعُوهُ**، فَقالَ: **وَهذِه؟! لِعَائِشَةَ**، فَقالَ: ،لَا، فَقالَ رَسولُ الله ﷺ: **لَا، فَعَادَ يَدْعُوهُ، فَقالَ رَسولُ الله ﷺ: وَهذِه؟!** قالَ:، **لَا**، قالَ رَسولُ الله ﷺ: **لَا، ثُمَّ عَادَ يَدْعُوهُ**، فَقالَ رَسولُ الله ﷺ: **وَهذِه؟!** قالَ: **نَعَمْ في الثَّالِثَةِ، فَقَامَا يَتَدَافَعَانِ حتَّى أَتَيَا مَنْزِلَهُ**» [رواه مسلم].

ذهب ﷺ إلى المولى الفارسي وزاره وأجاب دعوته، وأكل من طعامه بكل تواضع رغم تعالي العرب في ذلك الوقت وازدرائهم لهؤلاء الموالي، وفوق ذلك لُطفه ﷺ مع زوجه عائشة (رضي الله عنها) فامتنع عن إجابة الدّعوى وقبول الزّيارة إلّا أن تكون معه لتُشاركه هذا الطعام الشّهي.

وهذا مولًى خياطٌ يأتي إلى النّبي يدعوه لزيارته فيجيب ﷺ دعوته، ويذهب إليه زائرًا، يقول أنس (رضي الله عنه): «**دَخَلْتُ مع النّبيّ ﷺ على غُلامٍ له خَيّاطٍ، فَقَدَّمَ إلَيْهِ قَصْعَةً فِيها ثَرِيدٌ، وأَقْبَلَ على عَمَلِهِ، فَجَعَلَ النّبيُّ ﷺ يَتَتَبَّعُ الدُّبّاءَ، فَجَعَلْتُ أتَتَبَّعُهُ فأضَعُهُ بيْنَ يَدَيْهِ، فَما زِلْتُ بَعْدُ أُحِبُّ الدُّبّاءَ**» [مُتفق عليه]، والدُّبَّاء: (نوع من القرع)، وممّا يُوقف عنده في هذه القصة قُربه ﷺ من هؤلاء الموالي والخدم، ومعرفتهم وتأكدهم من أن النّبي ﷺ سوف يُجيب دعوتهم، فيذهبون إليه بكل سهولة، ويقبل دعوتهم بكل حُبٍّ ولُطفٍ، ويدخل بيوتهم زائرًا، ويأكل من طعامهم البسيط، ويترك أثرًا طيّبًا جميلًا في نفوسهم يبقى مدى حياتهم.

وأجاب ﷺ دعوة جابر(رضي الله عنه) حين جاءه يشكو إليه الدَّين وإلحاح صاحب الدّين، فزاره ﷺ وفاض عليه من خلال هذه الزّيارة المُباركة بكريم شفاعته، وحلول بركته، ودعائه له بالخير، وتفريج همه، وقضاء دينه.

فصلّى الله وسلّم عليه ما أعظم بركته في أيّ مكان حلّ، وفي أي منزل نزل! يقول جابر (رضي الله عنه): « كانَ بالمَدِينَةِ يَهُودِيٌّ، وكانَ يُسْلِفُنِي في تَمْرِي إلى الجِدَادِ -وكَانَتْ لِجَابِرٍ الأرْضُ الَّتي بطَرِيقِ رُومَةَ- فَجَلَسَتْ، فَخَلَا عَامًا، فَجَاءَنِي اليَهُودِيُّ عِنْدَ الجَدَادِ ولَمْ أجُدَّ منها شيئًا، فَجَعَلْتُ أسْتَنْظِرُهُ إلى قَابِلٍ فَيَأْبَى، فَأُخْبِرَ بذلكَ النَّبيُّ ﷺ، فَقالَ لأصْحَابِهِ: **امْشُوا نَسْتَنْظِرْ لِجَابِرٍ مِنَ اليَهُودِيِّ. فَجَاؤُونِي في نَخْلِي، فَجَعَلَ النَّبيُّ ﷺ يُكَلِّمُ اليَهُودِيَّ**، فيَقولُ: **أبَا القَاسِمِ، لا أُنْظِرُهُ**، فَلَمَّا رَأَى النَّبيُّ ﷺ **قَامَ فَطَافَ في النَّخْلِ، ثُمَّ جَاءَهُ فَكَلَّمَهُ فأبَى، فَقُمْتُ فَجِئْتُ بقَلِيلِ رُطَبٍ، فَوَضَعْتُهُ بيْنَ يَدَيِ النَّبيِّ ﷺ فأكَلَ**، ثُمَّ قالَ: **أيْنَ عَرِيشُكَ يا جَابِرُ؟ فأخْبَرْتُهُ**، فَقالَ: **افْرُشْ لي فيه، فَفَرَشْتُهُ، فَدَخَلَ فَرَقَدَ ثُمَّ اسْتَيْقَظَ، فَجِئْتُهُ بقَبْضَةٍ أُخْرَى فأكَلَ منها، ثُمَّ قَامَ فَكَلَّمَ اليَهُودِيَّ فأبَى عليه، فَقَامَ في الرِّطَابِ في النَّخْلِ الثَّانِيَةَ**، ثُمَّ قالَ: **يا جَابِرُ، جُدَّ واقْضِ. فَوَقَفَ في الجَدَادِ، فَجَدَدْتُ منها ما قَضَيْتُهُ، وفَضَلَ منه، فَخَرَجْتُ حتَّى جِئْتُ النَّبيَّ ﷺ فَبَشَّرْتُهُ، فَقالَ: أشْهَدُ أنِّي رَسولُ اللهِ**» [رواه البخاري].

وحرص ﷺ على زيارة المرضى، وحثّ بفعله وقوله على ذلك، ورغّب بالأجر العظيم، والثّواب الجزيل، لمن عاد مريضًا. ومن هذه البشارات والهدايا النّبوية قوله ﷺ: «إنَّ المُسْلِمَ إذا عادَ أخاهُ المُسْلِمَ لَمْ يَزَلْ في خُرْفَةِ الجَنَّةِ حتَّى يَرْجِعَ» [رواه مسلم]، وقال ﷺ: «**حَقُّ المُسْلِمِ علَى المُسْلِمِ خَمْسٌ: وذكر منها: عِيَادَةُ المَرِيض**» [مُتفق عليه]، وقال ﷺ: «**أَطْعِمُوا الْجَائِعَ، وَعُودُوا الْمَرِيضَ وفُكُّوا العانيَ**» [رواه البخاري]، وقال ﷺ: «**إنَّ الله عزَّ وجلَّ يقولُ يَومَ القِيامَةِ: يا ابْنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي**، قال: **يا رَبِّ كيفَ أعُودُكَ؟ وأَنْتَ رَبُّ العالَمِينَ**، قالَ: **أما عَلِمْتَ أنَّ عَبْدِي فُلانًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ، أما عَلِمْتَ أنَّكَ لو عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ؟**» [رواه مسلم].

ولم يُفرّق ﷺ في زياراته للمرضى بين مُسلم أو غير مُسلم، فهو المبعوث رحمة للعالمين، والمرض مصاب إنساني، وداء يُصيب البشر كافة، لا يخص أحدًا دون أحد بسبب دينه أو ملّته، فكان يتعاهد ﷺ عمه أبا طالب بالزّيارة بعد مرضه ولم يكن مُسلمًا، فعن أبي هريرة(رضي الله عنه) قال: قالَ رَسولُ الله ﷺ لِعَمِّهِ: «**قُلْ: لا إلَهَ إلَّا الله، أشْهَدُ لكَ بها يومَ القِيامَةِ**»، قالَ: **لَوْلا أنْ تُعَيِّرَنِي قُرَيْشٌ**، يقولونَ: **إنَّما حَمَلَهُ علَى ذلكَ الجَزَعُ لأَقْرَرْتُ بها عَيْنَكَ**، فأنْزَلَ الله: {إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} [القصص: الآية 56] [رواه مسلم].

وزار ﷺ غُلامًا يهوديًّا رغم أنّه لم يكن يشهد برسالته، ولم يؤمن بدينه، ولكن رحمة النّبي أوسع، ولطفه أعظم، فألغى ﷺ هذه الحواجز كلّها وذهب إليه زائرًا عندما علم بمرضه، وأثمرت هذه الزّيارة الشّريفة المُباركة بإسلام هذا الغلام على يد النّبي ﷺ، فعن أنس بن مالك (رضي الله عنه) قال: «**كانَ غُلامٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النبيَّ ﷺ، فَمَرِضَ، فأتاهُ النبيُّ ﷺ يَعُودُهُ، فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ**، فَقالَ له: **أسْلِمْ**. **فَنَظَرَ إلى أبِيهِ وهو عِنْدَهُ**، فَقالَ له: **أطِعْ أبا القاسِمِ، فأسْلَمَ**، فَخَرَجَ النبيُّ ﷺ وهو يقولُ: **الحَمْدُ لله الذي أنْقَذَهُ مِنَ النّارِ**» [رواه البخاري].

ومن هديه ﷺ في زياراته للمرضى أنّه لم يكن يردّه عن زيارتهم وعيادتهم أيّ ظرف كان، سواءً طالت المسافة، أو زادت المشقّة، فكان يذهب ماشيًا أو راكبًا حسب ما تيسّر له، يقول جابر(رضي الله عنه):«**عادني النّبيُّ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ في بَنِي سَلِمَةَ يَمْشِيانِ، فَوَجَدنِي لا أَعْقِلُ، فَدَعا بماءٍ فَتَوَضَّأَ، ثُمَّ رَشَّ عَلَيَّ منه فأفَقْتُ**» [مُتفق عليه].

وكان ﷺ يدخل على المرضى بالبُشرى والأُنس، ويُطمئنهم، ويدعو لهم، ويُذكّرهم بالأجر، ويُخفف عنهم، كما فعل في زيارته لسعد بن أبي وقاص (رضي الله عنه)فقال: «**اللهمَّ اشْفِ سعْدًا، اللهمَّ اشْفِ سَعْدًا، اللهمَّ اشْفِ سَعدًا**» [رواه مسلم]، وبشّره أنّه يطول به العُمر فينتفع به أقوام، ويُضرّ به آخرون. فقال ﷺ: «**ولَعَلَّكَ تُخَلَّفُ حتَّى يَنْتَفِعَ بكَ أقْوَامٌ ويُضَرَّ بكَ آخَرُونَ**» [مُتفق عليه].

ودخل ﷺ علَى أعرَابِيٍّ يَعُودُهُ فَقالَ: «**لا بَأْسَ عَلَيْكَ!طَهُورٌ إنْ شَاءَ الله**» [رواه البخاري].

وزار ﷺ مريضًا أصيب بالحمّى، فآنسه، وبشّره، وأدخل عليه التّفاؤل، فقالَ له: **أبشر، فإنَّ الله** يقولُ: **هيَ ناري أسلِّطُها علَى عبدي المذنبِ لتَكونَ حظَّهُ منَ النّارِ**» [رواه الترمذي].

وحثّ ﷺ كل من يزور مريضًا أن يحرص على كلماته، ويجعلها كلمات بُشرى وخير، فقال: «**إذا حَضَرْتُمُ المَرِيضَ، أوِ المَيِّتَ، فَقُولوا خَيْرًا، فإنَّ المَلَائِكَةَ يُؤَمِّنُونَ علَى ما تَقُولونَ**» [رواه مسلم].

ونهى ﷺ المرضى والمصابين عن تمني الموت أو الدّعاء به، مهما اشتد بهم الألم، أو زاد عليهم المرض، وأوصى بدعاء عظيم كما جاء عن أنس (رضي الله عنه) أنّه قال: «**لا يَتَمَنَّيَنَّ أحَدُكُمُ المَوْتَ مِن ضُرٍّ أصابَهُ، فإنْ كانَ لا بُدَّ فاعِلًا، فَلْيَقُلِ: اللَّهُمَّ أحْيِنِي ما كانَتِ الحَياةُ خَيْرًا لِي، وتَوَفَّنِي إذا كانَتِ الوَفاةُ خَيْرًا لِي**» [مُتفق عليه]، وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) أنّ النبي ﷺ قال: «**لا يَتَمَنَّيَنَّ أحَدُكُمُ المَوْتَ: إمَّا مُحْسِنًا، فَلَعَلَّهُ أنْ يَزْدادَ خَيْرًا، وإمَّا مُسِيئًا، فَلَعَلَّهُ أنْ يَسْتَعْتِبَ**» [مُتفق عليه]، فكان ﷺ يتفاءل ويرى أنّ هناك أملًا في عودة الإنسان إلى الحياة، وتزوّده من الحسنات والخيرات إن طال عمره.

وكان ﷺ إذا زار مريضًا دعا له بالشّفاء كما قالت عائشة (رضي الله عنها) : «أنَّ رَسولَ الله ﷺ كانَ إذَا عَادَ مَرِيضًا يقولُ: «**أَذْهِبِ البَاسَ، رَبَّ النَّاسِ، اشْفِهِ أَنْتَ الشَّافِي، لا شِفَاءَ إلَّا شِفَاؤُكَ، شِفَاءً لا يُغَادِرُ سَقَمًا**» [مُتفق عليه]. وعن ابن عباس (رضي الله عنهما) أنّ النّبي ﷺ قال: «**ما من عبدٍ مسلمٍ يعودُ مريضًا لم يحضُرْ أجلُه فيقولُ سبعَ مراتٍ:** «**أسألُ اللهَ العظيمَ ربَّ العرشِ العظيمِ أن يشفيَك إلّا عُوفِيَ**» [رواه الترمذي].

وجاء عُثْمَانُ بنُ أَبِي العَاصِ (رضي الله عنه) يشكو إليه ﷺ وَجَعًا يَجِدُهُ في جَسَدِهِ فَقالَ له ﷺ: «**ضَعْ يَدَكَ علَى الذي تَألَّمَ مِن جَسَدِكَ، وَقُلْ باسْمِ الله ثَلَاثًا، وَقُلْ سَبْعَ مَرَّاتٍ أَعُوذُ بالله وَقُدْرَتِهِ مِن**

شَرِّ ما أَجِدُ وَأُحَاذِرُ» [رواه مسلم].

وعند زيارته ﷺ للمريض، كان يدعو له بدعاء عظيم كلّه رجاء، وبركة، وطمأنينة، وفأل حسن، فيقول كما روى أبو داود والتّرمذي: «**أَسأَلُ اللهَ العظيمَ، ربَّ العَرشِ العظيمِ أنْ يَشفِيَكَ؛ سبعَ مرّاتٍ، شَفاه اللهُ إنْ كان قد أُخِّرَ؛ (يعني: في أجَلِه)**، وكان ينصح المحموم بأن يُبرّد جسده بالماء، ويقول: «**الْحُمّى مِنْ فَيْحِ جَهَنّمَ، فَأَبْرِدُوهَا بِالْمَاءِ**» [مُتفق عليه].

حتى وإن تأخّر شفاء المريض كان يُكرر ﷺ زيارته، ومؤانسته، والتّخفيف عنه، ولا يمل من ذلك، كما فعل مع سعد بن معاذ (رضي الله عنه) وأحضره إلى المسجد ليُمرّض فيه ويكون قريبًا منه لحرصه ﷺ على تعاهده بالزّيارة، قالت عائشة (رضي الله عنها) : «**أُصِيبَ سَعْدٌ يَومَ الخَنْدَقِ في الأكْحَلِ، فَضَرَبَ النّبيُّ ﷺ خَيْمَةً في المَسْجِدِ، لِيَعُودَهُ مِن قَرِيبٍ**» [مُتفق عليه].

ومن عظيم شفقته، وبالغ رحمته ﷺ أنه كان يُرسل بالأطباء للمرضى، ويوفر لهم ما يحتاجونه من علاج، كما قال جابر (رضي الله عنه): «**بَعَثَ رَسولُ اللهِ ﷺ إلى أُبَيِّ بنِ كَعْبٍ طَبِيبًا، فَقَطَعَ منه عِرْقًا، ثُمَّ كَوَاهُ عليه**» [رواه مسلم].

وعادَ رسولُ الله ﷺ رَجُلًا به جُرحٌ، فقال ﷺ: «**ادْعوا له طَبيبَ بَني فُلانٍ**، قال: **فدَعوه فجاءَ**، فقالوا: **يا رسولَ الله، ويُغني الدَّواءُ شَيئًا؟** فقال: **سُبْحانَ الله! وهل أنزَلَ اللهُ مِن داءٍ في الأرضِ إلّا جَعَلَ له شِفاءً؟**» [رواه أحمد].

وصحّ عنه ﷺ أنّه كان يزور القبور، ويدعو لأهلها ويقول: «**السَّلَامُ علَى أَهْلِ الدِّيَارِ مِنَ المُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ، وَيَرْحَمُ الله المُسْتَقْدِمِينَ مِنَّا وَالْمُسْتَأْخِرِينَ، وإنَّا إنْ شَاءَ الله بكُمْ لَلَاحِقُونَ**» [رواه مسلم]، وحثّ ﷺ على زيارة القبور لأنّها تُذكّر بالآخرة فقال: «**كُنْتُ نَهَيتُكم عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ فزُوروها**» [رواه مسلم]، وفي لفظ عند الترمذي: «**فَأنّها تُذَكّرُ الآخِرَةَ**»، فصلّى الله وسلّم على من جعله رحمة للأحياء والأموات، فقد دعا للأحياء، وزارهم، وواساهم، وآنسهم. وزار الأموات، ودعا لهم بالمغفرة والرّحمة والرّضوان، ولم يزر ﷺ أحدًا إلّا وقد ترك عنده أثرًا طيّبًا، إمّا دعاه إلى الإسلام، وإمّا علّمه سُنَّة، وإمّا صلّى عنده، وإمّا دعا له، وإمّا طعم عنده وآنسه، وإمّا أدخل عليه السّرور، وإمّا رقاه، وإمّا بارك له، وإمّا عزّاه وواساه، فكانت زياراته ﷺ كلّها طاعة وعبادة. وكان

إذا دخل بيتًا من بيوت أصحابه صار تاريخًا لصاحب هذا البيت، وذكرى مجيدة لا تُنسى أبد الدهر يتحدّث بها ويُكرّرها في كل مجلس:

صلّى عليك إله الكون ماسجعت

ورقاء تشكو الجوى في أجمل النّغمِ

صلاة صبٍ محبّ مغرم كلفٍ

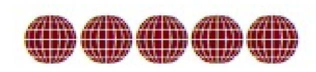
يرجو شفاعة خير الرّسل كلّهمِ

صلاة طُهرٍ بدمع العين أكتبها

كَعَدِّ ذرّ الحصى والرّمل والدّيمِ

أريجها من عبير المسك أرسلها

في سجدةٍ بجزيل الأجر فاغتنمِ





محمد ﷺ مُناجِيًا

كان ﷺ يتبتّل لمولاه وخالقه بالدّعاء الذي يفيض عبوديةً، وخشيةً، ورقةً، يدعو ربّه الواحد الأحد الذي أسند إليه كلّ أمره، وفوّض إليه كلّ شأنه، وبثّ له شكواه، وأخلص له نجواه، وسلّم له روحه، وعفّر له جبينَه، دعاء مُحبٍّ يشعر بالفقر، ويأتي بالمسكنة، ويتوسّل بالذُّلِ والإخبات، والتّواضع والانكسار للواحد القهار، وهو المُتيقّن عليه الصّلاة والسّلام أنّ هذا الرّب الذي يدعوه، والإله الذي يُناجيه، هو الأول والآخر، والظّاهر والباطن، لا مانع لما أعطى، ولا مُعطي لما منع، ولا يُجيب المُضطر إلّا هو، ولا يكشف الكرب إلّا هو، ولا يُزيل الغمّ إلّا هو، ولا يُزيح البأس إلّا هو، إليه الملجأ والمُلتجأ، ومنه المدد، وفيه الرّجاء، وإليه القصد والمُشتكى، وهو المستعان وعليه التّكلان، وهو حسبه وحده ونعم الوكيل، وهو كافيه وحاميه وراعيه، ولا حول ولا قوة إلّا به، سُبحانه من إله عظيم، وملك كريم!.

كان ﷺ يدعو ربّه فتحصل أعظم مُناجاة بين أحبّ عبدٍ وأجلّ ربّ، فينبعث الدّعاء خالصًا من أطهر قلب وأزكى نفس، دعاء ملؤه اليقين والثّقة بالله، والانقطاع عمّن سواه، والطّمع فيما عنده جلّ في عُلاه، دعاء يغشاه صدق التّوجه للباري سبحانه، وكمال الرّغبة فيما عنده، وجميل الظّن به تقدّس اسمه، وحضور القلب، مع تمام الحبّ، وكمال القُرب من هذا الربّ؛ ولهذا تأتي إجابته سُبحانه أسرع من لمح البصر، وأغزر من وابل المطر لأكرم البشر ﷺ.

يرفع يديه ﷺ ليطلب فضل الرّحمن وكرم الديّان، فتُفتّح له أبواب السّماء، وتنهمر عليه خزائن الجود، وسحائب الرّضوان، فلله ما أصدق مُناجاته في طلب حاجاته! وما أرقّ تضرّعه وألطف توسّله! وما أجمل مُناشدته لربّه وخالقه!.

لقد أرشدنا نبيّنا ﷺ إلى أعظم، وأسرع، وأنجع حلٍ لجميع المُشكلات ألا وهو الدّعاء.

إنّه الدّواء الذي داوم عليه النبيّون، والصالحون، عبر العصور، فأدركوا ما أمّلوا، فعن عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ(رضي الله عنه) أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**مَا عَلى الأَرْضِ مُسْلِمٌ يَدْعُو الله تَعالى بِدَعْوَةٍ إِلَّا آتَاهُ الله إِيَّاهَا، أَوْ صَرَف عنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا، مَا لَم يدْعُ بإِثْم، أَوْ قَطِيعَةِ رحِمٍ**» [رواه الترمذي].

ومن ألطف الكلام وأشرف الخطاب في فضل الدّعاء ورجاء الاستجابة قول الباري سُبحانه: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ} [البقرة: الآية 186].

لقد أعطانا نبيّ الهدى ﷺ مفتاح الباب الأعظم بيدنَا، لنفتح متى شئنَا، وندخل ديوان ملك الملوك سُبحانه لنجد عنده كل شيء، ومسّكنا ﷺ الحبل الممدود بيننَا وبين ربّ العزّة والملكوت، فإذا تمسكنا به فلن نسقط أبدًا، ألا وهو الدّعاء؛ لأنّه الصّلة بين العبد، الفقير، المسكين، الخائف، المُنكسر، المحتاج، وربّه القويّ، القادر، القاهر، الغنيّ، الواهب، الواجد، الماجد، سُبحانه!

وأخبرنا ﷺ أنّ خزائن الله كثيرة ووفيرة وما علينا سوى افتتاحها بالدّعاء، لنجد ما لا يخطر بالبال، ولا يدور في الخيال، لأنّ ملك الملوك لا يعجزه شيء، «**بِيَدِهِ الْخَيْرُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**».

وهلْ في العالم أشرف وأطهر من صورة العبد وهو يضع جبينه على التّراب، وينادي ويناجي ربّه أرحم الراحمين، وأكرم الأكرمين، ويقول: (**يا رب، يا رب، يا الله، يا الله**)؟

لقد علّمنا ﷺ أنّ الدّعاء هو قارب النّجاة في بحار الحياة المليئة بالأمواج التي ترتطم من حين لآخر بصخور الأزمات، والمكاره، والشّدائد، وفَهّمنا ﷺ أنّ الدّعاء ساحل الأمان، وبرّ السّلامة من طوفان الهلاك، فكان عليه الصّلاة والسّلام لاهجًا بدعاء ربّه في كل حالاته، قد فوّض أمره لمولاه، وأكثر الإلحاح على خالقه يناشده رحمته وعفوه، ويطلب برّه وكرمه.

وكان ﷺ يداوم على هذا الدّعاء العظيم إذا أصبح وإذا أمسى، فيقول: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي دِينِي وَدُنْيَايَ وَأَهْلِي وَمَالِي، اللَّهُمَّ**

اسْتُرْ عَوْرَاتِي وَآمِنْ رَوْعَاتِي، اللَّهُمَّ احْفَظْنِي مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ وَمِنْ خَلْفِي وَعَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي وَمِنْ فَوْقِي وَأَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ مِنْ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تحتي» [رواه أبو داود].

وأرشدنا ﷺ إلى أنّ نتائج الدّعاء سوف تأتي، فقط عليك الإرسال، وعلى الله الاستقبال، أرسل دعوتك في السّحر، واكتبها بدمع العين على قراطيس الخدود، ووجهها للعرش وانتظر الإجابة، كما قيل:

لا تسألنَّ بُنيَّ آدم حاجةً	وسل الذي أبوابه لا تُحجبُ
الله يغضبُ إن تركت سؤاله	وبُنَيَّ آدم حينَ يُسألُ يغضبُ

وحثّ ﷺ على الدّعاء، وأخبر بمكانته العالية، ودرجته الرّفيعة عند الله، وجعله أصل العبادة؛ لأنّ فيه الذّل والخضوع والاستسلام لله، وذلك سرّ العبودية، فقال ﷺ: «**الدُّعاءُ هو العبادةُ**» [رواه الأربعة].

وكان ﷺ في دعائه يعزم المسألة، ويُلحّ على ربّه، كما صح عنه ﷺ من حديث عائشة (رضي الله عنها) : «**أنّه إذَا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ، أَوْ ذَاتَ لَيْلَةٍ، دَعَا رَسُولُ الله ﷺ، ثُمَّ دَعَا، ثُمَّ دَعَا**» [مُتفق عليه].

وحثّ ﷺ أصحابه على ذلك فيقول: «**إذا دَعا أحَدُكُمْ فَلْيَعْزِمِ المَسْأَلَةَ، ولا يَقُولَنَّ: اللهمَّ إنْ شِئْتَ فأعْطِنِي، فإنَّه لا مُسْتَكْرِهَ له**» [مُتفق عليه]؛ لأنّ في العزم على المسألة تمام الرّغبة في كرم الله، والطّمع في فضله وشدّة الفقر إليه جلّ في عُلاه، وصحّ عنه ﷺ أنّه: «**كَانَ إذَا دَعَا دَعَا ثَلاثًا، وَإذَا سَأَلَ سَأَلَ ثَلاثًا**» [رواه مسلم]، ويقول عمر بن الخطاب (رضي الله عنه): «**لَمَّا كانَ يَوْمُ بَدْرٍ نَظَرَ رَسولُ الله ﷺ إلى المُشْرِكِينَ وَهُمْ أَلْفٌ، وَأَصْحَابُهُ ثَلَاثُ مِئَةٍ وَتِسْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا، فَاسْتَقْبَلَ نَبِيُّ الله ﷺ القِبْلَةَ، ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ، فَجَعَلَ يَهْتِفُ برَبِّهِ: اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لي ما وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ آتِ ما وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ إنْ تُهْلِكْ هذِه العِصَابَةَ مِن أَهْلِ الإسْلَامِ لا تُعْبَدْ في الأرْضِ، فَما زَالَ يَهْتِفُ برَبِّهِ، مَادًّا يَدَيْهِ مُسْتَقْبِلَ القِبْلَةِ، حتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ عن مَنْكِبَيْهِ، فأتَاهُ أَبُو بَكْرٍ فأخَذَ رِدَاءَهُ، فألْقَاهُ علَى مَنْكِبَيْهِ، ثُمَّ التَزَمَهُ مِن وَرَائِهِ، وَقالَ: يا نَبِيَّ الله! كَفَاكَ مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ، فإنَّه سَيُنْجِزُ لكَ ما وَعَدَكَ**» [رواه مسلم].

ومدّ ﷺ بدعائه جسور المحبة والمودة والإخاء بين المؤمنين، فقال: «**دَعْوَةُ المَرْءِ المُسْلِمِ لأَخِيهِ بظَهْرِ الغَيْبِ مُسْتَجابَةٌ، عِنْدَ رَأْسِهِ مَلَكٌ مُوَكَّلٌ كُلَّما دَعا لأَخِيهِ بخَيْرٍ، قالَ المَلَكُ المُوَكَّلُ بهِ: آمِينَ، وَلَكَ بمِثْلٍ**» [رواه مسلم].

ولمّا سأل أبو بكر الصّديق (رضي الله عنه) النّبيّ ﷺ، وقال له: عَلِّمْنِي دُعاءً أدْعُو به في صَلاتِي، فأوصاه ﷺ بدعاء عظيم يندى بالمغفرة والتفاؤل، فقال له: «**قُلْ: اللَّهُمَّ إنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، ولَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلَّا أنْتَ، فَاغْفِرْ لي مَغْفِرَةً مِن عِندِكَ، وارْحَمْنِي إنَّكَ أنْتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ**» [مُتفق عليه].

وعن أنس بن مالك (رضي الله عنه) قال: «**كُنتُ جالِسًا مع رسولِ الله ﷺ في الحَلْقةِ، ورَجُلٌ قائِمٌ يُصلِّي، فلمَّا رَكَعَ وسَجَدَ جَلَسَ وتَشَهَّدَ، ثم دَعا،** فقال: **اللهمَّ إنِّي أسْألُكَ بأنَّ لكَ الحَمدَ لا إلَهَ إلَّا أنتَ، المنَّانُ، بَديعُ السَّمواتِ والأرْضِ، ذا الجَلالِ والإكْرامِ، يا حَيُّ يا قَيُّومُ، إنِّي أسأَلُكَ.** فقال رسولُ الله ﷺ: **أتَدْرونَ بِمَ دَعا؟**، قالوا: **اللهُ ورَسولُه أعلَمُ**، قال: **والذي نَفْسي بيَدِه، لقد دَعا اللهَ باسمِه العَظيمِ الذي إذا دُعيَ به أجابَ، وإذا سُئِلَ به أَعطَى**» [رواه أبو داود].

وكان لدعائه ﷺ معجزات شهدها مئات الصّحابة، يقول أنس بن مالك(رضي الله عنه): بيْنَما رَسولُ الله ﷺ يَخْطُبُ يَومَ الجُمُعَةِ، إذْ جَاءَهُ رَجُلٌ، فَقالَ: **يا رَسولَ الله قَحَطَ المَطَرُ، فَادْعُ اللهَ أنْ يَسْقِيَنَا، فَدَعَا فَمُطِرْنَا**، فما كِدْنَا أنْ نَصِلَ إلى مَنَازِلِنَا فما زِلْنَا نُمْطَرُ إلى الجُمُعَةِ المُقْبِلَةِ، قالَ: **فَقَامَ ذلكَ الرَّجُلُ أوْ غَيْرُهُ**، فَقالَ: **يا رَسولَ الله ادْعُ اللهَ أنْ يَصْرِفَهُ عنَّا**، فَقالَ رَسولُ الله ﷺ: «**اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا ولَا عَلَيْنَا**» **قالَ:** «**فَلقَدْ رَأَيْتُ السَّحَابَ يَتَقَطَّعُ يَمِينًا وشِمَالًا، يُمْطَرُونَ ولَا يُمْطَرُ أهْلُ المَدِينَةِ**». [مُتفق عليه].

ومن معجزات دعائه ﷺ ما جاء عن البراء بن عازب (رضي الله عنه) أنَّهُمْ كانُوا مع رَسولِ الله ﷺ يَومَ الحُدَيْبِيَةِ ألْفًا وأَرْبَعَ مِئَةٍ أوْ أكْثَرَ، فَنَزَلُوا على بئْرٍ فَنَزَحُوها، فأتَوْا رَسولَ الله ﷺ، فأتَى البِئْرَ، وقَعَدَ على شَفِيرِها، ثُمَّ قالَ: «**ائْتُونِي بدَلْوٍ مِن مَائِهَا، فَأُتِيَ به، فَبَصَقَ فَدَعَا، ثُمَّ قالَ: دَعُوهَا سَاعَةً. فأرْوَوْا أنْفُسَهُمْ ورِكَابَهُمْ حتَّى ارْتَحَلُوا**» [رواه البخاري]، وفي الحديث معجزة إجابة دعوته ﷺ فإنّ الله سقى بهذا الماء القليل ذلك الجمع الكثير، ببركة دعاء البشير النّذير.

وانظر للطفه وشفقته ﷺ واختياره في دعائه لأجمل الكلمات، وألطف العبارات التي تندى رقة، وتسيل عذوبة ورحمة، فعن عوف بن مالك الأشجعي (رضي الله عنه) قال: سَمِعْتُ النّبيَّ ﷺ صلّى على جِنازَةٍ يقولُ: صَلَّى علَى جِنَازَةٍ يقولُ: «**اللَّهُمَّ، اغْفِرْ له وَارْحَمْهُ، وَاعْفُ عنْه وَعَافِهِ، وَأَكْرِمْ نُزُلَهُ، وَوَسِّعْ مُدْخَلَهُ، وَاغْسِلْهُ بمَاءٍ وَثَلْجٍ وَبَرَدٍ، وَنَقِّهِ مِنَ الخَطَايَا كما يُنَقَّى الثَّوْبُ الأبْيَضُ مِنَ الدَّنَسِ، وَأَبْدِلْهُ دَارًا خَيْرًا مِن دَارِهِ، وَأَهْلًا خَيْرًا مِن أَهْلِهِ، وَزَوْجًا خَيْرًا مِن زَوْجِهِ، وَقِهِ فِتْنَةَ القَبْرِ وَعَذَابَ النَّارِ.** قالَ عَوْفٌ: **فَتَمَنَّيْتُ أَنْ لو كُنْتُ أَنَا المَيِّتَ، لِدُعَاءِ رَسولِ الله ﷺ علَى ذلكَ المَيِّتِ**» [رواه مسلم].

فيا لروعة دعائه وجمال عباراته! جعلت الصحابي راوي الحديث يتمنى أن يكون مكان الميت، فصلّى الله وسلّم عليه ما أفصحه! وما أرحمه بأمته وأنصحه!

وبشّر ﷺ الدّاعي بكرم الله سُبحانه، فقال: «**إنَّ ربَّكم تبارَكَ وتعالى حيِيٌّ كريمٌ، يستحيي من عبدِهِ إذا رفعَ يديهِ إليهِ، أن يردَّهُما صِفرًا**» [رواه أبو داود].

فإذا كان الله يستحيي أن يردّك إذا طلبته، أفلا تستحيي أن تغفل عنه فلا تطلبه؟ هل لك ربّ سواه؟ هل لك خالق غيره؟ هل تظن أنّ خزائنه انتهت؟ هل قلّ كرمه وجوده؟ هل شككت في قدرته؟ أما قال لعباده: {ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ} [غافر: الآية 60]؟ ارفع يديك، واطلب ما أردت، فإنّه أكرم الأكرمين، وأجود الأجودين، وأرحم الراحمين، سُبحانه وبحمده، لا إله غيره.

أمرنا الله بالدّعاء، ووعدنا بالإجابة، يقول ﷺ: قالَ الله تبارَكَ وتعالى: «**يا ابنَ آدمَ، إنَّكَ ما دعوتَني ورجوتَني غفَرتُ لَكَ على ما كانَ فيكَ ولا أبالي، يا ابنَ آدمَ، لو بلغت ذنوبُكَ عَنانَ السَّماءِ ثمَّ استغفرتَني غفرتُ لَكَ، ولا أبالي، يا ابنَ آدمَ، إنَّكَ لو أتيتَني بقرابِ الأرضِ خطايا ثمَّ لقيتَني لا تشرِكُ بي شيئًا لأتيتُكَ بقُرابِها مغفرةً**» [رواه الترمذي].

إنّ هذا الحديث بطاقة أمان، وباقة أمل، وبشرى لكل مُسلم ومُسلمة، فهذا الدّعاء يُعيد للرّوح إشراقها ونورها.

وعلّمنا نبيّنا ﷺ آدابًا للدّعاء ليكون أرجى للإجابة، وأدعى لقبول طلبنا، وتلبية مسألتنا لربّنا، فمن أتى بهذه الآداب النّبوية كان أرجى أن يُجاب، لأنّه سلك المسلك الشّرعي، واتّبع النّبي المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى.

ومن هذه الآداب الإخلاص في الدّعاء وقصد الله به، كما أخبر ﷺ أنّ الله لا يقبل من العمل إلّا ما كان خالصًا لوجهه الكريم، قال تعالى: {وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ} [البينة: الآية 5]، فكل دعاء ليس فيه إخلاص فلا ثمرة له ولا يُقبل، قال تعالى: {فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ} [غافر: الآية 14]، فعلى الدّاعي أن يكون موحدًا لله تعالى، متعبّدًا له بربوبيته، وألوهيته، وأسمائه، وصفاته، لا يُشرك به شيئًا؛ ليُحقق لعبده دعاءه، كما قال سُبحانه: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ} [البقرة: الآية 186].

وسنّ ﷺ الخضوع والخشوع، والرّغبة والرّهبة، والتّذلّل والتّمسكن عند الدّعاء؛ لأنّ العبد كلمّا ذلّ لمولاه، وخضع لسيده كان أدعى لإجابة سؤاله، وتلبية طلبه، قال سُبحانه: {ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً} [الأعرف: الآية 55]، وقال: {وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلاَ تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ} [الأعراف: الآية 205].

فانظر كيف أتى بالخفية في الدّعاء (من الإخفاء) وهو الإسرار؛ لأنّ ذلك أبلغ في الإخلاص، وأتى في الذّكر بالخِيفة (من الخوف) لأنّه أدعى للإجابة، وأثنى تعالى على أنبيائه الكرام عليهم السّلام، فقال: {إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ} [الأنبياء: الآية 90].

وأرشد ﷺ إلى افتتاح الدّعاء بحمد الله والثّناء عليه، والصّلاة على نبيّه ﷺ، وما أجمل أن يطرق الدّاعي باب السّماء بالثّناء! ويلجأ لمن بيده الخير كلّه، عاجله وآجله، ويتّجه إليه بقلبه، ويهتف بلسانه: **(يا رب)**، ويستمطر رحماته بحمده، ويستنزل بركاته بمدحه، ثم يُصلّي على النّبي المُصطفى والإمام المُجتبى ﷺ، لأنّ حقّه أن يُذكر بعد ذكر الله، فهو الذي عرفّنا بالله، ودلّنا على شريعته جلّ في علاه، قال ﷺ: «**إِذَا صلى** «أي: دعا» **أَحَدُكُمْ فليبْدأْ بِتَحْمِيدِ ربِّهِ عزّ وجل والثَّنَاءِ عليهِ، ثُمَّ يُصلّي علىَ النَّبيِّ ﷺ ثُمَّ يدْعُو بَعدُ بِما شاءَ**» [رواه أبو داود].

وحينما سمعَ ﷺ رجلًا يُصلِّي فمجَّدَ الله وحمِدَه وصلّى على النَّبيِّ، فقالَ رسولُ الله: «**ادعُ تُجبْ، وسلْ تُعْطَ**» [رواه الترمذي].

وحثّنا ﷺ على اليقين بإجابة ربّ العالمين، فعلى الدّاعي أن يعتقد اعتقادًا جازمًا بأنّ ملك الملوك قادر على إجابة دعوته، لأنّه فعّال لما يُريد، ولأنّه حميد مجيد، لا يُعجزه شيء، ولا يتعاظمه شيء، وعنده كل شيء، فيدعوه دعاء من أيقن أنّ حل مُشكلته عند مولاه، وأنّ إجابة دعوته عند خالقه ورازقه جلّ في عُلاه، قال ﷺ: «**ادْعُوا اللهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالإِجَابَةِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ لا يَسْتَجِيبُ دُعَاءً مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لاهٍ**» [رواه الترمذي].

ودعا ﷺ إلى تقديم الصّدقات بين يدي الدّعوات، فالصّدقة تُطفئ غضب الرّب، وهي أعظم وسيلة للإجابة، وإذا كان الله يقول في محكم التنزيل: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ} [المجادلة: الآية 12]، فمناجاة الله أعظم، ودعاؤه أجلّ وأكرم، فما أحسن الصّدقة قبل الدّعوة؛ لتكون الإجابة مُحقّقة بإذن الله!.

وأمرنا ﷺ بالاستعانة بالصّبر والصّلاة، فالمُسلم يعلم أنّ الله قادر على إجابة الدّعاء، ولكنّه حكيم سُبحانه، يعلم مصلحة الإنسان في تعجيل إجابته أو تأخيرها أو اختيار الأجمل له، وما عليه إلّا أن يستمر في الدّعاء، ويواصل، ويصبر، وسوف يُجيبه أرحم الرّاحمين في الوقت المُناسب؛ لأنّه أعلم بمصلحتنا منّا جلّ في عُلاه، فقال ﷺ: «**يُسْتَجابُ لأَحَدِكُمْ ما لَمْ يَعْجَلْ، فيَقولُ: قدْ دَعَوْتُ رَبِّي فَلَمْ يَسْتَجِبْ لي**» [مُتفق عليه].

والصّلاة من أعظم مشاهد العبوديّة، وأجلّ صور الطّاعة والإخبات والتّذلل والتّقرّب إلى الله، وحريّ بالمُصلِّي خاصة إذا دعا وهو ساجد أن يُجاب، كما قال ﷺ: «**أَمّا السُّجُودُ فاجْتَهِدُوا في الدُّعاءِ، فَقَمِنٌ أنْ يُسْتَجابَ لَكُمْ**» [رواه مُسلم]، (**فَقَمِنٌ**) أي: (**حريّ أن يُستجاب لكم**)، وقال تعالى: {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ} [البقرة: الآية 45]، فعلى الدّاعي أن يستعين بالصّلاة في إجابة دعائه ولو بصلاة ركعتين قبل عرض حاجته على ربّه، فكان ﷺ - كما صحّ عنه - إذا حزبه أمر فزع إلى الصّلاة، وقال ﷺ: «**ما مِن عبدٍ مؤمنٍ يُذنِبُ ذَنبًا فيَتوضَّأُ فَيُحسِنُ الطُّهورَ، ثمَّ يصلِّي رَكْعتينِ فيستَغفرُ اللهَ إلَّا غفرَ اللهُ لَهُ**» [رواه أحمد].

وعلّمنا رسولنا ﷺ علو الهمّة في الدّعاء، والعزم في المسألةِ لأنّنا ندعو مَنْ عنده الخزائن، ومن بيده الخير، ونسأل كريمًا جوادًا رحيمًا، فقد صحّ عنه ﷺ أنّه قال: «**إذا سَأَلْتُمُ اللهَ فَسَلُوهُ الفِرْدَوْسَ، فإنَّه أوْسَطُ الجَنَّةِ، وأَعْلَى الجَنَّةِ، وفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، ومِنْهُ تَفَجَّرُ أنْهارُ الجَنَّةِ**»

[رواه البخاري]، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**إِذَا دَعَا أَحَدُكُمْ فَلاَ يَقُلِ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ، وَلَكِنْ لِيَعْزِمِ الْمَسْأَلَةَ، وَلْيُعَظِّمِ الرَّغْبَةَ، فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يَتَعَاظَمُهُ شَيْءٌ أَعْطَاهُ**» [مُتفق عليه].

فيا لكرم وسخاء ربّ العالمين! ويا لحرصه ﷺ وشفقته على أُمّته! فهو يُريد لهم حتى في الدّعاء أعلى المنازل، وأرفع المقامات، وأعظم الدّرجات.

ومن آداب الدّعاء التي علمها رسول الله ﷺ أمته ألّا يتكلّف الدّاعي السّجع في دعائه، لأنّ الدّعاء مقام ذلّة، وإخبات، وخشوع، وخضوع، للكريم العظيم سُبحانه، وليس موقف خطابة، أو فصاحة، أو تكلّف عبارات، وكذلك ألّا يرفع صوته بالدّعاء؛ لأنّه يُناجي ملك الملوك الذي تخشع له الأصوات، وترغم له الأنوف، وتُذلّ له الجبابرة، قال سبحانه: {ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ} [الأعراف: الآية 55]، وقد فُسّر الاعتداء بالتكلّف في الدّعاء، وتشقيق الكلمات، ورفع الصّوت أيضًا.

وأخبرنا ﷺ أنّ من آداب الدّعاء استقبال القبلة؛ فقد جاء في (صحيح مسلم)عن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) أنّ النّبي ﷺ استقبل القبلة يوم بدر ومد يديه يدعو على المشركين، وذلك من احترام شعائر الإسلام، وتقديس حرمات الله، وتعظيم شأن الدّعاء، وهذا من كمال الأدب.

ويُستحب رفع اليدين عند الدّعاء، وتوجيه باطن الكفين إلى السّماء؛ لأنّ في ذلك اتّباعًا للسنة، وإظهارًا للتّذلل والمسكنة وطلب الحاجة من الله، وضعف العبد وخضوعه أمام مولاه سبحانه، ولهذا قال ﷺ: «**إِذَا سَأَلْتُمْ الله فَاسْأَلُوهُ بِبُطُونِ أَكُفِّكُمْ، وَلا تَسْأَلُوهُ بِظُهُورِهَا**» [رواه أبو داود].

وكان ﷺ يختار جوامع الدّعاء الكامل الشّامل، وكان أكثر دعائه ﷺ ـ كما في «**الصّحيحين**» من حديث أنس (رضي الله عنه): {رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} [البقرة: الآية 201]، وهذا الدّعاء أشمل وأفضل وأجمل دعاء دُعي به على الإطلاق، فقد جمع محاسن الدّنيا والآخرة، والخيرات السّابقة واللّاحقة، وكلُّ ما يتمنّاه القلب، وترجوه النّفس، فما أعظمه! وما أجلّه! وما أكثر بركته وخيره!

وعن عائشة (رضي الله عنها) أنَّ رسولَ الله ﷺ علَّمَها هذا الدُّعاءَ: «**اللَّهمَّ إنِّي أسألُكَ مِنَ الخيرِ كلِّهِ عاجلِهِ وآجلِهِ، ما عَلِمْتُ منهُ وما لم أعلَمْ. وأعوذُ بِكَ منَ الشَّرِّ كلِّهِ عاجلِهِ وآجلِهِ، ما**

عَلِمْتُ منهُ وما لم أعلَمْ. اللَّهمَّ إنِّي أسألُكَ من خيرِ ما سألَكَ عبدُكَ ونبيُّكَ، وأعوذُ بِكَ من شرِّ ما عاذَ بِهِ عبدُكَ ونبيُّكَ. اللَّهمَّ إنِّي أسألُكَ الجنَّةَ وما قرَّبَ إليها من قَولٍ أو عملٍ، وأعوذُ بِكَ منَ النَّارِ وما قرَّبَ إليها من قولٍ أو عملٍ. وأسألُكَ أن تجعلَ كلَّ قَضاءٍ قضيتَهُ لي خيرًا» [رواه ابن ماجه].

وأوصى ﷺ بدعاء فيه أربع كلمات، شاملات، مباركات، فقال لرجل أَتاهُ يسأله ويقول له: يا رَسولَ الله، **كيفَ أَقُولُ حِينَ أَسْأَلُ رَبِّي؟**، قالَ ﷺ: «**قُلْ: اللهمَّ اغْفِرْ لِي، وارْحَمْنِي، وَعافِنِي، وارْزُقْنِي، - وَيَجْمَعُ أَصابِعَهُ الَّا الإبْهامَ - فإنَّ هَؤُلاءِ تَجْمَعُ لكَ دُنْياكَ وَآخِرَتَكَ**» [رواه مسلم]. فماذا بقي بعد هذه الكلمات!؟ إذا غُفر الذّنب، ورُحم العبد بثواب من عند الله ورضوان، وعافاه الله من كلّ بلاء وأذى وفتنة، ورزقه رزقًا حسنًا، فلله ما أجمل كلمات النّبوة! وما أبلغها!.

ومن كلماته ﷺ النّيرات المُباركات، والعبارات المُشرقات البليغات، دعاؤه ﷺ: «**اللهمَّ أَصْلِحْ لي دِينِي الذي هو عِصْمَةُ أَمْرِي، وَأَصْلِحْ لي دُنْيايَ الَّتي فِيها معاشِي، وَأَصْلِحْ لي آخِرتيَ الَّتي فِيها معادِي، واجْعَلِ الحَياةَ زِيادَةً لي في كُلِّ خَيْرٍ، واجْعَلِ المَوْتَ راحَةً لي مِن كُلِّ شَرٍّ**» [رواه مسلم]. وأشهد أنّه لا يقول هذا الكلام إلّا نبيّ معصوم، وأنّه مهما بلغ حكيم في حكمته، وبليغ في بلاغته، وفصيح في فصاحته، وأديب في أدبه، فإنّه لا يقدر على صياغة مثل هذا القول الفذّ البارع الفاخر، ولكنّه نور النّبوة، وفيض العصمة، وبركة الرّسالة.

ومن آداب الدّعاء التي علمنا إياها نبيّنا ﷺ أن يُحقق الإنسان شروط إجابة الدّعاء ببذل الأسباب، ليجمع بين الدّعاء والعمل، والتّوكل والسّعي، كما قال ﷺ: «**اعقِلها وتوكَّلْ**» [رواه الترمذي]، فلا يدعو الدّاعي ثم يترك بذل الأسباب؛ لأن هذا فشل وتواكل وكسل، وإنّما يُحسن الظّن بربّه، ويدعو مولاه، ويجتهد في البذل والسّعي والعمل ليتم مقصوده على أكمل حال.

وكان ﷺ يدعو الله بأسمائه الحسنى، ولم يدعه باسم لم يتسم به سُبحانه، ولا بصفة لم يتصف بها جلّ في علاه، امتثالًا لأمره تعالى: {وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الأعراف: الآية 180]، فكلّما كان الاسم أقرب إلى الطلب كان أدعى للإجابة، مثل: يا رحمان ارحمني، ويا رزّاق ارزقني، ويا كريم أكرمني، ونحو ذلك، وهو أنسب من قول: يا جبار اغفر لي، أو يا قهار ارحمني، لأنّه لا تناسب بين الطّلب والاسم.

وحثّ ﷺ أن يكون مطعم الدّاعي، ومشربه، وملبسه طيبًا، فقَالَ ﷺ: «**أَيُّها النَّاسُ، إنَّ اللهَ طَيِّبٌ لا يَقْبَلُ إلَّا طَيِّبًا، وإنَّ اللهَ أمَرَ المُؤْمِنِينَ بما أمَرَ به المُرْسَلِينَ**، فقالَ: {يَاأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ} [المؤمنون: 51]، وقال: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ} [البقرة: 172]، **ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أشْعَثَ أغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إلى السَّماءِ، يا رَبِّ، يا رَبِّ، ومَطْعَمُهُ حَرامٌ، ومَشْرَبُهُ حَرامٌ، ومَلْبَسُهُ حَرامٌ، وغُذِيَ بالحَرامِ، فأنَّى يُسْتَجابُ لذلكَ؟**» [رواه مسلم]، فالكسب الحرام حاجب للدّعاء، مانع من الإجابة.

وحذّر ﷺ كل داعٍ وأرشده إلى أن يحتاط في دعائه، ولا يدعو بالانتقام في حالة غضبه على أحد من أهله أو نفسه أو ماله، فصح عنه ﷺ أنّه قال: «**لَا تَدْعُوا علَى أَنْفُسِكُمْ، وَلَا تَدْعُوا علَى أَوْلَادِكُمْ، وَلَا تَدْعُوا علَى أَمْوَالِكُمْ، لا تُوَافِقُوا مِنَ الله سَاعَةً يُسْأَلُ فِيهَا عَطَاءٌ، فَيَسْتَجِيبُ لَكُمْ**» [رواه مسلم].

وعن أنس (رضي الله عنه) أنَّ رَسولَ الله ﷺ عَادَ رَجُلًا مِنَ المُسْلِمِينَ قَدْ خَفَتَ فَصَارَ مِثْلَ الفَرْخِ، فَقَالَ له رَسولُ الله ﷺ: «**هلْ كُنْتَ تَدْعُو بشيءٍ، أَوْ تَسْأَلُهُ إيَّاهُ**؟، قالَ: **نَعَمْ**، كُنْتُ أَقُولُ: **اللهمَّ ما كُنْتَ مُعَاقِبِي به في الآخِرَةِ، فَعَجِّلْهُ لي في الدُّنْيَا**، فقال رسولُ الله ﷺ: **سُبْحَانَ الله! لا تُطِيقُهُ، أَوْ لا تَسْتَطِيعُهُ، أَفلا قُلْتَ: اللهمَّ آتِنَا في الدُّنيا حَسَنَةً وفي الآخِرةِ حَسَنَةً، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**. قال: **فَدَعَا الله له، فَشَفَاهُ**» [رواه مسلم].

والاعتداء في الدّعاء مخالف للأدب مع الله، فعن عبدِ الله بنِ مُغفَّلٍ أنّه سمعَ ابنَهُ يقولُ: **اللَّهمَّ إنِّي أسألُكَ القَصرَ الأبيضَ عن يمينِ الجنَّةِ إذا دخلتُها**، فقالَ: **أي بُنَيَّ، سلِ الله الجنَّةَ، وتعوَّذ بِهِ منَ النّارِ**، فإنِّي سَمِعْتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «**إنَّه سَيكونُ في هذِهِ الأمَّةِ قومٌ يعتَدونَ في الطَّهورِ والدُّعاءِ**» [رواه أبو داود]؛ لأنّ تجاوز الحدّ في الدّعاء كالدّخول في تفاصيل ما أنزل الله بها من سلطان، وذلك مخالف لحالة الدّاعي التي ينبغي أن يكون عليها من انكسار وذلة وخضوع وخشوع بين يدي علّام الغيوب.

وأرشدنا ﷺ إلى تحرّي أوقات الاستجابة، ومنها:

الدّعاء في السّجود: لأنّ قُرب السّاجد من ربّه في أحسن هيئة ممّا يُرجى معه قبول الدّعاء واستجابته، كما قال ﷺ: «**أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ، فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ**» [رواه مسلم].

ومنها الدّعاء بعد الرفع من الرّكوع: فقد كان ﷺ إذا رفع من ركوعه دعا، وربّما قنتَ في أوقات النّوازل كما جاء في «الصحيحين»: أنّه ﷺ كان إذَا أرَادَ أنْ يَدْعُوَ علَى أحَدٍ أوْ يَدْعُوَ لأحَدٍ، قَنَتَ بَعْدَ الرُّكُوعِ».

ومنها **الدّعاء في التّشهد الأخير قبل السّلام** لقوله ﷺ: «**ثم يتخيّرُ بعدُ من الدّعاءِ ما شاء، أو مَا أحبَّ**» [مُتفق عليه].

ومنها **الدّعاء بعد السّلام من الصّلاة** لقوله ﷺ لما سُئل: **أيُّ الدّعاءِ أسمَعُ؟ (أي: أقرب للإجابة)**، قال: «**جَوفَ اللّيلِ الآخِرِ، ودُبُرَ الصّلواتِ المكتوباتِ**» [رواه الترمذي]، وصح عنه ﷺ أنّه قال لمعاذ (رضي الله عنه): «**يا معاذُ أوصيك ألَّا تدَعَنَّ في دبُرِ كلِّ صلاةٍ أنْ تقولَ: اللَّهمَّ أعِنِّي على ذِكرِك وشُكرِك وحُسنِ عبادتِك**» [رواه أبو داود].

ومنها **الدّعاء في أوقات السّحر** لقول الباري سُبحانه: {وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ } [الذاريات: الآية 18]، وقوله ﷺ: «**يَتَنَزَّلُ رَبُّنا تَبارَكَ وتَعالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إلى السَّماءِ الدُّنْيا، حَينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ، يقولُ: مَن يَدْعُونِي فأسْتَجِيبَ له!؟ مَن يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ!؟ مَن يَسْتَغْفِرُنِي فأغْفِرَ له!؟**» [مُتفق عليه]. ومنها الدّعاء بين الأذان والإقامة لقوله ﷺ: «**لا يُرَدُ الدُّعاءُ بين الأذانِ والإقامةِ**» [رواه أبو داود]؛ لأنّه بين طاعتين.

ودعوة المسافر والمظلوم والوالد على ولده لقوله ﷺ: «**ثلاثُ دعواتٍ مستجاباتٍ لا شكَّ فيهنَّ: دعوةُ المظلومِ، ودعوةُ المسافرِ، ودعوةُ الوالدِ على ولدِهِ**» [رواه أبو داود]؛ لأنّ المظلوم منكسر القلب، مضطر إلى اللّجوء لخالقه وناصره سُبحانه؛ ولأن المُسافر في حالة انكسار والله عند المنكسرة قلوبهم؛ ولأن الوالد سبب في وجود ولده وحقه بعد حق الله تعالى؛ ولهذا يستجيب سُبحانه لدعاء الوالد على ولده.

ومنها **دعوة الصائم** لقوله ﷺ: «**ثلاثةٌ لا تُرَدُّ دعوتُهم**»، وذكر منهم: «**الصَّائمُ حتَّى يُفطِرَ**» [رواه الترمذي]؛ لأنّه في حالة جوع وعطش وانكسار لربّه عزّ وجل، ومنها الدّعاء عند زيارة المريض أو الميت، صحّ عنه ﷺ أنه قال: «**إذا حَضَرْتُمُ المَرِيضَ، أوِ المَيِّتَ، فَقُولوا خَيْرًا، فإنَّ المَلائِكَةَ يُؤَمِّنُونَ علَى ما تَقُولونَ**» [رواه مسلم].

ومنها **الدعاء وقت السرّاء وفي الرّخاء**، ودعوة المُضطر والمكروب لقوله تعالى: {أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ} [النمل: الآية 62]، وقوله ﷺ: «**من سرَّه أنِ يستجيبَ اللهُ له عند الشدائدِ والكربِ فلْيُكثِرْ من الدعاءِ في الرخاءِ**» [رواه الترمذي].

ومنها **الدّعاء عند الخوف من خطرٍ أو شدّة**، لقوله ﷺ: «**لا يردُّ القضاءَ إلَّا الدُّعاءُ، ولا يزيدُ في العمُرِ إلَّا البرُّ**» [رواه الترمذي].

ومنها **الدّعاء في ساعة الاستجابة من يوم الجمعة** وهي آخر ساعة من يوم الجمعة على الصّحيح من أقوال أهل العلم، وصحّ عنه ﷺ أنّه قال: «**إنَّ في الجُمُعَةِ لَساعَةً، لا يُوافِقُها مُسْلِمٌ، يَسْأَلُ الله فيها خَيْرًا، إلَّا أعْطاهُ إيّاهُ**» [مُتفق عليه].

وأوقات استجابة الدّعاء كثيرة؛ لأنّ الله معنا، قريب منّا، يرانا ويسمعنا، في كل وقت وآن، وفي كل زمان ومكان، ولكنّه سبحانه جعل أوقاتًا فاضلة أحرى لإجابة الدّعاء ليتنافس المتنافسون في سؤاله ودعائه؛ لأنه سُبحانه يُحب من يسأله، وبيّن لنا ﷺ خطورة عدم اللّجوء إلى الله ودعائه فقال: «**مَن لم يَسألِ الله يغضبْ عليْهِ**» [رواه الترمذي].

فما علينا إلّا أن ننطرح على عتبات عبوديته، ونقف بين يديه، نسأله ونناجيه وندعوه سُبحانه، فإنّه يملك كل شيء، وعنده كل شيء، وبيده كل شيء، وهو الغني القوي أكرم الأكرمين، وأرحم الرّاحمين، وأجود الأجودين، فاسأله يُعطك، وادعه يجبك، فكرمه لا يُحدّ، وجوده لا يُردّ، وكلّما ناجيته، وسألته، وطلبته، واستغثته، أحبّك، وقرّبك، وأعطاك، وتولّاك، وحماك، ورعاك، فأكثر من سؤاله والابتهال إليه جلّ في علاه.

يقول الشّاعر:

يَا منْ يَرى مَدَّ البعوضِ جناحَها

فِي ظلمة اللّيل البَهيم الأليَلِ

ويرى نِيَاطَ عُرُوقِها فِي نحرِهَا

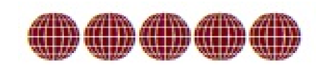
والمخَّ فِي تلكَ العظامِ النُحَّلِ

ويَرى ويسمعُ كلَّ مَا هُو دونَ ذَا

فِي قَعْرِ بَحْرٍ زاخر أو جَنْدَلِ

اغفرْ لعبدٍ تابَ منْ زَلّاتهِ

مَا كانَ منه فِي الزّمان الأوَّلِ



محمد ﷺ مُسْتَغْفِرًا

صفوة الله من خلقه، وأعلاهم منزلة عنده، هم أنبياؤه، فقد عصمهم من الزّلل، وحفظهم من العلل، وأعلى شأنهم، ورفع قدرهم، لأنهم تقرّبوا إليه سُبحانه بالاستغفار، طمعًا في مغفرته ورضاه جلّ في عُلاه.

فالاستغفار والتّوبة سُنّة الأنبياء، ووسيلة الأولياء، ومنهج الأتقياء، به يتضرّعون ويتقرّبون، وبه يُنصرون ويُغاثون، وبه يُرحمون ويرتقون، وهو أوّل طاعة تَقرّب بها الإنسان إلى خالقه.

وأوّل من فَتح الله عليه في التّوبة هو أبو البشر آدم وأمّهم حوّاء: {قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [الأعراف: الآية 23]، وقال نوح عليه السلام: {رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ} [نوح: الآية 28]، وهذا إبراهيم عليه السّلام يقول: {رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ} [إبراهيم: الآية 41]. وخاتمهم محمد ﷺ يمتثل أمر ربّه: {وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ} [محمد: الآية 19].

فمنذ اللّحظة الأولى لرسالته ﷺ إلى أن فاضت روحه الطّاهرة إلى خالقه وهو تائب لربّه، مُستغفر لمولاه، بل هو من فتح للأمّة باب التّوبة، وعلّمهم كيف يستغفرون، وكيف يرجعون للحيّ القيوم، فكان ﷺ تائبًا في ليله ونهاره، في حلّه وترحاله، في كل شأن من شؤون حياته، يراه المُذنب والعاصي فتهشّ نفسه إلى التّوبة، ويشتاق قلبه إلى الإنابة.

أعطى ﷺ مفاتيح التّوبة للأمّة، وحسّن ظنّهم بربّهم، ورفع رجاءهم، ووسّع آمالهم، وأخبر بالبشرى من ربّ العالمين: {قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ

يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} [الزمر: الآية 53].

وصحّ عنه ﷺ قوله المليء بالرّجاء والعطاء: «**إنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ باللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، حتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِن مَغْرِبِهَا**» [رواه مسلم].

وأخبرنا ﷺ بمشهد تبديل السّيئات إلى حسنات، ومشهد العفو والغفران من الرّحمن المنّان، كما قال تعالى: {إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا} [الفرقان: الآية 70].

مُلهم العالم رسول الله ﷺ هو أعرف النّاس بالله، وأعلمهم به، كما صحّ عنه أنّه قال: «**إنَّ أتْقَاكُمْ وأَعْلَمَكُمْ بالله أنَا**» [رواه البخاري]، فلمّا علم ﷺ جبروت الله، وملكوت الله، وجلال الله، وعظمة الله، وعلوّ شأنه جلّ في علاه، عَظُم يقينه بمغفرته، وزاد علمه برحمته، فأقبل نادمًا، مُنكسرًا، مُستغفرًا، تائبًا، يرى أنّ كل ما تقرب به إلى ربّه من عبادات لا تفي بهذا الجلال وهذه العظمة، وهذا من عظيم الخوف، وشدّة المراقبة له سبحانه؛ لأنّ الإنسان كلّما اقترب من ربّه تيقّن أنّه مهما قدّم من طاعات، فهو مُقصّر في جناب الله فيُكثر من التّوبة والاستغفار؛ ولذلك تجد في المقابل أنّ أبعد النّاس عن الله من لا يتوب ولا ينكسر ولا يستغفر، بل ينغمس في غفلته ومعاصيه حتى يَبْغته الموت.

إنّ لوم النّفس على التّقصير، والنّظر إليها بعين التّحقير، والإزراء عليها في جانب مولاها، وعدم الرّضا عن ظلمها وهواها، يقرب من مسافات السّير إلى اللّطيف الخبير، ما لا يقربه الصّيام والقيام، والطّواف بالبيت الحرام، ولذلك كان ﷺ يعتقد ويرى أنّ المنّة لله، وأنّ العبد مهما قدّم وبذل، وأعطى وخشع، وذلّ وخضع، فإنّ الله له المنّة، ومنه الفضل؛ لأنّه تعالى يقول: {وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا} [النور: الآية 21].

كان ﷺ يُعلن توبته ويستغفر ربّه بأرق العبارات، وأندى الكلمات، فيقول: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لي خَطِيئَتي وَجَهْلِي، وإسْرَافِي في أَمْرِي، وَما أَنْتَ أَعْلَمُ به مِنِّي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لي جِدِّي وَهَزْلِي، وَخَطَئِي وَعَمْدِي، وَكُلُّ ذلكَ عِندِي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لي ما قَدَّمْتُ وَما أَخَّرْتُ، وَما أَسْرَرْتُ وَما أَعْلَنْتُ، وَما أَنْتَ أَعْلَمُ به مِنِّي، أَنْتَ المُقَدِّمُ وَأَنْتَ المُؤَخِّرُ، وَأَنْتَ علَى كُلِّ شيءٍ قَدِيرٌ**» [مُتفق عليه].

هذا قوله ﷺ الطّاهر المُطهر المعصوم المغفور له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر، فماذا يقول العبد المُخطئ المُذنب المُتلوّث بالمعاصي المُنغمس في الذّنوب؟! وليت شعري ما مشاعره ﷺ وهو يسمع قول الباري جلّ في علاه: {لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا} [الفتح: الآية 2]!؟ يقبل هذه الهدية، ويستلم هذا الوسام، ويتشرّف بهذا التّاج، فهل ركنَ إلى هذه المغفرة فقط، ووقف عندها؟! كلّا والله! بل زاد في الخضوع لربّه، والخشوع لمولاه، والتذّلل في محراب عظمته، والتّمسكن في جناب ربوبيّته، والاستغفار والانكسار آناء اللّيل وأطراف النّهار.

يقول ﷺ: «**يا أيها النّاسُ توبُوا إلى الله، فإنّي أتوبُ في اليومِ إليه مئةَ مرَّةٍ**» [رواه مُسلم]، فانظر لهذه الرّوح الطّاهرة الزّكية المعصومة من السّيئات، يُكرر التّوبة والاستغفار في المجلس الواحدة مئة مرة، وهذا من أعظم التّوجيهات لنا، فنحن أولى مع تقصيرنا وزللنا وكثرة خطايانا أن نُلحّ على ربّنا بالاستغفار والتّوبة، ونكررها في كلّ مجلس، يقول الشاعر:

يا ربِ إنْ عَظُمَتْ ذُنُوبِي كَثْرَةً	فلقد عَلِمْتُ بِأَنَّ عفوك أَعْظَمُ
إِنْ كَانَ لَا يَرْجُوكَ إِلَّا مُحْسِنٌ	فَمَن الذي يَدْعُو ويَرْجُو المجرمُ
أَدْعُوكَ رَبِّ كما أمرت تَضَرُّعًا	فَإِذَا رَدَدَّتَ يَدِي فمن ذا يَرْحَمُ
مَالِي إِلَيْكَ وَسِيلَةٌ إِلّا الرَّجَا	وَجَمِيلُ عَفْوِكَ ثُمَّ إِنِّيَ مُسْلِمُ

وقد فتحَ ﷺ أبوابًا للتّوبة، وأخبر الأمّة بالكفّارات من الطّهارة، والصّلاة، والصّدقة، والصّيام، والحج، إلى غير ذلك من رحمات الله الواسعة، فيخبرهم مثلًا كما صحّ عنه: «**أنّ مَن تَوَضَّأَ فأَحْسَنَ الوُضُوءَ خَرَجَتْ خَطَايَاهُ مِن جَسَدِهِ، حتَّى تَخْرُجَ مِن تَحْتِ أَظْفَارِهِ**» [رواه مسلم]، وقال: «**مَن توضَّأَ نحوَ وضوئي هذا ثمَّ صلَّى ركعتينِ لا يُحدِّثُ فيهما نفسَهُ غُفِرَ لهُ ما تقدَّمَ من ذنبِهِ**» [مُتفق عليه].

وأخبر ﷺ أنّ: «**مَن قالَ: سُبْحَانَ الله وَبِحَمْدِهِ، في يَومٍ مِئَةَ مَرَّةٍ حُطَّتْ خَطَايَاهُ ولو كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ البَحْرِ**» [مُتفق عليه].

وأنّ: «**مَن حَجَّ لله فَلَمْ يَرْفُثْ، ولَمْ يفْسُقْ، رَجَعَ كَيَومِ ولَدَتْهُ أُمُّهُ**» [مُتفق عليه].

وأنّ: «**الصَّدقة تُطْفِئُ الخَطيئةَ كما يُطْفِئُ الماءُ النَّارَ**» [رواه أحمد].

وأنّ: «**مَن قال: أستغفرُ الله العظيمَ الذي لا إلهَ إلّا هو الحيَّ القيومَ وأتوبُ إليه غُفِرَ له وإنْ كان فرَّ من الزّحفِ**» [رواه الترمذي].

وحينما تُطالع صلاته ﷺ ستجد أنّها صلاة تائب، فهو دائم الخضوع والانكسار في صلاته منذ أن يبدأها بتكبيرة الإحرام، فيقول ـ كما صحّ عنه ـ في دعاء الاستفتاح: «**اللّهم أنت الملَكُ لا إله إلّا أنت، أنت ربِّي، وأنا عبدُك، ظلمتُ نفسي، واعترفتُ بذنبِي، فاغفِرْ لي ذنوبِي جميعًا، إنَّه لا يغفِرُ الذنوبَ إلا أنتَ**» [رواه مسلم]، وقوله أيضًا: «**اللَّهُمَّ بَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ كَمَا بَاعَدْتَ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، اللَّهُمَّ نَقِّنِي مِنْ خَطَايَايَ كَمَا يُنَقَّى الثَّوْبُ الأَبْيَضُ مِنْ الدَّنَسِ، اللَّهُمَّ اغْسِلْنِي مِنْ خَطَايَايَ بِالْمَاءِ وَالثَّلْجِ وَالْبَرَدِ**» [مُتفق عليه]، أليس هذه توبة!؟ أليس هذا استغفار في أوّل الصّلاة؟!

ويركع ﷺ فيستغفر ربّه كما جاء عن أمّ المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) : كان رَسولُ الله ﷺ يُكْثِرُ أنْ يَقُولَ في رُكُوعِهِ وسُجُودِهِ: «**سُبْحَانَكَ اللّهُمَّ رَبَّنَا وبِحَمدكَ، اللّهُمَّ اغْفِرْ لِي**» [مُتفق عليه].

واسمع لهمسات التّوبة الصّادقة، وأنفاس الإنابة الطّاهرة، من فمه الشّريف ﷺ وقد وضع أنفه وجبهته الشّريفة على الأرض في صلاة اللّيل يناجي ربّه باكيًا مُنكسرًا مُستغفرًا تائبًا مُتضرعًا مُمتثلًا أمر خالقه: {وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ} [الذاريات: الآية 18]، ويقولﷺ: «**اللهمَّ اغْفِرْ لي ذَنْبِي كُلَّهُ دِقَّهُ، وجِلَّهُ، وأَوَّلَهُ وآخِرَهُ وعَلانِيَتَهُ وَسِرَّهُ**» [رواه مسلم]، فكان يدعو ربّه بهذا الدّعاء الذي لا يترك ذنبًا ولا خطيئةً ولا معصيةً إلّا توسّل إلى الله في غفرانها.

يدعو في آخر صلاته فيقول ﷺ: «**اللَّهُمَّ إنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلَّا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لي مِن عِندِكَ مَغْفِرَةً إنَّكَ أنْتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ**» [مُتفق عليه].

وقد وقف كثيرٌ من العلماء أمام هذه الكلمة «اللَّهُمَّ إنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا»، فما هو الظّلم الكثير الّذي فعله ﷺ ليتوسّل إلى ربّه أن يغفر له، وأن يُسامحه ويتجاوز عنه!؟ فمنهم من قال: إنّه مهما بلغ الإنسان من الإنابة والطّاعة فإنّه مُقصّر في جَنْبِ الله بالنّسبة لنعمه وفضله ومنّته سبحانه، فلا بد أن يعلن هذا التّقصير؛ لأنّه لا يستطيع أن يأتي بالشّكر على تمامه، والحمد على كماله لربّ العالمين.

ومنهم من قال: إنّه يُعلّم أُمّته ذلك؛ ليكون إمامًا لهم في اللّجوء إلى الله والتّوبة إليه واستغفاره.

ومنهم من قال: إنّه يترقّى في سلّم العبوديّة، فكُلّما صعد درجة استغفر من الأولى، حتّى قالوا: إنّه المقصود بقوله تعالى: {وَلَلآَخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى} [الضحى: الآية 4]، أي: إنّ آخر عملك خير من أوّله، وإنّ يومك خير من أمسك، وإنّ غدك خير من يومك، وعلى كل حال فيكفي أنّه تلفّظ بهذه الكلمات التي تذوب خشية وإنابة وانكسارًا وتبتلًا، من قلبه الخاشع المنيب، يقولها ويُعلّمها للأمة.

وكانﷺ: «**إِذَا انْصَرَفَ مِن صَلَاتِهِ اسْتَغْفَرَ ثَلَاثًا**» [رواه مسلم]، فالتّوبة والاستغفارُ بعد العمل الصّالح وهو طاعة، فكيف بغيره؟!

ويحج ﷺ ويؤدّي المناسك بجهد وتعب ومشقّة فيقول له ربّه ولأُمّته: {ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [البقرة: الآية 199].

في الصّباح يستغفر، وفي المساء يستغفر، وقبل نومه يستغفر، يتقلّب في فراشه فيستغفر، يخرج من الخلاء فيستغفر، يتوضأ فيستغفر، يُصلّي فيستغفر، يركب دابّته فيستغفر.

الاستغفار يصاحبه ﷺ في كلّ حالة هو عليها؛ لأنّ شغله الشّاغل أن يتوب الله عليه، وهمّه الأعظم أن يغفر الله له، وقضيته الكبرى أن يسامحه ربّه، وهو النّبي المرسل من الله، وإمام الهداية الرّبانية، ومبعوث العناية الإلهيّة، فحريّ بأتباعه ممّن لم يُعصم من الذّنوب، ولم يسلم من الخطايا، ولم يُطهّر من السّيئات، أن يُكثر الاستغفار والابتهال والتّوبة لربّه.

ويوم سافر ﷺ في غزوة تبوك بأصحابه لقوا من المشقّة والجهد والنّصب والجوع والظّمأ مالا يعلمه إلّا الله، بُعدٌ في الطّريق، وشدّة حر الصّيف، وقلّة الزّاد والرّواحل، وبعدما بلغ به وبأصحابه الإعياء منتهاه، والتّعب غايته، والمشقّة ذروتها، أنزل الله عليهم: {لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ} [التوبة: الآية 117]، لم يقل هنا: (**رضيَ، أو أثابَ، أو أعطَى**)، وإنّما قال: (**تَابَ**)، فالفضل فضله، والمنّة منّته، والمعنى: مهما بذلتم، وأعطيتم، وقدّمتم، وجاهدتم، وعانيتم؛ فإنّ الفضل لله جلّ في علاه، وهذا ممّا يدلّ على أنّ التّوبة أرفع المقامات، وأجلّ الكرامات، ولهذا امتن الله على أنبيائه الكرام، ورُسله العظام بأنّه تاب عليهم، وهذا غاية الإنعام، ونهاية الإكرام.

وتقول أمّ المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) : كانَ رَسولُ الله ﷺ يُكْثِرُ أنْ يَقُولَ قَبْلَ أنْ يَمُوتَ: «**سُبْحَانَكَ وبِحَمْدِكَ، أسْتَغْفِرُكَ وأَتُوبُ إلَيْكَ**»، قالَتْ: قُلتُ يا رَسولَ الله، ما هذِه الكَلِمَاتُ الَّتي أرَاكَ أحْدَثْتَهَا تَقُولُهَا؟ قالَ: «**جُعِلَتْ لي عَلَامَةٌ في أُمَّتي إذَا رَأَيْتُهَا قُلتُهَا** {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ} [النصر: الآية 1] **إلى آخِرِ السُّورَةِ**» [مُتفق عليه]، وهناك معنى آخر لهذه السورة العظيمة، وكأنّه المُراد:

نعم نصرك الله، ولكن استغفر وتب.

نعم فتح الله عليك، ولكن استغفر وتب.

نعم لقد هدى الله على يديك الأمم، وأنقذ بك الأرواح الضّالة، والنّفوس الضّائعة، لكن استغفر وتب.

نعم أنجز الله لك ما وعد، وهزم خصومك، وكسر شانئيك، لكن استغفر وتب.

فكان ﷺ شعاره الدّائم هو الاستغفار والانكسار للواحد القهار العزيز الغفّار، يرهن حياته للدّعوة والرّسالة، والتّضحية والجهاد، والعطاء والتّعليم، والتّربية والقيادة، ويخوض الغزوات بنفسه، ويدخل غمرات الحياة، وتمرّ به أهوال المسيرة، كل ذلك البذل يأتي بعده أمر الباري سُبحانه لنبيّه الكريم أن يختم حياته بالتّوبة فقال له: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا} [النصر: الآية 1- 3] وكأنّ المعنى: صحيح أنّك أعطيت، وبذلت، لكن: {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا} .

صحيح أنّك ضحيت، وأنّك جاهدت، وأنّك سهرت، وأنّك عانيت، لكن: {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا} .

صحيح أنّك قدمت الغالي والرّخيص، والنّفس والنّفيس، طُردت من وطنك، وأُخرجت من دارك، وأُبعدت عن أحبابك، وعانيت الأمرّين، ولقيت الألاقي، وتجرّعت الغُصص، لكن: {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا} .

صحيح أنّه نيل منك في روحك، وفي رأسك، وفي وجهك، وفي رسالتك، وفي عرضك، وفي أهلك، وفي أصحابك، لكنّ الله مَنّ عليك، ونصرك، ورفع شأنك، {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ

إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا} .

يا الله! كل هذه الحياة التي بذلها لربّه ناصحًا ومُعلمًا، ومُرشدًا، وباذلًا، كُلّها تُختم بأن يُطلب منه أن يستغفر وأن يتوب، فماذا نقول نحن؟!

إنّه درس عظيم لكل مُسلم ومُسلمة على وجه الأرض مهما ظنّ في نفسه أنّه قام بطاعات، وأدّى عبادات، وتقدم بصدقات، وفعل قُربات، فإنّ عليه أن يتوب، وأن يستغفر؛ لأن المُسدّد له في ذلك هو الله، والمُعطي والمُعين هو الله، والواهب الرّازق هو الله، والمتفضل المُنعم هو الله، وصاحب الجميل والمعروف هو الله، سُبحانه جلّ في عُلاه، يقول الشاعر:

وَلَمَّا قَسا قَلبي وَضاقَت مَذاهِبي   جَعَلتُ الرَّجا مِنّي لِعَفوِكَ سُلَّمًا

تَعاظَمَني ذَنبي فَلَمّا قَرَنتُهُ   بِعَفوِكَ رَبّي كانَ عَفوُكَ أَعظَما

حتّى في سكرات موته - بأبي هو وأمي ﷺ - لم يفارقه الاستغفار، ففي «الصّحيحين» عن عائشةَ (رضي الله عنها) ، أنّها سمعَتْ رسولَ الله ﷺ يقولُ قبل أنْ يموتَ وهو مُسنِدٌ رأسه إلى صدْرِها، وأصْغَتْ إليه، وهو يقولُ: «**اللهمَّ اغفِرْ لي وارحَمْني، وألحِقْني بالرّفيقِ**».

لقد علّمنا ﷺ أنّ الله يصفح، ويسامح، ويتجاوز، ويتفضّل، ويغفر، ويرحم، ويُجيب كلّ من رجاه، ويُلبّي سؤالَ كلِّ من دعاه، ويتوب على من تاب، ويغفر لمن استغفر، فعلينا أن نلتمس مغفرته، فباب التّوبة مفتوح، ما لم تطلع الشّمس من مغربها، فعن أبي هريرة (رضي الله عنه) عن النّبي ﷺ قال: «**لا تَقُومُ السَّاعَةُ حتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِن مَغْرِبِها، فإذا طَلَعَتْ ورَآها النَّاسُ أجمعون، فَذلكَ حِينَ** {لاَ يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا}« [الأنعام: الآية 158] [مُتفق عليه].

وألهمنا ﷺ أنّ التّوبة حياة الأمل والرّجاء، والتّفاؤل برحمة ربّ الأرض والسّماء، وأنّ الاستغفار وطن الخائفين، وعزاء البائسين، وسعادة المحزونين، وفَرَج المكروبين، وأمان المُذنبين، به نداوي جراحات النّفس من الخطايا، ونطهر ندبات الرّوح من الزّلات، ونسمو به في ملكوت الله، ونُحلّق في فضاء التّوحيد، ونسبح في آفاق الرّحمة والغفران، والتّوبة والرّضوان.

وأخبرنا ﷺ أنّ الذّنب شبه حتم على الإنسان، وكأنّه لا مفر للإنسان من الخطيئة والنقصان، فقال ﷺ: «**والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لولَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ الله بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ الله فَيَغْفِرُ لهمْ**» [رواه مسلم]، وهذا يفتح لك باب الأمل في رحمة الله وكرم فضله وسعة مغفرته جلّ في عُلاه.

وعلّمنا ﷺ أنّ الخطيئة ملازمة لنا فقال: «**كلُّ بَنِي آدمَ خطّاءٌ، وخيرُ الخطّائينَ التَّوّابونَ**» [رواه الترمذي]، فالتّوبة هي مركب النّجاة، والسلّم الموصل لرضوان الله، والطّوق الذي ينقذك من المهالك، ويحميك من الأخطار:

يا ربّ! عفوك لا تأخذ بزلتنا ... وارحمْ أيَا ربُّ ذنبًا قد جنيناهُ

كم نطلب الله في ضر يحلّ بنا ... فإن تولت بلايانا نسيناهُ

ندعوه في البحرِ أنْ يُنجي سَفينتنا ... فإنْ رَجعنَا إلى الشّاطي عصيناهُ

ونركبُ الجوّ في أمن وفي دعة ... فمَا سقطنَا؛ لأنّ الحافظَ اللهُ

وأرشدنا ﷺ أنّ الاستغفار ينقلنا من حالة الحزن إلى السّرور، ومن الهمّ إلى الفرح، ومن الخطيئة إلى التّوبة، ومن الضّعف إلى القوّة، ومن الفقر إلى الغنى.

وبشّرنا ﷺ أنّ مع الاستغفار الأمن النّفسي، والذّرية الصّالحة، والحياة الطّيبة، والرّزق المدرار، وصلاح الحال وانشراح البال، وفتح الأقفال، ورضا ذي الجلال، قال تعالى: {فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا} [نوح: الآية 10 -12].

وألهمنا ﷺ أنّ الاستغفار طوق النّجاة، ومركب السّلامة، الذي نخرج به من ظُلمات المعاصي، وورطات الذّنوب، وننجو به من اضطراب الأمواج المتلاطمة، وعصف الرّياح العاتية، ومن الحوادث والأزمات، ونتطهر به من الخطايا والزّلات، ونجد به المدد والعون والرّعاية، والكفاية والحفظ والولاية من ربّ العالمين تقدّس اسمه الذي أنزل على نبيه بُشرى: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ} [الأنفال: الآية 33]، فبالاستغفار نُكفّر سيئاتنا، ونزيد حسناتنا، ونرفع درجاتنا: {وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ} [البقرة: الآية 58].

وأخبرنا ﷺ أنّ الطّاعاتِ من الفرائض والنّوافل أبوابٌ للتّوبة، وطريقٌ للإنابة، وبشّرنا بحُب الله تعالى للتّائبين، عن طريق ما أنزل عليه من الوحي المُقدّس: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ} [البقرة: الآية 222].

ودلّنا على طريق الأمل بأن نستغفر ربّنا كلّما عثرنا، وكلّما أخطأنا، وكلّما أسأنا، وكلّما غفلنا، وكلّما غضبنا، وكلّما أذنبنا، لنجد الله غفورًا رحيمًا، قال سبحانه: {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ} [آل عمران: الآية 135 - 136].

ودلّنا ﷺ على أعظم لفظ للتّوبة، وأجلّ حديث في الاستغفار فقال كما في «**صحيح البخاري**»: «**سَيِّدُ الِاسْتِغْفارِ أنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أنْتَ رَبِّي لا إلَهَ إلَّا أنْتَ، خَلَقْتَنِي وأنا عَبْدُكَ، وأنا علَى عَهْدِكَ ووَعْدِكَ ما اسْتَطَعْتُ، أعُوذُ بكَ مِن شَرِّ ما صَنَعْتُ، أبُوءُ لكَ بنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وأَبُوءُ لكَ بذَنْبِي فاغْفِرْ لِي؛ فإنَّه لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلَّا أنْتَ.** قالَ: **ومَن قالَها مِنَ النَّهارِ مُوقِنًا بها، فَماتَ مِن يَومِهِ قَبْلَ أنْ يُمْسِيَ، فَهو مِن أهْلِ الجَنَّةِ، ومَن قالَها مِنَ اللَّيْلِ وهو مُوقِنٌ بها، فَماتَ قَبْلَ أنْ يُصْبِحَ، فَهو مِن أهْلِ الجَنَّةِ**».

وعلّمنا ﷺ أنّ الاعتراف بالاقتراف، طبيعة الأشراف، وأنّ التّوبة تجُبُّ ما قبلها، وتعمّ بركتها أهلها، يقول ﷺ: «**مَنْ تابَ قبل أن تطلُعَ الشمسُ من مَغْرِبها، تاب اللهُ عليه**» [رواه مسلم].

فهنيئًا لمن تاب وأناب، قبل أن يُسدل الحجاب! فقف بالباب، وقُل: أذنبنا، وطف بتلك الدّيار وقل: تبنا، وارفع يديك وقل: أنبنا، {أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ} {وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [المائدة: الآية 74]، سبحان من يغفر الذّنب لِمن أخطأ، ويقبلَ التوبة ممّن أبطأ!.

فعلينا أن نتّبع هدي نبينا ﷺ ونملأ أوقات الانتظار بالاستغفار، ونطرد الأكدار بالاستغفار، وندافع الأخطار بالاستغفار، نستغفر ربّنا ليُطهرنا من الذّنوب، ويغسلنا من الخطايا، ويمحو عنّا السّيئات، ويُسامحنا من الزّلل، نستغفر ربّ الأرض والسّماوات، ليكشف عنّا الكُربات، ويُزيل عنّا الأزمات، ويُبدّل سيئاتنا حسنات.

اللهم أسكنا بالصّلاة والسّلام على نبيّك الغُرفات، وارفع لنا بالصّلاة والسّلام عليه الدّرجات، وضاعف لنا بالصّلاة والسّلام عليه الحسنات، وكفّر عنّا بالصّلاة والسّلام عليه السيّئات:

وتستغفر الرّحمنَ جلّ جلالهُ

وأنت الذي من كُل ذنبٍ مُطهّرُ

فكيف بنا والذنبُ أنقض ظهرنا

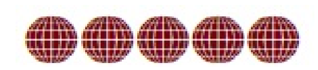
وصرنا من الأوزارِ نشكو ونجأرُ

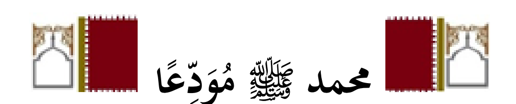
فيا ربّ عفوًا منك يمحو ذنوبنا

ويا ربّ صفحًا أنت بالصّفح أجدرُ

ويا رب عُذرًا من ذنوبٍ كثيرةٍ

وأنت الذي من لُطف برّك تَعذُرُ





محمد ﷺ مُوَدِّعًا

بعد أن بلّغ محمد ﷺ الرّسالة، وأدّى الأمانة، ونصح الأمة، وأتمّ المُهمّة، أتت الإشارة في صعيد عرفة يوم الحج الأكبر من فوق سبع سماوات من ربّ العالمين بأنّ أعظم إنسان، وأكرم مخلوق، وأجلّ رسول، سوف يُودّع هذه الحياة، وينتقل إلى جوار مولاه، فأنزل الله عليه قوله جلّ في عُلاه: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً} [المائدة: الآية 3].

ويستشهد ﷺ النّاس على تبليغه الرّسالة فيقول: «**قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ ما لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إنِ اعْتَصَمْتُمْ به، كِتَابُ الله، وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي، فَما أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟**، قالوا: **نَشْهَدُ أنَّكَ قدْ بَلَّغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ، فَقالَ بإصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ، يَرْفَعُهَا إلى السَّمَاءِ وَيَنْكُتُهَا إلى النَّاسِ: اللهمَّ اشْهَدْ، اللهمَّ اشْهَدْ، (ثَلَاثَ مَرَّاتٍ)**» [رواه مُسلم].

لقد اقترب وقت وداع النّبي محمد ﷺ للعالم، ومُفارقته للدّنيا، وانتقال روحه الطّاهرة الزّكية من الأرض إلى الرّفيق الأعلى، بعدما بلّغ ﷺ رسالة ربّ العالمين للنّاس أجمعين، على أكمل وجه، وأتمّ تبليغ.

دنت اللحظة التي تُطوى فيها أجمل ورقة في تقويم البشريّة، وترتفع أطهر روح في تاريخ الإنسانيّة، ليحق الله كلمته، ويقضي أمره: {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ} [الزمر: الآية 30]، وليُتمّ حُكمه سُبحانه على البشرية: {وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ} [الأنبياء: الآية 34].

فتعالوا نعِشْ تلك اللحظة العصيبة، والسّاعة الصّعبة، لحظة الفراق، وساعة الوداع، ومشهد اليوم الأخير، مشهد الفراق وأيّ فراق! إنّه فراق أكرم إنسان مشى على الأرض، وأعظم رجل

عرفه التّاريخ، خاتم الرّسُل، وإمام الأتقياء، قدوة الأولياء، وسيّد الأنبياء ﷺ.

في هذا المشهد يموت من استنارت به الدّنيا، وطُهّرت به الأرض، وأُقيمَ برسالته العدل، ومُحي بشريعته الظُّلم، ونُشر بسنّته العلم، وأُزيل الجهل.

يموت رسول الله المصطفى ونبيّه المجتبى، فحُق البُكاء، على من لم تلد مثله النّساء، ولن تظلّ أفضل منه الخضراء، ولن تحمل أنبل منه الغبراء.

فلا تلم عينًا دمعت، ولا قلبًا حزن، ولا نفسًا ضاقت، ولا عقلًا اندهش.

وإنّ قومًا رأوه يموت وبقوا على قيد الحياة لصابرون، وإنّ أناسًا رأوه يودّع الحياة ثم تماسكوا لمحتسبون، ونحن بعد ألف وأربع مئة عام لا نحتمل نبأ وفاته ﷺ، وإذا قصصنا خبر فراقه تألّمنا وحزنا، فبالله ما هو حال أصحابه الذين عرفوه، وآمنوا معه، وأَنِسُوا بقُربه، واستضاؤوا بهديه، وتهلّلت طلعاتهم وهم يُشاهدون جمال وجهه، ويعيشون حُسن خُلقه وكرمه ولطفه، ثم يُفاجؤون بأنّ إمام الجميع، السّراج المُنير، مُلهم العالم يموت بين أيديهم!؟ يا لهول الصّدمة! ويا لرُعب اللّحظة! ويا لجلال المشهد! قال الشّاعر:

كَذا فَليَجِلَّ الخَطبُ وَليَفدَحِ الأَمر ... فَلَيسَ لِعَينٍ لَم يَفِض ماؤُها عُذرُ

تُوفِّيت الآمَالُ بعدَ مُحمَّدٍ ... وأصبحَ في شُغْلٍ عن السَّفَرِ السَّفْرُ

مَضى طاهِرَ الأَثوابِ لَم تَبقَ رَوضَةٌ ... غَداةَ ثَوى إِلّا اشتَهَت أَنَّها قَبرُ

عَلَيكَ سَلامُ الله وَقفًا فَإِنَّني ... رَأَيتُ الكَريم الحُرَّ لَيسَ لَهُ عُمرُ

أنزل اللهُ عليه ﷺ في آخر حياته: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا} [النصر: الآية 1- 3]، إذا فُتحت لك القلوب والقلاع، وأتتك الوفود، ودخل في دينك النّاس، وأقبلت عليك الأفئدة، وانشرحت لدعوتك الصّدور، وارتفعت بنصرك الأعلام، وسُددت بتأييدك السّهام، وبلغ دينك التّمام، وانتشر في الأرض الإسلام والسّلام؛ فاعلم أنّ النّهاية قد قربت، وأنّ الرحلة قد دنت، وأنّ أيامك أصبحت معدودة، وحان لقاؤك بالرّفيق الأعلى، ليوفّيك أجرك، ويمنحك ثوابك، ويعطيك جائزتك العُظمى، ويُكرمك بهديتك الكُبرى.

وقبيل وفاته ﷺ قام على المنبر كما في حديث أبي سعيد الخدري، وقال: «**إنَّ عَبْدًا خَيَّرَهُ اللهُ بيْنَ أنْ يُؤْتِيَهُ مِن زَهْرَةِ الدُّنْيا ما شاءَ، وبيْنَ ما عِنْدَهُ، فاخْتارَ ما عِنْدَهُ. فَبَكَى أبو بَكْرٍ وقالَ: فَدَيْناكَ بآبائِنا وأُمَّهاتِنا، فَكانَ رَسولُ الله ﷺ هو المُخَيَّرَ، وكانَ أبو بَكْرٍ هو أعْلَمَنا به**» [مُتفق عليه].

ثم جاء يوم الخميس وما يوم الخميس!؟ يوم اشتدّ المرض في جسمه الشّريف ﷺ، وأخذ يُوعك من الحُمى ﷺ، ويتململ في حرٍّ شديد، وعرقه يتصبب ويوعك وعكًا شديدًا، وكان ابن عباس يتحدّث عن يوم الخميس، وهو يُقلّب الحصى في المسجد ويبكي، ودموعه تسيل على لحيته (رضي الله عنه) ويقول: «**يَوْمُ الخَمِيسِ، وَما يَوْمُ الخَمِيسِ، ثُمَّ بَكَى، حتّى بَلَّ دَمْعُهُ الحصَى**، فسُئل: **يا ابْنَ عَبّاسٍ، وَما يَوْمُ الخَمِيسِ؟، قالَ: اشْتَدَّ برَسولِ الله ﷺ وَجَعُهُ**» [مُتفق عليه].

يا الله!! أعظم إنسان خلقه الباري وصوره، وشق سمعه وبصره، وجعله نورًا للعالم، يموت الآن كما يموت النّاس، ويُدفن كما يُدفن النّاس، ولكنه بأبي هو وأمي أفضل النّاس، وأشرف النّاس.

ولمّا اشتد عليه مرضه ﷺ لم يستطع الذّهاب إلى المسجد وإجابة نداء بلال، بلال الذي كان يُكَرّر عليه ﷺ أيام صحته ونشاطه: «**يا بلال أرحنا بالصّلاة**»، وكان يشتاق ﷺ لهذا النّداء، ويحنّ للأذان، ويترقب موعد الصّلاة في المسجد. تقول عائِشَةُ (رضي الله عنها) : «لَمَّا ثَقُلَ رَسولُ الله ﷺ واشْتَدَّ به وجَعُهُ، اسْتَأْذَنَ أزْوَاجَهُ أنْ يُمَرَّضَ في بَيْتِي، فأذِنَّ له، فَخَرَجَ وهو بيْنَ الرَّجُلَيْنِ تَخُطُّ رِجْلَاهُ في الأرْضِ، بيْنَ عَبَّاسِ بنِ عبدِ المُطَّلِبِ وبيْنَ رَجُلٍ آخَرَ. ولَمَّا دَخَلَ بَيْتي واشْتَدَّ به وجَعُهُ، **قَالَ:** هَرِيقُوا عَلَيَّ مِن سَبْعِ قِرَبٍ، لَمْ تُحْلَلْ أوْكِيَتُهُنَّ؛ لَعَلِّي أعْهَدُ إلى النَّاسِ، **قَالَتْ:** فأجْلَسْنَاهُ في مِخْضَبٍ لِحَفْصَةَ زَوْجِ النَّبيِّ ﷺ، ثُمَّ طَفِقْنَا نَصُبُّ عليه مِن تِلكَ القِرَبِ، حتَّى جَعَلَ يُشِيرُ إلَيْنَا بيَدِهِ: أنْ قدْ فَعَلْتُنَّ. **قَالَتْ:** وخَرَجَ إلى النَّاسِ فَصَلَّى بهِمْ وخَطَبَهُمْ» [مُتفق عليه].

فانظر إلى شوقه وحنينه ﷺ وتعلقه بالمسجد، حتى في مرض الموت يخرج إلى الصّلاة وهو يُهادى بين رجلين، فعن أمّ المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) قالت: «**لَمّا مَرِضَ النبيُّ ﷺ مَرَضَهُ الذي ماتَ فيه أَتاهُ بلالٌ يُؤْذِنُهُ بالصَّلاةِ،** فَقالَ: «**مُرُوا أبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ**»، **فَلَمّا دَخَلَ في الصَّلاةِ وجَدَ رَسولُ الله ﷺ مِن نَفْسِهِ خِفَّةً فَقامَ يُهادى بينْ رجُلَيْنِ، فَلَمّا رَآهُ أَبُو بَكْرٍ ذَهَبَ يَتَأَخَّرُ، فأشارَ إلَيْهِ أَنْ صَلِّ، فَتَأَخَّرَ أَبُو بَكْرٍ**(رضي الله عنه)، **وقَعَدَ النبيُّ ﷺ إلى جَنْبِهِ، وأَبُو بَكْرٍ يُسْمِعُ النّاسَ التَّكْبِيرَ**» [مُتفق عليه].

فسبحان من تفرّد بالبقاء وكتب على غيره الفناء، {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [القصص: الآية 88]، ولو نجا أحد من الموت لنجا منه خليل الله، ونبي الله، محمد بن عبدالله ﷺ، ولكن الموت حق كتبه الله على كل مخلوق.

يقف أهله ﷺ وأصحابه من حوله ينظرون إليه وهو يجود بنفسه ﷺ ولا يملكون له ضرًّا ولا نفعًا، ولا كشفًا ولا دفعًا، بعدما كانوا يفتدونه في الحروب، ويُقدّمون صدورهم في المعارك دون صدره، ويتلقّون السّهام بأجسامهم دون جسمه الشريف ﷺ، ولكن هذا أمر الله تعالى: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ} [الرحمن: الآية 26 - 27].

وكان من آخر دعائه ﷺ لأمته دعاء يفيض من أبرّ قلب وأكرم نفس: «**اللَّهُمَّ إنَّما أنا بَشَرٌ، فأيُّما رَجُلٍ مِنَ المُسْلِمِينَ سَبَبْتُهُ، أوْ لَعَنْتُهُ، أوْ جَلَدْتُهُ، فاجْعَلْها له زَكاةً ورَحْمَةً**» [مُتفق عليه]، مع العلم أنّه ﷺ هو الذي علّمهم وأسعدهم، وشرح صدورهم بالوحي، وهداهم بإذن الله، ودلّهم على طريق النّجاة، وهو السّبب في وصولهم لرضوان الله، ومَنِ الذين شتمهم محمد ﷺ وهو أعفّ الناس؟! ومن الذين آذاهم وهو أرحم الناس؟!! بل هو الذي أنقذنا بإذن الله من النّار، وأخرجنا برحمة الله من الظُّلمات إلى النّور، وردّنا من طريق النّار إلى طريق الجنّة، حتى مدحه ربّ العالمين من فوق سبع سماوات فقال تعالى: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} [القلم: الآية 4]، وقال سُبحانه: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ} [آل عمران: الآية 159].

ولم يزل أبو بكر الصّديق (رضي الله عنه) يُصلّي بالنّاس حتى كانت ليلة الاثنين من شهر ربيع الأول، ويا لهول الصّدمة عند الصّحابة حين فوجئوا أنّ إمامهم قد غيّبه المرض عن المحراب، بعدما كانوا يعيشون أجمل اللحظات، وأفضل السّاعات، وهو يؤمّهم في الصّلوات! فكانوا يقفون وراءه صفوفًا متساويةً، ويقول لهم بصوته العذب النّدي: «**استووا**»، ويسمعون تكبيره ﷺ يلج في آذانهم، ويعبر إلى قلوبهم فيُنعش أرواحهم، ويرونه ﷺ راكعًا أمامهم فيركعون، ورافعًا فيرفعون، وساجدًا فيسجدون، ثم يغيب ﷺ عن المحراب والمنبر والمسجد.

وجاء يوم الوداع، ونزل يوم الفراق، يوم الاثنين، يوم رحيل الرّسول المعصوم، والنّبيّ الكريم ﷺ، يوم ارتفاع روحه إلى الرّفيق الأعلى، يوم توديعه للنّاس والحياة، فقام ﷺ وكشف ستار غرفته وكانت تُطل على المسجد، فلمّا رآه الصّحابة كادوا يفتتنون في صلاتهم! ونظروا إليه ووجهه

يشع نورًا وبهاءً، فتبسّم ﷺ تبسّم الرّاضي لما ترك من جيل فريد كريم، ربّاهم ﷺ على التّوحيد والخير والصّلاح، فصاروا أحبة متآخين، يصفّون خلف إمام واحد.

ويصف أنس بن مالك (رضي الله عنه) هذا المشهد فيقول: «**أنَّ أبَا بَكْرٍ كانَ يُصَلِّي لهمْ في وجَعِ رَسولِ الله ﷺ، الذي تُوُفِّيَ فيه حتَّى إذَا كانَ يَوْمُ الاثْنَيْنِ وهُمْ صُفُوفٌ في الصَّلَاةِ كَشَفَ رَسولُ الله ﷺ، سِتْرَ الحُجْرَةِ، فَنَظَرَ إلَيْنَا، وهو قَائِمٌ كَأنَّ وجْهَهُ ورَقَةُ مُصْحَفٍ، ثُمَّ تَبَسَّمَ رَسولُ الله ﷺ ضَاحِكًا قالَ: فَبُهِتْنَا ونَحْنُ في الصَّلَاةِ مِن فَرَحٍ بخُرُوجِ رَسولِ الله ﷺ، ونَكَصَ أبو بَكْرٍ علَى عَقِبَيْهِ لِيَصِلَ الصَّفَّ، وظَنَّ أنَّ رَسولَ الله ﷺ خَارِجٌ لِلصَّلَاةِ، فأشَارَ إليهِم رَسولُ الله ﷺ بيَدِهِ أنْ أتِمُّوا صَلَاتَكُمْ، قالَ: ثُمَّ دَخَلَ رَسولُ الله ﷺ فأرْخَى السِّتْرَ**» [مُتفق عليه].

وزارته في مرض موته ﷺ ابنته فاطمة (رضي الله عنها) ، التي قال عنها: «**فاطِمَةُ بَضْعَةٌ مِنِّي**» [مُتفق عليه]، (أي: قطعة من قلبه الطاهر ﷺ)، وكانت إذا زارته قبل مرض موته ﷺ قام إلى الباب واستقبلها وقبّل جبينها، ثم أخذ بيدها وأجلسها مكانه، وإذا زارها هو قامت فقبّلت جبينه وأجلسته مكانها، ولكن اليوم اختلف الحال وأقعده مرض الموت، فنظر إليها ﷺ ونظرت إليه، وبكى وبكت. وتصف هذا المشهد أمُّ المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) فتقول: «**أَقْبَلَتْ فَاطِمَةُ تَمْشِي كَأنَّ مِشْيَتَهَا مَشْيُ النَّبيِّ ﷺ**، فَقالَ النَّبيُّ ﷺ: **مَرْحَبًا بابْنَتي، ثُمَّ أجْلَسَهَا عن يَمِينِهِ، أوْ عن شِمَالِهِ، ثُمَّ أسَرَّ إلَيْهَا حَدِيثًا فَبَكَتْ**، فَقُلتُ لَهَا: **لِمَ تَبْكِينَ؟ ثُمَّ أسَرَّ إلَيْهَا حَدِيثًا فَضَحِكَتْ**، فَقُلتُ: **ما رَأَيْتُ كَاليَومِ فَرَحًا أقْرَبَ مِن حُزْنٍ**، فَسَأَلْتُهَا عَمَّا قالَ، فَقالَتْ: **ما كُنْتُ لِأُفْشِيَ سِرَّ رَسولِ ﷺ، حتَّى قُبِضَ النَّبيُّ ﷺ**، فَسَأَلْتُهَا، فَقالَتْ: **أسَرَّ إلَيَّ: إنَّ جِبْرِيلَ كانَ يُعَارِضُنِي القُرْآنَ كُلَّ سَنَةٍ مَرَّةً، وإنَّه عَارَضَنِي العَامَ مَرَّتَيْنِ، ولَا أُرَاهُ إلَّا حَضَرَ أجَلِي، وإنَّكِ أوَّلُ أهْلِ بَيْتي لَحَاقًا بي.** فَبَكَيْتُ، فَقالَ: **أمَا تَرْضَيْنَ أنْ تَكُونِي سَيِّدَةَ نِسَاءِ أهْلِ الجَنَّةِ -أوْ نِسَاءِ المُؤْمِنِينَ؟ فَضَحِكْتُ لذلكَ**» [مُتفق عليه]. تُشاهد هذه الفتاة البارة الرّشيدة أباها والحمى تعصره، ولا تملك له دفع ضر، ولا جلب نفع، لكنّها تملك دموعها ومشاعرها الجيّاشة، وحنينها لأبيها وحُبها لوالدها، يقول أنس(رضي الله عنه): «**لَمّا ثَقُلَ النبيُّ ﷺ جَعَلَ يَتَغَشّاهُ، فَقالَتْ فَاطِمَةُ (رضي الله عنها) : وا كَرْبَ أباهُ، فَقالَ لَها: ليسَ على أبِيكِ كَرْبٌ بَعْدَ اليَومِ**» [رواه البخاري].

وكان ﷺ على ما أعطاه الله من منزلة النّبوة ورُتبة الرّسالة يتمنّى الشّهادة في سبيل الله، حُبًّا في كل ما يُقرّبه من ربّه ومولاه، فكان ﷺ يقول: «**والذي نَفْسِي بيَدِهِ لَوَدِدْتُ أنِّي أُقْتَلُ في سَبيلِ الله،**

ثُمَّ أُحْيا، ثُمَّ أُقْتَلُ، ثُمَّ أُحْيا، ثُمَّ أُقْتَلُ، ثُمَّ أُحْيا، ثُمَّ أُقْتَلُ» [مُتفق عليه]، فرزقه الله الشّهادة مع النّبوة.

أمّا النبوة فقد شرّفه الله بها، وأمّا الشهادة فقد سمّته يهودية فمات من آثار هذا السّم، كما جاء عن عائشة أمّ المؤمنين (رضي الله عنها) قالت: «**كانَ النبيُّ ﷺ يقولُ في مَرَضِهِ الذي ماتَ فِيهِ: يا عائِشَةُ ما أَزالُ أَجِدُ أَلَمَ الطَّعامِ الذي أَكلتُ بِخَيبرَ، فهذا أَوانُ وَجَدْتُ انْقِطاعَ أَبْهَرِي مِن ذلك السُّمِّ**» [رواه البخاري].

وفي أثناء مرضه ﷺ دخل عبدالرحمن بن أبي بكر أخو عائشة رضوان الله عليهم، وكان معه سواك، فما استطاع النّبي ﷺ أن يتكلّم من شدّة المرض، وكان ﷺ يُحب السّواك كثيرًا، وكانت أسنانه كالبرد من شدّة ما يستاك دائمًا، فلمّا رأى ﷺ عبدالرّحمن وفي يده سواك من أَرَاكٍ أتبعهُ نظره، وكانت عائشة (رضي الله عنها) لبيبة ذكيّة فقيهة، فعرفت مباشرة أنّه ﷺ يُريد السواك، قالت: «**أعْطِنِي هذا السِّواكَ يا عَبْدَ الرَّحْمَنِ! فأعْطانِيهِ، فَقَضِمْتُهُ، ثُمَّ مَضَغْتُهُ، فأعْطَيْتُهُ رَسولَ الله ﷺ فاسْتَنَّ به، وهو مُسْتَنِدٌ إلى صَدْرِي**» [رواه البخاري]؛ لأنّه ﷺ سوف يُقدم على علّام الغيوب جلّ في عُلاه.

قالت عائشة (رضي الله عنها) : «**إنَّ مِن نِعَمِ الله عَلَيَّ: أنَّ رَسولَ الله ﷺ تُوُفِّيَ في بَيْتِي، وفي يَومِي، وبيْنَ سَحْرِي ونَحْرِي، وأنَّ الله جَمَع بيْنَ رِيقِي ورِيقِهِ عِنْدَ مَوْتِهِ**» [رواه البخاري]. فانظر إلى الطّاهر المُطهّر ﷺ كيف حرص على السّواك، واستعد للقاء ربّه كأنّه في صلاة، وبدأت ساعة الاحتضار.

تقول عائشة (رضي الله عنها) : **إنَّ رَسولَ الله ﷺ كانَ بيْنَ يَدَيْهِ رَكْوَةٌ** (وهي قربة صغيرة بها ماءٌ)، فَجَعَلَ ﷺ، **فَجَعَلَ ﷺ يُدْخِلُ يَدَيْهِ في المَاءِ، فَيَمْسَحُ بهِما وجْهَهُ**، ويقولُ: «**لا إلَهَ إلَّا اللهُ، إنَّ لِلْمَوْتِ سَكَرَاتٍ! ثُمَّ نَصَبَ يَدَهُ فَجَعَلَ يقولُ: في الرَّفِيقِ الأعْلَى. حتَّى قُبِضَ ومَالَتْ يَدُهُ**» [مُتفق عليه]، وقالت (رضي الله عنها) : **كُنْتُ أَسْمَعُ أنَّهُ لَنْ يَمُوتَ نَبِيٌّ حتَّى يُخَيَّرَ بيْنَ الدُّنْيا وَالآخِرَةِ، قالَتْ: فَسَمِعْتُ النبيَّ ﷺ، في مَرَضِهِ الذي مَاتَ فِيهِ، وَأَخَذَتْهُ بُحَّةٌ** يقولُ: «**مع الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عليهم مِنَ النبيّينَ وَالصِّدِّيقِينَ، وَالشُّهَدَاءِ، وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا.** قالَتْ: **فَظَنَنْتُهُ خُيِّرَ حِينَئِذٍ**»[مُتفق عليه].

فكأنّه ﷺ لمّا خُيّر اختار قُرب الله، والسّفر إلى مولاه جلّ في عُلاه، فقال ﷺ: «**في الرَّفِيقِ الأعْلى**»، وكأنّه ملّ من الحياة، وأراد جوار ملك الملوك، والسّفر إلى الرّحمن الرّحيم، فيا لها من سفرة ميمونة، ورحلة مُباركة! فطوبى له بأبي هو وأمي! حيث يذهب إلى خالقه ومليكه، الذي اصطفاه نبيًّا، وبعثه رسولًا، وسوف يذهب مع الرّفقة الصّالحة الذين قال عنهم ربّ العالمين سبحانه: {مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا} [النساء: الآية 69].

يرتحل ﷺ إلى ربّه وحيدًا من هذه الدنيا إلّا من ميراث النّبوة وتركة الرّسالة، فلم يُخلّف ﷺ قصورًا ولا دورًا، ولا بساتين فيحاء ولا حدائق غنّاء، ولا قناطير مُقنطرة ولا كنوز مُدّخرة، لكن خلّف شريعة مُطهّرة، ورسالة خالدة، خلّف المساجد والمنائر التي ترتفع فيها كلمة الله، وخلّف القرآن الذي فيه وحي الله، وخلّف السُنَّة المُباركة، وترك جيلًا ربّانيًا راشدًا، جيلًا يحمل الملّة بأمانة، وينشر الدّين بحكمة، وينصر الإسلام بقوة، وأرسل لنا ﷺ بموته رسالة عُظمى، ألا وهي أنّ هذه الحياة الدّنيا مهما تزخرفت وتزيّنت فسوف يرتحل منها كلّ مخلوق؛ لأنّه قد ارتحل منها أفضل الخلق، وأجلّ النّاس، وأكرم البشر ﷺ، مات الذي أتى بـ«**لا إله إلّا الله**»، وتوحيد الله، مات ﷺ لتُطوى صحيفة من أعظم الصّحائف، لأعظم رجل خلقه الله، فلا تغتروا ولا تنخدعوا بالحياة؛ لأن الله كتب الموت على كلّ مخلوق.

فاضت روحه الطّاهرة الشّريفة ﷺ بين يدي عائشة (رضي الله عنها) فقامت تبكي في طرف البيت، وانتشر الخبر في المدينة فاختلط بكاء الرّجال ببكاء النّساء والأطفال، وامتلأت السّكك حول بيته ﷺ بالنّاس ما بين حزين ومدهوش من أثر الصّدمة وهول الفاجعة، وقام الفاروق عمر(رضي الله عنه)، الصّارم الشُّجاع القوي في ذات الله، ووقف على المنبر وقال: «**إنَّ رسولَ الله ﷺ لَمْ يمُتْ، ولكنَّه أُرسِلَ إليه كما أُرسِلَ إلى موسى فمكَث في قومِه أربعينَ ليلةً. والله إنِّي لَأرجو أنْ يعيشَ رسولُ الله ﷺ حتّى يقطَعَ أيديَ رِجالٍ مِن المُنافِقينَ وألسنتَهم يزعُمونَ أنَّ رسولَ الله ﷺ قد مات**» [رواه أحمد]، وقف عمر (رضي الله عنه) من شدّة الفاجعة، وهول الصّدمة يُنكر خبر وفاة النّبي ﷺ، كما يقول أبو الطيب:

طَوى الجَزيرَةَ حَتّى جاءَني خَبَرٌ ... فَزِعتُ فيهِ بِآمالي إِلى الكَذِبِ

حَتّى إِذا لَم يَدَع لي صِدقُهُ أَمَلا ... شَرِقتُ بِالدَمعِ حَتّى كادَ يَشرَقُ بي

لقد وقع خبر وفاته ﷺ على الصّحابة كالصّاعقة، وأظلمت المدينة على ساكنيها، وحُقّ لها أن تُظلم، فالخطب جسيم، والمُصاب عظيم.

لقد مات الرّسول الكريم والنّبي الرّحيم، فاضت روحه الزّكية، من جسده الطّاهر الطيّب المُبارك.

لقد هزّ خبر وفاته ﷺ المكان والزّمان والإنسان، وزُلزل المسلمون زلزالًا عظيمًا، وفزعوا فزعًا شديدًا، يسأل كل واحد منهم نفسه فيقول: أمات الرّسول؟! أتوفي النّبي؟! أحقًّا لن نراه في هذه الحياة مرة ثانية؟! أصدقًا لن يُصلّي بنا، ولا يعظنا، ولا يُعلّمنا، ولا يُرشدنا، ولا يقودنا؟! أيقينًا أنّه فارق الحياة وودّع الدّنيا؟.

ولم يُصدّق الكثير من الصّحابة خبر موته ﷺ لشدّة تعلّقهم به، وعظيم حبّهم له، وجلالة قدره في نفوسهم، والخبر الصّادم المُفجع يجعلك أحيانًا لا تُصدّق وقوعه لشدّة هوله، وعظيم فظاعته.

وقد نُقل في كتب السير أنّ منهم من طاش عقله، ومنهم من ذُهل، ومنهم من صمت صمتًا طويلًا، ومنهم من ترك لعينيه حريّة التّعبير عن حزنه، ومن يلومهم في ذلك؟؛ فالمصاب جلل والخطب عظيم، لقد مات رسول الله ﷺ، فسُبحان من أنزل السّكينة عليهم، وسُبحان من أعادهم إلى رُشدهم، واستقرار نفوسهم، وهدوء أرواحهم.

وجاء الصّديق أبو بكر (رضي الله عنه) والنّاس مزدحمون وقد اختلط منهم البكاء والنشيج، وملأ قلوبهم الحزن والهمّ، واللّوعة والأسى، لقد مات رسولهم وأبوهم ومُعلّمهم وأسوتهم، فكأنّ حياتهم انتهت، وكأن أرواحهم قُبضت، وكأنّ النّهار أظلم في أعينهم، ونزل أبوبكر (رضي الله عنه) من فرسه، ومشى في ثبات وسكينة ووقار، وشقّ الصّفوف ولم يتكلم مع أحد، ودخل بيت ابنته عائشة (رضي الله عنها) ، وتوجّه إلى رسول الله ﷺ ورفع عن وجهه الطّاهر الشّريف، ثم قبّله وسالت دموعه سخيّة صادقة وقال (رضي الله عنه): «**بِأَبِي أنْتَ وأُمِّي! طِبْتَ حَيًّا ومَيِّتًا، والذي نَفْسِي بيَدِهِ لا يُذِيقُكَ الله المَوْتَتَيْنِ أبَدًا**» [رواه البخاري]. وكان أبو بكر الصّديق (رضي الله عنه) رقيقًا بكّاءً لينًا، لا يملك دموعه، ولا يمسك بكاءه، ومع ذلك ثبّته الله وأنزل عليه السّكينة، وخرج إلى المسجد وسمع عُمر يصيح في الناس فقال له: «**أيُّها الحَالِفُ علَى رِسْلِكَ**»، فلمّا تكلّم أبو بكر جلس عمر، وسكت، وسكّت الناس، ثم صعد أبو بكر المنبر، وحَمِدَ الله وأَثْنَى عليه، وقَالَ: «**أيّها النّاس!**

أَلَا مَن كانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا ﷺ فإنَّ مُحَمَّدًا قدْ مَاتَ، ومَن كانَ يَعْبُدُ الله فإنَّ الله حَيٌّ لا يَمُوتُ»، وقرأ: {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ} [الزمر: الآية 30]، **فَنَشَجَ النَّاسُ يَبْكُونَ**. [رواه البخاري]، فيا لعظمة الصدّيق وثبات قلبه وشجاعته، ورسوخ يقينه ونور بصيرته!.

فلمّا سمع عُمر (رضي الله عنه) كلام أبي بكر هوى على الأرض، ثم تلا أبو بكر قول الباري سبحانه: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ} [آل عمران: الآية 144]، قال عُمر (رضي الله عنه): «**والله ما هو إلّا أنْ سَمِعْتُ أبا بَكْرٍ تَلاها فَعَقِرْتُ، حتّى ما تُقِلُّنِي رِجْلايَ، وحتّى أهْوَيْتُ إلى الأرْضِ حِينَ سَمِعْتُهُ تَلاها، عَلِمْتُ أنَّ النبيَّ ﷺ قدْ ماتَ**» [رواه البخاري]. وهنا حصل اليقين عند النّاس بموت رسول الله ﷺ.

ولمّا تُوفي ﷺ غسّله صحابة أخيار، وأهل بيت أبرار، منهم علي والعباس والفضل {، غسّلوا جسمه الطّاهر الذي هو أطهر من الطّهر، ولكن إقامة لِلسُّنة ولأنه ﷺ الأسوة، ليكون مثالًا يُحتذى، وقدوة يُتّبع، وقد غسلوه، ثم كفّنوه ﷺ كما قالت عائشة (رضي الله عنها) : «**كُفِّنَ رَسولُ الله ﷺ في ثَلاثَةِ أَثْوابٍ بيضٍ سَحُولِيَّةٍ، مِن كُرْسُفٍ، ليسَ فِيها قَمِيصٌ، وَلا عِمامَةٌ**» [مُتفق عليه].

ثم صلّى عليه النّاس جماعة وفرادى، حتى قال بعضهم: صلّى عليه أكثر من أربعين ألفًا من أهل الحاضرة والبادية، والشّيوخ والكبار والصّغار، ثم حُفر له في بيت عائشة (رضي الله عنها) ، حيث قالت (رضي الله عنها) : «لما قُبض رسول الله ﷺ؛ اختلفوا في دفنه، فقال أبو بكر: سمعت من رسول الله ﷺ شيئًا ما نسيته، قال: «**ما قبض اللهُ تعالى نبيًّا، إلّا في الموضعِ الذي يُحِبُّ أنْ يُدْفَنَ فيه**» [رواه التّرمذي]. فدفنوه ﷺ في موضع فراشه في الغرفة التي وُزّعت منها الهداية على العالم، وانطلق منها النّور في المعمورة، وقالَتْ فاطمة (رضي الله عنها) : «**يا أبَتاهُ! أجابَ رَبًّا دَعاهُ، يا أبَتاهُ! مَنْ جَنَّةُ الفِرْدَوْسِ مَأْواهْ، يا أبَتاهْ! إلى جِبْرِيلَ نَنْعاهْ.** فَلَمّا دُفِنَ، قالَتْ فاطِمَةُ (رضي الله عنها) لأنس بن مالك: **يا أنَسُ! أطابَتْ أنْفُسُكُمْ أنْ تَحْثُوا على رَسولِ الله ﷺ التُّرابَ**» [رواه البخاري]، وإنّ كلمات فاطمة في أبيها ﷺ وهي تُبلّل حروفها بالدّمع، وترفعها بالأنين والحنين، لهِيَ أبلغ من كلّ قصيدة في الرّثاء، وكل خطبة في العزاء، قال الشاعر:

سَأبْكِيكَ مَا فَاضتْ دُمُوعي فَإِنْ تَغِضْ ... فَحَسْبُكَ مِنّي ما تُجِنُّ الجَوانِحُ

فَما أنَا مِنْ رُزْءٍ وَإنْ جَلّ جَازِعٌ وَلا بِسُرُورٍ بَعْدَ مَوْتِكَ فَارِحُ

كأنْ لَمْ يَمُتْ حَيٌّ سَواكَ ولَمْ تُهَل عَلى أحَدٍ إلَّا عَلَيْكَ الصفائحُ

إذا لم تَكن فُرقاك أدهى مصيبةٍ فأيُّ مُصَابٍ بعدَ موتك فَادحُ؟

أخالُ الدّجى سَاجٍ لِفَقْدِكَ واجمًا وهذا الضّحى يتلُو سجاياك مَادحُ

لَئِنْ حَسُنَتْ فيكَ المَرَاثِي وَذِكْرُهَا فَقَدْ حَسُنَتْ مِنْ قَبْلُ فِيكَ المَدَائِحُ

فصلّى عليك الله مَا ذرّ شارقٌ وسلّم مَا دارتْ بفكرٍ سَوانِحُ

يموت محمد ﷺ كما يموت النّاس، ويمضي إلى مولاه ليوفيه أجره وثوابه عنده جلّ في علاه، قال تعالى: {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ} [الزمر الآية 30]، سوف تموت يا محمد، ويموت أعداؤك، وسوف يموت الذين يعيّرونك بالموت، لكن لا سواء! فأنت في المقام الأعلى ولك الوسيلة والفضيلة، وهم في الدّرك الأسفل من النّار.

إن أعظم مصيبة في العالم، وفاة محمد عليه الصّلاة والسّلام، نعم مات خُلفاء وعُلماء وملوك وزعماء وأمراء وشُهداء وحُكماء، لكن مُصابهم لا يُعادل ذرّة من مُصيبة موته عليه الصّلاة والسّلام.

إنّ موته ﷺ عزاء لكل من فقد حبيبًا. فبموته ﷺ يتسلّى أهل المصائب. وفي الحديث أنّه ﷺ قال: «**يا أَيُّها النّاسُ! أَيُّما أحدٍ من المؤمنينَ أُصِيبَ بمصيبةٍ، فلْيَتَعَزَّ بمصيبتِه بي، عن المصيبةِ التي تُصِيبُه بغيري، فإنَّ أحدًا من أُمَّتي، لن يُصابَ بمصيبةٍ بعدي أَشَدَّ عليه من مُصيبتِي**» [رواه ابن ماجه].

فمن أصيب بمصيبة فليتعزّ بالرّسول ﷺ، إن أُصبت بابنك أو أبيك أو أمّك، أو أخيك أو صفيك من الدّنيا، فقد مات محمد ﷺ.

واعلم أنّ أعظم مصيبة فَقْدُ محمد ﷺ، فما دام أنّه مات فالجميع سوف يموتون، والجميع فداء له، والجميع لا يساوون غبار أقدامه ﷺ، عزّوا أو ذلّوا، كبروا أو صغروا، قال الشاعر:

اِصبِر لِكُلِّ مُصيبَةٍ وَتَجَلَّدِ وَاِعلَم بِأَنَّ المَرءَ غَيرُ مُخَلَّدِ

أَوَمَا تَرَى أَنَّ المَصائِبَ جَمَّةٌ وَتَرَى المَنِيَّةَ لِلْعِبَادِ بِمَرْصَدِ

مَن لَمْ يُصَبْ مِمَّن تَرى بِمُصِيبَةٍ هَذَا سَبِيلٌ لَسْتَ فِيهِ بِأَوْحَدِ

وَإِذَا ذَكَرتَ مُصِيبَةً تَسْلُو بِهَا فَاذكُر مُصابَكَ بِالنَبِيِّ مُحَمَّدِ

مات محمد ﷺ! بعد أن سحق الكُفر، ومحق الوثنيّة، وأزال الشّرك، ودحر الباطل، وأدّى أمانة مولاه، وأكمل الله له الدّين، وأتمّ عليه النّعمة، وفتح له فتحًا مبينًا، ونصره نصرًا عزيزًا، ورأى أصحابه وأنصاره يُصلّون كما يُصلّي، ويصومون كما يصوم، ويحجّون كما يحج.

مات محمد ﷺ! ليعلم كلّ إنسان أنّه ليس عنده عهد من الله بوقت موته أو مكانه، فانتظر الموت في أي مكان وزمان، فإنّه لك بالمرصاد: {قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاَقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [الجمعة: الآية 8].

نعم مات محمد ﷺ! لكنه مات بجسمه الشّريف وبقيت مبادئه، وبقي دينه وشريعته، وأتباعه إلى يوم الدّين. فهو المبارك أينما كان عليه الصّلاة والسّلام، فبركته دائمة، مستمرة العطاء إلى قيام السّاعة، فدينه لم يمت، وشريعته لم تنته، وسُنّته لم تنقض.

نعم مات محمد ﷺ! لكن كلمة الله التي أرسلها في العالمين خالدة، ورسالة الله التي بثّها في الدّنيا باقية، وأتباعه يملؤون الأرض قيامًا، وركوعًا، وسجودًا لله ربّ العالمين، وأنصاره ﷺ يُنيرون المعمورة، دعوةً، وعبادةً، واتّباعًا.

نعم مات محمد ﷺ! لكن حُبّه يجري في دمائنا، ويسكن أرواحنا، ويعمر قلوبنا، ولن يغيب عنّا أبدًا، فهو الماثل أمام أعيننا بسُنّته المُطهّرة، وسيرته العطرة، وتعاليمه العامرة.

نعم مات محمد ﷺ! لكن الله حي لا يموت، وكلّ من على الأرض سوف يموت، فانتبه وانتظر هذه السّاعة، وتهيأ لهذه السّكرة؛ ساعة الصّفر التي يضعف فيها القوي، ويفتقر فيها الغني.

اللّهم إنّا نُشهِدك أنّ رسولك مُحمد ﷺ أدّى الرسالة، وبلّغ الأمانة، ونصح الأمة، وجاهِد في الله حقّ جهاده حتى أتاه اليقين، وتركنا على البيضاء ليلها كنهارها، لا يَزيغ عنها إلا هالك.

ونُشهدك أنّه ﷺ ما ترك باب خير إلّا ودلّنا عليه، ولا باب شر إلّا وحذّرنا منه.

فاللّهم اجزِه عنّا خير ما جزيتَ نبيًّا عن أُمّته، ورسولًا عن رسالته، اللّهم احشرنا في زُمرتِه، واجمعنا به في الفردوس الأعلى. اللّهم اسقنا من حوضه شربة هنيئة لا نظمأ بعدها أبدًا، اللهم آته الوسيلة والفضيلة، والدّرجة العالية الرّفيعة، وابعثه اللّهم المقام المحمود الذي وعدته، إنّك لا تُخلف الميعاد. اللّهم اغفر لنا وارحمنا وأحسن ختامنا، وتوفّنا وأنت راض عنا. اللهم ثبّتنا على الإسلام والسنّة حتى نلقاك يا رب العالمين، اللهم صلِّ وسلِّم على خاتم النبيين، وإمام المُرسلين، ورسول ربّ العالمين. اللهمَّ صَلِّ عَلى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ في الأولينَ، وَصَلِّ عَلى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ في الآخرين، وَصَلِّ عَلى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ في المَلأ الأعلى إلى يوم الدّين:

صلّى عليك إله الكون ماسجعت

ورقاء تشكو الجوى في أجمل النّغمِ

صلّوا عليه فربّ الكون أوجبها

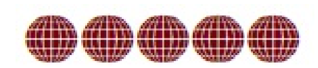
وسلّموا عدد الأنفاس والنّسمِ

سقاكم الله من حوض النّبي على

وعْدٍ من المصطفى يا أكرم الأممِ

من نهر كوثره غرفًا براحته

من بعدها كلكم في الحشر غيرُ ظَمِي





صلّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا

يقول الله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [الأحزاب: الآية 56]، والمقصود بصلاة الله على نبيّه ﷺ في الرّأي الرّاجح عند العلماء أنّها ثناء الله عليه في الملأ الأعلى عند الملائكة المُقرّبين، كما ذكر البُخَارِيّ فِي صَحِيحه عَن أبي الْعَالِيَة قَالَ: «**صَلَاة الله على رَسُوله ثَنَاؤُهُ عَلَيْهِ عِنْد الملائِكَةِ، وَصَلاةُ المَلائِكَةِ: الدُّعَاءُ**».

فحينما ندعو ونقول: «اللهم صلِّ على سيّدنا محمد»، أي: (**اللّهم أثنِ عليه عند الملائكة المُقرّبين في الملأ الأعلى**).

وجاء أمر الله تعالى لعباده المؤمنين أن يُصلّوا ويُسلّموا على النّبي ﷺ بعد أن قال سبحانه: {إِنَّ اللَّهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ} ، فمن إكرام الله لنبيّه المُصطفى ولرسوله المُجتبى أنّه بدأ الصّلاة عليه ﷺ بنفسه المُقدّسة، ثم ثنّى بملائكته، وثلّث بالمؤمنين من إنسه وجنّه، فالأوْلى لنا أن نُكثر من الصّلاة والسّلام عليه، لأنّنا شَرُفنا ببركة رسالته، وسَعدنا بمنهج نبوّته، وفاضت علينا أنوار رحمته ﷺ.

أمّا السّلام على النّبي ﷺ فالمقصود به:الدّعاء له ﷺ بالسّلامة في الدّنيا والآخرة، أمّا في حال حياته فالسّلامة من كل آفة أو ضر أو شر في بدنه الشّـريف، أو في حاله، أو في أهله.

وأمّا بعد موته ﷺ؛ فالسّلامة من كل ما يُعرض للميت من أهوال البرزخ ويوم القيامة وغيرها.

السّلام أيضًا يشمل سلامة سُنّته من عبث العابثين، وتحريف المُحرّفين، وإفك المزوّرين، وسلامة ملّته من طعن الطّاعنين، وتشويه المشوّهين، واستهزاء المُستهزئين.

وفي قولنا: «السّلام عليك أيّها النّبي»، أي أنّ اسم الله سبحانه وتعالى هو «السلام» فنحن ندعو الله السّلام، أن يُسلّم على رسوله سيّد الأنام، وأن يُسلّمه ويرعاه، ويُدافع عنه ويتولاه، بعنايته الإلهية، ورعايته الربّانية، وهذا حقه علينا ﷺ لأنّه السبب بإذن الله في كل خير وصل إلينا:

صلّى عليه إلهه ومليكهُ	ما دامت الغبراء والخضراءُ
فهو الذي فاق الأنامَ كرامة	واستبشرت بقدومه الأنباءُ

ومن فضل الله علينا، ومن كرمه لدينا، أنّه تكفّل سُبحانه بإيصال صلاتنا وسلامنا إلى خليله ومُصطفاه، ونبيّه الذي اجتباه، فكلّما صلّينا عليه ﷺ وصلته صلاتنا طيّبة مُعطّرة ممّن قالها، إمّا أن الله يرد روحه عليه فيسمع السّلام ويرده، وإمّا أنّ الملائكة تُوصل له الصّلاة والسّلام.

فَقُرّة عين وطوبى لمن أكثر من الصّلاة والسّلام على حبيب الخلق، حامل الحقّ، رسول الصّدق، ﷺ، ليحصل على صلاة الله، ثم دعاء الملائكة، ثم سلام النّبي المُصطفى صلى الله وسلّم عليه دائمًا وأبدًا. والأدلة على ذلك كثيرة؛ نذكر منها ما جاء عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**مَا مِنْ أَحَدٍ يُسَلِّمُ عَلَيَّ إِلَّا رَدَّ الله عَلَيَّ رُوحِي حَتَّى أَرُدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ**» [رواه أحمد، وأبو داود].

وعَنْ أَوْسِ بْنِ أَوْسٍ(رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِنَّ مِنْ أَفْضَلِ أَيَّامِكُمْ يَوْمَ الجُمُعةِ؛ فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ قُبِضَ، وَفِيهِ النَّفْخَةُ، وَفِيهِ الصَّعْقَةُ، فَأَكْثِرُوا عَلَيَّ مِنَ الصَّلَاةِ فِيهِ، فَإِنَّ صَلاتَكم مَعْرُوضَةٌ عليَّ**، قَالَ: قَالُوا: **يَا رَسُولَ الله، وَكَيْفَ تُعْرَضُ صَلَاتُنَا عَلَيْكَ وَقَدْ أَرِمْتَ - يَقُولُونَ: بَلِيتَ؟**، فَقَالَ: **إِنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ حَرَّمَ عَلَى الْأَرْضِ أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ**» [رواه أحمد]، وعَنْ عَبْدِ الله بن مسعود (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِنَّ لله ملائِكةً سيَّاحِينَ يُبلِّغونِي منْ أمَّتيَ السَّلَامَ**» [رواه النسائي]. وروى أحمد من حديث أبي هريرة(رضي الله عنه) أنّ النّبي ﷺ قال: «**لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا، ولَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ**».

يا من شكا ألم الهموم فأسمعَا	وشكا المصائب ما أمرَّ وأوجعَا

وأقضَّ مضجعه خطوبٌ جمّةٌ	تدعُ الفؤاد من النوائب بلقعًا
أكثر صلاتك للنّبي وآله	صلّوا عليه مبشِّرًا ومشفّعًا
صلّى عليه الله ما غيثٌ همى	أو مرَّ سِربٌ للحمام فأسجَعَا

وعلينا هنا أن نذكّر بثلاثة أخطاء يقع فيها بعض الناس عند الصّلاة على النّبي ﷺ:

الخطأ الأوّل: أنّ بعض الناس إذا ذُكر النّبي ﷺ، تجده ساكتًا صامتًا مُطبقًا شفتيه، لا يُصلّي على النّبي ﷺ، فعن الحسين بن علِيٍّ (رضي الله عنهما) قَالَ: قَالَ رسُولُ الله ﷺ: «**الْبخِيلُ مَنْ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ، فَلَم يُصَلِّ علَيَّ**» [رواهُ التّرمذي].

والخطأ الثاني: بعضهم يختلس ويأكل الحروف في الصّلاة والسّلام عليه ﷺ ولا ينطقها كاملة، بل يقولها مسرعًا تسمعها منه كأ نّها طلاسم غير مفهومة وكأنه يقول: «صاعسلم» أو «صلعم»، وهذا لا يجوز، فنُطق حروف الصّلاة والسّلام على النّبي بشكل واضح ومفهوم هو الأولى؛ لأنّها حروف البركة وحروف الأجر والمثوبة، وحروف النّجاة والفوز.

أمّا الخطأ الثّالث: فبعضهم إذا كتب ﷺ يكتبها مختصرة الأحرف مثل: «صلعم» أو «ص»، أو غير ذلك وهذا أيضًا لا يجوز، وقد قال ﷺ: «**مَن صَلّى عَلَيَّ واحِدَةً صَلّىَ الله عليه عَشْرًا**» [رواه مسلم]، وقال ابن عبد الدائم: كنت أكتب لفظ «**الصلاة**» دون «التّسليم»، فرأيت النّبي ﷺ في المنام، فقال لي: «لم تحرم نفسك أربعين حسنة؟» قلت: **وكيف ذاك يا رسول الله؟**، قال: إذا جاء ذكري تكتب «**صلى الله عليه**»، ولا تكتب: «**وسلم**»، وهي أربعة أحرف، كل حرف بعشر حسنات؟، قال: **وعدّهن ﷺ بيده، أو كما قال**» [رواه أبو اليمن بن عساكر].



وللصّلاة والسّلام على النّبي ﷺ صيغ نذكر منها:

أصحّ ما ورد في صيغ الصّلاة والسّلام على النّبي ﷺ ثلاثة أحاديث: «**حديث أبي حُمَيْدٍ السَّاعِدِيّ**»، و«**حديث أبي مَسْعُود الْأَنْصَارِيّ**»، و«**حديث كَعْب بن عُجْرَة**».

أمّا الحديث الأوّل: فحديث أبي حُمَيْدٍ السَّاعِدِيّ (رضي الله عنه) ففيه أَنَّهُمْ قَالُوا: **يَا رَسُولَ الله كَيْفَ نُصَلِّي عَلَيْكَ؟**، فَقَالَ: «**قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ**

إِبْرَاهِيمَ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ» [مُتفق عليه].

وأمّا الحديث الثاني: فحديث أَبِي مَسْعُود الْأَنْصَارِيّ (رضي الله عنه) ففيه قال ﷺ: «**قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ فِي الْعَالَمِينَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، وَالسَّلَامُ كَمَا قَدْ عُلِّمْتُمْ**» [رواه مُسلم].

وأمّا الحديث الثالث: فحديث كَعْب بن عُجْرَة (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ: «قولوا:**اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ**» [مُتفق عليه].



وللصّلاة والسّلام على النّبي ﷺ مواطن عديدة نذكر منها:

أوّلا: «بعد الأذان: «فعَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ (رضي الله عنهما) أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ يَقُولُ: «**إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّى الله عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا، ثُمَّ سَلُوا الله لِي الْوَسِيلَةَ، فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ الله، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ، فَمَنْ سَأَلَ لِيَ الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ له الشَّفَاعَةُ**» [رواه مُسلم].

ثانيًا: «**ليلة الجمعة ويوم الجمعة**»: فعَنْ أَوْسِ بْنِ أَوْسٍ (رضي الله عنه)، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِنَّ مِنْ أَفْضَلِ أَيَّامِكُمْ يَوْمَ الْجُمْعَةِ؛ فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ قُبِضَ، وَفِيهِ النَّفْخَةُ، وَفِيهِ الصَّعْقَةُ، فَأَكْثِرُوا عَلَيَّ مِنَ الصَّلَاةِ فِيهِ، فَإِنَّ صلاتَكم مَعْرُوضَةٌ عليَّ**، قَالَ: قَالُوا: **يَا رَسُولَ الله، وَكَيفَ تُعرَضُ صلاتُنا عَلَيْك وَقَدْ أَرِمْتَ – يَقُولُونَ: بَلِيتَ؟**، فَقَالَ: **إِنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ حَرَّمَ على الأرضِ أَجْسَادَ الأنبياءِ**» [رواه أحمد]. وقال ﷺ: «**أَكْثِرُوا الصّلاةَ عليَّ يومَ الجُمعةِ وَلَيْلَةَ الجُمعةِ**» [رواه البيهقي]، فبالله عليك إذا علمت أنّ صلاتك تُعرض على نبيّك عليه الصّلاة والسّلام ألا يدعوك هذا إلى المزيد من الصّلاة والسّلام عليه ﷺ والاهتمام والإكثار من ذلك؟ يا للفوز! ويا للبشرى!.

ثالثًا: «**عند الهمّ، والشّدائد، وطلب المغفرة**»: فعن أُبَيّ بْنِ كَعْبٍ (رضي الله عنه) قَالَ: «**كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا ذَهَبَ ثُلُثَا اللَّيْلِ قَامَ**، فَقَالَ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا الله، اذْكُرُوا الله، جَاءَتِ الرَّاجِفَةُ، تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ، جَاءَ المَوْتُ بما فِيهِ، جَاءَ المَوْتُ بما فِيهِ**. قَالَ أَبَيٌّ: قُلْتُ: **يَا رَسُولَ الله! أُكثِرُ الصَّلاةَ عَلَيْكَ، فَكَمْ أَجْعَلُ لَكَ مِنْ صَلَاتِي؟**، فَقَالَ: **مَا شِئْتَ**، قَالَ: قُلْتُ: **الرُّبُعَ؟** قَالَ: **مَا شِئْتَ، فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ**، قُلْتُ: النِّصْفَ؟، قَالَ: **مَا شِئْتَ فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ**، قَالَ: قُلْتُ: **فَالثُّلُثَيْنِ؟**، قَالَ: **مَا شِئْتَ، فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ**، قُلْتُ: **أَجْعَلُ لَكَ صَلَاتِي كُلَّهَا؟** قَالَ: «**إِذًا تُكْفَى هَمَّكَ، وَيُغْفَرُ لَكَ ذَنْبُكَ**» [رواه التّرمذي]. فيا أيها المُسلم! ويا أيتها المُسلمة! اطردوا همومكم، وتخلّصوا من ذنوبكم، بكثرة صلاتكم وسلامكم على حبيبكم رسول الهدى ﷺ.

رابعًا: «**عند ذكر رسول الله أو سماع اسمه ﷺ**»: فعنْ أَبي هُرَيْرةَ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ رسُولُ الله ﷺ: «**رَغِم أنْفُ رجُلٍ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ علَيَّ**» [رواه الترمذي].

يا سامعًا ذكر النّبي محمّدٍ	أكثر عليه من الصّلاة مُسلّما
صلّى عليهِ اللهُ في عليائهِ	والمؤمنونَ وكلُّ عبدٍ أسلما

خامسًا: «**في المجالس**»: فعن أبي هريرة أنّ النبيّ ﷺ قَالَ: «**مَا جَلَسَ قَومٌ مَجْلِسًا لَمْ يَذْكرُوا الله فِيهِ، ولَم يُصَلُّوا عَلَى نَبِيِّهم إلّا كانَ عَلَيّهمْ ترةٌ، فإنْ شاءَ عَذَّبَهُم، وإنْ شَاءَ غَفَرَ لهُم**» [رواه أبو داود]. ويُفهم من هذا الحديث أنّ من جلس في مجلس ولم يذكر الله ولم يصلِّ على نبيّه ﷺ، فهو على خطر عظيم. فلينتبه الإنسان لنفسه، وليُحضر قلبه، وليُعطّر مجلسه وأنفاسه بذكر الله والصّلاة والسّلام على نبيّه ﷺ.

سادسًا: «**عند كتابة اسم النَّبيّ ﷺ**»: فإنّه يُصلَّى ويُسلَّم عليه ﷺ لأنّه ذُكر، وذكره ﷺ إمّا منطوق، وإمّا مكتوب، ويشمل من ترك ذلك وعيده ﷺ حيث قال: «**رَغِم أنْفُ رجُلٍ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ ﷺ**» [رواهُ التّرمذي]. فعلى من كتب اسمه ﷺ أن يكتب «» بخط واضح، ولا يختصرها، ولا يختزلها كما نبّهنا على ذلك في هذا الباب مُسبقًا.

سابعًا: «**عند الصّفا والمروة**»: فعن عمر بن الخطاب(رضي الله عنه) بإسناد صحيح قال: «**إذا قَدِمْتُم فطُوفوا بالبيتِ سَبْعًا، وصَلُّوا عندَ المَقامِ ركعتين، ثُمَّ ائتُوا الصَّفا فقُوموا مِن حيثُ تَرَوْنَ**

البيتَ، فكَبّروا سَبْعَ تكبيراتٍ، بيْن كلِّ تكبيرتينِ حَمْدٌ لله، وثَناءٌ عليه، وصَلاةٌ على النَّبيِّ ﷺ، ومسألةٌ لنفْسِكَ، وعلى المَرْوَةِ مِثْلُ ذلكَ» [رواه إسماعيل القاضي والحافظ ابن كثير].

ثامنًا: «عند زيارة قبر رسول الله ﷺ»: قال عبدالله بن دينار: «**رأيْتُ عبدَالله بنَ عمرَ يقفُ على قبرِ النبيِّ ﷺ، ويُصلِّي على النبيِّ ﷺ، وعلى أبي بكرٍ، وعُمرَ (رضي الله عنهما)** » [رواه مالك، وإسماعيل القاضي] في «**فضل الصلاة على النبي ﷺ**».

تاسعًا: «عند المرور بآيات فيها ذِكر النّبيّ ﷺ»: التالي للقرآن سواءً في الصّلاة أو في غيرها، عليه أن يصلّي ويسلم عليه ﷺ، ويخفض صوته عند صلاته على النّبي ﷺ حتى لا يُشوّش على من بجواره؛ لأنّ الواجب الصّلاة عليه ﷺ كلّما ذُكر.

عاشرًا: «الصّلاة على النّبيّ ﷺ بعد التّكبيرة الثّانية من صلاة الجنازة»: كما جاء عن رجل من الصّحابة (رضي الله عنه) قال: «**إنَّ السُّنَّةَ فِي الصَّلاةِ عَلَى الْجِنازَة أَنْ يُكبِّرَ الإمَامُ، ثُمَّ يَقْرَأَ بفاتحةِ الْكِتَابِ بَعْدَ التَّكبِيرَةِ الأُولَى يَقْرَأُ فِي نَفْسِهِ ثُمَّ يُصَلِّي على النَّبيِّ ﷺ ويُخْلِصَ الدُّعَاءَ للجِنَازَةِ فِي التَّكْبِيرَاتِ لا يَقْرَأُ فِي شيءٍ منهنَّ، ثُمَّ يُسَلِّمُ سِرًّا فِي نَفْسِهِ حينَ ينصرفُ عن يمينِهِ. والسُّنَّةُ أن يفعلَ مَن وراءَهُ مثلَما فعلَ إمامُهُ**» [رواه الحاكم في «المستدرك»].

الحادي عشر: «عند الدّخُول إلى المسجد وعند الخروج منه»: فعَنْ فَاطِمَةَ (رضي الله عنها) ، قَالَتْ: **كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ صَلَّى عَلَى النَّبِيِّ ﷺ**، وَقَالَ: **اللهمَّ اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي، وَافْتَحْ لِي أَبْوَابَ رحمتِكَ، وَإِذَا خَرَجَ صَلَّى عَلَى النَّبِيِّ ﷺ**، وَقَالَ: **اللهمَّ اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي وَافْتَحْ لِي أَبْوَابَ فَضْلِكَ**» [رواه أحمد]. وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه): أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ، قَالَ: «**إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمُ الْمَسْجِدَ، فَلْيُسَلِّمْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَلْيَقُلِ: اللهمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رحمتِكَ، وَإِذَا خَرَجَ فَلْيُسَلِّمْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَلْيَقُلِ: اللهمَّ اعْصِمْنِي مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**» [رواه ابن ماجه].

الثّاني عشر: «عند الدّعاء ﷺ»: فعَنْ فَضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ الأَنْصَارِيِّ: «**أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ رَأَى رَجُلًا صَلَّى لَم يَحْمِدِ الله ولَمَ يُمَجِّدْهُ ولَمَ يُصَلِّ عَلَى النَّبيِّ ﷺ وَانْصَرَفَ**، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**عَجِلَ هَذَا**». فَدَعَاهُ فَقَالَ لَهُ ولِغَيْرِهِ: «**إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ فلْيَبْدَأْ بِتَحْمِيدِ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، وَلْيُصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ يَدْعُو بِمَا شَاءَ**» [رواه أبو داود].

الثّالث عشر: «عند الصّباح وعند المساء»: وما أجمل أن تبدأ يومك مع أذكار الصّباح بالصّلاة والسّلام على النّبي ﷺ، وتختم يومك بأذكار المساء مع الصّلاة والسّلام على النّبي ﷺ، لتعطّر وتُطيّب ساعات اللّيل والنّهار، بالصّلاة والسّلام على سيد الأبرار، وإمام الأخيار، النّبي المُختار، عليه الصّلاة والسّلام ما تعاقب اللّيل والنّهار، قال ﷺ: «**مَن صلَّى عليَّ صلاةً صلَّى الله عليه بِها عشْرًا**» [رواه مُسلم].

الرّابع عشر: «عندَ القُنُوت»: فقد ثبت في حديث إمامة أبي بن كعب «النّاس في قيام رمضان أنّه كان يُصلّي على النبي ﷺ في آخر القنوت، وذلك في عهد عمر(رضي الله عنه)، [رواه ابن خزيمة في «صحيحه»]، وثبت أيضًا عن قتادة عن عبدالله بن الحارث: «**أنّ أبا حَلِيمة معاذًا كان يصلّي على النّبي ﷺ في القنوت**» [رواه إسماعيل القاضي وغيره].

كيف لا تُكثر الصّلاة عليه ... وهو أتقى من جلّلته السّماءُ؟

أجحودٌ؟ أمْ غفلةٌ؟ أم غباءٌ؟ ... أم جمودٌ؟ أم قسوةٌ؟ أم جفاءُ؟

الخامس عشر: «في التّشهد»: كما سبق بيانه في كيفية الصلاة على النبي.



وللصَّلاة والسّلام على النّبي ﷺ ثمار كثيرة نذكر منها:

❖ **«شفاعة سيّد الأبرار، وعشر صلوات من الواحد القَهَّار، للمُصلّي على نبيّه المُختار ﷺ»:** فعن عبدالله بن عمرو(رضي الله عنه) قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إذا سمعتُمُ المؤذِّنَ فقولوا مثلَ ما يقولُ، ثمَّ صلُّوا عليَّ، فإنَّهُ مَن صلَّى عليَّ صلاةً صلَّى الله عليه بِها عشْرًا، ثمَّ سلوا الله ليَ الوسيلَةَ، فإنَّها منزِلةٌ في الجنَّةِ لا تنبغي إلّا لعبدٍ من عبادِ الله، وأرجو أن أكونَ أنا هو. فمن سأل ليَ الوسيلةَ حلَّتْ لهُ الشَّفَاعةُ**» [رواه مسلم]. وهنا ثلاث عبادات في دقائق معدودة:

العبادة الأولى: متابعة المؤذن، والقول مثل ما يقول حتى ينتهي.

والعبادة الثّانية: الصّلاة على نبيّ الهدى ﷺ.

والعبادة الثّالثة: الدّعاء وطلب الوسيلة من الله لنبيّه ﷺ. والجائزة على ذلك عشر صلوات من الواحد القَهَّار، وحلول شفاعة نبيّه المُختار ﷺ.

❖ «**عشر صلوات من الله، وحطّ عشر خطيئات، ورفع عشر درجات، وكتابة عشرحسنات، لمن يصلّي على النّبي ﷺ**»: عن أنس بن مالك(رضي الله عنه) أنّ النّبي ﷺ قال: «**مَن صلَّى عليَّ صلاةً واحدة، صلَّى الله عليه بها عشرَ صلواتٍ، وحُطَّت عنه عشرُ خطيئاتٍ، ورُفِعَت له عشرُ درجاتٍ**» [رواه أحمد والنسائي]، وهذه أربع جوائز غالية، يحصل عليها المُصلي على النّبي ﷺ، والذي نفسي بيده! إنّها خير من الدّنيا وما فيها، فيا قُرّة عين مَن حافظ على الصّلاة على النّبي ﷺ! وعن أبي طلحة زيد بن سهل الأنصاري (رضي الله عنه) أن رسولَ الله ﷺ جاءَ ذاتَ يومٍ والبِشرُ يُرى في وجْهِهِ فقالَ: «**إنَّهُ جاءني جبريلُ** فقالَ: **أما يرضيكَ يا محمَّدُ ألّا يصلِّي عليْكَ أحدٌ من أمَّتِكَ إلّا صلَّيتُ عليْهِ عشرًا، ولا يسلِّمُ عليْكَ أحدٌ من أمَّتِكَ إلّا سلَّمتُ عليْهِ عشرًا!؟**» [رواه أحمد].

❖ «**المُصلّون على النّبي أوْلى النّاس به ﷺ يوم القيامة**»: بشّر ﷺ أنّ أولى النّاس به من أمّته وأقربهم إليه منزلًا يوم القيامة أكثرهم صلاة وسلامًا عليه ﷺ، فعن ابن مسعود (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ: «**أولى النّاسِ بي يومَ القيامةِ أَكثرُهم عليَّ صلاةً**» [رواه الترمذي]، فاغنم هذا الأجر العظيم، والزم هذا العطاء الجسيم.

❖ «**صلاة الملائكة على المصلّين على النّبي ﷺ**»: فمن فضل الله على المؤمنين أنّ من صلّى على النّبي ﷺ سخّر الله الملائكة الأطهار الأبرار للصّلاة على هذا المُصلّي جزاءً على فعله الجميل، كما جاء عن عامر بن ربيعة (رضي الله عنه) أن رسول الله ﷺ قال: «**ما من مسلم يصلى عليّ إلا صلّتْ عليه الملائكة، ما صلى عليّ، فليُقلَّ العبدُ من ذلك أو ليكثر**» [رواه أحمد].

❖ «**الوقاية من الهمّ والغمّ، ومغفرة الذّنوب لمن يُكثر من الصّلاة والسّلام على سيّد الأنام ﷺ، كما أسلفنا في حديث أبي بن كعب(رضي الله عنه)**».

❖ «**الرّسول ﷺ يرد السّلام على مَن سلّم عليه**»: فعن أبي هريرة(رضي الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من أحدٌ يُسلِّمُ عليَّ إلا ردَّ اللهُ عليَّ روحي حتى أردَّ عليه السّلامَ**» [رواه أحمد]. ما أعظم أن يرد ﷺ عليك السّلام إذا سلّمت عليه! فاغتنم هذه الهديّة النّبوية الكريمة. وروى الحسن بن عليٍّ (رضي الله عنهما) أنّ النبي ﷺ قال: «**حيثما كنتم فصلُّوا عليَّ فإنَّ صلاتَكم تبلغُني**» رواه الطّبراني.

❖ «**الصّلاة والسّلام على النّبي ﷺ طاعة لله تعالى وامتثالٌ لأمره»:** فأبشر أيّها المُصلّي على النّبي ﷺ أنّك قد امتثلت أمر الله، وشاركت الملائكة، ورافقت المؤمنين، في أجلّ العبادات، وأجمل الطّاعات، فأنت طائع مُنيب في أكرم رفقة، وأجلّ صحبة، وأعظم عبادة. وقد أمرنا الله تعالى بذلك، فقال سُبحانه: {إِنَّ اللَّهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [الأحزاب: الآية 56].

❖ «**الصّلاة والسّلام على النّبي ﷺ سببٌ لإجابة الدّعاء بإذن الله»:** إنّ الله تعالى يُصلي ويسلّم على النّبي ﷺ إذا سألته ذلك لا محالة، فإذا قرنت صلاتك على النّبي ﷺ بحاجة لك، فالله أكرم من أن يُجيب حاجة ويترك أخرى، فاجعل سبب إجابة دعائك صلاتك على نبيّك ﷺ، ولا تجعل دعاءك مُعلقًا بين السّماء والأرض، بل صله بالصّلاة على سيّد ولد آدم ﷺ، فالصّلاة عليه أعظم صلة، وأجلّ قُربة، وأفضل وسيلة لرضا المولى سُبحانه وإجابته الدّعاء، فعن أنس بن مالك (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ: «**كُلُّ دُعَاءٍ مَحجُوبٌ حَتَّى يُصلَّى على النَّبِيِّ**» صحيح الجامع، ويقول فَضَالَةُ بنُ عُبَيْدٍ(رضي الله عنه): «**سَمِعَ رَسُولُ الله ﷺ رَجُلًا يَدْعُو في صَلاتِهِ لَمْ يُمَجِّدِ الله وَلَمْ يُصَلّ عَلَى النّبيّ ﷺ**، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**عَجِلَ هَذَا. ثُمّ دَعَاهُ فَقَالَ لَهُ أوْ لِغَيْرِهِ: إذا صَلّى أَحْدُكُمْ فَلْيَبْدَأْ بِتَمْجِيدِ رَبّهِ وَالثّنَاءِ عَلَيْهِ، ثُمّ يُصلّي عَلَى النّبيّ ﷺ، ثُمّ يَدْعُو بَعْدُ بِمَا شاء**» [رواه أبو داود].

❖ «**الصّلاة والسّلام على النّبي ﷺ سبب لقضاء الحاجات»:** لأنّك إذا صلّيت وسلّمت على نبيك ﷺ أرضيت ربّك، وإذا رضي الله عنك لبّى طلبك، وأجاب دعوتك، وكشف همّك، وجلّى غمك، وأزاح كربك، وأزال خطبك. فقُرّة عين لك بكثرة صلاتك على خليل الرحمن، ورسول الواحد المنّان ﷺ، وعن عبدِ الله بن مسعود (رضي الله عنه) قال: «**كُنْتُ أُصَلّي والنّبيّ ﷺ وأبُو بكرٍ وعُمَرُ معه، فلما جَلَسْتُ بَدَأْتُ بالثّناءِ على الله، ثم الصّلاةِ على النبيّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ثم دَعوْتُ لنَفْس**، فقال النبيّ ﷺ وعلى آله وسلم: «**سَلْ تُعْطَهْ، سَلْ تُعْطَهْ**» [رواه الترمذي].

❖ «**الصّلاة والسّلام على النّبي ﷺ سبب النّجاة من أهوال يوم القيامة»:** إنّ الصّلاة والسّلام على النّبي ﷺ سبب لرفقته في جنّات النّعيم، ووسيلة لمُصاحبته تحت لوائه المعقود، والشّرف بنيل شفاعته في المقام المحمود، والشّرب من حوضه المورود. فأكثر من الصّلاة والسّلام عليه لتحظى بهذه المنزلة الرّفيعة، والمكانة الشّريفة. فبصحبة النّبي الكريم، تنجو من الهول العظيم، والخطب الجسيم، فيكشف الله عنك كربات هذا الموقف، ويزحزحك الله من عذاب ذاك المشهد

المُخيف، فعن ابن مسعود (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ: «**أولى النَّاسِ بي يومَ القيامةِ أَكثرُهم عليَّ صلاةً**» [رواه الترمذي].

❖ **«الصّلاة والسّلام على النّبي تقي الفقر والبُخل»:** صُن نفسك عن مذمة البُخل، وقُبح الشُّح، بالصّلاة والسّلام على الحبيب المصطفى، والنّبي المُجتبى ﷺ. فإنّك إذا أكثرت من الصّلاة والسّلام عليه طهّرك الله من المعايب، ونجّاك من المثالب، فعن الحسين بن علي (رضي الله عنهما) قال: قال رسول الله ﷺ: «**البخيلُ من ذُكِرتُ عنده فلم يُصلِّ عليَّ**» [رواه الترمذي].

❖ **«الصّلاة والسّلام على النّبي ﷺ علامة من علامات الإيمان»**: عن أنس ابن مالك (رضي الله عنه)، أنّ النبيَّ ﷺ قال: «**لا يُؤْمِنُ أحَدُكُمْ، حتّى أكُونَ أحَبَّ إلَيْهِ مِن والِدِهِ ووَلَدِهِ والنّاسِ أجْمَعِينَ**» [مُتفق عليه]. ولا تتم هذه المحبة إلّا بطاعة الله تعالى والامتثال لأمره بالصّلاة والسّلام على نبيّه ﷺ فقال: {إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [الأحزاب: الآية 56]، وطاعة النّبي ﷺ فيما أمر به، وقد أمرنا ﷺ أمرًا جازمًا بالصلاة والسّلام عليه، فهي من أجلّ العبادات، وأعظم الحسنات. فصلّى الله وسلّم عليه ما هبّت الصّبا، وما اهتزّ زهر الرُّبا.

❖ **«الصّلاة والسّلام على النّبي ﷺ نجاة من إرغام الأنف»:** فعن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ: «**رَغِمَ أنْفُ رَجلٍ ذُكِرتُ عِندَه فلَمْ يُصلِّ عليَّ**» [رواه الترمذي]. لن ينجو أحد من دعائه ﷺ إلّا بأن يُصلّي على نبيّه ﷺ، فإنّ النّبي ﷺ مُجاب الدّعوة، ومن ترك الصّلاة عليه ﷺ وقت وجوبها أو عند ذكره ناله هذا الدّعاء لا محالة. فأنقذ نفسك بصلاتك على نبيّك ﷺ ليُنجيك الله من عاقبة هذا الدّعاء، فصلّى الله وسلّم عليه دائمًا وأبدًا.

❖ **«الصّلاة والسّلام على النّبي ﷺ سبب في ثباتِ العبدِ على الصِّراطِ وإنقاذه»:** تصوّر هول الموقف، وخطورة المشهد، والنّاس يتساقطون من متن الصِّـراطِ إلى قاعِ جهنم، ثم تأتي صلاتك التي صليتها في الدّنيا على صفوة البشـر ﷺ فتنقذك بفضل الله ورحمته من هذا الهول، وتُخرجك من هذا الموقف الضّنك، وتكون سببًا في نجاتك ومرورك على الصِّـراطِ، إنّك لو تصوّرت فقط هذا النّفع وهذه النّجاة لقضّيْت أنفاس العمر صلاةً وسلامًا على النّبي ﷺ، فعن عبد الرّحمن بن سمرة أنّ النّبي ﷺ قال: «**رأيتُ رجلًا من أُمَّتي يزحفُ على لسال الصِّراطِ، يحبو أحيانًا**

ويتعلَّقُ أحيانًا، فجاءتْهُ صلاتُهُ عليَّ فأقامَتْهُ على قدمَيْهِ وأنقذَتْهُ» [حسّنه الحافظ أبو موسى المديني]، وقد استشهد به شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيّم.

❖ **«الصّلاة والسّلام على النّبي ﷺ سبب لطيب المجلس، وألّا يعود حسرة على أهله يوم القيامة»**: ولا نجاة من هذه الحسرة وهذا النّدم على كل مجلس إلّا بأن يُطيّب ويُعطّر بالصّلاة والسّلام على رسول الهدى ﷺ، فعن أبي هريرة (رضي الله عنه)أنّ النّبيِّ ﷺ قَالَ: «**مَا جَلَسَ قَومٌ مَجْلِسًا لَمْ يَذْكرُوا الله فِيهِ ولَم يُصَلُّوا عَلَى نَبِيِّهم إلّا كانَ عَلَيّهمْ تِرةٌ، فإِنْ شاءَ عَذَّبَهُم، وإنْ شَاءَ غَفَرَ لهُم**» [رواه أبو داود]

إنّ الصّلاة على النّبي ﷺ جلاء الأبصار، ونور البصائر، وبهجة القلوب، وراحة الأرواح، وقرة العيون، ومسك المجالس، وطيب الحياة، وزكاة العمر، وجمال الأيام، وذهاب الهموم، وهي جالبة السّرور، وانشراح الصّدور، وتكامل الحبور وتعاظم النّور، بها يطيب السّمر، ويحلو الحديث، ويحلّ الأنس، وتحصل البركة، وتتنزّل السّكينة، وهي علامة الحبّ، وشاهد المتابعة، وبرهان الموالاة، ودليل الصّلاح، وطريق الفلاح:

صلى عليك الله يا علمَ الهُدَى ... ما حنّ مشتاق إلى لقياكَا

وعليك ملء الأرض من صلواتنا ... وقلوبنا ذابت على ذكراكَا

لقد خاب وخسر مَن لم يُصلِّ على النّبي ﷺ؛ لأنه جحد معروفه، وكتم جميله، وتنكّر لكرمه ﷺ، فهو ﷺ السّبب في دعوته لتوحيد الباري ومعرفته بربّه وإخراجه من الظّلمات إلى النّور، وزحزحته من النّار.

وخاب وخسر مَن لم يُصلِّ على النّبي ﷺ فهذا غاية الجفاء، وقمة البخل، ونهاية قسوة القلب، ودليل على الخذلان، وطريق إلى الخُسران.

وخاب وخسر مَن لم يُصلِّ على النّبي ﷺ؛ لأنّه فاته على كل صلاة رفع عشر درجات، وكتابة عشر حسنات، ومحو عشر سيئات، وعشر صلوات من الله عليه.

وخاب وخسر مَن لم يُصلِّ على النّبي ﷺ؛ لأنّه خسر القُرب منه ﷺ، والفوز بشفاعته، وغفران ذنبه، وكفاية همه، فهو محروم تلازمه الهموم، وتصاحبه الغموم فقد ضيّع مفتاح السّرور،

وقطع الاتصال بالنّبي المُبارك، والرسول الكريم ﷺ.

وخاب وخسر مَن لم يُصلِّ على النّبي ﷺ، لقد ارتكس وانتكس، وبئس وتعس، لأنّه أطاع الشّيطان الخسيس، فأوقعه في التّدليس والتّلبيس، أعاذنا الله من الإدبار عن سيّد الأبرار، وجعلنا من أتباعه كالمهاجرين والأنصار، في الانتصار للنّبي المختار:

كيف أستوحش والعلم جليسي	وصلاة المصطفى دومًا أنيس
كلّما عاودني الهمّ بدَا	قبسٌ من هديِهِ يُذهب بوسِي
لا أراني الله يومًا هاجرًا	سُنّة المختار في يومٍ تعيسِ
ربِّ أبلغه صلاتي إنّني	آمل رؤياه في يومٍ عبوسِ

ما أجمل الصّلاة والسّلام على النّبي ﷺ! فهي دليل الإيمان، وبُرهان اليقين، وعنوان المحبّة، وسبب الفوز بشفاعته، والشّرب من حوضه، والوفود تحت لوائه، ومجاورته في الفردوس الأعلى ﷺ. وبها تُفتح الأقفال، ويُصلح الحال، ويُشرح البال، ويَرضى ذو الجلال، ونُدرك بها أشرف المنال.

وما أجمل الصّلاة والسّلام على النّبي ﷺ! لأنّها تُذكّرك بسيرته، وتُقرّبك من سُنّته، وكأنك تعيش في حضرته، فهي موصلة لكل رضوان، وطاردة لكل نسيان، ومدعاة لصلاة الرّحمن.

وما أجمل الصّلاة والسّلام على النّبي ﷺ! فإنّها المسك الفوّاح، وهي روح الأرواح، وغذاء القلوب، وأُنس النّفوس، وراحة البال، وانشراح الصّدر. وهي سلوة عن كل صديق، وعزاء عن كلّ رفيق؛ لأنّك تستصحب بالصّلاة والسّلام عليه ذكراه الشّريفة ومنهجه المقدّس وسنّته الطّاهرة، وملّته العامرة، وحياته الكريمة. فصلى الله وسلّم عليه ما برق لاح، وما مسكٌ فاح، وما بلبلٌ صاح، وما حمامٌ ناح.

وما أجمل الصّلاة والسّلام على النّبي المأمون! إنّها قرة العيون، أغلى من اللؤلؤ المكنون، والدُّر المصون. بها يسعد المؤمنون، ويلتذّ العابدون، ويُسرّ المحزون. فصلى الله وسلّم عليه كلّما شاع خبر، وجدّ سفر، ومُدّ نظر، وهطل مطر، وعُفي أثر، صلاةً وسلامًا بعدد الحجر، والمدر، والشّجر، والبشر.

كلّما ضاق بالمكارهِ صدري وأذى الوزر قام ينقض ظهري

قمتُ أهدي إلى النّبي صلاتي وسلامي فيكشف الله ضرّي

فصلاة عليه مَا لاح برقٌ وسلامٌ عليه ما ناح قُمرِي

شفّع الله خاتم الرُسلِ فينَا بصلاةٍ في كل شفعٍ ووترِ

اللّهم صلِّ وسلِّم على سليل أكرمِ نَبعَةٍ، وسيّد أشرفِ بُقعَةٍ، مَن أخرج أمّته من الظّلمات إلى النّور، وأفاء عليهم بالظّلِ بعد الحرور، عدد ما ذكره الذاكرون، وعدد ما غفل عن ذكره الغافلون، وعدد ما تكلّم المتكلّمون، وعدد ما كتب الكاتبون.

اللّهم صلِّ وسلِّم على المُبارك في مولده، السّعيد بغرّته، القاطع بِحُجّته، السّامية درجته، السّاطع صباحُه، المتوقّد مصباحُه، المظفّر في حُروبه، المُيسّر في خُطوبه. خيرتك من خلقك، وحُجّتك في أرضك، والهادي إلى حقّك، والمُنبّه على حُكمك، والدّاعي إلى رُشدك، والآخذ بفرضك.

اللهم صلِّ وسلِّم على من أَفردته بالزّعامة وحده، وختمت به فلا نبيّ بعده، أرسلته بشيرًا ونذيرًا، وداعيًا إليك بإذنك وسراجًا منيرًا. هديت به الإنسانية، وأنرت به عقول البشريّة، وزعزعت به كيان الوثنيّة، خير مبعوث، وأفضل وارث وموروث.

اللهم صلِّ وسلِّم على من ضجّ باسمه المنابر، وتتجمّل بالصّلاة عليه المحابر، وتتزيّن بسيرته الدّفاتر، وتدوّي بذكره المنائر، وتتشرّف بشريعته البوادي والحواضر، وتُعمّر بذكره المساجد. الذي أرغم ببرهانه كل جاحد، أنفع العالمين في الدّنيا عُمرًا، وأعلاهم يوم القيامة ذكرًا، وأرجحهم عند الله ميزانًا، وأوضحهم حُجّة وبرهانًا، وأعظمهم يقينًا وإيمانًا.

اللهم صلِّ وسلِّم على من كشفت به الغُمّة عن الأمّة، وأوصلتها به إلى القمّة، صاحب الهمّة، النّاطق بالحكمة، الصّادع بالحُجّة، الدّاعي إلى السّنة. أصدق من نطق، وأبرّ من صدق، وأكرم من سبق، وأشرف مُنادٍ، وأفضل هادٍ، وأعظم من تكلّم في النّوادي، ودعا في الحواضِر والبوادي، ما حدا حادٍ، وترنّم شادٍ، وسافر رائح وغادٍ.

اللّهم صلِّ وسلِّم على من بَشّر بالرّحمة والثّواب، وأنذر بالسّطوة والعقاب، ودعا إلى السُّنة والكتاب، ودلّ أمّته على الهدى والصّواب؛ ما لمع سراب، وما همع سحاب، وما اجتمع أصحاب،

وما تآلف أحباب، وما مُشي على التّراب.

اللهم صلِّ وسلِّم على أتمّ البريّة خيرًا وفضلًا، وأطيبهم فرعًا وأصلًا، وأكرمهم عودًا ونجارًا، وأعلاهم منصبًا وفخارًا، وعلى آله الذين عظّمهم الله تعظيمًا، وكرّمهم تكريمًا، وأمرنا بالسّلام عليهم تسليمًا، ودعا إلى إجلالهم توقيرًا، وطهرهم تطهيرًا.

اللهم صلِّ وسلِّم على خاتم الأنبياء، وحامل اللّواء، وسيد الأولياء، وأسوة العلماء، وأفضل من أظلّته السّماء، وأقلّته الغبراء، المُتعبِّد في غار حراء، صاحب السُنّة الغرّاء، والملّة السمحاء، والحنيفيّة البيضاء، والشفاعة والإسراء، والمحجّة البيضاء.

اللهم صلِّ وسلِّم على من أسكت بفصاحته الفُصحاء، وأدهش بحجّته البُلغاء، وأذهل بمنطقه الحكماء، وبزّ بألفاظه الأدباء، وأُعجب بحديثه الشّعراء، الذي شرَّفْت به العرب العرباء، وكشَفْت به الظّلماء، وخَصَصْتَه بالإسراء، وفتحْت له أبواب السّماء.

اللهم صلِّ وسلِّم على أكرم البشر، وأفضل أهل الوبَر والمَدَر، وسيّد البدو والحضر، ما مُدّت عين لنظر، وأصغت أذن لخبر، وعُفي أثر، وجُدّد سفر، وذُكرت عبر.

صلى الله وسلم على من شرّفه ربّه بالمعراج والإسراء، صاحب الشّريعة السّمحاء، والملّة الغرّاء، والمحجّة البيضاء. صاحب المقام المحمود، واللّواء المعقود، خطيب الوفود، وشفيع الحشود. وصلى الله وسلّم عليه ما نطق خطيب، وما شُمّ طيب، وما مالَ غصن رطيب، وما ترنّم عندليب؛ عدد ما خطّت الأقلام، ورُفعت الأعلام، وعدد ما همع غمام، وغرّد حمام، عليه الصّلاة والسّلام، ما دامت الليالي والأيام.

اللهم صلِّ وسلِّم على خير من افتتحت بذكره الدّعوات، وقُضيت بالصّلاة عليه الطّلبات، واستنزلت الرّحمات، واستمطرت البركات، وفاضت النّفحات، سيّد البريّات، والمتوّج بأجمل الصّفات، وأشرف المروءات.

اللهم صلِّ على ذاك القدوة ما أحلاه! وسلِّم الله ذاك الوجه ما أبهاه! وبارك الله على ذاك الأُسوة ما أكمله وأعلاه! علَّمَ الأُمةَ الصّدقَ وكانت في صحراء الكذب هائمة، وأرشدها إلى الحقّ وكانت في ظُلمات الباطل عائمة.

اللهم صلِّ وسلِّم على من ارتقى في درجات الكمال حتى بلغ الوسيلة، وصعد في سلم الفضل حتى حاز كلّ فضيلة، عدد من صلّى وصام، وطاف بالبيت الحرام، وتلفّظ بكلمة الإسلام، وعلى آله وصحبه الكرام، على مرّ الأيام، وترادف الأعوام.

اللهم صلِّ وسلِّم على خاتم النّبيين، وإمام المُرسلين، ورسول ربّ العالمين، اللهمَّ صَلِّ عَلى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ في الأولينَ، وَصَلِّ عَلى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ في الآخرين، وَصَلِّ عَلى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ في المَلأ الأعلى إلى يوم الدين.

اللهم صلِّ وسلِّم على من هديت به العجم والعرب، وأعليت له الرّتب، وحطّمت به الأصنام والنُّصُب، وأرغمت به أبا جهل وأبا لهب، وصار بلال بن رباح باتّباعه سيدًا بلا نَسَب، وماجدًا بلا حسب، وغنيًّا بلا فضة ولا ذهب.

اللهم صلِّ وسلِّم على نبيّك ما زهرٌ فاح، وبلبل صاح، وسر باح، وحمام ناح. وصلى الله عليه وسلم ما نسيم تدفّق، وما دمع ترقرق، وما وجه أشرق. وصلى الله عليه وسلم ما اختلف اللّيل والنّهار، وجرت الأنهار، وتمايلت الأزهار، وهطلت الأمطار، ودنت الثّمار، واهتزّت الأشجار. وصلى الله عليه وسلم ما بدت النّجوم، وتلبدت الغيوم وانقشعت الهموم، وتليت الأخبار والعلوم، وعلى آله الطّيبين الأبرار، وأصحابه الأخيار من المهاجرين والأنصار، ومن تبعهم واقتفى تلك الآثار.

اللهم صلِّ وسلِّم على نبيّك صلاة تُزكّي بها ضمائرنا، وتُطهر بها سرائرنا، وتُثقّل بها ميزاننا، وتُخسي بها شيطاننا، وتثبت بها أقدامنا، وتعطر بها كلامنا، وتحقق بها يُسرنا، وتزيل بها عسرنا.

اللهم ارزقنا بالصّلاة والسّلام عليه رفقته، وامنحنا بالصّلاة والسّلام عليه صُحبته، وحقق لنا بالصّلاة والسّلام عليه رؤيته، وأسكنا بالصّلاة والسّلام عليه في جواره، واحشرنا بالصّلاة والسّلام عليه في أنصاره، ويمّن بالصّلاة والسّلام عليه كتابنا، ويسّر بالصّلاة والسّلام عليه حسابنا، وعظّم بالصّلاة والسّلام عليه ثوابنَا.

اللهم صلِّ وسلِّم على من شرحت صدره، ووضَعْت عنه وزره، ورفَعْت له ذكره، وأعلَيْت قدره، ويسَّرْت أمره. واجزِه عنّا خير ما جزيت نبيًّا عن أُمّته. نشهد أنّه بلّغ الرّسالة، وأدّى الأمانة،

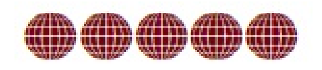
ونصح الأمة، وجاهد فيك حقّ الجهاد. فديناه بالأرواح والآباء والأمهات، عليه أجلّ الصّلوات، وأعظم التّبريكات، وأزكى التّحيّات.

اللهم صلِّ وسلِّم على حامل لواء العزّ في بني لؤي، وصاحب الطّود المنيف في بني عبد مناف بن قُصّي، هو النّبي لا كذب، هو ابن عبدالمطلب، صفوة العرب، فَداه كلّ أمٍ وأبٍ، صاحب الغرّة والتّحجيل، المذكور في التّوراة والإنجيل، المؤيد بجبريل، إمام كلّ عصر وقدوة كلّ جيل.

اللهمَّ صَلِّ عَلى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إبْرَاهِيمَ وعَلَى آلِ إبْرَاهِيمَ إنَّكَ حَمِيْد مَجِيْد. اللهمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إبْرَاهِيمَ وعَلَى آلِ إبْرَاهِيمَ إنَّكَ حَمِيْد مَجِيْد. اللهمَّ ارضَ عن أهل بيت رسولك، واغفر لقرابة خليلك، الشجرة المُباركة الزّكيّة، والرّوضة النّديّة المرضيّة، من طابوا مغارس، وحسنوا مجالس، أشرف الأمّة نسبًا، وأرفع الخلق حسبًا، من أوجب الله حقّهم في القرآن، وشرّف قدرهم بالعلم والإيمان، عليهم الصّلاة والسّلام ما تلألأ برق ولاح. وعليهم الصّلاة والسّلام ما تمايل ورد وفاح، وعليهم الصّلاة والسّلام، ما أظلم ليل وانفلق صباح.

اللهمَّ ارض عن أصحاب نبيّك الشّموس الطالعة، والنّجوم اللامعة، الكرماء الشّجعان، أبطال يوم الفرقان، الفائزين ببيعة الرّضوان، حملة السُّنّة والقرآن، أنصار الرّحمن في كل ميدان، اللّهم واجعلنا ممّن قلت عنهم {وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ} [الحشر: الآية 10].

قف أيّها القلبُ وانسخْ حبَّ من سبقَا	وامسح معاهد من يهوى ومن عشقَا
واسكبْ شجونكَ سكب العين واردَها	لسيد الخلق نورًا يقشع الشفقَا
رتّل صلاتك أنفاسًا معطرةً	وبثّها في حنايا مُهجتي ألقَا
طيّبْ بها مجلسَ الأحبابِ مُحتسبًا	واملأْ بها كلّ نادٍ عامرٍ عبقَا



قَصِيدَةُ مُلْهِمُ الْعَالَمِ

ميمية الحُبِّ ذكرى اللوح والقلمِ ... لِمُلْهِمِ العالم المبعوث للأُممِ

هنا ضياءٌ هنا ريٌّ هنا أملٌ ... هنا رواءٌ هنا الرضوانُ فاستلمِ

هنا جلالٌ هنا طهرٌ هنا ألقٌ ... هنا جمالٌ هنا فيضٌ من الشِّيَمِ

هنا القداسةُ منصوبٌ بيارقُها ... هنا الشموخُ فلا تيأسْ ولا تلمِ

أثني على من؟ أتدري من أبجّلهُ؟ ... أما علمتَ بمن أهديتُه كِلمي

في أشجعِ الناس قلبًا غيرَ منتقمٍ ... وأصدقِ الخلقِ طُرًّا غيرَ متَّهمِ

أبهى من البدرِ في ليل التمامِ هدىً ... أسخى من البحرِ بل أرسى من العلمِ

أصفى من الشمسِ في نطقٍ وموعظةٍ ... أمضى من السيفِ في حُكْمٍ وفي حِكَمِ

طُهر الرسالة في بُرديه يغسل ما ... أتى به الشرك من ظُلْمٍ ومن ظُلَمِ

في همةٍ عصفتْ كالدَّهر واتقدتْ ... كَمَ دكّ من وثنٍ منها ومن صنمِ

أتى اليتيمُ أبو الأيتام في قدرٍ ... أنهى لأمتهِ ما كان من يَتَمِ

محررُ العقلِ باني المجدِ باعثُنا ... من رقدةٍ في دثارِ الشّرك واللممِ

بنورِ هديكَ كحَّلنا محاجَرنا ... لما كتبنَا حروفًا صُغْتها بدمِ

من نحن قبلكَ إلا نقطةٌ غرقتْ ... في اليمّ بل دمعةٌ خرساءُ في القدمِ

أكاد أقتلع الآهاتِ من خَلَدي … إذا ذكرتُك أو أرتاعُ من ندمي

لما مدحتُك خلتُ اصلنجمَ يحملُني … وخاطري بسناءِ الوحيِ في نعمِ

أهديتنا منبَرَ الدنيا وغارَ حرا … وليلةَ القدرِ والإسراءَ للقممِ

والحوضَ والكوثرَ الرقراقَ جئتَ به … أنتَ المزملُ في ثوبِ الهدى فقُمِ

الكونُ يسألُ والأفلاكُ ذاهلةٌ … والمجدُ يقظانُ والتاريخ لم ينمِ

والدهرُ محتفلٌ والجوُّ مبتهجٌ … والبدرُ مِن فرحٍ في ثغرِ مُبتسمِ

سربُ الشياطينِ لما جئتَنا احترقتْ … ونارُ فارسَ تخبو منكَ في ندمِ

رفعتَ للعرب العرباءِ مجدهمُ … صاروا ملوكًا رعاةُ الإبلِ والغنمِ

قحطانُ عدنانُ حازوا منك عزَّتَهُمْ … بك التشرفُ للتاريخ لا بِهِمِ

شادوا بعلمك حمراءً وقرطبةً … لنهرِكَ العذبِ هبَّ الجيلُ وهو ظَمِي

ومن عمامتِك البيضاءِ قد لبستْ … دمشقُ تاجَ سناها غيرَ منثلمِ

رداءُ بغداد من بردَيْكَ تنسجُه … أيدي رشيدٍ ومأمونٍ ومعتصمِ

وسدرةُ المنتهى أولتك بهجتَها … على بساطٍ من التبجيل محترمِ

دارسْتَ جبريلَ آياتِ الكتابِ فلَمْ … يَنْسَ المعلمُ أو يسهو ولم يَهِمِ

اقرأ كتابك فالأيامُ مُنصتةٌ … كم في خطابك من هديٍ ومن قيمِ

قرَّبْتَ للعالَمِ العلويِّ أنفسَنا … مَسَّكْتَنا متنَ حبلٍ غيرِ منصرمِ

نصرْتَ بالرّعبِ شهرًا قَبْلَ موقعةٍ … كأنَّ خَصْمَك قبلَ الحربِ في صممِ

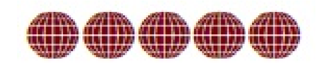
إذا رأوا بارقًا في الجوِّ أذهلهمْ … ظنُّوك بين بنودِ الجيشِ والحشمِ

إن كان أحببتُ بعد الله مثلَكَ في … بَدْوٍ وحَضْرٍ وفي عُرْبٍ وفي عَجَمِ

فلا اشتفى ناظِري من منظرٍ حَسنٍ … ولا تفوَّه بالقولِ السديدِ فمي

صلى عليك إِلهُ الكون ما سجعت ورقاءُ أو هتف القمريُّ بالنغمِ

صلاة صبٍّ مُحبٍّ مُغرَمٍ كلِفٍ يرجو شفاعةَ خيرِ الرُّسْلِ كلِّهِمِ





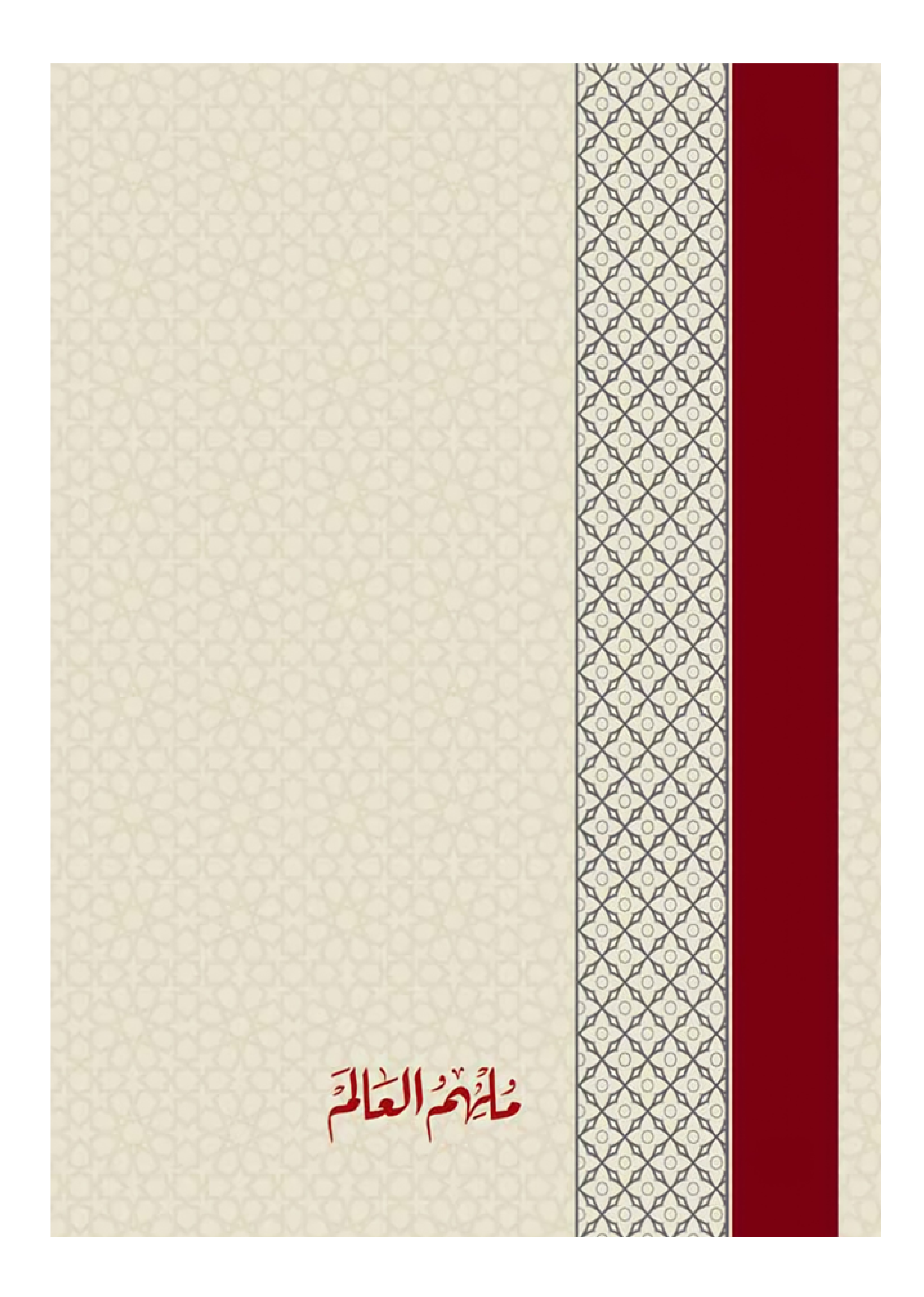
الخَاتِمَةِ

لقد كنت أدعو ربّي أن يُبارك في عُمري حتى أُتمّ هذا الكتاب (**مُلهم العالم**) الذي سكبت فيه روحي، وحُبّي، وحنيني، وشَوقي، ومشاعري لهذا الإمام العظيم، والنّبي الكريم ﷺ. ولقد زارنِي الموت مرّتين، مرّة يوم أُطلق عليّ الرّصاص في الفلبين، فنجوت بفضل الله وكرمه، ومرّة يوم أُصبت بفيروس (**كورونا**) ودخلت بسببه العناية المُركّزة، وفقدت وعيي أربعة أيام، فلمّا عُدت للحياة تذكّرت كتابي (**مُلْهِم العالم**)، فحمدت ربّي أن أتمّ عليّ نعمته، وأمدّ لي في العمر حتّى أكمل هذا الكتاب. وأسأل الله باسمه الأعظم الأجلّ الأكرم، الذي إذا سُئل به أعطى، وإذا دُعي به أجاب أن يتقبّل منّي هذا الكتاب، خالصًا لوجهه الكريم، وأن ينفعني به يوم العرض الأكبر، يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلّا من أتى الله بقلبٍ سليم {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الصافات: الآية 180 - 182].

سُبحانَكَ اللهمَّ وبحمدِك، أشهدُ أن لا إلَهَ إلّا أنتَ، أستغفِرُكَ وأتوبُ إليكَ، اللهمَّ صَلِّ على مُحَمَّدٍ وعلى آلِ مُحَمَّدٍ، كما صَلَّيْتَ على إبْراهِيمَ، وعلى آلِ إبْراهِيمَ، إنَّكَ حَمِيْد مَجِيْد. اللهمَّ بارِكْ على مُحَمَّدٍ وعلى آلِ مُحَمَّدٍ، كما بارَكْتَ على إبْراهِيمَ، وعلى آلِ إبْراهِيمَ إنَّكَ حَمِيْد مَجِيْد.

«رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ»

عائض بن عبدالله القرني


مُلهِم العالم